والنقوش، فكان الماء يطلع من فوارات، وينصب إلى أنهار قد صفحت بالفضة، تجرى إلى حدائق فيها بديع الفروشات، وقد أقيم حولها تماثيل تصفر بأنواع اللغات. وأرخت على المجلس ستوراً من ديباج، واختارت لأبنها من حسان بنات عمه وبنات الملوك وأزوجته، وحولته إلى هذه الجنة، وبنت حول الجنة مجالس للوزراء والكهنة وأشراف أهل الصناعات، فكانوا يرفعون إليه جميع ما يعملونه، فإذا فرغوا من أعمالهم، حمل إليهم الطعام والشراب.

وكان ميلاطس تقلد الملك بعد أبيه مرقوه وهو صبي، وكانت أمه مدبرة الملك - وهى حازمة مجربة - فأجرت الأمور على ما كانت عليه فى حياه أبيه، وأحسنت وعدلت فى الرعية، ووضعت عنهم بعض الخراج.

وكانت أيامه سعيدة كلها فى الخصب الكثير والسعة للناس والعدل. وكان له يوم يخرج فيه إلى الصيد، ويرجع إلى جنته فيأمر لكل من معه بالجوائز والأطعمة، ويجلس للنظر يوماً فى مصالح الناس وقضاء حوائجهم، ويخلو يوماً بنسائه.

وكان ملكه ثلاث عشرة سنة وجدر فمات.

وعمل فرسون بن قيلمون بن أتريب مناراً على بحر القلزم، وعلى رأسه مرآه تجتذب بها المراكب إلى شاطىء البحر، فلا يمكنها أن تبرح إلا أن تعشر، فإذا عشرت سترت المرآة حتى تجوز المراكب.

وأقام فرسون مائتى سنة وستين سنة، وعمل لنفسه ناووساً خلف الجبل الأسود الشرقي، فى وسطه قبة حولها أثنا عشر بيتاً، فى كل بيت أعجوبة لا تشبه الأخري، وزير عليها اسمه ومدة ملكه.

وكان مرقونس الملك حكيماً محباً للنجوم والعلوم والحكمة، فعمل فى أيامه درهماً إذا ابتاع به صاحبه شيئاً اشترط أن يزن له ما يبتاعه منه بوزن الدرهم، ولا يطلب عليه زيادة، فيغتر البائع بذلك، ويقبل الشرط، فإذا تم ذلك بينهما وقع فى وزن الدرهم أرطال كثيرة

تساوى عشرة أضعافه . وكان إذا أحب أن يدخل فى وزنه أضعاف تلك الأرطال دخل . وقد وجد هذا الدرهم فى كنوزهم ثم فى خزائن بنى أمية ، وكان الناس يتعجبون منه .

ووجدوا دراهم أخر قيل إنها عملت فى وقته أيضاً، فيكون الدرهم منها فى ميزان الرجل، فإذا أراد أن يبتاع حاجة أخذ ذلك الدرهم وقبله وقال : أذكر العهد، وابتاع به ما أراد. فإذا أخذ السلعة ومضى إلى بيته، وجد الدرهم قد سبقه إلى منزله، ويجد البائع موضع ذلك الدرهم ورقة آس أو قرطاساً أو مثل ذلك بدون الدرهم.

وفى وقته عملت الآنية الزجاج التى توزن، فإذا ملئت ماء أو غيره ثم وزنت لم تزد عن وزنها الأول شيئاً. وعمل فى وقته الآنية التى إذا جعل الماء فيها صار خمراً فى لونه ورائحته وفعله .

وقد وجد من هذه الآنية بأطفيح فى إمارة هارون بن خماروية بن أحمد بن طولون، شربة جزع بعروة زرقاء ببياض. وكان الذى وجدها أبو الحسن الصائغ الخراسانى هو ونفر معه، فأكلوا على شاطئ النيل وشربوا بها الماء فوجدوه خمراً سكروا منه، وقاموا ليرقصوا فوقعت الشربة فانكسرت عدة قطع، فاغتم الرجل وجاء بها إلى هارون فأسف عليها وقال : لو كانت صحيحة لاشتريتها ببعض ملكي .

وأما الآنية النحاسية التى تجعل الماء خمرا، فإنها منسوبة إلى قلوبطرة بنت بطليموس ملكة الإسكندرية، فكثير.

وفى وقته عملت الصور الحيثمية من الضفادع والخنافس والذباب والعقارب وسائر الحشرات، وكانت إذا جعلت فى موضع اجتمع إليها ذلك الجنس، ولا يقدر على مفارقة تلك الصورة حتى يقتل، وكأنه يعمل أعماله كلها بصور درج الفلك وأسمائها وطوالعها، فيتم له من ذلك ما يريده .

وعمل فى صحراء الغرب ملعباً من زجاج ملون فى وسطه قبة من زجاج أخضر صافى اللون، فإذا طلعت عليها الشمس ألقت شعاعها على مواضع بعيدة، وعمل فى جوانبه الأربعة أربعة مجالس عالية من زجاج، كل مجلس لون، ونقش عليها بغير لونها طلسمات عجيبة، ونقوشات غريبة وصوراً بديعة، كل ذلك من زجاج مطلق يشف .

وكان يقيم فى هذا الملعب الأيام. وعمل له ثلاثة أعياد فى كل سنة، فكان الناس يحجون إليه فى كل عيد، ويذبحون له ويقيمون فيه سبعة أيام.

ولم يزل هذا الملعب تقصده الأمم، فإنه لم يكن له نظير، ولا عمل فى العالم مثله، إلى أن هدمه بعض الملوك لعجزه عن عمل مثله.

وكانت أم مرقونس أبنه ملك النوبة، وكان أبوها يعبد الكوكب الذى يقال له السها ويسميه إلها، سألت ابنها أن يعمل لها هيكلاً يفردها به، فعمله وصفحه بالذهب والفضة، وأقام فيه صنماً، وأرخى عليه الستور الحرير، فكانت تدخل إليه بجواربها وحشمها، وتسجد له فى كل يوم ثلاث مرات، وعملت لكل شهر عيداً تقرب له قرابين وتبخره ليله ونهاره، ونصبت له كاهناً من النوبة يقوم به ويقرب له ويبخره، ولم تزل بابنها حتى سجد له ودعا إلى عبادته.

فلما رأى الكاهن الأمر فى عبادة الكواكب قد تم وأحكم من جهة الملك، أحب أن يكون لكوكب السها مثال فى الأرض على صورة حيوان يتعبد له، فأقام يعمل الحيلة فى ذلك، إلى أن أتفق أن العقبان كثرت بمصر وأضرت بالناس، فأحضر الملك هذا الكاهن وسأله عن سبب كثرتها، فقال: إن إلهك أرسلها لتعمل لها نظيراً ليسجد له.

فقال مرقونس: إن كان يرضيه ذلك فأنا فاعله.

فقال: إن ذلك رضاه.

فأمر بعمل عقاب طوله ذراعان فى عرض ذراع من ذهب مسبوك، وعمل عينيه من ياقوتتين، وعمل له وشاحين من لؤلؤ منظوم على أنابيت جوهر أخضر، وفى منقاره درة معلقة، وسروله بالدر الأحمر، وأقامه على قاعدة من فضة منقوشة، قد ركبت على قائمة زجاج أزرق، وجعله فى أزج عن يمين الهيكل، وألقى عليه ستور الحرير، وجعل له دخنه من جميع الأفاويه والصموغ، وقرب له عجلاً أسود وبكارة الفراريج وباكورة الفواكه والرياحين.

فلما تمت له سبعة أيام دعاهم إلى السجود إليه فأجابه الناس. ولم يزل الكاهن يجهد نفسه فى عبادة العقاب وعمل له عيداً.

فلما تم لذلك أربعون يوماً نطق الشيطان من جوفه، وكان أول ما دعاهم إليه أن يبحر له فى أنصاف الشهور بالمندل، ويرش الهيكل بالخمر العتيقة التى تؤخذ من رءوس الخوابي. وعرفهم أنه قد أزال عنهم العقبان وضررها، وكذلك يفعل فى غيرها مما يخافون.

فسر الكاهن بذلك وتوجه إلى أم الملك يعرفها ذلك، فسارت إلى الهيكل وسمعت كلام العقاب، فسرها ذلك وأعظمته. وبلغ الملك فركب إلى الهيكل حتى خاطبه وأمره ونهاه. فسجد له، وأقام له سدنة، وأمر أن يزين بأصناف الزينة وكان مرقونس يقوم بهذا الهيكل، ويسجد لتلك الصورة، ويسألها عما يريد فتخبره.

وعمل من الكيمياء مالم يعمله أحد من الملوك فيقال إنه دفن فى صحراء الغرب خمسمائة دفين.

ويقال إنه عمل على باب مدينة صا عمودا عليه صنم فى صورة امرأة جالسة وفى يدها مرآة تنظر إليها، وكان العليل يأتى إلى هذه المرآة وينظر فيها - أو ينظر له أحد فيها - فإن كان يموت من علته تلك رؤى ميتا، وإن كان يعيش رآه حياً، وينظر فيها أيضاً للمسافر فإن رأوه مقبلاً بوجهه علموا أنه راجع، وان رأوه مولياً علموا أنه يتمادى فى سفره، وإن كان مريضاً أو ميتاً رأوه كذلك فى المرآه.

وعمل بالأسكندرية صورة راهب جالس على قاعدة، وعلى رأسه كالبرنس وفى يده كالعكاز، فإذا مر به تاجر جعل بين يديه شيئاً من المال على قدر بضاعته، فإن تجاوزه ولو عن بعد من غير أن يضع بين يديه المال لم يقدر على الجواز وثبت قائماً مكانه، فكان يجتمع من ذلك مال عظيم يفرق فى الزمنى والضعفا والفقرا.

وعمل فى زمنة كل أعجوبة ظريفة، وأمر أن يزبر اسمه عليها وعلى كل علم وكل طلسم وكل صنم.

وعمل لنفسه ناووساً فى داخل الأرض، عند جبل يقال له بسدام. وعمل تحته أزجا يقال إن طوله مائة ذراع، وارتفاعه ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً، وصفحه بالمرمر والزجاج الملون، وسقفه بالحجارة، وعمل فيها دائرة مساطب مبلطة بزجاج على كل مسطبة

أعجوبة، وفى وسط الأزج دكة من زجاج، على كل ركن من أركانها صورة تمنع الدنو إليها، وبين كل صورتين منارة عليها حجر مضىء، وفى وسط الدكة حوض من ذهب فيه جسده بعد ما ضمد بالأدوية الماسكة، ونقل إليه ذخائره من الذهب والجوهر وغيره، وسد باب الأزج بالصخور والرصاص، وهيل عليها الرمال.

وكان ملكه ثلاثاً وسبعين سنة، وعمره مائتين وأربعين سنة، وكان جميلاً، ذا وفرة حسنة، فتنسكت نساؤه ولزمن الهيكل من بعده.

وملك بعده ابنه إيساد، ثم صا بن إيساد، وقيل صا بن مرقونس أخو إيساد، فعمل مرآة فى مدينة منف ترى الأوقات التى تخصب فيها مصر وتجدب، وبنى بداخل الواحات مدينة، ونصب قرب البحر أعلاماً كثيرة.

وعمل خلف المقطم صنماً يقال له صنم الحيلة، فكان كل من تعذر عليه أمر يأتيه ويبخره فيتيسر ذلك الأمر له. وجعل بحافة البحر الملح مناراً يعلم منه أمر البحر وما يحدث فيه، من أقصى ما يصل إليه البصر على مسيرة أيام، وهو أول من اتخذها. وقال إنه بنى أكثر مدينة منف، وكل بنيان عظيم بالإسكندرية.

ولما ملك بدارس بن صا الأحياز كلها بعد أبيه، وصفا له ملك مصر، بنى فى غربى مدينة منف بيتا عظيماً لكوكب الزهرة، وأقام فيه صنماً عظيماً من لازورد مذهب، وتوجه بذهب يلوح بزرقة، وسوره بسوارين من زبرجد أخضر.

وكان الصنم فى صورة امرأة لها ضفيرتان من ذهب أسود مدبر، وفى رجليها خلخالان من حجر أحمر شفاف، ونعلان من ذهب، وبيدها قضيب مرجان، وهى تشير بسبابتها كأنها مسلمة على من فى الهيكل.

وجعل بحذائها بمثال بقرة ذات قرنين وضرعين من نحاس أحمر مموه بذهب، موشحة بحجر اللازورد، ووجه البقرة تجاه وجه الزهرة، وبينهما مطهرة من أخلاط الأجساد، على عمود رخام مجزع، وفى المطهرة ماء مدبر يستشفى به من كل داء، وفرش الهيكل بحشيشة الزهرة يبدلونها فى كل سبعة أيام.

وجعل فى الهيكل كراسى للكهنة قد صفحت بالذهب والفضة، وقرب لهذا الصنم ألف رأس من الضأن والمعز والوحش والطير، وكان يحضر يوم الزهرة ويطوف به. وفرش الهيكل وستر، وجعل فيه تحت قبة صورة رجل راكب على فرس، له جناحان، ومعه حربة فى سنانها رأس انسان معلق.

ولم يزل هذا الهيكل إلى أن هدمه بخت نصر فى أيام ماليق بن تدارس، وكان موحدا على دين قبطيم ومصرايم، خرج فى جيش عظيم فى البر والبحر فغزا البربر وأرض أفريقية وبلاد الأندلس وأرض الإفرنج إلى البحر، وعمل فى البحر أعلاماً زبر عليها اسمه ومسيره، ورجع فهابه ملوك الأرض.

وكان فى غربى مصر مدينة يقال لها قرميدة بها قوم قد ملكوا عليهم امرأة ساحرة فغزاهم فلم ينل منهم قصداً ورجع، فأرادت ملكتهم إفساد مصر، فعملت من سحرها وأمرت فألقى فى النيل، ففاض الماء على المزارع حتى أفسدها، وكثرت التماسيح والضفادع، وفشت الأمراض فى الناس، وانبثت فيهم الثعابين والعقارب.

فأحضر ماليق الكهنة والحكماء فى دار حكمتهم، وألزمهم بالنظر لذلك. فنظروا فى نجومهم فرأوا أن هذه الآفة أتتهم من ناحية الغرب، وأن امرأة عملته وألقته فى النيل، فعلموا حينئذ أنه من فعل تلك الساحرة، واجتهدوا فى دفع ذلك بما عندهم من العلم حتى انكشف عنهم الماء الفاسد وهلكت الدواب المضرة.

وجهزوا قائدا فى جيش الى المدينة، فلم يجدوا بها غير رجل واحد، فأخذوا من الأموال والجواهر والأصنام مالا يحصي.

فمن ذلك صورة كاهن من زبرجد أخضر، على قائمة من حجر الأسباديم، وصورة روحانى من ذهب، رأسه من جوهر أحمر، وله جناحان من در، وفى يده مصحف فيه كثير من علومهم، فى دفتين مرصعتين بجوهر، ومطهرة من ياقوت أزرق، على قاعدة زجاج أخضر، فيها ماء لدفع الإسقام، وفرس من فضة، إذا عزم عليه بعزائمه ودخن بدخنته وركبه أحد طار به.

فأحضر ذلك وغيره من عجائب السحرة وأصنامهم، والأموال والجواهر إلى مصر، ومعهم الرجل، فسأله الملك عن أعجب أعمالهم، قال : قصدهم بعض ملوك البربر بجمع كثيف وتخاييل هائلة، فأغلق أهل مدينتنا حصنهم ولجأوا إلى الأصنام، فأتى الكاهن إلى بركة عظيمة بعيدة القعر كانوا يشربون منها فجلس على حافتها، وأحاط رؤساء الكهنة بها، وأخذ يزمزم على الماء حتى فار، وخرج من وسطه نار، فى وسطها وجه كدارة الشمس لها ضوء، فخر الجماعة لها سجوداً، وتلك الصورة تعظم حتى صعدت وخرقت القبة وسمع منها : قد كفيتم شر عدوكم.

فقاموا وإذا بعدوهم قد هلك وسائر من معه، وذلك أن صورة الشمس التى ظهرت من الماء مرت فصاحت عليهم صيحة هلكوا بها.

ولما ملك كلكن مصر بعد أبيه خريباً، كان النمرود فى وقته، فاتصل بنمرود خبر حكمته وسحره فاستزاره، ووجه إليه أن يلقاه، وكان النمرود يسكن سواد العراق، وغلب على كثير من الأمم.

فأقبل كلكن على أربعة أفراس تحمله، لها أجنحة، قد أحاطت به كالنار، وحوله صور هائلة، فدخل بها، وهو متوشح بثعبان، ومحزم ببعضه، وذلك التنين فاغر فاه، ومعه قضيب آس أخضر، كلما حرك التنين رأسه ضربه بالقضيب فلما رأى النمرود ذلك هاله، واعترف له بجليل الحكم.

وتقول القبط : إن كلكن كان يرتفع فيجلس على الهرم الغربى فى قبة تلوح على رأسه، وكان أهل البلد إذا دهمهم أمر اجتمعوا حول الهرم. ويقولون : إنه ربما قام على رأس الهرم أياماً لا يأكل ولا يشرب.

ثم أنه استتر مدة حتى توهموا أنه هلك، فطمع الملوك فى مصر، وقصدها ملك من المغرب يقال له سادوم فى جيش عظيم، إلى أن بلغ وادى هيبب. فأقبل كلكن وجللهم من سحره بشيء كالغمام شديد الحرارة، وهم تحته أياماً لا يدرون أين يتوجهون، ثم ارتفع وصار بمصر يعرفهم ما عمل، وأمرهم فخرجوا، فإذا بالقوم ودوابهم قد ماتوا. فهابه جميع

الكهنة، وصوروه فى سائر الهياكل. وبنى هيكلاً لزحل من صوان أسود فى ناحية الغرب، وجعل له عيداً.

وفى أيام دارم بن الريان، وهو الفرعون الرابع الذى يقال له عند القبط دريموش، ظهر معدن فضة على ثلاثة أيام من النيل، فأثاروا منه شيئاً عظيماً. وعمل صنماً على اسم القمر، لأن طالعه كان برج السرطان. ونصبه على القصر الرخام الذى بناه أبوه فى شرقى النيل، ونصب حوله أصناماً كلها من الفضة، وألبسها الحرير الأحمر، وعمل للصنم عيداً، كلما دخل برج السرطان.

ولما ولى إكسايس الملك بعد أبيه معدان بن معادبوس بن دارم بن دريوس، وهو الفرعون السادس، أقام أعلاماً كثيرة حول منف، وجعل عليها أساطين يمشى من بعضها إلى بعض، وعمل برقودة وصا ومدائن الصعيد وأسفل الأرض أعلاماً ومنائر للوقود وطلسمات كيرة، وعمل كودة من فضة، ونقش عليها صورة الكواكب، ودهنها بالدهن الصيني، وأقامها على منار فى وسط منف، وعمل فى هيكل أبيه روحانى زحل من ذهب أسود مدبر.

وعمل فى وقته ميزاناً يعتبر به الناس، كفتاه من ذهب، وعلاقته من فضه، وسلاسله من ذهب، فكان معلقاً فى هيكل الشمس، وكتب على إحدى كفتيه حق، والأخرى باطل، وتحته فصوص قد نقش عليها أسماء الكواكب، فيدخل الظالم والمظلوم يأخذ كل منهما فصاً من تلك الفصوص، ويسمى عليه ما يريده، ويجعل أحد الفصين فى كفة، والآخر فى كفة، فتثقل كفة الظالم، وترتفع كفة المظلوم.

ومن أراد سفراً أخذ فصين، وذكر على أحدهما اسم السفر، وعلى الآخر الإقامة، وجعل كل واحد فى كفة، فإن ثقلاً جميعاً ولم يرتفع أحدهما على الآخر لم يسافر، وإن ارتفعا سافر، وان ارتفع أحدهما أخر السفر ثم سافر. وكذا من عليه دين، ومن له غائب، أو ينظر فى صلاح أمره وفساده.

ويقال إن بخت نصر لما دخل إلى مصر حمل هذا الميزان معه فيما حمل إلى بابل، وجعله فى بيت من بيوت النار.

وعمل فى أيامه تنوراً أيضاً، يشوى فيه من غير نار، ويطبخ فيه بغير نار، وسكيناً تنصب فإذا رآها شئ من البهائم أقبل حتى يذبح نفسه بها، وعمل ماء يستحيل ناراً، وزجاجاً يستحيل هواء، وشيئاً من النيرنجيات والنواميس.

وأما البرابى فذكر أبن وصيف شاه أن سوريد الذى بنى الأهرام هو الذى بنى البرابى كلها، وعمل فيها الكنوز، وزبر عليها علوماً، ووكل بها روحانية تحفظها ممن يقصدها.

وقال فى كتاب «الفهرست»(٢١١) : وبمصر أبنية يقال لها البرابى من الحجارة العظيمة الكبيرة، وهى على أشكال مختلفة، وفيها مواضع الصحن والسحق والحل والعقد والتقطير تدل على أنها عملت لصناعة الكيمياء، وفى هذه الأبنية نقوش وكتابات لا يدرى ما هي، وقد أصيبت تحت الأرض فيها هذه العلوم مكتوبة فى التوز، وهى صفائح الذهب والنحاس، وفى الحجارة.

وذكر الحسن بن أحمد الهمدانى أن برابى مصر تنسب إلى براب بن الدرمسيل بن نحويل ابن خنوخ بن قار بن آدم عليه السلام.

وذكر أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» أن كنيسة في بعض قرى مصر قد شاهدها الموثوق بقولهم، المأخوذ برأيهم، المأمون من جهتهم الرواية عنهم، فيها سرداب ينزل إليه بنيف وعشرين مرقاة، وفيه سرير تحته رجل وصبى مشدودين فى نطع، وفوقه ثور رخام فى جوفه باطية زجاج، بداخلها قنينة من نحاس، فى جوفها فتيلة كتان، توقد فيصب فيها زيت، فلا يلبث إلا أن تمتلئ الباطية الزجاج زيتا، وتفيض إلى الثور الرخام، فينفق على تلك الكنيسة وقناديلها.

وذكر الجهانى أنه صار إليه من وثق به، ورفع الباطية عن الثور، وأفرغ الزيت من الباطية والثور جميعاً، وأطفأ النار، وأعادها جميعاً إلا الزيت، فأنه صب زيتاً من عنده، وأبدله فتيلة أخرى وأشعلها، فما لبث الزيت أن فاض إلى الباطية الزجاج، ثم فاض إلى الثور الرخام من غير مدد ولا عنصر.

---

(٢١١) لأبن النديم هو محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق أبو الفرج بن أبى يعقوب النديم، مات سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٤٧م.
أنظر : لسان الميزان ٥/ ٧٢، إرشاد الأريب ٦/ ٤٠٨.

وذكر الجهانى أنه إذا أخرج الميت من تحت السرير، أنطفأت النار ولم يفض الزيت .

وذكر عن أهل القرية أن المرأة المتوهمة فى نفسها حملاً، تحمل ذلك الصبى وتضعه فى حجرها، فيتحرك ولدها فى البطن إن كان الحمل حقيقة، أو تيأس إن لم تحس بحركة .

قال المؤلف رحمه الله : أخبرنى داود بن رزق الله بن عبد الله ، وكانت له سياحات كثيرة بأراضى مصر ومعرفة أحوالها، أنه عبر فى مغارة كبيرة يقال لها مغارة شقلقيل بالوجه القبلي، فأذا فيها كوم عظيم من سندورس، وأنه تخطاه ومضي، فإذا شيء كثير إلى الغاية من السمك وجميعها ملفوفة بثياب كأنها قد كفنت بعد الموت . وأنه أخذ منها سمكة وفتشها فإذا فى فمها دينار عليه كتابة لا يحسن قراءتها، وأنه صار يأخذها سمكة سمكة ويخرج من فم كل واحدة ديناراً، حتى اجتمع له من ذلك عدة دنانير، وأنه أخذ تلك الدنانير ورجع ليخرج حتى جاء إلى الكوم السندروس وإذا به ارتفع حتى سد عليه الموضع . فعاد إلى السمك وأعاد الدنانير إلى مواضعها وخرج، فإذا السندروس كما كان أولاً بحيث يتجاوز ويخرج .

فعاد وأخذ الدنانير ومشى يخرج بها، فإذا السندروس قد ارتفع حتى سد عليه الموضع. فعاد إلى السمك وأعاد الدنانير إلى مواضعها وخرج، فإذا السندروس على حاله كما كان أولاً بحيث يتجاوزه ويخرج . وأنه كرر أخذ الدنانير وإعادتها مراراً، والحال على ما ذكر، حتى خشى الهلاك فتركها وخرج .

فلما كان مدة سكن موضعها فرأى حجراً فى جدار وقد قور، ووضع حجر آخر، فحاول الحجر الآخر حتى رفعه، فـأذا تحته ستة دنانير من تلك الدنانير التى وجدها فى أفواه السمك، فأخذ منها واحداً وترك البقية فى موضعها، وأعاد الحجر على الحجر .

وقدر الله بعد ذلك أنه ركب النيل ليعدى من البر الشرقى إلى البر الغربي .

قال : فلما توسط البحر، وإذا بالأسماك تثب من الماء وتلقى أنفسها فى المركب حتى كدنا نغرق من كثرتها، فصاح الركاب خوفاً من الهلاك .

قال : فتذكرت الدينار الذى معي، وأن هذا ربما كان بسببه، فأخرجته من جيبى وألقيته فى الماء، فتواثبت الأسماك من المركب وألقت نفسها فى الماء حتى لم يبق منها شيء .

قلت : وأخبرني قديماً بعض من لا أتهمة أنه ظفر بطلسم من هذا المعني، وأنه عنده، وأراد أن يريني السمك يثب من الماء فلم يقدر لي أن أرى ذلك.

قال ابن عبدالحكم : لما أغرق الله آل فرعون، بقيت مصر بعد غرقهم ليس فيها من أشراف أهلها أحد، ولم يبق بها إلا العبيد والأجراء والنساء. فاتفق من بمصر من النساء أن يولين منهم أحداً، وأجمع رأيهن أن يولين أمرأة منهن يقال لها دلوكة بنت زبا، وكان لها عقل ومعرفة وتجارب، وكانت في شرف منهن وموضع، وهي يومئذ بنت مائة وستين سنة، فملكوها.

فخافت أن يتناولها الملوك، فجمعت نساء الأشراف وقالت لهن : إن بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد، ولا يمد عينه إليه، وقد هلك أكابرنا وأشرافنا، وذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم. وقد رأيت أن أبني حصناً أحدق به جميع بلادنا، فأضع عليه المحارس من كل ناحية، فإنا لا نأمن أن يطمع فينا الناس.

فبنت جداراً أحاطت به على جميع أرض مصر كلها : المزارع، والمدائن، والقري. وجعلت دونه خليجاً يجري فيه الماء، وأقامت القناطر والترع. وجعلت فيه محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة، وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل، وجعلت في كل محرس رجالاً، وأجرت عليهم الأرزاق، وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس، فإذا أتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم إلى بعض الأجراس فأتاهم الخبر من أي وجه كان في ساعة واحدة فنظروا في ذلك. . . فمنعت بذلك مصر ممن أرادها.

وفرغت من بنائه في ستة أشهر. وهو الجدار الذي يقال له جدار العجوز بمصر، وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة.

قال المسعودي : وقيل إنما بنته خوفاً على ولدها، وكان كثير القنص، فخافت عليه سباع البر والبحر واغتيال من جاور أرضهم من الملوك والبوادي، فحوطت الحائط من التماسيح وغيرها. وقد قيل غير ما وصفنا. . . فملكتهم ثلاثين سنة في قول.

قال المؤلف رحمه الله : قد بقي من حائط العجوز هذا في بلاد الصعيد بقايا، أخبرني الشيخ المعمر محمد بن المسعودي أنه سار في بلاد الصعيد على حائط العجوز ومعه رفقة،

فاقتلع أحدهم منها لبنة، فإذا هي كبيرة جداً تخالف المعهود الآن من اللبن في المقدار. فتناولها القوم واحداً بعد واحد يتأملونها، وبينما هم في رؤيتها إذ سقطت إلى الأرض، فانفلقت عن حبة فول في غاية الكبر الذي يتعجب منه لعدم مثله في زماننا، فقشروا ما عليها فوجدوها سالمة من السوس والعيب، كأنها قريبة عهد بحصادها، لم يتغير فيها شئ ألبته. فأكلها الجماعة قطعة قطعة، وكأنها إنما خبئت لهم من الزمن القديم والأعصر الخالية... أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها.

وقال ابن عبدالحكم: وكان ثم عجوز ساحرة يقال لها بدور، وكانت السحرة تعظمها وتقدمها في علمهم وسحرهم. فبعثت إليها دلوكة ابنة زبا: أنا قد احتجنا إلى سحرك، وفزعنا إليك، ولا نأمن أن يطمع فينا الملوك، فاعملي لنا شيئاً نغلب به من حولنا، فقد كان فرعون يحتاج إليك، فكيف وقد ذهب أكابرنا (يعني في الغرق مع فرعون موسى)، وبقي أقلنا.

فعملت بربا من حجارة في وسط مدينة منف وجعلت لها أربعة أبواب، كل باب إلى جهة القبلة والبحر والغرب والشرق، وصورت فيه صور الخيل والبغال والحمير والسفن والرجال، وقالت لهم: قد عملت لكم عملاً يهلك به كل من أرادكم من كل جهة تؤتون منها براً أو بحراً، وهذا يغنيكم عن الحصن، ويقطع عنكم مؤنة من أتاكم من كل جهة، فإنهم إن كانوا في البر على خيل أو بغال أو إبل أو في سفن أو رجالة تحركت هذه الصورة من جهتهم التي يأتون منها، فما فعلتم بالصورة من شئ أصابهم ذلك في أنفسهم على ما تفعلون بهم.

فلما بلغ الملوك حولهم أن أمرهم قد صار إلى ولاية النساء، طمعوا فيهم، وتوجهوا إليهم، فلما دنوا من عمل مصر، تحركت تلك الصور التي في البربا، فطفقوا لا يهيجون تلك الصور بشئ ولا يفعلوان بها شيئاً، إلا أصاب ذلك الجيش الذي كان أقبل إليهم مثله: إن كان خيلاً، فما فعلوا بتلك الخيل المصورة في البربا من قطع رؤسها أو سوقها أو فقء عيونها أو بقر بطونها، أثر مثل ذلك بالخيل التي أرادتهم، وإن كانت سفناً أو رجالة فمثل ذلك. وكانوا أعلم الناس بالسحر وأقواهم عليه، وانتشر ذلك فتبادرهم الناس.

وكان نساء أهل مصر - حين غرق فرعون وقومه، ولم يبق إلا العبيد والأجراء - لم يصبرن عن الرجال، فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوجه، وتتزوج الأخرى أجيرها. وشرطن على الرجال ألا يفعلوا شيئاً إلا بأذنهن، فأجابوهن فى ذلك، فكان أمر النساء على الرجال.

قال يزيد بن أبى حبيب : إن نساء القبط على ذلك إلى اليوم اتباعاً لمن مضى منهن، لا يبيع أحد منهم ولا يشترى إلا قال : أستأمر امرأتي!!

فملكتهم دلوكة بنت زبا عشرين سنة تدبر أمرهم بمصر، حتى بلغ صبى من أبناء أكابرهم وأشرافهم، يقال له دركون بن بلوطس، فملكوه عليهم.

فلم تزل مصر ممتنعة بتدبير تلك العجوز نحو من أربعمائة سنة، وكلما أنهدم من ذلك البربا الذى صور فيه الصور، لم يقدر أحد على إصلاحة إلا تلك العجوز وولدها وولد ولدها، وكانوا أهل بيت لايعرف ذلك غيرهم. فانقطع أهل ذلك البيت، وانهدم من البربا موضع فى زمان لقاس بن مرنيوس، فلم يقدر أحد على إصلاحة ومعرفة علمه، وبقى على حاله، وانقطع ما كان يقهرون به الناس، وبقوا كغيرهم. إلا أن الجمع كثير، والمال عندهم.

فلما قدم بخت نصر بيت المقدس، وظهر على بنى إسرائيل وسباهم، وخرج بهم إلى أرض بابل، قصد مصر، وخرب مدائنها وقراها، وسبى جميع أهلها، ولم يترك بها شيئاً، حتى بقيت مصر أربعين سنة خراباً ليس فيها ساكن، يجرى نيلها ويذهب لا ينتفع به. ثم رد أهل مصر إليها بعد أربعين سنة، فعمروها، ولم تزل مقهورة من يومئذ.

وقال بعض الحكماء : رأيت البرابى وأخذت أتأملها، فوجدتها مستحكمة على جميع أشكال الفلك. والذى ظهر لى أنه لم يعملها حكيم واحد، بل تولى عملها قوم بعد قوم، حتى تكاملت فى دور كامل، وهو ستة وثلاثون ألف سنة شمسية، لأن مثل هذه الأعمال لا تعمل إلا بالأرصاد، ولا يتكامل رصد المجموع فى أقل من هذه المدة المذكورة.

وكانوا يجعلون الكتاب حفراً ونقراً فى الصخور، ونقشاً فى الحجارة، وحلقة مركبة فى البنيان. وربما كان الكتاب هو الحفر أذا كان متضمناً لأمر جسيم، أو عهداً لأمر عظيم، أو موعظة يرتجى نفعها، أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره.

وقد كتب غير المصريين كذلك كما كتبوا على قبة غمدان، وعلى باب القيروان، وعلى باب سمرقند، وعلى عمود مأرب، وعلى ركن المستقر، وعلى الأبلق المفرد، وعلى باب الرها(٢١٢). وكانوا يعمدون إلى الأماكن الشريفة والمواضع المذكورة، فيضعون الخط فى أبعد المواضع من الدثور، وأمنعها من الدروس، وأجدر أن يراها من مر بها، ولا ينسى على طول الدهر.

وقال المسعودى : واتخذت دلوكة بمصر البرابى والصور، وأحكمت آلات السحر، وجعلت فى البرابى صور من يرد من كل ناحية ودوابهم إبلا كانت أو خيلا، وصورت فيها من يرد من البحر فى المراكب من بحر الغرب والشام، وجمعت فى هذه البرابى العظيمة المشيدة البنيان أسرار الطبيعة، وخواص الأحجار والنباتات والحيوانات، وجعلت ذلك فى أوقات فلكية، واتصالها بالمؤثرات العلوية.

وكانوا إذا ورد إليهم جيش من نحو الحجاز واليمن، عورت تلك الصور التى فى البربا من الإبل وغيرها، فيتغور ما فى ذلك الجيش، وينقطع عنهم ناسه وحيوانه. وإذا كان الجيش من نحو الشام، فعل فى تلك الصور التى من تلك الجهة التى أقبل منها جيش الشام ما فعل بما وصفنا، فيحدث فى ذلك الجيش من الآفات فى ناسه وحيوانه ما صنع فى تلك الصور التى من تلك الجهة، وكذلك من ورد من جيوش الغرب، ومن ورد فى البحر من رومية والشام، وغير ذلك من الممالك.

فهابهم الملوك والأمم، ومنعوا ناحيتهم من عدوهم، واتصل ملكهم بتدبير هذه العجوز وإتقانها لزم أقطار المملكة وأحكامها السياسية.

وقد تكلم من سلف وخلف فى هذه الخواص، وأسرار الطبيعة التى كانت ببلاد مصر. وهذا الخبر من فعل العجوز مستفيض لايشكون فيه.

والبرابى بمصر، من صعيدها وغيره، باقية إلى هذا الوقت، وفيها أنواع الصور مما إذا صورت فى بعض الأشياء أحدثت أفعالاً على حسب ما رسمت له وصنعت من أجله، على حسب قولهم فى الطبائع، و الله أعلم بكيفية ذلك.

---

(٢١٢) بضم أوله والمد والقصر مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ سميت باسم الذى استحدثها وهو الرهاء بن البلندى بن مالك بن دعر.
أنظر : معجم البلدان ٤/ ٣٤٠-٣٤١.

قال : وأخبرنى غير واحد من بلاد اخميم من صعيد مصر، عن أبى الفيض ذى النون من صعيد مصر، عن أبى الفيض ذى النون ابن إبراهيم المصرى الإخميمى الزاهد[٢١٣] - وكان حكيماً، وكانت له طريقة يأتيها ونحلة يقصدها، وكان ممن يقر على أخبار هذه البرابي، وامتحن كثيراً مما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور - قال : رأيت فى بعض البرابى كتاباً تدبرته، فأذا هو : أحذر العبيد المعتقين، والأحداث والجند المتعبدين، والنبط المستعربين. ورأيت فى بعضها كتاباً تدبرته، فإذا فيه : يقدر المقدر والقضاء يضحك، وفى آخره كتابة تثبتها فى ذلك العلم فوجدتها :

تدبر بالنجوم ولست تدري

ورب النجم يفعل ما يريد

قال : وكانت هذه الأمة والتى اتخذت هى البرابي، لهجة بالنظر فى أحكام النجوم، من المواظبين على معرفة أسرار الطبيعة. وكان عندها مما دلت عليه أحكام النجوم أن طوفانا سيكون فى الأرض، ولم يقطع على ذلك الطوفان ما هو : أنار تأتى على الأرض فتحرق ما عليها؟، أو ماء يغرقها، أو سيف يبيد أهلها؟.

فخافت دثور العلوم وفناءها بفناء أهلها، فاتخذت هذه البرابي، ورسمت فيها علومها من الصور والتماثيل والكتابة، وجعلت بنيانها نوعين : طينا، وحجارة، وفرزت ما بنى بالطين مما بنى بالحجارة، وقالت : إن كان هذا الطوفان ناراً استحجر ما بنى بالطين، وإن كان الطوفان الوارد ماء أذهب ما بنينا بالطين ويبقى ما بنى بالحجارة، وإن كان الطوفان سيفاً بقى كل من النوعين، مما هو من الطين، وما هو من الحجر.

وهذا ما قيل - والله أعلم - أنه كان قبل الطوفان، وأن الطوفان الذى كانوا يرقبونه، ولم يعينوه. أنار هو أم ماء أم سيف، كان سيفاً أتى على جميع أهل مصر من أمة غشيتها، وملك نزل عليها فأباد أهلها.

---

(٢١٣) هو ذو النون بن محمد بن ذى النون المصرى الإخميمى بلداً، الشافعى مذهباً. العلوى نسباً. الملقب رشيد الدين فاضل من الولاة الوزراء. قدم اليمن مع الملك المسعود «الأيوبي» وولى عدن مراراً فحسنت سيرته، وولى الوزارة للمنصور الرسولي، وأنشأ المدرسة الرشيدية بتعز، وجدد مسجداً عندها ووقف عليهما أوقافاً ولم يزل مرضى السيرة إلى أن توفى بتعز سنة ٦٦٣م/١٢٦٥م.

ومنهم من رأى أن ذلك الطوفان كان وباءً عم أهلها. ومصداق ذلك ما يوجد ببلاد تنيس من التلال المتقذرة من الناس، من صغير وكبير وذكر وأنثي، كالجبال العظام، وهى المعروفة ببلاد تنيس من أرض مصر بذات الكوم، وما يوجد ببلاد مصر وصعيدها من الناس المنكسين بعضهم على بعض فى الكهوف والغيران والنواويس، ومواضع كثيرة من الأرض، لايدرى من أى الأمم هم، فلا النصارى تخبر عنهم أنهم من أسلافهم، ولا اليهود تقول إنهم من أوائلهم، ولا المسلمون يدرون من هؤلاء، ولا تاريخ ينبئ عن حالهم، وعليهم أثوابهم، وكثيراً ما يوجد فى تلك البرابى والجبال من حليتهم.

والبرابى ببلاد مصر بنيان قائم عجيب كالبربا التى بأخميم، والتى بسمنود وغير ذلك.

ذكر الدفائن والكنوز
التى تسميها أهل مصر المطالب

الأصل فى جواز تتبع الدفائن ما رواه أبو عمرو بن عبدالبر(٢١٤) والبيهقي(٢١٥) فى الدلائل من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ لما انصرف من الطائف، مر بقبر أبى رغال(٢١٦) فقال: «هذا قبر أبى رغال، وهو أبو ثقيف، كان إذا هلك قوم صاح فى الحرم

---

(٢١٤) هو أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر بن عاصم النمرى القرطبى ولد سنة ٣٦٨هـ ومات سنة ٤٦٣هـ لم يكن بالأندلس مثله في الحديث.
أنظر: بغية الملتمس ٤٧٤، تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٢٨، جذوة المقتبس ٣٤٤، الديباج المذهب ٣٧٥، الرسالة المستطرفة ١٥، شذرات الذهب ٣/ ٣١٤، الصلة ٢/ ٦٧٧، العبر ٣/ ٢٥٥، وفيات الأعيان ٢/ ٣٤٨.

(٢١٥) هو الإمام الحافظ شيخ خراسان أبو بكر أحمد بن الحسين بن على بن موسى الحسر وجردى صاحب التصانيف ولد سنة ٣٨٤هـ ومات سنة ٤٥٨هـ له السن الكبرى والصغرى ودلائل النبوة والبعث والآداب وغيرهم.
أنظر: الأنساب ١٠١ أ، البداية والنهاية ١٢/ ٩٤، تبيين كذب المفترى ٢٦٥، تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٣٢، شذرات الذهب ٣/ ٣٠٤، طبقات السبكي ٤/ ٨، طبقات ابن هداية الله ١٥٩، العبر ٣/ ٢٤٢، اللباب ١/ ١٦٥، معجم البلدان ١/ ٨٠٤، المنتظم ٨/ ٢٤٢، النجوم الزاهرة ٥/ ٧٧، وفيات الأعيان ١/ ٢٠.

(٢١٦) هو قسى بن منبه بن النبيت بن يقدم من بنى إياد أبو رغال صاحب القبر الذى يرجم إلى اليوم بين مكة والطائف وهو جاهلي، مات سنة ٥٠ق.م/ ٥٧٥م.
أنظر: مروج الذهب ١/ ٢١٧، الأغانى ٤/ ٣٠٣، نزهة الجليس ٢/ ٢٤٨، ثمار القلوب ١٠٦.

فمنعه الله، فلما خرج من الحرم رماه بقارعة، وآية ذلك أنه دفن معه عمود من ذهب»(٢١٧)، فابتدر المسلمون قبره فنبشوه واستخرجوا العمود منه.

ومن حديث عبدالله بن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول، حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر، فقال: «هذا قبر أبي رغال، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه، وآيه ذلك أنه دفن معه عصا من ذهب، أن نبشتم عليه أصبتموه معه»(٢١٨)، فابتدره الناس فأخرجوا العصا الذى كانت معه.

وبمصر كنوز يوسف عليه السلام، وكنوز الملوك من قبله والملوك من بعده، لأنه كان يكنز ما يفضل عن النفقات والمؤن لنوائب الدهر، وهو قول الله عز وجل **﴿فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز﴾**(٢١٩).

ويقال إن علم الكنوز فى كنيسة القسطنطينية نقلت إليها من طليطلة.

ويقال إن الروم لما خرجت من الشام ومصر، اكتنزت كثيراً من أموالها فى مواضع أعدتها لذلك، وكتبت كتباً بأعلام مواضعها، وطرق الوصول إليها، وأودعت هذه الكتاب قسطنطينية، ومنها يستفاد معرفة ذلك.

وقيل إن الروم لم تكتب، وأنما ظفرت بكتب معالم كنوز من ملك قبلها من اليونانيين والكلدانيين والقبط. فلما خرجوا من مصر والشام، حملوا تلك الكتب معهم وجعلوها فى الكنيسة.

وقيل إنه لا يعطى من ذلك أحد حتى يخدم الكنيسة مدة، فيدفع إليه ورقة تكون حظه.

قال المسعودى: ولمصر أخبار عجيبة من الدفائن والبنيان، وما يوجد فى الدفائن من ذخائر الملوك التى استودعوها الأرض، وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض، وتدعى بالمطالب إلى هذه الغاية. وقد أتينا على جميع ذلك فيما سلف من كتبنا.

---

(٢١٧) ورد فى مفتاح كنوز السنة.
(٢١٨) ورد فى مفتاح كنوز السنة.
(٢١٩) ٥٧، ٥٨ ك الشعراء ٢٦.

فمن أخبارها ما ذكره يحيي بن بكير(٢٢٠) قال : كان عبدالعزيز بن مروان عاملاً على مصر لأخيه عبدالملك بن مروان، فأتاه رجل متنصح فسأله عن نصحه فقال : بالقبة الفلانية كنز عظيم.

قال عبدالعزيز : وما مصداق ذلك ؟

قال : هو أن يظهر لنا بلاط من المرمر والرخام عند يسير من الحفر، ثم ينتهي بنا الحفر إلى باب من الصفر، تحته عمود من الذهب، على أعلاه ديك عيناه ياقوتتان تساويان ملك الدنيا وجناحاه مضرحان بالياقوت والزمرد، ورأسه على صفائح من الذهب على أعلى ذلك العمود.

فأمر له عبدالعزيز بنفقة لأجرة من يحفر من الرجال فى ذلك ويعمل فيه.

وكان هناك تل عظيم، فاحتفروا حفيرة عظيمة فى الأرض، والدلائل المتقدم ذكرها من الرخام والمرمر تظهر. فازداد عبدالعزيز حرصاً على ذلك، وأوسع فى النفقة، وأكثر من الرجالة.

ثم انتهوا فى حفرهم إلى ظهور رأس الديك، فبرق عند ظهوره لمعان عظيم لما فى عينيه من الياقوت، ثم بان جناحاه، ثم بانت قوائمه، وظهر حول العمود عمود من البنيان بأنواع الحجارة والرخام، وقناطر مقنطرة وطاقات على أبواب معقودة، ولاحت منها تماثيل وصور أشخاص من أنواع الصور الذهب، وأجرنه من الأحجار قد أطبق عليها أغطيتها وسبكت.

فركب عبدالعزيز بن مروان حتى أشرف على الموضع، فنظر إلى ما ظهر من ذلك، فأسرع بعضهم ووضع قدمه على درجة من نحاس ينتهى إلى ما هناك. فلما استقرت قدماه على المرقاة ظهر سيفان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها، فالتقيا على الرجل فلم يدرك حتى جزآه قطعاً وهوى جسمه سفلاً.

---

(٢٢٠) هو يحيي بن أبى بكير واسمه نسر الأسدى القيسى أبو زكرياء الكرماني. كوفى الأصل، سكن بغداد، روى عن حريز بن عثمان وإبراهيم بن طهمان وإبراهيم بن نافع المكى وغيرهم مات سنة٢٠٨هـ وقيل سنة ٢٠٩هـ.
أنظر : تهذيب التهذيب ١١/ ١٩٠.

فلما استقر جسمه على بعد الدرج، اهتز العمود، وصفر الديك صفيراً عجيباً أسمع من كان بالبعد من هناك، وحرك جناحيه وظهرت من تحته أصوات عجيبة قد عملت بالكواكب والحركات، إذا مال وقع على بعض تلك الدرج شئ أو ماسها شئ انقلبت، فتهاوى من هناك من الرجال الى اسفل تلك الحفرة، وكان فيها - ممن يحفر ويعمل وينقل التراب وينظر ويحول ويأمر وينهى نحو ألف رجل، فهلكوا جميعاً.

فخرج عبدالعزيز وقال : هذا ردم عجيب الأمر ممنوع النيل، نعوذ بالله منه وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هناك من التراب على من هلك من الناس، فكان الموضع قبراً لهم.

* قال المسعودى : وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب، ومن قد اعتنى وأغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر، قد وقع إليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة، فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام، بأن فيه مطلباً عجيباً. فأخبروا الإخشيد محمد بن طغج بذلك، فأمرهم بحفره، وأباحهم استعمال الحيلة فى إخراجه.

فحفروا حفراً عظيماً إلى أن انتهوا إلى أزج وأقباء وحجارة مجوفة فى صخره، منقور فيها تماثيل قائمة على أرجلها من الخشب، قد طليت بالأطلية المانعة من سرعة البلاء وتفرق الأجزاء، والصور مختلفة. فيها صور شيوخ وشبان ونساء وأطفال، أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والزبرجد والفيروز، ومنها ما وجوهها ذهب وفضة.

فكسر بعض تلك التماثيل. فوجدوا فى أجوافها رمما باليه وأجساماً فانية، وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الأبنية - كالبرابى وغيرها - من المرمر والرخام، وفيه من الطلاء الذى قد طلى منه ذلك الميت الموضوع فى التماثيل الخشب، والطلاء دواء مسحوق وأخلاط معمولة لا رائحة لها، فجعل منه على النار شئ، ففتاح منه ريح طيبة مختلفة لا نعرف فى نوع من أنواع الطيب.

وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير أعمارهم وتباين صورهم، وبإزاء كل تمثال تمثال من الحجر المرمر أو من الرخام الأخضر، على هيئة الصنم - على حسب عبادتهم للتماثيل والصور - عليها أنواع من الكتابات

لم يقف أحد على استخراجها من أهل الملل. وزعم قوم من أهل الدراية أن لذلك القلم، منذ فقد من أرض مصر، أربعة آلاف سنة.

وفيما ذكرناه دلالة على أن هؤلاء ليسوا يهودا ولا نصاري. ولم يؤدهم الحفر إلا لما ذكرناه من هذه التماثيل. وكان ذلك فى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

وقد كان من سلف وخلف من ولاة مصر، من أحمد بن طولون وغيره، إلى هذا الوقت (وهو سنة ثنتين وثلاثين وثلاثمائة) لهم أخبار عجيبة فيما استخرج فى أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر، وما أصيب فى هذه المطالب من القبور، وقد أتينا على ذكرها فيما تقدم من تصنيفنا.

وركب أحمد بن طولون يوماً إلى الأهرام، فأتاه الحجاب بقوم عليهم ثياب صوف، ومعهم المساحى والمعاول، فسألهم عما يعملون، فقالوا: نحن قوم نطلب المطالب.

فقال لهم: لا تخرجوا بعدها إلا بمشورتى أو رجل من قبلي.

وأخبروه أن فى سمت الأهرام مطلباً قد عجزوا عنه، فضم إليهم الرافقي، وتقدم إلى عامل الجيزة فى أعانتهم بالرجال والنفقات، وانصرف.

فأقاموا مدة يعملون حتى ظهر لهم.

فركب أحمد بن طولون إليهم وهم يحفرون، فكشفوا عن حوض مملوء دنانير، وعليه غطاء مكتوب عليه بالبربطية، فأحضر من قرأه فإذا فيه: «أنا فلان بن فلان، الملك الذى ميز الذهب من غشه ودنسه، فمن أراد أن يعلم فضل ملكى على ملكه، فلينظر إلى فضل عيار دينارى على عيار ديناره، فإن مخلص الذهب من الغش مخلص فى حياته وبعد وفاته».

فقال أحمد بن طولون: الحمد لله، إن ما نبهتنى عليه هذه الكتابة أحب إلى من المال.

ثم أمر لكل من القوم المطالبية بمائتى دينار منه، ولكل من الصناع بخمسة دنانر بعد توفية أجرة عمله، وللرافقى بثلاثمائة دينار، ولنسيم الخادم بألف دينار، وحمل باقى الدنانر فوجدها أجود من كل عيار. وشدد من حينئذ فى العيار بمصر حتى صار عيار ديناره، الذى عرف بالأحمدي، أجود عيار وكان لا يطلى إلا به.

ذكر هلاك أموال أهل مصر

قال الله عز وجل : «وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا عن سبيلك، ربنا اطمس على أموالهم، واشدد على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال قد أجيبت دعوتكما...»(٢٢١) .

هذا دعاء من موسى عليه السلام على فرعون وقومه من أهل مصر لكفرهم، أن يهلك الله أموالهم .

قال الزجاج(٢٢٢) : طمس الشيء اذهابه عن صورته .

عن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما ، وعن محمد بن كعب القرظي(٢٢٣) ، أنهما قالا : سارت أموال أهل مصر ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها ، صحاحاً وأثلاثاً وأنصافا ، فلم يبق معدن إلا طمس الله عليه ، فلم ينتفع به أحد بعدهم .

وقال قتادة : بلغنا أن أموالهم وزروعهم صارت حجارة .

وقال مجاهد وعطية : أهلكها الله تعالى حتى لاترى، يقال : عين مطموسة أى ذاهبة، وطمس الموضع إذا عفا ودرس .

---

(٢٢١) ٨٨ و ، ٨٩ ك يونس ١٠ .

(٢٢٢) هو إبراهيم بن السرى بن سهل أبو إسحاق الزجاج عالم بالنحو ، اللغة . ولد ٢٤١هـ/ ٨٥٥م ومات ٣١١هـ/ ٩٢٣م ببغداد ، له «الاشتقاق» و «خلق الإنسان» و «الأمالي» و «فعلت وأفعلت» .
أنظر : معجم الأدباء ١/ ٤٧ ، نزهة الألبا ٣٠٨ ، إنباه الرواة ١/ ١٥٩ ، آداب اللغة ٢/ ١٨١ ، تاريخ بغداد ٦/ ٨٩ ، وفيات الأعيان ١/ ١١ .

(٢٢٣) هو محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظى أبو حمزه وقيل أبو عبدالله المدنى من حلفاء الأوس، روى عن العباس بن عبدالمطلب وعلى بن أبى طالب وأبن مسعود وعمرو بن العاص وأبى ذر وأبى الدرداء ، ثقة ، قيل مات سنة ١٠٨هـ، وقيل أيضاً سنة ١٠٩هـ.
انظر : تهذيب التهذيب ٩/ ٤٢٠ ـ ٤٢٢ .

وقال ابن زيد(٢٢٤) : صارت دنانيرهم ودراهمهم وفرشهم وكل شئ لهم حجارة.

وقال محمد بن كعب : وكان الرجل منهم يكون مع أهله وفراشه وقد صارا حجرين. قال : وقد سألنى عمر بن عبدالعزيز، فذكرت ذلك، فدعا بخريطة أصيبت بمصر، فأخرج منها الفواكة والدراهم والدنانير وإنها لحجارة.

وقال محمد بن شهاب الزهرى : دخلت على عمر بن عبدالعزيز، فقال : ياغلام، ائتنى بالخريطة.

فجاء بخريطة نثر ما فيها، فإذا فيها دراهم ودنانير وتمر وجوز وعدس وفول، فقال : كل يا أبن شهاب.

فأهويت فإذا هو حجارة، فقلت : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟

قال : هذا مما أصاب عبدالعزيز بن مروان فى مصر إذ كان عليها والياً، وهو مما طمس الله عليه من أموالهم.

وقال المضارب بن عبدالله الشامى : أخبرنى من رأى النخلة بمصر مصروعة وإنها لحجر. ولقد رأيت ناساً كثيراً قياماً وقعوداً فى أعمالهم، لو رأيتهم ما شككت فيهم - قبل أن تدنو منهم - أنهم أناس، وإنهم لحجارة. ولقد رأيت الرجل من رقيقهم وأنه لحارث على ثورين وأنه وثوريه لحجارة.

ونقل وسمة بن موسى فى قصص الأنبياء أن فرعون لما هلك وقومه، وأمنت بنو إسرائيل غائلته، ندب موسى عليه السلام من نقبائه الاثنى عشر نقيبين : أحدهما كالب بن موقيا، والآخر يوشع بن نون، مع كل واحد من سبطه أثنا عشر ألفا، وأرسلهما إلى مصر - وقد خلت من حاميها لغرق أهلها مع فرعون - فأخذوا ذخائر فرعون وكنوزه، وعادوا إلى موسى.

---

(٢٢٤) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن زيد شهاب الدين أبو العباس. فاضل دمشقى من علماء الحنابلة، ولد سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م، ومات سنة ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م. له «محاسن المساعى فى مناقب أبى بكر الأوزاعي» و «تحفة السارى إلى زيارة تميم الداري» و «ديوان خطب» و «اختصار سيرة ابن هشام».
أنظر : الضوء اللامع ٣/ ٧١.

فذلك توريثهم أرض مصر، يعني قول الله عز وجل عن قوم فرعون **﴿فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾**(٢٢٥)، وقوله تعالى **﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾**(٢٢٦) يعنى أرض مصر، أورثناها بنى إسرائيل، لأنهم هم المستضعفون الذين كانوا فيها، بدليل قوله تعالى: **﴿ونريد أن نمن علي الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض﴾**(٢٢٧).

قال جامعة ومؤلفه رحمه الله تعالى: أخبرنى داود بن رزق بن عبدالله - وكانت له سياحات كثيرة بأرض مصر - أنه عبر إلى واد بالقرب من القلمون بالوجه القبلي، فرأى فيه مقاتات كثيرة، ما بين بطيخ وقثاء وتفاح، وكلها حجارة.

وكان قد أخبرنى قديماً بعض الأعيان أنه شاهد، فى سفره إلى البلاد من أرض مصر، بطيخاً كثيراً كله حجارة، وكذلك البطيخ من الصنف الذى يقال له العبدلي.

---

(٢٢٥) ٥٧، ٥٨، ٥٩ ك الشعراء ٢٦.
(٢٢٦) ١٣٧ ك الأعراف ٧.
(٢٢٧) ٥ ك القصص ٢٨.

ذكر أخلاق أهل مصر وطباعهم وأمزجتهم

قال أبو الحسن على بن رضوان الطبيب(٢٢٨) : مصر اسم - فيما نقل الرواة - يدل على أحد أولاد نوح النبى عليه السلام، فإنهم ذكروا أن مصر هذا نزل بهذه الأرض فأنسل فيها وعمرها فسميت باسمه .

والذى يدل عليه هذا الاسم اليوم هو الأرض التى يفيض عليها النيل ويحيط بها حدود أربعة، وهى أن الشمس تشرق على أقصى العمارة بالشرق قبل أن تغيب عن آخر العمارة بالغرب بثلاث ساعات وثلثى ساعة، فيجب من ذلك أن تكون هذه الأرض فى النصف الغربى من الربع العامر .

والنصف الغربى من الربع العامر - على ما قال أبقراط وبطليموس - أقل حرارة وأكثر رطوبة من النصف الشرقي، لأنه قسم كوكب القمر، والنصف الشرقى فى قسم كوكب الشمس. وذلك أن الشمس تشرق على النصف الشرقى قبل شروقها على النصف الغربي، والقمر يهل على النصف الغربى قبل النصف الشرقي .

وقد زعم قوم من القدماء أن أرض مصر فى وسط الربع من المعمور من الأرض بالطبع، فأما بالقياس فعلى ما ذكرناه من أنها فى النصف الغربي .

والحد الثالث هو أن أول بعد هذه الأرض عن خط الاستواء، فى جهة الجنوب أسوان، وبعدها عن خط الاستواء اثنتان وعشرون درجة ونصف. فالشمس تسامت رؤوس أهلها مرتين فى السنة : عند كونها فى آخر الجوزاء، أو فى أول السرطان، وفى هذين الوقتين لا يكون للقائم بأسوان نصف النهار ظل أصلاً، فالحرارة واليبس والإحراق غالب على مزاجها. لأن الشمس تنشف رطوباتها، ولذلك صارت ألوانهم سوداً وشعورهم جعدة لاحتراق أرضهم .

---

(٢٢٨) هو على بن رضوان بن على بن جعفر أبو الحسن. طبيب رياضي، من العلماء من أهل مصر، كان أبوه فراناً وارتقى هو بعلمه فاتصل بالحاكم فجعله رأساً للأطباء، مات سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م.
أنظر : النجوم الزاهرة ٥/ ٦٩، طبقات الأطباء ٢/ ٩٩ - ١٠٥، آداب اللغة ٣/ ١٠٥ .

والحد الرابع هو أن آخر بعد أرض مصر عن خط الاستواء فى جهة الشمال طرف بحر الروم، وعليه من أرض مصر بلدان كثيرة كالإسكندرية ورشيد ودمياط وتنيس والفرما . ويعد دمياط عن خط الاستواء فى الشمال أحد وثلاثون جزءاً وثلث، وهذا البعد هو آخر الإقليم الثالث وأول الإقليم الرابع .

فالشمس لاتبعد عنهم كل البعد، ولا تقرب منهم كل القرب، فالغالب عليهم الاعتدال مع ميل يسير إلى الحرارة، فإن الموضع المعتدل على الصحة من البلدان العامرة، وهو أول وسط الإقليم الرابع . وأيضاً فمجاورة دمياط للبحر وإحاطته بها، تجعلها معتدلة بين الحر والبرد، خارجة عن الاعتدال إلى الرطوبة، فيكون الغالب عليها المزاج الرطب الذى ليس بحار ولا بارد، ولذلك صارت ألوانهم سمراً وأخلاقم سهلة، وشعورهم سبطة .

وإذا كان أول مصر من جهة الجنوب الغالب عليه الاحتراق وآخرها من جهة الشمال الغالب عليها الأعتدال مع ميل يسير نحو الحرارة، فما بين هذين الموضعين من أرض مصر الغالب عليه الحرارة، وتكو قوة حرارته بقدر بعده من أسوان وقربه من بحر الروم .

ومن أجل هذا قال أبقراط وجالينوس : إن المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة .

قال : وجبل لوقا فى مشرق هذه الأرض يعوق عنها ريح الصبا، فإنه لم يوجد بفسطاط مصر صبا خالصة، لكن متى هبت الصبا عندهم، هبت نكباً بين المشرق والشمال أو المشرق والجنوب . وهذه الرياح يابسة مانعة من العفن، وقد عدمت أهل مصر هذه الفضيلة، ومن أجل ذلك صارت المواضع التى تهب فيها ريح الصبا من أرض مصر أحسن حالاً من غيرها، كالإسكندرية وتنيس .

ويعوق أيضاً هذا الجيل إشراق الشمس على أرض مصر، وإذا كانت على الأفق فيكون زمن لبث الشعاع على هذه الأرض أقل من الطبيعي، ومثل هذه الحال سبب لركود الهواء وغلظه .

وأرض مصر أرض كثيرة الحيوان والنبات جداً، لا تكاد تجد فيها موضعاً خلواً من الحيوان والنبات وهى أرض متخلخلة، فإنك تراها عند انصراف النيل بمنزلة الحمأة، فإذا حلت الحرارة ما فيها من الرطوبة تشققت شقوقاً عظاماً، والمواضع الكثيرة الحيوان والنبات أرض كثيرة العفونة .

وقد اجتمع على أرض مصر حرارة مزاجها، وكثرة ما فيها من الحيوان والنبات، فأوجب ذلك احتراقها وسواد طينها، فصارت أرضاً سوداء، وما قرب منها من الجبل سبخ أما بورقى أو مالح، ويظهر من أرض مصر بالعشيات بخار أسود أو أغبر، وخاصة فى أيام الصيف.

وأرض مصر ذات أجزاء كثيرة، ويختص كل جزء منها بشئ دون غيره. وعلة ذلك ضيق عرضها، واشتمال طولها على عرض الإقليم الثانى والثالث، فإن الصعيد فيه من النخل والسنط وآجام القصب والبردي، ومواضع إحراق الفحم وغير ذلك شئ كثير، والفيوم فيه من النقائع وآجام القصب ومواضع تعطين الكتان شئ كثير، وأسفل أرض مصر فيه من النبات أنواع كثيرة كالقلقاس والموز وغير ذلك. وبالجملة فكل بقعة من أرض مصر لها أشياء تختص بها وتتفضل عن غيرها.

قال: والنيل يرطب يبس الصيف والخريف، فقد استبان أن المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة والرطوبة الفضلية، وأنها ذات أجزاء كثيرة، وأن هواءها وماءها رديئان، وقد بين الأوائل أن المواضع الكثيرة العفن يتحلل منها فى الهواء فضول كثيرة لاتدعه يستقر على حال لاختلاف تصعدها.

وقد كان استبان أن هواء أرض مصر يسرع إلى التغير، لأن الشمس لايثبت على أرض مصر شعاعها المدة الطبيعية، فمن أجل هذين كثر اختلاف هواء أرض مصر، فصار يوجد فى اليوم الواحد على حالات مختلفة: مرة حر، ومرة برد، ومرة يابس، وأخرى رطب، ومرة متحرك، وأخرى ساكن، ومرة الشمس صاحية، ومرة قد سترها الغيم.

وبالجملة هواء مصر كثير الاختلاف، غير لازم لطريقة واحدة، فيصير من أجل ذلك فى الأوعية والعروق من أخلاط البدن، لايلزم حدا واحداً.

وأيضاً فإن ما يتحلل كل يوم من البخار الرطب أرض مصر، يعوقه اختلاف الهواء وقلة سمك الجبال وكثرة حرارة الأرض عن الاجتماع فى الجو، فإذا برد الهواء ببرد الليل، وانحدر هذا البخار على وجه الأرض، فيتولد عنه الضباب الذى يحدث عنه الطل والندي، وربما تحلل هذا البخار بالتحلل الخفي، فإذا يتحلل كل يوم ما كان اجتمع من البخار فى اليوم

الذى قبله، فمن أجل هذا لا يجتمع الغيم الممطر بأرض مصر إلا فى الندرة، وظاهر أيضاً أن أرض مصر يترطب هواؤها فى كل يوم بما يترقى إليه من البخار الرطب وما يتحلل.

وقد قال بعض الناس: إن الضباب يتكون من استحالة الهواء إلى طبيعة الماء، فإذا انضاف هذا إلى ما قلناه، كان أزيد فى بيان سرعة تغير الهواء بأرض مصر وكثرة العفونة فيه، وقد استبان أن أرض مصر كثيرة الاختلاف، كثيرة الرطوبة الفضلية التى يسرع إليها العفن.

والعلة القصوى فى جميع ذلك، هو أن أخص الأوقات بالجفاف فى الأرض كلها يكثر فيه بمصر الرطوبة، لأنها تترطب فى الصيف والخريف بمد النيل وفيضه، وهذا بخلاف ما عليه البلدان الأُخر.

وقد علمنا أبقراط أن رطوبة الصيف والخريف فضلية، أعنى خارجة عن المجرى الطبيعى كرطوبة المطر الحادث فى الصيف. ومن أجل هذه قلنا إن رطوبة مصر فضلية، وذلك أن الحرارة واليبس هو بالحقيقة مزاج مصر الطبيعي، وإنما عرض له ما أخرجه عن اليبس إلى الرطوبة الفضلية بمد النيل فى الصيف والخريف، ولذلك كثرت العفونات بهذه الأرض.

فهذا هو السبب الأعظم فى أن صارت أرض مصر على ما هى عليه من سخافة الأرض وكثرة العفن ورداءة الماء والهواء.

إلا أن هذه الأشياء لا تحدث فى أبدان المصريين استحالة محسوسة إذا جرت على عادتها، من أجل إلف المصريين لهذه الحال ومشاكلة أبدانهم لها، فإن كل ما يتولد بأرض مصر من الحيوان والنبات مشابه لما عليه مصر فى سخافة الأبدان وضعف القوى وكثرة التغير وسرعة الوقوع فى الأمراض وقصر المدة، كالحنطة بمصر فإنها وشيكة الزوال، سريع إليها العفن فى المدة اليسيرة.

ولا مطعن أن أبدان الناس وغيرهم تخالف ما عليه الحنطة من سرعة الاستحالة، وكيف لايكون الأمر كذلك وأبدانهم مبنية من هذه الأشياء. فحال ما يتولد بأرض مصر من النبات والحيوان، فى السخافة وكثرة الفضول والعفن وسرعة الوقوع فى الأمراض، كحال سخافة أرضها وعفنها وفضولها وسرعة استحالتها، لأن النسبة واحدة، ولذلك أمكن حياة الحيوان فيها ونبات النبات بها، فإن هذه الأشياء - من حيث مناسبتها ولم تبعد من مشاكلتها - أمكن حياتها.

فأما الأشياء الغريبة فإنها إذا دخلت إلى مصر تغيرت فى أول لقائها لهذا الهواء، حتى إذا استقرت وألفت الهواء واستمرت عليه، صحت مشاكله لأرض مصر.

قال : وأما جنس ما يؤكل ويشرب بأرض مصر، فإن الغلات سريعة التغير، سخيفة، متخلخلة، تفسد فى الزمان اليسير، كالحنطة والشعير والعدس والحمص والباقلاء والجلبان، فإن هذه تسوس فى المدة القليلة، ليس لشئ من الأغذية التى تعمل منها لذاذة ما لنظيره فى البلدان الأخر، وذلك أن الخبز المعمول من الحنطة بمصر متى لبث يوماً واحداً بليلته لا يؤكل، وإن أكل لم يوجد له لذاذة ولا تماسك لبعضه ببعض، ولا يوجد فيه علوكة، ولكنه يتكرج فى الزمان اليسير، وكذلك الدقيق، وهذا خلاف أخبار البلدان الأخر.

وكذلك الحال فى جميع غلات مصر وفواكهها وما يعمل فيها، فأنها وشيكة الزوال، سريعة الاستحالة والتغير. فأما ما يحمل من هذه إلى مصر، فظاهر أن مزاجها يتبدل باختلاف الهواء عليها، ويستحيل عما كانت عليه إلى مشاكله أرض مصر، إلا أن ما كان حديثاً قريب العهد بالسفر، فقد بقيت فيه من جودته بقايا صالحة . . . فهذا حال الغلات.

وأما الحيوان الذى يأكله الناس، فالبلدى منه مزاجه مشاكل لمزاج الناس بهذه الأراضى فى السخافة وسرعة الاستحالة، فهو على هذا ملائم لطبائعهم، والمجلوب ـ كالكباش البرقية فالسفر يحدث فى أبدانها قحلاً ويبساً وأخلاطاً لا تشاكل أخلاط المصريين، ولهذا إذا دخلت مصر مرض أكثرها، فإذا استقرت زماناً صالحاً تبدل مزاجها ووافق مزاج المصريين.

وأهل مصر يشرب الجمهور منهم من ماء النيل، وقد قلنا فى ماء النيل ما فيه كفاية، وبعضهم يشرب مياه الآبار، وهى قريبة من مشاكلتهم. والمياه المخزونة فقل من يشربها بأرض مصر. وأجود الأشربة عندهم الشمسي، لأن العسل لذى فيه يحفظ قوته ولا يدعه يتغير بسرعة، والزمان الذى يعمل فيه خالص الحر فهو ينضجة، والزيت الذى يعمل منه مجلوب من بلاد أجود هواء.

وأما الخمر فقل من يعتصرها إلا ويلقى معها عسلاً، وهى معتصرة من كرومهم فتكون مشاكلة لهم، ولهذا صاروا يختارون الشمسى عليها، وما عدا الشمسى والخمر من الشراب

بأرض مصر، فردئ لاخير فيه لسرعة استحالته من فساد مادته النبيذ التمرى والمطبوخ والمزر المعمول من الحنطة.

وأغذية أهل مصر مختلفة: فإن أهل الصعيد يغتذون كثيراً بتمر النخل والحلاوة المعمولة من قصب السكر، ويحملونها إلى الفسطاط وغيرها، فتباع هناك وتؤكل. وأهل أسفل الأرض يغتذون كثيراً بالقلقاس والجلبان، ويحملون ذلك إلى مدينة الفسطاط وغيرها، فتباع هناك وتؤكل، وكثير من أهل مصر يكثرون أكل السمك طرياً ومالحاً، وكثير يكثرون أكل الألبان وما يعمل منها، وعند قلاحتهم نوع من الخبز يدعى كعكاً، يعمل من جريش الحنطة ويجفف وهو أكثر أكلهم السنة كلها.

وبالجملة فكل قوم منهم قد أبتنت أبدانهم من أشياء بأعيانها وألفتها ونشأت عليها، إلا أن الغالب على أهل مصر الأغذية الرديئة، وليست تغير مزاجهم ما دامت جارية على العادة، وهذا أيضاً مما يؤكد أمرهم فى السخافة وسرع الوقوع فى الأمراض.

وأهل الصعيد أكثر حركة ورياضة من أهل المدن، ولذلك هم أصح أبداناً، لأن الرياضة تصلب أعضاءهم وتقويها.

وأهل الصعيد أخلاطهم أرق وأكثر دخانية وتخلخلاً وسخافة، لشدة حرارة أرضهم من أسفل الأرض. وأهل أسفل الأرض بمصر أكثر استفراغ فضولهم بالبراز والبول، لفتور حرارة أرضهم، واستعمالهم للأشياء الباردة والغليظة كالقلقاس.

وأما أخلاط المصريين فبعضها شبيه ببعض، لأن قوى النفس تابعة لمزاج البدن، وأبدانهم سخيفة سريعة التغير قليلة الصبر والجلد، وكذلك أخلاقهم يغلب عليها الاستحالة، والتنقل من شئ إلى شئ، والدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر، والرغبة فى العلم، وسرعة الخوف، والحسد والنميمة والكذب والسعى إلى السلطان وذم الناس.

وبالجملة فيغلب عليهم الشرور الدنية التى تكون من دناءة الأنفس، وليست هذه الشرور عامة فيهم، ولكنها موجودة فى أكثرهم، ومنهم من خصه الله بالفضل وحسن الخلق، وبراه من الشرور.

ومن أجل توليد أرض مصر الجبن والشرور الدنيئة فى النفس لم تسكنها الأسد، وإذا دخلت ذلت ولم تتناسل، وكلابها أقل جراءة من كلاب غيرها من البلدان، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره فى البلدان الأخر، ما خلا ما كان منها فى طبعه ملايمة لهذه الحال كالحمار والأرنب.

وقال : إن جالينوس يرى أن فصل الربيع طبيعته الاعتدال، ويناقض من ظن أنه حار رطب. ومن شأن هذا الفصل أن تصح فيه الأبدان ويجود هضمها، وتنتشر الحرارة العريزية فيه، ويصفو الروح الحيواني، لاعتدال الهواء وصفائه، ومساواة ليله لنهارة، وغلبة الدم.

والهواء المعتدل هو الذى لايحس فيه ببرد ظاهر ولا حر ولا رطوبة ولا يبس، ويكون فى نفسه صافياً نقياً، فيقوى فيه الروح الحيوانى لهذه السبب، وتصح الأبدان ويكثر نشاط الحيوان، وتنمو الأشياء وتزيد وتتوالد.

وإذا طلبنا بأرض مصر مثل هذا الهواء لم نجده فى وقت من السنة، إلا فى أمشير وبرمهات وبرمودة وبشنس، عندما تكون الشمس فى النصف الأخير من الدلو والحوت والحمل والثور، فإنا نجد بمصر فى هذا الزمان أياماً معتدلة نقية صافية، لا يحس فيها بحر ظاهر ولابرد ولارطوبة ولا يبوسة، وتكون الشمس فيها نقية من الغيوم، والهواء ساكناً لايتحرك، إلا أن يكون ذلك برمودة وبشنس، فإنه يحتاج إلى أن تهب ريح الشمال ليعتدل ببردها حر الشمس.

وفى هذا الزمان تكثر حركة الحيوان وسفاده، وتحسن أصواته، وتورق الأشجار، ويعقد الزهر، وتقوى القوة المولدة، و ويغلب كيموس الدم.

وهذا الفصل فى أرض مصر يتقدم زمانه الطبيعى بمقدار ما ينقص عن آخره. وعلة ذلك قوة حرارة هذه الأرض.

وقد يعرض فى أول هذا الفصل أيام شديدة البرد، وذلك فى أمشير، إذا هبت ريح الشمال، وكانت الشمس غير نقية من الغيوم. وعلة ذلك دخول فصل الربيع فى فصل الشتاء، فإذا هبت ريح الشمال برد ببردها الهواء، فأعادته بعد الاعتدال إلى البرد.

ولكثرة ما يصعد من الأرض فى هذا الزمان من البخار الرطب، يرطب الهواء ويعود إلى حاله فى فصل الشتاء، وربما برد الهواء من هبوب رياح أخر، فإن ريح الجنوب، التى هى أشد الرياح حرارة، إذا هبت فى هذا الزمان اكتسبت برودة من الأرض والماء اللذين قد بردهما هواء الشتاء، فإذا مرت بشئ بردته ببرودتها العرضية، حتى إذا دام هبوبها أياماً كثيرة متوالية، عادت إلى حرارتها، وأسخنت الهواء وأحدثت فيه يبساً . الله

والدليل على أن برد رياح الجنوب، التى يعرفها المصريون بالمريسي، يتولد من برد مياه مصر وأرضها لا بشئ طبيعى لها، أنه لا يجتمع فى الجو، فى أيام هبوبها، الضباب الذى يجتمع من تحليل الحرارة للبخار الرطب بالنهار وجمع البرودة له بالليل، فحرارة ريح الجنوب تفرق البرودة عن جمعه وتبدده فى الهواء، وإذا دام هبوب هذه الريح أسخنت الماء والأرض، وعادت إلى طبيعتها فى الحرارة .

وإذا كان فصل الربيع يتقدم زمانه الطبيعي، ويختلف هذا الاختلاف - والهواء فى الأصل بمصر يختلف بكثرة استحالته وما يرقى إليه من البخار - فما ظنك بغيره من الفصول، ولذلك كثرت فيه الرياح، وأخر الأطباء فيه سقى الأدوية المسهلة إلى أن يستقر أمره فى شمس الحمل مع الثور .

ثم يدخل فصل الصيف فى آخر بشن وبئونة وأبيب وبعض مسري، عندما تكون الشمس فى الجوزاء والسرطان والأسد وبعض السنبلة، فيشتد الحر واليبس فى هذا الزمان، وتجف الغلات وتنضج الثمار، ويجتمع من أكلها فى الأبدان كيموسات رديئة .

وإذا نزلت الشمس فى السرطان أخذ النيل فى الزيادة والفيض على أرض مصر، فيتغير مزاج الصيف الطبيعى بكثرة ما يترقى إلى الهواء من بخار الماء .

ويوجد فى أول هذا الفصل - عندما تكون الشمس فى الجوزاء - أيام يشاكل هواؤها هواء الربيع، عندما تكون الشمس مستورة بالغيوم، أو تكون ريح الشمال هابة .

ولهذا يغلط كثير من الأطباء ويسقى الأدوية المسهلة فى هذا الزمان، لظنه أن فصل الربيع لم يخرج . إلا من كان منهم أحذق، فهو يختار ما كان من هذه الأيام أسكن حرارة، والأكثر لا يشعرون ألبته بهذه الحال .

وفى آخر الصيف يكون فيض النيل، فظاهر أن هذا الفصل يتقدم دخوله الزمان الطبيعى بقدر ما يتقدم آخره، وأنه كثير الاضطراب بكثرة ما يرقى إليه من بخار الأرض. فلولا استمرار أبدانهم على هذا الاختلاف، ومشاكلتهم لهذه الحال، لحدثت فيهم الأمراض التى ذكر أبقراط أنها تحدث إذا كان الصيف رطباً.

ثم يدخل فصل الخريف وطبيعته يابسة، من النصف الأخير من مسرى ثم توت وبابه وبعض أيام هاتور، وتكون الشمس فى آخر السنبلة والميزان والعقرب، فتكمل زيادة النيل فى أول هذا الفصل، ويطلق على الأرض، فيطبق أرض مصر، ويرتفع منه فى الجو بخار كثير، فينتقل مزاج الخريف عن اليبس إلى الرطوبة، حتى أنه ربما وقع فيه الأمطار وكثرة الغيم فى الجو.

ويوجد فى هذا الفصل أيام شديدة الحر لأنها على الحقيقة صيفية، فإذا نقى الجو من البخار الرطب عادت إلى طبيعتها من الحرارة، وفيه أيضاً أيام شديدة الشبه بأيام الربيع، تكون عندما يساوى الليل النهار ويرطب الماء بيبس الهواء.

ويشتد فى هذا الفصل أضطراب الهواء بكثرة ما يرتقى إليه من البخار الرطب، فيكون مرة حاراً، وأخرى باراً، ومرة يابساً، وأكثر أوقاته يغلب عليه الرطوبة، فلا يزال كذلك يتمزج حتى يغلب عليه رطوبة الماء فى آخر الأمر.

ويصاد فى أيام الخريف من النيل أسماك كثيرة جداً، يولد أكلها فى الأبدان أخلاطاً لزجة، وكثيراً ما يستحيل إلى الصفراء إذا صادفت فى البدن خلطاً صفراوياً، فمن أجل ذلك يضطرب ما فى الأبدان من الروح الحيواني، وتهيج الأخلاط، ويفسد الهضم فى البطون والأوعية والعروق، ويتولد من ذلك كيموسات رديئة كثيرة الأخلاط: بعضها مرة صفراء، وبعضها مرة سوداء، وبعضها بلغم لزج، وبعضها خلط خام، وبعضها مرة محترقة، وكثير منها يتركب من هذه الأشياء فتثير الأمراض.

حتى إذا انصرف النيل فى آخر الخريف، وانكشفت الأرض، وبرد الهواء، وكثرت الأسماك، واحتقن البخار، وكثر ما يرتفع به من الأرض من العفونة، واستحكم عند ذلك وجود العفن، تزايدت الأمراض. ولولا إلف أهل مصر لهذه الأشياء، لكان ما يحدث فيهم من الأمراض أكثر من ذلك.

ثم يدخل فصل الشتاء وطبيعته باردة رطبة، من النصف الآخر من هاتور ثم كيهك وطوبة، وذلك عندما تكون الشمس فى القوس والجدى وبعض الدلو، وذلك أقل من ثلاثة أشهر، والعلة فى ذلك قوة حرارة أرض مصر، وكون الأبدان مضطربة.

وتنكشف الأرض فى أول هذا الفصل، وتحرث وتعفن بالجملة، لكثرة ما يلقى فيها من البذور، وما فيها من أزبال الحيوان وفضولها، ولأنها سخيفة، وهى كالحمأة فى هذا الزمان، فيتولد فيها من أنواع الفار والدود والنبات والعشب وغير ذلك ما لا يحصى كثرة، وينحل منها فى الجو أبخرة كثيرة، حتى يصير الضباب بالغدوات ساتراً للأبصار عن الألوان القريبة.

ويصاد أيضاً من الأسماك المحبوسة فى المياه المخزونة شئ كثير، وقد داخلها العفن لقلة حركتها، فيولد أكلها فى الأبدان فضولاً كثيرة لزجة شديدة الاستعداد للعفن، فتقوى الأمراض فى أول هذا الفصل. حتى إذا اشتد البرد، وقوى الهضم فى الأبدان، واستقر الهواء على شئ واحد، وعادت الحرارة الغريزية إلى الداخل، وتطبقت الأرض بالنبات، وسكنت عفونتها، صحت عند ذلك الأبدان، وهكذا يكون فى آخر كيهك أو فى طوبة.

فقد استبان أن الفصول بأرض مصر كثيرة الاختلاف، وأن أردأ أوقات السنة عندهم، وأكثرها أمراضاً، هو آخر الخريف وأول الشتاء، وذلك فى شهرى هاتور وكيهك، فإذن إختلاف الفصول مشاكل لما عليه أرضهم من الرداءة، فمضرة الفصول إذن بالأبدان فى أرض مصر أقل منها فى البلدان الأخر إذا اختلفت هذا الاختلاف.

واستبان أيضاً أن السبب الأول فى ذلك، هو مد النيل فى أيام الصيف، وتطبيقه الأرض فى أيام الخريف، بخلاف ما عليه مياه الأنهار فى العمارة كلها، فإنها أنما تمتد فى أخص الأوقات بالرطوبة، وهو الشتاء والربيع.

قال : وقد استبان مما تقدم أن الرطوبة الفضلية بأرض مصر كثيرة. وظاهر أن أمراضهم البلدية تكون من نوع هذه الرطوبة، فإنى أنا قلما رأيت أمراضهم البلدية تكون من نوع هذه كلها، لا يشوبها فى أول أمرها البلغم والخلط الخام، والأمراض كلها تحدث عندهم فى

الأوقات كلها كما قال أبقراط، وأكثر أمراضهم هى الفضلية، أعنى العفنة من أخلاط صفراوية وبلغمية، على ما يشاكل مزاج أرضهم.

وما ذكرناه فيما تقدم يوجب حدوث الأمراض كثيراً، إلا أن مشاكلة هذه بعضها بعضاً، وإتفاقها فى سنة واحدة، تمنع من أن تكون فى أنفسها ممرضة متى لزمت العادة، فأما إذا خرجت عن عادتها، فهى تحدث مرضاً، وخروجها عن عادتها بمصر هو الذى أعده اختلافاً ممرضاً، لا الاختلاف الموجود فيها على الدائم.

والنيل ليس يحدث فى الأبدان كل سنة مرضاً، ولكنه إذا أفرطت زيادته، ودام مدة تزيد على العادة، كان ذلك سبباً لحدوث المرض الوافد.

فإن قيل : إذا كانت أبدان الناس بأرض مصر من السخافة على ما ذكرت فلعلها فى مرض دائم.

فالجواب : لسنا نبالى بهذا كيف كان، لأن المرض هو ما يضر بالفعل ضرراً محسوساً من غير توسط، فمن أجل ذلك ليست أبدان المصريين فى مرض دائم، ولكنها كثيرة الاستعداد نحو الأمراض.

قال : أما أمراض مصر البلدية فقد ذكرنا من أمرها ما فيه كفاية، وظهر أن أكثرها الأمراض الفضلية التى يشوبها صفراء وخام، على أن باقى الأمراض تحدث عندهم بسرعة وقرب، وخاصة فى آخر الخريف وأول الشتاء.

وأما الأمراض الوافدة - ومعنى المرض الوافد، هو ما يعم خلقاً كثيراً فى بلد واحد وزمان واحد، ومنه نوع يقال له الموتان، وهو الذى يكثر معه الموت - وحدوث الأمراض الوافدة يكون عن أسباب كثيرة تجتمع فى أجناس أربعة، وهى : تغير كيفية الهواء، وتغير كيفية الماء، وتغير كيفية الأغذية، وتغير كيفية الأحداث النفسانية.

فالهواء تغير كيفيته على ضربين : أحدهما تغيره الذى جرت به العادة، وهذا لا يحدث مرضاً وافداً، وليس تغيراً ممرضاً. والثانى التغير الخارج عن مجرى العادة، وهذا هو الذى يحدث المرض الوافد، وكذلك الحال فى الأجناس الباقية.

وخروج تغير الهواء عن عادته يكون إما بأن يسخن أكثر أو يبرد أو يرطب أو يجفف أو يخالطه حال عفنه . والحالة العفنة إما أن تكون قريبة أو بعيدة ، فإن أبقراط وجالينوس يقولان إنه ليس يمنع مانع من أن يحدث ببلد اليونانيين مرض وافد عن عفونة اجتمعت فى بلاد الحبشة ، وتراقت إلى الجو وانحدرت على اليونانيين ، فأحدثت فيهم المرض الوافد .

وقد يتغير أيضاً مزاج الهواء عن العادة ، بأن يصل وفد كثير قد أنهك أبدانهم طول السفر وساءت أخلاطهم ، فيخالط الهواء منها شيء كثير ، ويقع الأعداء فى الناس ، ويظهر المرض الوافد .

والماء أيضاً قد يحدث المرض الوافد ، إما بأن يفرط مقداره فى الزيادة أو النقصان ، أو يخالطه حال عفنة ، ويضطر الناس إلى شربه ، ويعفن به أيضاً الهواء المحيط بأبدانهم ، وهذه الحال تخالطه إما قريباً أو بعيداً ، بمنزلة ما يمر فى جريانه بموضع خرب قد اجتمع فيه من جيف الموتى شيء كثير ، أو بمياه تقاطع عفنة فيحدرها معه ويخالط جسمه .

والأغذية تحدث المرض الوافد ، إما إذا لحقها اليرقان وارتفعت أسعارها واضطر الناس إلى أكلها ، وإما إذا أكثر الناس منها فى وقت واحد ـ كالذى يكون فى الأعياد ـ فيكثر فيهم التخم ، ويمرضون مرضاً متشابهاً ، وإ ما من قبيل فساد مرعى الحيوان الذى يؤكل ، أو فساد الماء الذى يشرب .

والأحداث النفسانية تحدث المرض الوافد متى حدث فى الناس خوف عام من بعض الملوك ، فيطول سفرهم وتفكرهم فى الخلاص منه وفى وقوع البلاء ، فيسوء هضمهم وتتغير حرارتهم العريزية ، وربما اضطروا إلى حركة عنيفة فى هذه الحال ، أو يتوقعون قحط بعض السنين ، فيكثرون الحركة والاجتهاد فى ادخار الأشياء ، ويشتد غمهم بما سيحدث .

فجميع هذه الأشياء تحدث فى أبدان الناس المرض الوافد ، متى كان المتعرض لها خلق كثير فى بلد واحد ووقت واحد . وظاهر أنه إذا كثر فى وقت واحد المرضى بمدينة واحدة ، أرتفع من أبدانهم بخار كثير فيتغير مزاج الهواء ، فإذا صادف بدنا مستعداً أمرضه ، وإن كان صاحبه لم يتعرض لما يتعرض إليه الناس .

فالأمراض الوافدة بمصر تحدث إما عن فساد لم تجر به العادة يعرض للهواء ـ سواء كان مادة فساده من أرض مصر، أو من البلاد التى تجاورها كالسودان والحجاز والشام وبرقة ـ أو يعرض للنيل بأن تفرط زيادته جداً فيجف الهواء عن مقدار العادة ويضطر الناس إلى شرب مياه رديئة، أو يخالطه عفونة تحدث عن حرب يكون بأرض مصر أو ببلاد السودان أو غيرها يموت فيها خلق كثير، ويرتفع بخار جيفهم فى الهواء فيعفنه ويتصل عفنه إليهم، أو يسيل الماء ويحمل معه العفن، أو يغلو السعر، أو يلحق الغلات آفة، أو يدخل على الكباش ونحوها مضرة، أو يلحق الناس خوف عام أو قنوط . . . وكل واحد من هذه الأسباب يحدث فى أرض مصر مرضاً وافداً تكون قوته بمقدار قوة السبب المحدث له، وإن كان أكثر من سبب واحد كان ذلك المرض أشد وأقوى وأسرع فى القتل.

قال : فمزاج أرض مصر حار رطب بالرطوبة الفضلية. وما قرب من الجنوب بأرض مصر كان أسخن وأقل عفناً فى ماء النيل مما كان منها فى الشمال، ولا سيما من كان فى شمال الفسطاط مثل أهل البشمور، فإن طباعهم أغلظ، والبله عليهم أغلب، وذلك أنهم يستعملون أغذية غليظة جداً، ويشربون من الماء الردئ.

وأما اسكندرية وتنيس وأمثال هذه، فقربها من البحر وسكون الحرارة والبرد عنهم وظهور الصبا فيهم، مما يصلح أمورهم ويرق طباعهم ويرفع هممهم، ولا يعرض لهم ما يعرض لأهل البشمور من غلظ الطبع والجمادية. وإحاطة البحر بمدينة تنيس، توجب غلبة الرطوبة عليها، وما يسر أخلاق أهلها.

قال : إنه لما كانت أرض مصر وجميع ما فيها، سخيفة الأجسام سريعاً إليها التغير والتعفن، وجب على الطبيب أن يختار من الأغذية والأدوية ما كان قريب العهد حديثاً، لأن قوته بعد باقية عليه لم تتغير كل التغير، وأن يجعل علاجه ملايماً لما عليه الأبدان بأرض مصر، ويجتهد فى أن يجعل ذلك إلى الجهة المضادة أميل قليلاً، ويتجنب الأدوية القوية الإسهال وكل ما له قوة مفرطة. وإن نكاية هذه الأبدان سريعة، سيما وأبدان المصريين سريعة الوقوع فى النكايات.

ويختار ما يكون من الأدوية المسهلة وغيرها ألين قوة، حتى لا يكون على طبيعة المصريين منها كلفة، ولا يلحق أبدانهم مضرة، ولا يقدم على الأدوية الموجودة فى كتب أطباء اليونانيين والفرس، فإن أكثرها عملت لأبدان قوية البنية عظيمة الأخلاط، وهذه الأشياء قلما توجد بمصر، فلذلك يجب على الطبيب أن يتوقف فى إعطاء هذه الأدوية للمرضي، ويختار ألينها، وينقص عن مقدار شرباتها، ويبدل كثيرا منها بما يقوم مقامه، ويكون ألين منه، فيتخذ السكنجين السكرى فى مقام العسلي، والجلاب بدلاً من ماء العسل.

وأعلم أن هواء مصر يعمل فى المعجونات وسائر الأدوية ضعفاً فى قوتها، فأعمار الأدوية المفردة والمركبة ـ المعجون منها وغير المعجون ـ بمصر أقصر من أعمارها فى غير مصر، فيحتاج الطبيب بمصر إلى تقدير ذلك وتمييزه حتى لا يشتبه عليه شئ مما يحتاج إليه. وإذا لم يكتف فى تنقية البدن بالدواء المسهل دفعة واحدة، فلا بأس بإعادته بعد أيام، فإن ذلك أحمد من إيراد الدواء الشديد القوة فى دفعة واحدة.

قال: ولكون أرض مصر تولد فى الأجسام سخافة وسرعة قبول للمرض، وجب أن تكون الأبدان على الهيئة الفاضلة بأرض مصر قليلة جداً، فأما الأبدان الباقية فكثيرة، وأن تكون الصحة التامة عندهم على الأمر الأكثر فى القريبة من الهيئة الفاضلة.

والطريق الأولى التى تدبر بها الأبدان فى الهيئة الفاضل يحتاج فيها بأرض مصر إلى أن يدبر الهواء والغذاء والماء وسائر الأشياء تدبيراً يصير به فى غاية الاعتدال، ولأن الهضم كثيراً ما يسوء بأرض مصر، وكذلك الروح الحيواني، فيجب صرف العناية إلى مراعاة أمر القلب والدماغ والكبد والمعدة والعروق وسائر الأعضاء الباطنة، فى تجويد الهضم وإصلاح أمر الروح الحيوانى وتنظيف الأوساخ الأححة.

وقال فى شرح كتاب الأربع لبطليموس: وأما سائر أجزاء الربع الذى يميل إلى وسط جميع الأرض المسكونة ـ أعنى بلاد برقة، وسواحل البحر من مريوط إلى الأسكندرية ورشيد ودمياط وتنيس والفرما، وأسفل الأرض بمصر، ونواحى مدينة منف ومدينة الفسطاط، وما يلى شرقى النيل من صعيد مصر والفيوم إلى أعلى الصعيد مما فى غرب النيل، وأرض الواحات وأرض النوبة والبجة، والأرض التى على البحر فى شرقى بلاد النوبة والحبشة ـ فإن هذه البلاد موضوعة فى الزاوية التى تؤثر فى جميع الربع الموضوع فيما بين الدبور والجنوب.

وهى من جملة النصف الغربى من الربع المعمور، والكواكب الخمسة المتحيرة تشترك فى تدبيرها. فصار أهلها محبين لله، ويعظمون الجن، ويحبون النوح، ويدفنون موتاهم فى الأرض ويخفونهم، ويستعملون سنناً مختلة وعادات وآراء شتي، لميلهم إلى الأسرار التى تدعو كل طائفة منهم إلى أمر من الأمور الخفية فيعتقده ويوافقه جماعة.

ومن أجل هذه الأسرار، كان المستخرج للعلوم الدقيقة - كالهندسة والنجوم وغيرها - فى الزمان الأول، أهل مصر، ومنهم تفرقت فى العالم. وإذا ساسهم غيرهم كانوا أذلاء، والغالب عليهم الجبن والاستحذاء فى الكلام. وأذا ساسوا غيرهم كانت أنفسهم طيبة وهممهم كثيرة.

ورجالهم يتخذون نساء كثيرة، وكذلك نساؤهم يتخذن عدة رجال، وهم منهمكون فى الجماع، ورجالهم كثيرو النسل، ونساؤهم سريعات الحمل، وكثير من ذكرانهم تكون أنفسهم ضعيفة مئونثه.

وقال أبو الصلت: وأما سكان أرض مصر فأخلاط من الناس مختلفو الأصناف والأجناس، من قبط وروم وعرب وأكراد وديلم وحبشان وغير ذلك من الأصناف، إلا أن جمهورهم قبط.

قالوا: والسبب فى اختلاطهم تداول المالكين لها والمتغلبين عليها، من العمالقة واليونانيين والروم وغيرهم، فلهذا اختلطت أنسابهم، واقتصروا من التعريف بأنفسهم على الإشارة إلى مواضعهم والانتماء إلى مساقطهم فيها.

وحكم أنهم كانوا فى الزمن السالف عباد أصنام ومدبرى هياكل، إلى أن ظهر دين النصرانية وغلب على أرض مصر، فتنصروا وبقوا على ذلك إلى أن فتحها المسلمون، فأسلم بعضهم، وبقى بعضهم على دين النصرانية.

وأما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات والانهماك فى اللذات، والإشتغال بالترهات، والتصديق بالمحالات، وضعف المرائر والعزمات. ولهم خبرة بالكيد والمكر، وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه وهداية إليه، لم فى أخلاقهم من الملق والبشاشة التى

أربوا فيها على من تقدم وتأخر، وخصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم، حتى صار أمرهم فى ذلك مشهوراً، والمثل بهم مضروباً.

وفى خبثهم ومكرهم يقول أبو نواس :

محضتكم يا أهل مصر نصيحتي
ألا فخذوا من ناصح بنصيب

رماكم أمير المؤمنين بحية
أكول لحيات البلاد شروب

فإن يك باق إفك فرعون فيكم
فإن عصا موسى بكف خصيب

قال مؤلفه رحمه الله تعالى : وقد مر لى قديماً أن منطقة الجوزاء تسامت رؤوس أهل مصر، فلذلك يتحدثون بالأشياء قبل كونها، ويخبرون بما يكون، وينذرون بالأمور المستقبلة، ولهم فى هذا الباب أخبار مشهورة.

قال أبن الطوير : وقد ذكر استيلاء الفرنج على مدينة صور، فعاد الحفظ والحراسة على مدينة عسقلان، فما زالت محمية بالأبدال المجردة إليها من العساكر والأساطيل، والدولة تضعف أولاً فأولاً باختلاف الآراء، فثقلت على الأجناد، وكبر أمرها عندهم، واشتغلوا عنها، فضايقها الفرنج حتى أخذوها فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة. ولقد سمعت رجلاً قبل ذلك بسنين يحدث بهذه الأمور، ويقول : «فى سنة ثمان تؤخذ عسقلان بالأمان».

ومن هذا الباب واقعة الكنائس التى للنصاري. وذلك أنه لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، والناس فى صلاة الجمعة، كأنما نودى فى إقليم مصر كله - من قوص إلى الإسكندرية - بهدم الكنائس، فهدم فى تلك الساعة - بهذه المسافة الكبيرة - عدد كبير من الكنائس، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب عند ذكر كنائس النصاري.

ومن هذا الباب واقعة ألدمر. وذلك أنه خرج الأمير ألدمر - أمير جنداو - يريد الحج من القاهرة فى سنة ثلاثين وسبعمائة، وكانت فتنة بمكة قتل فيها ألدمر يوم الجمعة رابع عشر ذى

الحجة، فأشيع فى هذا اليوم بعينة فى القاهرة ومصر وقلعة الجبل، بأن وقعة كانت بمكة قتل فيها ألدمر. فطار هذا الخبر فى ريف مصر واشتهر، فلم يكترث الملك الناصر محمد بن قلاوون بهذا الخبر. فلما قدم المبشرون على العادة، أخبروا بالواقعة وقتل الأمير سيف الدين ألدمر فى ذلك اليوم الذى كانت الإشاعة فيه بالقاهرة.

قال جامع السيرة الناصرية: كنت مع الأمير علم الدين الخازن فى الغربية - وقد خرج اليها كاشفاً - فلما صليت أنا وهو صلاة الجمعة وعدنا إلى البيت، قدم بعض غلمانه من القاهرة فأخبرنا أنه أشيع بأن فتنة كانت بمكة قتل فيها جماعة من الأجناد، وقتل فيها الأمر ألدمر أمير جندار.

فقال له الأمير علم الدين: هل حضر أحد من الحجاز بهذا الخبر؟

قال: لا.

فقال: ويحك، الناس ما تحضر من منى بمكة إلا ثالث يوم بعد عيد النحر، فكيف سمعتم هذا الخبر الذى لا يسمعه عاقل؟

فقال: قد استفيض ذلك.

وكان الأمر كما أشيع.

ووقع لى فى شهر رمضان من شهور سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، أنى مررت فى الشارع بين القصرين بالقاهرة بعد العتمة، فإذا العامة تتحدث بأن الملك الظاهر برقوق خرج من سجنه بالكرك واجتمع عليه الناس. فضبطت ذلك، فكان اليوم الذى خرج فيه من السجن. وفى هذا الباب من هذا كثير.

ومن أخلاق أهل مصر قلة الغيرة. وكفاك ما قصة الله سبحانه وتعالى من خبر يوسف عليه السلام، ومراودة امرأة العزيز له عن نفسه، وشهادة شاهد من أهلها عليها بما بين لزوجها منها السوء، فلم يعاقبها على ذلك بسوى بقوله.

﴿استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾(٢٢٩).

---

(٢٢٩) ٢٩ ك يوسف ١٢.

وقال ابن عبدالحكم : وكان نساء أهل مصر - حين غرق من غرق منهم مع فرعون ولم يبق إلا العبيد والأجراء - لم يصبرن عن الرجال ، فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوجه ، وتتزوج الأخرى أجيرها . وشرطن على الرجال ألا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهن ، فأجابوهن إلى ذلك ، فكان أمر النساء على الرجال .

فحدثنى أبن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، أن نساء القبط على ذلك إلى اليوم اتباعا لمن مضى منهن ، لا يبيع أحدهم ولا يشترى إلا قال : أستأمر امرأتي .

وقال : أن فرعون لما غرق ومعه أشراف مصر ، لم يبق من الرجال من يصلح للملكة ، فعد الناس فى مراتبهم : بنت الملك ملكة ، وبنت الوزير وزيرة ، وبنت الوالى وبنت الحاكم على هذا الحكم ، وكذلك بنات القواد والأجناد .

فاستولت النساء على المملكة مدة سنين ، وتزوجن بالعبيد ، واشترطن عليهم أن الحكم والتصرف لهن ، فاستمر ذلك مدة من الزمان . ولهذا صارت ألوان أهل مصر سمرا من أجل أنهم أولاد العبيد السود الذين نكحوا نساء القبط بعد الغرق واستولدوهن .

وأخبرنى الأمير الفاضل الثقة ناصر الدين محمد بن محمد بن الغرابيلى الكركى رحمه الله تعالى ، أنه منذ سكن مصر يجد من نفسه رياضة فى أخلاقه ، وترخصاً لأهله ، ولينا ورقة طبع من قلة الغيرة .

ومما لم نزل نسمعه دائماً بين الناس أن شرب ماء النيل ينسى الغريب وطنه .

ومن أخلاق أهل مصر الإعراض عن النظر فى العواقب ، فلا تجدهم يدخرون عندهم . رادا كما هى عادة غيرهم من سكان البلدان ، بل يتناولون غذية كل يوم من الأسواق بكرة وعشيا .

ومن أخلاقهم الانهماك فى الشهوات ، والإمعان فى الملاذ ، وكثرة الاستهتار ، وعدم المبالاة . . . . قال لى شيخنا الأستاذ أبو زيد عبدالرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى : أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب .

وقد روى عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أنه سأل كعب الأحبار عن طبائع البلدان وأخلاق سكانها، فقال : إن الله تعالى لما خلق الأشياء جعل كل شئ لشئ. فقال العقل : أنا لاحق بالشام، فقالت الفتنة : وأنا معك! وقال الخصب : أنا لاحق بمصر، فقال الذل : وأنا معك! وقال الشقاء : أنا لاحق بالبادية، فقالت الصحة : وأنا معك!

ويقال : لما خلق الله الخلق خلق معهم عشرة أخلاق : الإيمان والحياء والنجدة والفتنة والكبر والنفاق والغنى والفقر والذل والشقاء. فقال الإيمان : أنا لاحق باليمن، فقال الحياء : وأنا معك! وقالت النجدة : أنا لاحقة بالشام، فقالت الفتنة : وأنا معك! وقال الكبر : أنا لاحق بالعراق، فقال النفاق : وأنا معك! وقال الغنى : أنا لاحق بمصر، فقال الذل : وأنا معك! وقال الفقر : أنا لاحق بالبادية، فقال الشقاء : وأنا معك!

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : المكر عشرة أجزاء : تسعة منها فى القبط، وواحد فى سائر الناس.

ويقال : أربعة لا تعرف فى أربعة : السخاء فى الروم، والوفاء فى الترك، والشجاعة فى القبط، والعمر فى الزنج.

ووصف ابن العربية أهل مصر فقال عبيد لمن غلب، أكيس الناس صغارا، وأجهلهم كباراً.

وقال المسعودى : لما فتح عمر بن الخطاب رضى الله عنه البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك، كتب إلى حكيم من حكماء العصر : إنا لناس عرب قد فتح الله علينا البلاد، ونريد أن نتبوأ الأرض ونسكن البلاد والأمصار، فصف لى المدن وأهويتها ومساكنها، وما تؤثره الترب والأهوية فى سكانها.

فكتب إليه : وأما أرض مصر فأرض قوراء غوراء، ديار الفراعنة ومساكن الجبابرة، ذمها أكثر من مدحها، هواؤها كدر، وحرها زائد، وشرها مائد، تكدر الألوان والفطن. وتركب الإحن. وهى معدن الذهب والجوهر ومغارس الغلات، غير أنها تسمن الأبدان وتسود الإنسان، وتنمو فيها الأعمار. وفى أهلها مكر ورياء وخبث ودهاء وخديعة. وهى بلدة مكسب ليست بلدة مسكن، لترادف فتنها واتصال شرورها.

وقال عمر بن شبة(٢٣٠) : ذكر ابن عبيدة فى كتاب أخبار البصرة، عن كعب الأحبار، خير نساء على وجه الأرض نساء أهل البصرة، إلا ما ذكر النبى ﷺ من نساء قريش، وشر نساء على وجه الأرض نساء أهل مصر.

وقال عبدا بن عمر : ولما أهبط ابليس، وضع قدمه بالبصرة، وفرخ بمصر.

وقال كعب الأحبار : ومصر أرض نجسه كالمرأة العاذل، يطهرها النيل كل عام.

وقال معاوية بن أبى سفيان : وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف : فثلث ناس، وثلث يشبه الناس، وثلث لاناس. فأما الثلث الذى هم الناس فالعرب، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالي، والثلث الذين لاناس المسالمة، يعنى القبط.

ذكر شئ من فضائل النيل

أخرج مسلم من حديث أنس رضيالله عنه فى حديث المعراج، أن النبى ﷺ قال : «ثم رفعت لى سدرة المنتهي، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة.

« قلت : ما هذا يا جبريل ؟

« قال : هذه سدرة المنتهي.

« وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان، ونهران ظاهران.

« فقلت : ما هذا يا جبريل ؟

(٢٣٠) هو عمر بن شبه، واسمه زيد بن عبيدة بن ريطة النمرى البصرى أبو زيد. شاعر راوية مؤرخ، حافظ للحديث من أهل البصرة، ولد سنة ١٧٢هـ/ ٧٨٩م. ومات سنة ٢٦٢هـ/ ٨٧٦م.
انظر : إرشاد الأريب ٦/ ٤٨، تهذيب التهذيب ٧/ ٤٦٠، الوفيات ١/ ٣٧٨، بغية الوعاة ٣٦١، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٠١.

« قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات»(٢٣١) .

وفى التوراة : وخلق فردوساً فى عدن ، وجعل الإنسان فيه ، وأخرج منه نهران فقسمها أربعة أجزاء : جيحون المحيط بأرض حويلا ، وسيحون المحيط بأرض كوش وهو نيل مصر ، ودجلة الآخذ إلى العراق ، والفرات .

وروى ابن عبدالحكم ، عن عبدالله بن عمر رضى‌الله عنهما ، أنه قال : نيل مصر سيد الأنهار ، سخرالله له كل نهر بين المشرق والمغرب . فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر ، أمر كل نهر أن يمده ، فتمده الأنهار بمائها ، وفجرالله له الأرض عيوناً فأجرته إلى ما أرادالله عز وجل ، فإذا انتهت جريته أوحى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره .

وعن يزيد بن أبى حبيب ، أن معاوية بن أبى سفيان رضى‌الله عنه ، سأل كعب الأحبار : هل تجد لهذا النيل فى كتاب‌الله خبراً ؟

قال : أى والذى فلق البحر لموسي ، انى لأجده فى كتاب‌الله أن‌الله يوحى إليه فى كل عام مرتين : يوحى إليه عند جريته : إن‌الله يأمرك أن تجري ، فيجرى ما كتب‌الله له ، ثم يوحى إليه بعد ذلك : يا نيل ، عد حميداً .

وعن كعب الأحبار أنه قال : أربعة أنهار من الجنة وضعها الله فى الدنيا : النيل نهر العسل فى الجنة ، والفرات نهر الخمر فى الجنة ، وسيحان نهر الخمر فى الجنة ، وسيحان نهر الماء فى الجنة ، وجيحان نهر اللبن فى الجنة .

وقال المسعودى : نهر النيل من سادات الأنهار وأشراف البحار ، لأنه يخرج من الجنة على ما ورد به خبر الشريعة .

وقد قال : إن النيل أذا زاد غاضت له الأنهار والأعين والآبار ، وإذا غاض زادت . . . فزيادته من غيضها ، وغيضه من زيادتها . . وليس فى أنهار الدنيا نهر يسمى بحراً غير نيل مصر لكبره واستبحاره .

---

(٢٣١) ورد أيضاً فى سنن الترمذي . .

وقال ابن قتيبة فى كتاب غريب الحديث : وفى حديثه عليه السلام «نهران مؤمنان ونهران كافران، أما المؤمنان فالنيل والفرات، وأما الكافران فدجلة ونهر بلخ»، إنما جعل النيل والفرات مؤمنين على التشبيه لأنهما يفيضان على الأرض، ويسقيان الحرث والشجر، بلا تعب فى ذلك ولا مؤونة، وجعل دجلة ونهر بلخ كافرين لأنهما لا يفيضان على الأرض، ولا يسقيان إلا شيئاً قليلاً، وذلك القليل بتعب ومؤونة . . . فهذان فى الخير والنفع كالمؤمنين، وهذان فى قلة الخير والنفع كالكافرين.

ذكر مخرج النيل وانبعاثه

اعلم أن البحر المحيط بالمعمور إذا خرج منه نهر الهند، افترق قطعاً كما تقدم، وكان منه قطعة تسمى بحر الزنج، وهى مما يلى بلاد اليمن وبحر بربر.

وفى هذه القطعة عدة جزائر منها جزيرة القمر (بضم القاف وإسكان الميم وراء مهملة). ويقال لهذه الجزيرة أيضاً جزيرة ملاي، وطولها أربعة أشهر، فى عرض عشرين يوماً إلى أقل من ذلك. وهذه الجزيرة تحاذى جزيرة سرنديب، وفيها عدة بلاد كثيرة، منها قمرية، وإليها ينسب الطائر القمري.

ويقال إن بهذه الجزيرة خشباً ينحت من الخشبة ساق طوله ستون ذراعاً يحذف على ظهره مائة وستون رجلاً، وأن هذه الجزيرة ضاقت بأهلها، فبنوا على الساحل محلات يسكنونها فى سفح جبل يعرف بهم يقال لهم جبل القمر.

وأعلم أن الجبال كلها متشعبة من الجبل المستدير بغالب معمور الأرض، وهو المسمى بجبل قاف، وهو أم الجبال كلها، تتشعب منه فيتصل فى موضع وينقطع فى آخر، وهو كالدائرة لايعرف له أول. إذ كان كالحلقة المستديرة لا يعرف طرفاها، وإن لم تكن استدارة كريّة ولكنها استدارة إحاطة.

وزعم قوم أن أمهات الجبال جبلان : خرج أحدهما من البحر المحيط فى المغرب آخذا جنوباً، وخرج الآخر من البحر الرومى آخذاً شمالاً ، حتى تلاقيا عند السد، وسموا الجنوبى قاف، وسموا الشمالى قاقوناً. والأظهر أنه جبل واحد ومحيط بغالب بسيط المعمور، وأنه هو الذى يسمى بجبل قاف، فيعرف بذلك فى الجنوب ويعرف فى الشمال بجبل قاقونا.

ومبدأ هذا الجبل المحيط من كتف السد آخذاً من وراء صنم الخط المشجوج إلى شعبته الخارجة منه المعمول بها باب الصين أخذاً على غربى صين الصين، ثم ينعطف على جنوبه مستقيماً فى نهاية الشرق على جانب البحر المحيط مع الفرجة المنفرجة بينه وبين البحر الهندى الداخلة، ثم ينقطع عند مخرج البحر الهندى المحيط مع خط الاستواء، حيث الطول مائة وسبعون درجة، ثم يتصل من شعبة البحر الهندى الملاقى لشعبة المحيط الخارجة إلى بحر الظلمات من الشرق بجنوب كثير من وراء مخرج البحر الهندى فى الجنوب.

وتبقى الظلمات من هاتين الشعبتين : شعبة المحيط الجائية على جنوب الظلمات شرقاً مغرباً، ومخرج البحر الهندى الجائية على الظلمات، حتى تتلاقى الشعبتان عند مخرج هذا الجبل كتفصيل السراويل، ثم ينفرج برأس البحرين شعبتان على مبدأ هذا الجبل، ويبقى الجبل بينهما كأنه خارج من نفس الماء.

ومبدأ هذا الجبل هنا وراء قبة أرين عن شرقيها، وبعده منها خمس عشرة درجة . ويقال لهذا الجبل فى أوله المجرد، ثم يمتد حتى ينتهى فى القسم الغربى إلى طوله إلى خمس وستين درجة من أول المغرب. وهناك يتشعب من الجبل المذكور جبل القمر، وينصب منه النيل. وبه أحجار براقة كالفضة تتلألأ تسمى ضحكة الباهت، كل من نظرها ضحك والتصق بها حتى يموت، ويسمى مغناطيس الناس، ويتشعب منه شعب يسمى أسيفي، أهله كالوحش، ثم ينفرج منه فرجة، ويمر منه شعب إلى نهاية المغرب فى البحر المحيط يسمى جبل وحشية، به سباع لها قرون طوال لا تطاق.

وينعطف دون تلك الفرجة من جبل قاف شعاب، منها شعبتان إلى خط الاستواء يكتنفان مجرى النيل من الشرق والغرب، فالشرقى يعرف بجبل قاقول، وينقطع عند خط

الاستواء، والغربى يعرف بادمرية يجرى عليه نيل السودان المسمى ببحر الدمادم، وينقطع تلقاء مجالات الحبشة ما بين مدينة سمغرة وحيمى وراء هذه الشعبة، يمتد منه شعبة هى الأم من الموضع المعروف فيه الجبل بأسيفى المذكور إلى خط الاستواء، حيث الطول هناك عشرون درجة، ويعرف هناك بجبل كرقابة، وبه وحوش ضارية.

ثم ينتهى إلى البحر المحيط وينقطع دونه بفرجة، وذلك وراء التكرور عند مدينة قلمتبروا. ووراء هذا الجبل سودان يقال لهم نمنم يأكلون الناس. ثم تتصل الأم من ساحل البحر الشامى فى شماله شرقى رومية الكبرى مسامتا للشعبة المسماة أدمدمة المنقطعة بين سمغرة وثلاثون درجة، ويقع منشآت اتصال هذه الأم على عرض خمسين درجة، وكذلك تقع شعبها الآخذة فى الجنوب على عرض خمسين درجة عند آخرها، ما بين سردانة وبلنسية.

وتتناهى وصلة هذه الأم إلى البحر المحيط فى نهاية الشمال قبالة جزيرة بركانية، وتبقى سوسية داخل الجبل. ثم تمد هذه الأم بعد انقطاع لطيف، وينعطف العطاف خرجة البحر المحيط فى المغرب على الصقلب المسماة ببحر الأنفلشين ممتداً إلى غاية المشرق، ويسمى هناك بجبل قاقونا، ويبقى وراءه البحر جامداً لشدة البرد، ثم ينعطف من الشمال إلى المشرق جنوباً بتغريب إلى كتف السد الشمالي، فيتلاقى هناك الطرفان، وبينهما فى الفرجة المنفرجة سوّى ذو القرنين بين الصدفين.

وفى جزيرة القمر ثلاثة أنهار: أحدها فى شرقيها من قنطوراً ومعلا، وثانيها فى غربيها ينصب من جبل قدم آدم على مدينة سبأ، ويأخذ ماراً على مدينة فردرا، ويتبحر هناك بحيرة فى جنوبها مدينة كيما. حيث محل السودان الذين يأكلون الناس، وثالثها فى غربيها أيضاً. ويخرج من الجبل المشبه ماء محدودب الذيل، يطوف بمدينة دهما، فتبقى مدينة دهما فى جزيرة، بينما يكون هو محيطاً بها شرقاً وجنوباً وغرباً، ويصير لذلك كالجزيرة، ويتصل شمالها بالبحر الهندي، وتقع مدينة قواره فى غربيه حيث يصب فى البحر الهندي.

ومن جبل القمر يخرج نهر النيل، وقد كان يتبدد على وجه الأرض، فلما قدم نقراوش الجبار بن مركابل بن دوابيل بن عرباب بن آدم عليه السلام إلى أرض مصر ومعه عدة من

بني عرباب، واستوطنوها، وبنوا بها مدينة أمسوس وغيرها من المدائن، وحفروا النيل حتى أجروا ماءه إليهم.

ولم يكن قبل ذلك معتدل الجري، بل ينبطح ويتفرق في الأرض، حتى وجه إلى النوبة الملك نقراوش فهندسوه، وساقوا منه أنهاراً إلى مواضع كثيرة من مدنهم التي بنوها، وساقوا منه نهراً إلى مدينة أمسوس، ثم لما خربت أرض مصر بالطوفان - كانت أيام البودشير بن قفط بن مصر بن مصر بن حام بن نوح عليه السلام - عدل جانبي النيل تعديلاً ثانياً بعد ما أتلفه الطوفان.

قال الإستاذ إبراهيم بن وصيف شاه: فملك البودشير وتجبر، وهو أول من تكهن وعمل بالسحر واحتجب عن العيون. وقد كان اعمامه أشمن وأتريب وصا ملوكاً على أحيازهم، إلا أنه قهرهم بجبروته وقوته فكان الذكر له، كما تجبر أبوه على من قبله لأنه كان أكبرهم. ولذلك أغضوا عنه.

فيقال إنه أرسل هرمس الكاهن المصري إلى جبل القمر الذي يخرج النيل من تحته حتى عمل هناك التماثيل النحاس، وعدل البطيحة التي ينصب فيها ماء النيل.

ويقال إنه الذي عدل جانبي النيل، وقد كان يفيض، وربما انقطع في مواضع.

وهذا القصر الذي فيه تماثيل النحاس يشتمل على خمس وثمانين صورة، جعلها هرمس جامعة لما يخرج من ماء النيل بمعاقد ومصاب مدورة، وقنوات يجري فيها الماء، وينصب إليها إذا خرج من تحت جبل القمر، حتى يدخل من تلك الصور ويخرج من حلوقها وجعل لها قياساً معلوماً بمقاطع وأذرع مقدرة، وجعل ما يخرج من هذه الصور من الماء ينصب إلى الأنهار، ثم يصير منها إلى بطيحتين، ويخرج منهما حتى ينتهي إلى البطيحة الجامعة للماء الذي يخرج من تحت الجبل.

وعمل لتلك الصور مقادير من الماء الذي يكون معه الصلاح بأرض مصر وينتفع به أهلها دون الفساد، وذلك الانتهاء المصلح ثمانية عشر ذراعاً بالذراع الذي مقداره اثنان وثلاثون إصبعاً، وما فضل عن ذلك عدل عن يمين تلك الصور وشمالها إلى مسارب يخرج ويصب

في رمال وغياض لا ينتفع بها من خلف خط الاستواء، ولولا ذلك لغرق ماء النيل البلدان التي يمر عليها.

قال: وكان الوليد بن دومع العمليقي(٢٣٢) قد خرج في جيش كثيف ينتقل في البلدان ويقهر ملوكها ليسكن ما يوافقه منها، فلما صار إلى الشام انتهى إليه خبر مصر وعظم قدرها، وأن أمرها قد صار إلى النساء وباد ملوكها، فوجه غلاماً له يقال له عون إلى مصر، وسار إليها بعده واستباح أهلها، وأخذ الأموال، وقتل جماعة من كهنتها.

ثم سنح له أن يخرج ليقف على مصب النيل فيعرف ما بحافتيه من الأمم، فأقام ثلاث سنين يستعد لخروجه، وخرج في جيش عظيم، فلم يمر بأمة إلا أبادها، ومر على أمم السودان وجاوزهم، ومر على أرض الذهب فرأى فيها قضبانا نابتة من ذهب.

ولم يزل يسير حتى بلغ البطيحة التي ينصب ماء النيل فيها من الأنهار التي تخرج من تحت جبل القمر، وسار حتى بلغ هيكل الشمس وتجاوزه حتى بلغ جبل القمر، وهو جبل عال، وإنما سمي جبل القمر لأن القمر لا يطلع عليه لأنه خارج من تحت خط الاستواء.

ونظراً إلى النيل يخرج من تحته فيمر في طرايق وأنهار دقاق حتى ينتهي إلى حظيرتين، ثم يخرج منهما في نهرين حتى ينتهي إلى حظيرة أخري، فإذا جاوز خط الاستواء مدته عين تخرج من ناحية نهر مهران بالهند، وتلك العين أيضاً تخرج من تحت جبل القمر إلى ذلك الوجه.

ويقال إن نهر مهران مثل النيل يزيد وينقص، وفيه التماسيح والأسماك التي مثل أسماك النيل. ووجد الوليد بن دومع القصر الذي فيه التماثيل النحاس التي عملها هرمس الأول في وقت البودشير بن قفطريم بن قبطيم ابن مصرايم.

وقد ذكر قوم من أهل الأثر أن الأنهار الأربعة تخرج من أصل واحد من قبة في أرض الذهب التي من وراء البحر المظلم، وهي سيحون وجيحون والفرات والنيل، وأن تلك الأرض من أرض الجنة، وأن تلك القبة من زبرجد، وأنها قبل أن تسلك البحر المظلم أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور.

---

(٢٣٢) له ذكر في جمهرة أنساب العرب لابن حزم.

وممن جاء بهذا رجل من ولد العيص بن إسحاق بن ابراهيم عليهما السلام، وصل إلى تلك القبة، وقطع البحر المظلم، وكان يقال له حايد.

وقال آخرون: تنقسم هذه الأنهار على اثنين وسبعين قسماً حذاء اثنين وسبعين لساناً للأمم.

وقال آخرون: هذه الأنهار من ثلوج تتكاثف، ويذيبها الحر فتسيل إلى هذه الأنهار، وتسقى من عليها، لما يريد الله عز وجل من تدبير خلقه.

قالوا: ولما بلغ الوليد جبل القمر، رأى جبلاً عالياً فعمل حيلة إلى أن صعد إليه ليرى ما خلفه، فأشرف على البحر الأسود الزفتى المنتن، ونظر إلى النيل يجرى عليه كالأنهار الدقاق، فأتته من ذلك البحر روائح منتنة هلك كثير من أصحابه من أجلها فأسرع النزول بعد أن كاد يهلك.

وذكر قوم أنهم لم يروا هناك شمساً ولا قمراً، إلا نوراً أحمر كنوز الشمس عند غيابها.

وأما ما ذكر عن حايد وقطعه البحر المظلم ماشياً عليه لا يلصق بقدمه منه شئ. وكان فيما يذكر نبياً، وأوتى حكمة، وأنه سأل الله تعالى أن يريه منتهى النيل فأعطاه قوة على ذلك. فيقال إنه أقام يمشى عليه ثلاثين سنة فى عمران، وعشرين سنة فى خراب.

قالوا: وأقام الوليد فى غيبته أربعين سنة، وعاد ودخل منف، وأقام بمصر فاستعبد أهلها، واستباح حريمهم وأموالهم، وملكهم مائة وعشرين سنة، فأبغضوه وسئموه، إلى أن ركب فى بعض أيامه متصيداً، فألقاه فرسه فى وهدة فقتله، واستراح الناس منه.

وقال قدامة بن جعفر فى كتاب «الخراج»: انبعاث النيل من جبل القمر وراء خط الاستواء من عين تجرى منها عشرة أنهار، كل خمسة منها تصب إلى بطيحة، ثم يخرج من كل بطيحة نهران، وتجرى الأنهار الأربعة إلى بطيحة كبيرة فى الأقليم الأول، ومن هذه البطيحة يخرج نهر النيل.

وقال فى كتاب «نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق»(٢٣٣): ان هذه البحيرة تسمى بحيرة كورى منسوبة لطائفة من السودان يسكنون حولها متوحشين يأكلون من وقع إليهم من

---

(٢٣٣) وصاحب الكتاب الإدريسي.

الناس . ومن هذه البحيرة يخرج لهم نهر غانة وبحر الحبشة ، فإذا خرج النيل منها يشق بلاد كوري وبلاد ينه ، وهم طائفة من السودان بين كانم والنوبة . فإذا بلغ دنقلة ـ مدينة النوبة ـ عطف من غربيها وانحدر إلى الإقليم الثاني ، فيكون على شطيه عمارة النوبة ، وفيه هناك جزائر متسعة عامرة بالمدن والقري ، ثم شرق إلى الجنادل .

وقال المسعودى رحمه الله تعالى : رأيت فى كتاب جغرافياً النيل مصوراً ظاهرا من تحت جبل القمر ، ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنتى عشرة عيناً ، فتصب تلك المياه إلى بحيرتين هنالك كالبطائح ، ثم يجتمع لماء منهما جارياً فيمر برمال هنالك وجبال ، ويخرق أرض السودان فيما يلى بلاد الزنج ، فيتشعب منه خليج يصب فى بحر الزنج ويجرى على وجه الأرض تسعمائة فرسخ ـ وقيل ألف فرسخ ـ فى عامر وغامر من عمران وخراب ، حتى يأتى أسوان من صعيد مصر .

وقال فى كتاب هردسوس : نهر النيل مخرجه من ريف بحر القلزم ، ثم يميل إلى ناحية الغرب ، فيصير فى وسطه جزيرة ، وآخر ذلك يميل إلى ناحية الشمال فيسقى أرض مصر . وقيل أن مخرجه من عين فيما يجاوز الجبل ، ثم يغيب فى الرمال ، ثم يخرج غير بعيد فيصير له محبس عظيم ، ثم يساير البحر المحيط على قفار الحبشة ، ثم يميل على اليسار إلى أرض مصر . . . فيحق ما يظن بهذا النهر أنه عظيم ، إذ كان مجراه على ما حكيناه .

قال : ونهر النيل ـ وهو الذى يسمى بأون ـ مخرجه خفي ، ولكن ظاهر إقباله من أرض الحبشة ، ويصير له هناك محبس عظيم مجراه إليه مائتا ميل .

وذكر مخرجه حتى ينتهى إلى البحر .

قال : وكثيراً ما يوجد فى نهر النيل التماسيح . وإقبال النيل من أرض الحبشة ليس يختلف فيه أحد ، وعدة أمياله من مخرجه المعروف إلى موقفه مائة ألف وتسعون ألفاً وتسعمائة وثلاثون ميلاً . وماء النيل عكر مرمل عذب وفي . انتهي .

والنيل أذا وصل إلى الجنادل كان عند انتهاء مراكب النوبة انحداراً ، ومراكب الصعيد إقلاعاً . وهناك حجارة مضرسة لا مرور للمراكب عليها إلا فى أيام زيادة النيل ، ثم يأخذ على الشمال فيكون على شرقيه أسوان من الصعيد الأعلي ، ويمر بين جبلين يكتنفان أعمال

مصر : أحدهما شرقي، والآخر غربي، حتى يأتى مدينة فسطاط مصر فيكون فى بره الشرقي. فإذا تجاوز فسطاط مصر بمسافة يوم، صار فرقتين : فرقة تمر حتى تصب فى بحر الروم عند دمياط، وتسمى هذه الفرقة بحر الشرق، والفرقة الأخرى هى عمود النيل ومعظمه، يقال لها بحر الغرب، تمر حتى تصب فى بحر الروم أيضاً عند رشيد، وكانت مدينة كبيرة فى قديم الزمان.

ويقال إن مسافة النيل من منبعة إلى أن يصب فى البحر عند رشيد سبعمائة وثمانية وأربعون فرسخاً، وإنه يجرى فى الخراب أربعة أشهر، وفى بلاد السودان شهرين، وفى بلاد الإسلام مسافة شهر.

وذهب بعضهم إلى أن زيادة ماء النيل إنما تكون بسبب المد الذى يكون فى البحر، فإذا فاض ماؤه تراجع النيل وفاض على الأراضي، ووضع فى ذلك كتاباً حاصله أن حركة البحر - التى يقال لها المد والجزر - توجد فى كل يوم وليلة مرتين، وفى كل شهر قمرى مرتين، وفى كل سنة مرتين.

فالمد والجزر اليومى تابع لقرص القمر، ويخرج الشعاع عنه من جنبتى جرم الماء . . . فإذا كان القمر وسط السماء كان البحر فى غاية المد، وكذا إذا كان القمر فى وتد الأرض، فإذا بزغ القمر طالعاً من الشرق أو الغرب، كان الجزر.

والمد الشهرى يكون عند استقبال القمر للشمس فى نصف الشهر، ويقال له الامتلاء أيضاً عند الاجتماع، ويقال له السرار.

والجزار يكون أيضاً فى وقتين : عند تربيع القمر للشمس فى سابع الشهر، وفى ثانى عشريه.

والمد السنوى يكون أيضاً فى وقتين : أحدهما عند حلول الشمس آخر برج السنبلة، والآخر عند حلول الشمس بآخر برج الحوت.

فإن اتفق أن يكون ذلك فى وقت الامتلاء أو الاجتماع، فإنه حينئذ يجتمع الامتلاءان الشهرى والسنوي، ويكون عند ذلك البحر فى غاية الفيض، لاسيما أن وقع الاجتماع أو

الامتلاء فى وسط السماء، ووقع مع النيرين أو مع أحدهما أحد الكواكب السيارة، فإنه يعظم الفيض.

فإن وقع كوكب فصاعدا مع أحد النيرين تزايد عظيم الفيض، وكانت زيادة النيل تلك السنة عظيمة جداً، وزاد أيضاً نهر مهران.

فإن كان الاجتماع أو الامتلاء زائلا عن وسط السماء، وليس مع أحد النيرين كوكب، فإن النيل ونهر مهران لا يبلغان غاية زيادتهما لعدم الأنوار التى تثير المياه، ويكون بمصر فى هذه السنة الغلاء.

والجزر السنوى يكون عند حلول الشمس برأسى الجدى والسرطان.

فأما المد اليومى الدافع من البحر المحيط، فإنه لا ينتهى فى البحر الخارج من المحيط أكثر من درجة واحدة فلكية، ومساحتها من الأرض نحو من ستين ميلاً ثم ينصرف، وانصرافه هو الجزر. وكذلك الأودية إذا كانت الأرض وهدة.

والمد الشهرى ينتهى إلى أقاصى البحار، وهو يمسكها حتى لا تنصب فى البحر المحيط، وحيث ينتهى المد الشهرى فهناك منتهى ذلك البحر وطرفه.

وأما المد السنوى فإنه يزيد فى البحار الخارجة عن البحر المحيط زيادة بينه، ومن هذه الزيادة تكون زيادة النيل وامتلاؤه وامتلاء نهر مهران والديتلو الذى ببلاد السند.

قال: ولما جاء أرسطو إلى مصر مع الإسكندر، ورأى مصب النيل، وعلم أن من المحال أن يكون النيل فى أسوان وادياً من الأودية، وكلما أسحل اتسع حتى أن عرضه فى أسفل ديار مصر لينتهى إلى مائة ميل عند غاية الفيض، وله أفواه كثيرة شارعة فى البحر تسع كل ما يهبط من الميزان فى ذلك الصنع . . . فرأى محالاً أن يكون الوادى بحيث يضيق أسفله عن حمل ما يأتى به أعلاه، مع ضيق أعلاه وسعه أسفلة.

فلما رأى ذلك قال: إن رياحاً تستقبل جرية الماء وتردعه فيفيض لذلك.

وقال الإسكندر: إن من المحال أن يكون الريح يردع الماء السائل فى الوادى حتى يفيض أكثر من مائة ميل، ولو كانت الريح تفعل ذلك لكان الماء ينفلت من أسفل الوادى ويميل إلى

البحر، لأن البحر لايمسك إلا أعلاه، ولكن الرياح تقذف الرمل فى أفواه تلك الشوارع التى تفضى إلى البحر، فيعتريها شبه الردم، فيفيض.

قال: وأغفل أن الرمل جسم متخلخل، فالماء يتخلله وينفذه سائلاً إلى البحر، مع أن الرمل لم يعتل اعتلاء يظهر للحس، والماء سائل فى كل حين على حلق تنيس ودمياط وحلق رشيد وحلق الإسكندرية، ففنطوا لاستحالة كونه سائلاً عن سيل حامل، ونسبوا توقفه إلى الريح والرمل. وهم استقصوا الهواء واستقصوا الأرض، وأغفلوا الاستقصاء الثالث الذى هو الماء، لأنهم لم يعرفوا حركة البحر السنوية. لأنها لا تبلغ الغاية إلا فى ثلاثة أشهر، فلا يظهر مقدار صعودها فى كل يوم للحس، ولذلك وضع أمير مصر المقياس بديار مصر.

قال: والمد كله واحد، وهو أن القمر يقابل الماء كما تقابل الشمس الأرض. فنور القمر إذا قابل كرة الأرض سخنها، كما تسخن الشمس الهواء المحيط، فيعترى الهواء المحيط بالماء بعض تسخين يذيب الماء، فيفيض وينمو بخاصته، كالمرآة المحرقة الملهبة للجو حتى تحرق القطنة الموضوعة بين المرآة والشمس... فهذا مثاله فى المقابلة.

ومثاله فى المسرار كون الزجاجة المملوءة ماء يلقى الشعاع إلى حلقها فتحترق القطنة أيضاً، فالقمر جسم نورى باكتسابه ذلك من الشمس، فإذا حال بين الشمس والأرض خرج عن جانبى الماء شعاع نافذ يمر مع جنبى الماء فيسخن ماقابله فينمو، والماء جسم شفاف عن جانبيه يخرج الشعاع كما يخرج عن جانبى الزجاجة، فيحدث لها نور يسخن الهواء الذى يحيط بالزجاجة أو بالأرض، فيعترى الماء شبه تسخين ينمو به ويزيد، وذلك قبالة القرص، وقبالة مخرج الشعاع من قبالة وتد القمر. فهذا هو المد دائماً، ويستدير باستدارة الفلك، وتدويره لفلك القمر، وتدوير فلك القمر للقمر.

والمد الشهرى هو أن يقابل القمر الشمس أو يستتر تحتها، لأنه ليس إلا كون القمر قباله الشمس، لكونه فى تربيع الشمس أضعف، وفى المقابلة أقوي. وكذلك إذا قابلها على سطح كرة الأرض، بحيث تكون الحركة أشد، والاكتناف للماء والأرض أعم، فذلك هو المد السنوي.

فصل في الرد على من اعتقد
أن النيل من سيل يفيض

أمـا العـامـة فليس عندهم مـا يجيء على وجـه الأرض أنه سـيل، ومن تفطن إلى عظمـه واتساعه فى أسفله وضيقه فى أعلاه، ولم ينظر إلى ماء ولا أرض ولا هواء، نسب ذلك إلى الخيال المحض، كما فعل صاحب كتاب «المسالك والممالك» الذى زعم أن الماء يسافر من كل أرض ومـوطن إلى النيل تحت الأرض فيمـده، لأن النيل أنما يفيض فى الخريف، والعيـون والآبار فى ذلك الوقت يقل ماؤها، والنيل يكثر، فرأوا كثرة وقلة، فأضافوا أحدهمـا إلى الآخر بالخيال.

ومما يدلك على أنه ليس عن سيل يفيض أن السيل يكون فى غير وقت البحر، ولا يفيض النيل لكون البحر فى الجزر، فيصل السيل ويمر نحو البحر فلا يردعه رادع.

ومنهـا أن فيض النيل على تدريج مدة ثلاثة أشهر من حلول الشمس رأس السرطان إلى حلولها بآخر برج السنبلة. والناس يحسبون به قبل فيضه بمدة شهرين. ولعـامل مصر فى وسط النيل مقياس موضوع، وهو سارية فيها خطوط يسمونها أذرعاً يعلم بها مقدار صعوده فى كل يوم.

ومنها أن فيضه أبداً فى وقت واحد، فلو كان بالسيل لاختلف بعض الاختلاف.

ومنها أنه قد يجيء السيل فى غير هذا الوقت فلا يفيض.

ومنهـا أن الحذاق بمصر إذا رأوا الحر يزيد، علمـوا أن النيل سيزيد، لأن شدة الحر تذيب الهواء فيذوب الماء، ولا يكون إلا عن زيادة كوكب ودنو نور.

ومنهـا أن موضع مصبه من أسوان إنما هو واد من الأودية، ومـا أسحل اتسع حتى يكون عرض اتساعه نحواً من مائة ميل، وأسوان هو منتهى بلوغ الردع، فما ظنك بسيل مسيره نصف شهر، لا نسبة بين مصب أعلاه وأسفله، كيف كان يكون أعلاه لو كان امتلاء أسفله عن السيل؟

ومنها أن أهل أسوان إنما يرقبون بلوغ الردع إليهم مراقبة، ويحافظون عليه بالنهار محافظة، فإذا جن الليل أخذوا حقة خزف فوضعوا فيها مصباحاً، ثم يضعونه على حجر معد عندهم لذلك وجعلوا يرقبونه، فإذا أطفيء المصباح بطفو الماء عليه، علموا أن الردع قد وصل غايته المعهودة عندهم بأخذه فى الجزر، فيكتبون بذلك إلى أمير مصر يعلمونه أن الردع قد وصل غايته المعهودة عندهم، وأنهم قد أخذوا بقسطهم من الشرب. فحينئذ يأمر بكسر الأسداد التى على أفواه قرص المشارب، فيفيض الماء على أرض مصر دفعة واحدة.

ومنها أن جميع تلك المشارب تسد عند ابتداء النيل بالخشب والتراب، ليجتمع ما يسيل من الماء العذب فى النيل، ويكثر ويعم جميع أرضهم، ويمنع بجملته دخول الماء الملح عليه. فلو كان سيلاً ما احتاج إلى ذلك، ولفتحت له أفواه قرص المشارب عند ابتداء ظهوره.

ومنها أن الخلجان إذا سدت ولم يكن لها رادع من البحر، كان السيل من جنبه إلى البحر، إذ أسفل النيل أوسع وأخفض من أعلاه.

ومنها أن ماء النيل يصعد أكثر من عشرين ميلاً فى حلق رشيد وتنيس ودمياط، كما يفعل فى سائر الأودية التى تدخل المد والجزر، فلو كان النيل خالياً من الماء العذب، وصل البحر من أسوان إلى منتهى بلوغ لردع، لأن الماء يطلب بطبعه ما انخفض من الأرض، وأن يكون فى صفحة كرة مستوية الخطوط الخارجة من النقطة إلى المحيط متساوية.

ومنها أنها إذا فتحت تلك الأسداد، وكسرت الخلج، ، وفاض النيل على بطائح أرض مصر، شعر بذلك أهل أسوان للحين وقالوا : فى هذه الساعة كسرت الخلج وفاض ماء النيل على أرض مصر، لأن ذلك يتبين لهم بتحول الماء دفعة. فلو كان سيلاً، وهم على أعلى المصب، لقالوا : قد أرتفع المطر عن الأرض التى يسيل منها السيل.

ومنها أن قسيمه الذى يمر ببلاد الحبشة، المنبعث وإياه من جبل القمر، لا يفيض كمدة فيض النيل ثلاثة أشهر، ولا يقيم على وجه الأرض مدة مقامة، لكنه إذا كثر فيه السيل غمر جوانبه على قدر انبساطها، وإذا نضبت مادته أردع عليه، فلو كان فيض النيل عن السيل، وهما من شعب واحد، لكان شأنهما واحداً.

ولا نقول إن فيض النيل بسبب فيض البحر فقط، إذ لولا كونه سيل ماء لما دخل ردع البحر إليه، ولكان شاطئ ديار مصر كسائر السواحل المجاورة له، ولولا السيل السائل فيه لردمه البحر، إذ عادة البحر ردم السواحل.

وإنما دخل الشك على أهل مصر فى أيام النيل لأنهم لم يشاهدوا منشأه، ولا عاينوا مبدأه من جبل القمر، لأنه فى موضع لاساكن عليه، ولا تحققوا شيئاً من أمره، لأنه يعيد من أذهان العامة أن يعلموا أن ماء البحر يعظم فى أيام الصيف، لأن المعهود عندهم فى البحر أن يعظم فى أيام الشتاء. وطمو البحر فى الشتاء أما يكون عن الرياح الهابة عليه من أحد جانبيه، فيفيض ويخرج إلى الجانب الآخر، إلا ما كان من البحر المحيط، فإنه يتحرك أبداً من داخل البحر إلى البر، وهو أن المحيط يطلب بطبعه أن يكون على وجه الأرض، والأرض ليست بسيطة فهى تمانعه بما فيها من التركيب، فهو يطلب أبداً أن يعلوها ويركبها ببردها.

قال: والسبب فى عظم المد والجزر كثرة الأشعة، فإذا زاحمت الشمس والقمر الكواكب السيارة، عظم فيض البحر، وإذا عظم فيض البحر فاضت الأنهار، وكذلك إذا نهض القمر لمقابلة أحد السيارة ارتفع البخار، وصعد إلى كورة الزمهرير، ونزل المطر. فإذا فارق القمر الكواكب ارتفع المطر لكثرة التحليل، كما يكون فى نصف النهار عند توسط الشمس لرؤوس الخلق، وكما يكون عند حلول الكواكب الكبيرة على وسط خط أرين. . والله تعالى أعلم بالصواب.

قال مؤلفه رحمه الله تعالى: الذى تحصل من هذا القول أن النيل مخرجه من جبل القمر، وأن زيادته إنما هى من فيض البحر عند المد.

فأما كون مخرجه من جبل القمر فمسلم. إذ لا نزاع فى ذلك. وأما كون زيادته لا تكون إلا من ردع البحر له، بما حصل فيه من المد، فليس كذلك. نعم توالى هبوب الرياح الشمالية على وفور الزيادة وردع البحر له إعانة على الزيادة.

ومن تأمل النيل علم أن سيلاً سال فيه ولابد، فإنه لايزال أيام الشتاء وأوائل فصل الربيع ماؤه صافياً من الكدرة، فإذا فرغت أيام زيادته وكان فى غاية نقصه تغير طعمه ومال لونه إلى

الخضرة، وصار بحيث إذا وضع فى إناء يرسب منه شبه أجزاء صغيرة من طحلب. وسبب ذلك أن البطيحة التى فى أعالى الجنوب تردها الفيلة ونحوها من الوحوش حتى يتغير ماؤها، فإذا كثرت أمطار الجنوب فى فصل الصيف، وعظمت السيول الهابطة فى هذه البطيحة، فاض منها ما تغير من الماء، وجرى إلى أرض مصر، فيقال عند ذلك توحم النيل.

ولا يزال الماء كذلك حتى يعقبه ماء متغير، ويزاد عكره بزيادة الماء، فإذا وضع منه أيام الزيادة شئ فى إناء رسب باسفله طين لم يعهد فيه قبل أيام الزيادة، وهذا الطين هو الذى تحمله السيول التى تنصب فى النيل حتى تكون زيادته منها، وفه يكون الزرع بعد هبوط النيل، وإلا فأرض مصر سبخة لا تنبت ولا ينبت منها إلا ما مر عليه ماء الينل، وركد منه هذا الطين.

وقوله: «إن السيل يكون فى غير وقت فيض البحر، ولا يفيض النيل لكون البحر فى الجزر، فيصل السيل ويمر نحو البحر فلا يردعه رادع» غير مسلم، وإن العادة أن الشيول التى عليها زيادة ماء النيل لا تكون إلا عن غزارة الأمطار ببلاد الجنوب، وأمطار الجنوب لا تكون إلا فى أيام الصيف، ولم يعهد قط زيادة النيل فى الشتاء.

وأول دليل على أن كون زيادته عن سيل يسيل فيه إنما يزيد بتدريج على قدر ما يهبط فيه من السيول.

وأما استدلاله بصب النيل فى أسوان واتساعه أسفل الأرض، فإنما ذلك لأنه يصب من علو فى منخرق بين جبلين، يقال لهما الجنادل، وينبطح فى الأرض حتى يصب فى البحر. فاتساعه حيث لا يجد حاجزاً يحجزه عن الانبساط.

وأما قوله: «إن الأسداد إذا كثرت فاض الماء على الأرض دفعة» فليس كذلك، بل يصير الماء عند كسر كل سد من الأسداد فى خليج، ثم تفتح ترع من الخليج إلى الخليج إلى ما على جانبيه من الأراضى حتى يروي. فمن تلك الأراضى ما يروى سريعاً، ومنها ما يروى بعد أيام، ومنها ما لا يروى لعلوه.

وأما قوله «إن جميع تلك المشارب تستد عند ابتداء صعود النيل، ليجتمع ما يسيل من الماء فى النيل ويكثر، فيعم جمع أرضهم، ويمنع بجملته دخول الماء الملح عليه» فغير مسلم

أن تكون السداد كما ذكر، بل إن أراضى مصر أقسام كثيرة : منها عال لايصل إليه الماء إلا من زيادة كثيرة، ومنها منخفض يروى من يسير الزيادة. والأراضى متفاوتة فى الارتفاع والانخفاض تفاوتاً كثيراً، ولذلك احتيج فى بلاد الصعيد إلى حفر الترع، وفى أسفل الأرض إلى عمل الجسور حتى يحبس الماء ليروى أهل النواحى على قدر حاجتهم إليه عند الاحتياج، وإلا فهو يزيد أولاً فى غير سقى الأراضي، حتى أذا اجتمع من زيادته المقدار الذى هو كفاية الأراضى فى وقت خلو الأراضى من الغلال. وذلك غالبا فى أثناء شهر مسرى - فتح سد الخليج حتى يجرى فيه الماء إلى حد معلوم، ووقف حتى يروى ما تحت ذلك الحد الذى وقف عنده الماء من الأرض، ثم فتح ذلك الحد فى يوم النيروز حتى يجرى إلى حد آخر، ويقف عنده حتى يروى ما تحت هذا الحد الثانى من الأراضي، ثم يفتح هذا الحد فى يوم عيد الصليب بعد النوروز بسبعة عشر يوماً حتى يجرى الماء، ويقف على حد ثالث حتى يروى ما تحت هذا الحد من الأراضي، ثم يفتح هذا الحد فيجرى الماء ويروى من هنالك من الأراضي، ويصب فى البحر الملح . . . هذا هو الحال فى سدود أراضى مصر.

وقوله : «إن ماء البحر يصعد أكثر من عشرين ميلاً فى حلق رشيد وتنيس ودمياط، فلو كان خالياً من الماء العذب لوصل البحر من أسوان إلى منتهى بلوغ الردع»، فنقول: هذا قول من لم يعرف أرض مصر، فإن النيل عند مصبه بأعالى أسوان يكون أعلى منه عن كونه أسفل الأرض مقامات عديدة، فإذا فاض حبسه أن يتدافع هو وماء النيل. وربما دخل ماء البحر النيل فى أيام نقصن النيل حتى يملح ماء النيل فيما بين دمياط وفارسكور. وأما فى أيام زيادة النيل فإنى شاهدت مصب النيل فى البحر من دمياط، وكل منهما يدافع الآخر فلا يطيقه، حتى صارا متمانعين. . . عبرة لمن اعتبر!

قوله : «إن الأسداد إذا فتحت علم أهل أسوان بذلك فى الحال» غير مسلم، بل لم نزل نشهد النيل فى الأعوام الكثيرة إذا فتح منه خليج أو انقطع مقطع فأغرق ماؤه أراضى كثيرة، لا يظهر النقص فيه إلا فيما قرب من ذلك الموضع، وما برح المفرِّد يخرج من قوص ببشرة وفاء النيل، وقد أوفى عندهم ستة عشر ذراعاً، فلا يوفى ذلك المقياس بمصر إلا بعد ثلاثة أيام ونحوها.

وأما قوله : «إن ما كان من النيل يمر ببلاد الحبشة بخالفه» فليس كذلك، بل الزيادة فى النيل أيام زيادته تكون ببلاد النوبة وما وراءها فى الجنوب، كما تكون فى أرض مصر، ولا فرق بينهما إلا فى شيئين : أحدهما أنه فى أرض مصر يجرى فى حدود، وهناك يتبدد على الأراضي. والثانى أن زيادته تعتبر بالقياس فى أرض مصر، وهناك لايمكن قياسه لتبدده ومن عرف أخبار مصر علم أن زيادة ماء النيل تكون عن أمطار الجنوب.

ويقال : إن النيل ينصب من عشرة أنهار من جبل القمر المتقدم ذكره، كل خمسة أنهار من شعبة، ثم تتبحر تلك الأنهار العشرة فى بحرين، كل خمسة أنهار تتبحر بحيرة بذاتها، ثم يخرج من البحيرة الشرقية بحر لطيف يأخذ شرقاً على جبل قاقول، ويمتد إلى مدن هناك، ثم يصب فى البحر الهندي، ويخرج من البحيرتين ستة، من كل بحيرة ثلاثة أنهار.

وتجتمع الأنهار الستة فى بحيرة متسعة تسمى البطيحة، وفيها جبل يفرق الماء نصفين: يخرج أحدهما من غرب البطيحة ـ وهو نيل السودان ـ ويصير نهراً يسمى بحرّ الدمادم، ويأخذ مغرباً ما بين سمغرة وغانة على جنوبى سمغرة وشمالى غانة، ثم ينعطف هناك منه فرقة ترجع جنوباً إلى غانة، ثم تمر على مدينة برسه، وتأخذ تحت جبل فى جنوبها خارج خط الأستواء إلى زفيلة، ثم تتبحر فى بحيرة هناك، وتستمر الفرقة الثانية مغربة إلى بلاد مالى والتكرور حتى تنصب فى البحر المحيط شمالى مدينة قلبتو.

ويخرج النصف الآخر متشاملاً آخذاً على الشمال إلى شرقى مدينة حيسا، ثم يشعب منه هناك شعبة تأخذ شرقاً إلى مدينة سحرت، ثم ترجع جنوباً، ثم تعطف شرقاً بجنوب إلى مدينة سحرتة، ثم إلى مدينة مركة، وينتهى إلى خط الاستواء حيث الطول خمس وستون درجة، ويتبحر هناك بحيرة، ويسمى عمود النيل، من قبالة تلك الشعبة شرقى مدينة شيمى متشاملا آخذاً على أطراف بلاد الحبشة، ثم يتشامل على بلاد السودان إلى مدينة دنقلة حتى يرمى على الجنادل إلى أسوان، وينحدر وهو يشق بلاد الصعيد إلى مدينة فسطاط مصر، ويمر حتى يصب فى البحر الشامي.

وقد استفيض ببلاد السودن أن النيل ينحدر من جبال سود يبين على بعد كأن عليها الغمام، ثم يتفرق نهرين : يصب أحدهما فى البحر المحيط إلى جهة بحر الظلمة الجنوبي، والآخر يتصل إلى مصر حتى يصب فى البحر الشامي.

ويقال إنه فى الجنوب يتفرق سبعة أنهار تدخل فى صحراء منقطعة، ثم تجتمع الأنهار السبعة وتخرج من تلك الصحراء نهراً واحداً فى بلاد السودان.

ذكر مقاييس النيل وزيادته

قال أبن عبدالحكم : أول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام. . . وضع مقياساً بمنف، ثم وضعت العجوز دلوكة أبنة زبا ـ وهى صاحبة حائط العجوز ـ مقياساً بأنصنا، وهو صغير الذرع، ومقياساً بأخميم، ووضع عبدالعزيز بن مروان مقياساً بحلوان، وهو صغير، ووضع أسامة بن زيد التنوخى فى خلافة الوليد مقياساً بالجزيرة ، وهو أكبرها.

قال يحيي بن بكير : أدركت القياس يقيس فى مقياس منف، ويدخل بزيادته إلى الفسطاط.

وقال القضاعى : كان أول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام، وبنى مقياساً بمنف، وهو أول مقياس وضعه عليه السلام.

وقيل أن النيل كان يقاس بمصر بأرض علوة إلى أن بنى مقياس منف، وأن القبط كانت تقيس عليه إلى أن بطل.

ومن بعده دلوكه العجوز بنت مقياساً بأنصنا، وهو صغير الذرع، وآخر بأخميم وهى التى بنت الحائط المحيط بمصر.

وقيل أنهم كانوا يقيسون الماء ـ قبل أن يوضع المقياس ـ بالرصاصة، فلم يزل المقياس فيما مضى قبل الفتح بقيسارية الأكسية، ومعالمه هناك، إلى أن ابتنى المسلمون بين الحصن والبحر أبنيتهم الباقية الآن.

وكان للروم أيضاً مقياس بالقصر خلف الباب يمنة من دخل منه فى داخل الزقاق، أثره قائم إلى اليوم، وقد بنى عليه وحواليه.

ثم بنى عمرو بن العاص عند فتحه مصر مقياساً بأسوان، ثم بنى بموضع يقال له دندرة.

ثم بنى فى أيام معاوية مقياس بأنصنا، فلم يزل يقاس عليه إلى أن بنى عبدالعزيز بن مروان مقياساً بحلوان - وكانت منزله - وكان هذا المقياس صغير الذرع.

فأما المقياس القديم الذى بنى فى الجزيرة، فالذى وضعه أسامة بن زيد، وقيل إنه كسر فيه ألفى أوقية، وهو الذى بنى بيت المال بمصر. ثم كتب أسامة بن زيد التنوخى عامل خراج مصر لسليمان بن عبدالملك ببطلانه، فكتب إليه سليمان بأن يبنى مقياساً فى الجزيرة، فبناه فى سنة سبع وتسعين.

ثم بنى المتوكل فيها مقياساً فى أول سنة سبع وأربعين ومائتين فى ولاية يزيد بن عبدالله التركى على مصر، وهو المقياس الكبير المعروف بالجديد، وأمر بأن يعزل النصارى عن قياسه. فجعل يزيد بن عبدالله(٢٣٤) التركى على المقياس أبا الرداد المعلم، واسمه عبدالله ابن عبدالسلام بن عبدالله بن أبى الرداد المؤذن، كان يقول القمى: أصله بالبصرة، قدم مصر، وحدث بها، وجعل على قياس النيل، وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب خراج مصر يومئذ سبعة دنانير فى كل شهر. فلم يزل المقياس من ذلك الوقت فى يد أبى الرداد وولده إلى اليوم. وتوفى أبو الرداد سنة ست وستين ومائتين.

ثم ركب أحمد بن طولون سنة تسع وخمسين ومائتين، ومعه أبو أيوب صاحب خراجه، وبكار بن قتيبة القاضي(٢٣٥)، فنظر إلى المقياس وأمر بإصلاحه، وقدر له ألف دينار، فعمر.

وبنى الحارث فى الصناعة مقياساً، وأثره باق لا يعتمد عليه.

---

(٢٣٤) هو يزيد بن عبدالله بن دينار أبو خالد من ولاة العباسين وقوادهم، تركى الأصل ولى إدارة مصر سنة ٢٤٢هـ للخليفة المنتصر العباسي، مات سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٩هـ.
انظر: النجوم الزاهرة ٢/ ٣٠٨، الولاة والقضاة ٢٠٢.

(٢٣٥) بكار بن قتيبة بن أسد أبو بكرة من بنى الحارث، ولد سنة ١٨٢هـ/ ٧٦٨م ومات سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م. قاض فقيه محدث.
انظر: تهذيب ابن عساكر ٣/ ٢٨٢، الولاة والقضاة ٤٧٧، الجواهر المضية ١/ ١٦٨، وفيات الأعيان ١/ ٩١.

وقال ابن عبدالحكم : ولما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إلى عمرو، حين دخل بئونة من أشهر العجم، فقالوا له : أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سنة لايجرى إلا بها.

فقال لهم : وما ذاك ؟

قالوا : أنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر، عمدنا إلى جارية بكر من أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى النيل.

فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون فى الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله.

فأقاموا بئونة وأبيب ومسري، وهو لا يجرى قليلاً ولا كثيراً، حتى هموا بالجلاء. فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بذلك، فكتب إليه عمر أنه قد أصبت، إن الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها فى داخل النيل إذا أتاك كتابي.

فلما قدم الكتاب إلى عمرو فتح البطاقة فإذا فيها : «من عبدالله أمير المؤمنين، إلى نيل مصر. أما بعد، فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك».

فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها، لأنه لايقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل، وأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً فى ليلة، وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر.

وذكر بعضهم أن جاحلاً الصدفى هو الذى جاء ببطاقة عمر رضى الله عنه إلى النيل حين توقف فجرى بإذن الله تعالي.

وقال يزيد بن أبى حبيب : إن موسى عليه السلام دعا على آل فرعون فحبس الله عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء، فطلبوا إلى موسى أن يدعوا الله، فدعا الله رجاء أن يؤمنوا- وذلك ليلة لصليب- فأصبحوا وقد أجراه الله فى تلك الساعة ستة عشر ذراعاً. فاستجاب الله- بطوله لعمر ابن الخطاب كما استجاب لنبيه موسى عليه السلام.

قال القضاعي : ووجدت في رسالة منسوبة إلى الحسن بن محمد بن عبدالمنعم(٢٣٦) قال : لما فتحت العرب مصر ، عرف عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حده في مقياس لهم ، فضلاً عن تقاصره ، وأن فرط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار ، وأن الاحتكار يدعو إلى تصاعد الأسعار بغير قحط .

فكتب عمر إلى عمرو يسأله عن شرح الحال فأجابه : إني وجدت ما تروى به مصر حتى لايقحط أهلها أربعة عشر ذراعاً ، والحد الذي يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعاً ، والنهايتان المخوفتان في الزيادة والنقصان ، وهما الظمأ والاستبحار ، اثنا عشر ذراعاً في النقصان ، وثمانية عشر ذراعاً في الزيادة .

هذا ، والبلد في ذلك الوقت محفور الأنهار ، معقود الجسور ، عندما تسلموه من القبط ، وخميرة العمارة فيه .

فاستشار أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عليا رضي الله عنه في ذلك ، فأمره أن يكتب إليه أن يبني مقياساً ، وأن ينقص ذراعين من أثني عشر ذراعاً ، وأن يقر ما بعدها على الأصل ، وأن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعاً أصبعين . ففعل ذلك ، وبناه بحلوان . . . فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الأرجاف ، وزوال ما منه كان يخاف ، بأن جعل الأثني عشر ذراعاً أربع عشرة ، لأن كل ذراع أربع وعشرون أصبعاً ، فجعلها ثمانياً وعشرين من أولها إلى أثني عشر ذراعاً يكون مبلغ الزيادة على الأثني عشر ثمانياً وأربعين أصبعاً ، وهي الذراعان ، وجعل الأربع عشرة ست عشرة والست عشرة ثماني عشرة والثماني عشرة عشرين .

قال القضاعي : وفي هذا الحساب نظر في وقتنا لزيادة فساد الأنهار وانتقاض الأحوال . وشاهد ذلك أن المقاييس القديمة الصعيدية من أولها إلى آخرها أربع وعشرون أصبعا كل ذراع ، والمقاييس الإسلامية على ما ذكر ، منها المقياس الذي بناه أسامة بن زيد التنوخي بالجزيرة ، وهو الذي هدمه الماء . وبنى المأمون آخر بأسفل الأرض بالبروذات ، وبنى المتوكل آخر بالجزيرة ، وهو الذي يقاس عليه الماء الآن ، وقد تقدم ذكره .

---

(٢٣٦) ورد ذكره في الولاة والقضاة للكندي .

قال ابن عفير عن القبط المتقدمين : إذا كان الماء فى اثنى عشر يوماً من مسرى اثنتى عشرة ذراعاً، فهى سنة ماء ، وإلا فالماء ناقص ، وإذا تم ست عشرة ذراعاً قبل النوروز فالماء يتم. . . فاعلم ذلك .

وقال أبو الصلت : وأما النيل وينبوعه ، فهو من وراء خط الاستواء من جبل هناك يعرف بجبل القمر ، فإنه يبتدئ فى التزايد فى شهر أبيب . والمصريون يقولون : إذا دخل أبيب كان للماء دبيب . وعند إبتدائه فى التزايد يتغير جميع كيفياته ويفسد ، والسبب فى ذلك مروره بنقائع مياه آجنة يخالطها فيجتلبها معه ، إلى غير ذلك مما يحتمله .

فإذا بلغ الماء خمسة عشر ذراعاً ، وزاد من السادس عشر أصبعاً واحداً ، كسر الخليج . ولكسره يومه معدود ، ومقام مشهود ، ومجتمع خاص ، يحضره العام والخاص . فإذا كسر فتحت الترع ـ وهى فوهات الخلجان ـ ففاض الماء وساح ، وغمر القيعان والبطاح ، وانضم الناس إلى أعالى مساكنهم من الضياع والمنازل ، وهى على آكام وربى لا ينتهى الماء إليها ، ولا يتسلط السيل عليها ، فتعود أرض مصر بأسرها عند ذلك بحراً غامراً لما بين جبليها ، ريثما يبلغ الحد المحدود فى مشيئة الله عز وجل له ، وأكثر ذلك يحوم حول ثمانى عشرة ذراعاً .

ثم يأخذ عائداً فى صبه إلى مجرى النيل ومسربه ، فينضب أولاً عما كان من الأرض عالياً ، ويصير فيما كان منها متطامناً ، فيترك كل قرارة كالدرهم ، ويغادر كل ملقة كالبرد المسهم .

وقال القاضى أبو الحسن على بن محمد الماوردي(٢٣٧) فى كتاب «الأحكام السلطانية» : وأما الذراع السوداء فهى أطول من ذراع الدور بأصبع وثلثى أصبع ، وأول من وضعها أمير المؤمنين هارون الرشيد ، قدرها بذراع خادم أسود كان على رأسه قائماً ، وهى التى تتعامل الناس بها فى ذرع البز والتجارة والأبنية وقياس نيل مصر .

---

(٢٣٧) على بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي . أقضى قضاه عصره من العلماء الباحثين ، أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة . ولد سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م ، ومات ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م له «نصيحة الملوك» و «تسهيل النظر» و «أعلام النبوة» ومعرفة الفضائل إلخ .
أنظر : طبقات السبكي ٣/ ٣٢ ، الأنساب ١١٥ أ ، الوفيات ١/ ٣٢٦ ، شذرات الذهب ٣/ ٢٥٨ ، آداب اللغة ٢/ ٣٣٣ ، مفتاح السعادة ٢ / ١٩ .

وأكثر ما وجد فى القياس من النقصان سنة سبع وتسعين ومائة، وجد فى المقياس تسعة أذرع وأحد وعشرون أصبعاً. وأقل ما وجد منه سنة خمس وستين ومائة، فإنه وجد فيه ذراع واحد وعشر أصابع. وأكثر ما بلغ فى الزيادة سنة تسع وتسعين ومائة، فإنه بلغ ثمانية عشر ذراعاً وتسعة عشر أصبعاً. وأقل ما كان فى سنة ست وخمسين وثلاثمائة الهلالية، فإنه بلغ اثنى عشر ذراعاً وتسع عشرة إصبعاً، وهى أيام كافور الإخشيدي.

والمقياس عمود رخام أبيض مثمن، فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه، وهذا العمود مفصل على أثنين وعشرين ذراعاً كل ذراع مفصل على أربعة وعشرين قسماً متساوية تعرف بالأصابع، ماعدا الاثنى عشر ذراعاً الأولى فإنها مفصلة على ثمان وعشرين أصبعاً كل ذراع.

وقال المسعودى: قالت الهند: زيادة النيل ونقصانه بالسيول، ونحن نعرف ذلك بتوالى الأنواء وكثرة الأمطار.

وقالت الروم: لم يزد قط ولم ينقص، وإنما زيادته ونقصانه من عيون كثرت واتصلت.

وقال القبط: زيادته ونقصانه من عيون فى شاطئه يراها من سافر ولحق بأعاليه.

وقيل لم يزد قط، وإنما زيادته بريح الشمال، إذا كثرت واتصلت تحبسه، فيفيض على وجه الأرض.

وقال قوم: سبب زيادته هبوب ريح تسمى ريح الملتن، وذلك أنها تحمل السحاب الماطر من خلف خط الأستواء، فيمطر ببلاد السودان والحبشة والنوبة، فيأتى مدده إلى أرض مصر بزيادة النيل. ومع ذلك فإن البحر الملح يقف ماؤه على وجه النيل، فيتوقف حتى يروى البلاد.

وفى ذلك يقول:

فاسمع فللسامع أعلى يدا
عندى وأسمى من يد المحسن
فالنيل ذو فضل ولكنه
الشكر فى ذلك للملتن

ويبتدئ النيل بالتنفس والزيادة بقية بئونة (وهو حزيران)، وأبيب (وهو تموز)، ومسرى (وهو آب). فإذا كان الماء زائداً زاد شهر توت كله (وهو أيلول) الى انقضائه، فإذا انتهت الزيادة إلى الذراع الثامن عشر ففيه تمام الخراج، وخصب الأرض، وهو ضار بالبهائم لعدم الرعى والكلا.

وأتم الزيادات كلها، العامة النفع للبلد كله، سبعة عشر ذراعاً، وفى ذلك كفايتها ورى جميع أرضها. وإذا زاد على ذلك وبلغ ثمانية عشر ذراعاً وغلقها، استبحر من أرض مصر الربع، وفى ذلك ضرر لبعض الضياع لما ذكرنا من الاستبحار وإذا كانت الزيادة على ثمانية عشر ذراعاً، كانت العاقبة فى انصرافه حدوث وباء. وأكثر الزيادات ثمانية عشر ذراعاً.

وقد بلغ فى خلافة عمر بن عبدالعزيز أثنى عشر ذراعاً. ومساحة الذراع الى أن بلغ أثنتى عشرة ذراعاً ثمان وعشرون أصبعاً، ومن اثنتى عشرة ذراعاً إلى ما فوق ذلك يكون الذراع أربعاً وعشرين أصبعاً. وأقل ما يبقى فى قاع المقياس من الماء ثلاثة أذرع، وفى تلك السنة يكون الماء قليلاً.

الأذرع التى يستسقى عليها بمصر هى ذراعان تسميان منكرا ونكيراً، وهما الذراع الثالث عشر والذراع الرابع عشر فإذا انصرف الماء عن هذين الذراعين وزيادة نصف ذراع من الخمس عشرة، استسقى الناس بمصر، فكان الضرر الشامل لكل البلدان وإذا تم خمس عشرة ودخل فى ست عشرة ذراعاً كان فيه صلاح لبعض الناس، ولا يستسقى فيه، وكان ذلك نقصاً من خراج السلطان.

والنبيذ يتخذ بمصر من ماء طوبه، وهو كانون الثانى - بعد الغطاس، وهو لعشرة تمضى من طوبة، وأصفى ما يكون ماء النيل فى ذلك الوقت. وأهل مصر يفتخرون بصفاء ماء النيل فى هذا الوقت، وفيه يخزن الماء أهل تنيس ودمياط وتونة وسائر قرى البحيرة.

وقد كانت مصر كلها تروى من ست عشرة ذراعاً، غامرها وعامرها، لما أحكموا من جسورها، وبناء قناطرها، وتنقية خلجانها. وكان الماء إذا بلغ فى زيادته تسع أذرع دخل خليج المنهى وخليج الفيوم وخليج سردوس وخليج سخا.

قال: والمعمول عليه فى وقتنا هذا - وهو سنة خمس وأربعين وثلاثمائة - أنه إن زاد على الستة عشر ذراعاً أو نقص عنها، نقص من خراج السلطان.

وقد تغير فى زماننا هذا عامة ما تقدم ذكره، لفساد حال الجسور والترع والخلجان وقانونه اليوم أنه يزيد فى القيظ إذا حلت الشمس برج السرطان والأسد والسنبلة حين تنقص عامة الأنهار التى فى المعمور، ولذلك قيل إن الأنهار تمده بمائها عند غمضها فتكون زيادته.

وتبتدئ الزيادة من خامس بئونة، وتظهر فى ثانى عشره، وأول دفعه فى الثانى من أبيب، وتنتهى زيادته فى ثامن بابة، ويأخذ فى النقصان من العشرين منه، فتكون مدة زيادته ـ من ابتدائها إلى أن ينقص ـ ثلاثة أشهر وخمسة وعشرين يوماً، وهى أبيب ومسرى وتوت وعشرون يوماً من بابة، ومدة مكثة بعد انتهاء زيادته أثنا عشر يوماً، ثم يأخذ فى النقصان.

ومن العادة أن ينادى عليه دائماً فى اليوم السابع والعشرين من بئونة بعدما يؤخذ قاعه، وهو ما بقى من الماء القديم، فى ثالث عشر بئونة، ويفتح الخليج الكبير إذا أكمل الماء ستة عشر ذراعاً.

وأدركت الناس يقولون : نعوذ بالله من أصبع من عشرين وكنا نعهد الماء إذا بلغ أصابع من عشرين ذراعاً، فاض ماء النيل، وغرق الضياع والبساتين، وفارت السلاليع، وها نحن فى زمن، منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة، إذا بلغ الماء فى سنة إصبعاً من عشرين لايعم الأرض كلها لما قدم فسد من الجسور، وكان إلى ما بعد الخمسمائة من الهجرة قانون السيل سنة عشر ذراعاً فى مقياس الجزيرة، وهى فى الحقيقة ثمانية عشر ذراعاً.

وكانوا يقولون : إذا زاد على ذلك ذراعاً واحدة زاد خراج مصر مائة ألف دينار لما يروى من الأراضى العالية، فإن بلغ ثمانية عشر ذراعاً كانت الغاية القصوي، فإن الثمانية عشر ذراعاً فى مقياس الجزيرة اثنان وعشرون ذراعاً فى الصعيد الأعلي، فإذا زاد على الثمانية عشر ذراعاً واحداً، نقص من الخراج مائة ألف دينار، لما يستبحر من الأرض المنخفضة.

قال أبن ميسر(٢٣٨) فى حوداث سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. وفيها بلغت زيادة ماء اسيل تسعة عشر ذرعاً وأربعة أصابع، وبلغ الماء الباب الجديد أول الشارع خارج القاهرة، وكان الناس يتوجهون إلى القاهرة من مصر من ناحية المقابر. فلما بلغ الخليفة الحفظ لدين

---

(٢٣٨) هو محمد بن على بن يوسف بن ميسر تاج الدين أبو عبدالله. مؤرخ مصرى توفى بلقاهرة سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م من كتبه «تاريخ القضاة» و «ذيل تاريخ مصر للمسبحي».
انظر : كشف الظنون ٣٠٤.

الله أبا الميمون عبدالمجيد بن محمد أن الماء وصل إلى الباب الجديد، أظهر الحزن والإنقطاع. فدخل إليه بعض خواصه وسأله عن السبب، فأخرج له كتاباً فإذا فيه «إذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد» ثم قال: هذا الكتاب الذى نعلم منه أحوالنا دولتنا وما يأتى بعدها فمرض الحافظ فى آخر هذه السنة، ومات فى أول سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

وقال القاضى الفاضل فى متجددات سنة ست وسبعين وخمسمائة. وفى يوم الأثنين السادس والعشرين من شهر ربيع الأول، وهو السادس عشر من مسري، وفى النيل على ستة عشر ذراعاً، وهو الوفاء، ولا يعرف وفاؤه بهذا التاريخ فى زمن متقدم. وهذا أيضاً مما تغير فيه قانون النيل فى زماننا، فإنه صار يوفى فى أوائل مسري، ولقد كان الوفاء فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة فى اليوم التاسع والعشرين من أبيب قبل مسرى بيوم.

وهذا من أعجب ما يؤرخ فى زيادات النيل.

واتفق أن فى الحادى عشر من جمادى الأولي، سنة تسع وسبعمائة، وفى النيل، وكان ذلك فى اليوم التاسع عشر من بابة بعد النوروز بتسعة وأربعين يوماً.

قال: وفى تاسع عشره (يعنى شوال سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة) كسر بحر أبى المنجي، وباشر الملك العزيز عثمان كسره، وزاد النيل فيه إصبعا، وهى الإصبع الثامنة عشرة من ثمان عشرة ذراعاً، وهذا الحد يسمى عند أهل مصر اللجة الكبري.

فانظر كيف يسمى القاضى الفاضل هذا القدر اللجة الكبري، وأنه - والعياذ بالله - لو بلغ ماء النيل فى سنة هذا القدر فقط لحل بالبلاد غلاء يخاف منه أن يهلك فيه الناس، وماذاك إلا لما أهمل من عمل الجسور.

ويحصل لأهل مصر بوفاء النيل ست عشرة ذراعاً فرح عظيم، فإن ذلك كان قانون الرى فى القديم واستمر ذلك إلى يومنا هذا. ويتخذ ذلك اليوم عيداً يركب فيه السلطان بعساكره، وينزل فى المراكب لتخليق المقياس.

وقد ذكرنا ما كان فى الدولة الفاطمية، من الاهتمام بفتح الخليج، عند ذكر مناظر اللؤلؤة.

وقال بعض المفسرين رحمهم الله تعالى : إن يوم الوفاء هو اليوم الذى وعد فرعون موسى عليه السلام بالإجتماع فى قوله تعالى : ﴿**قال موعدكم يوم الزينة، وأن يحشر الناس ضحى**﴾(٢٣٩)، وقد جرت العادة أن اجتماع الناس للتخليق يكون فى هذا الوقت.

ومن أحسن السياسات فى أمر النداء على النيل ما حكاه الفقيه ابن زولاق، فى سيرة المعز لدين الله، قال : وفى هذا الشهر (يعنى شوال سنة اثنين وستين وثلاثمائة) منع المعز لدين الله من النداء بزيادة النيل، وألا يكتب بذلك إلا إليه وإلى القائد جوهر، فلما تم أباح النداء (يعنى لما تم ست عشرة ذراعاً) وكسر الخليج.

فتأمل. ما أبدع هذه السياسة، فإن الناس دائماً إذا توقف النيل فى أيام زيادته أو زاد قليلاً يقلقون ويحدثون أنفسهم بعدم طلوع النيل، فيقبضون أيديهم على الغلال، ويمتنعون من بيعها رجاء أرتفاع السعر، ويجتهد من عنده مال فى خزن الغلة، إما لطلب السعر، أو لطلب ادخار قوت عياله، فيحدث بهذا الغلاء، فإن زاد المال انحل السعر، وإلا كان الجدب والقحط. . . ففى كتمان الزيادة عن العامة أعظم فائدة وأجل عائدة.

وقال المسبحي(٢٤٠) فى تاريخ مصر : وخرج أمر صاحب القصر إلى ابن حيران بتحرير ما يستفتح به القياسون كلامهم إذا نادوا على النيل، فقال : نعم لا تحصى، من خزائن الله لا تفنى، زاد الله فى النيل المبارك كذا.

ومن عادة نيل مصر إذا كان عند ابتداء زيادته اخضر ماؤه، فتقول عامة أهل مصر : قد توحم النيل. ويرون أن الشرب منه حيئذ مضر.

ويقال فى سبب اخضراره أن الوحوش - سيما الفيلة - ترد البطيحات التى فى أعالى النيل، وتستنقع فيها مع كثرة عددها لشدة الحر هناك، فيتغير ماء تلك البطيحات. فإذا وقع المطر فى الجهة الجنوبية فى أوقاته عندهم، تكاثرت السيول حيئذ فى البطيحات،

---

(٢٣٩) ٥٩ ك طه ٢٠.

(٢٤٠) هو محمد بن عبيدالله بن أحمد المسبحى عزالملك أمير مؤرخ عالم بالأدب كان على ذى الأجناد ولد سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٧م ومات سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م أتصل بخدمة الحاكم بن العزيز الفاطمى له عدة مصنفات.

أنظر : شذرات الذهب ٣/ ٢١٦، التاج ٢/ ١٠٨، اللباب ٣/ ١٣٥، وفيات الأعيان ١/ ٥١٥.

فخــرج ما كان فيهـا من الماء الذى قد تغير ومر إلى مصر، وجاء عقيبه الماء الجديد، وهو الزيادة بمصر، وحينئذ يكون الماء محمراً لما يخالطه من الطين الذى تأتى به السيول.

فإذا تناهت زيادته غشى أرض مصر، فتصير القرى التى فى الأقاليم فوق التلال والروابى وقد أحاط بهـا الماء، فلا يتوصل إليهـا إلى فى المراكب، أو من فوق الجسور الممتـدة التى يصرف عليها - إذا عملت كما ينبغى - ربع الخراج، ليحفظ عند ذلك ماء النيل حتى ينتهى رى كل مكان إلى الحد المحتاج إليه.

فإذا تكامل رى ناحية من النواحي، قطع أهلها الجسور المحيطة بها من أمكنة معروفة عند خولة البلاد ومشايخها فى أوقات محدودة لا تتقدم ولا تتأخر عن أوقاتها المعتادة، على حسب ما يشهد به قوانين كل ناحية من النواحي، فتروى كل جهة مما يليها، مع ما يجتمع فيهـا من الماء المختص. ولولا اتقان ما هنالك من الجسور وحفر الترع والخلجان، لقل الانتفاع بماء النيل، كما قد جرى فى زماننا هذا.

وقد حكى أنه كان يرصد لعمارة جسور أراضى مصر فى كل سنة ثلث الخراج، لعنايتهم فى القديم بها من أجل أنه يترتب على عملها رى البلاد الذى به مصالح العباد... وستقف - إن شاء الله تعالى - عن قريب على ما كان من أعمال القدماء ومن بعدهم فى ذلك.

وكان للمقياس فى الدولة الفاطمية رسوم لكنس مجارى الماء، خمسون ديناراً فى كل سنة، تطلق لابن أبى الرداد.

ذكر الجسر الذي كان يعبر عليه في النيل

اعلم أنه كان فى النيل جسر من سفن فيما بين الفسطاط والجزيرة التى تعرف اليوم بالروضة، وكان فيما بين الجزيرة والجيزة أيضاً جسر، فى كل جسر منهما ثلاثون سفينة.

ذكر ما قيل في ماء النيل من مدح وذم

قال الرئيس أبو على بن سينا(٢٤١) عفا الله عنه : وقوم يفرطون فى مدح النيل إفراطاً شديداً، ويجمعون محامدة فى أربعة : وبعد منبعه، وطيب مسلكه، وغمورته، وأخذه إلى الشمال عن الجنوب فأخذه إلى الشمال عن الجنوب ملطف لما يجرى فيه من المياه، وأما غمورته فيشاركه فيها غيره.

قال : فأفضل المياه مياه العيون، ولا كل العيون، ولكن مياه العيون الحرة الأرض، التى لا يغلب على تربتها شيء من الأحوال والكيفيات الغريبة، أو تكون حجرية فتكون أولى بألا تعفن عفونة الأرضية، لكن التى هى من طينة حرة خير من الحجرية، ولا كل عين حرة، بل التى هى مع ذلك جارية. ولا كل جارية، بل الجارية المكشوفة للشمس والرياح، وإن هذا مما يكسب الجارية فضيلة، وأما الراكدة فربما اكتسبت بالكشف رداءة لا تكسبها بالغور والستر.

وأعلم أن المياه التى تكون طينية المسيل خير من التى تجرى على الأحجار، فإن الطين ينقى الماء ويأخذ منه الممزوجات الغريبة ويروقه، والحجارة لا تفعل ذلك. لكنه يجب أن يكون طين مسيله حراً، لا حمأة ولا سبخة، ولا غير ذلك.

---

(٢٤١) هو الحسين بن عبدالله بن سينا أبو على شرف الملك الفيلسوف الرئيس صاحب التصانيف فى الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات. أصله من بلخ ولد سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م ومات سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م.
أنظر : وفيات الأعيان ١/ ١٥٢، تاريخ حكماء الإسلام ٢٧ـ٧٢، تاريخ مختصر الدول ٣٢٥، خزانة البغدادى ٤/ ٤٦٦، لسان الميزان ٢/ ٢٩١.

فإن اتفق أن كان هذا الماء غمراً شديد الجرية، يحيل بكثرة ما يخالطه إلى طبيعته، فإن كان يأخذ إلى الشمس فى جريانه فيجرى إلى المشرق وخصوصاً إلى الصيفى منه، فهو أفضل، لاسيما إذا بعد جداً من ميدانه، ثم ما يتوجه إلى الشمال، والمتوجه إلى المغرب والجنوب ردئ، خصوصاً عند هبوب ريح الجنوب.

والذى ينحدر من مواضع عالية مع سائر الفضل أفضل، وما كان بهذه الصفة كان عذباً يحيل أنه حلو، ولا يحتمل الخمر إذا مزج به منه إلا قليلاً، وكان خفيف الوزن سريع البرد والتسخين لتخلخله، بارداً فى الشتاء، حاراً فى الصيف، لا يغلب عليه طعم ألبته، ولا رائحة، ويكون سريع الانحدار من الشراسيف، سريعاً لهرى ما يهرى فيه، وطبخ ما يطبخ فيه.

قال الرئيس علاء الدين على بن أبى الحزم ابن نفيس(٢٤٢) فى شرح القانون: هذه المحامدة التى ذكرها ليست علامات للحمد، بل هى من الأشياء الموجبة لكونه محموداً.

وأحد هذه الاربعة بعد منبعه، وقد بينا أن ذلك بوجب لطافة الماء بسبب كثرة حركته.

وأعلن أن منبع النيل من جبل يقال له جبل القمر، وهذا الجبل وراء خط الإستواء بإحدى عشرة درجة وثلاثين دقيقة مما به أعظم دائرة فى الأرض بثلاثمائة درجة وستين. وابتداء هذا الجبل من السادسة والأربعين درجة وثلاثين دقيقة من أول العمارة من جهة المغرب، وآخره عند آخر إحدى وستين درجة وخمسين دقيقة، فيكون امتداد هذا الجبل مقدار خمس عشرة درجة وعشرين دقيقة مما به أعظم دائرة فى الأرض ثلثمائة وستون درجة.

ويخرج من هذا الجبل عشرة أنهار من أعين فيه، ترمى كل خمسة منها إلى بحيرة عظيمة مدورة. وإحدى هاتين البحيرتين مركزها، حيث البعد من ابتداء العمارة بالمغرب، خمسون درجة، والبعد من خط الاستواء فى الجنوب سبع درج وإحدى وثلاثون دقيقة. ومركز

---

(٢٤٢) هو على ابن أبى الحزم القرشى علاء الدين الملقب بأبن النفيس أعلم أهل عصره بالطب، أصله من بلدة قريش فيما وراء النهر، مات سنة ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م له عدة مصنفات منها «الموجز» فى الطب و «فاضل بن ناطق» على نمط حى بن يقظان و «بغية الطالبين» و «المهذب» إلخ.
أنظر: طبقات السبكى ٥/ ١٢٩، شذرات الذهب ٥/ ٤٠١، دول الإسلام ٢/ ١٤٥، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٢٣٤، النجوم الزاهرة ٧/ ٣٧٧.

لثانية حيث البعد عن أول العمارة بالمغرب سبع وخمسون درجة، وحيث البعد من خط الاستواء في الجنوب سبع درج واحدى وثلاثون دقيقة.

وهاتان البحيرتان متساويتان، وقطر كل واحدة منهما مقدار خمس درج، ويخرج من كل واحدة من البحيرتين أربعة أنهار، ترمي إلى بحيرة صغيرة مدورة في الأقليم الأول، بعد مركزها عن أول العمارة بالمغرب ثلاث وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعن خط الاستواء من الشمال درجتان من الإقليم الأول، ومقدار قطرها درجتان.

ويصب كل واحد من الأنهار الثمانية في بحيرة (وفي هذه البحيرة نهر واحد وهو نيل مصر، ويمر ببلاد النوبة نهر آخر ابتداؤه من غير مركزها على خط الاستواء) كبيرة مستديرة، مقدار قطرها ثلاث درج، وبعد مركزها من أول العمارة بالمغرب ثلاث وأربعون درجة. ويلقى نهر هذه العين لنهر النيل حيث البعد من أول العمارة بالمغرب ثلاث وأربعون دقيقة.

وإذا تعدى النيل مدينة مصر إلى بلد يقال له شطنوف، يفرق هناك إلى نهرين يرميان إلى البحر المالح: أحدهما يعرف ببحر رشيد، ومنه يكون خليج الإسكندرية. وثانيهما يعرف ببحر دمياط، وهذا البحر إذا وصل إلى المنصورة تفرغ منه نهر يعرف ببحر أشمون يرمى إلى بحيرة هناك، وباقية يرمى إلى البحر المالح عند دمياط.

وزيادة النيل هى من أمطار كثيرة ببلاد الحبشة، والله أعلم.

وأعلم أن الوزن من الدستورات المنتخبة من حال الماء، فإن الأخف في أكثر الأحوال أفضل.

فهذا ما ذكره الرئيس ابن سينا من صفات المياه الفاضلة، واعتبر ما قاله تجد ذلك قد اجتمع في ماء النيل.

فأوله: أن مـــاء النيل عين تمر على أراض حـــرة، ولا يغلب على تربه مـــا يمر به شيء من الأحوال والكيفيات الردية، كمعادن النفط والشب والأملاح والكباريت ونحوها، بل يمر على الأراضى التى تنبت الذهب، بدليل ما يظهر في الشطوط من قراضات الذهب. وقد عاني جماعة تصويل الذهب من الرمل المأخوذ من شطوط النيل، فربحوا منه مالاً. وفضيلة كون الذهب في الماء لا تنكر.

الثانى: أن النيل فى جريانه أبدا مكشوف للشمس والرياح .

الثالث: أن طينه من طين مسيل من مياه مجتمعه من أمطار تمر على أراض حرة ، ويظهر ذلك من عطرية روائح الطين إذا نديته بماء .

الرابع: غمورة ماء النيل وشدة جريته التى تكاد تقصف العمد إذا اعترضتها ، وتدفع الأثقال العظيمة إذا عارضتها .

الخامس: بعد مبدأ خروجه من مصبه فى البحر المالح ، وقد تقدم من طول مسافته مالا نجده فى نهر غيره من أنهار المعمور .

السادس: انحداره من علو ، فإن الجنوب مرتفع عن الشمال ، لاسيما إذا صار إلى الجنادل انحط من أعلى جبل مرتفع إلى وادى النيل .

وذكر ابن قتيبة فى كتاب غريب الحديث من حديث جرير بن عبدالله البجلي ، حين سأله رسول الله ﷺ عن منزله ببلنسة ، فذكره إلى أن قال : وماؤنا يمتنع أن يجرى من علو ، فقال النبى ﷺ : «خير الماء السنم» أى ما كان ظاهراً على وجه الأرض .

والسنم الماء على وجه الأرض ، وكل شيء علا شيئاً فقد تسنمه ، مأخوذ من سنام البعير لعلوه .

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى ﴿ **ومزاجه من تسنيم** ﴾(٢٤٣) . أى يمزج بما ينزل من علو .

السابع: أنه يمر من الجنوب إلى الشمال ، فتستقبله ريح الشمال الطيبة دائماً .

الثامن: خفته فى الوزن ، وقد أعتبر ذلك غير مرة مع غيره من المياه فخف عنها فى الوزن .

التاسع: عذوبة طعمة ، وحسن أثره فى هضم الغذاء ، وإحداره عن المعدة ، بحيث إنه يحدث بعد شربه جشاء .

---

(٢٤٣) ٢٧ك المطففين ٢٧ .

وهذه صفات، ان كنت ممن مارس العلم الطبيعى وعرف الطب، فإنه يعظم عندك قدر ماء النيل، وتبين لك غزارة نفعه وكثرة محاسنة.

ويقال: إن ذا القرنين كتب كتاباً فيه ما شاهده من عجائب الدنيا، فضمنه كل أعجوبة، ثم قال فى آخره: وليس ذلك بعجب، بل العجب نيل مصر.

وقال بعض الحكماء: لولا ما جعل الله فى نيل مصر من حكمة الزيادة فى زمن الصيف على التدريج، حتى يتكامل رى البلد وهبوط الماء عنها عند بدء الزراعة، لفسد إقليم مصر، وتعذر سكناه، لأنه ليس فيه أمطار كافية، ولا عيون جارية تعم أرضه، إلا بعض إقليم الفيوم.

ولله در القائل:

واهـا لهذا النيـل أى عجيبة
بكـر بمثـل حديثها لايسـمع
يلقى الثرى فى العام وهو مسلم
حتـى إذا ما مل عـاد يودع
مسـتقبل مثـل الهلال فدهره
أبـداً يزيـد كما يريد ويرجع

وقال آخر:

كأن النيـل ذو فهـم ولـب
لمـا يبدو لعـين الناس منه
فيأتى حـين حاجتهـم إليـه
ويمضى حـين يستغنون عنه

وقال تميم بن المعتمر:

يـوم لنا بالنيـل مختـصر
ولكل يوم مسـرة قصـر

والسفن تجرى كالخيول بنا

صعداً وجيش الماء منحدر

وكأنما أمواجه عكن

وكأنما داراته سرر

وقال أيضاً :

أما ترى الرعد بكى واشتكي

والبرق قد أومض واستضحكا

فاشرب على غيم بصنع الدجي

يضحك وجه الأرض لما بكى

وأنظر لماء النيل فى مده

كأنما صندل أو مصطكا

وقال آخر :

والله مجرى النيل منه إذا الصبا

أرينا به من برها عسكراً بحراً

بشط بنهر السمهرية دبلا

وموج بنهر البيض هندية بترا

إذا مر حاكى الورد غضاً وإن صفا

حكى ماءه لونا ولو بعده مرا

وقال أبو الحسن محمد بن الوزير فى تدريج زيادة النيل وعظم منفعته :

أرى أبداً كثيراً من قليل

وبدراً فى الحقيقة من هلال

فلا تعجب فكل خليج ماء

بمصر مسـيب بخليج مـال

زيادة أصـبع فى كل يـوم

زيادة أذرع فى حسـن حـال

وقال الشهاب أحمد بن فضل الله العمري(٢٤٤) :

بمصر فضل باهر لعيشها الرغد النضر

فى سفح روض يلتقى ماء الحياه والخضر .

وقال ابن قلاقس(٢٤٥) .

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة

وانظر لما بعدها من حمرة الشفق

غابت وألقت شعاعاً منه يخلفها

كأنما احترقت بالمساء فى الغرق

وللهـلال فها وافـى لنيفذها

فى أثرها زورق قد صيغ من ورق

وقال بشر الملك ابن المنجم(٢٤٦) .

---

(٢٤٤) هو أحمد بن يحيي بن فضل الله القرشى العدوى العمرى . شهاب الدين مؤرخ حجة فى معرفة المالك والممالك وخطوط الأقاليم والبلدان ولد سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠١م ومات سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م .
أنظر : فوات الوفيات ١/ ٧، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٣٥٤، الدرر الكامنة ١/ ٣٣١، النجوم الزاهرة ١/ ٣٣٤، آداب اللغة ٣/ ٢٢٦ .

(٢٤٥) هو نصر بن عبدالله بن عبدالقوى اللخمى أبو الفتوح الأعز . المعروف بأبن قلاقس الإسكندرى الأزهري، ولد سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م ومات سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م .
أنظر : أرشاد الأريب ٧/ ٢١١ ، كتاب الروضتين ١/ ٢٠٥ ، وفيات الأعيان ٢/ ١٥٦ .

(٢٤٦) على بن هارون بن على بن يحيي أبو الحسن من آل المنجم، راوية للشعر من ندماء الخلفاء . ولد سنة ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م ومات سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م له عدة مصنفات منها «شهر رمضان» و «الرد على الخليل» فى العروض و «النوروز والمهرجان» و «الفرق بين إبراهيم بن المهدى و إسحاق الموصلى فى الغناء» .
أنظر : الفهرست ١٤٣ و ١٤٤ ، الوفيات ١/ ٣٥٦، معجم الشعراء ٣٩٦ .

يـارب سامية فى الجـو قمت بها

أمد طرفـى فى أرض مـن الأفق

حيـث العـشية فى التمثيل معترك

إذا رآهـا جبان مـات للفـرق

للشـمس غـارية، للغـرب ذاهبة،

بالنيل مصفـرة، من هجمـة الغسق

وللهلال انعطـاف كالسـنان بدا

من سورة الطعن ملقى فى دم الشفق

قال القـاضى الفـاضل رحـمة الله تعـالى عليـه: وأما النيل فـقد مـلا البقـاع، وانتـقل من الأصبع إلى الذراع، فكأنما غار على الأرض فغطاها، وأغار عليها فاستقعدها وما تخطاها، فما يوجب بمصر قاطع طريق سواه، ولا مرغوب مرهوب إلا إياه.

ونيل مصر مخالف فى جريه لغالب الأنهار، فإنه يجرى من الجنوب إلى الشمال، وغيره ليس كذلك، إلا نهران فإنهما يجريان كما يجرى النيل، وهما نهر مهران بالسند، ونهر الأريط ـ وهو الذى يعرف اليوم بنهر العاصى ـ فى حماة إحدى مدائن الشام.

وقد عاب ماء النيل قوم. قال أبو بكر بن وحشية فى كتاب «الفلاحة النبطية»: وأما ماء النيل، فمخرجه من جبال وراء بلاد السودان يقال لها جبال القمر.

وحلاوته وزيادته يدلان على موقعه من الشمس أنها أحرقته لا كل الإحراق، بل أسخنته إسخاناً طويلاً لينا، لا تزعجه الحرارة ولا تقوى عليه، بحيث تبدد أجزاءه الرطبة وتبقى أجزاءه الراسخة، بل يعتدل عليه، فصار ماؤه لذلك حلوا جداً، وصار كثرة شربه يعفن البدن ويحدث البثور والدماميل والقروح، وصار أهل مصر الشاربون منه دمويين محتاجين إلى استفراغ الدم عن أبدانهم فى كل مدة قصيرة.

فمن كان عالماً منهم بالطبيعة، فهو يحسن مداواة نفسه حتى يدفع عن جسمه ضرر ماء النيل، وإلا فهو يقع فيما ذكرنا من العفونات وانتشار البثر والدماميل. وذلك أن هذا الماء

ناقص البرد عن سائر المياه، قد صير له الطبخ قواماً هو أثخن من قوام الماء، فصار إذا خالط الطعام فى الأبدان فيها كثر الفضول الردية، فيحدث من ذلك ما ذكرناه.

ودواء أهل مصر الذى يدفع عنهم ضرر ماء النيل أدمان شرب ربوب الفاكهة الحامضة القابضة، وأخذ الأدوية المستفرغة للفضول. ولو زادت حرارة الشمس على ماء النيل وطال طبخها له لصار مالحاً بمنزلة ماء البحار الراكدة التى لا حركة لها إلا وقت جزر البحر، وهبوب الرياح. وهو أوفق للزروع والمنابت من الحيوان.

وقال ابن رضوان(٢٤٧) : والنيل يمر بأمم كثيرة من السودان، ثم يصير إلى أرض مصر وقد غسل ما فى بلاد السودان من العفونات والأوساخ، ويشق مارا بوسط أرض مصر من الجنوب إلى الشمال، إلى أن يصب فى بحر الروم. ومبدأ زيادته فى فصل الصيف، وتنتهى زيادته فى فصل الخريف، ويرتقى فى الجو منه فى أوقات مده رطوبات كثيرة بالتحلل الخفي، فيرطب ذلك يبس الصيف والخريف.

وإذا مد النهر فاض على أرض مصر فغسل ما فيها من الأوساخ ـ نحو جيف الحيوانات وأزبالها، وفضول الآجام والنبات ومياه النقاع ـ وأحدر جميع ذلك معه، وخالطه من تراب هذه الأرض وطينها مقدار كثير من أجل سخافتها، وباض فيه من السمك الذى تربى فيه وفى مياه النقائع.

ومن قبل ذلك تراه فى أول مده يخضر لونه بكثرة ما يخالطه من مياه النقائع العفنة التى قد اجتمع فيها العرمض والطحلب، وأخضر لونها من عفنها، ثم يتعكر حتى يصير آخر أمره مثل الحمأة، وإذا صفا اجتمع منه فى الإناء طين كثير ورطوبة لزجة لها سهوكة ورائحة منكرة، وهذا من أوكد الأشياء فى ظهور رداءة هذا الماء وعفنه. وقد بين أبقراط وجالينوس أن أسرع المياه إلى العفن ما لطفته الشمس بمياه الأمطار.

ومن شأن هذا الماء أن يصل إلى أرض مصر وهو فى الغاية من اللطافه من شدة حرارة بلاد السودان، فإذا اختلط به عفونات أرض مصر زاد ذلك فى استحالته، ولذلك يتولد فيه

---

(٢٤٧) هو على بن رضوان بن على بن جعفر أبو الحسن طبيب رياضى من العلماء من أهل مصر كان أبوه قرانا، مات سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م.
أنظر : النجوم الزاهرة ٥/ ٦٩، طبقات الأطباء ٢/ ٩٩ـ١٠٥، آداب اللغة ٣/ ١٠٥.

من أنواع السمك شيء كثير جداً، فإن فضول الحيوانات والنبات وعفونة هذا الماء وبيض السمك يصير جميعها مواد فى تكون هذه الأسماك كما قال أرسطاطاليس فى كتاب الحيوان.

وذلك شيء ظاهر للحس، فإن كل شيء يتعفن يتولد من عفونته الحيوان، ولهذا صار ما يتولد من الدود والفأر والثعابين والعقارب والزنابير والذباب وغيرها بأرض مصر كثيراً.

فقد استبان أن المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة والرطوبة الفضلية، وأنها ذات أجزاء كثيرة، وأن هواءها وماءها رديان.

وربما انقطع النيل فى آخر الربيع وأول الصيف من جهة الفسطاط، فيعفن بكثرة ما يلقى فيه إلى أن يبلغ عفنه إلى أن يصير له رائحة منكرة محسوسة. وظاهر أن هذا الماء إذا صار على هذه الحالة غير مزاج الناس تغيراً محسوساً.

وينبعى أن يستقى ماء النيل من الموضع الذى فيه جريه أشد والعفونة فيه أقل.

ويصفى كل إنسان هذا الماء بحسب ما يوافق مزاجه : أما المحرورون فى أيام الصيف فبالطباشير والطين الأرمنى والمغرة والنبق المرضوض والزعرور المرضوض والخل، وأما المبرردون فى أيام الشتاء فباللوز المر وداخل نوى المشمش والصعتر والشب.

وينبغى أن ينظف ما يروق ويشرب، وإن شئت أن تصفي. بأن تجعله فى آنية الخزف والفخار والجلود وما يصل من ذلك بالرشح، وإن شئت طبخته بالنار وجعلته فى هواء الليل حتى يروق، ثم نظفت منه ما يروق واستعملته.

وإذا ظهرت فيه كيفيات رديئات فاطبخه بالنار، ثم برده تحت السماء فى برودة الليل، وصفه بأخلاط الأدوية التى ذكرتها.

وأجود ما اتخذ هذا الماء أن يصفى مراراً، وذلك بأن يسخنه أو يطبخه، ثم يبرده فى هواء الليل، ويقطف ما يروق منه، فتصفيه أيضاً ببعض الأدوية، ثم تأخذ ما يروق فتجعله فى آنية تمصل فى برد الليل، وتأخذ الرشح فتشربه.

واجعل آنية هذا الماء فى الصيف الخزف والفخار المعمولين فى طوبة، والظروف الحجرية والقرب ونحوها مما يبرد، وفى الشتاء الآنية الزجاج والمدهون وما يعمل فى الصيف من الفخار والخزف.

ويكون موضعه فى الصيف تحت الأسراب وفى مخاريق ريح الشمال، وفى الشتاء بالمواضع الحارة.

ويبرد فى الصيف بأن يخلط معه ماء الورد، ويؤخذ خرقة نظيفة، ويشد فيها طباشير وبذر رجلة أو خشخاش أبيض أو طين أرمنى أو مغرة، ويلقى فيها كيما يأخذ من بردها ولا يخالطه جسمها، وتغسل ظروفه فى الصيف بالخزف المدقوق وبدقيق الشعير والباقلاء والصندل، وفى الشتاء بالأشنان والسعد، ويبخر بالمصطكى والعود.

وأرادأ ما يكون ماء النيل بمصر عند فيضه، وعند وقوف حركته، فعند ذلك ينبغى أن يطبخ ويبالغ فى تصفيته بقلوب نوى المشمش، وسائر ما يقطع لزوجته.

وأجود ما يكون فى طوبة عند تكامل البرد، ومن أجل هذا عرف المصريون بالتجربة أن ماء طوبة أجود المياه، حتى صار كثير منهم يخزنه فى القوارير الزجاج والصيني، ويشربه السنة كلها، ويزعم أنه لايتغير، وصاروا أيضاً لا يصفون فى هذا الزمان لظنهم أنه على غاية الخلاص. وأما أنت فلا تسكن إلى ذلك، وصفّه على أى حالة كان، فالماء المخزون لابد أن يتغير.

فهذا ما عندى من ذم ماء النيل. وحاصله أن الماء تتغير كيفيته بما يمر عليه لا أن ذاته ردية. فلا يهولنك ما تسمع، فما الأمر إلا ما قلت لك. وإذا كان الضرر بحسب ما تغير من كيفيته لا من كميته، فقد عرفت ما تعالجه به كى يزول ما يخالطه من الكيفيات الردية. والله الموفق بمنه وكرمه.

ذكر عجائب النيل

ومن عجائب النيل فرس البحر. قال عبدالله ابن احمد بن سليم الأسوانى فى كتاب «أخبار النوبة» : ومسافة ما بين دنقلة إلى أول بلد علوة أكثر مما بين دنقلة وأسوان، وفى ذلك من القرى والضياع والجزائر والمواشى والنخل والشجر والمقل والزرع والكرم أضعاف ما فى الجانب الذى يلى أرض الإسلام.

وفى هذه الأماكن جزائر عظام مسيرة أيام، فيها الحيات والوحوش والسباع، ومفاوز يخاف فيها العطش. وماء النيل ينعطف من هذه النواحى إلى مطلع الشمس وإلى مغربها مسافة أيام، حتى يصير الصعيد كالمنحدر، وهى الناحية التى تبلغ العطوف من النيل إلى المعدن المعروف بالشتكة، وهى بلد معروف بشنقير، ومنه يخرج القمري، وفرس البحر يكثر فى هذا الموضع.

وحدثنى سيمون، صاحب عهد علوة، أنه أحصى فى جزيرة سبعين دابة منها، وهى من دواب الشطوط : فى خلق الفرس، فى غلظ الجاموس، قصيرة القوائم. لها خف، وهى فى ألوان الخيل بأعراف وآذان صغار كآذان الخيل، وأعناقها كذلك، وأذنابها مثل أذناب الجواميس، ولها خرطوم عريض، يظن الناظر إليها أن عليها مخلاة، لها صهيل وأنياب، لا يقوم حذاءها تمساح، وتعترض المراكب عند الغضب فتغرقها، ورعيها فى البر العشب، وجلدها فيه متانة عظيمة، يتخذ منه دبابيس. انتهى.

وهو كفرس البر إلا أنه أكبر عرفاً وذنباً، وأحسن لوناً، وحافره مشقوق كحافر البقر، وجثته أكبر من الحمار بقليل، وهو يأكل التمساح أكلا ذريعاً، ويقوى عليه قوة ظاهرة. وربما خرج من الماء ونزا على فرس البر فيتولد بينهما فرس فى غاية الحسن.

واتفق أن بعض الناس نزل على طرف النيل ومعه حجرة، فخرج من الماء فرس أدهم عليه نقط بيض، فنزا على الحجرة فحملت منه وولدت مهراً عجيب الصورة. فطمع فى مهر آخر، فجاء بالحجرة والمهر إلى ذلك الموضع، فخرج الفرس من الماء وشم المهر ساعة، ثم وثب إلى الماء ومعه المهر. فصار الرجل يتعهد ذلك المكان كثيراً، فلم يعد الفرس ولا المهر إليه.

قال المسعودى : وفى نيل مصر وأرضها عجائب كثيرة من الحيوانات، فمن ذلك السمك المعروف بالرعاد، والواحدة نحو الذراع، إذا وقعت فى شبكة الصياد ارتعدت يده وعضده فيعلم بوقوعها، فيبادر إلى أخذها وإخراجها من شبكته، ولو أمسكها بخشب أو قصب فعلت ذلك.

وقد ذكرها جالينوس، وأنها إن جعلت على رأس من به صداع شديد أو شقيقة - وهى فى الحياه - هدأ من ساعته.

قال ابن البيطار عن جالينوس : هو الحيوان البحرى الذى يحدث الخدر. وزعم قوم أنه إذا أدنى من رأس من يشتكى الصداع سكن صداعه، وان أدنى من مقعده من انقلبت مقعدته أصلحها. ولكن أنا جربت الأمرين جميعاً فلم أجده يفعل ولا واحداً منهما، ففكرت أنى أدنيته من رأس المصدوع والحيوان ما هو حي، لأننى ظننت أنه على هذه الحال يكون دواء يمكن أن يسكن الصداع بمنزلة الأدوية، فوجدته ينفع مادام حياً.

قال ديسقوريدوس : هو سمكة بحرية مخدرة إذا وضعت على الرأس الذى عرض له الصداع المزمن سكن شدة وجعه، وإذا احتمله ذو المقعدة التى تبرز إلى خارج أصلحها.

وقال يونس : الزيت الذى يطبخ فيه يسكن أوجاع المفاصل الحريفة إذا دهنت به.

قال ابن البيطار : رأيت بساحل مدينة مالقة من بلاد الأندلس سمكة عريضة، لون ظاهرها لون رعاد مصر سواء، وباطنها أبيض، وفعلها فى تخدير ماسكها كفعل رعاد مصر أو أشد، إلا أنها لا تؤكل أليته.

وقال بعضهم : إذا علقت المرأة شيئاً من الرعاد عليها، لم يطق زوجها البعد عنها، وكذلك أن علق منها الرجل عليه لم تكد المرأة أن تفارقه.

والسقنقور وهو صنف يتوالد من السمك والتمساح، فلا يشاكل التمساح لأن ذنبه أجرد أملس عريض غير مضرس، وذنب التمساح سخيف مضرس. ويتعالج بشحم السقنقور للجماع. ولا يكون بمكان إلا فى النيل وفى نهر مهران من أرض الهند. ولقد بلغنى أن أقواماً شووها وأكلوا منها فماتوا كلهم فى ساعة واحدة.

والسقنقور، قال ابن سينا: هو ورل يصاد من نيل مصر، يقولون أنه من نسل التمساح، وأجود ما يصطاد فى الربيع.

وقال آخر: إنه فرخ التمساح، فإذا خرج من البيض: فما قصد الماء صار تمساحاً، وما قصد الرمل صار سقنقوراً.

وقال ابن البيطار(٢٤٨): هو جنس من الجراد، يجفف فى الخريف، إذا شرب منه وزن درهمين من الموضع الذى يلى كلاه بشراب أنهض الجماع، وهو شديد الشبه بالورل، يوجد بالرمال التى تلى نيل مصر فى نواحى صعيدها، وهو مما يسعى فى البر ويدخل فى الماء (يعنى النيل)، ولهذا قيل له الورل المائى لشبهه به ولدخوله فى الماء.

وهو يتولد من ذكر وأنثي، ويوجد للذكر خصيتان كخصيتى الديك فى خلقهما وموضعهما، واناثه تبيض فوق العشرين بيضة وتدفنها فى الرمل. وللذكر من السقنقور إحليلان، وللأنثى فرجان.

والسقنقور يعض الإنسان ويطلب الماء، فإن وجده دخل فيه وإن لم يجده بال وتمرغ فى بوله، وإذا فعل ذلك مات المعضوض لوقته وسلم السقنقور. فإن اتفق أن سبق المعضوض إلى الماء، فدخله قبل دخول السقنقور الماء وتمرغه فى بوله، مات السقنقور لوقته وسلم المعضوض.

والأفضل الذكر منه، والأبلغ فى نفع الباه، بل هو المخصوص بذلك دون الأنثي. والمختار من أعضائه ما يلى أصل ذنبه ومحاذى سرته.

والوقت الذى يصاد فيه الربيع، فإنه يكون فيه هائجاً للسفاد فيكون فى هذا الوقت أبلغ نفعاً، فإذا أخذ ذكى فى يوم صيده، فإنه أن ترك حياً زال شحمه وهزل لحمه وضعف فعله، ثم يقطع رأسه وطرف ذنبه من غير استئصال، ويشق جوفه طولاً، ويلقى ما فيه إلا كلاه وكبسه. فإذا نظف حشى ملحاً، وخيط الشق، وعلق منكوسا فى ظل معتدل الهواء حتى يجف، ويؤمن فساده، ثم يرفع فى اناء متخرق للهواء كالسلال المضفورة من قضبان شجر الصفصاف والخوص ونحوه إلى وقت الحاجة.

ولحمه ـ طرياً ـ حار رطب، والمجفف أشد حرارة وأقل رطوبة، ولا يوافق استعماله من مزاجه حار يابس، وإنما يوافق ذوى الأمزجة الباردة الرطبة. وخاصة لحمه وشحمه إنهاض شهوة الجماع، ويهيج الشبق، ويقوى الإنعاظ، وينفع أمراض العصب الباردة، وخاصة ما يلى سرته ويحاذى ذنبه.

وينفع مفرداً ومركباً، واستعماله مفرداً أبلغ. والمقدار منه بعد تجفيفه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل ـ بحسب السن والمزاج والبلد والوقت الحاشر ـ يسحق ويذاب بشراب أو ماء العسل أو نقيع الزبيب، أو يذر على صفرة بيض الدجاج النيمرشت ويحتسي، وكذلك يفعل بلحمه إذا أخذ منه من درهم إلى درهمين وذر على صفرة البيض بمفرده أو مع مثله بزر جرجير مسحوق.

ولا يوجد السقنقور إلا فى بلاد الفيوم خاصة، وأكثر صيده فى الأربعينات إذا اشتد البرد وخرج من الماء إلى البر، فحينئذ يصاد.

وقال المسعودى: والفرس الذى يكون فى نيل مصر إذا خرج من الماء وانتهى وطؤه إلى بعض المواضع من الأرض، علم أهل مصر أن النيل يزيد إلى ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه ولا مقصر عنه، لا يتخلف ذلك عندهم لطول العادات والتجارب.

وفى ظهوره من الماء ضرر بأرباب الأرض والغلات لرعيه الزرع، وذلك أنه يظهر من الماء فى الليل فينتهى إلى موضع من الزرع، ثم يولى عائداً إلى الماء فيرعى فى حال رجوعه من الموضع الذى انتهى إليه مسيرة، ولا يرعى من ذلك الذى قد رعاه شيئاً فى ممره، وإذا رعى ورد الماء وشرب، ثم قذف ما فى جوفه فى مواضع شتي، فينبت ذلك مرة ثانية.

وإذا كثر ذلك من فعله، واتصل ضرره بأرباب الضياع، طرحوا له من الترمس فى الموضع الذى يعرف خروجه منه، مكاكى كثيرة، مبدرا مبسوطاً، فيأكله ثم يعود إلى الماء، فإذا شرب منه ربا الترمس فى جوفه وانتفخ، فينشق جوفه منه ويموت، ويطفو على الماء ويقذف به إلى الساحل.

---

(٢٤٨) هو عبدالله بن أحمد المالقى أبو محمد ضياء الدين المعروف بابن البيطار إمام النباتيين وعلماء الأعشاب، مات ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م له عدة مصنفات.
أنظر: طبقات الأطباء ٢/ ١٣٣، نفح الطيب ٢/ ٦٨٣، آداب اللغة ٢/ ٣٤١، فوات الوفيات ١/ ٢٠٤.

والموضع الذى يرى فيه لايرى به تمساح، وهو على صورة الفرس إلا أن حوافره وذنبه بخلاف ذلك، وجبهته واسعة.

وقال المسبحى : أن الصنف المعروف بالبلطى من أصناف السمك أول ما عرف بنيل مصر فى أيام الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله، ولم يكن يعرف قبله فى النيل. وظهر فى أيامه أيضاً سمك يعرف باللبيس، وإنما سمى باللبيس لأنه يشبه البورى الذى بالبحر الملح فالتبس به، وغالب الظن أنها من أسماك البحر الملح دخلت فى الحلو.

ومن حيوان البحر التمساح، قال ابن البيطار : التمساح حيوان معروف يكون فى الأنهار الكبار، وفى النيل كثيراً، ويوجد فى نهر مهران، وقد يوجد فى بلاد السودان، وهو الورل النيلي.

وقال ابن زهران : كل حيوان يحرك فكه الأسفل إذا أكل، ما خلا التمساح، فإنه يحرك فكه الأعلى دون الأسفل.

وشحم التمساح إذا عجن بالسمن وجعل فيه فتيلة وأسرج فى نهر أو أجمة. لم ينعق ضفادعها مادامت تقد. وإن طيف بجلد تمساح حول قرية، ثم علق على سطح دهليز لم يقع البرد فى تلك القرية.

وإذا عض النمساح انساناً، فوضع على العضة شحم التمساح، برأ من ساعته. وإن لطخ بشحمه جبهة كبش نطاح، نفر كل كبش يناطحه وهرب منه. ومرارته يكتحل بها للبياض فى العين فتذهبه. وكبده يبحر بها المجنون فيبرأ.

وزبل التمساح يزيل البياض من العين الحديث والقديم، وإن قلعت عيناه وهو حى وعلقت على من به جذام أوقفه، ولم يزد عليه شيء. وإن علق شيء من الذى من بالجانب الأيمن على رجل زاد فى جماعه. وعينه اليمنى لمن يشتكى عينه اليمني، وعينه اليسرى لمن يشتكى عينه اليسري. وشحمه إذا أذيب بدهن ورد نفع من وجع الصلب والكليتين، وزاد فى الباه.

وإذا أخذ دم التمساح وخلط به هليلج وأملج، وطلى به على الوضح، أذهبه وغير لونه، وإذا طلى به على الجبهة والصدغين نفع من وجع الشقيقة. وإذا أكل لحمه أسفيدباجا

سمن البدن النحيف. وشحمه إذا قطر بعد أن يذاب في الأذن الوجعة نفعها، وان أدمن تقطيره في الأذن نفع من الصمم، وإذا دهن به صاحب حمى الربع سكنت عنه. ولحمه رديء الكيموس.

وقل المسعودي: وكذلك التمساح آفته من دويبه تكون في سواحل النيل وجزائره، وهو أن التمساح لا دبر له، وما يأكله يتكون في بطنه دوداً، فإذا آذاه ذلك خرج إلى البر فاستلقى على قفاه فاغراً فاه، فينقض إليه طير الماء. وقد اعتاد منه ذلك. فيأكل ما يظهر من جوفه، من ذلك الدود العظيم، وتكون تلك الدويبة قد كمنت في الرمل، فتثب إلى حلقه وتصير إلى جوفه، وتخرج فيخبط بنفسه إلى الأرض، ويطلب قعر النيل، حتى تأتى الدويبة على حشو جوفه ثم تخرق جوفه وتخرج. وربما قتل نفسه قبل أن تخرج فتخرج بعد موته.

وهذه الدويبة تكون نحو الذّراع، على صورة ابن عرس، ذات قوائم شتى ومخالب.

ويقال كان بجبال فسطاط مصر طلسم معمول بها، وكان التمساح لا يستطيع القرب حوله، بل كان إذا بلغ حدوده انقلب واستلقى على ظهره فيعبث به الصبيان إلى أن يجاوز نهاية المدينة، ثم يعود مستوياً ويعود إلى طباعه، ثم إن هذا الطلسم كسر فبطل فعله.

ويقال إن التمساح يبيض كبيض الأوز، وربما تولد فيه جرادين صغار، ثم تكبر حتى يبلغ طولها عشرة أذرع، وتزداد طولاً كلما عمرت. والتمساح يرتعش ستين مرة في حركة واحدة ومحل واحد، وسنه اليسرى نافعه للنافض.

ذكر طرف من تقدمة المعرفة بحال النيل في كل سنة

قال ابن رضوان في شرح الأربع: وقد يحتاج أمر النيل إلى شروط:

منها أن تكون الأمطار متوالية في نواحي الجنوب قبل مده وفي وقت مده، ولذلك وجب أن يكون النيل. متى كانت الزهرة وعطارد مقترنين في مدخل الصيف. كثير الزيادة لرطوبة الهواء، ومتى كان المريخ أو بعض المنازل في ناحية الجنوب في مدخل الربيع أو الصيف، كان قليلاً لقلة الأمطار في تلك الناحية.

ومنها أن تكون الرياح شمالية لتوقف جريه، فأما الجنوبية فإنها تسرع انحداره ولا تدعه يلبث. فإذا علمت ما يكون فى ناحية الجنوب من كثرة الأمطار أو قلتها، وفى ناحية مصر من هبوب الرياح فى فصلى الربيع والصيف، فقد علمت حال النيل كيف يكون، وتعلم من حاله ما يعرض بمصر من الخصب والجدب.

وقال أبو سامر بن يونس المنجم عن بطليموس : إذا أردت أن تعلم مقدار النيل فى الزيادة والنقصان، فانظر حين تحل الشمس برج السرطان فى الزهرة وعطارد والقمر : فإن كانت أحوالها جيدة وهى برية من النحوس، فالنيل يمتد وتبلغ الحاجة به، وإن كانت أحوالها بخلاف ذلك وهى ضعيفة، فانكس القول، فإن ضعف بعضها وصلح البعض، توسط الحال فى النيل. والضابط أن قوة الثلاثة تدل على تمام النيل، وضعفها على توسطه، وانتحاسها أو احتراقها أو وقوعها فى بعدها الأبعد من الأرض على النقص، وأنه قليل جداً، إلا أن احتراق الزهرة فى برج الأسد يستنزل الماء من الجنوب.

وقال أبو معشر(٢٤٩) : ينظر عند انتقال الشمس إلى برج السرطان للزهرة وعطارد والقمر : فإن كانت فى سيرها الأكبر فإن زيادة النيل عظيمة، وإن كانت فى سيرها الأوسط فاعرف كم أكثر مسيرها وكم أقله وانسبه بحسب ما تراه، وإن كانت بطيئة السير فزيادة النيل قليلة، وإن اختلف مسير هذه الثلاثة فكان بعضها فى مسيره الأكبر وبعضها بطيء السير. فغلب أقواها وأمزج الدلالة، وقل بحسب ذلك.

وقال القبط : ينظر أول يوم من شهر برمودة، ما الذى يوافقه من أيام الشهر العربي، فما كان من الأيام، فزد عليه خمسة وثمانين، فما بلغ خذ سدسه فإنه يكون عدد مبلغ النيل من الأذرع فى تلك السنة.

قالوا : ومن المعتبر أيضاً فى أمر النيل أن تنظر اليوم الذى تفطر فيه النصارى اليعاقبة بمصر، وما بقى من الشهر العربى فزد عليها أربعاً وثلاثين، فما بلغ أسقطه أثنى عشر، فإن بقى بعد ذلك الإسقاط من العدد زيادة على اثنى عشر فهو زيادة النيل من الأذرع فى تلك السنة مع الاثنى عشر، وإن بقى اثنا عشر فهى سنة رديئة.

---

(٢٤٩) جعفر بن محمد بن عمر البلخى أبو معشر عالم فلكى مشهور، كان أولاً من أصحاب الحديث وتعلم النجوم بعد سبع وأربعين سنة من عمره، مات سنة ٢٧٢هـ/ ٨٨٦م.
أنظر : إنباه القفطى ١٠٦، وفيات الأعيان ١/ ١١٢.

قالوا : وإذا كان العاشر من الشهر العربى موافقاً لشهر أبيب، والقمر فى برج العقرب، فإن كان مقارناً لقلب العقرب كان النيل مقصراً، وإلا فهو جيد.

قالوا : وينظر أول يوم من بئونة، فإن هبت الريح شمالاً فى بكرة النهار كان النيل عالياً، وإن هبت وسط النهار فإنه متوسط، وإن هبت آخر النهار كان نيلاً قاصراً، وإن لم تهب لم يطلع تلك السنة. وقيل يعتبر هكذا أول خميس من بئونة.

ومن المعتبر الذى جربته أنا سنينا، وأخبرنى بعض شيوخنا أنه جربه وأخبره به من جربه فصح، أن ينظر أول يوم من مسرى كم مبلغ النيل، فزد عليه ثمانية أذرع، فما بلغ فهو زيادة النيل فى تلك السنة.

ومما اشتهر عند أهل مصر - وجربته أيضاً فصح - أن يؤخذ قبل عيد ميكائيل بيوم فى وقت الظهر من الطين الذى مر عليه ماء النيل قطعة زنتها ستة عشر درهماً سواء، وترفع فى إناء مغطى إلى بكرة يوم عيد ميكائيل، وتوزن، فما زاد على وزنها من الخراريب كان مبلغ النيل فى تلك السنة بقدر عدد تلك الخراريب، لكل خروبة ذراع.

ومن ذلك أخذ شيء من دقيق القمح وعجنه بماء النيل فى إناء فخار، وقد عمل من طين مر عليه النيل، وتركه مغطى طول ليلة عيد ميكائيل، فإذا وجد بكرة يوم العيد قد اختمر بنفسه كان النيل تاماً وافياً، وإن وجد لم يختمر دل على قصور هذا النيل.

ثم ينظرون مع ذلك بكرة يوم عيد ميكائيل إلى الهواء، فإن هبت طياباً فهو نيل كبير، وإن هبت غير طياب فهو نيل مقصر، لا سيما إن هبت مريسيا فإنه يكون نيلاً غير كاف. والشأن عندهم إنما هو فى دلالة العلامات الثلاث على شيء واحد، فأما إذا اختلف فالحكم لايكاد يصح.

وقال أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى فى كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية» : وذكر أصحاب التجارب أنه إذا تقدم فعمد إلى لوح، وزرع عليه من كل زرع ونبات، حتى إذا كانت اللية الخامسة والعشرون من شهر تموز - أحد شهور الروم وهى آخر أيام الباحور - ثم وضع اللوح بارزاً لطلوع الكواكب وغروبها، لا يحول بينه وبين السماء شيء، فإن كل مالا

يزكو فى تلك السنة من الزروع يصبح أصفر، وما يصلح ريعه منها يبقى أخضر. وكذلك كانت القبط تفعل ذلك.

وقد جربت أنا - على ما أفادنيه بعض الكتاب - أنه إذا حصل مطر، ولو قل، فى شهر بابة، ينظر ما ذلك اليوم من الشهر القبطي، فإنه يبلغ سعر الويبة القمح تلك السنة من الدراهم بعدد ما مضى من أيام شهر بابة. وأول ما جربت هذا أنه وقع مطر فى بابة يوم الخميس الخامس عشر منها، فبيعت الويبة تلك السنة بخمسة عشر درهماً.

ذكر عيد الشهيد

ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد، وكان من أنزه فرج مصر، وهو اليوم الثامن من بشنس أحد شهور القبط، ويزعمون أن النيل بمصر لا يزيد فى كل سنة حتى يلقى النصارى فيه تابوتاً من خشب، فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى، ويكون ذلك اليوم عيداً ترحل إليه النصارى من جميع القرى، ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها.

ويخرج عامة أهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم، وينصبون الخيم على شطوط النيل وفى الجزائر، ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك ولا فاسق، إلا ويخرج لهذا العيد. فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم، وتصرف أموال لا تنحصر، ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصى والفسوق، وتثور فتن، وتقتل أناس، ويباع من الخمر خاصة فى ذلك اليوم بما ينيف على مائة ألف درهم فضة منها خمسة آلاف دينار ذهباً، وباع نصرانى فى يوم واحد باثنى عشر ألف درهم فضة من الخمر.

وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائماً بناحية شبرا من ضواحى القاهرة، وكان اعتماد فلاحى شبرا دائماً فى وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر فى عيد الشهيد.

ولم يزل الحال، على ما ذكر من الاجتماع، كذلك إلى أن كانت سنة اثنتين وسبعمائة. والسلطان يومئذ بديار مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون، والقائم بتدبير الدولة الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير(٢٥٠)، وهو يومئذ أستادار(٢٥١) السلطان، والأمير سيف الدين سلار(٢٥٢) نائب السلطنة بديار مصر. فقام الأمير بيبرس فى إبطال ذلك قياماً عظيماً، وكان إليه أمور ديار مصر هو والأمير سلار، والنصارى تحت حجرهما لا يقدر على شبع بطنه إلا من تحت أيديهما.

فتقدم أمر الأمير بيبرس ألا يرمى أصبع فى النيل، ولا يعمل له عيد، وندب الحجاب ووالى القاهرة لمنع الناس من الاجتماع بشبرا على عادتهم. وخرج البريد إلى سائر أعمال مصر ومعهم الكتب إلى الولاة بإجهار النداء وإعلانه فى الأقاليم بألا يخرج أحد من النصاري، ولا يحضر لعمل عيد الشهيد.

فشق ذلك على أقباط مصر كلهم، من أظهر الإسلام منهم وزعم أنه مسلم، ومن هو باق على نصرانيته، ومشى بعضهم إلى بعض.

وكان منهم رجل يعرف بالتاج بن سعيد الدولة يعانى الكتابة، وهو يومئذ فى خدمة الأمير بيبرس، وقد احتوى على عقله، واستولى على جميع أموره، كما هى عادة ملوك مصر وأمرائها من الأتراك فى الأنقياد لكتابهم من القبط، سواء منهم من أسر الكفر ومن جهر به.

ومازال الأقباط بالتاج إلى أن تحدث مع مخدومه الأمير بيبرس فى ذلك، وخيل له من تلف مال الخراج إذا بطل هذا العيد، فإن أكثر خراج شبرا إنما يحصل من ذلك، وقال له: متى لم يعمل العيد لم يطلع النيل أبداً، ويخرب إقليم مصر لعدم طلوع النيل... ونحو ذلك من هتف القول، وتنميق المكر.

---

(٢٥٠) هو بيبرس الجاشنكير المنصورى ركن الدين الملك المظفر من سلاطين المماليك بمصر والشام، كان من مماليك المنصور قلاوون، مات سنة ٧٠٩هـ.
أنظر: النجوم الزهرة ٨/ ٢٣٢ـ ٢٧٦، السلوك للمقريزى ٢/ ٤٥ ـ ٧١ ثم ٨٠.

(٢٥١) إحدى الوظائف الإدارية الهامة العسكرية ـ أى الإشراف على الجند والذخائر والطعام والمؤن.
أنظر: حسن الباشا: الوظائف.

(٢٥٢) له ذكر فى المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا.

فثبت الله الأمير بيبرس وقواه حتى أعرض عن جميع ما زخرفه من القول، واستمر على منع عمل العيد وقال للتاج : إن كان النيل لا يطلع إلا بهذا الأصبع فلا يطلع، وإن كان الله سبحانه هو المتصرف فيه، فنكذب النصاري.

فبطل العيد من تلك السنة، ولم يزل منقطعاً إلى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة.

وعمر الملك الناصر محمد بن قلاوون الجسر فى بحر النيل، ليرمى قوة التيار عن بر القاهرة إلى ناحية الجيزة، كما ذكر فى موضعه من هذا الكتاب.

فطلب الأمير يلبغا اليحياوي(٢٥٣) والأمير الطنبغا الماردينى من السلطان أن يخرجا إلى الصيد ويغيبا مدة، فلم تطلب نفسه بذلك لشدة غرامه بهما وتهتكه فى محبتهما، وأراد صرفهما عن السفر فقال لهما : نحن نعيد عمل عيد الشهيد فيكون تفرجكما عليه أنزه من خروجكما إلى الصيد۔ وكان قد قرب أوان وقت عيد الشهيد۔ فرضياً منه بذلك، وأشيع فى الإقليم إعادة عمل عيد الشهيد.

فلما كان اليوم الذى كانت العادة بعمله فيه، ركب الأمراء النيل فى الشختير(٢٥٤) بغير حراريق، واجتمع الناس من كل جهة، وبرز أرباب الغناء وأصحاب اللهو والخلاعة فركبوا النيل، وتجاهروا بما كانت عادتهم المجاهرة به من أنواع المنكرات، وتوسع الأمراء فى تنوع الأطعمة والحلاوات وغيرها توسعاً خرجوا فيه عند الحد فى الكثرة البالغة، وعم الناس منهم مالا يمكن وصفه لكثرته، واستمروا على ذلك ثلاثة أيام.

وكانت مدة انقطاع عمل عيد الشهيد منذ أبطله الأمير بيبرس إلى أن أعاده الملك الناصر ستا وثلاثين سنة. واستمر عمله فى كل سنة بعد ذلك إلى أن كانت سنة خمس وخمسين وسبعمائة تحرك المسلمون على النصاري، وعملت أوراق بما قد وقف من أراضى مصر على كنائس النصارى ودياراتهم، وألزم كتاب الأمراء بتحرير ذلك وحمل الأوراق إلى ديوان الأحباس.

---

(٢٥٣) يلبغا أبو المعالى السالمى الظاهرى الحنفى من أشهر أمراء الجند فى دولة الظاهر، مات سنة ٨١١هـ.
أنظر : الضوء اللامع ١٠/ ٢٨٩.
(٢٥٤) له ترجمة مستفيضة فى المختصر فى أخبار البشر الجزء الرابع - طبعة الحسينية - القاهرة.

فلما تحررت الأوراق، اشتملت على خمسة وعشرين ألف فدان كلها موقوفة على الديارات والكنائس، فعرضت على أمراء الدولة القائمين بتدبير الدولة فى أيام الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون. وهم الأمير شيخو العمري(٢٥٥)، والأمير صرغتمش(٢٥٦)، والأمير طاز. فتقرر الحال على أن ينعم بذلك على الأمراء زيادة على إقطاعاتهم، وألزم النصارى بما يلزمهم من الصغار، وهدمت لهم عدة كنائس، كما هو مذكور فى موضعه من هذا الكتاب عند الكنائس.

فلما كان العشر الاخير من شهر رجب من السنة المذكورة، خرج الحاجب والامير علاء الدين على بن الكوراني(٢٥٧) والى القاهرة الى ناحية شبرا الخيام من ضواحى مصر، فهدمت كنيسة النصاري، واخذت منها إصبع الشهيد فى صندوق، وأحضر الى الملك الصالح، وأحرق بين يديه فى الميدان، وذرى رماده فى البحر حتى لا ياخذه النصاري، فبطل عيد الشهيد من يومئذ الى هذا العهد، ولله الحمد والمنة.

ذكر الخلجان التي شقت من النيل

اعلم أن النيل إذا انتهيت زيادته فتحت منه خلجان وترع يتخرق الماء فيها يمينا وشمالا إلى البلاد البعيدة عن مجرى النيل. وأكثر الخلجان والترع والجسور والأخوار بالوجه البحري، وأما الوجه القبلى. وهو بلاد الصعيد. فإن ذلك قليل فيه، وقد ذهبت معالمه ودرست رسومه من هنالك.

والمشهور من الخلجان: خليج منجا، وخليج منف، وخليج المنهي، وخليج اشموم طناح، وخليج سردوس، وخليج الإسكندرية، وخليج دمياط، وخليج القاهرة، وبحر ابى المنجا، والخليج الناصرى ظاهر القاهرة.

---

(٢٥٥) له ذكر فى كتاب «التبر المسبوك فى تواريخ الملوك» طبعة الثقافة الدينية. القاهرة ١٩٩٥م.
(٢٥٦) له ذكر فى المختصر فى أخبار البشر.
(٢٥٧) له ذكر فى النجوم الزاهرة لأبن تغرى بردي.

قال ابن عبد الحكم، عن أبى رهم السماعي، قال : كانت مصر ذات قناطر وجسور بتقدير وتدبير، حتى إن الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاءوا ويرسلونه كيف شاءوا، فذلك قوله تعالى عما حكى عن قول فرعون ﴿ **أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتى، أفلا تبصرون** ﴾ (٢٥٨)

ولم يكن يومئذ فى الأرض ملك أعظم من ملك مصر، وكانت الجنات بحافتى النيل من أوله الي آخره فى الجانبين معا جميعا - ما بين أسوان إلى رشيد، وسبع خلج : خليج الإسكندرية، وخليج سخا، وخليج دمياط، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنهي، وخليج سردوس - جنات متصلة لا ينقطع منها شيء، والزرع ما بين الجبلين من اول مصر إلى آخرها مما يبلغه الماء.

وكانت جميع أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعا، لما قدروا ودبروا من قناطرها وخلجها وجسورها، فذلك قوله تعالى : ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم** ﴾ (٢٥٩)

قال : والمقام الكريم المنابر، كان بها ألف منبر .

خليج سخا

وخليج سخا حفره ندارس بن صا بن قبطيم ابن مصر بن بيصر بن حام نوح، وهو أحد ملوك القبط القدماء الذين ملكوا مصر فى الدهر الاول .

قال ابن وصيف شاه : ندارس الملك أول من ملك الأحياز كلها بعد أبيه صا، وصفا له ملك مصر، وكان ندارس محتنكا مجربا، ذا أيد وقوة ومعرفة بالأمور، فأظهر العدل، وأقام

---

(٢٥٨) ٥١ ك الزخرف ٤٣ .
(٢٥٩) ٢٥ ، ٢٦ ك الدخان ٤٤ .

الهياكل وأهلها قياما حسنا، ودبر جميع الأحياز. ويقال إنه الذى حفر خليج سخا، وارتفع مال البلد على يده مائة ألف ألف دينار وخمسين ألف ألف دينار.

وقصده بعض عمالقة الشام، فخرج إليه واستباحه، ودخل فلسطين وقتل بها خلقا، وسبى بعض حكمائها وأسكنهم مصر، وهابته الملوك.

وعلى رأس ثلاثين من ملكه طمع السودان من الزنوج والنوبة فى أرضه، وعاثوا وأفسدوا. فجمع الجيوش من أعمال مصر، وأعد المراكب، ووجه قائدا يقال له فلوطس فى ثلاثمائة ألف وقائدا آخر فى مثلها، ووجه فى النيل ثلاثمائة سفينة، فى كل سفينة كاهن يعمل أعجوبةمن العجائب. ثم خرج فى جيوش كثيرة فلقى جمع السودان - وكانوا فى زهاء ألف ألف - فهزمهم وقتل أكثرهم أبرح قتل، وأسر منهم خلقا، وتبعتهم جيوشه حتى وصلوا إلى أرض الفيلة من بلاد الزنج، فأخذوا منها عدة ومن النمور والوحوش، وساقوها إلى مصر فذللها. وعمل على حدود بلدة منارا وزبر عليه مسيره وظفره والوقت الذى سار فيه.

ومات بمصر، فدفن فى ناووس نقل إليه شيئا كثيرا من أصنام الكواكب، ومن الذهب والجوهر والصيغة والتماثيل، وزبر عليه اسمه وتاريخ هلاكه، وجعل عليه طلمسمات تمنع منه، وعهد إلى ابنه ماليق بن ندارس.

خليج سردوس

حفره هامان، قال ابن وصيف شاه: ظلما ابن قومس الملك جلس على سرير الملك، وحاز جميع ما كان فى خزائنهم، وهو الذى تذكر القبط أنه فرعون موسي، فأما أهل الأثر فيزعمون انه الوليد بن مصعب، وأنه من العمالقة، وذكروا أن الفراعنة سبعة.

وكان ظلما ـ فيما حكى عنه ـ قصيرا، طويل اللحية، أشهل العينين، صغير العين اليسري، فى جبينه شامة، وكان أعرج.

وزعم قوم أنه من القبط، ونسب أهل بيته مشهور عندهم.

وذكر آخرون أنه دخل منف على أتان عليها قطرون جاء ليبيعه، وكانوا قد اضطروا فى تولية الملك، فرضوا أن يملكوا عليهم أول من يطرأ من الناس، فلما رأوه ملكوه عليهم.

ولما جلس فى الملك بذل الأموال وقرب من أطاعه، وقتل من خالفه، فاعتدل أمره. واستخلف هامان، وكان يقرب منه فى نسبه، وأثار بعض الكنوز وصرفها فى بناء المدائن والعمارات، وحفر خلجانا كثيرة، ويقال إنه الذى حفره خليج سردوس، وكان كلما عرجه إلى قرية من قرى الحوف حمل إليه أهلها مالا، حتى اجتمع من ذلك مال كثير، فأمر برده على أهله.

وقال ابن عبد الحكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما: إن فرعون استعمل هامان على حفر خليج سردوس، فلما ابتدأ حفر أتاه كل أهل قرية يسألونه أن يجرى الخليج تحت قريتهم ويعطونه مالا.

قال: وكان يذهب به إلى هذه القرية من نحو الشرق، ثم يرده إلى قرية من نحو دبر القبلة، ثم يرده إلى قرية فى الغرب، ثم يرده إلى أهل قرية فى القبلة، ويأخذ من أهل كل قرية مالا حتى اجتمع له من ذلك مائة ألف دينار، فاتى بذلك يحمله إلى فرعون، فساله عن ذلك فأخبره بما فعل فى حفره.

فقال له فرعون: ويحك، إنه ينبغي للسيد إن يعطف على عباده، ويفيض عليهم، ولا يرغب فيما بأيديهم، رد على أهل كل قرية ما أخذت منهم.

فرده كله على أهله.

قال: فلا يعلم بمصر خليج أكثر انعطافا منه، لما فعل هامان فى حفره، وكان هامان نبطيا.

خليج الإسكندرية

قال ابن عبد الحكم: ويقال إن الذى بنى منارة الإسكندرية قلبطرة «كليوباترة» الملكة، وهى التى ساقت خليجها حتى أدخلته الإسكندرية، ولم يكن يدخلها الماء، كان يعدل من قرية يقال لها كسا قبالة الكريون، فحفرته حتى أدخلته الاسكندرية، وهى التى بلطت قاعته.

وقال الكندي: إن الحارث بن مسكين[٢٦٠] قاضى مصر حفر خليج الإسكندرية.

وقال الأسعد بن مماتي[٢٦١] فى كتاب «قوانين الدواوين»: خليج الاسكندرية عليه عدة ترع، وطوله من فم الخليج ثلاثون ألف قصبة ستمائة قصبة، وعرضه من قصبتين ونصف الى ثلاث قصبات ونصف. ومقام الماء فيه بالنسبة الى النيل: فان كان مقصرا قصرت مدة إقامته فيه، وإن كان عاليا أقام فيه ما يزيد على شهرين.

---

(٢٦٠) هو الحارث بن مسكين الأموى مولاهم أبو عمرو. قاضى فقيه على مذهب مالك، ثقة فى الحديث من أهل مصر، حمل فى أيام المأمون إلى العراق وسجن فى محنه القرآن، ولد سنة ١٥٤هـ/ ٧٧١م ومات سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م.
أنظر: تهذيب التهذيب ٢/ ١٥٦، تذكرة الحفاظ ٢/ ٨٨، الولاة والقضاة ٤٦٧ و ٥٠٢، مناقب الإمام أحمد ٤٠٠، تاريخ بغداد ٨/ ٢١٦.

(٢٦١) هو أسعد (أبو المكارم) بن مهذب (الملقب بالخطير أبى سعيد) بن مينا بن زكريا بن مماتى ولد سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م ومات سنة ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م، له «قوانين الدواوين» و «نظم سيرة السلطان صلاح الدين» و «نظم كليلة ودمنة» و «ديوان شعر» و «الفاشوش فى أحكام قراقوش».
أنظر: معجم الأدباء ٢/ ٢٤٤، وفيات الأعيان ١/ ٦٨، النجوم الزاهرة ٦/ ١٧٨، مرآة الجنان ٤/ ١٣، شذرات الذهب ٥/ ٢٠، حسن المحاضرة ١/ ٣٢٥.

ورأيت جماعة من أهل الخبرة وذوى المعرفة يقولون : إنه إذا عملت من قبالة منية نتيج الى نتيج زلاقة ، استقر الماء فيه صيفا وشتاء. ورايت البحيرة جميعها وحوف ودمسيس والكفور الشاسعة وقد زرعت عليه القصب والقلقاس والنيلة وأنواع زراعة الصيفي ، وجرى مجرى بحر الشرق والمحلة ، وتضاعفت عليه البلاد ، وعظم ارتفاعها.

وإقامة هذه الزلاقة ممكنة لوجود الحجارة فى ربوة ، والطوب فى البحيرة. وأنهم قدروا ما يحتاج إليه فوجدوه يناهز عشرة آلاف دينار.

ويقال إنه كان الماء فيه جاريا طول السنة، وكان السمك فيه غاية من الكثرة بحيث تصيده الاطفال بالخرق ، فضمنه بعض الولاة بمال ، ومنع صيده ، فعدم منه السمك ، ولم ير بعد ذلك فيه سمكة ، فصار يخرج بالشباك.

خليج الفيوم والمنهي

مما حفره نبى الله يوسف الصديق عليه السلام عندما عمر الفيوم ، كما هو مذكور فى خبر الفيوم من هذا الكتاب . وهو مشتق من النيل ، لا ينقطع جريه أبداً ، وإذا قابل النيل ناحية دورة سريام التى تعرف اليوم بدورة الشريف (يعنى ابن يعلن النائب فى الأيام الظاهرية بيبرس) تشعبت منه فى غربية شعبة تسمى المنهي ، تستقل نهراً يصل إلى الفيوم ، وهو الآن عرف ببحر يوسف ، وهو نهر لا ينقطع جريانه فى جميع السنة ، فيسقى الفيوم عامة سقياً دائماً ، ثم ينجر فضل مائه فى بحيرة هناك .

ومن العجب أنه ينقطع ماؤه من فوهته ، ثم يكون له بلل دون المكان المندي ، ثم يجرى جرياً ضعيفاً دون مكان البلل ، ثم يستقل نهراً جارياً ، لا يقطع إلا بالسفن ، ويتشعب منه أنهار ، وينقسم قسماً يعم الفيوم يسقى قراه ومزارعه وبساتينه وعامة أماكنه . والله أعلم .

خليج القاهرة

هذا الخليج بظاهر القاهرة من جانبها الغربي، فيما بينها وبين المقس، عرف فى أول الإسلام بخليج أمير المؤمنين، وتسميه العامة أليوم الخليج الحاكمي، وبخليج اللؤلؤة.

وهو خليج قديم، أول من حفره طوطيس أبن ماليا، أحد ملوك مصر الذين سكنوا مدينة منف، وهو الذى قدم إبراهيم الخليل صلوات اللّه عليه فى أيامه إلى مصر، وأخذ منه امرأته سارة وأخدمها هاجر أم إسماعيل صلوات اللّه عليهما. فلما أخرجها إبراهيم هى وابنها إسماعيل إلى مكة، بعثت إلى طوطيس تعرفه أنها بمكان جدب وتستغيثه، فأمر بحفر هذا الخليج، وبعث إليه فيه بالسفن تحمل الحنطة وغيرها إلى جدة، فأحيا بلد الحجاز.

ثم إن أندرومانوس الذى يعرف بإيليا، أحد ملوك الروم بعد الأسكندر بن فلبس المجدوني، جدد حفر هذا الخليج، وسارت فيه السفن وذلك قبل الهجرة النبوية بنيف وأربعمائة سنة.

ثم إن عمرو بن العاص رضى اللّه عنه جدد حفره لما فتح مصر، وأقام فى حفره ستة أشهر، وجرت فيه السفن بحمل الميرة إلى الحجاز، فسمى خليج أمير المؤمنين (يعنى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فإنه هو الذى أشار بحفره).

ولم تزل تجرى فيه السفن من فسطاط مصر إلى مدينة القلزم التى كانت على حافة البحر الشرقي، حيث الموضع الذى يعرف اليوم على البحر بالسويس، وكان يصب ماء النيل فى البحر من عند مدينة القلزم، إلى أن أمر الخليفة أبو جعفر المنصور بطمه فى سنة خمسين ومائة فطم، وبقى منه ما هو موجود الآن. وسيأتى الكلام عليه مبسوطاً، إن شاء اللّه تعالي، عند ذكر ظواهر القاهرة من هذا الكتاب.

بحر أبي المنجا

هذا الخليج تسميه العامة بحر أبى المنجا الذى حفره الأفضل بن أمير الجيوش فى سنة ست وخمسمائة. وكان على حفره أبو المنجا بن شعيا اليهودي، فعرف به. وقد ذكر خبر هذا الخليج عند ذكر مناظر الخلفاء ومواضع نزههم من هذا الكتاب.

الخليج الناصري

هذا الخليج فى ظاهر المقس، حفره الناصر محمد بن قلاوون فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة، وقد ذكر فى موضعه من هذا الكتاب.

ذكر ماكانت عليه أرض مصر في الزمن الأول

قال المسعودي: وقد كانت أرض مصر - على زعم أهل الخبرة والعناية بأخبار شأن العالم - يركب أرضها ماء النيل، وينبسط على بلاد الصعيد إلى أسفل الأرض، وموضع يعرف بالجنادل بين أسوان والنوبة، إلى أن عرض لذلك موانع من انتقال الماء وجريانه، وما يتصل من النوبة بتياره من موضع إلى موضع، فنضب الماء عن بعض المواضع من بلاد مصر، وسكن الناس بلاد مصر، ولم يزل الماء ينصب عن أرضها قليلاً قليلاً، حتى امتلأت أرض مصر من المدن والعمائر، وطرق للماء، وحفروا له الخلجان، وعقدوا فى وجهه المسببات، إلى أن خفى ذلك على ساكنيها، لأن طول الزمان ذهب بمعرفة أول سكناهم كيف كان... انتهى.

قلت : ومما ذكر أرسطاطاليس فى كتاب «الآثار العلوية» أن أرض مصر كان النيل ينبسط عليها فيطبقها كأنها بحر ، ولم يزل الماء ينضب عنها ، وييبس ما علا منها أولا فأولا ويسكن ، إلى أن امتلأت بالمدن والقرى والناس.

ويقال إن الناس كانوا قبل سكنى مدينة منف يسكنون بسفح الجبل المقطم فى منازل كثيرة نقروها ، وهى المغاير التى فى الجبل المقابل لمنف من قبلى المقطم ، فى الجبل المتصل بدير القصير(٢٦٢) الذى يعرف بدير البغل ، المطل على ناحية طرا.

ومن وقف عند إهرام نهيا ، رأى المغائر فى الشرقى وبينهما النيل ، ومن صعد من طرا إلى الجبل وسار فيه دخلها. وهى مغاير متسعة ، وفيها مغائر تنفذ إلى القلزم تسع المغارة منها أهل مدينة ، واذا دخلها أحد ولم يهتد على ما يدله على المخرج هلك فى تحيره.

ويقال كانت مصر جرداء لا نبات بها ، فأقطعها متوشلخ بن أخنوخ بن برد بن مهلاييل بن فتيان بن أنوس بن شيث بن آدم لطائفة من أولاده. فلما نزلوها وجدوا نيلها قد سد ما بين الجبلين ، فنضب الماء عن أرض زروعها ، فأخرجت الأرض بركاتها.

ثم بعد زمان أخذها عنقام بن عرياب ابن آدم بالغلبة ، ونسل خلقا عظيما ، وجهز لقتال أولاد برد سبعين ألف مقاتل ، وحفر من البحر إلى الجبل نهرا عرضة أربعون قصبة ليمنع من يأتيه ، فأتاه بنو برد فلم يجدوا إليه سبيلاً ، ففزعوا إلى الله تعالي ، فبعث على أرض مصر نارا.

ذكر اعمال الديار المصرية وكورها

اعلم أن أرض مصر كانت فى الزمن الأول الغابر مائة وثلاثا وخمسين كورة ، فى كل كورة مدينة وثلثمائة وخمس وستون قرية. فلما عمرت أرض مصر بخت نصر ، صارت على

---

(٢٦٢) فى طريق الصعيد بقرب موضع هناك يقال له حلوان وهو على رأس جبل مشرف على النيل فى غاية النزاهة والحسن وفيه صورة مريم وفى حجرها المسيح فى غاية الإتقان والصنعة.
أنظر : معجم البلدان ٤/ ١٦٢ ـ ١٦٤ .

خمس وثمانين كورة، ثم تناقصت حتى جاء الإسلام وفيها أربعون عامرة بجميع قراها لا تنقص شيئا.

ثم استقرت مصر كلها فى الجملة على قسمين: الوجه القبلي، وهو ما كان فى جهة الجنوب من مدينة مصر، والوجه البحرى وهو ما كان فى شمال مدينة مصر.

وقد قسمت الأرض جميعها ـ قبليها وبحريها ـ على ستة وعشرين عملا، وهي: الشرقية، والمرتاحية، والدقهلية، والإيوانية، وثغر دمياط.

الوجه البحري: جزيرة قويسنا[٢٦٣]، والغربية، والسمنودية[٢٦٤]، والدلجاوية، والمنوفية، والستراوية، وفوه، والمزاحميتين، وجزيرة بنى نصر، والبحيرة، وإسكندرية وضواحيها، وحوف دمسيس.

والوجه القبلي: الجيزة، والأطفيحية، والبوصيرية، والفيومية، والبهنساوية، والأشمونين، والمنفلوطية، والأسيوطية، والاخميمية، والقوصية.

وهى أيضا ثلاثون كورة، وهي:

كورة الفيوم: وفيها مائة وست وخمسون قرية، ويقال إنها كانت ثلاثمائة وستين قرية.

وكورة منف ووسيم: خمس وخمسون قرية.

وكورة الشرقية، وتعرف بالأطفيحية: سبع عشرة قرية، وقرى اهناس ومنها قِمَن ثمانى قري.

وكورتا دلاص وبوصير ست قري.

وكورة إهناس خمس وتسعون قرية، سوى الكفور.

وكورة البهنسا مائة وعشرون قرية.

وكورة الفشن سبع وثلاثون قرية.

---

(٢٦٣) مدينة فى مصر بمحافظة الغربية.
(٢٦٤) مدينة فى مصر بمحافظة الغربية يبلغ تعدادها أكثر من ٤٠,٠٠٠ نسمة.

وكورة طحا سبع وثلاثون قرية.

وحوز سنودة ثمانى قري،

وكورة الأشمونين مائة وثلاث وثلاثون قرية.

وكورة أسفل أنصنا إحدى عشرة قرية.

وكورة سيوط سبع وثلاثون قرية.

وكورة شطب ثمان قري،

وكورة أعلى أنصنا ثنتا عشرة قرية.

وكورة قهقوه سبع وثلاثون قرية.

وكورة أخميم والدوير ثلاث وستون قرية.

وكورة السبابة والواحات ثلاث وستون قرية ، سوى الكفور.

وكورة هو عشرون قرية.

وكورة «فاو» ثمان قري.

وكورة قنا سبع قري،

وكورة دندرة عشر قري،

وكورة قفط ثنتان وعشرون قرية.

وكورة الأقصر خمس قري،

وكورة إسنا خمس قري،

وكورة أرمنت سبع قري...

فجميع قرى الصعيد ألف وثلاث وأربعون قرية ، سوى المنى والكفور فى ثلاثين كورة.

كورة أسفل الأرض (الحوف الشرقي) : خمس وستون قرية.

كورة أتريب مائة وثمان قري، سوى المنى والكفور.

كورة بنو : سبع وثمانون قرية ، سوى المنى والكفور.

كورة تما مائة وخمسون قرية ، سوى المنى والكفور.

كورة بسطة تسع وثلاثون قرية.

كورة طرابية ثمان وعشرون قرية ، منها السدير والهامة وفاقوس.

كورة هربيط ثمان عشرة قرية ، سوى المنى والكفور.

كورة صا وأبليل ست وأربعون قرية ، منها سنهور والفرما والعريش...

فجميع قرى الحوف الشرقى خمسمائةوتسع وعشرون قرية ، سوى المنى فى سبع كور.

بطن الريف : كورتا دمسيس ومنوف مائة وأربع قري ، سوى المنى والكفور.

كورة تاطورة منوف : اثنتان وسبعون قرية ، سوى المنى والكفور.

كورة سخا مائة وخمس عشرة قرية.

كورة بيدة والافراحون ثلاث وعشرون قرية ، سوى المنى والكفور.

كورة البشرود أربع وعشرون قرية.

كورة نفرا ثنتا عشرة قرية ، سوى المني.

كورة ببا وبوصير ثمان وثمانون قرية ، سوى المنى والكفور.

كورة سمنود مائة وثمان وعشرون قرية سوى المنى والكفور.

كورة نوسا إحدى وعشرون قرية ، سوى المني.

كورة الأوسية أربعون قرية ، سوى المني.

كورة النجوم أربعون قرية ، سوى المني ، وهى شئ كثير.

الإسكندرية (الحوف الغربي) : كورة صا ثلاث وسبعون قرية ، سوى المنى والكفور.

كورة شباس أثنان وعشرون قرية ، سوى المنى والكفور.

كورة البدقون ثلاث وأربعون قرية ، سوى المنى والكفور.

حيز اليدقون تسع وعشرون قرية ، سوى المنى والكفور.

كورة ترنوط اثنان وستون قرية ، سوى المنى والكفور.

كورة خربتا اثنان وستون قرية ، سوى المنى والكفور.

كورة قرطسا اثنان وعشرون قرية ، سوى المنى والكفور.

كورتا مصيل والمليدس تسع وأربعون قرية ، سوى المني.

كورتا احنور ورشيد سبع عشرة قرية.

البحيرا والحصص بالاسكندرية ، والكرومات والبعل ومريوط ومدينة الإسكندرية ولوبية ومراقية : مائة وأربع وعشرون قرية ، سوى المني...

فالحوف الغربى أربعمائة وتسع وأربعون قرية ، سوى المنى فى ثلاث عشرة كورة.

قال المسبحى فى تاريخه : تصير قرى مصر أسفل الأرض ألفا وأربعمائة وتسعا وثلاثين قرية ، ويكون جميع ذلك بالصعيد وأسفل الأرض ألفين وثلاثمائة وخمسا وتسعين قرية.

وقال القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي : أرض مصر قسمان ، فمن ذلك صعيدها ، وهو ما يلى مهب الجنوب منها ، وأسفل أرضها ، وهو ما يلى مهب الشمال منها.

فقسم الصعيد على ثمان وعشرين كورة. فمن ذلك : كورة الفيوم كلها ، وكورتا منف ووسيم ، وكورة الشرقية ، وكورتا دلاص وبوصير ، وكورة إهناس ، وكورتا الفشن والبهنسا ، وكورة طحا ، وحيز سنودة ، وكورة بويط ، وكورتا الأشمونين وأسفل أنصنا وأعلاها ، وشطب قوص قام ، وكورة سيوط ، وكورة قهقوه ، وكورتا إخميم والدير وابشاية ، وكورة هو وأقنا وفاو ودندرة ، وكورة قفط والاقصر ، وكورة اسنا وأرمنت ، وكورة أسوان... فهذه كورة الصعيد.

ومن ذلك كور أسفل الأرض ، وهى خمس وعشرون كورة (وفى نسخة ثلاث وثلاثون كورة ، وفى نسخة ثمان وثلاثون كورة). فمن ذلك كور الحوف الشرقي : كورتا أتريب وعين شمس ، وكورتا بنى ونمي ، وكورتا بسطة وطرابية ، وكورة هربيط ، وكورة صا وإبليل ، وكورة الفرما والعريش والجفار.

ومن ذلك كور بطن الريف من أسفل الأرض: كورة بيا وبوصير، وكورتا سمنود وبوسا، وكورتا الأوسية والنجوم، وكورة دقهلة، وكورتا تنيس ودمياط.

ومنها كورة الجزيرة من أسفل الأرض، وكورة دمسيس ومنوف، وكورة طوه ومنوف، وكورة سخا وبيدة والأفراحون، وكورة مقين وديصا، وكورة البشرود.

ومن ذلك كور الحوف الغربي: كورة صا وكورة شباس، وكورة اليدقون وحيزها، وكورة الخيس والشراك، وكورة خربتا، وكورة قرطسا ومصيل والمليدس، وكورتا إخنا والبحيرة ورشيد، وكورة الإسكندرية، وكورة مريوط، وكورة لوبية ومراقية.

ومن كور القبلة كور الحجاز، وهى كورة الطور وفاران، وكورة راية والقلزم، وكورة أيلة وحيزها، ومدين وحيزها، والعونيد، والحوراء وحيزها، ثم كورة بدا وشغب.

وذكر من له معرفة بالخراج وأمر الديوان أنه وقف على جريدة عتيقة بخط ابن عيسى بقطر بن شغا ـ الكاتب القبطى المعروف بالبولس، متولى خراج مصر للدولة الإخشيدية ـ يشتمل على ذكر كور مصر وقراها إلى سنة خمس وأربعين وثلاثمائة: إن قرى مصر بالصعيدين وأسفل الأرض ألفا وثلاثمائة وخمس وتسعون قرية، منها بالصعيد تسعمائة وست وخمسون قرية، وبأسفل الأرض ألف وأربعمائة وتسع وثلاثون قرية، وهذا عددها فى الوقت الذى جردت فيه الجرايد المذكورة، وقد تغيرت بعد ذلك بخراب ما خرب منها.

وقال ابن عبد الحكم، عن الليث بن سعد رضى الله عنه: لما ولى الوليد بن رفاعة مصر، خرج ليحصى عدة أهلها، وينظر فى تعديل الخراج عليهم، فأقام فى ذلك ستة أشهر بالصعيد، حتى بلغ أسوان ومعه جماعة من الكتاب والأعوان يكفونه ذلك بجد وتشمير، وثلاثة أشهر بأسفل الأرض، وأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية، فلم يحصر فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذى تفرض عليهم الجزية، يكون جملة ذلك خمسة آلاف ألف رجل.

والذى استقر عليه الحال فى دولة الناصر محمد بن قلاوون أن الوجه القبلى تسعة أعمال، وهى عمل قوص ـ وهو أجلها، ومنه أسوان وغرب قمولة ـ وعمل أخيم، وعمل

سيوط، وعمل منفلوط، وعمل الأشمونين - وبها الطحاوية - وعمل البهنساوية الغربي، وهو عبارة عن قرى على غربى المنهى المار الى الفيوم، وعمل الفيوم وعمل أطفيح، وعمل الجيزة.

والوجه البحرى ستة أعمال: عمل البحيرة، وهو متصل البر بالإسكندرية وبرقة.

وعمل الغربية جزيرة واحدة يشتمل عليها ما بين البحرين، وهما: البحر المار مسكبه عند دمياط ويسمى الشرقي، والبحر الثانى مسكبة عند رشيد ويسمى الغربي.

والمنوفية، ومنها ابيار، وجزيرة بنى نصر. وعمل قليوب، وعمل الشرقية، وعمل اسموم طناح، ومنها الدقهلية والمرتاحية، وهناك موقع ثغر البرلس وثغر رشيد والمنصورة.

وفى هذا الوجه الإسكندرية ودمياط، ولا عمل لهما.

وأما الواحات فمنقطعة وراء الوجه القبلي، مغازية لم تعد فى الولايات ولا فى الأعمال، ولا يحكم عليها والى السلطان، وإنما يحكم عليها من قبل مقطعها، والله تعالى أعلم.

ذكر ماكان يعمل في أراضي مصر من حفر الترع وعمارة الجسور ونحو ذلك من أجل ضبط ماء النيل وتصريفه في أوقاته

قال ابن عبد الحكم، عن يزيد بن أبى حبيب: وكانت فريضة مصر - بحفر خلجها، وإقامة جسورها، وبناء قناطرها، وقطع جزائرها - مائة ألف وعشرين ألفا معهم المساحى والطوريات والاداة، يعتقبون ذلك، لا يدعونه شتاء ولا صيفا.

وعن أبى قبيل قال: زعم بعض مشايخ أهل مصر أن الذى كان يعمل به بمصر على عهد ملوكها أنهم كانوا يقرون القرى فى أيدى أهلها، كل قرية بكراء معلوم لا ينقض عنهم إلا فى كل أربع سنين من أجل الظمأ وتنقل اليسار. فإذا مضت أربع سنين نقض ذلك، وعدل

تعديلا جديدا، فيرفق بمن استحق الرفق، ويزاد على من احتمل الزيادة، ولا يحمل عليهم من ذلك ما يشق عليهم.

فإذا جبى الخراج وجمع، كان للملك من ذلك الربع خالصا لنفسه، يصنع به ما يريد.

والربع الثانى لجنده، ومن يقوى به على حربه وجباية خراجه ودفع عدوه.

والربع الثالث فى مصلحة الأرض، وما تحتاج إليه من جسورها وحفر خلجها وبناء قناطرها، والقوة للزارعين على زرعهم، وعمارة أرضهم.

والربع الرابع يخرج منه ربع ما يصيب كل قرية من خراجها، فيدفن ذلك لنائبة تنزل، أو جائحة بأهل القرية ... فكانوا على ذلك.

والذى يدفن فى كل قرية من خراجها هى كنوز فرعون التى يتحدث الناس بها أنها ستظهر، فيطلبها الذين يتتبعون الكنوز.

وذكر أن بعض فراعنة مصر جبى خراج مصر اثنين وسبعين ألف ألف دينار، وأن من عمارته أنه أرسل ويبة قمح إلى أسفل الأرض وإلى الصعيد فى وقت تنظيف الأرض والترع من العمارة، فم يوجد لها أرض فارغة تزرع فيها.

وذكر أنه كان عند تناهى العمارة يرسل بأربع ويبات برسيم الى الصعيد والى أسفل الأرض، وإلى أى كورة، فإن وجد لها موضعا حاليا فزرعت فيه، ضرب عنق صاحب الكورة.

وكانت مصر يومئذ عمارتها متصلة أربعين فرسخا فى مثلها، والفرسخ ثلاثة أميال، والبريد أربعة فراسخ، فتكون عشرة برد فى مثلها.

ولم تزل الفراعنة تسلك هذا المسلك إلى أيام فرعون موسي، فإنه عمرها عدلا وسماحة، وتتابع الظمأ ثلاث سنين فى أيامه فترك لأهل مصر خراج ثلاث سنين، وأنفق على نفسه وعساكره من خزائنه، ولما كان فى السنة الرابعة أضعف الخراج، واستمر فاعتاض ما أنفق.

وكتب عمر بن الخطاب، رضى اللّٰه عنه، إلى عمرو بن العاص رضى الله عنه : أن اسأل المقوقس عن مصر، من أين تأتى عمارتها وخرابها؟

فسأله عمرو، فقال له المقوقس : عمارتها وخرابها من وجوه خمسة : أن يستخرج خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم، ويرفع خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم، ويحفر فى كل سنة خلجانها، وتسد ترعها وجسورها، ولا يقبل مطل أهلها يريد البغي. فإذا فعل هذا فيها عمرت، وإن عمل فيها فيها بخلافه خربت.

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما استبطا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمرو بن العاص رضى الله عنه فى الخراج، كتب إليه أن ابعث الى رجلا من أهل مصر. فبعث إليه رجلا قديما من القبط، فاستخبره عمر بن الخطاب رضى اللّٰه عنه عن مصر وخراجها قبل الإسلام، فقال : يأمير المؤمنين، كان لا يؤخذ منها شئ إلا بعد عمارتها، وعاملك لا ينظر إلى العمارة، وإنما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريدها إلا لعام واحد.

فعرف عمر رضى اللّٰه عنه ما قال، وقبل من عمرو ما كان يعتذر به.

وقال عمرو بن العاص رضى اللّٰه عنه للمقوقس : أنت وليت مصر، فيم تكون عمارتها؟

فقال : بخصال : أن تحفروا خلجانها، وتسد جسورها وترعها، ولا يؤخذ خراجها إلا من غلتها، ولا يقبل مطل أهله، ويوفى لهم بالشروط، ويدر الأرزاق على العمال لئلا يرتشوا، ويرتفع عن أهله المعاون والهدايا ليكون قوة لهم ... فبذلك تعمر ويرجى خراجها

ويقال إن ملوك مصر من القبط كانوا يقسمون الخراج أربعة أقسام : قسم لخاصة الملك، وقسم لأرزاق الجند، وقسم لمصالح الأرض، وقسم يدخر لحادثة تحدث فينفق فيها.

ولما ولى عبيد اللّٰه بن الحبحاب خراج مصر لهشام بن عبد الملك، خرج بنفسه فمسح أرض مصر كلها - عامرها وغامرها، مما يركبه النيل - فوجد فيها مائة ألف ألف فدان، والباقى استبحر وتلف. واعتبر مدة الحرث فوجدها ستين يوما، والحراث يحرث خمسين فدانا. وكانت محتاجة الى أربعمائة ألف وثمانين ألف حراث.

ذكر مقدار خراج مصر في الزمن الأول

قال ابن وصيف شاه : وكان منقاوس قسم خراج البلاد أرباعا : فربع للملك خاصة يعمل فيه ما يريد، وربع ينفق فى مصالح الأرض وما تحتاج إليه من عمل الجسور وحفر الخلج وتقوية أهلها على العمارة، وربع يدفن لحادثة تحدث أو نازلة تنزل، وربع للجند. وكان خراج البلد ذلك الوقت مائة ألف ألف وثلاث كور بعدة الآلاف . ويقال إن كل دينار عشرة مثاقيل من مثاقيلنا الإسلامية.

وهى اليوم خمس وثمانون كورة: أسفل الأرض خمس وأربعون كورة، والصعيد أربعون كورة . وفى كل كورة كاهن يدبرها، وصاحب حرب .

وارتفع مال البلد على يد ندارس بن صا مائة ألف ألف دينار وخمسين ألف ألف دينار، وفى أيام كلكن بن خربتا بن ماليق بن ندارس مائة ألف ألف دينار وبضعة عشر ألف ألف دينار .

ولما زالت دولة القبط الأولى من مصر، وملكها العمالقة، اختل أمرها، وكان فرعون الأول يجبيها تسعين ألف ألف دينار، يخرج من ذلك عشرة آلاف ألف دينار لمصالح البلد، وعشرة آلاف ألف دينار لمصالح الناس - من أولاد الملوك، وأهل التعفف - وعشرة آلاف ألف دينار لأولياء الأمر والجند والكتاب، وعشرة آلاف ألف دينار لمصالح فرعون، ويكنزون لفرعون خمسين ألف ألف دينار .

ويلغ خراج مصر فى أيام الريان بن الوليد - وهو فرعون يوسف عليه السلام - سبعة وتسعين ألف ألف دينار، فأحب أن يتمه مائة ألف ألف دينار، فأمر بوجوه العمارات، وإصلاح جسور البلد، والزيادة فى استنباط الأرض، حتى بلغ ذلك وزاد عليه .

وقال ابن دحية : وجبيت مصر فى أيام الفراعنة فبلغت تسعين ألف ألف دينار بالدينار الفرعوني، وهو ثلاثة مثاقيل من مثقالنا المعروف الآن بمصر، الذى هو أربعة وعشرون

قيراطا، كل قيراط ثلاث حبات من قمح، فيكون بحساب ذلك مائتى ألف ألف وسبعين ألف ألف دينار مصرية.

وذكر الشريف الجوانى أنه وجد فى بعض البرابى بالصعيد مكتوبا باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية مبلغ ما كان يستخرج لفرعون يوسف عليه السلام ـ وهو الريان بن الوليد ـ من أموال مصر بحق الخراج مما يوجبه الخراج وسائر وجوه الجبايات لسنة واحدة على العدل والإنصاف والرسوم الجارية، من غير تأويل ولا اضطهاد ولا مشاحة على عظيم فضل كل فى يد المؤدى لرسمه، وبعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان نظرا للعاملين وتقوية لحالهم: من العين أربعة وعشرون ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار.

وذكر ما فيه كما فى خبر الحسن بن على الأسدي.

وقال الحسن بن على الأسدي: أخبرنى أبى قال: وجدت فى كتاب قبط باللغة الصعيدية ـ مما نقل إلى اللغة العربية ـ أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون مصر، بحق الخراج الذى يوجد، وسائر وجوه الجبايات لسنة كاملة على العدل والانصاف والرسوم الجارية، من غير اضطهاد ولا مناقشة على عظيم فضل كان فى يد المؤدى لرسمه، وبعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان رفقا بالعاملين وتقوية لهم: من العين أربعة وعشرين ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار من جهات مصر، وذلك ما يصرف فى عمارة البلاد لحفر الخلج، وإتقان الجسور، وسد الترع، وإصلاح السبل والساسة، ثم فى تقوية من يحتاج التقوية من غير رجوع عليه بها، لإقامة العوامل، والتوسعة فى البدار، وغير ذلك.

وثمن الآلات، وأجرة من يستعان به من الأجراء لحمل الأصناف وسائر نفقات تطريق أراضيهم: من العين ثمانمائة ألف دينار.

ولما يصرف فى أرزاق الأولياء المرسومين بالسلاح وحملته، والغلمان وأشياعهم، مع ألف كاتب موسومين بالدواوين، سوى أتباعهم من الخزان، ومن يجرى مجراهم وعدتهم مائة ألف وأحد عشر ألف رجل – من العين ثمانية آلاف دينار

ولما يصرف فى الأرامل والأيتام، فرضا لهم من بيت المال، وإن كانوا غير محتاجين إليه، حتى لا تخلو آمالهم من بر يصل إليهم: من العين أربعمائة ألف دينار.

ولما يصرف فى كهنة برابيهم وأئمتهم، وسائر بيوت صلواتهم: من العين مائة ألف دينار

ولما يصرف فى الصدقات - وينادى فى الناس: برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة، فليحضر، فلا يرد عند ذلك أحد، والأمناء جلوس، فإذا رؤى رجل لم تجر عادته بذلك أفرد بعد قبض ما يقبضه، حتى إذا فرق المال واجتمع من هذه الطائفة عدة، دخل أمناء فرعون إليه وهنوه بتفرقة المال، ودعوا له بالبقاء والسلامة، وأنهوا حال الطائفة المذكورة، فيأمر بتغيير شعثها بالحمام واللباس، ويمد الأسمطة، ويأكلون ويشربون، ثم يستعلم من كل واحدر سبب فاقته، فإن كان من آفة الزمان، رد عليه مثل ما كان وأكثر، وإن كان عن سوء رأى وضعف تدبير، ضمه إلى من يشرف عليه ويقوم بالأمر الذى يصلح له - من العين مائتا ألف دينار ...

فذلك جملة ما تبين وفصل فى هذه الجهات المذكورة: من العين تسعة آلاف ألف وثمانمائة ألف دينار ويحصل بعد ذلك ما يتسلمه فرعون فى بيوت أمواله عدة لنوائب الدهر وحادثات الزمان: من العين أربعة عشر ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار.

وقيل لبعضهم: متى عقدت مصر تسعين ألف ألف دينار؟

قال: فى الوقت الذى أرسل فرعون بويبة قمح الى أسفل الأرض وإلى الصعيد، فلم يجد لها موضعا تبذر فيه لشغل جميع البلاد بالعمارة.

ذكر ما عمله المسلمون عند فتح مصر في الخراج وما كان من أمر مصر في ذلك مع القبط

قال زهير بن معاوية: حدثنا سهيل، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مُدَّها ودينارها، ومنعت مصر إردبها، وعدتم من حيث بدأتم».

قال أبو عبيد: قد أخبر ﷺ بما لم يكن، وهو في علم الله كائن، فخرج لفظه على لفظ الماضي الأنه ماض في علم الله. وفي إعلامه بهذا قبل وقوعه، مادل على اثبات نبوته، ودل على رضاه من عمر رضي الله عنه ما وظفه على الكفرة من الخراج في الأمصار.

وفي تفسير المنع وجهان:

أحدهما أنه علم أنهم سيسلمون ويسقط عنهم ما وظف عليهم، فصاروا ما نعين بإسلامهم ما وظف عليهم، يدل عليه قوله « وعدتم من حيث بدأتم »وقيل معناه أنهم يرجعون عن الطاعة ... والأول أحسن.

وقال ابن عبد الحكم، عن عبد الله بن لهيعة: لما فتح عمرو بن العاص مصر، صولح على جميع من فيها من الرجال من القبط - ممن راهق الحلم إلى ما فوق ذلك، ليس فيهم امرأة ولا صبي ولا شيخ - على دينارين دينارين، فأحصوا ذلك بلغت عدتهم ثمانية آلاف ألف.

وعن هشام بن أبي رقية اللخمي أن عمرو ابن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر: ان من كتمني كنزا عنده فقدرت عليه قتلته.

وان قبطيا من أرض الصعيد يقال له بطرس ذكر لعمرو أن عنده كنزا، فأرسل اليه فسأله فأنكر وجحد، فجسمه في السجن وعمرو يسأل عنه: هل تسمعونه يسأل عن أحد؟

فقالوا: لا، انما سمعناه يسأل عن راهب في الطور.

فأرسل عمرو الى بطرس فنزع خاتمه، ثم كتب إلى ذلك الراهب أن ابعث إلي بما عندك، وختمه بخاتمه.

فجاء الرسول بقلة شامية مختومة بالرصاص، ففتحها عمرو فوجد فيها صحيفة مكتوب فيها « مالكم تحت الفسسقية الكبيرة ».

فأرسل عمرو إلى الفسقية فحبس عنها الماء، ثم قلع البلاط الذى تحتها فوجد فيها اثنين وخمسين إردبا ذهبا مصريا مضروبة . فضرب عمرو راسه عند باب المسجد، فأخرج القبط كنوزهم شفقا أن يبغى على أحد منهم فيقتل كما قتل بطرس .

وعن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص استحل مال قبطى من قبط مصر، لأنه استقر عنده أنه يظهر الروم على عورات المسلمين، ويكتب اليهم بذلك، فاستخرج منه بضعا وخمسين أردبا دنانير

قال ابن عبد الحكم : وكان عمرو بن العاص رضى اللّٰه عنه يبعث الى عمرو بن الخطاب رضى اللّٰه عنه بالجزيه بعد حبس ما كان يحتاج اليه . وكانت فريضة مصر لحفر خلجها، وإقامة جسورها، وبناء قناطرها، وقطع جزائرها، مائة ألف وعشرين ألفا، معهم الطور والمساحى والإداة، يعتقبون ذلك، لا يدعون ذلك صيفا ولا شتاء .

ثم كتب إليه عمرو بن الخطاب رضى اللّٰه عنه أن تختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص، ويظهروا مناطقهم، ويجزوا نواصيهم، ويركبوا على الأكف عرضا، ولا يضربوا الجزية إلا على من حرت عليه الموسي، ولا يضربوا على النساء ولا على الوالدان، ولا تدعهم يتشبهون بالمسلمين فى ملبوسهم .

وعن يزيد بن أسلم أن عمر بن الخطاب رضى اللّٰه عنه كتب الى أمراء الأجناد ألا يضربوا الجزية الا على من جرت عليه الموسى . وجزيتهم أربعون درهما على أهل الورق، وأربعة دنانير على أهل الذهب، وعليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان من حنطة، وثلاثة أقساط من زيت فى كل شهر لكل إنسان من أهل الشام والجزيرة، وودك، وعسل لا أدرى كم هو . ومن كان من أهل مصر فإردب فى كل شهر لكل إنسان، ولاأدرى كم الودك والعسل، وعليهم من البز الكسوة التى يكسوها أمير المؤمنين الناس، ويضيفون من نزل بهم من أهل الإسلام ثلاثة أيام، وعلى أهل العراق خمسة عشر صاعا لكل إنسان،

ولا أدرى كم لهم من الودك، وكان لا يضرب الجزية على النساء والصبيان، وكان يختم فى أعناق رجال أهل الجزية، وكانت ويبة عمر فى ولاية عمرو بن العاص ستة أمداد.

قال: وكان عمرو بن العاص لما استوثق له الأمر، أقر قبطها على جباية الروم، فكانت جبايتهم بالتعديل: إذا عمرت القرية وكثر أهلها يزيد عليهم، وإن قل أهلها وخربت نقصوا فيجتمع عرافوكل قرية وأمراؤها ورؤساء أهلها، فيتناظرون فى العمارة والخراب، حتى إذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة إلى الكور، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع.

ثم يجتمع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة، فيبتدئون ويخرجون من الارض فدادين لكنائسهم وحماياتهم ومعدياتهم من جملة الأرض، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان.

فإذا فرغوا نظروا لما فى كل قرية من الصناع والأجراء، فقسموا عليهم بقدر احتمالهم، فإن كانت فيهم جالية قسموا عليها بقدر احتمالها، وقلما كانت تكون إلا للرجل الشاب أوالمتزوج.

ثم ينظرون ما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم: فإن عجز أحد منهم وشكا ضعفا عن زرع أرضه، وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال، وإن كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف، فإن تشاحوا قسموا ذلك على عدتهم.

وكانت قسمتهم على قراريط الدنانير أربعة وعشرين قيراطا، يقسمون الأرض على ذلك، ولذلك روى عن النبى ﷺ: «إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا» وجعل لكل فدان عليهم نصف أردب قمح وويبتين من شعير، إلا القرظ فلم يكن عليه ضريبة ...

والويبة ستة أمداد.

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأخذ ممن صالحه من المعاهدين ما سمى على نفسه،

لا يضع من ذلك شيئا ولا يزيد عليه . ومن نزل منهم على الجزية ولم يسم شيئا يؤديه، نظر عمر فى أمره، فإذا احتاجوا خفف عنهم، وإن استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم .

وقال هشام بن أبى رقية اللخمي : قدم صاحب إخنا على عمرو بن العاص رضى الله عنه ، فقال له : أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فنصير لها .

فقال عمرو وهويشير إلى ركن كنيسة : لو أعطيتنى من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك ، إنما أنتم خزانة لنا : إن كثر علينا كثرنا عليكم ، وإن خفف عنا خففنا عنكم .

ومن ذهب الى هذا الحديث ، ذهب الى أن مصر فتحت عنوة .

وعن يزيد بن أبى حبيب قال : قال عمر بن عبد العزيز : أيما ذمى أسلم فإن إسلامه يحرز له نفسه وماله ، وما كان من أرض فإنها من فيء الله على المسلمين . وأيما قوم صالحوا على جزية يعطونها ، فمن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبقيتهم.

وقال الليث : كتب الى يحيي بن سعيد(٢٦٥) وإن ما باع القبط فى جزيتهم ، وما يؤخذون به من الحق الذى عليهم - من عبد ، أو وليدة ، أو بعير ، أو بقرة ، أو دابة - فإن ذلك جائز عليهم . فمن ابتاعه منهم ، فهو غير مردود عليهم إن أيسروا ، وما أكروا من أرضهم فجائز كراؤه ، إلا أن يكون يضر بالجزية التى عليهم ، فلعل الأرض إن ترد عليهم إن أضرت بجزيتهم ، وان كان فضلا بعد الجزية فإنا نرى كراءها جائزا لمن يكراها منهم .

قال يحيي : فنحن نقول : الجزية جزيتان : جزية على رؤس الرجال ، وجزية جملة تكون على أهل القرية يؤخذ بها أهل القرية. فمن هلك من أهل القرية التى عليهم جزية مسماة على القرية ليست على رؤوس الرجال ، فإنا نرى أن من هلك من أهل القرية ممن لا ولد له ولا وراث أن أرضه ترجع إلى قريته فى جملة ما عليهم من الجزية ، ومن هلك ممن جزيته على رؤوس الرجال ، ولم يدع وارثا ، فإن أرضه للمسلمين .

---

(٢٦٥) هو يحيي بن سعيد بن قيس الأنصارى النجارى أبوسعيد : قاض من أكابر أهل الحديث من أهل المدينة ، مات سنة ١٤٣ هـ.
انظر : تهذيب التهذيب ١١/ ٢٢١ ، تاريخ بغداد ١٤/ ١٠١ ، النجوم الزاهرة ١/ ٣٥١ ، تاريخ القضاء فى الإسلام ١٧ .

وقال الليث عن عمر بن عبد العزيز : الجزية على الرووس وليست على الأرضين ... يريد أهل الذمة .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح(٢٦٦) أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم . وهذا يدل على أن عمر كان يرى أن أرض مصر فتحت عنوة ، وأن الجزية إنما هى على القري ، فمن مات من أهل القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم ، وأن موت من مات منهم لا يضع عنهم من الجزية شيئا .

قال : ويحتمل أن تكون مصر فتحت بصلح ، فذلك الصلح ثابت على من بقى منهم ، وأن موت من مات منهم لا يضع عنهم مما صالحوا عليه شيئا .

قال الليث : وضع عمر بن عبد العزيز الجزية على من أسلم من أهل الذمة من أهل مصر ، وألحق فى الديوان صلح من أسلم منهم فى عشائر من أسلموا على يديه ، وكانت تؤخذ قبل ذلك ممن أسلم ، وأول من أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة الحجاج بن يوسف .

ثم كتب عبد الملك بن مروان إلى عبد العزيز بن مروان أن يضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة ، فكلمه ابن حجيرة فى ذلك قال : أعيذك بالله أيها الأمير أن تكون أول من سن ذلك بمصر ، فوالله إن أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم ، فكيف نضعها على من أسلم منهم ؟

فتركهم عند ذلك .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح : أن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة ، فان الله تبارك وتعالى قال : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فخلوا سبيلهم ، إن

(٢٦٦) الثابت هو حيوة بن شريح بن صفوان بن مالك التجيبى الكندى المصري ، أبو زرعة الإمام الحافظ ، شيخ الديار المصرية ، كان شريفاً عابداً ، ثقة فى الحديث . مات سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٥م.
انظر : تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٤ ، تهذيب التهذيب ٣/ ٦٩ ، التاج ١٠/ ١٠٤ .

الله غفور رحيم ﴾(٢٦٧)، وقال: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق، من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾(٢٦٨) .

وكتب حيان بن شريح إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل .

فكتب اليه عمر: أما بعد، فقد بلغني كتابك، وقد وليتك جند مصر، وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطا، فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك، فإن الله إنما بعث محمدا ﷺ هاديا ولم يبعثه جابيا، ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه .

قال: ولما استبطأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخراج من قبل عمرو بن العاص، كتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين، الى عمرو بن العاص، سلام الله عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد فإنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه، فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة، وقد أعطى الله أهلها عددا وجلدا وقوة فى بر وبحر، وإنها قد عالجتها الفراعنة، وعملوا فيها عملا محكما، مع شدة عتوهم وكفرهم، فعجبت من ذلك، وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك، على غير قحوط ولا جدب. ولقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى سيأتينا على غير نزر، ورجوت أن تفيق فترفع الى ذلك، فإذا أنت تأتينى بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذى فى نفسي. لست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك، ولست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى وقبضك، فلئن كنت مجربا كافيا صحيحا، إن البراءة لنافعة، وإن كنت مضيعا نطعا، إن الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك. وقد تركت

---

(٢٦٧) ٥ م التوبة ٩ .
(٢٦٨) ٢٩ م التوبة .

إن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك . وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك الا أن عمالك عمال السوء ، وما توالس عليك وتلفف اتخذوك كهفا ، وعندى بإذن اللّه دواء فيه شفاء عما أسألك فيه . فلا تجزع أبا عبد اللّه أن يؤخذ منك الحق وتعطاه ، فإن النهر يخرج الدر ، والحق أبلج ، ودعنى وما عنه تلجلج ، فإنه قد برح الخفاء . والسلام .

فكتب إليه عمرو بن العاص : بسم اللّه الرحمن الرحيم ، لعبد اللّه عمر أمير المؤمنين ، من عمرو بن العاص ، سلام الله عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد ، فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج ، والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلي ، وإعجابه من خراجها على أيديهم ، ونقص ذلك منها مذ كان الإسلام . ولعمرى للخراج يومئذ أوفر وأكثر ، والأرض أعمر ، لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الإسلام . وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حلبا قطع درها . وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرضت وثربت ، وعلمت أن ذلك عن شى تخفيه على غير خبر ، فجئت لعمرى بالمقطعات المقذعات ، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم ، بليغ صادق ، ولقد عملنا لرسول اللّه ﷺ ولمن بعده ، فكنا - نحمد الله - مؤدين لأماناتنا ، حافظين لما عظم اللّه من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحا ، والعمل به شينا ، فتعرف ذلك لنا ، وتصدق فيه قلبنا . معاذ الله من تلك الطعم ، ومن شر الشيم ، ولاجتراء على كل مأثم فأمض عملك ، فإن اللّه قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا ، ولم تكرم فيه أخا ، والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد غضبا لنفسي ، ولها إنزاها وإكراما ، وما عملت من عمل أرى على فيه متعلقا ، ولكنى حفظت ما لم تحفظ ، ولو كنت من يهود يثرب ما زدت - يغفر اللّه لك ولنا - وسكت عن أشياء كنت بها عالما ، وكان اللسان بها منى ذلولا ، ولكن اللّه عظم من حقك ما لا يجهل.

فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه : من عمر بن الخطاب ، إلى عمرو بن العاص ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك اللّه الذى لا إله إلا هو . أما بعد ، فإنى قد عجبت من كثرة كتبى اليك فى إبطائك بالخراج ، وكتابك إلى بثنيات الطرق ، وقد علمت أنى لست أرضى

منك إلا بالحق البين، ولم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك. فإذا أتاك كتابى هذا، فاحمل الخراج فإنما هو فيء المسلمين، وعندى من قد تعلم قوم محصورون. والسلام.

فكتب إليه عمرو بن العاص: بسم اللّه الرحمن الرحيم، لعمرو بن الخطاب، من عمرو ابن العاص، سلام عليك، فإنى أحمد إليك اللّه الذى لا إله إلا هو. أما بعد، فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج، ويزعم أنى أحيد عن الحق، وأنكث عن الطريق، وإنى والله ما أرغب عن صالح ما الطريق، وإنى واللّه ما أرغب عن صالح ما تعلم، ولكن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم، فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيرا من أن نخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم عنه. والسلام

وقال الليث بن سعد رضى اللّه عنه: جباها عمرو بن العاص رضى اللّه عنه اثنى عشر ألف ألف دينار، وجباها المقوقس قلبه لسنة عشرين ألف ألف دينار، فعند ذلك كتب اليه عمر بن الخطاب بما كتب

وجباها عبد اللّه بن سعد بن سرح، حين استعمله عثمان رضى اللّه عنه على مصر، أربعة عشر ألف ألف دينار، فقال عثمان لعمرو بن العاص بعد ما عزله عن مصر: يا أبا عبد الله، درت اللقحة بأكثر من درها الأول.

قال: أضررتم بولدهم.

فقال: ذلك إن لم يتم الفصيل.

وكتب معاوية بن أبى سفيان إلى وردان - وكان قد ولى خراج مصر - أن زد على كل رجل من القبط قيراطا.

فكتب إليه وردان: كيف نزيد عليهم وفى عهدهم ألا يزاد عليهم شئ؟

فعزله معاوية، وقيل فى عزل وردان غير ذلك.

وقال ابن لهيعة : كان الديوان فى زمان معاوية أربعين ألفا ، وكان منهم أربعة آلاف فى مائتين مائتين ، فأعطى مسلمة بن مخلد أهل الديوان عطياتهم وعطيات عيالهم وأرزاقهم ونوائب البلاد من الجسور وأرزاق الكتبة وحملان القمح إلى الحجاز ، ثم بعث إلى معاوية بستمائة ألف دينار فضل.

وقال ابن عفير : فلما نهضت الإبل لقيهم برح بن كسحل المهري ، فقال : ما هذا؟ ما بال ما لنا يخرج من بلادنا؟ ردوه.

فردوه حتى وقف على باب المسجد فقال : أخذتم عطياكم وأرزاقكم وعطاء عيالكم ونوائبكم؟

قالوا : نعم.

قال : لا بارك الله لهم فيه ... خذوه ، فساروا به.

وقال بعضهم : جبى عمرو بن العاص عشرة آلاف ألف دينار ، فكتب إليه عمر بن الخطاب بعجزه ويقول له : جباية الروم عشرون ألف ألف دينار.

فلما كان العام المقبل جباه عمرو اثنى عشر ألف ألف دينار.

وقال ابن لهيعة : جبى عمرو بن العاص الإسكندرية الجزية ستمائة ألف دينار ، لأنه وجد فيها ثلثمائة ألف من أهل الذمة فرض عليهم دينارين دينارين.

والله تعالى أعلم.

ذكر انتقاض القبط
وما كان من الأحداث في ذلك

خرج الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : « كيف أنت إذا لم تجبوا دينارا ولا درهما »؟

«قالوا : وكيف ترى ذلك كائنا يا أبا هريرة» .

« قالوا : أى والذى نفس أبى هريرة بيده عن قول الصادق المصدق ».

« قالوا : عم ذلك »؟

«قال : تنتهك ذمته وذمة رسوله فيشد الله عز وجل قلوب أهل الذمة فيمنعون ما فى أيديهم».

قال أبو عمر محمد بن يوسف الكندى فى كتاب «أمراء مصر» : وفى إمرة الحر بن يوسف[٢٦٩] أمير مصر كتب عبيد الله بن الحبحاب، صاحب خراجها، إلى هشام بن عبدالملك بأن أرض مصر تحتمل الزيادة، فزاد على كل دينار قيراطا، فانتقضت كورة بنو وثمى وقربيط وطرابية وعامة الحوف الشرقي، فبعث إليهم الحر بأهل الديوان، فحاربوهم فقتل منهم بشر كثير، وذلك أول انتقاض القبط بمصر.

وكان انتقاضهم فى سنة سبع ومائة، ورابط الحر بن يوسف بدمياط ثلاثة أشهر، ثم انتقض أهل الصعيد.

وحارب القبط عمالهم فى سنة إحدى وعشرين ومائة، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان أمير مصر، أهل الديوان فقتلوا من القبط ناسا كثيرا وظفر بهم.

وخرج بخنس (رجل من القبط) فى سمنود، فبعث إليه عبد الملك بن مروان موسى بن نصير[٢٧٠] أمير مصر، فقتل بخنس فى كثير من أصحابه، وذلك فى سنة اثنين وثلاثين ومائة.

وخالفت القبط برشيد، فبعث إليهم مروان بن محمد الجعدي[٢٧١] ـ لما دخل مصر فارا

---

(٢٦٩) هو الحربن يوسف بن يحيي بن الحكم الأموى : أمير مصر ثم الموصل ولاه هشام بن عبدالملك سنة١٠٥هـ، مات سنة ١١٣هـ/ ٧٣١م.
أنظر : الولاة والقضاة ٧٣، الكامل ٥/ ٤٩، النجوم الزاهرة ١/ ٢٥٨ .

(٢٧٠) هو موسى بن نصير بن عبدالرحمن بن زيد اللخمى بالولاء. أبو عبدالرحمن. فاتح الأندلس، ولد سنة ١٩هـ/ ٦٤٠هـ ومات سنة ٩٧/ ٧١٥م.
أنظر : نفح الطيب ١/ ١٠٨، و ١٣٤، الحلة السيراء ١/ ٣٠، وفيات الأعيان ٢/ ١٣٤، جذوة المقتبس ١١٧، البيان المغرب ١/ ٤٦ .

(٢٧١) هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموى أبو عبدالملك القائم بحق الله ويعرف بالجعدى وبالحمار، آخر ملوك بنى آميه فى الشام، ولد سنة ٧٢هـ/ ٦٩٢م ومات ١٣٢هـ/ ٧٥٠م.
أنظر : الكامل ٥/ ١١٩، و ١٥٨، تاريخ اليعقونى ٣/ ٧٦، العبر ٣/ ١١٢، ١٣٠ وتاريخ الطبرى ٩/ ٥٤، تاريخ الحميس ٢/ ٣٢٢، مروح المسعودى ٢/ ١٥٥، النجوم الزاهرة ١/ ١٩٦ و ٢٥٤، ٢٧٣ .

من بنى العباس - بعثمان بن أبى قسعة، فهزمهم.

وخرج القبط على يزيد بن حاتم بن قبيصه بن المهلب بن أبى صفرة(٢٧٢) أمير مصر، بناحية سخا، ونابذوا العمال وأخرجوهم، وذلك فى سنة خمسين ومائة، وصاروا إلى شبرا سنباط، وانضم اليهم أهل البشرود والاريسية والنجوم، فأتى الخبر يزيد بن حاتم، فعقد لنصر بن حبيب المهلبى على أهل الديوان ووجوه مصر، فخرجوا إليهم، فبيتهم القبط وقتلوا من المسلمين، فألقى المسلمون النار فى عسكر القبط، وانصرف المسلمون إلى مصر منهزمين.

وفى ولاية موسى بن على بن رباح على مصر، خرج القبط ببلهيب فى سنة ست وخمسين ومائة، فخرج اليهم عسكر فهزمهم.

ثم انتقضوا مع من انتقض فى سنة ست عشرة ومائتين، فأوقع بهم الأفشين فى ناحية البشرود، حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين عبد الله المأمون، فحكم عليهم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال، فبيعوا وسبى أكثرهم.

ومن حينئذ أذل الله القبط فى جميع أرض مصر، وخذل شوكتهم، فلم يقدر أحد منهم على الخروج ولا القيام على السلطان، وغلب المسلمون على القري، فعاد القبط من بعد ذلك إلى كيد الإسلام وأهله باعمال الحيلة واستعمال المكر، وتمكنوا من النكاية بوضع أيديهم فى كتاب الخراج.

وكان للمسلمين فيهم وقائع يأتى خبرها فى موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

---

(٢٧٢) هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة الأزدى أبو خالد، أمير من القادة الشجعان فى العصر العباسي، ولى الديار المصرية سنة ١٤٤هـ للمنصور، فمكث سبع سنين وأربعة أشهر، مات ١٧٠هـ/ ٧٨٧م.
أنظر: وفيات الأعيان ٢/ ٢٨١، النجوم الزاهرة ٢/ ١، الاستقصا ١/ ٥٨، العبر لابن خلدون ٤/ ١٩٣، البيان المغرب ١/ ٧٨ و ٨١، الولاة والقضاة ١١١.

ذكر نزول العرب بريف مصر
واتخاذهم الزرع معاشا وما كان في نزولهم من الأحداث

قال الكندي: فى ولاية الوليد بن رفاعة الفهمي(٢٧٣) على مصر، نقلت قيس إلى مصر فى سنة تسع ومائة، ولم يكن بها أحد منهم قبل ذلك إلا ما كان من فهم وعدوان، فوفد ابن الحبحاب على هشام بن عبد الملك فسأله أن ينقل إلى مصر منهم أبياتا، فأذن له هشام فى لحاق ثلاثة آلاف منهم، وتحول ديوانهم إلى مصر على ألا ينزلهم بالفسطاط، فعرض لهم ابن الحبحاب وقدم بهم، فأنزلهم الحوف الشرقى وفرقهم فيه.

ويقال إن عبيد الله بن الحبحاب، لما ولاه هشام بن عبد الملك مصر، قال: ما أدرى لقيس فيها حظا إلا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان.

فكتب الى هشام: إن أمير المؤمنين، أطال اللّه بقاءه، قد شرف هذا الحى من قيس ونعشهم ورفع من ذكراهم، وإنى قدمت مصر ولم أر لهم حظا إلا أبياتا من فهم، وفيها كور ليس فيها أحد، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجا، وهى بلبيس، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل.

فكتب إليه هشام: أنت وذاك.

فبعث إلى البادية، فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نضر، ومائة أهل بيت من بنى سليم، فأنزلهم بلبيس، وأمرهم بالزرع. ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها اليهم فاشتروا إبلا، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم، وكان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير وأكثر. ثم أمرهم باشتراء الخيول، فجعل الرجل يشترى المهر فلا يمكث إلا شهرا حتى يركب، وليس عليهم مئونة فى علف ابلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم.

---

(٢٧٣) هو الوليد بن رفاعة بن خالد الفهمى أمير كان يلى الشرطة بمصر وتنحى عنها سنة ٩٧م ثم قلده هشام بن عبدالملك الإمارة سنة ١٠٩هـ وأقبلت قبائل قيس على سكنى مصر، وأذن فى ابتناء كنيسة بالحمراء، مات سنة ١١٧هـ/ ٧٣٥م.
أنظر: الولاة والقضاة ٦٦ و ٧٥-٧٩.

فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحملوا إليهم، فوصل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية، فكانوا على مثل ذلك، فأقاموا سنة، فأتاهم نحو من خمسمائة أهل بيت، فصار ببلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس.

حتى إذا كان زمن مروان بن محمد، وولى الحوثرة بن سهيل(٢٧٤) الباهلى مصر، مالت إليه قيس، فمات مروان وبها ثلاثة آلاف أهل بيت، ثم توالدوا وقـدم عليهم من البـادية من قـدم.

وفى سنة ثمان وسبعين ومائة كشف إسحاق ابن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس أمير مصر أمر الخراج، وزاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم، فخرج عليه أهل الحوف وعسكروا، فبعث إليهم الجيوش وحاربهم، فقتل من الجيش جماعة، فكتب إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد يخبره بذلك، فعقد لهرثمة بن أعين(٢٧٥) فى جيش عظيم وبعث به إلى مصر، فنزل الحوف، وتلقاه أهله بالطاعة وأذعنوا بأداء الخراج، فقبل هرثمة منهم واستخرج خراجه كله.

ثم إن أهل الحوف خرجوا على الليث بن الفضل الأبيوردي(٢٧٦) أمير مصر، وذلك أنه بعث بمساح يسمحون عليهم أراضى زرعهم، فانتقصوا من القصبة أصابع، فتظلم الناس إلى الليث فلم يسمع منهم، فعسكروا وساروا إلى الفسطاط.

فخرج إليهم الليث فى أربعة آلاف من جند مصر، فى شعبان سنة ست وثمانين ومائة، فالتقى معهم فى رمضان، فانهزم عنه الجند فى ثانى عشره، وبقى فى نحو المائتين، فحمل

---

(٢٧٤) هو حوثرة بن سهيل الباهلى قائد فيه جفوة الأعراب، ممن ولى مصر فى عهد بنى مروان، أصله من قنسرين، وكان بدويا مات سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م.
أنظر : الكامل ٥/ ١٦٦، الولاة والقضاة ٨٨ .

(٢٧٥) هو هرثمة بن أعين أمير من القادة الشجعان. له عناية بالعمران. بنى فى أرمينية وافريقية وغيرهما ولاه الرشيد مصر سنة ١٧٨، ومات سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٦م.
أنظر : الولاة والقضاة ١٣٦، طبقات علماء إفريقية ٥، المؤنس ٤٣ .

(٢٧٦) هو الليث بن الفضل الأبيوردى من ولاة العصر العباسي. أصله من أبيورد «بخراسان» ولى إمرة مصر، للرشيد سنة ١٨٣هـ، واستمر أربع سنوات و ٧ أشهر، مات بعد سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٣م.
أنظر : النجوم الزاهرة ٢/ ١١٣، الولاة والقضاة ١٣٩ .

بمن معه على أهل الحوف فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة، وكان التقاؤهم على أرض جب عميرة، وبعث الليث إلى الفسطاط بثمانين رأسا من رؤس القيسية ورجع إلى الفسطاط.

وعاد أهل الحوف إلى منازلهم ومنعوا الخراج، فخرج ليث إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد فى محرم سنة سبع وثمانين ومائة، وسأله أن يبعث معه بالجيوش فإنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف إلا بجيش يبعث معه. وكان محفوظ بن سليم(٢٧٧) بباب الرشيد، فرفع محفوظ إلى الرشيد يضمن له خراج مصر عن آخرها بلا سوط ولا عصا، فولاه الخراج، وصرف ليث بن الفضل عن صلات مصر وخراجها.

وفى ولاية الحسين بن جميل(٢٧٨) امتنع أهل الحوف من أداء الخراج، فبعث أمير المؤمنين هارون الرشيد يحيي بن معاذ(٢٧٩) فى أمرهم، فنزل بلبيس فى شوال سنة ثلاث وتسعين ومائة، وولى مالك بن دلهم(٢٨٠).

وفرغ يحيي بن معاذ من أمر الحوف، وقدم الفسطاط فى جمادى الآخرة، فورد عليه كتاب الرشيد يأمره بالخراج إليه، فكتب إلى أهل الحوف أن أقدموا حتى أوصى بكم مالك بن دلهم، وأدخل بينكم وبينه فى أمر خراجكم، فدخل كل رئيس منهم من اليمانية والقيسية ـ وقد أعد لهم القيود ـ فأمر بالأبواب فأخذت، ثم دعا بالحديد فقيدهم، وتوجه بهم للنصف من رجب منها.

---

(٢٧٧) الثابت هو محفوظ بن سليمان أمير من ولاة الخراج بمصر فى العصر العباسي، كان من رجال هارون الرشيد، ولما عجز الليث بن الفضل بمصر عن إخضاع أهل الحوف سنة ١٨٦هـ ورحل إلى الخليفة يسأله أن يبعث معه بالجيوش لجبايه الخراج، مات سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م.
أنظر : بدائع الزهور ١/ ٣٦، النجوم الزاهرة ٢/ ١١٤، الولاة والقضاة ١٤٠ .

(٢٧٨) هو الحسين بن جميل مولى أبى جعفر المنصور. ممن ولى مصر، أرسله الرشيد والياً عليها سنة ١٩٠هـ فأقام سنة و ٧ أشهر وأياماً وصرف سنة ١٩٢هـ وكانت له عناية بالإصلاح.
أنظر : النجوم الزاهرة ٢/ ١٣٤، الولاة والقضاة ١٤٢ .

(٢٧٩) هو يحيي بن معاذ بن جعفر الرازى أبو زكريا واعظ زاهد، أقام ببلخ ومات فى نيسابور سنة ٢٥٨هـ/ ٨٧٢م.
أنظر : صفة الصفوة ٤/ ٧١ ـ ٨٠، طبقات الصوفية ١٠٧ ـ ١١٤، الرسالة القشيرية ١/ ١١٩ .

(٢٨٠) هو مالك بن دلهم بن عيسى الكلبى ممن ولى مصر. ولاه الرشيد سنة ١٩٢هـ واستمر عاماً وخمسة أشهر وأياماً.
أنظر : الولاة والقضاة ١٤٤، النجوم الزاهرة ٢/ ١٣٧ ـ ١٤١ .

وفى إمارة عيسى بن يزيد الجلودي[٢٨١] على مصر، ظلم صالح بن شيرزاد عامل الخراج الناس وزاد عليهم فى خراجهم، فانتقض أهل أسفل الأرض، وعسكروا فبعث عيسى بابنه محمد فى جيش لقتالهم، فنزل بلبيس وحاربهم، فنجا من المعركة بنفسه ولم ينج أحد من أصحابه، وذلك فى صفر سنة أربع عشرة ومائتين.

فعزل عيسى عن مصر وولى عمير بن الوليد التميمي[٢٨٢]، فاستعد لحرب أهل الحوف، وسار فى جيوشه فى ربيع الآخر، فزحفوا عليه واقتتلوا، فقتل من أهل الحوف جمع وانهزموا، فتبعهم عمير فى طائفة من أصحابه، فعطف عليه كمين لأهل الحوف فقتلوه لست عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر.

فولى عيسى الجلودى ثانيا، وسار إليهم فلقيهم بمنية مطر، فكانت بينهم وقعة آلت إلى أن انهزم منهم إلى الفسطاط، وأحرق ما ثقل عليه من رحله، وخندق على الفسطاط، وذلك فى رجب.

وقدم أبو اسحاق بن الرشيد من العراق، فنزل الحوف وأرسل إلى أهله، فامتنعوا من طاعته، فقاتلهم فى شعبان ودخل ـ وقد ظفر بعدة من وجوههم ـ إلى الفسطاط فى شوال، ثم عاد إلى العراق فى المحرم سنة خمس عشرة ومائتين بجمع من الأساري.

فلما كان جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين، انتقض أسفل الأرض بأسره ـ عرب البلاد وقبطها ـ وأخرجوا العمال، وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيهم.

فكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب امتدت إلى أن قدم الخليفة عبد اللّه أمير المؤمنين المأمون إلى مصر، لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين، فسخط على

---

(٢٨١) هو عيسى بن يزيد الجلودى من ولاة الدولة العباسية، ناب فى إمرة مصر عن عبدالله بن طاهر أيام ولايته لها سنة ٢١٢هـ، مات سنة ٢١٥هـ/ ٨٢٩.
أنظر : الولاة والقضاة ١٤٤ و ١٨٧، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٠٤ـ٢٠٨.

(٢٨٢) هو عمير بن الوليد الباذ عيسى الخراسانى التميمى وال من الأجواد الرؤساء، ولى مصر سنة ٢٤١هـ وعاجلته ثورة قام بها أهل الحوف القيسية واليمنية، مات سنة ٢٤١هـ/ ٨٢٩م.
أنظر : الولاة والقضاة ١٨٥، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٠٧.

عيسى بن منصور الرافقي (٢٨٣) ـ وكان على إمارة مصر ـ وأمر بحل لوائه، وأخذه بلباس البياض عقوبة له، وقال: «لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك، حملتم الناس ما لا يطيقون، وكتمتنى الخبر حتى تفاقم الأمر، واضطرب البلد».

ثم عقد المأمون على جيش بعث به إلى الصعيد، وارتحل هو إلى سخا، وبعث بالافشين إلى القبط ـ وقد خلعوا الطاعة ـ فأوقع بهم فى ناحية البشرود، فحكم فيهم المأمون بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال، فسبى أكثرهم.

وتتبع المأمون كل من يومى إليه بخلاف، فقتل ناسا كثيرا، ورجع إلى الفسطاط فى صفر، ومضى إلى حلوان، وعاد فارتحل لثمان عشرة خلت من صفر. وكان مقامه بالفسطاط وسخا وحلوان تسعة وأربعين يوما.

وكان خراج مصر قد بلغ فى أيام المأمون ـ على حكم الإنصاف فى الجباية ـ أربعة آلاف ألف دينار ومائتى ألف دينار وسبعة وخمسين ألف دينار.

ويقال إن المأمون لما سار فى قرى مصر، كان يبنى له بكل قرية دكة يضرب عليها سرادقة والعساكر من حوله. وكان يقيم فى القرية يوما وليلة، فمر بقرية يقال لها «طاء النمل» فلم يدخلها لحقارتها. فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز ـ تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية ـ وهى تصيح، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة، فوقف لها، وكان لا يمشى أبدا إلا والتراجمة بين يديه من كل جنس، فذكروا له أن القبطية قالت: يا أمير المؤمنين، نزلت فى كل ضيعة وتجاوزت ضيعتي، والقبط تعيرنى بذلك، وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفنى بحلوله فى ضيعتى ليكون لى الشرف والعقبي، ولا تشمت بى الأعداء ... وبكت بكاء كثيرا.

فرق لها المأمون، وثنى عنان فرسه إليها ونزل. فجاء ولدها إلى صاحب المطبخ وسأله: كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادته؟

---

(٢٨٣) هو عيسى بن منصور الرافقى من ولاة مصر، كان والى الحوف (بمصر) وظهرت فيه كفاية، فولى الديار المصرية مستهل سنة ٢١٦هـ، مات سنة ٢٣٣هـ/ ٨٤٧م.
أنظر: الولاة والقضاة ١٩٢، النجوم الزاهرة ٢/ ٢١٥ و ٢٥٥.

فأحضر جميع ذلك إليه بزيادة.

وكان مع المأمون أخوه المعتصم، وابنه العباس، وأولاد أخيه الواثق والمتوكل، ويحيي بن أكثم والقاضى أحمد بن داود، فأحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على انفراده، ولم تكل أحدا منهم ولا من القواد إلى غيره، ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئا كثيرا حتى أنه استعظم ذلك.

فلما أصبح - وقد عزم على الرحيل - حضرت إليه، ومعها عشرة وصائف مع كل وصيفة طبق، فلما عاينها المأمون من بُعد قال لمن حضر: قد جاءتكم القبطية بهدية الريف: الكامخ، والصحناة، والصبر.

فلما وضعت ذلك بين يديه إذا فى كل طبق كيس من ذهب. فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته، فقالت: لا، والله لا أفعل.

فتأمل الذهب فاذا به ضرب عام واحد كله، فقال: هذا والله أعجب، ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك!

فقالت: يا أمير المؤمنين، لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا.

فقال: إن فى بعض ما صنعت لكفاية، ولا نحب التثقيل عليك، فردى مالك بارك الله فيك.

فأخذت قطعة من الأرض وقالت: يا أمير المؤمنين، هذا (وأشارت إلى الذهب) من هذا (وأشارت إلى الطينة التى تناولتها من الأرض) ثم من عدلك يا أمير المؤمنين، وعندى من هذا شئ كثير.

فأمر به فأخذ منها، وأقطعها عدة ضياع، وأعطاها من قريتها «طاء النمل» مائتى فدان بغير خراج، وانصرف متعجبا من كبر مروءتها وسعة حالها.

ذكر قبالات أراضي مصر بعد ما فشا الإسلام
في القبط ونزول العرب في القرى
وما كان من ذلك إلى الروك الأخير الناصري

وكان من خبر أراضى مصر - بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها، واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا، وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الاسلام، واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات - أن متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفسطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الأراضي، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن، فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات، وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما ينتهى إليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك.

فإذا انقضى هذا الأمر، خرج كل من كان تقبل أرضا وضمنها إلى ناحيته، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك، ويحمل ما عليه من الخراج فى إبانه على أقساط، ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضى ما ينفقه عل عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها، بضرائب مقدرة فى ديوان الخراج.

ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان والمتقبلين، ويقال لما تأخر من مال الخراج البواقي. وكانت الولاة تشدد فى طلب ذلك مرة وتسامح به مرة. فإذا مضى من الزمان ثلاثون سنة حولوا السنة، وراكوا البلاد كلها وعدلوها تعديلا جديدا، فزيد فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد، ونقص فيما يحتاج إلى التنقيص منها.

ولم يزل ذلك يعمل فى جامع عمرو بن العاص، إلى أن عمر أحمد بن طولون جامعه، وصار العسكر منزلا لأمراء مصر، فنقل الديوان إلى جامع أحمد بن طولون، ثم نقل أيام العزيز بالله نزار إلى دار الوزير يعقوب بن كلس، فلما مات الوزير نقل الديوان إلى القصر بالقاهرة، واستمر به مدة الدولة الفاطمية، ثم نقل منه بعدها، وسأتلو عليك من نبأ ذلك ما يتضح به ما ذكرت.

قال ابن زولاق فى كتاب أخبار الماردانيين كتاب مصر: وحضر أبو الحسن وهب بن إسماعيل مجلس أبى بكر بن على الماردانى فى المسجد الجامع، وهو يعقد الضياع، فقال له أبو بكر: الساعة آمر بالنداء على صفقة، فخذها شركة بينى وبينك.

فنودى على صفقة، فقال أبو بكر: اعقدوها على أبى الحسن، فعقدت عليه وتحملها، فأفضلت له أربعين ألف دينار، فاستنض عشرين ألف دينار ولم يدر ما يعمل فيها ... إلى أن اجتمع مع أبى يعقوب ـ كاتب أبى بكر ـ ليتحدثا، فقال أبو يعقوب: رأيت الشيخ (يعنى أبا بكر الماردانى) فى اليوم مشغول القلب، أراد جمع مال وقد عجز عنه، فقال له أبو الحسن: عندى نحو عشرين ألف دينار فقال: جئتنى بها، فأنفذها إليه وجاءه خطه بالمبلغ.

فاتفق أن مضى أبو الحسن إلى أبى بكر الماردانى، فقال له: تلك الصفقة قد غلقت ما عليها وفضل أربعون ألف دينار، وقد حصل عندى عشرون ألف دينار حملتها إلى أبى يعقوب، وأرسلت فى استخراج الباقى فاحمله.

فقال الماردانى: ما هذا العجز؟ إنما قلت لك تكون بينى وبينك خوفا من تفريطك، وإنما أردت حفظ المال عليك.

ثم أمر أبا يعقوب أن يرد عليه ما دفعه إليه، وقال لأبى الحسن: رد عليه خطه، فقبض ما دفعه إلى أبى يعقوب.

ويلغ خراج مصر، فى السنة التى دخل فيها جوهر القائد: ثلاثة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ونيفا.

وقال فى كتاب «سيرة المعز لدين اللّه معد»: ولست عشرة بقيت من المحرم، سنة ثلاث وستين وثلثمائة، قلد المعز لدين الله الخراج ووجوه الأموال وغير ذلك، يعقوب ابن كلس وعسلوج بن الحسن، وجلسا فى هذا اليوم فى دار الإمارة فى جامع ابن طولون للنداء على الضياع وسائر وجوه الأموال، وحضر الناس للقبالات، وطلبوا البقايا من الأموال مما على المالكين والمتقبلين والعمال.

وقال جامع سيرة الوزير الناصر للدين الحسن بن على البازورى: وأراد أن يعرف قدر ارتفاع الدولة، وما عليها من النفقات، ليقايس بينهما، فتقدم إلى أصحاب الدواوين بأن

يعمل كل منهم ارتفاع ما يجرى فى ديوانه، وما عليه من النفقات، فعمل ذلك وسلمه إلى متولى ديوان المجلس - وهو زمام الدواوين - فنظم عليه عملا جامعا وأحضر إياه.

فرأى ارتفاع الولة ألفى ألف دينار: منها الشام ألف ألف دينار، ونفقاته بإزاء ارتفاعه. ومنها الريف وباقى الدولة ألف ألف دينار، يقف منها عن معلول ومنكسر على موتى وهراب ومفقود مائتا ألف دينار، ويبقى ثمانمائة ألف دينار يصرف منها للرجال عن واجباتهم وكساويهم ثلاثمائة ألف دينار، وعن ثمن غلة للقصور مائة ألف دينار، وعن نفقات القصور مائتا ألف دينار، وعن عمائر وما يقام للضيوف الواصلين من الملوك وغيرهم مائة ألف دينار، ويبقى بعد ذلك مائة ألف دينار حاصلة يحملها كل سنة إلى بيت المال المصون، فحظى بذلك عند سلطانه وخف على قلبه.

قال: وانتهى ارتفاع الأرض السفلى إلى ما لا نسبة له من ارتفاعها الأول (يعنى بعد موت البازورى وحدوث الفتن)، وهو قبل سنى الفتن (يعنى فى أيام البازوري) ستمائة ألف دينار كانت تحمل فى دفعتين فى السنة: فى مستهل رجب ثلثمائة ألف دينار، وفى مستهل المحرم ثلثمائة ألف دينار، فاتضع الارتفاع وعظمت الواجبات.

وقال ابن ميسرة: وأمر الأفضل بن أمير الجيوش بعمل تقدير ارتفاع ديار مصر فجاء خمسة آلاف دينار، وكان متحصل الأهراء ألف ألف أردب.

وقال الأمير جمال الدين والملك موسى بن المأمون البطائحي، فى تاريخه من حوادث سنة إحدى وخمسمائة: ثم رأى القائد أبو عبد الله محمد بن فاتك البطائحى من اختلال أحوال الرجال العسكرية والمقطعين، وتضررهم من كون إقطاعاتهم قد خس ارتفاعها، وساءت أحوالهم لقلة المتحصل منها، وأن إقطاعات الأمراء قد تضاعف ارتفاعها وازدادت عن غيرها، وأن فى كل ناحية من الفواضل للديوان جملة تجى بالعسف ويتردد الرسل من الديوان الشريف بسببها.

فخاطب الأفضل بن أمير الجيوش فى أن يحل الإقطاعات جميعها ويروكها، وعرفه أن المصلحة فى ذلك تعود على المقطعين والديوان، لأن الديوان يتحصل بها بلاد مقورة. فأجاب إلى ذلك، وحل جميع الاقطاعات وراكها.

وأخذ كل من الأقوياء والمميزين يتضررون، ويذكرون أن لهم بساتين وأملاكا ومعاصر فى نواحيهم، فقال له: من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل فى الإقطاع، وهو محكم: إن شاء باعه وإن شاء أجره.

فلما حلت الاقطاعات أمر الضعفاء من الأجناد أن يتزايدوا فيها، فوقعت الزيادة فى إقطاعات الأقوياء إلى أن انتهت إلى مبلغ معلوم، وكتبت السجلات بأنها باقية فى أيديهم إلى مدة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد.

وأحضر الأقوياء وقال لهم: ما تكرهون من الإقطاعات التى كانت بيد الأجناد؟

قالوا: كثرة عبرتها وقلة متحصلها، وخربها وقلة الساكن بها.

فقال لهم: ابذلوا فى كل ناحية ما تحمله وتقوى رغبتكم فيه، ولا تنظروا فى العبرة الأولى.

فعند ذلك طابت نفوسهم، وتزايدوا فيها إلى أن بلغت الحد الذى رغب كل منهم فيه، فأقطعوا به، وكتب لهم السجلات على الحكم المتقدم.

فشملت المصلحة الفريقين وطابت نفوسهم. وحصل للديوان بلاد مقورة، بما كان مفرقا فى الإقطاعات، بما مبلغه خمسون ألف دينار.

وقال فى حوادث سنة خمس عشرة وخمسمائة: وكان قد تقدم أمر الأجل المأمون بعمل حساب الدولة من الهلالى والخراجي، وجعل نظمه على جملتين: إحداهما إلى سنة عشر وخمسمائة الهلالية الخراجية، والجملة الثانية إلى آخر سنة خمس عشرة وخمسمائة هلالية وما يوافقها من الخراجية.

فعقدت على جملة كثيرة من العين والأصناف، وشرحت بأسماء أربابها وتعيين بلادها. فلما أحضرت أمر بكتب سجل يتضمن المسامحة بالبواقى إلى آخر سنة عشر وخمسمائة، ونسخته بعد التصدير:

«ولما انتهى إلينا حال المعاملين والضمناء والمتصرفين وما فى جهاتهم من بقايا معاملاتهم، أنعمنا بما تضمنه هذا السجل من المسامحة، قصدا فى استخلاص ضامن طالت غفلته

وخربت ذمته، وإنقاذ عامل أجحف به من الديوان طلبته، وتوفير الرغبة على عمارتها، وجريها فيها على قديم عادتها»...

«ولما كان ذلك من جميل الأحدوثة التى لم نسبق إليها ولا شاركنا ملك فيها، اقتضت الحال إيرادها فى هذا الكتاب وإيداعها هذا الباب، لما اطلعنا عليه، مما انتهت إليه أحوال الضمناء والمعاملين بالمملكة، من الاختلال وتجمد البقايا فى جهاتهم والأموال، عطفنا عليهم برأفة ورحمة، وطالعنا المقام الأشرف النبوى بالتفصيل من أمورهم والجملة، واستخرجنا الأمر العالى بوضع ذلك فى الحال».

وأنشأ السجلات الكريمة مقصورة على ذكر هذا الإحسان وتنفيذها إلى جميع البلدان ليقرأ على رؤوس الأشهاد بسائر البلاد.

ومبلغ ما انتهت إليه هذه المسامحة، إلى حين ختم هذا السجل :

من العين ألفا ألف وسبعمائة ألف وعشرون ألفا وسبعمائة وسبعة وستون دينارا ونصف وثلث وثلثان وربع قيراط، ومن الفضة النقرة أربعة دراهم، ومن الورق سبعة وستون ألفا وخمسة دراهم ونصف وسدس درهم.

ومن الغلة ثلاثة آلاف ألف وثمانمائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وتسعة وثلاثون إردبا وثمن ونصف وسدس وثلثا قيراط.

ومن العناب ربع إردب، ومن ورق الصباغ ألفان وأربعمائة وثلاثة أرادب ونصف، ومن زريعة الوسمة عشرة أرداب وربع، ومن الصباغ ألف وأربعمائة وثمانون قنطارا ورطل ونصف، ومن الفوه أربعمائة وسبعون رطلا، ومن الشب تسعمائة وثلاثة عشر قنطارا ونصف، ومن الحديد خمسمائة رطل وأحد وثلاثون رطلا، ومن الزفت ألف وثلاثمائة وثلاثة أرطال وربع وسدس، ومن القطران تسعة عشر رطلا وثلث.

ومن الثياب الحلبى ثلاثة أثواب، ومن المآزر مائة مئزر صوف، ومن الغرابيل مائة وسبعون غربالا.

ومن الأغنام مائتا ألف وخمسة وثلاثون ألفا وثلاثمائة وخمسة أرؤس.

ومن البسر[٢٨٤] ثلاثمائة وثلاثة عشر قنطارا وثمانية وثلاثون رطلا، ومن السحيل ثلاثمائة ألف وخمسة وسبعون ألفا وخمسمائة وخمسون باعا، ومن الجريد أربعمائة ألف وثمانية وثلاثون ألفا وسبعمائة وثلاثة وخمسون جريدة، ومن السلب ألف وأربعمائة وثلاثة وعشرون سلبة.

ومن الأطراف ستة آلاف وسبعمائة وثلاثة أطراف، ومن الملح ألفا وسبعمائة وثلاثة وتسعون إردبا وثلث، ومن الأشنان أحد عشر إردبا، ومن الرمان ألفا حبة.

ومن العسل النحل خمسمائة واحد وأربعون قنطارا وسدس، ومن الشهد اثنان وثلاثون زيرا وقادوسا واحدا، ومن الشمع أربعمائة وأربعون رطلا، ومن الخلايا ثلاثة آلاف وأربعمائة وخليتان، ومن عسل القصب مائة وثمانية وثلاثون قنطارا.

ومن الأبقار اثنان وعشرون ألفا ومائة وأربعة وستون رأسا، ومن الدواب أربعة وسبعون رأسا.

ومن السمن ألفان وتسعمائة وستة وتسعون مطرا وسدس وثمن، ومن الجبن ثلاثمائة وعشرون رطلا.

ومن الصوف أربعة آلاف ومائة وثلاثة وعشرون جزة، ومن الشعر ستة آلاف وخمسون رطلا وربع، ومن بيوت الشعر بيتان.

وفصل ذلك بجهاته ومعاملاته.

قال: ولما انتهى إلى المأمون ما يعتمد فى الدواوين، من قبول الزيادات وفسخ عقود الضمانات وانتزاعها ممن كابد فيها المشقة والتعب، وتسلمها إلى باذل الزيادة من غير كلفة ولا نصب، أنكر ذلك ومنع من ارتكابه، ونهى عن الولوج فى بابه، وخرج أمره بإعفاء الكافة أجمعين والضمناء والمعاملين من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ويستولون عليه، ما داموا مغلقين وبأقساطهم قائمين، وتضمن ذلك منشور قرئ فى الجامعين الأزهر بالقاهرة والعتيق بمصر وديوانى المجلس والخاص الآمرين السعيدين. ونسخة بعد التصدير:

---

(٢٨٤) خلطة بالرطب والتمر فى النبيذ.
انظر: المعجم الوسيط ١/ ٥٥ مادة بسر.

«ولما انتهى إلى حضرتنا ما يعتمد فى الدواوين، ويقصده جماعة من المتصرفين والمستخدمين، من تضمين الأبواب والرباع والبساتين والحمامات والقياسر والمساكن وغير ذلك من الضمانات، للراغبين فيها ممن تستمر معاملته ولا تنكر طريقته. فما هو إلا أن يحضر من يزيد عليه فى ضمانه، حتى قد نقض عليه حكم الضمان، وقبل ما يبذل من الزيادة كائنا من كان، وقبضت يد الضامن الأول عن التصرف، ومكن الضامن الثانى من التصرف من غير رعاية للعقد على الضامن الأول، ولا تحرز فى فسخه الذى لا يبيحه الشرع ولا يتأول ... أنكرنا ذلك على معتمديه، وذممنا من قصدنا عليه ومرتكبيه، إذ كان للحق مجانبا، وعن مذهب الصواب ذاهبا، وعرضنا ذلك بالمواقف المقدسة المطهرة - ضاعف الله أنوارها وأعلى أبدا منارها - واستخرجنا الأوامر المطاعة فى كتب هذا المنشور إلى سائر الأعمال، بأنه أى أحد من الناس ضمن ضمانا من باب أو ربع أو بستان أو ناحية أو كفر - وكان لأقساط ضمانه مؤديا، ولما يلزمه من ذلك مبديا، وللحق متبعا - فإن ضمانه على العقد المعقود، عملا بالواجب والنظام المحمود، واتباعا لما أمر الله تعالى به فى كتابه المجيد، إذ يقول جل من قائل: «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود»(*)، إلى أن تنقضى مدة الضمان ويزول حكمها ويذهب وضعها ورسمها، حملا على قضية الواجب وسننها، واعتمادا على حكم الشريعة التى ماضل من اهتدى بفرائضها وسننها...

«فأما من ضمن ضمانا ولم يقم بما يجب عليه فيه، وأصر على المدافعة والمغالطة التى لا يعتمدها إلا كل ذميم الطباع سيفه، فذلك الذى فسخ حكم ضمانه بنقضه الشروط المشروطة عليه، وحكمه حكم من إذا زيد عليه فى ضمانه نقل عنه وأخرج من يدية، لأنه الذى بدأ بالفسخ وأوجد السبيل إليه ...

«فليعتمد كافة أرباب الدواوين، وجميع المتصرفين والمستخدمين العمل بما تضمنه هذا المنشور، وامتثال المأمون، وحمل هؤلاء الضمناء والمعاملين على ما نص فيه، والحذر من تجاوزه وتعديه بعد ثبوته فى ديوانى المجلس والخاص الآمرين السعيدين، وبحيث يثبت مثله إن شاء الله تعالى».

(*) ول المائدة

قال: ووصلته المكاتبة من الوالى والمشارف، ومن كان ندب صحبته لكشف الأراضى والسواقى ومساحتها، متضمنة ما أظهره الكشف وأوضحته المساحة على من بيده السواقى - وهم عدة كثيرة - ومن جملتها ساقية مساحتها ثلثمائة وستون فدانا تشتمل على النخل والكرم وقصب السكر بمدينة إسنا خراجها فى السنة عشرة دنانير، وما يجرى فى الأعمال هذا المجـــري.

وأنهم وضعوا يد الديوان على جميعها، وطلبوا من أرباب السواقى ما يدل على ما بأيديهم. فذكروا أنها انتقلت إليهم، ولم يظهروا ما يدل عليها. وقد سيروا ملاكها إلى الباب تحت الحوطة ليخرج الأمر بما يجب من الخراج عن هذه السواقي، فإن الأملاك بجملتها لا تقوم بما يجب عليها.

فوقف المذكورون للمأمون فى يوم جلوسه للمظالم، فأمر بحضورهم بين يديه، وتقدم إلى القاضى جلال الملك أبو الحجاج يوسف ابن أبى أيوب المغربي - وهو يومئذ قاضى القضاة - لمحاكمتهم، فجرى له معهم مفاوضة أوجبت الحق عليهم، وألزمهم بالقيام بما يستغرق أموالهم وأملاكهم.

فحصل من تضررهم ما أوجب العاطفة عليهم، وأخذهم بالخراج من بعد، وأن يضرب عما تقدم صفحا، وكتب منشورا نسخته:

«قد علم الكافة ما نراه من إفاضة سحب العدل عليهم والإحسان، والنظر فى مصالح كل قاص منهم ودان، وإنا لا ندع ضررا يتوجه إلى أحد من الرعية إلا حسمناه، ولا نعلم صلاحا يعود نفعه عليه إلا قوينا سببه ووصلناه، حسب ما يتعين على رعاة الأمم، وعملا بالواجب فى البعيد والأمم، وسلوكا لمحجة الدولة الفاطمية - خلد الله ملكها - القوية، واستمرارا على قضاياها وسجاياها الكريمة» ...

«ولما كنا نرى النظر فى مصالح الرعايا أمرا واجبا، ونصرف إلى سياستهم عزما ماضيا ورأيا ثاقبا، كذلك نرى النظر فى أمور الدواوين واستيفاء حقوقها المصروفة إلى حماية البيضة، والمحاماه عن الدين، وجهاد الكفرة والملحدين، ليكون ما نراعيه وننظر فيه جاريا على سنن الواجب، محروسا من الخلل - بإذن الله - من جميع الجوانب».

«ومن اللّه نستمد مواد التوفيق فى الحل والعقد، ونسأله الإرشاد إلى سواء السبيل والقصد، وما توفيقنا إلا باللّه، عليه نتوكل، وهو حسبنا ونعم الوكيل».

وكان القاضى الرشيد بن الزبير - أيام مشارفته الصعيد الأعلى - قد طالع المجلس الأفضلى بحال أرباب الأملاك هناك، وأنهم قد استضافوا إلى أماكنهم من أملاك الدواوين أراضى اغتصبوها، ومواضع مجاورة لأملاكهم تعدوا عليها وخلطوها بها وحازوها. ورسم له كشفا ونظم المشاريح بها وارتجاعها للديوان، وأن يعتمد فى ذلك ما يوجبه حكم العدل المثبت فى كل قطر ومكان.

ويأخر ذلك : «سيرنا من الباب من يكشف ذلك على حقيقته وإنهائه على طيته، فاعتمدوا ما أمروا به من الكشف فى هذه الأملاك.

«ووردت المطالعة منهم بأنهم التمسوا ممن بيده ملك أو ساقية، ما يشهد بصحة ملكه ومبلغ فدنه وذكر حدوده، فلم يحضر أحد منهم كتابا، ولا أوضح جوابا ...

«وأصدروا إلى الديوان المشاريح بما كشفوه وأوضحوه، فوجدوا التعدى فيه ظاهرا، وباب الحيف والظلم غير متقاصر، والشرع يوجب وضع اليد على ما هذه حاله، ومطالبة صاحبه بريعه واستغلاله، لا سيما وليس بيده كتاب يشهد بصحة الملك رأسا، ولا يستند فى ذلك إلى حجة ادخرها احترازا عن مجاهدة سبيله واحتراسا»...

«ولكى نحكم بما نراه من المصلحة للرعية والعدل الذى أقمنا مناره، وأحيينا معالمه وآثاره، مع الرغبة فى عمارة البلاد ومصالح أحوالها، واستنباط الأرضين الداثرة، وإنشاء الغروس وإقامة السواقى بها ... أمرنا بكتب هذا المنشور وتلاوته بأعمال الصعيد الأعلي، بإقرار جميع الأملاك والأرضين والسواقى بأيدى أربابها الآن، من غير انتزاع شئ منها ولا ارتجاعه، وأن يقرر عليها من الخراج ما يجب تقريره، ويشهد الديوان على أمثالهم بمثله، إحسانا إليهم لم نزل نتابع مثله ونواليه، وإنعاما ما برحنا نعيده عليهم ونبديه»...

« وقد أنعمنا و تجاوزنا عما سلف، ونهينا من يستأنف، وسامحنا من خرج عن التعدى إلى المألوف، وجرينا على سنننا فى العفو والمعروف، وجعلناها توبة مقبولة من الجماعة الجانين، ومن عاد من الكافة أجمعين فلينتقم اللّه منه، وطولب بمستأنفه وأمسه، وبرئت

الذمة من ماله ونفسه ، وتضاعفت عليه الغرامة والعقوبة ، وسدت فى وجهه أبواب الشفاعة والسلامة ...

« وقد فسحنا - مع ذلك - لكل من يرغب فى عمارة أرض حلفاء دائرة ، وإدارة بئر مهجورة معطلة ، فى أن يسلم إليه ذلك ويقاس عليه ، ولا يؤخذ منه خراج إلا فى السنة الرابعة من تسليمه إياه ، وأن يكون المقرر على كل فدان ما توجبه زراعته لمثله خراجا مؤبدا وأمرا مؤكدا ...

« فليعتمد ذلك النواب وحكام البلاد ، ومن جرت العادة بحضوره عقد مجلس ، واحضار جميع أرباب الأملاك والسواقي ، وإشعارهم ما شملهم من هذا الإحسان الذى تجاوز آمالهم فى إجابتهم إلى ما كانوا يسألون فيه ، وتقرير ما يجب على الأملاك المذكورة من الخراج على الوضع الذى مثلناه ، ويجيز الديوان تقريره ويرضاه ، مع تضمين الأراضى الدائرة والآبار المعطلة لمن يرغب فى ضمانها ، ونظم المشاريح بذلك وإصدارها إلى الديوان ، ليخلد فيه على حكم أمثالها بعد ثبوت هذا المنشور بحيث يثبت مثله»

قال : ولما سرت هذه المصالح إلى جميع أهل هذه الأعمال ، حصل الاجتهاد فى تحصيل مال الديوان وعمارة البلاد .

واعلم أنه لم يكن فى الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر ، لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية ، وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحى من العرب والقبط وغيرهم ، لا يعرف هذه الابذة التى يقال لها اليوم الفلاحة

ويسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحا قرارا ، فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق ، بل هو قن ما بقى ومن ولد له كذلك ، بل كان من اختار زراعة أرض يقبلها كما تقدم ، وحمل ما عليه لبيت المال .

فاذا صار مال الخراج بالديوان ، أنفق فى طوائف العسكر من الخزائن .

وكان مع ذلك إذا انحط ماء النيل عن الأراضي ، وتعلقت نواحى مصر بأصناف الزراعات ، ندب من الحضرة من فيه نباهة ، وخرج معه عدول يوثق بهم ، وكانت لهم معرفة بعلم الخراج ، وكثيرا ما كان هذا الكاتب من النصارى الأقباط .

ويخرج إلى كل ناحية من ذكرنا، فيحررون مساحة ما شمله الرى من الأراضى مما لعله باو أو شـرق ، ويكتب بذلك مكلفـات واضـحـة بالفـدن والقطائع على جـمـيع الأصناف المزروعة ، ويحضر إلى دواوين الباب .

فـإذا مـضـى من السنه القـبطيـة أربعـة أشـهـر تدب من الأجناد من عـرف بالحـمـاسـة وقوةالبطش ، وعين معـه من الكتاب العدول من قد اشـتـهر بالأمـانة ، وكـاتب من نصـارى القبط غير من خرج عند المساحة ، وساروا إلى كل ناحية كذلك ، فاستخرج مباشرو كل بلد ثلث ما وجب من مـال الخراج على ما شهدت به المكلفات ، فإذا أحضر هذا الثلث صرف فى واجبات العساكر ... وهكذا العمل فى استخراج كل قسط طول الزمان من كل سنه .

وكانت تبقى فى جهات الضمان والمتقبلين جملة بواق .

وكـانت بلاد مـصـر ، إذ ذاك ، تقـبل بعين وغلة وأصناف . وقـد عـرف ذلك من نسـخـة المسـمـوح الذى تضـمن ترك البـواقى فى أيام الخليـفـة الآمـر بأحكام الله ووزارة المأمـون البطائحى .

ورأيت بخط الأسـعـد بن مـهـذب بن زكـريا ابن مماتى الكاتب المصـري : سـألت القـاضى الفاضل عبد الرحيم : كم كـانت عدة العسـاكر فى عرض ديوان الجيش ، لما كان سيدنا يتولى ذلك فى أيام رزيك بن الصالح ؟

فقال : أربعون ألف فارس ونيفا ، وثلاثون ألف راجل من السودان .

وقال أبو عمرو عثمان النابلسى فى كتاب « حسن السريرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » : إن ضرغاما لما ثار على شاور ، وفر شاور إلى السلطان نور الدين محمود بن زنكى بدمشق يستنجد به على ضرغام ويعده بأنه يكون نائبا عنه بمصر ويحمل إليه الخراج ، أنشأ لنور الدين عزما لم يكن . فجهز ألف فارس ، وقدم عليهم أسد الدين شيركوه ، وأمره بالتوجه ، فأبى وقال : لا أمضى أبدا ، فإن هلاكى ومن معى وسوء ما سمعه السلطان معلوم من هنا ، وكيف أمضى بألف فارس إلى إقليم فيه عشرة آلاف فارس ومائة ، سيهبد فيها عشرة آلاف مقاتل وأربعون ألف عبد وقوم مستوطنون فى أوطانهم ، فرأيت حرابتهم - ونحن نأتيهم من تعب السفر - بهذه العدة القليلة؟

قال: ثم أجابه بعد ذلك .

هذا - أعزك اللّه - بعد ما كانت عساكر أحمد بن طولون، ما ستراه فى ذكر القطائع إن شاء اللّه تعالي، ثم ما كان من عساكر الأمير أبى بكر محمد بن طغج الاخشيد، وهى - على ما حكاه غير واحد، منهم اين خلكان - أنها كانت أربعمائة ألف .

ولما انقضت دولة الفاطميين بدخول الغز من بلاد الشام، واستولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مملكة مصر، تغير الحال بعض التغير لا كله .

قال القاضى الفاضل فى متجددات سنه سبع وستين وخمسمائة: فى ثامن المحرم خرجت الأوامر الصلاحية بركوب العساكر قديمها وجديدها، بعد أن أنذر حاضرها وغائبها، وتوافى وصولها وتكامل سلاحها وخيولها حضر فى هذا اليوم جموع، شهد كل من علا سنه وقرطس ظنه أن ملكا من ملوك الإسلام لم يحز مثلها، وشاهدت رسل الروم والفرنج ما أرغم أنرف الكفرة .

ولم يتكامل اجتياز العساكر موكبا بعد موكب، وطلبا بعدد طلب (والطلب - بلغةالغز - هو الأمير المقدم الذى له علم معقود وبوق مضروب، وعدة من مائتى فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارسا) إلى أن انقضى النهار، ودخل الليل وعاد ولم يكمل عرضهم .

وكانت العدة الحاضرة مائة وسبعة وأربعين طلبا، والغائب منها عشرون طلبا، وتقدير العدة يناهز أربعة عشر ألف فارس، أكثرها طواشية (والطواشى من رزقه من سبعمائة الى ألف الى مائة وعشرين وما بين ذلك، وله برك من عشر رؤوس إلى ما دونها ما بين فرس وبرذون وبغل وجمل، وله غلام يحمل سلاحه) وقرا غلامية تتمة الجملة .

قال: وفى هذه السفرة عرض العربان الخدامين، فكانت عدتهم سبعة آلاف فارس، واستقرت عدتهم على ألف وثلثمائة فارس لا غير، وأخذ بهذا الحكم عشر الواجب، وكان أصله ألف ألف دينار، على حكم الاعتداد الذى يتأصل ولا يتحصل، وكلف التغالبة ذلك فامتعضوا ولوحوا بالتحيز الى الفرنج .

وقال فى متجددات شهر رجب سنه سبع وسبعين وخمسمائة: استمر انتصاب السلطان صلاح الدين فى هذه السنه للنظر فى أمور الإقطاعات ومعرفة عبرها، والنقص منها والزيادة

فيها، وإثبات المحروم وزيادة المشكور، إلى أن استقرت العدة على ثمانية آلاف وستمائة وأربعين فارسا: أمراء مائة وأحد عشر أميرا، طواشية ستة آلاف وتسعمائة وستة وسبعون، ترا غلامية ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسون.

والمستقر لهم من المال ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف وسبعون ألفا وخمسمائة دينار، وذلك خارج عن المحلولين من الأجناد الموسومين بالحوالة على العشر، وعن عدة العربان المقطعين بالشرقية والبحيرة، وعن الكاتبين والمصريين والفقهاء والقضاة والصوفية، وعما يجرى بالديوان ولا يقصر عن ألف ألف دينار.

وقال فى متجددات سنه خمس وثمانين وخمسمائة: كتبت أوراق بما استقر عليه عبر البلاد من إسكندرية إلى عيذاب، الى آخر الرابع والعشرين من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة، خارجا عن الثغور وأبواب الأموال الديوانية والأحكار والحبس ومنفلوط ومنقباط وعدة نواح أوردت أسماؤها ولم يعين لها فى الديوان عبرة، من جملة أربعة آلاف ألف وستمائة ألف وثلاثة وخمسين ألفا وتسعة عشر دينارا، بعد ما يجرى فى الديوان العادلى السعيد وغيره عن الشرقية والمرتاحية والدقهلية وبوش وغير ذلك، وهو ألف ألف ومائة ألف وتسعمائة ألف وستمائة وثلاثة وعشرون دينارا، تفصيل ذلك:

الديوان العادلي: سبعمائة ألف وثمانية وعشرون ألفا ومائتان وثمانية وأربعون دينارا.

الأمراء والجناد المرسوم بإبقاء إقطاعاتهم بالأعمال المذكورة: مائة ألف وثمانية وخمسون ألفا ومائتان وثلاثة دنانير.

ديوان السور المبارك والأشراف: ثلاثة عشر ألفا وثمانمائة وأربعة دنانير.

العربان: مائتا ألف وأربعة وثلاثون ألفا ومائتان وستة وتسعون دينارا.

الكنانية: خمسة وعشرون ألفا وأربعمائة واثنا عشر دينارا.

القضاة والشيوخ: سبعة آلاف وأربعمائة وثلاثة دنانير.

القيسارية والصالحية والأجناد المصريون، أثنا عشر ألفا وخمسمائة وأربعة دنانير.

العزاة والعاقلة المركزة بدمياط وتنيس وغيرهم : عشرة آلاف وسبعمائة وخمسة وعشرون دينارا.

البارز : ثلاثة آلاف ألف وأربعمائة ألف واثنان وستون ألفا وخمسة وتسعون دينارا.

الوجه البحري : ألف ألف ومائة ألف وأحد وخمسون ألفا وستمائة وثلاثة وخمسون دينارا ، تفصيله :

ضواحي ثغر الإسكندرية : ثمانمائة ألف ومائة وثمانية وثلاثون دينارا.

ثغر رشيد : ألفا دينار.

البحيرة : مائة ألف وخمسة عشر ألفا وخمسمائة عشر ألفا وخمسمائة وستة وسبعون دينارا.

حوف دمسيس : اثنان وتسعون ألفا وأربعمائة وثلاثة دنانير.

فوه والمزاحميتين : عشرة آلاف ومائة وخمسة وعشرون دينارا.

النبراوية : خمسة عشر ألفا وثلاثمائة وخمسة دنانير.

جزيرة بني نصر : مائة ألف واثنا عشر ألفا وستمائة وستة وأربعون دينارا.

جزيرة قوسنيا : مائة ألف وثلاثون ألفا وخمسمائة واثنان وتسعون دينارا.

الغربية : ستمائة ألف وأربعة وسبعون ألفا وستمائة وخمسة دنانير.

السمنودية : مائتا ألف وخمسة وأربعون ألفا وأربعمائة وتسعة وسبعون دينارا.

الدنجاوية : ستة وأربعون ألفا ومائتان وأربعة وسبعون دينارا.

المنوفية : مائة ألف وثمانية وأربعون ألفا وثلاثمائة وسبعة وأربعون دينارا.

الوجه القبلي : ألف ألف وستمائة ألف وعشرة آلاف وأربعمائة وأحد وأربعون دينارا ، تفصيل ذلك :

الجيزة : مائة ألف وثلاثة وخمسون ألفا ومائتان وأربعة دنانير.

الأطفيحية : تسعة وخمسون ألفا وسبعمائة وثمانية وعشرون دينارا.

البوصيرية : ستون ألفا وأربعمائة وستة وستون دينارا.

الفيومية : مائة ألف واثنان وخمسون ألفا وستمائة وأربعة وثلاثون دينارا.

البهنسية : ثلثمائة ألف واثنان وخمسون ألفا وستمائة وأربعة وثلاثون دينارا.

الواحات الداخلة والخارجتين وواح البهنسا : خمسة وعشرون ألف دينار.

الأشمونين : مائة ألف وسبعة وأربعون ألفا وسبعمائة واثنان وثلاثون دينارا.

السيوطية خارجا عن منفلوط ومنقباط : اثنان وسبعون ألفا وخمسمائة وأربعة دنانير.

الأخميمية : مائة ألف وثمانية آلاف وثمانمائة واثنا عشر دينارا.

الأعمال القوصية : ثلاثمائة ألف واثنان وستون ألفا وخمسمائة دينار.

ثغر أسوان خمسة وعشرون ألف دينار.

ثغر عيذاب : يجرى فى غير هذا الديوان.

وقال فى متجددات سنة ثمان وثمانين وخمسمائة : والذى انعقد عليه ارتفاع الديوان السلطانى ثلاثمائة ألف وأربعة وخمسون ألفا وأربعة وخمسون ألفا وأربعة وأربعون دينارا. والذى يميز زائد الارتفاع، لسنة سبع وثمانين وخمسمائة على ارتفاع سنة ست وثمانين وخمسمائة على ارتفاع سنة ست وثمانين، اثنان وعشرون ألفا وأربعمائة وخمسة وأربعون دينارا. والذى انساق من البواقى للسنة المذكورة أحد وثلاثون ألفا وستمائة واثنان وعشرون دينارا. والذى اشتمل عليه متحصل ديوان الخاص الملكى الناصرى بالديار المصرية لسنة سبع وثمانين وخمسمائة : ثلاثمائة ألف وأربعة وخمسون دينارا ونصف وثلث وثمن.

ذكر الروك الأخير الناصري

وكان الجندى إقطاعه بمفرده وله تبع واحد، من عشرين ألف درهم إلى ثلاثين، وفيهم من اقطاعه خمسة عشر ألفا، وأقلهم عشرة آلاف، وذلك سوى الضيافة وبلغ خمسة آلاف درهم فى الإقطاع الثقيل.

وكان الجندى يخرج إلى السكان بطوالة خيل، ويخرج مقدم الحلقة كأمير عشرة، وتكون مضافته إذا نزل حوله، وأكثرهم يأكل على سماطه. ولا يمكن الأمير أن يأكل إلا وجميع أجناده معه، ويأخذ غلمان أجناده كل يوم الطعام من مطبخه، وإذا رأى نارا توقد سأل عنها فيقال ان فلانا اشتهى كذا، فيغضب ممن لا يأكل عنده. ومع ذلك كانت أشكالهم بشعة، وملابسهم غير خائلة.

فلما أفضت السلطنة الى المنصور لاجين، راك البلاد. وذلك إن أرض مصر كانت أربعة وعشرين قيراطا: ليختص السلطان منها بأربعة قراريط، ويختص الأجناد بعشرة قراريط، ويختص الأمراء بعشرة قراريط.

وكان الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد فلا يصل إلى الأجناد منها شي، ويصير ذلك الإقطاع فى دواوين الأمراء، ويحتمى بها قطاع الطريق، وتثور بها الفتن ويقوم بها الهوشات، ويمنع منها الحقوق والمقررات الديوانية، وتصير مأكلة لأعوان الأمراء ومستخدميهم ومضرة على أهل البلاد التى تجاورها.

فأبطل السلطان ذلك، ورد تلك الإقطاعات على أربابها، وأخرجها بأسرها من دواوين الأمراء. وأول ما بدأ به ديوان الأمير سيف الدين منكوتمر نائب السلطنة، فأخرج منه ما كان فيه من هذه الإقطاعات، وكان يتحصل له منها ألف أردب غلة فى كل سنة. واقتدى به جميع الأمراء، وآخرجوا ما فى إقطاعاتهم من ذلك، فبطت الحمايات.

وجعل السلطان فى هذا الروك للأمراء والأجناد أحد عشر قيراطا، وأفرد تسعة قراريط ليخدم بها عسكرا ويقطعهم إياها، ثم رتب أوراقا بتكفية الأمراء والأجناد بعشرة قراريط، ووفر قيراطا لزيادة من عساه بطلب زيادة لقلة متحصل إقطاعه، وأفرد لخاص السلطان عدة

أعمال جليلة، وأفرد للنائب منكوتمر لتفرقة المثالات فى تابعيه. فتنكرت قلوب الأمراء، حتى كان من المنصور لاجين ونائبه منكوتمر ما كان.

فلما كانت الأيام الناصرية، راك الناصر محمد البلاد ... قال جامع السيرة الناصرية: وفى سنة خمس عشرة وسبعمائة، اختار السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يروك الديار المصرية، وأن يبطل منها مكوسا كثيرة، وبفضل لخاص مملكته شسئا كثيرا من أراضى مصر.

وكان سبب ذلك أنه اعتبر كثيرا من أخباز المماليك والحاشية الذين كانوا للملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير، والأمير سلار وسائر المماليك البرجية، فإذا هى ما بين ألف دينار إلى ثمانمائة دينار، وخشى من قطع أخباز المذكورين، فولد له الرأى مع القاضى فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش، أن يروك ديار مصر، ويقرر إقطاعات مما يختار، ويكتب بها مثالات سلطانية. فتقدم الفخر ناظر الجيش فعمل أوراقا بما عليه عبر النواحى ومساحتها.

وعين السلطان لكل إقليم من أقاليم ديار مصر آناسا، وكتب مرسوما للأمير بدر الدين جيكل بن جيكل بن البابا أن يخرج لناحية الغربية ومعه أعزل الحاجب، ومن الكتاب المكين بن فرويتة.

وأن يخرج الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى الى ناحية الشرقية، ومعه الأمير ايتمش المجدى ومن الكتاب أمين الدولة ابن قرموط.

وأن يخرج الأمير بلبان الصرخدى والقليجى وابن طرنطاى وبيبرس الجمدار إلى ناحية المنوفية والبحيرة.

وأن يخرج البليلى والمرتينى إلى الوجه القبلى.

وندب معهم كتابا ومستوفين وقياسين ... فساروا إلى حيث ذكر.

فكان كل منهم إذا نزل بأول عمله، طلب مشايخ كل بلد ودلالاءها وعدولها وقضاتها وسجلاتها التى بأيدى مقطعيها، وفحص عن متحصلها من عين وغلة وأصناف، ومقدار ما

تحتوى عليه من الفدن، ومزروعها وبورها وما فيها من ترايب وبواق وغرس ومستبحر، وعبرة الناحية وما عليها لمقطعها من غلة ودجاج وخراف وبرسيم وكشك وكعك وغير ذلك من الضيافة .

فإذا حرر ذلك كله، ابتدأ بقياس تلك الناحية، وضبط بالعدول والقياسين وقاضى العمل ما يظهر بالقياس الصحيح، وطلب مكلفات تلك القرية وغنداقها وفضل ما فيها الأجناد والرزق، حتى ينتهى إلى آخر عمله .

ثم حضروا بعد خمسة وسبعين يوما، وقد تحرر فى الأوراق المحضرة حال جميع ضياع أرض مصر ومساحتها وعبرة أراضيها، وما يتحصل عن كل قرية من عين وغلة وصنف .

فطلب السلطان الفخر ناظر الجيش والتقى الأسعد بن أمين الملك المعروف بكاتب سرلغى وسائر مستوفى الدولة، وألزمهم بعمل أوراق تشمل على بلاد الخاص السلطانى التى عينها لهم وعلى إقطاعات الأمراء، وأضاف على عبرة كل فلاحيها من ضيافة لمقطعيها، وأضاف الى العبرة ما فى الإقطاع من الجوالي، وكتب مثالات للأجناد بإقطاعات على هذا الحكم، فاعتد منها بما كان يصرف فى كلف حمل الغلال من النواحى إلى ساحل القاهرة وما كان عليها من المكس.

وأبطل السلطان عدة مكوس منها مكس ساحل الغلة، وكان جل محتصل الديوان، وعليه إقطاعات الأمراء والأجناد، ويتحصل منه فى السنة أربعة آلاف ألف وستمائة ألف درهم، وعليه أربعمائة مقطع لكل منهم من عشرة آلاف إلى ثلاثة آلاف، ولكل من الأمراء من أربعين ألفا إلى عشرة آلاف .

وكانت جهة عظيمة لها متحصل كثير جدا، وينال القبط منها منافع كثيرة لا تحصي، ويحل بالناس من ذلك بلاء شديد وتعب عظيم من المغارم والظلم، فإن مظالمها كانت تتعدد ما بين نواتية تسرق، وكيالين تبخس، وشادين وكتاب يريد كل منهم شيئا، وكان مقرر الإردب درهمين للسلطان ويلحقه نصف درهم، غير ما ينهب ويسرق .

وكان لهذا الجهة مكان يعرف بخص الكيالة فى ساحل بولاق، يجلس فيه شاد وستون متعمما ما بين كتاب ومستوفين وناظر وثلاثون جنديا مباشرون، ولا يمكن أحدا من الناس أن

يبيع قدحا من غلة فى سائر النواحي ، بل تحمل الغلات حتى تباع فى خص الكيالة ببولاق .

ومما أبطل أيضا بصف السمسرة : وهو عبارة عن أن من باع شيئا من الأشياء فإنه يعطى أجرة الدلال - على ما تقرر من قديم - عن كل مائة درهم درهمين ، فلما ولى ناصر الدين الشيخى الوزارة قرر على كل دلال من دلالته درهما من كل درهمين ، فصار الدلال يعمل معدله ويجتهد حتى ينال عادته وتصير الغرامة على البائع ، فتضرر الناس من ذلك وأوذوا فلم يغاثوا حتى أبطل ذلك السلطان .

ومما أبطل رسوم الولاية : وكانت جهة تتعلق بالولاة والمقدمين فيجبيها المذكورون من عرفاء الأسواق وبيوت الفواحش ، ولهذه الجهة ضامن وتحت يده عدة صبيان وعليها جند مستقطعون وأمراء وغيرهم ، وكانت تشتمل على ظلم شنيع وفساد قبيح وهتك قوم مستورين وهجم بيوت أكثر الناس .

ومما أبطل مقرر الحوائص والبغال من المدينة وسائر أعمال مصر كلها من الوجه القبلى والبحري ، فكان على كل الولاة والمقدمين مقرر يحمل فى كل قسط من أقساط السنة إلى بيت المال ، عن ثمن حياصة ثلاثمائة درهم ، وعن ثمن بغل خمسمائة درهم ، وعلى هذه الجهة عدة مقطعين ويفضل منها ما يحمل . وكان يصيب الناس من هذه الجهة ما لا يوصف ، ويحل بهم من عسف الرقاصين ما يهون معه الموت .

ومن ذلك مقرر السجون : وهو عبارة عما يؤخذ من كل من يسجن ، فللسجان على حكم المقرر ستة دراهم سوى كلف أخري ، وعلى هذه الجهة عدة مقطعين ، ويرغب فيها الضمان ويتزايدرون فى مبلغ ضمانها لكثرة ما يتحصل منها ، فإنه كان لو تخاصم رجل مع امرأته أو ابنه رفعه الوالى إلى السجن ، فبمجرد ما يدخل السجن - ولو لم يقم به إلا لحظة واحدة - أخذ منه المقرر ، وكذلك كان على سجن - القضاة أيضا .

ومن ذلك مقرر طرح الفراريج : ولها ضمان عدة ، فى سائر نواحى أرض مصر ، يطرحون على الناس الفراريج ، فيمر بضعفاء الناس من ذلك بلاء عظيم ، وتقاسى الأرامل من العسف والظلم شيئا كثيرا. وكان على هذه الجهة عدة مقطعين ، ولا يمكن أحد من الناس

فى جميع الأقاليم أن يشترى فروجا فما فوقه إلا من الضمان، ومن عثر عليه أنه اشترى أو باع فروجا من سوى الضامن جاءه الموت من كل مكان وما هو يميت .

ومن ذلك مقرر الفرسان : وهو عبارة عما يجبيه ولاة النواحى من سائر البلاد، فلا يؤخذ درهم مقرر حتى يغرم عليه صاحبه درهمين، ويقاسى الناس فيه أهوالا صعبة .

ومن ذلك مقرر الأقصاب والمعاصر : وهو ما يجبى من مزارعى قصب السكر ومن المعاصر ورجال المعاصر .

ومن ذلك مقرر رسرم الأفراح : ويجبى من سائر النواحي، ولهذه الجهة عدة ضمان، ولا يعرف لهذه الجهة أصل ألبتة، وإنما يجبى بضرائب ينال الناس فيها مع المقرر غرامات وروعات .

ومن ذلك حماية المراكب : وهى عبارة عما يؤخذ من كل مركب بتقرير معين يعرف بمقرر الحماية . وكانت هذه الجهة أشد ما ظلم به الناس، فيوخذ من كل من ركب البحر للسفر، حتى من السؤّال والمكدين .

ومن ذلك حقوق القينات : وهو عبارة عما يجمع من الفواحش والمنكرات، فيجبيه مهتار الطشتخاناه السلطانية من أوباش الناس .

ومن ذلك شد الزعماء : وهى جهة مقردة وحقوق السودان وكشف المراكب، ومقرر ما على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة، فيؤخذ من كل ذكر وأنثى مقرر معين.

ومتوفر الجراريف : وهو ما يجبى من سائر النواحي، فيحمل ذلك مهندسو البلاد إلى بيت المال بإعانة الولاة لهم فى تحصيل ذلك . وعلى هذه الجهة عدة مقطعين من الجند .

ومقرر المشاعلية : وهو عبارة عما يوخذ عن كسح الأفنية وحمل ما يخرج منها من الوسخ إلى الكيمان، فكان إذا امتلأ سراب جامع أو مدرسة أو مسمط تربة أو منزل من منازل سائر الناس، لا يمكنه – ولو بلغ من العظمة ما عسى أن يبلغ – التعرض لذلك حتى يأتيه ضامن الجهة ويقاوله على كسح ذلك بما يريد، وكان من عادة الضامن الاشطاط فى السوم، وطلب أضعاف القيمة، فإن لم يرض رب المنزل بما طلب الضامن وإلا تركه

وانصرف، فلا يقدر على مقاساة ترك الوسخ ويضطر الى سؤاله ثانيا، فيعظم تحكمه ويشتد بأسه إلى أن يرضيه بما يختار حتى يتمكن من كسح فنائه ورفع ما هنالك من الأقذار.

ومن ذلك إبطال المباشرين من النواحي: وكانت بلاد مصر كلها، من الوجهين القبلي والبحري، ما من بلد صغير وكبير إلا وفيه عدة من كتاب وشاد ونحو ذلك، فأبطل السلطان المباشرين، وتقدم منعهم من مباشرة النواحى الا من بلد فيها مال السلطان فقط، فأراح الله سبحانه الخلق بإبطال هذه الجهات من بلاء لا يقدر قدره ولا يمكن وصفه.

ولما أبطل السلطان هذه الجهات، وفرغ من تعيين الإقطاعات للأمراء والأجناد، أفرز لخاص السلطان من بلاد أرض مصر عدة نواح مما كان فى إقطاعات البرجية، وهى الجيزة وأعمالها، وهو والكوم الأحمر ومنفلوط والمرج والخصوص، وغير ذلك مما بلغ عشرة قراريط من الإقليم، وصار لإقطاعات الآمراء والأجناد وغيرهم أربعة عشر قيراطا.

ومكر الأقباط فيما أمكنهم المكر فيه، فبدأوا بأن أضعفوا عسكر مصر، ففرقوا الإقطاع الواحد فى عدة جهات، فصار بعض الجبى فى الصعيد، وبعضه فى الشرقية، وبعضه فى الغربية، إتعابا للجندى وتكثيرا للكلفة. وأفردوا جوالى الذمة من الخاص، وفرقوها فى البلاد التى أقطعت للأمراء والآجناد ... فإن النصارى كانوا مجتمعين فى ديوان واحد - كما ستقف عليه ان شاء اللّه تعالى - فصار نصارى كل بلد يدفعون جاليتهم إلى مقطع تلك الضيعة.

فاتسع مجال النصاري، وصاروا يتنقلون فى القرى ولا يدفعون من جزيتهم إلا ما يريدون، فقل متحصل هذه الجهة بعد كثرته، وأفردوا ما بقى من جهات المكوس برسم الحوائج خاناه التى تصرف للمساط، ليتناولوا ذلك ويوردوا منه ما شاءوا، ثم يتولوا صرف ما يحصل منه فى جهات تستهلك بالأكل. وصارت جهات المكوس مما يتحدث فيه الوزير وشاد الدواوين.

ثم نظر السلطان فيما كان بيد الأميرين بيبرس الجاشنكير وسلار نائب السلطة من البلاد، فأخذ ما كان باسم كل منهما وباسم حواشيه، ولم يدع من ذلك شيئا مما كانوا قد وقفوه حتى حله، وجعل الجميع إقطاعات، واعتد فى سائر الإقطاعات بما كان يستهديه المقطع من

فلاحه، فحسب ذلك وأقامه من جملة عبر الإقطاع، وأبطل الهدية، فلم يتهيأ له الفراغ من ذلك إلى آخر السنة .

فلما أهل المحرم من سنة ست عشرة وسبعمائة، وقد نظمت الحسابات على ثلث مغل سنة خمس عشرة، جلس السلطان فى الإيوان الذى استجده بقلعة الجبل، وقد تقدم لسائر نقباء الأجناد على لسان نقيب الجيش بالحضور بأجنادهم، وجعل للعرض فى كل يوم من الأمراء المقدمين بمضافيهم .

فكان الأمير مقدم الألف يقف ومعه مضافوه، وناظر الجيش يستدعيهم من تقدمة ذلك الأمير بأسمائهم على قدر منازلهم، فيقدم نقيب الجيش الواحد بعد الواحد من يد نقيبه إلى ما بين يدى السلطان، فإذا مثل بحضرته سأله السلطان بنفسه من غير واسطة عن اسمه وأصله وجنسه ووقت حضوره إلى ديار مصر ومع من قدم، وإلى من صار من الأمراء وغيرهم، وعن مشاهده التى حضرها فى الغزو، وعما يعرفه من صناعة الحرب وغير ذلك من الاستقصاء . فإذا انتهى استفهامه إياه ناوله بيده مثالا من غير تأمل بحسب ما قسم الله له فلم يمر به فى مدة العرض أحد إلا وقد عرفه، وأشار إلى الأمراء بذكر شى من خبره .

هذا، وقد تقدم إلى سائر الأمراء بأسرهم بأن يحضروا إلى الإيوان عن العرض، ولا يعارض أحد منهم السلطان فى شئ يفعله، فكانوا يحضرون وهم سكوت لا يتكلم أحد منهم خوفا من مخالفة السلطان لما يقوله وأخذ السلطان فى مواربة الأمراء، فما أثنوا على أحد فى مجلس العرض إلا وأعطاء السلطان مثالا بإقطاع ردى . فلما علموا ذلك أمسكوا عن الكلام معه جملة .

وانفرد بالاستبداد بأموره دونهم، فما عرف منه أنه قدم إليه أحد إلا وسأله : إن كان مملوكا عمن أقدمه من التجار وسائر ما تقدم، وإن كان شيخا فعن أصله وسنه وكم مصاف حضرها، حتى أتى على الجميع . وأفرد المشايخ العاجزين فلم يعطهم إقطاعات، وجعل لكل منهم مرتبا يقوم به ... فانتهى العرض فى طول المحرم، وتوفر كثير من مثالات الأجناد فبلغ عدة مائتى مثال.

ثم أخذ فى عرض أطباق المماليك السلطانية، ووفر من حوامكهم كثيرا، وقطع عدة

رواتب من رواتبهم، وعوضهم عن ذلك إقطاعات، وجعل جهة مكس قطيا لضعفاء الأجناد ممن قطع خبزه، فجعل لكل منهم في السنة ثلاثة آلاف درهم.

وكان لبيبرس وسلار الجوكندار تعلقات كثيرة في بيت المال، وفي الأعمال كالجيزة والأسكندرية، من متجر وحمايات، فارتجع ذلك وأبطله وما شابهه، وأضاف ما لم يقطعه إلى ديوان الخاص.

ومما أمر به في مدة العرض ألا يرد أحد مثالا أخذه من السلطان ولو استقله، ولا يشفع أمير في جندي، وإن من خالف ذلك ضرب وحبس ونفى وقطع خبزه ... فعظمت مهابة السلطان وقويت حرمته، ولم يجسر أحد أن يرد عليه مثالا أخذ من السلطان، ولا استطاع أمير أن يتكلم لأحد. وصار كثير ممن كان اقطاعه مثلا ألف دينار إلى إقطاع مائتى دينار ونحوها، وكثير ممن كان إقطاعه قليلا إلى إقطاع معتبر، فانه كان يعطى المثال من غير تأمل كيفما وقعت يده عليه. وقدر الله سبحانه وتعالى أن السلطان كان من جملة صبيان مطبخه رجل مضحك يهزل بحضرته، فيضحك منه ويعجب به، ولا يعترض فيما يقول من السخف. فجلس السلطان في بعض أيام العرض في البستان بقلعة الجبل وعنده الخاصة من الأمراء، فدخل هذا المضحك وأخذ في السخرية على عادته ليضحك السلطان، إلى أن قال: وجدت بعض أجناد الروك الناصرى وهو راكب الاكديش وخرجه خلفه ورمحه فوق كتفه (يقصد بهذا السخرية والطعن). فغضب السلطان غضبا شديدا، وصاح: خذوه وعروه من ثيابه.

فتبادره الأعوان، وجروه برجله ونزعوا ثيابه، وربطوه في الساقية مع القواديس، وأكثروا من ضرب الأبقار حتى أسرعت بدوران الساقية. فصار المسكين يتقلب مع القواديس، ويغطس في الماء تارة ويرقى أخري، ثم ينتكس والماء يمر عليه مقدار ساعة، إلى أن انقطع حسه وأشرف على الهلاك. واشتد رعب الأمراء لما رأوه من قوة غضب السلطان.

ثم تقدم الأمير طغاى الدوادار في طائفة من الأمراء الخاصكية، واعتذروا عن هذا المسكين بأنه لم يرد إلا أن يضحك السلطان من كلامه، ولم يقصد عيب الأجناد ولا انتقاصهم، ونحو هذا من القول إلى أن أمر بحله، فإذا ليس فيه حركة فسحب. ورسم السلطان بأنه إن كان حيا لا يبيت بديار مصر فأخرج من وقته منفيا.

وحمد الله كل من الأمراء على ما وفقه من السكوت عن الكلام فى حال العرض.

وما زال الأمر بمصر على ما رسمه الملك الناصر فى هذا الروك، إلى أن زالت دولة بنى قلاوون بالملك الظاهر برقوق فى شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة، فأبقى الأمر على ذلك إلا أن أشياء منه أخذت تتلاشى قليلا قليلا ... إلى أن كانت الحوادث والمحن فى سنة ست وثمانمائة حيث حدث من أنواع التغييرات وتنوع الظلم ما لم يخطر ببال أحد، وسيمر بك جمل من ذلك عند ذكر أسباب خراب إقليم مصر إن شاء الله تعالي.

وكانت لأراضى مصر تقاوى مخلدة فى نواحيها وهى على قسمين: تقاوى سلطانية، وتقاوى بلدية، فالتقاوى السلطانية وضعها الملوك فى النواحي. وكان الأمير أو الجندى عندما يستقر على الإقطاع يقبض ما له من التقاوى السلطانية، فإذا خرج عنه طولب بها، فلما كان الروك الناصرى خلدت تقاوى كل ناحية بها، وضبطت فى الديوان السلطاني، فبلغت جملتها مائة ألف وستين ألف أردب سوى التقاوى البلدية.

ذكر الديوان

قال أقصى القضاة أبو الحسن الماوردي: الديوان محفوظ بحفظ ما تعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال.

وفى تسميته ديوانا وجهان: أحداهما أن كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم، فقال: «ديوانه»، أى مجانين، فسمى موضعهم بهذا الاسم، ثم حذفت الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفا للاسم فقيل ديوان.

والثاني: أن الديوان اسم بالفارسية للشياطين، فسمى الكتاب باسمهم لحذقهم بالأمور، ووقوفهم على الجلى والخفي، وجمعهم لما شذ وتفرق، واطلاعهم على ما قرب وبعد. ثم سمى مكان جلوسهم باسمهم فقيل ديوان. انتهى.

واعلم أن كتابة الديوان على ثلاثة أقسام: كتابة الجيوش، وكتابة الخراج، وكتابة الإنشاء والمكاتبات. ولا بد لكل دولة من استعمال هذه الأقسام الثلاثة. وقد أفرد العلماء فى كتابة الإنشاءات عدة مصنفات، ولم أر أحدا جمع شيئا فى كتابة الجيوش والعساكر.

وكانت كتابة الدواوين فى صدر الاسلام أن يجعل ما يكتب فيه صحفا مدرجة. فلما انتقضت أيام بنى أمية، وقام عبد الله بن محمد أبو العباس السفاح، استوزر خالد بن برمك(٢٨٥) بعد أبى سلمة حفص بن سليمان الخلال(٢٨٦)، فجعل الدفاتر فى الدواوين من الجلود، وكتب فيها وترك الدروج... إلى أن تصرف جعفر بن يحيي بن خالد بن برمك(٢٨٧) فى الأمور أيام الرشيد، فاتخذ الكاغد، وتداوله الناس من بعده إلى اليوم.

وذكر أبو النمر الوراق قال: حدثنى أبو حازم القاضى قال: قال لى أبو الحسن بن المدبر: لو عمرت مصر كلها لوفت بأعمال الدنيا.

وقال: إن أرض مصر مساحتها للزراعة ثمانية وعشرون ألف ألف فدان، وانما المعمر منها ألف ألف فدان.

قال: وقال لى المدبر: أنه كان يتقلد ديوان المشرق وديوان المغرب، قال: ولم أبت قط ليلة من الليالى حتى أنهيه ولا بقيته، وتقلدت مصر فكنت ربما نمت وقد بقى على شئ من العمل فأستتمه إذا أصبحت.

---

(٢٨٥) هو خالد بن برمك بن جاماس بن يشتاسف أبو البرامكة، ولد سنة ٩٠هـ/ ٧٠٩م ومات ١٦٣هـ/ ٧٨٠م، وأول من تمكن منهم فى دولة بنى العباس، كان أبوه «برمك» من مجوس بلخ، وتقلد خالد قسمة الغنائم بين الجند فى عسكر قحطبة بن شبيب بخراسان.
أنظر: خزانة البغدادى ١/ ٥٤٢، مرآة الجنان ١/ ٣٣٤ و ٣٥٢، ٤٠٧، ٤٢٥، الوزراء والكتاب ٨٧-١٥١، العبر ٣/ ٢٢٣، وفيات الأعيان ١/ ١٠٦.

(٢٨٦) هو حفص بن سليمان الهمدانى الخلال أبو سلمة، أول من لقب بالوزارة فى الإسلام، كانت إقامته قبل ذلك فى الكوفة وأنفق أموالاً كثيرة فى سبيل الدعوة العباسية، مات سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م.
أنظر: وفيات الأعيان ١/ ١٦٣، الفخرى ١١١، تهذيب ابن عساكر ٤/ ٣٧٧، البداية والنهاية ١٠/ ٥٥.

(٢٨٧) هو جعفر بن يحيي بن خالد البرامكى أبو الفضل وزير الرشيد العباسى ولد سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م ومات سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٣م.
أنظر: البيان والتبيين ١/ ٨٥، الوزراء والكتاب ٢٠٤، البداية والنهاية ١/ ١٨٩ و ١٩٤، تاريخ بغداد ٧/ ١٥٢، النجوم الزاهرة ٢/ ١٢٣.

ذكر ديوان العساكر والجيوش

يقال إن أول من وضع ديوان الجند بخيلهم كيهراسف أحد ملوك الطبقة الثانية من الفرس، وإن كيقباذ قبله كان قد أخذ العشر من الغلات وصرفه فى أرزاق جنده.

وأما فى الإسلام فما خرجه البخارى ومسلم، من حديث حذيفة رضى الله عنه، قال: قال النبى ﷺ: «اكتبوا لى من تلفظ بالاسلام من الناس» فكتبنا له ألفا وخمسمائة رجل... الحديث، ذكره البخارى فى باب كتابة الإمام الناس.

وللبخارى من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إنى اكتتبت فى غزوة كذا وكذا وامرأتى حاجة، قال: «ارجع فاحجج مع امرأتك».

وقال عمرو بن منبه، عن معمر، عن قتادة، قال: آخر ما أتى به النبى ﷺ ثمانمائة ألف درهم من البحرين، فما قام من مجلسه حتى أمضاه.

ولم يكن للنبى ﷺ بيت مال ولا لأبى بكر. وأول من اتخذ بيت مال عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وقال ابن شهاب: عمر أول من دون الدواوين.

وروى ابن سعد، عن عائشة رضى الله عنها، قالت: قسم أبى الفئ عام أول، فأعطى الحر عشرة، والمملوك عشرة، والمرأة عشرة، وأمتها عشرة. ثم قسم العام الثاني، فأعطاهم عشرين عشرين.

فقيل: ان سببه أن أبا هريرة رضى الله عنه قدم على عمر رضى الله عنه بمال من البحرين، فقال له عمر: ماذا جئت به؟

فقال: خمسمائة ألف درهم.

فاستكثره عمر وقال: أتدرى ما تقول؟

قال: نعم مائة ألف خمس مرات.

فقال عمر: أطيب هو؟

قال: لا أدري.

فصعد عمر المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس قد جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلا، وإن شئتم عددنا لكم عدا.

فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت الأعاجم يدونون ديوانا لهم، فدون أنت ديوانا... فدون عمر.

وقيل بل سببه أن عمر بعث بعثا وعنده الهرمزان، فقال لعمر: هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال، فإن تخلف منهم رجل من أين يعلم صاحبك به، فأثبت لهم ديوانا.

فسأله عن الديوان حتى فسره له.

فاستشار المسلمين فى تدوين الدواوين، فقال له على بن أبى طالب: تقسم كل سنة ما اجتمع عندك من المال، ولا تمسك منه شيئا.

وقال عثمان رضى اللّه عنه: أرى مالا كثيرا يسع الناس، فان لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر.

وقال خالد بن الوليد رضى اللّه عنه: قد كنت بالشام فرأيت ملوكها دونوا ديوانا وجندوا جنودا، فدون ديوانا وجند جنودا، فدون ديوانا وجند جنودا.

فأخذ بقوله، ودعا عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم ـ وكانوا كتاب قريش ـ فقال: اكتبوا الناس على منازلهم.

فبدأوا ببنى هاشم وكتبوهم، ثم أتبعوهم أولاد أبى بكر وقومه، ثم عمر وقومه، وكتبوا القبائل ووضعوها على الخلافة، ثم رفعوا ذلك إلى عمر رضى اللّه عنه.

فلما نظر فيه قال: لا، ولكن ابدأوا بقرابة رسول اللّه ﷺ، الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه اللّه.

فشكره العباس رضى اللّه عنه على ذلك، وقال: وصلت رحمك.

وقد اختلف فى السنة التى فرض فيها عمر رضى اللّه عنه الأعطية ودون الدواوين، فقال الكلبي: فى سنة خمس عشرة. وحكى ابن سعد عن عمر الواقدى أنه جعل ذلك فى سنة عشرين. قال الزهري: وكان ذلك فى المحرم سنة عشرين من الهجرة.

وقيل: لما فتح اللّه على المسلمين القادسية، وقدمت على عمر رضى اللّه عنه الفتوح من الشام، جمع المسلمين وقال: ما يحل للوالى من هذا المال؟

فقالوا جميعا: أما الخاصة فقوته وقوت عياله لا وكس ولا شطط، وكسوته وكسوتهم للشتاء والصيف، ودابتان إلى جهاده وحوائجه وحملانه إلى حجته وعمرته، والقسم بالسوية، وأن يعطى أهل البلاد على قدر بلادهم، ويرم أمور الناس بعد، ويتعاهدهم فى الشدائد والنوازل حتى تنكشف، ويبدأ بأهل الفىء ثم يجوزهم إلى كل مغلوب ما بلغ الفىء.

وقال الضحاك عن ابن عباس رضى اللّه عنهما: لما افتتحت القادسية وصالح من صالح من أهل السواد، وأفتتحت دمشق وصالح أهل الشام، قال عمر رضى الله عنه للناس: اجتمعوا فأحضرونى علمكم فيما أفاء اللّه على أهل القادسية وأهل الشام.

فاجتمع رأى على وعمر، رضى اللّه عنهما، أن يأخذوه من قبل القرآن، فقالوا: ما أفاء اللّه على رسوله من أهل القرى (يعنى من الخمس) فلله وللرسول (يعنى من اللّه الأمر وعلى الرسول القسم) ولذا القربى واليتامى والمساكين.

ثم فسروا ذلك بالآية الأخرى التى تليها «للفقراء المهاجرين...» الآية، فأخذوا أربعة الأخماس على ما قسم عليه: الخمس فيمن بدئ به وثنى وثلث، وأربعة أخماس لمن أفاء اللّه عليه المغنم.

ثم استشهدوا على ذلك بقوله تعالي: **﴿واعملوا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه..﴾**(٢٨٨) الآية من تلك الطبقات الثلاث، وأربعة أخماس لمن أفاء اللّه عليه، فقسم الأخماس على ذلك.

---

(٢٨٨) ٤١م الأنفال ٨.

فاجتمع على ذلك عمر وعلي، وعمل به المسلمون بعد ذلك، فبدأ بالمهاجرين ثم الأنصار ثم التابعين الذين شهدوا معهم وأعانوهم، ثم فرض الأعطية من الجزا على من صالح أو دعا إلى الصلح من حرابة، فرده عليهم بالمعروف.

وليس فى الجزا أخماس: الجزا لمن منع الذمة ووفى لهم ممن ولى ذلك منهم، ولمن لحق بهم فأعانهم بأسوة، ألا أن يواسوا بفضله عن طيب أنفس منهم من لم ينل مثل الذى نالوا.

وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، قال عمر رضى اللّه عنه: إنى مجند المسلمين على الأعطية، ومدونهم ومتحرى الحق.

فقال عبد الرحمن بن عوف وعثمان وعلى رضى اللّه عنهم: ابدأ بنفسك

قال: لا أبدأ إلا بعم رسول اللّه ﷺ، ثم الأقرب فالأقرب منهم من رسول اللّه.

ففرض للعباس وبدأ به، ثم فرض لأهل بدر خمسة آلاف، ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف، ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر رضى اللّه عنه عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف.

ودخل فى ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبى بكر ومن ولى الأيام قبل القادسية، كل هؤلاء على ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف، ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام أصحاب اليرموك ألفين ألفين، وفرض لأهل البلاد النازح منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة.

فقيل له: لو ألحقت أهل القادسية بأهل الأيام؟

فقال: لم أكن لألحقهم بدرجة من لم يدركوا، لاها الله إذن.

وقيل له: قد سويتهم - على بعد دارهم - بمن قد قربت داره وقاتل عن فنائه.

فقال: هم كانوا أحق بالزيادة لأنهم كانوا ردء الحقوق وشجى للعدو، وأيم الله ما سويتم حتى استطبتهم، فهلا قال المهاجرون مثل قولهم حين سوينا بين السابقين من المهاجرين وبين الأنصار، وقد كانت نصرة الأنصار بفنائهم وهاجر إليهم المهاجرون من بعد؟!

وفرض للروادف الذين ردفوا بعد افتتاح القادسية واليرموك بعد الفتح، ثلاثمائة ثلاثمائة... سوى كل طبقة فى العطاء ليس بينهم تفاضل، قويهم وضعيفهم، عربيهم وأعجميهم فى طبقاتهم سواء.

حتى إذا حوى أهل الأمصار من حووا من سباياهم، وردفت المربع من الروادف، فرض لهم على خمسين ومائتين، وفرض لمن ردف من الروادف الخمس على مائتين. فكان آخر من فرض له عمر رضى الله عنه أهل هجر على مائتين.

ومات عمر بعد ذلك، وأدخل فى أهل بدر أربعة من غير أهل بدر، الحسن والحسين وأبا ذر وسلمان.

وقال أبو سلمة : فرض عمر للعباس على خمسة وعشرين ألفا، وقال الزهري: على أثنى عشر ألفا.

وجعل نساء أهل بدر الى الحديبية على أربعمائة أربعمائة، ونساء من بعد ذلك إلى الأيام قبل القادسية على ثلثمائة ثلثمائة، ثم نساء أهل القادسية على مائتين مائتين، ثم سوى بين النساء بعد ذلك.

وجعل للصبيان من أهل بدر وغيرهم مائة مائة، ثم دعا ستين مسكينا فأطعمهم خبزا بملح، فأحصوا ما أكلوه فوجدوه يخرج من جزيتين، ففرض لكل انسان يقوم بالأمر له ولعياله جزيتين جزيتين فى كل شهر، مسلمهم وكافرهم.

وفرض لأزواج النبى ﷺ عشرة آلاف عشرة آلاف، إلا من جرى عليه البيع، فقالت أمهات المؤمنين: ما كان رسول الله ﷺ يفضلنا عليهن فى القسمة ولكن كان يسوى بيننا فسوى بيننا، فجعلهن على عشرة آلاف عشرة آلاف، وفضل عائشة رضى الله عنها بألفين، فأبت، فقال: لفضل منزلتك عند رسول الله ﷺ، فإذا أخذتها فشأنك.

وكان الناس أعشارا، فكانت العرفاء ثلاثة آلاف عريف، كل عريف على عشرة، ورزق الخيل على أعرافها. فما زالوا كذلك حتى اختلطت الكوفة بالبصرة، فغيرت العرفاء والأعشار، وجعلت أسباعا، وجعل مائة عريف، على كل مائة ألف درهم عريف.

وكانت كل عرافة من القادسية خاصة، ثلاثة وأربعين رجلا وثلاثا وأربعين امرأة وخمسين من العيال، لهم مائة ألف درهم. وكل عرافة من أهل الأيام عشرين رجلا على ثلاثة آلاف وعشرين امرأة، ولكل عيل مائة على مائة ألف درهم. وكل عرافة من الرادفة الأولى ستين رجلا وستين امرأة وأربعين من العيال، ممن كان رجالهم ألحقوا على ألف وخمسمائة، على مائة ألف درهم.

وكان العطاء يدفع إلى أمراء الأسباع وأصحاب الرايات. والرايات على أيادى العرب. فيدفعونه إلى العرفاء والنقباء والأمناء، فيدفعونه إلى أهله فى دورهم...

فمات عمر رضى الله عنه والأمر على ذلك.

وقد عزم قبل موته أن يجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف، وقال: لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف: ألف يخلفها الرجل فى أهله، وألف يتزودها معه فى سفره، وألف يتجهز بها، وألف يترفق بها... فمات وهو فى ارتياد ذلك قبل أن يفعل.

وكان يقرى البعوث على قدر المسافة: إن كان بعيدا فسنة، وان كان دون ذلك فستة أشهر، فاذا أخل الرجل بثغرة، نزعت عمامته وأقيم فى مسجد حيه، فقيل: هذا فلان قد أخل.

وقال سيف بن عمر: أول عطاء أخذ سنة خمس عشرة.

وكان عمرو بن العاص، رضى اللّه عنه، يبعث من مصر إلى عمر بن الخطاب، رضى اللّه عنه، الجزية بعد حبس ما كان يحتاج إليه.

فلما استخلف عثمان، رضى اللّه عنه، لثلاث مضين من المحرم سنة أربع وعشرين، زاد الناس مائة. وكان أول من زاد ورفد أهل الأمصار. وهو أول من رفدهم وصنع فيهم الصنائع، فاستن به الخلفاء فى الزيادة.

وكان عمر قد فرض لكل نفس منفوسة من أهل الفئ فى رمضان درهما فى كل يوم، وفرض لأمهات المؤمنين درهمين، فقيل له: لو صنعت لهم به طعاما فجمعتهم عليه؟

فقال: أشبعوا الناس فى بيوتهم.

فأقر عثمان رضى اللّه عنه ذلك، وزاد فوضع لهم طعام رمضان، وقال: هو للمتعبد الذى يتخلف فى المسجد، ولابن السبيل، وللمعترين بالناس فى رمضان... فاقتدى به الخلفاء من بعده.

وكان بمصر، فى خلافة معاوية بن أبى سفيان، أربعون ألفا. وكان منهم أربعة آلاف فى مائتين مائتين. وكان إنما يحمل إلى معاوية ستمائة ألف دينار عن فضل أعطيات الجند وما يصرف إلى الناس.

وكان معاوية قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلا يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول: هل ولد الليلة فيكم مولود؟ وهل نزل بكم نازل؟ فيقال: ولد لفلان غلام ولفلان جارية، فيكتب أسماءهم، ويقال: نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله، فيسميه وعياله. فإذا فرغ من القيل، أتى الديوان حتى يثبت ذلك.

وأعطى مسلمة بن مخلد الأنصاري، أمير مصر، أهل الديوان أعطياتهم وأعطيات عيالهم وأرزاقهم ونوائبهم ونوائب البلاد من الجسور، وأرزاق الكتبة وحملان القمح إلى الحجاز، وبعث إلى معاوية ستمائة ألف دينار فضلا.

وأول تدوين كان بمصر على يد عمرو بن العاص رضى اللّه عنه، ثم دون عبد العزيز بن مروان تدوينا ثانيا، ودون قرة بن شريك التدوين الثالث، ثم دون بشر بن صفوان تدوينا رابعا، ثم لم يكن بعد تدوين بشر شىء له ذكر إلا ما كان من إلحاق قيس بالديوان فى خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان.

فلما انقرضت دولة بنى أمية، وغلبت المسودة بنو العباس، أحدثوا أشياء... حتى اذا مات عبد اللّه المأمون بن هارون الرشيد لسبع خلون من رجب سنة ثمانى عشرة ومائتين، وبويع أخوه المعتصم أبو إسحاق محمد بن هارون، كتب إلى كندر بن نصر الصندى أمير مصر، يأمره باسقاط من فى ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم، ففعل ذلك.

وكان مروان بن محمد الجعدي، آخر خلائف بنى أمية، قطع عن أهل مصر العطاء سنة، ثم كتب اليهم كتابا يعتذر فيه: «إنى انما حبست عنكم العطاء فى السنة الماضية لعدو حضرنى

فاحتجت إلى المال، وقد وجهت إليكم بعطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنة، فكلوه هنيئا مريئا، وأعوذ بالله أن أكون أنا الذى يجرى الله قطع العطاء على يديه».

ولما قطع كندر عطاء أهل مصر، خرج يحيي بن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام، وقال له: هذا أمر لا يقوم فينا أفضل منه لأنا منعنا حقنا وفيئنا ... فاجتمع إليه نحو خمسمائة رجل.

ومات كندر فى ربيع الآخر سنة تسع عشرة ومائتين. وولى ابنه المظفر مصر من بعده، فسار إلى يحيي، وقاتله فى بحيرة تنيس وأخذه أسيرا.

فانقرضت دولة العرب من مصر، وصار جندها العجم والموالى من عهد المعتصم الى أن ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون مصر، فاستكثر من العبيد، وبلغت عدتهم زيادة على أربعة وعشرين ألف غلام تركى وأربعين ألف أسود وسبعة آلاف حر مرتزق. ثم استنجد ابنه الأمير أبو الجيش خمارويه بعده عدة من شناترة حوف مصر.

فلما كانت إمارة الأمير أبى بكر محمد بن طغج الإخشيد على مصر، بلغت عدة عساكره بمصر والشام أربعمائة ألف، تشتمل على عدة طوائف. ثم إن الأستاذ أبا المسك كافورا الإخشيدى استنجد عدة من السودان فى أيام تحكمه بمصر.

فلما تغلب الإمام المعز لدين الله أبو تميم معد الفاطمى على مصر، صارت عساكرها ما بين كتامة وزويلة ونحوها من طوائف البربر وفيهم الروم والصقالية وهم فى العدد كما قيل:
«ومنهم معد، ولم تكن جيوشه تعد، ولا لما أوتيه كان حد، من كل ما يسعد فيه جد».

وحتى قيل: إنه لم يطأ الأرض - بعد جيش الإسكندر بن فيلبش المقدونى - أكثر عددا من جيوش المعز.

فلما قام فى الخلافة بمصر من بعده ابنه العزيز بالله أبو منصور نزار، استخدم الديلم والأتراك، واختص بهم.

وذكر الأمير المختار عبد الملك المسبحى فى تاريخه: إن خزانة الخاص حملها - لما خرج العزيز إلى الشام - عشرون ألف جمل، خارجا عن خزائن القواد وأكابر الدولة.

وذكر ابن ميسر فى تاريخة : أن عبيد السيدة أم المنتصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله أبى على منصور بن العزيز بالله خاصة، كانت عدتهم خمسين ألف عبد سوى طوائف العسكر.

ورأيت بخط الأسعد بن مماتي : أن عدة الجيوش بمصر، فى أيام رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، كانت أربعين ألف فارس وستة وثلاثين ألف راجل.

وزاد غيره «وعشرة شوانى بحرية فيها عشرة آلاف مقاتل»... وهذا عند انقراض الدولة الفاطمية.

فلما زالت دولتهم على يد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، أزال جند مصر من العبيد السود والأمراء المصريين والعربان والأرمن وغيرهم، واستنجد عسكرا من الأكراد والأتراك خاصة، وبلغت عدة عساكره بمصر اثنا عشر ألف فارس لا غير.

فلما مات افترقت من بعده، ولم يبق بمصر مع ابنه الملك العزيز عثمان سوى ثمانية آلاف فارس وخمسمائة فارس، إلا أن فيهم من له عشرة أتباع، وفيهم من له عشرون، وفيهم من له أكثر من ذلك إلى مائة تبع لرجل واحد من الجند، فكانوا إذا ركبوا ظاهر القاهرة يزيدون على مائتى ألف.

ثم لم يزالوا فى افتراق واختلاف حتى زالت دولتهم بقيام عبيدهم المماليك الأتراك، فحذوا حذو مواليهم بنى أيوب، واقتصروا على الأتراك وشيء من الأكراد، واستنجدوا من المماليك التى تجلب من بلاد الترك شيئا كثيرا... حتى يقال إن عدة مماليك الملك المنصور قلاوون(٢٨٩) كانت تسعة آلاف مملوك، ويقال اثنى عشر ألفا. وكانت عدة مماليك ولده الأشرف خليل بن قلاوون اثنى عشر ألف مملوك.

---

(٢٨٩) هو خليل بن قلاوون الصالحى الملك الأشرف صلاح الدين أبن السلطان الملك المنصور من ملوك مصر، ولى بعد وفاة أبيه، ولد سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م، ومات سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤م.
انظر : فوات الوفيات ١/ ١٥١، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٢٣٨، النجوم الزاهرة ٨/ ٣، السلوك للمقريزى ١/ ٧٥٦-٧٩٣، بدائع الزهور ١/ ١٢١.

ثم لم تبلغ بعد ذلك قريبا من هذا... إلى أن زالت دولة بنى قلاوون، فى شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة، بالملك الظاهر برقوق، فأخذ فى محو المماليك الأشرفية، وأنشأ لنفسه دولة المماليك الجركسية بلغت عدتهم - ما بين مشترى ومستخدم - أربعة آلاف أو تزيد قليلا.

فلما قام من بعده ابنه الناصر فرج افترقوا واختلفوا، فلم يقتل حتى هلك كثير منهم بالقتل وغيره.

وعساكر مصر فى الدولة التركية على قسمين: أجناد الحلقة، والمماليك السلطانية.

وأكثر ما كانت أجناد الحلقة فى أيام الناصر محمد بن قلاوون، فإنها بلغت - على ما رأيته فى جرائد ديوان الجيش بأوراق الروك الناصرى - أربعة وعشرين ألف فارس. ثم مازالت تنقص حتى صارت اليوم - مع قلة عدتها - سواء منها الألف والواحد، فإنها لا تنفع ولا تدفع.

وأما المماليك فانها اليوم قليل عددها، بحيث لو جمعت أجناد الحلقة مع المماليك السلطانية، لا تكاد أن تبلغ خمسة آلاف فارس، يصلح منها لأن يباشر القتال ألف أو دونها.

وهى اليوم قسمان: أجناد الحلقة، والمماليك السلطانية. والمماليك السلطانية ثلاثة أقسام: ظاهرية، وناصرية، ومؤيدية، والمؤيدية ما بين حكمية ونوروزية ومن استجده المؤيد.

وأن خوفى ليكثر أن يكون الحال بعد الملك المؤيد أبى النصر شيخ - خلد الله ملكه - يتلاشي، إلى أن يؤيد الله الملك بابنه الأمير صارم الدين إبراهيم - شد الله به أزره - فإنه فتح من البلاد الرومية ما لا ملكه أحد من ملوك مصر فى الدولة الاسلامية قبله.

«والشبل فى المخبر مثل الأسد»

«وابن السرى اذا سرى أسرا هما»

«ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده»

بأبه اقتدى عدى فى الكرم

ومن يشابه أبه فما ظلم

«إن الأصول عليها ينبت الشجر» .

ثم لما ملك الأشرف برسباي، صارت المماليك سبع طوائف : ظاهرية، وناصرية، ومؤيدية، ونوروزية، وحكيمة، وططرية، وأشرفية... كل طائفة منها مباينة لجميعها، فلذلك اضمحلت شوكتهم وانكسرت حدتهم، وأمنت على السلطان غائلهم، ولم يخف ثورتهم لتفرقهم وإن كانوا مجتمعين، وتباينهم وإن كانوا فى الظاهر متفقين.

واعلم أنه كانت عادة الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس والفاطميين، من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أن تجبى أموال الخراج، ثم تفرق من الديوان فى الأمراء أو العمال والأجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم. وكان يقال لذلك فى صدر الإسلام «العطاء».

وما زال الأمر على ذلك ... إلى أن كانت دولة العجم، فغير هذا الرسم، وفرقت الأراضى إقطاعات على الجند.

وأول من عرف أنه فرق الإقطاعات على الجند، نظام الملك أبو على الحسن بن على ابن إسحاق بن العباس الطوسي، وزير ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجون، ثم وزر ابنه ملكشاه بن ألب أرسلان، وذلك أن مملكته اتسعت فرأى أن يسلم إلى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقل على قدر إقطاعه، لأنه رأى أن فى تسليم الأراضى إلى المقطعين عمارتها لاعتناء مقطعيها بأمرها... بخلاف ما إذا شمل جميع أعمال المملكة ديوان واحد، فإن الخرق يتسع ويدخل الخلل فى البلاد.

ففعل نظام الملك ذلك، وعمرت به البلاد وكثرت الغلات، واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك، من أعوام بعض وثمانين وأربعمائة إلى يومنا هذا.

وكانت الخلفاء ترزق من بيت المال، فذكر عطاء بن السائب فى حديث، أن أبا بكر رضى الله عنه، لما استخلف، فرض له كل يوم شطر شاة وما يكسى به الرأس والبطن.

وذكر عن حميد بن هلال، أنه فرض له بردان اذا أخلقهما وضعهما وأخذ مثلهما، وظهر إذا سافر، ونفقته على أهله كما كان ينفق قبل أن يستخلف.

وذكر ابن الأثير فى تاريخه أن الذى فرضوا له ستة آلاف درهم فى السنة.

وفرض لعمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، لما استخلف، ما يصلحه ويصلح عياله بالمعروف، وقال له علي رضى اللّه عنه: ليس لك غيره، فقال القوم: القول ما قال علي، يأخذ قوته.

وفرض عمر لمعاوية بن أبى سفيان، على عمله فى الشام، عشرة آلاف دينار فى السنة، وقيل بل رزقة ألف دينار. وهو أشبه.

ذكر القطائع والإقطاعات

يقال: اقتطع طائفة من الشيء: أخذها والقطعية: ما اقتطعه منه. وأقطعنى إياها: أذن لى فى اقتطاعها، واستقطعه إياها: سأله أن يقطعه إياها. وأقطعه نهرا وأرضا: أباح له ذلك.

وقد أقطع رسول اللّه ﷺ، وتألف على الإسلام قوما. وأقطع الخلفاء من بعده من رأوا فى إقطاعه صلاحا.

روى ابن أبى نجيح (٢٩٠)، عن عمرو بن شعيب (٢٩١) عن أبيه، أن رسول الله ﷺ أقطع أناسا من مزينة (أو جهينة) أرضا فلم يعمروها، فجاء قوم فعمروها. فخاصمهم الجهينيون (أو المزينيون) إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فقال عمر: لو كانت منى أو من أبى بكر لرددتها، ولكنها قطيعة من رسول اللّه ﷺ. ثم قال: من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها، فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها.

وقال هشام بن عروة عن أبيه: أقطع رسول اللّه ﷺ الزبير أرضا فيها نخل من أموال بنى النضير، وذكر أنها أرض يقال لها الجرف.

---

(٢٩٠) هو عبدلله بن أبى نجيح يسار الثقفى المكي، روى عن أبيه وعطاء ومجاهد وعكرمة وطاووس وجماعة، مات سنة ١٣١هـ.
أنظر: تهذيب التهذيب ٦/ ٥٤ـ٥٥ .

(٢٩١) هو عمرو بن شعيب بن محمد السهمى القرشى أبو إبراهيم من بنى عمرو بن العاص، من رجال الحديث كان يسكن مكة وتوفى بالطائف سنة ١١٨هـ.
أنظر: تهذيب التهذيب ٨/ ٤٨ـ٥٥، ميزان الاعتدال ٢/ ٢٨٩ .

وذكر أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أقطع العقيق أجمع الناس حتى جازت قطيعة عروة، فقال ابن الزبير: المستقطعون فند اليوم، فإن يك فيه خير فتحت قدمي، قال خوات بن جبير: أقطعنيه. فأقطعه إياه.

وقال سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، قال: لما قدم النبى ﷺ المدينة أقطع أبا بكر وأقطع عمر بن الخطاب رضى الله عنهما.

وقال أشعث بن سوار، عن حبيب بن أبى ثابت، عن صلت المكي، عن أبى رافع قال: أعطى النبى ﷺ قوما أرضا، فعجزوا عن عمارتها فباعوها فى زمن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه بثمانية آلاف دينار، أو بثمانمائة ألف درهم، فوضعوا أموالهم عند على بن أبى طالب رضى اللّه عنه. فلما أخذوها وجدوها ناقصة، فقالوا: هذا ناقص.

قال: احسبوا زكاته.

قال: فحسبوا زكاته، فوجدوه وافيا.

فقال: أحسبتم أن أمسك مالا ولا أزكية.

وقد سأل تميم الدارى رسول اللّه ﷺ، أن يقطعه عيون البلد الذى كان منه بالشام قبل فتحه، ففعل.

وسأله أبو ثعلبة الخشني، أن يقطعه أرضا كانت بيد الروم، فأعجبه ذلك وقال: ألا تسمعون ما يقول؟

فقال: والذى بعثك بالحق ليفتحن عليك فكتب له بذلك كتابا.

وقال ثابت بن سعد، عن أبيه عن جده: أن الأبيض بن جمال استقطع رسول اللّه، ﷺ، ملح مأرب، فأقطعه.

فقال الأقرع بن حابس التميمي: يا رسول اللّه إنى وردت هذا الملح فى الجاهلية، وهو بأرض ليس فيها ملح من ورده أخذه، وهو مثل الماء العذب بالأرض.

فاستقال الأبيض، فقال: قد أقلتك على أن تجعله منى صدقة.

فقال النبى ﷺ: «هو منك صدقة، وهو مثل الماء العذب من ورده أخذه».

وقال كثير بن عبد الله بن عوف المزني(٢٩٢)، عن أبيه عن جده: أقطع رسول اللّه ﷺ بلال ابن الحارث المعادن القبلية جليتها وغورتها.

وقال مالك، عن ربيعة، عن قوم من علمائهم: إن رسول اللّه ﷺ أقطع بلال بن الحارث المزنى معادن بناحية الفرع.

وعن ربيعة، عن الحارث بن بلال، عن أبيه بلال بن الحارث، أن النبى ﷺ أقطعه العقيق أجمع.

وعن حماد بن سلمة، عن أبى مكين، عن أبى عكرمة مولى بلال بن الحارث، قال: أقطع رسول اللّه ﷺ بلالا أرضا فيها جبل معدن، فباع بنو بلال عمر بن عبد العزيز أرضا منها، فظهر فيها معدن (أو قال معدنان)، فقالوا: إنما بعناك أرض حرث ولم نبعك المعادن، وجاءوا بكتاب النبى ﷺ لهم فى جريدة. فقبلها عمر وفتح ومسح بها عينيه، وقال لقيِّمه: انظر ما خرج منها وما أنفقت فقاصهم بالنفقة، ورد عليهم الفضل.

واصطفى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه من أرض السواد أموال كسرى وأهل بيته، وما هرب عنه أربابه أو هلكوا، فكان مبلغ غلته تسعة آلاف ألف درهم، كان يصرفها فى مصالح المسلمين ولم يقطع شيئا منها.

ثم إن عثمان رضى اللّه عنه أقطعها، لأنه رأى إقطاعها أوفر لغلتها من تعطيلها، وشرط على من أقطعها أن يأخذ منه حق الفيء، فكان مبلغ غلته خمسين ألف ألف درهم، كان منها صلاته وعطاياه. ثم تناقلها الخلفاء بعده.

فلما كان عام الجماجم سنة اثنين وثمانين، فى فتنة عبد الرحمن بن الأشعث، أحرق الديوان، وأخذ كل قوم ما يليهم.

---

(٢٩٢) هو كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف بن زيد اليشكرى المزنى المدني. ثقة، مات سنة ١٥٦هـ، وقيل سنة ١٦٠هـ.
أنظر: تهذيب التهذيب ٨/ ٤٢١ - ٤٢٣.

وأقطع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ابن سندر منية الأصبغ، فحاز منها لنفسه ألف فدان.

وقال وكيع، عن سفيان، عن جابر الجعفي، عن عامر: لم يقطع أبو بكر ولا عمر ولا على رضى الله عنهم، وأول من أقطع القطائع عثمان رضى الله عنه، وبيعت الأرضون فى خلافة عثمان.

قال الليث بن سعد: ولم يبلغنا أن عمر بن الخطاب أقطع أحدا من الناس شيئا من أرض مصر إلا ابن سندر، فإنه أقطعه أرض منية الأصبغ، فلم تزل له حتى مات، فاشتراها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان من ورثته، فليس بمصر قطيعة أقدم منها ولا أفضل.

وقال الأعمش، عن إبراهيم بن المهاجر، عن موسى بن طلحة، قال: أقطع عثمان رضى الله عنه عبد الله بن مسعود النهرين، وعمار بن ياسر أسنسا، وأقطع خبابا وصهيبا، وأقطع سعد ابن أبى وقاص قرية هرمز. وكان عبد الله بن مسعود وسعد يعطيان أرضهما بالثلث والربع.

وقال سيف بن عمر، عن عمرو بن محمد عن عامر قال: أقطع الزبير وخباب وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وابن هبار أزمان عثمان فإن يك عثمان أخطأ، فالذين قبلوا منه الخطأ أخطأوا، وهم الذين أخذنا عنهم ديننا.

وأقطعَ عمر بن الخطاب رضى الله عنه طلحة وجرير بن عبد الله والربيل بن عمر، وأقطع أبا مفرز دار النيل فى عدة ممن أخذنا عنه. وإنما القطائع على وجه النفل من خمس ما أفاء الله.

وكتب عمر رضى الله عنه، إلى عثمان بن حنيف، مع جرير بن عبد الله البجلي: «أما بعد، فأقطع جرير بن عبد الله قدر ما يقوته، لا وكس ولا شطط».

فكتب عثمان إلى عمر: «إن جريرا قدم على بكتاب منك تقطعه ما يقوته، فكرهت أن أمضى ذلك حتى أراجعك فيه».

فكتب إليه: «صدق جرير، فأنفذ ذلك، وقد أحسنت فى مؤامرتي».

وأقطع أبو موسى الأشعري، وأقطع على بن أبى طالب رحبة كردوس بن هاني، وأقطع سويد بن غفلة الجعفي.

قال سيف، عن ثابت بن هرثمة، عن سويد بن غفلة، قال: استقطعت عليا، فقال: اكتب «هذا ما أقطع على سويدا: أرضا لدوابه ما بين كذا إلى كذا، ما شاء الله».

وذكر أبو القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم ما أقطعه معاوية بن أبى سفيان ومن بعده من الخلفاء، من دور مصر، فأورد شيئا كبيرا.

وقد كان خلفاء بنى أمية، وخلفاء بنى العباس، يقطعون الأراضى من أرض مصر، النفر من خواصهم، لا كما هو الحال اليوم، بل يكون مال خراج أرض مصر، يصرف منه أعطية الجند وسائر الكلف، ويحمل ما يفضل إلى بيت المال. وما أقطع من الأراضى فإنه بيد من أقطعه.

وأما منذ كانت أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى يومنا هذا، فإن أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده.

وأرض مصر اليوم على سبعة أقسام:

قسم يجرى فى ديوان السلطان، وهذا القسم ثلاثة أقسام: منه ما يجرى فى ديوان الخاص، ومنه ما يجرى فى الديوان المفرد.

وقسم من أراضى مصر قد أقطع للأمراء والأجناد. وقد ذكر تفصيل ذلك عند ذكر الروك الناصري.

وقسم ثالث جعل وقفا محبسا على الجوامع والمدارس والخوانك، وعلى جهات البر، وعلى ذرارى واقفى تلك الأراضى وعتقائهم.

وقسم رابع [illegible] الأحباس، يجرى فيه أرض بأيدى قوم يأكلونها، أما عن قيامهم بمصالح مسجد أو جامع، وإما يكون لهم لا فى مقابلة عمل.

وقسم خامس قد صار ملكا يباع ويشترى ويورث ويوهب، لكونه اشترى من بيت المال.

وقسم سادس لا يزرع للعجز عن زراعته، فترعاه المواشى أو ينبت الحطب ونحوه.

وقسم سابع لا يشمله ماء النيل فهو قفر: وهذا القسم منه ما لم يزل كذلك منذ عرفت أحوال الخليقة، ومنه ما كان عامرا فى الدهر الأول ثم خرب.

وسائر هذه الأقسام مذكورة أخبارها فى هذا الكتاب، تجدها إن أنت تأملته إن شاء الله تعالى.

وقال أبو عبد الله القاسم بن سلام(٢٩٣) فى كتاب «الأموال»، فى الكلام على حديث معمر عن عبد الله بن طاووس عن أبيه طاووس، قال: قال رسول الله ﷺ: «عادى الأرض لله ولرسوله، ثم هي لكم» قلت: ما معنى ذلك؟ قال: «تكون إقطاعا». هذا الخبر أصل فى الإقطاع.

والعادي: كل أرض كان لها سكان فانقرضوا، أى فصارت خرابا، فإن حكمها إلى الإمام.

قال: وأما الأرض التى جعلها النبى ﷺ لبعض الناس - وهى عامرة لها أهل - فإعطاء الامام يكون عل وجه النفل.

ومن ذلك ما أعطاه رسول الله ﷺ تميما الداري، فإنه أعطاه أرضا بالشام من قبل أن يفتح الشام، وقبل أن يملكها المسلمون، فجعلها له نفلا من أموال أهل الحرب إذا ظهر عليهم... كما فعل نائبه نفيلة لما وهبها الشيبانى قبل افتتاح الحيرة، فأمضاها له خالد بن الوليد رضى الله عنه.

وكذلك أمضى عمر بن الخطاب رضى الله عنه لتميم الداري، لما فتحت فلسطين، ما كان النبى ﷺ نفله، انتهى.

فقد خرَّج أبو عبد الله هذه العطية المعلقة مخرج النفل الذى ينفله الإمام بعض المقاتلة.

وقال أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى فى «الأحكام السلطانية»: والإقطاع ضربان: ينقسم إلى موات وعامر، والثانى ضربان: أحدهما ما يتعين مالكه ولا نظر للسطان فيه، إلا بيتلك الأرض فى حق لبيت المال إذا كانت فى دار الإسلام. فإن كانت فى دار الحرب، حيث لم يثبت للمسلمين عليها يد، فأراد الإمام أن يقطعها ليملكها المقطع عند الظفر بها، فإنه يجوز.

---

(٢٩٣) هو القاسم بن سلام الهروى الأزدى الخزاعى بالولاء الخراسانى البغدادى أبو عبيد من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه، من أهل هراة، ولد سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٤م، ومات سنة ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م.
انظر: تذكرة الحفاظ ٢/ ٥، تهذيب التهذيب ٧/ ٣١٥، وفيات الأعيان ١/ ٤١٨، طبقات النحويين واللغويين ٢١٧.

فقد سأل تميم الدارى رسول اللّٰه ﷺ أن يعطيه عيون البلد الذى كان منه قبل أن يفتح الشام، ففعل .

وسأله أبو ثعلبة الخشنى أن يقطعه أرضا كانت بيد الروم، فأعجبه ذلك وقال: «ألا تسمعون ما يقول هذا ؟ » .

فقال: والذى بعثك بالحق ليفتحن عليك .

فكتب لله بذلك كتابا .

قال الماوردي: وهكذا لو استوهب أحد من الإمام مالا فى دار الحرب وهو على ملك أهلها، أو استوهبه شيئا من سبيها أو ذراريها ليكون أحق به إذا فتحت، جاز وصحت العطية منه - مع الجهالة بها - لتعلقها بالأمور العامة .

وقد روى الشعبى أن خزيمة بن أوس الطائى قال للنبى ﷺ: إن فتح اللّٰه عليك الحيرة فأعطنى بنت نقيلة .

فلما أراد خالد صلح أهل الحيرة، قال له خزيمة: إن رسول اللّٰه ﷺ أعطانى بنت نفيله، فلا تدخلها فى صلحك ، فشهد له بشر بن سعد ومحمد بن مسلمة، فاستثناها من الصلح ودفعها إلى خزيمة .

فاشتريت بألف ددرهم - وكانت عجزت وحالت عما عهد منها - فقيل له: قد أرخصتها، وكان أهلها يدفعون لك أضعاف ما سألت .

فقال: ما كنت أظن أن عددا يكون أكثر من ألف .

قال الماوردي: وإذا صح الإقطاع والتمليك على هذا الوجه، نظر حال الفتح: فإن كان صلحا، خلصت الأرض لمقطعها، وكانت خارجة عن حكم الصلح بالإقطاع السابق . وإن كان الفتح عنوة، كان المقطع والمستوهب أحق بما استقطعه واستوهبه من الغانمين ... ونظر فى الغانمين: فإن كانوا علموا بالإقطاع أو الهبة قبل الفتح، فليس لهم المطالبة بعوض. وإن لم يعلموا حتى فتحوا، عاوضهم الامام بما يستطيب نفوسهم من غير ذلك من الغنائم.

وقال أبو حنيفة رحمه اللّه تعالي : لا يلزم الإمام استطابة نفوسهم منه ولا من غيره من الغنائم، إذا رأى المصلحة فى ذلك.

ذكر ديوان الخراج والأموال

يقال لكتابة الخراج : قلم التصرف. وأول ما دون هذا الديوان فى الإسلام بدمشق والعراق على ما كان عليه قبل الإسلام.

وكان ديوان الشام بالرومية، وديوان العراق بالفارسية، وديوان مصر بالقبطية، فنقلت دواوين هذه الأمصار إلى العربية.

والذى نقل ديوان مصر من القبطية الى العربية عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان أمير مصر، فى خلافة الوليد بن عبد الملك، سنة سبع وثمانين، ونسخها بالعربية، وصرف أثنناش عن الديوان، وجعل عليه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص .

وأول من نقل الدواوين من الفارسية إلى العربية الوليد بن هشام بن مخزوم بن سليمان ابن ذكوان، وتوفى سنة اثنتين وعشرين ومائتين .

والأكثرون على أن الذى نقل ديوان العراق إلى العربية صالح بن عبد الرحمن(٢٩٤) كاتب الحجاج، وكان مولى لبنى سعد، وهو يومئذ صاحب دواوين العراق، وذلك بعد سنة ثمانين .

وسبب ذلك أن صالح بن عبد الرحمن هذا كان أبوه من سبى سجستان، ومهر صالح فى الكتابة، وكتب لزادان فروح كاتب الحجاج بن يوسف الثقفي، وخط بين يديه بالفارسية والعربيـة .

---

(٢٩٤) هو صالح بن عبدالرحمن التميمى بالولاء أبو الوليد، أول من حول كتابة دواوين الخراج من الفارسية إلى العربية فى العراق وكان يجيد الإنشاء فى اللغتين، مات سنة ١٠٣هـ/ ٧٢٢م.
انظر : الوزراء والكتاب ١٧ ، تاريخ ابن عساكر ٦/ ٣٧١، أدب الكتاب ١٩٢ ، الكامل فى اللغة والأدب ١/ ٢٨٨، رغبة الأمل ٥/ ١٦٨ .

فخف على قلب الحجاج، فخاف من زادان وقال له: أنت الذى رقيتنى حتى وصلت إلى الأمير، وأراه قد استخفنى ولا آمن أن يقدمنى عليك فتسقط منزلتك.

فقال زادان: لا تظن ذلك، هو أحوج إلى منى اليه، لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيرى

فقال صالح: والله لو شئت أن أحول الحساب الى العربية لحولته.

قال: فحول منه أسطرا حتى أرى ففعل.

فقال له: تمارض ... فتمارض. فبعث إليه الحجاج بطبيبه، فشق ذلك على زادان، وأمره ألا يظهر للحجاج.

فاتفق عقيب ذلك أن زادان قتل فى فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وهو خارج من موضع كان فيه إلى منزله، فاستكتب الحجاج بعده صالحا، فأعلم الحجاج بما جرى له مع زادان فى نقل الديوان، فأعجبه ذلك وعزم عليه فى إمضائه، فنقله من الفارسية إلى العربية.

وشق ذلك على الفرس، وبذلوا له مائة ألف درهم على ألا يظهر النقل، فأبى عليهم، فقال له مروان شاه بن زادان فروح: قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسة. وكان عبد الحميد بن يحيي يقول: لله در صالح، ما أعظم منته على الكتاب.

وأما ديوان الشام فإن الذى نقله من الرومية إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل. واختلف فى وقت نقله: فقيل نقل فى خلافة عبد الملك بن مروان، وقيل فى خلافة هشام بن عبد الملك.

وكان الذى يكتب على ديوان الشام سرجون بن منصور النصرانى فى أيام معاوية ابن أبى سفيان، ثم كتب بعده ابنه منصور بن سرجون.

ذكر خراج مصر في الإسلام

أول من جبى خراج مصر فى الإسلام عمرو بن العاص رضى الله عنه، فكانت جبايته اثنى عشر ألف ألف دينار، بفريضة دينارين دينارين من كل رجل. ثم جبى عبد الله بن سعد بن أبى سرح مصر أربعة عشر ألف ألف دينار.

فقال عثمان بن عفان رضى الله عنه لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الأول.

فقال: أضررتم بولدها.

وهذا الذى جباه عمرو ثم عبد الله، إنما هو من الجماجم خاصة دون الخراج.

وانحط خراج مصر بعدهما، لنمو الفساد مع الزمان وسريان الخراب فى أكثر الأرض ووقوع الحروب، فلم يجبها بنو أمية وخلفاء بنى العباس إلا دون الثلاثة آلاف الف، ما خلا أيام هشام بن عبد الملك، فإنه وصى عبيد الله بن الحبحاب عامل مصر بالعمارة

فيقال: إنه لم يظهر من خراج مصر، بعد تناقصه، كثرة الا فى وقتين:

أحدهما فى خلافة هشام بن عبد الملك، عندما ولى الخراج عبيد الله بن الحبحاب، فخرج بنفسه ومسح العامر من أراضى مصر والغامر مما يركبه ماء النيل، فوجد قانون ذلك ثلاثين ألف ألف فدان سوى ارتفاع الجرف ووسخ الأرض، فراكها كلها وعدلها غاية التعديل، فعقدت معه أربعة آلف ألف دينار ... هذا والسعر راخ، والبلد بغير مكس ولا ضريبة.

وفى سنة سبع ومائة لأول أيام هشام بن عبد الملك، وظف ابن الحبحاب بمصر طبقات معلومة منسوبة فى الدواوين، ولم تزل إلى ما بعد ذهاب بنى أمية، ومبلغها ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار وثمانمائة وسبعة وثلاثون دينارا، منها على كور الصعيد ألف ألف وأربعمائة دينار وعشرون دينارا ونصف، والباقى على كور أسفل الأرض.

ويقال : إن أسامة بن زيد جباها فى خلافة سليمان بن عبد الملك مبلغ اثنى عشر ألف ألف دينار.

والوقت الثانى فى إمارة أحمد بن طولون، لما تسلم أرض مصر من أحمد بن محمد بن مدبر، وقد خربت أرض مصر حتى بقى خراجها ثمانمائة ألف ألف دينار، فاستقضى احمد بن طولون فى العمارة وبالغ فيها، فعقدت معه أربعة آلاف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار.

وجباها أبنه الأمير أبو الجيش خمارويه بن أحمد أربعة آلاف ألف دينار ... مع رخاء الأسعار أيامئذ، فانه ربما بيع فى الأيام الطولونية القمح : كل عشرة أردب بدينار.

وذكر ابن خرداذبة أن خراج مصر فى أيام فرعون، كان ستة وتسعين ألف وثلاثة وعشرين ألفا وثمانمائة وتسعة وثلاثين دينارا.

وهذا وهم منه، فإن هذا القدر هو ما حمله إلى بيت المال بدمشق بعد أعطية أهل مصر وكلفها.

قال : وحمل منها موسى بن عيسى الهاشمى ألفى ألف ومائة ألف وثمانين ألف دينار، يعنى بعد العطاء والمؤن وسائر الكلف.

قال : وكان خراج مصر، إذا بلغ النيل سبع عشرة ذراعا وعشر أصابع، أربعة آلاف ألف دينار ومائتى ألف وسبعة وخمسين ألف دينار، والمقبوض عن الفدان دينارين ... فى خلافة المأمون وغيره.

وبلغ خراج مصر، فى أيام الأمير أبى بكر محمد بن طغج الاخشيد، ألفى ألف دينار سوى ضياعه التى كانت ملكا له. والأخشيد أول من عمل الرواتب بمصر.

وكان كاتبه ابن كلا قد عمل تقديراً عجز فيه المرتب عن الارتفاع مائتى ألف دينار، فقال له الاخشيد : كيف نعمل ؟

قال : حط من الجرايات والأرزاق، فليس هؤلاء أولى من الواجب لله

فقال : غدا تجيئنى وندبر هذا.

فلمـا أتاه من الغـد، قـال له الإخشـيـد: قـد فكرت فيـمـا قلت، فإذا أصحـاب الرواتب الضعفاء وفيهم المستورون وأ بناء النعم، ولست آخذ هذا النقص إلا منك.

فقال ابن كلا: سبحان اللّه!

فقال: تسبيحا!

وما زال به الإخشيد حتى أخذ خطه بالقيام بذلك.

فعوتب على ما صنعه، فقال: ياقوم اسمعوا إيش كان يعمل ... جاءه أحمد بن محمد بن الماردانى فقـال له: مـا بينى وبين السلطان مـعـاملة، ولا للإخـشـيـد على طريق، وهـذه هديه عشرة آلاف دينار للإخشيد وألف دينار لك.

فجاءنى وقال: لك قبل ابن الماردانى مطالبة؟

فقلت: لا.

فقال: هذه ألف دينار قد جاءتك على وجه الماء. فأعطانى ألفا وأخذ عشرة آلاف دينار.

وأهدى إلى محمد بن على الماردانى فى وقت عشرين ألف دينار على يده، فاستقللتها. فلما اجتمعنا عاتبته، فقال لي: أرسلت اليك مائة ألف دينار، ولابن كلا كاتبك عشرين ألف دينار، فأخذ المائة وأعطانى العشرين ألفا فذكرت قول محمد بن على له، فقال: ما أبرد هذا! حفظت لك المائة آلف لوقت حاجتك ... تريدها؟ خذها وأنا أعلم أنك تتلفها!

وبلغت الرواتب فى أيام كـافـور الإخـشـيدى خـمـسـائة ألف دينار فى السنة لأرباب النعم والمستورين وأجناس الناس، ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين فى الأعمال، فحسن له على بن صالح الروذبادى الكاتب أن يوفر من مال الرواتب شيئا ينتقصه من أرزاق الناس.

فساعة جلس يعمل، حكه جبينه فحكه بقلمه، والحكاك يزيد به، الى أن قطع العمل وقام لما به، فعولج حينئذ بالحديد حتى مات فى رمضان سنة سبع وأربعين وثلاثمائة.

وهـذه موعظة من الله لمن توسط الناس بالســوء ... قال تعـالى : ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهـــله﴾(٢٩٥).

ولما مات كافور، نزلت محن شديدة كثيرة بمصر، من الغلاء والفناء والفتن، فاتضع خراجها... إلى أن قدم جوهر القائد من بلاد المغرب بعساكر مولاه المعز لدين الله أبي تميم معد، فجبى الخراج لسنة ثمان وخمسين وثلثمائة : ثلاثة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ونيفا .

وأمر الوزير الناصر للدين أبو الحسين عبد الرحمن البارورى، وزير مصر فى خلافة المستنصر بالله بن الظاهر، أن يعمل قدر ارتفاع الدولة وما عليها من النفقات فعمل أرباب كل ديوان ارتفاعه وما عليه، وسلم الجميع لمتولى ديوان المجلس وهو زمام الدواوين، فنظم عليه عملا جامعا وأتاه به، فوجد ارتفاع الدولة ألفى ألف دينار : منها الشام ألف ألف دينار، وتفقاته بإزاء ارتفاعه . والريف وباقى الدولة ألف ألف دينار .

قال القاضى أبو الحسن فى كتاب « المنهاج فى علم الخراج » : وقفت على مقايسة عملت لأمير الجيوش بدر الجمالي، حين قدم مصر فى أيام الخليفة المستنصر وغلب على أمرها وقهر من كان بها من المفسدين، شرح فيها أن الذى اشتمل عليه الارتفاع فى الهلالى لسنة ثلاث وثمانين وأربعمائه، وفى الخراجى على ما يقتضيه الديوان فيه - مما كان جاريا فى الأعمال المصرية من الخراج وما يجرى معه، والمضمون والمقطع والمورد بغيره، والمحلول بالقاهرة ومصر وضواحيها وناحيتى الشرقية والغربية، من أسفل الأرض وأعمالها وتنيس ودمياط وأعمالهما والإسكندرية والبحيرة والأعمال الصعيدية العالية والدانية وواحات وعيذاب، لسنة ثمانين وأربعمائة الخراجية على الرسوم المصرية، وما كان من الأعمال الشامية التى أولها من حد الشجرتين وهو أول الأعمال الفلسطينية والأعمال الطرابلسية، ولسنة ثمان وسبعين وأربعمائة الخراجية - على ما استقرت عليه الجملة : عينا ثلاثة آلاف ألف ومائة ألف دينار ...

وأن الذى استقر عليه جملة ما كان يتأدى فى سنة ست وستين وأربعمائة الهلالية، قبل نظر أمير الجيوش، الموافقة لسنة ثلاث وستين وأربعمائة الخراجية، فكان مبلغها ألفى ألف

(٢٩٥) ٤٣ ك فاطر ٣٥ .

وثمانمائة ألف دينار، وكان الزائد للسنة الجيوشية عما قبلها ثلثمائة ألف دينار، مما أعرب عنه حسن العمارة وشمول العدل. وكان نظم هذه المقايسة سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة.

وذكر ابن ميسر أن الأفضل بن أمير الجيوش أمر بعمل تقدير ارتفاع ديار مصر، فجاء خمسة آلاف ألف دينار.

وذكر القاضى الفاضل فى مياوماته: أنه عبر البلاد من إسكندرية إلى عيذاب لسنة خمس وثمانين وخمسمائة، خارجا عن الثغور وأرباب الأموال الديوانية وعدة نواح، أربعة آلاف ألف وستمائة ألف وثلاثة وخمسين ألفا وتسعة وعشرين دينارا.

ثم تقاصرت إلى أن جباها القاضى الموفق أبو الكرم بن معصوم العاصى التنيسي: عينا خالصا إلى بيت المال، بعد المؤن والكلف، ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار إلى آخر سنة أربعين وخمسمائة. ثم بعده لم يجبها هذه الجباية أحد حتى انقرضت الدولة الفاطمية.

وسبب ارتضاع خراج مصر - بعد ما بلغ مع الروم فى آخر سنة ملكوا قبل فتح مصر عشرين ألف ألف دينارا.

ثم تقاصرت إلى أن جباها القاضى الموقف أبو الكرم بن معصوم العاصمى التنيسي: عينا خالصا إلى بيت المال، بعد المؤن والكلف، ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار إلى آخر سنة أربعين وخمسمائة. ثم بعده لم يجبها هذه الجباية أحد حتى انقرضت الدولة الفاطمية.

وسبب اتضاع خراج مصر - بعد ما بلغ مع الروم فى آخر سنة ملكوا قبل فتح مصر عشرين ألف ألف دينار - أن الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان ينفق فى كلف عمارة الأرض فإنها تحتاج أن ينفق عليها ما بين ربع متحصلها إلى ثلثه.

وآخر ما اعتبر حال أرض مصر، فوجد مدة حرثها ستين يوما، ومساحة أرضها مائة ألف ألف وثمانين ألف ألف فدان، يزرع منها فى مباشرة ابن مدبر أربعة وعشرون ألف ألف فدان، وأنه لا يتم خراجها حتى يكون فيها أربعمائة ألف وثمانون ألف حراث يلزمون العمل فيها دائما. فاذا أقيم بها هذا القدر من العمال فى الأرض، تمت عمارتها، وكمل خراجها.

وآخر ما كان بها مائة ألف وعشرين ألف مزارع: فى الصعيد سبعون ألفا، وفى أسفل الأرض خمسون ألفا. وقد تغير الآن جميع ما كان بها من الأوضاع القديمة، واختلت اختلالا فاضحا.

ذكر أصناف أراضي مصر وأقسام زراعتها

اعلم أن أراضى مصر عدة أصناف:

أعلاها قيمة، وأوفاها سعرا وأعلاها قطيعة، الباق: وهو أثر القرط والمقاتي، فإنه يصلح لزراعة القمح.

ويعد الباق رى الشراقي: وهو الأراضى التى ظمئت فى الحالية، فلما رويت فى الآتية وصارت مستريحة من الزرع وزرعت، أنجب زرعها.

والبرايب: وهو أثر القمح والشعير، وسعرها دون الباق لضعف الأرض بزراعة هذين الصنفين، فمتى زرعت على أثر أحدهما لم ينجب كنجابة الباق. والبرايب صالح لزراعة القرط والقطانى والمقاتي، فان الأرض تستريح بزراعة هذه الأصناف، وتصير فى القابل أرض باق.

والسقماهية أثر الكتان، فان زرعت قمحا خسر.

والشتونية أثر ما روى وبار فى السنة الماضية، وهو دون الشراقي.

والسلايح ما روى وبار فحرث وتعطل، وهو مثل رى لشراقي، فإن زرعه يكون ناجبا.

والنقا كل أرض خلت من أثر زرع فيها، ولم يبق بها شاغل عن قبول ما يزرع فيها من أصناف الزراعات.

والوسخ كل أرض استحكم وسخها، ولم يقدر الزارعون على إزاحته كله منها، بل حرثوا وزراعوا فيها فجاء زرعها مختلطا بالحلفاء ونحوها.

والغالب: كل أرض حصل فيها نبات شغلها عن قبول الزراعة، ومنع كثرته من زراعتها وصارت مراعي.

والخرس. كل أرض فسدت بما استحكم فيها من موانع قبول الزرع وكانت بها مراع، وهو أشد من الوسخ الغالب، وإذا أدمن على إزالة ما فيها من الموانع تهيأ صلاحها.

والشراقي: كل أرض لم يصل إليها الماء، أما لقصور ماء النيل أو علو الأرض، أو سد طريق الماء عنها أو غير ذلك.

والمستبحر: كل أرض وطيئة حصل بها الماء ولم يجد مصرفا، حتى فات أوان الزرع وهو باق فى الأرض.

والسباخ: كل أرض غلب عليها الملح حتى ملحت ولم ينتفع بها فى زراعة الحبوب، وربما زرعت ـ ما لم يستحكم السبخ فيها ـ غير الحبوب كالهليون والباذنجان، ويزرع فيها القصب الفار.

ومما لا غنى لأراضى مصر عنه الجسور، وهى على قسمين: سلطانية، وبلدية.

فالجسور السلطانية هى لعامه النفع فى حفظ النيل على البلاد كافة إلى حين يستغنى عنه، ولها رسوم موظفة على الأعمال الشرقية والأعمال الغربية، وكانت فى القديم تعمل من أموال النواحي، ويتولى عملها مستقبلو الأراضي، ويعتد لهم بما صرف عليها مما عليهم من قبالات الأراضي، ثم صار بعد ذلك يستخرج برسم عملها من هذين العملين، مال بأيدى المستخدمين من الديوان وبصرف عليها، ويفضل من المال بقية تحمل إلى بيت المال.

ثم صار يتولى ذلك أعيان أمراء الدولة... إلى أن حدثت الحوادث فى أيام الناصر فرج، فصار يجبى من البلاد مال عظيم ولا يصرف منه شئ ألبتة، بل يرفع إلى السلطان ويتفرق كثير منه بأيدى الأعوان، ويسخر أهل البلاد فى عمل الجسور، فيجئ الخلل كما ستقف عليه إن شاء تعالى عند ذكر أسباب الخراب.

وأما الجسور البلدية فإنها عبارة عما يخص نفعها ناحية دون ناحية، ويتولى إقامتها المقطعون والفلاحون من أصل مال الناحية.

ومحل الجسور السلطانية من القرى محل سور المدينة الذى يتعين على السلطان الاهتمام بعمارته وكفاية الرعية أمره، ومحل الجسور البلدية محل الدور التى من داخل السور، فيلزم صاحب كل دار أن يصلحها ويزيل ضررها.

ومن العادة أن المقطع إذا انفصل ـ وكان قد أنفق شيئا من مال إقطاعه فى إقامة جسر لأجل عمارة السنة التى انتقل الإقطاع عنه فيها ـ فإن له أن يستعيد من المقطع الثانى نظير ما أنفقه من مال سنته فى عمارة سنة غيره.

وأصلح ما زرع القمح فى أثر الباق والشراقي، وكان يزرع بالصعيد القمح على أثر القمح لكثرة الطرح، وربما زرع هناك على أثر الكتان والشعير.

ويزرع القمح من نصف شهر بابة إلى آخر هتور، وهذا فى العوالى من الأرض التى تخرج بدريا، وأما البحائر المتأخرة فيمتد وقت الزرع فيها إلى آخر كيهك.

ومقدار ما يحتاج إليه الفدان الواحد من بذر القمح يختلف بحسب قوة الأرض وضعفها ورقتها وتوسطها، وما يزرع فى اللوق وما يزرع فى الحرث، وأكثر البذر من إردب إلى خمس ويبات وأربع ويبات أيضا، ويوجد فى الصعيد أراض تحتمل دون هذا، وفى حوف دمسيس أراض يكفى الفدان منها نحو الويبتين.

ويدرك الزرع بمصر فى بشنس (وهو نيسان). ويختلف ما يخرج من فدان القمح بحسب الأراضي. فيرمى من إردبين إلى عشرين إردبا.

وقال أبو بكر بن وحشية فى كتاب «الفلاحة»: وذكر أن مصر إذا زرعوا يخرج من المُدّ ثلاثمائة مد، والعلة فى ذلك حرارة هواء بلادهم، مع سمن أرضهم وكثرة كدورة ماء النيل.

ولما كان فى سنة ست وثمانمائة، انحسر الماء عن قطعة أرض من بركة الفيوم التى يقال لها اليوم بحر يوسف، فزرعت وجاء رزعها عجيبا... رمى الفدان منها أحدا وسبعين إردبا من شعير بكيل الفيوم، وأردبها تسع ويبات.

وكانت قطيعة فدان القمح ببلاد الصعيد، فى أيام الفاطمية، ثلاثة أرادب. فلما مسحت البلاد، فى سنة اثنين وسبعين وخمسمائة، تقرر على كل فدان اردبان ونصف، ثم صار يؤخذ إردبان عن الفدان، وأما أراضى أسفل الأرض فيؤخذ عنها عين لا غلة.

ويزرع الشعير فى أثر القمح وغيره فى الأرض التى غرقت وهى رطبة، وتتقدم زراعته على زراعة القمح بأيام، وكذلك حصاده فإنه يحصد قبل القمح، ويحتاج الفدان منه أن يبذر فيه بحسب الأرض، ويخرج أكثر من القمح، ويكون إدراكه فى برمودة (وهو آزار).

ويزرع الفول فى الحراث إثر البرايب من أول شهر بابة، ويؤكل وهو أخضر فى شهر كيهك. ويحتاج الفدان من البذر منه الى ثلاث ويبات ونحوها، ويدرك فى برمودة، ويتحصل من فدانه ما بين عشرين إردبا إلى ما دون ذلك.

ويزرع العدس والحمص من هتور إلى كيهك. والجلبان لا يزرع إلا فى أرق الأراضى حرثا من الأرض العالية، ويزرع تلويقا فى الأراضى الخرس.

ويبذر فى كل فدان من الحمص من إردب إلى ثمان ويبات، ومن الجلبان من إردب إلى أربع ويبات، ومن العدس من ويبتين إلى ما دونهما. وتدرك هذه الأصناف فى برمودة. ويتحصل من فدان الحمص من أربعة أرادب إلى ما دونها، والعدس من عشرين إردبا فما دونها.

وأجب ما يكون الكتان إذا زرع فى البرش، ويحتاج أن يسبخ بتراب سباخ، وهو إذا طال رقد، ويقلع قضبانا ويسمى حينئذ أسلافا، وينشر فى موضعه حتى يجف، فإذا جف حمل وهدر وعزل جوزه، فيخرج منه بذر الكتان، ويستخرج منه الزيت الحار.

ويزرع الكتان فى شهر هتور، ويحتاج الفدان أن يبذر فيه من البذر ما بين إردب وثلث إلى ما دون ذلك، ويدرك فى شهر برمودة، ويخرج من الفدان ما بين ثلاثين شدة إلى ما دون ذلك، ومن البذر من ستة أرداب إلى ما دونها. وكانت قطعية الفدان منه فى القديم: بأرض الصعيد من خمسة دنانير إلى ثلاثة، وفى دلاص ثلاثة عشر دينارا، وفيما عدا ذلك ثلاثة دنانير.

ويزرع القرط عند أخذ ماء النيل فى النقصان، ولا ينبغى تأخير زرعه إلى أوان هبوب الريح الجنوبية التى يقال إنها المريسية وأول ما يبذر فى شهر بابة، وربما زرع بعد النوروز.

والحراثى منه يزرع فى كيهك وطوبة، ويزرع أحيانا فى هتور، ويبذر فى كل فدان من ويبتين ونصف إلى ما حولها، ويدرك الأخضر منه فى آخر شهر كيهك، ويدرك الحراثى فى طوبة وأمشير، ويتحصل من الفدان الحراثى ما بين إردبين إلى أربع ويبات.

ويزرع البصل والثوم من شهر هتور إلى نصف كيهك. ويبذر فى فدان البصل من نصف وربع ويبة إلى ويبة، والثوم من مائة حزمة إلى مائة وخمسين حزمة، ويدرك ذلك فى برمودة.

والبصل الذى يخرج ليزرع زريعة، فإنه يزرع من أول كيهك إلى العاشر من طوبة، ويخرج من زريعته عشرة أرادب من الفدان، ويدرك فى بشنس.

ويزرع الترمس فى طوبة، وزريعته لكل فدان إردب، ويدرك فى برمودة، ويتحصل من الفدان ما بين عشرين إردبا الى مادونها... وهذه الأصناف الشتوية.

وأما الأصناف الصيفية: فإن البطيخ واللوبيا يزرعان من نصف برمهات إلى نصف برمودة، ويزرع فى الفدان قدحان، ويدرك فى بشنس.

ويزرع السمسم فى برمودة، وزريعته ربع ويبة للفدان، ويدرك فى أبيب ومسري، ويتحصل من الفدان ما بين إردب إلى ستة أرادب.

ويزرع القطن فى برمودة، وزريعته أربع ويبات حب للفدان، ويدرك فى توت، فيخرج من الفدان من ثمانية قناطير بالجروى إلى ما دونها.

ويزرع قصب السكر من نصف برمهات فى أثر الباق والبرش، وتبرش أرضه سبع سكك، والجبه ما تكامل له ثلاث عزقات قبل انقضاء شهر بشنس، ومقدار زريعته ثمن فدان وما حوله لكل فدان.

ويحتاج القصب إلى أرض جيدة دمثة، قد شملها الرى وعلاها ماء النيل، وقلع ما بها من الحلفاء ونظفت، ثم برشت بالمقلقلات (وهى محاريث كبار) ستة وجوه وتجرف حتى تتمهد، ثم تبرش ستة وجوه أخرى وتجرف ومعنى البرش: الحرث.

فإذا صلحت الأرض وطابت ونعمت وصارت ترابا ناعما وتساوت بالتجريف، شقت حينئذ بالمقلقلات، ويرمى فيها القصب قطعتين: قطعة مثناة وقطعة مفردة، بعد أن تجعل الأرض أحواضا وتفرز لها جداول يصل الماء منها إلى الأحواض، ويكون طول كل قطعة من القصب ثلاثة أنابيب كوامل وبعض أبنوبة من أعلى القطعة وبعض أخرى من أسفلها، ويختار ما قصرت أنابيبه وكثرت كعوبه من القصب، ويقال لهذا الفعل: النصب.

فإذا كمل نصب القصب أعيد التراب عليه، ولابد فى النصب أن تكون القطعة ملقاة لا قائمة، ثم يسقى - من حين نصبه فى أول فصل الربيع - لكل سبعة أيام مرة.

فإذا نبت القصب وصار أوراقا ظاهرة، نبتت معه الحلفاء والبقلة الحمقاء التى يسميها أهل مصر الرجلة، فعند ذلك تعزق أرضه (ومعنى العزاق أن تنكش أرض القصب) وينظف ما نبت مع القصب.

ولا يزال يتعاهد ذلك حتى يغزر القصب ويقوى ويتكاثف، فيقال عند ذلك: طرد القصب عزاقه، فإنه لا يمكن عزاق الأرض ولا يكون هذا، حتى يبرز الأنبوب منه.

ومجموع ما يسقى بالقادوس ثمانية وعشرون ماء. والعادة أن الذى ينصب من الأقصاب على كل مجال بحرانى - أى مجاور للبحر - إذا كانت مزاحة الغلة بالأبقار الجياد مع قرب رشا الأبار - ثمانية أفدنة، ويحتاج إلى ثمانية أرؤس بقر، فإن كانت الآبار بعيدة عن مجرى النيل لا يمكن حينئذ أن يقوم المجال بأكثر من ستة أفدنة إلى أربعة.

فإذا طلع النيل وارتفع، سقى القصب عند ذلك ماء الراحة. وصفة ذلك أن يقطع عليه من جانب جسر يكون قد أدير عليه ليقيه من الغرق عند ارتفاع النيل بالزيادة، فيدخل الماء من ثلمة فى ذلك الجسر حتى يعلو على أرض القصب نحو شبر، ثم يسد عنه الماء حتى لا يصل إليه، ويترك الماء فوق الأرض قدر ساعتين أو ثلاث إلى أن يسجن، ثم يصرف من جانب آخر حتى ينصب كله، ويجدد عليه ماء آخر كذلك، فيتعاهد ما ذكرنا مرارا فى أيام متفرقة بقدر معلوم، ثم يفطم بعد ذلك.

فإذا عمل ما قلناه وفى القصب حقه، فإن نقص عن ذلك حصل فيه الخلل. ولابد للقصب من القطران قبل أن يحلو حتى لا يسوس. ويكسر القصب فى كهيك. ولابد من حرق آثار القصب بالنار، ثم سقيه وعزقه كما تقدم، فينبت قصبا يقال له الخلفة، ويسمى الأول الرأس.

وقنود الخلفة أجود غالبا من قنود الرأس، ووقت ادراك الرأس فى طوبة، والخلفة فى نصف هتور. وغاية إدارة معاصر القصب الى النوروز. ويحصل من الفدان ما بين أربعين أبلوحة، والأبلوحة تسع قناطير فما حوله.

ويزرع القلقاس مع القصب، ولكل فدان عشرة قناطير قلقاس جروية. ويدرك فى هتور.

ويزرع الباذنجان فى برمهات وبرمودة وبشنس وبئونة، ويدرك من بئونة إلى مسري.

وتزرع النيلة من بشنس، والزريعة للفدان ويبة، ويدرك من أبيب.

ويزرع الفجل طول السنة، وزريعه الفدان من قدح واحد إلى قدحين.

ويزرع اللفت فى أبيب، وزريعة الفدان قدح واحد، ويدرك بعد أربعين يوما.

ويزرع الخس فى طوبة شتلا، ويؤكل بعد شهرين.

ويزرع الكرنب فى توت شتلا، ويدرك فى هتور.

ويغرس الكرم فى أمشير، نقلا وتحويلا. ويغرس التين والتفاح فى أمشير.

ويقلم التوت فى برمهات ويغرس.

ويبل اللوز والخوخ والمشمش فى ماء طوبة ثلاثة أيام - وهى قضبان - ثم يغرس، ويحول شجرها فى طوبة.

ويزرع نوى التمر، ثم يتحول وديا، فينقل.

ويدفن بصل النرجس فى مسري.

ويزرع الياسمين فى أيام النسئ وفى أمشير.

ويزرع المرسين فى طوبة وأمشير، غرسا،

ويزرع الريحان فى برمودة.

ويزرع حب المنثور فى أيام النيل.

ويزرع الموز الشتوى فى طوبة، والصيفى فى أمشير.

ويحول الخيار شنبر فى برمهات.

وتقلم الكروم على ريح الشمال، إلى ليال من برمهات، حتى تخرج العين منها.

وتقلم الأشجار فى طوبة وأمشير، إلا السدر - وهو شجر النبق - فإنه يقلم فى برمودة.

وتسقى الأشجار فى طوبة ماء واحدا، ويسمونه ماء الحياة. وتسقى فى أمشير ثانيا عند خروج الزهر. وتسقى فى لرمهات ماءين آخرين إلى أن ينعقد الثمر. وتسقى فى بشنس

ثلاث مياه. وتسقى فى بؤونة وأبيب ومسرى ماء فى كل سبعة أيام. وتسقى فى توت وبابة مرة واحدة تغريقا من ماء النيل. وتسقى فى هتور من ماء النيل بتغريق المساطب. ويسقى البعل من الكروم فى هتور من ماء النيل مرة واحدة تغريقا.

وجميع أراضى مصر تقاس بالفدان، وهو عبارة عن أربعمائة قصبة حاكمية طولا فى عرض قصبة واحدة. والقصبة ستة أذرع وثلثا ذراع بذراع القماش، وخمسة أذرع بذراع النجار تقريبا.

وقال القاضى أبو الحسن فى كتاب المنهاج: خراج مصر قد ضرب على قصبة فى المساحة اصطلح عليها، زرع المزارع على حكمها وتكسير الفدان أربعمائة قصبة، لأنه عشرون قصبة طولا فى عشرين قصبة عرضا. وقصبة المساحة تعرف بالحاكمية، وهى تقارب خمسة أذرع بالنجارى.

ذكر أقسام مال مصر

اعلم أن مال مصر فى زمننا ينقسم قسمين: أحدهما يقال له خراجى، والآخر يقال له هلالى.

فالمال الخراجى ما يؤخذ مسانهة من الأراضى التى تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة، وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج والكشك وغيره من طرف الريف.

والمال الهلالى عدة أبواب، كلها أحدثها ولاة السوء شيئا بعد شئ.

وأصل ذلك فى الإسلام أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، بلغه أن تجارا من المسلمين يأتون أرض الجند فيأخذون منهم العشر، فكتب إلى أبى موسى الأشعرى وهو على البصرة: أن خذ من كل تاجر يمر بك من المسلمين من كل مائتى درهم خمسة دراهم، وخذ من كل تاجر من تجار العهد (يعنى أهل الذمة) من كل عشرين دهما درهما، ومن تجار الحرب من كل عشرة دراهم درهما.

وقيل لابن عمر: كان عمر يأخذ من المسلمين العشر؟

قال: لا.

ونهى عمر بن عبد العزيز عن ذلك، وكتب ضعوا عن الناس هذه المكوس، فليس بالمكس ولكنه النجس.

وروى أن عمر بن الخطاب رضى اللّٰه عنه أتاه ناس من أهل الشام، فقالوا: أصبنا دواب وأموالا فخذ منها صدقة تطهرنا بها.

فقال: كيف أفعل ما لم يفعل من كان قبلي؟

وشـــاور....

فقال على بن أبى طالب رضى اللّٰه عنه: لا بأس به إن لم يأخذه من بعدك.

فأخذ عن العبد عشرة دراهم وكذلك عن الفرس، وعن الهجين ثمانية، وعن البرذون والبغل خمسة.

وأول من وضع على الحوانيت الخراج فى الاسلام أمير المؤمنين أبو عبد اللّٰه محمد بن أبى جعفر المنصور فى سنة سبع وستين ومائة، وولى ذلك سعيد الجرسي.

وأول من أحدث مالا، سوى مال الخراج بمصر، أحمد بن محمد بن مدبر - لما ولى خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين - فإنه كان من دهاة الناس وشياطين الكتاب. فابتدع فى مصر بدعا صارت مستمرة من بعده لا تنقض، فأحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس، وقرر على الكلأ الذى ترعاه البهائم مالا سماه المراعي، وقرر على ما يطعم الله من البحر مالا وسماه المصايد... إلى غير ذلك.

فانقسم حينئذ مال مصر إلى خراجى وهلالي. وكان الهلالى يعرف، فى زمنه وما بعده، بالمرافق والمعاون.

فلما ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون إمارة مصر، وأضاف إليه أمير المؤمنين المعتمد على الله الخراج والثغور الشامية، رغب وتنزه عن أدناس المعاون والمرافق، وكتب بإسقاطها فى جميع أعماله، وكانت تبلغ بمصر خاصة مائة ألف دينار فى كل سنة.

وله فى ذلك خبر فيه أكبر مغتبر، قد ذكرته عند أخبار الجامع الطولونى من هذا الكتاب.

ثم أعيدت الأموال الهلالية فى أثناء الدولة الفاطمية عندما ضعفت، وصارت تعرف بالمكوس.

فلما استبد السلطان الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب بملك مصر، أمر بإسقاط مكوس مصر والقاهرة، فكتب عنه القاضى الفاضل مرسوما بذلك.

وكان جملة ذلك فى كل سنة مائة ألف دينار، تفصيلها :

مكس البهار وعمالته : ثلاثة وثلاثون ألفا وثلاثمائة وأربعة وستون دينارا.

مكس البضائع والقوافل وعملتها : تسعة آلاف وثلاثمائة وخمسون دينارا.

منفلت الصناعة، عن مكس البز الوارد اليها والنحاس والقزدير والمرجان والفاضلات : خمسة آلاف ومائة وثلاثة وتسعون دينارا.

الصادر عن الصناعة بمصر : ستة آلاف وستمائة وستة وستون دينارا.

سمسرة التمر : ثلاثمائة دينار.

الفندق بالمنية عن مكس البضائع : ثمانمائة دينار وستة وخمسون دينارا.

رسوم دار القند : ثلاثة آلاف ومائة وثمانية دنانير.

رسوم الخشب الطويل والملح : ستمائة وستة وسبعون دينارا.

رسوم العلب المنسوبة إلى بلبيس والبوري : مائة دينار.

رسوم التفتيش بالصناعة عن البهار وغيره : مائتان وسبعة عشر دينارا.

خيمة أرمنت عن الوارد إليها : سبعة وستون دينارا.

سوق الغنم بالقاهرة ومصر والسمسرة وعبور الأغنام بالجيزة : ثلاثة آلاف وثلاثمائة وأحد عشر دينارا.

عبور الأغنام والكتان والأبقار بباب القنطرة: ألف ومائتا دينار.

واجب ما ورد من الكتان الحطب إلى الصناعة: مائتا دينار.

رسوم واجب الغلات، كالحبوب الواردة إلى الصناعة، والمقس والمنية والجسر والتبانين ومفالت جزيرة الذهب وطموم ومنبر الدرج: ستة آلاف دينار.

مكس ما يرد إلى الصناعة من الأغنام: ستة وثلاثون دينارا.

الأغنام البيتوتية: اثنا عشر دينارا.

العرصة والسرسناوى بالجيزة، ومكس الأغنام: مائة وتسعون دينارا.

منفلت الفيوم عما يرد من الكتان من القبلة ومن البضائع الواردة من الفيوم وغيره: أربعة آلاف ومائة وستون دينارا.

مكس الورق المجلوب إلى الصناعة ورسم التفتيش: مائتا دينار.

الحصة بساحل الغلة والأقوات والرسائل: سبعمائة وثمانية وستون دينارا.

دار التفاح والرطب بمصر والعرصة بالقاهرة: ألف وسبعمائة دينار.

رسم ابن المليجي: مائتا دينار.

دار الجبن: ألف دينار

مشارفة الخزائن: مائتان وأربعون دينارا.

واجب الحلى الوارد من الوجه البحرى والقطن: ألف وعشرون دينارا.

رسم سمسرة الصفا: ألف ومائتا دينار.

منفلت الصعيد: مائة وأحد وستون دينارا.

خاتم الشرب والديبقي: ألف وخمسمائة دينار.

مكس الصوف: مائتا دينار.

نصف الموردة بساحل المقس : أربعة عشر دينارا.

دكة السمسار : ثلاثمائة وخمسون دينارا.

منفلت العريف بالصناعة وحملة البهار والبضائع : مائتان وستة عشر دينارا.

الحلفاء الواردة من القبلة : مائة وخمسة وثلاثون دينارا.

الوقد والسرقين والطعم بدار التفـاح ومنفلت القبـلة بالتبانين والجسر : خمسة وثلاثون دينــــارا.

رسوم الصفا والحمراء ورسوم دار الكتان : ستون دينارا.

حماية الغلات بالمقس ودار الجبن : مائة وأربعون دينارا.

الحلفاء الواردة على الجسر ومعدية المقياس : مائة دينار.

خمس البرنية بالجيزة : عشرون دينارا.

تل التعريف بالصناعة : ثمانية وعشرون دينارا.

منفلت الغلات بمعدية جزيرة الذهب : عشرة دنانير.

رسوم الحمام بساحل الغلة : خمسمائة وأربعة وثلاثون دينارا.

واجب الحناء الواردة فى البر... ثمانمائة دينار.

واجب الحلفاء والقصاب ، ثلاثة وستون دينارا.

مكس ما يرد من البضائع إلى المنية : مائة وأربعة وثمانون دينارا.

مسلخة شطنوف والبرانية : مائتا دينار.

سوق السكريين : خمسون دينارا.

رسوم خيمه الجملى بالشارع وسوق وردان : تسعة عشر دينارا.

واجب الفحم الوارد إلى القاهرة : عشرة دنانير.

معدية الجسر بالجيزة : مائة وعشرون دينارا.

خيمة البقري : أربعون دينارا.

الخيمة بدار الدباغة : تسعة عشر دينارا.

سمسرة الجيش الجيوشي : ثلاثمائة وأثنا عشر دينارا.

دكان الدهن ومعصرة الشيرج والخل بالقاهرة : خمسمائة دينار.

الخل الحامض وما معه : أربعمائة دينار.

بيوت الغزل والمصطبة : ثلاثمائة وخمسون دينارا.

ذبائح الأبقار : ألف دينار.

سوق السمك بالقاهرة ومصر : ألف ومائتا دينار.

رسوم الدلالة : ثلاثمائة دينار.

سمسرة الكتان : ثلاثمائة دينار.

رسوم حماية الصناعيين : أربعمائة دينار.

مربعة العسل : مائتا واثنان وثلاثون دينارا.

معادى جزيرة الذهب وغيرها : ثلاثمائة دينار.

خاتم الشمع بالقاهرة : ثلاثة وستون دينارا.

زريبة الذبيحة : سبعمائة دينار.

معدية المقياس وإمبابة : مائتا دينار.

حمولة السلجم : ثلاثمائة وثلاثون دينارا.

دكة الدباغ : ثمانمائة دينار.

سوق الرقيق : خمسمائة دينار.

معمل الطبري : مائتان وأربعون دينارا.

سوق منسوبة : مائة وأربعة وستون دينارا.

ذبائح الضأن بالجيزة ورسوم ساحل السنطة : عشره دنانير.

نخ السمك : خمسة دنانير.

تنور الشوي : مائة دينار.

نصف الرطل من مطابخ السكر : مائة وخمسة وثلاثون دينارا.

سوق الدواب بالقاهرة ومصر : أربعمائة دينار.

سوق الجمال : مائتان وخمسون دينارا.

قبان الحناء : ثلاثون دينارا.

واجب طاقات الأدم : ستة وثلاثون دينارا.

منفلت الخام بالشاشيين : ثلاثة وثلاثون دينارا.

أنولة القصار : أربعون دينارا.

بيوت الفروج : ثلاثون دينارا.

الشعر والطارات : أربعة دنانير.

رسوم الصبغ والحرير : ثلاثمائة دينارا.

وزن الطفل : مائة وأربعون دينارا.

معمل المزر : أربعة وثمانون دينارا.

الفاخور بمصر والقاهرة : مائتا وستة وثلاثون دينارا.

وذكر ابن أبى طى أنه الذى أسقطه السلطان صلاح الدين ، والذى سامح به لعدة سنين آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة ، مبلغة عن نيف ألف ألف دينار وألفى ألف اردب... سامح بذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه عن المعاملين.

فلما ولى السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف، أعاد المكوس وزاد فى شناعتها.

قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة تسعين وخمسمائة: وكان قد تتابع فى شعبان أهل مصر والقاهرة فى إظهار المنكرات وترك الإنكار لها، وإباحة أهل الأمر والنهى لها، وتفاحش الأمر فيها، إلى أن غلا سعر العنب لكثرة من يعصره، وأقيمت طاحون بحارة المحمودية لطحن المزر وأفردت برسمه...

وحميت بيوت المزر، وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة، فمنها ما انتهى أمره فى كل يوم إلى ستة عشر دينارا، ومنع المزر البيوتى ليتوفر الشراء من البيوت المحمية، وحملت أوانى الخمر على رؤس الأشهاد وفى الأسواق من غير منكر، وظهر من عاجل عقوبة الله عز وجل وقوف زيادة النيل عن معتادها، وزيادة سعر الغلة فى وقت سعر الغلة فى وقت ميسورها.

وقال فى متجددات سنة اثنين وتسعين وخمسمائة: وآل الأمر إلى وقوف وظيفة الدار العزيزية من خبز ولحم إلى أن يتحمل فى بعض الأوقات لا كلها لبعض ما تتبلغ به من خبز، وكثر ضجيجهم وشكواهم فلم يسمع، ووقف الحال فيما ينفق فى دار السلطان، وفيما يصرف إلى عياله، وفيما يقتات به أولاده، وما يغصب من أربابه، وأفضى هذا إلى غلاء الأسعار، فإن المتعيشين من أرباب الدكاكين يزيدون فى أسعار المأكولات العامة بمقدار ما يؤخذ منهم للدار السلطانية، فأفضى ذلك إلى النظر فى المكاسب الخبيثة.

وضمن المزر والخمر باثنى عشر ألف دينار، وفسح فى إظهار منكره والإعلان به والبيع له فى القاعات والحوانيت مع قرب استهلال رجب، وما استطاع أحد من العامة الإنكار لا باليد ولا باللسان، وصار هذا السحت مما ينفرد السلطان به لنفقته وطعامه، وانتقل ماا الثغور ومال الجوالى الحل الطيب، إلى أن يصير حوالات لمن لا يبالى من أين أخذ المال يفرق بين الحرام والحلال.

وفى شهر رمضان غلا سعر الأعناب لكثرة العصير منها، وتظاهر به أربابه لتحكير تض السلطاني، واستيفاء رسمه بأيدى مستخدميه. وبلغ ضمانه سبعة عشر ألف دينار، وحص منه شيء حمل إليه. فبلغنى أنه صنع به آلات الشراب ذهبيات وفضيات.

وكثر اجتماع النساء والرجال فى شهر رمضان لا سيما على الخليج لما فتح، وعلى مصر لما زاد الماء، وتلقى فيه النيل بمعاص نسأله الله ألا يؤاخذنا بها، وألا يعاقبنا عليها بجراءة أهلها.

وقال جامع السيرة التركية: ولما استقل الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى الصالحى بمملكة مصر فى سنة خمسين وستمائة - بعد انقراض دولة بنى أيوب - استوزر شخصا من نظار الدواوين يعرف بشرف الدين هبة الله ابن صاعد الفائزي، أحد كتاب الأقباط - وكان قد أظهر الإسلام من أيام الملك الكامل، وترقى فى خدمة الكتابة - فقرر فى وزارته أموالا على التجار وذوى اليسار وأرباب العقار، ورتب مكوسا وضمانات سموها حقوقا ومعاملات.

ولما ولى الملك المظفر سيف الدين قطز مملكة مصر، بعد خلعه الملك المنصور على بن المعز أيبك، أحدث عند سفره الذى قتل فيه مظالم كثيرة لأجل جمع المال وصرفه فى الحركة لقتال جموع التتر، وأحدث على كل إنسان دينارا يؤخذ منه، وأخذ ثلث التركات الأهلية، فبلغ ذلك ستمائة ألف دينار فى كل سنة.

فلما قتل قطز، وجلس الملك الظاهر ركن الدين بيبرس بعده على سرير الملك بقلعة الجبل، أبطل ذلك جميعه وكتب به مساميح قرئت على المنابر، ثم أبطل ضمان المزر وجهاته فى سنة اثنين وستين وستمائة، وكتب وهو بالشام إلى الأمير عز الدين الحلى نائب السلطنة بمصر أن يبطل بيوت المزر، ويعفى آثاره، ويخرب بيوته، ويكسر مواعينه، ويسقط ارتفاعه من الديوان... فإن بعض الصالحين تحدث معى فى ذلك وقال: القمح الذى جعله اللّٰه تعالى قوتا للعالم يداس بالأرجل، وقد تقربت إلى اللّٰه تعالى بابطاله، ومن ترك شيئا للّٰه عوضه خيرا منه، ومن كان له على هذه الجهة شيء يعوضه اللّٰه من المال الحلال.

فأبطل الحلى ذلك، وعوض المقطعين عليه بدله.

وفى سنة ثلاث وستين أبطل حراسة النهار بالقاهرة ومصر - وكانت جملة مستكثرة - وكتب بذلك توقيعا، وأبطل من أعمال الدقهلية والمرتاحية: عن رسوم الولاية أربعة وعشرين ألف دينار.

وفى خامس عشرى شهر رمضان سنة اثنتين وستين وستمائة ، قرئ بجامع مصر مكتوب بإبطـال مـا قـرر على رســوم ولاية مصـر من الرســوم ، وهى مـائة ألف درهم مـصـرية ... فبطـل ذلك.

وأبطل ضـمـان الحشيش من ديار مصـر كلهـا فى سنة خـمس وسـتين وسـتـمائة ، وأمـر بإراقـة الخـمـور ، وإبطال المنكرات ، وتعـفـيـة بيـوت المسكرات ، ومنع الحـانات والخـواطئ بجميع أقطار مملكة مصر والشام ... فطهرت من ذلك البقاع .

ولما وردت المراسيم بذلك على القاضى ناصر الدين أحمد بن المنير قال :

ليس لابليس عنـــدنا أرب

غير بـــلاد الأمـــير مأواه

حرمته الخمر والحشيش معا

حـــرمتا مـــاؤه ومرعـــاه

وقال الأديب الفاضل أبو الحسين الجزار :

قد عطل الكوب من حبـابه

وأخلى الثغر من رضـــابه

وأصبح الشـيخ وهو يبكى

على الذى فات من شـــبابه

وفى تاسع جـمادى الآخـرة سنة ست وستين وستـمائة ، أمـر الملك الظاهر بيبرس بإراقة الخمور ، وإبطال الفساد ، ومنع النساء الخواطئ من التعرض للبغاء من جميع القاهرة ومصر وسـائر الأعـمـال المصرية . فتطهرت أرض مـصر من هذا المنكر ، ونهبت الخانات التى كانت معدة لذلك ، وسلب أهلها جميع ما كان لهم ، ونفى بعضهم ، وحبست النساء حتى يتزوجن . وكتب إلى جـمـيع البـلاد بمثل ذلك . وحط المال المقـرر على البـغـايا من الديوان ، وعـوض الحاشية من جهات حل بنظيره .

وفى سابع عشر ذى الحجة سنة تسع وستين وستمائة، أريقت الخمور، وأبطل ضمانها - وكان كل يوم ألف دينار - وكتب توقيع بذلك قرئ على المنابر. وافتتح سنة سبعين باراقة الخمور، والتشدد فى إزالة المنكرات، وكان يوما مشهودا بالقاهرة. وبلغه فى سنة أربع وسبعين عن الطواشى شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز - وكان قد تمكن منه تمكنا كثيرا - أنه يشرب الخمر فشنقه تحت قلعة الجبل.

ولما ولى الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى مملكة مصر أبطل زكاة الدولة، وهو ما كان يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله أبدا ولو عدم منه، واذا مات يؤخذ من ورثته وأبطل ما كان يجبى من أهل إقليم مصر كله، إذا حضر مبشر بفتح حصن أو نحوه، يوخذ من الناس بالقاهرة ومصر على قدر طبقاتهم، ويجتمع من ذلك مال كثير.

وأبطل ما كان يجبى من زهل الذمة، وهو دينار سوى الجالية، برسم نفقة الأجناد فى كل سنة.

وأبطل مقرر جباية الدينار من التجار عند سفر العسكر والغزاة، وكان تؤخذ من جميع تجار القاهرة ومصر: من كل تاجر دينار.

وأبطل ما كان يجبى عند وفاء النيل مما يعمل به شوى وحلوى وفاكهة فى المقياس، وجعل مصرف ذلك من بيت المال...

وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط.

وأبطل الملك الناصر محمد بن قلاوون عدة جهات قد ذكرت فى الروك الناصرى. وآخر ما أدركنا إبطاله ضمان الأغاني، وضمان القراريط، فى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، على يد الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون.

فأما ضمان الأغانى فكان بلاء عظيما، وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا، فلو خرجت أجل امرأة فى مصر تريد البغاء حتى نزلت اسمها عند الضامنة، وقامت بما يلزمها، لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة.

وكان على النساء إذا تنفسن ، أو عرسن امرأة ، يدها بحناء ، أو أراد أحد أن يعمل فرحا ، لابد من مال بتقرير تأخذه الضامنة ، ومن فعل فرحا بأغان ، أو نفس امرأته من غير إذن الضامنة ، حل به بلاء لا يوصف .

وأما ضمان القراريط ، فانه كان يؤخذ من كل من باع ملكا عن ألف درهم عشرون درهما.

وكان متحصل هاتين الجهتين مالا كثيرا جدا .

وأبطل الملك الظاهر برقرق ما كان يؤخذ من أهل البرلس وشورى وبلطيم ، شبه الجالية ، فى كل سنة ستين ألف درهم .

وأبطل ما كان يؤخذ مكسا من معمل الفروج بالنحريرية والأعمال الغربية .

وأبطل ما كان يؤخذ تقدمة لمن يسرح إلى العباسة من الخيل والجمال والغنم وغير ذلك .

وأبطل ما كان يؤخذ على الدريس والحلفاء بباب النصر خارج القاهرة .

وأبطل ضمان الأغانى بمنية ابن خصيب بأعمال الأشمونين ، وبزفتا بالأعمال الغربية .

وأبطل الأبقار التى كانت ترمى بالوجه البحرى عند فراغ الجسور .

وأبطل الأمير يلبغا السالمى - لما ولى أستادار السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق فى سنة إحدى وثمانمائة - تعريف الغلال بمنية ابن خصيب ، وضمان العرصة بها ، وأخصاص الغسالين... وكانت من المظالم القبيحة .

وأبطل من القاهرة ضمان بحيرة البقر ، ثم أعاده القبط من بعده .

وقد بقيت إلى الآن من المكوس بقايا. أخبرنى الأمير الوزير المشير الأستادار بلبغا السالمي ، فى أيام وزارته ، أن جهات المكوس بديار مصر تبلغ فى كل يوم بضعا وسبعين ألف درهم ، وأنه اعتبرها فلم يجدها تصرف فى شئ من مصالح الدولة ، بل إنما هى منافع للقبط وحواشيهم . وكان قد عزم على إبطال المكوس فلم يمهل .

والمال الهلالى عبارة عما يستأدى مشاهرة ، كأجر الأملاك المسقفة من الآدر ، والحوانيت ، والحمامات ، والأفران والطواحين ، وعداد الغنم ، والجهة الهوائية المضمونة والمحلولة .

وعد بعض الكتاب أحكار البيوت، وريع البساتين التى تستخرج أجرها مشاهرة، ومصايد السمك، ومعاصر الشيرج والزيت، فى المال الهلالى .

ومن اصطلاح كتاب مصر القدماء أن تورد جزية أهل الذمة من اليهود والنصارى قلما واحدا مستقلا بذاته، بعد الهلالى . قبل الخراجي، وذلك أنها تستأدى مسانهة، وكانوا يرون وجوبها مشاهرة . وفائدته فيمن أسلم أو مات فى أثناء الحول، فإنهم كانوا يلزمونه بقدر ما مضى من السنة قبل إسلامه أو وفاته، فلذلك أوردت فيما بين الهلالى والخراجي .

وكانوا فى الإقطاعات الجيشية، يجرونها مجرى المال الهلالى عند خروج إقطاع، فإنها كانت تستخرج على حكم الشهور الهلالية لا الشمسية . بحيث لو تعجلها مقطع فى غرة السنة على العادة فى ذلك، وخرج الإقطاع عنه فى أثناء السنة بوفاة أو نقلة الى غيره، استحق منها نظير ما مضى من شهور السنة إلى حين انتقال الإقطاع عنه، لا على حكم ما استحق من المغل . ويستحق المتصل من استقبال تاريخ منشوره، كعادة النقود والمتخلل بينهما من المدة مستحق ذلك الديوان، فيرد من جملة المحلولات من الإقطاعات .

وكان من أبواب الهلالى جهات تسمى المعاملات، وهي : الزكاة، والمواريث، والثغور، والمتجر، والشب، والنطرون، والجبس الجيوشي، ودار الضرب، ودار العيار، والجاموس، وأبقار الجبس، والأغنام، والغروس والبساتين، والأحكام والرباع، والمراكب، وما يستأدى من الذمةغير الجوالي، وساحل السنط، والخراج، والقرظ، ومقرر الجسور، وموظف الأتبان، ومقرر القصب، ومقرر البريد، ومقرر السط، وعشرا ق، وغير ذلك من جهات المكوس .

فأما الجزية، وتعرف فى زمننا بالجوالي، فانها تستخرج سلفا وتعجيلا فى غرة السنة، وكان يتحصل منها مال كثير فيما مضى .

قال القاضى الفاضل فى متجددات الحوادث : الذى انعقد عليه ارتفاع الجوالى لسنة سبع وثمانين وخمسمائة : مائة ألف وثلاثون ألف دينار . وأما فى وقتنا هذا، فإن الجوالى قلت جدا لكثرة إظهار النصارى للإسلام فى الحوادث التى مرت بهم .

ولما استبد السلطان الملك المؤيد شيخ بملك مصر، بعد الخليفة العباس بن محمد أمير المؤمنين المستعين بالله، ولى رجلا جباية الجوالي، فكثر الاستقصاء عن الذمة والكد فى الاستخراج منهم، فبلغت الجوالى فى سنة ست عشرة وثمانمائة: أحد عشر ألف دينار وأربعمائة دينار، سوى ما غرم للأعوان، وهو قدر كثير.

وأما المراعى – وهو الكلأ المطلق المباح الذى أنبته الله تعالى لرعى دواب بنى آدم – فأول من أدخلها الديوان بمصر أحمد بن مدبر، لما ولى الخراج، وصير لذلك ديوانا وعاملا جلدا يخطر على الناس أن يتبايعوا المراعى أو يشتروها الا من جهته.

وأدركنا المراعى ببلاد الصعيد مما يضاف إلى الإقطاعات، فيأخذ الأمير ممن يرعى دوابه فى أرض بلدة الكتيح فى كل سنة مالا عن كل راس، فيجبى من صاحب الماشية بعدد أنعامه... فلما اختل أمر الصعيد فى الحوادث الكائنة منذ سنة ست وثمانمائة، تلاشى الأمر فى ذلك.

وكانت العادة القديمة أن يندب للمراعى مشد وشهود وكاتب، فيعدون المواشي، ويستخرجون من أربابها عن كل رأس شيئا، ولا يكون ذلك إلا بعد هبوط النيل ونبات الكلأ واستهلاكه للمرعى.

وأما المصايد فهى ما أطعم اللّه سبحانه وتعالى من صيد البحر. وأول من أدخلها الديوان أيضا ابن مدبر، وصير لها ديوانا، واحتشم من ذكر المصايدوشناعة القول فيها، فأمر أن يكتب فى الديوان خراج مضارب الأوتار ومغارس الشاك، فاستمر ذلك.

وكان يندب لمباشرتها مشد وشهود وكاتب إلى عدة جهات، مثل خليج الإسكندرية، وبحيرة الإسكندرية، وبحيرة نسترو، وثغر دمياط، وجنادل ثغر أسوان، وغير ذلك من البرك والبحيرات ... فيخرجون عند هبوط النيل ورجوع الماء من المزارع إلى بحر النيل بعد ما تكون أفواه الترع قد سكرت، وأبواب القناطر قد سدت عند انتهاء ريادة النيل، كما يتراجع الماء ويتكاثف ممايلى المزارع.

ثم تنصب شباك وتصرف المياه، فيأتى السمك وقد اندفع مع الماء الجاري، فتصده الشباك عن الانحدار مع الماء، ويجتمع فيها، ويخرج الى البر، ويوضع على أنخاخ، ويملح

ويوضع فى الأمطار، فإذا استوى بيع وقيل له المملوحة والصير، ولا يكون ذلك إلا فيما كان من السمك فى قدر الإصبع فما دونه ويسمون هذا الصنف إذا كان طريا « ابسارية » فتؤكل مشوية ومقلية.

ويصاد من بحيرة نسترو وبحيرة تنيس وبحيرة الإسكندرية أسماك تعرف بالبوري، وقيل لها ذلك لأنها كانت تصاد عند قرية من قرى تنيس يقال لها بورة، وقد خربت، والنسبة إليها البوري، ونسب إليها جماعة من الناس منهم بنو البورى. وقيل لهذا السمك البورى إضافة إلى القرية المذكورة.

وقد بطل فى زماننا اليوم أمر هذه المصايد، إلا من بحيرة نسترو بالبرلس، وبحيرة تنيس بدمياط فقط. وهاتان البحيرتان تجريان فى ديوان الخاص، وهما مضمنتان، وما يخرج منها من البورى وغيره من أنواع السمك فللسلطان، لا يقدر أحد أن يتعرض لصيد شى منه إلا أن يكون صياديهما القائمين بالضمان. وما عدا هاتين البحيرتين من البرك والأملاق والخلجان فليست للسلطان. وأما بحيرة إسكندرية فقد جفت، وثغر أسوان فقد خرج عن يد السلطنة، وتغلب عليه أولاد الكفرة.

وثم برك بأيدى أقوام، كبركة الفيل بيد أولاد الملك الظاهر بيبرس، وبركة الرطلى بيد أولاد الأمير بكتمر الحاجب، وغير ذلك ... فإن أسماكها مضمنة لهم يبيعونها، ومع ذلك لا يمنع أحد الصيد منها.

وأما بحر النيل فما صيد منه يحمل إلى دار السمك بالقاهرة، فيباع ويؤخذ منه مكس السلطان، إلا أن الأمير جمال الدين يوسف الأستادار زاد فيما كان يؤخذ من الصيادين مكسا، ومن حينئذ قل السمك بالقاهرة وغلا سعره.

وقال أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس فى « تاريخ مصر »: إن صنما كان بالإسكندرية يقال له شراحيل، على حشفة من حشاف البحر، مستقبلا بإصبع من كفه قسطنطينية، لا يدرى أكان مما عمله سليمان النبي، أم عمله الإسكندر؟ فكانت الحيتان تدور بالإسكندرية وتصاد عنده فيما زعموا.

قال زيد بن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أخبرنى أبى عن أبيه أنه انبطح على بطنه ومد يديه ورجليه، فكان طوله طول قدم الصنم.

فكتب رجل يقال له أسامة بن زيد، كان عاملا على مصر للوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين : إن عندنا بالاسكندرية صنما، يقال له شراحيل، من نحاس، وقد غلت علينا الفلوس، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزله ويضربه فلوسا فعل، وإن رأى غير ذلك فليكتب إلى من أمره .

فكتب اليه : لا تنزله حتى أبعث إليك ضمناء يحضرونه .

فبعث إليه رجالا أمناء حتى أنزل من الحشفة، فوجدوا عينيه ياقوتتين حمراوين ليس لهما قيمة، فضربه فلوسا، فانطلقت الحيتان فلم ترجع إلى ما هنالك .

وأما الزكاة فإن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أول من جباها بمصر ... قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة : ثالث عشر ربيع الأخر فرقت الزكوات، بعد ما جمعت، على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين . بعد أن رفع إلى بيت المال السهام الأربعة، وهى سهام العاملين، والمؤلفه وفى سبيل الله وفى الرقاب، وقررت لهم فريصة، واستودى على الأموال والبضائع، وعلى ما يتقرر عليه من المواشى والنخل والخضروات .

قال : والذى انعقد عليه ارتفاع الجوالى لسنة سبع وثمانين وخمسمائة : ثلاثون ألف دينار . والزائد فى معاملة الزكاة ودار الضرب لسنتى ست وسبع وثمانين وخمسمائة : أحد وعشرون ألف دينار وثمانمائة وأحد وستون دينارا .

وقال فى سنة ثمان وثمانين : واستخدم ابن حمدان فى ديوان الزكاة، وكتب خطه بما مبلغه اثنان وخمسون ألف دينار لسنة واحدة من مال الزكاة، وجعل الطواشى قراغش الشاد فى هذا المال وألا يتصرف فيه، بل يكون فى صندوق مودعا للمهمات التى يؤمر بها .

ولما قدم ابن عنين(٢٩٦) الشاعر من عند الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن نجم الدين أيوب بن شادى ملك اليمن إلى مصر – وقد أجزل صلته عندما وفد عليه وفارقه، وقد أثرى

---

(٢٩٦) محمد بن نصر الله بن مكارم بن الحسن بن عنين أبو المحاسن شرف الدين الزرعى الحورانى الدمشقى الأنصاري . أعظم شعراء عصره، ولد سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م. ومات سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م له عدة مصنفات.
أنظر : وفيات الأعيان ٢/ ٢٥ .

ثراء كثيرا - قبض أرباب ديوان الزكاة بمصر على ما قدم به من المتجر، وطالبوه بزكاة ما معه، وكان ذلك فى أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، فقال:

ما كل من يتسمى بالعزيـــز لهـــا
أهـــل، ولا كل بـرق سحبه غدقه
بين العزيزين فرق فى فعالهمــا:
هذاك يعطي، وهذا يأخذ الصدقه

ثم إن العزيز كشف عما يستأدى من الزكاة، فإنه انتهى إليه فيها أقوال شنيعة، منها أنه أخذ من رجل فقير يبيع الملح فى قفة على رأسه زكاة عما فى القفة، وأنه بيع جمل بخمسة دنانير ذهب فأخذ زكاتها خمسة دراهم. فأمر بتفويض أمرها إلى أرباب الأموال ومن وجب عليه حق.

ثم لما كانت سلطنة الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، أخرج من زكاة الأموال التى كانت تجبى من الناس سهمى الفقراء والمساكين وأمر بصرفهما فى مصارفهما الشرعية، ورتب من جملة هذين السهمين معاليم للفقهاء والصلحاء وأهل الخير تجرى عليهم. فاستحسن ذلك: من فعله وحمله إلى ديوان الزكاة قبل منه، ومن لم يحمل لا يتعرض إليه.

فبخل الأغنياء بزكاة أموالهم حتى تضرر الفقراء والمساكين، وأخذ السعاة يبذلون فى ضمانها الأموال لتعود إلى ما كانت عليه فولى النظر فى ديوان الزكاة القاضى الأسعد شرف الدين أبو المكارم أسعد بن مهذب ابن مماتي، فاستخرج الزكاة من أربابها، ثم ضمنت بمال كثير، وعاد الأمر فيها إلى مال كان عليه من العسف والجور.

وكانت أعوان متولى الزكاة تخرج إلى منية ابن خصيب وأخميم وقوص، لكشف أحوال المسافرين من التجار والحجاج وغيرهم، فيبحثون عن جميع ما معهم، ويدخلون أيديهم أوساط الرجال خشية أن يكون معهم مال، ويحلفون الجميع بالأيمان الحرجة على ما بأيديهم وما عندهم غير ما وجدوه.

وتقوم طائفة من مردة هذه الأعوان، وبايديهم المسال الطوال ذوات الأنصبة، فيصعدون الى المراكب، ويجسون بمسالهم جميع ما فيها من الأحمال والغرائر، مخافة أن يكون فيها

شي من بضاعة أو مال، فيبالغون فى البحث والاستقصاء بحيث يقبح ويستشنع فعلهم. ويقف الحجاج بين يدى هؤلاء الأعوان مواقف خزى ومهانة، لما يصدر منهم عند تفتيش أوساطهم وغرائر أزوادهم، ويحل بهم من العسف وسوء المعاملة ما لا يوصف ... وكذلك يفعل فى جميع أرض مصر منذ عهد السلطان صلاح الدين بن أيوب.

وأما الثغور: فهى دمياط، وتنيس، ورشيد، وعيذاب، وأسوان، والإسكندرية - وهى أعظمها قدرا - فإنه كان فيها عدة جهات منها الخمس والمتجر:

فالخمس ما يستأدى من تجار الروم الواردين فى البحر عما معهم من البضائع للمتجر بمقتضى ما صولحوا عليه، وربما بلغ ما يستخرج منهم ما قيمته مائة دينار ومائتان وخمسة وثلاثون دينارا، وربما انحط عن عشرين دينارا. ويسمى كلاهما خمسا. ومن أجناس الروم من يؤخذ منهم العشر، ولذلك ضرائب مقررة.

وقال القاضى الفاضل: والحاصل من خمس الإسكندرية فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة ثمانية وعشرون ألف دينار وستمائة وثلاثة عشر دينارا.

والمتجر عبارة عما يبتاع للديوان من بضائع تدعو إليها الحاجة ويقتضيه طلب الفائدة... قال جامع سيرة الوزير اليازوري: وقصَّر النيل بمصر فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة، ولم يكن ف مخازن الغلات شيء، فاشتدت المسغبة بمصر. وكان لخلو المخازن سبب أوجب ذلك، وهو أن الوزير الناصر للدين لما أضيف إليه القضاء فى أيام أبى البركات الوزير كان يبتاع للسلطان فى كل سنة غلة بمائة ألف درهم، وتجعل متجرا.

فمثل القاضى بحضرة الخليفة المستعين بالله. وعرفه أن المتجر الذى يقام بالغلة فيه أوفى مضرة على المسلمين، وربما انحط السعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها، فتتعفن فى المخازن وتتلف، وأنه يقيم متجرا لا كلفة فيه على الناس، ويفيد أضعاف فائدة الغلة، ولا يخشى عليه من تغيره فى المخازن ولا انحطاط سعره، وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك.

فأمضى السلطان له ما رآه، واستمر ذلك، ودام الرخاء على الناس، فوسعوا فيه مدة سنين، ثم عمل الملوك بعد ذلك ديوانا للمتجر، وآخر من عمله الظاهر برقوق.

وأما الشب فإن معادنه بالصعيد، وكانت عادة الديوان الاتفاق فى تحصيل القنطار منه بالليثى (يبلغ ثلاثين درهما)، وكانت العربان تحضره فى معادنه إلى ساحل أخميم وسيوط والبهنسا ليحمل إلى الإسكندرية أيام النيل فى الخليج، ويشترى بالقنطار الليثي، ويباع بالقنطار الجروي: فيباع منه على تجار الروم قدر اثنى عشر ألف قنطار إلى ستة دنانير، ويباع منه بمصر على اللبوديين والصباغين نحو الثمانين قنطارا بالجروي، سعر ستة دنانير ونصف القنطار. ولا يقدر أحد على ابتياعه من العربان ولا غيرهم، فإن عثر على أحد أنه اشترى منه شيئا أو باعه سوى الديوان، نكل به، واستهلك ما وجد معه منه. وقد بطل هذا.

وأما النطرون فيوجد فى البر الغربى من أرض مصر بناحية الطرانة، وهو أحمر وأخضر، ويوجد منه بالفاقوسية شيء دون ما يوجد فى الطرانة. وهو أيضا مما حظر عليه ابن مدبر من الأشياء التى كانت مباحة، وجعله فى ديوان السلطان، وكان من بعده على ذلك إلى اليوم. وقد كان الرسم فيه بالديوان أن يحمل منه فى كل سنة عشرة آلاف قنطار، ويعطى الضمان منها فى كل سنة قدر ثلاثين قنطار يتسلمونها من الطرانة فتباع فى مصر بالقنطار المصري، وفى بحر الشرق والصعيد بالجروي، وفى دمياط بالليثي.

قال القاضى الفاضل: وباب النطرون كان مضمونا إلى آخر سنة خمس وثمانين وخمسمائة بمبلغ خمسة عشر ألفا وخمسمائة دينار، وحصل منه فى سنة ست وثمانين مبلغ سبعة آلاف وثمانمائة دينار. وأدركنا النطرون إقطاعا لعدة أجناد.

فلما تولى الأمير محمود بن على الأستادارية وصار مدبر الدولة فى أيام الظاهر برقوق، حاز النطرون، وجعل له مكانا لا يباع فى غيره، وهو إلى الآن على ذلك.

وأما الحبس الجيوشى فكان فى البرين الشرقى والغربي: ففى الشرقى بهتين والأميرية والمنية، وكانت تسجل هذه النواحى بعين، وفى الغربى سفط ونهيا ووسيم. وهذه النواحى حبسها أمير الجيوش بدر الجمالى على عقبه، هى والبساتين ظاهر باب الفتوح. فلما مات وطال العهد، أستأجرها الوزراء بأجرة يسيرة طلبا للفائدة، ثم أدخلت فى الديوان.

قال ابن المأمون فى تاريخه: وجميع البساتين المختصة بالورثة الجيوشية، مع البلاد التى لهم، لم تزل فى مدة أيام الوزير المأمون البطائحى بأيديهم، لم تخرج عنهم بضمان ولا بغيره.

فلما توفى الخليفة الآمر بأحكام الله، وجلس أبو على بن الأفضل بن أمير الجيوش فى الوزارة، أعاد الجميع إلى الملاك لكون نصيبه فى ذلك الأوفر.

فلما قتل واستبد الخليفة الحافظ لدين الله، أمر بالقبض على جميع الأملاك، وحل الأحباس المختصة بأمير الجيوش. فلم يزل يانس به لأنه غلام الأفضل والوزير فى ذلك الوقت، وعز الملك غلام الأوحد بن أمير الجيوش، يتلطفان ويراجعان الخليفة، مع الكتب التى أظهرها الورثة وعليها خطوط الخلفاء، إلى أن أبقاها عليهم ولم يخرجها عنهم.

ثم ارتفعت الحوطة عنها فى سنة سبع وعشرين وخمسمائة للديوان الحافظي.

ولما خدم الخطير المرتضى فى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، فى وزارة رضوان بن ولخشي، أعاد البساتين خاصة، دون البلاد، على الورثة بحكم ما آل أمرها إليه من الاختلال ونقص الارتفاع.

ولما انقرض عقب أمير الجيوش، ولم يبق منه سوى امرأة كبيرة، أفتى فقهاء ذلك العصر ببطلان الحبس. فقبضت النواحي، وصارت من جملة الأموال السلطانية : فمنها ما هو اليوم فى الديوان السلطاني، ومنها ما صار وفقا ورزقا أحباسية، وغير ذلك.

وأما دار الضرب، فكان بالقاهرة دار الضرب، وبالإسكندرية دار الضرب، وبقوص دار الضرب، ولا يتولى عيار دار الضرب إلا قاضى القضاة أو من يستخلفه، ثم رذلت فى زمننا حتى صار يليها مسالمة فسقة اليهود المصريين على الفسق مع ادعائهم الإسلام.

وكان يجتهد فى خلاص الذهب وتحرير عياره، إلى أن أفسد الناصر فرج ذلك بعمل الدنانير الناصرية. فجاءت غير خالصة. وكانت بمصر المعاملة بالورق، فأبطلها الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب فى سنة بضع وعشرين، وضرب الدرهم المدور الذى يقال له الكاملي، وجعل فيه من النحاس قدر الثلث، ومن الفضة الثلثين. ولم يزل يضرب بالقاهرة إلى أن أكثر الأمير محمود الأستادار من ضرب الفلوس بالقاهرة والإسكندرية، فبطلت الدراهم من مصر، وصارت معاملة أهلها إلى اليوم بالفلوس، وبها يقوم الذهب وسائر المبيعات. وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى عند ذكر أسباب خراب مصر.

وكانت دار الضرب يحصل منها للسلطان مال كثير، فقل فى زماننا لقلة الأموال. ودار الضرب اليوم جارية فى ديوان الخاص.

وأما دار العيار، فكانت مكانا يحتاط فيه للرعية، وتصلح موازينهم ومكاييلهم به، ويحصل منها للسلطان مال. وجعلها السلطان صلاح الدين من جملة أوقاف سور القاهرة، وقد ذكر فى خطط القاهرة من هذا الكتاب.

وأما الأحكار، فإنها أجر مقررة على ساحات بمصر والقاهرة، فمنها ما صار دورا للسكني، ومنها ما أنشئ بساتين. وكانت تلك الأجر من جملة الأموال السلطانية. وقد بطل ذلك من ديوان السلطان، وصارت أحكار مصر والقاهرة وما بينهما أوقافا على جهات متعددة.

وأما الغروس، فكانت فى الغربية فقط، عدة أراض يؤخذ منها شبه الحكر عن كل فدان مقرر معلوم، وقد بطل ذلك من الديوان.

وأما مقرر الجسور، فكان على كل ناحية تقرير بعدة قطع معلومة يجبى منها عن كل قطعة عشرة دنانير، لتصرف فى عمل الجسور فيفضل منها مال كثير يحمل إلى بيت المال، وقد بطل هذا أيضا.

وجدد الناصر فرج على الجسور حوادث قد ذكرت فى أسباب الخراب.

وأما موظف الأتبان، فكان جميع تبن أرض مصر ثلاثة أقسام: قسم للديوان، وقسم للمقطع، وقسم للفلاح. فيجبى التبن على هذا الحكم من سائر الأقاليم، ويؤخذ فى التبن عن كل مائة حمل أربعة دنانير وسدس دينار، فيحصل من ذلك مال كثير، وقد بطل هذا أيضا من الديوان.

وأما الخراج، فإنه كان فى البهنساوية وسفط ريشين والأشمونين والأسيوطية والاخميمية والقوصية أشجار لا تحصى من سنط، لها حراس يحمونها حتى يعمل منها مراكب الأسطول، فلا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار.

وكان يستخرج من هذه النواحى مال يقال له رسم الخراج، ويحتج فى جبايته بأنه نظير ما تقطعه أهل النواحي، وتنتفع به من أخشاب السنط فى عمائرها، ومقرر آخر كان يجبى منهم يعرف بمقرر السنط، فيصرف من هذا المقرر أجرة قطع الخشب وحزه بضريبة عن كل مائة حمل دينار، وعلى المستخدمين فى ذلك ألا يقطعوا من السنط ما يصلح لعمل مراكب الأسطول، لكنهم إنما يقطعون الأطراف التى ينتفع بها فى الوقود فقط.

ويقال لهذا الذى يقطع «حطب النار»، فيباع على التجار منه كل مائة حمل بأربعة دنانير، ويكتب على أيديهم زنة ما بيع عليهم، فإذا وردت المراكب بالحطب إلى ساحل مصر اعتبرت عليهم، وقوبل ما فيها بما عين فى الرسالة الواردة، واستخرج الثمن على ما فى الرسالة.

وكانت العادة أنه لا يباع مما فى البهنسا إلا ما فصل من احتياج المصالح السلطانية. وقد بطل هذا جميعه، واستولت الأيدى على تلك الأشجار فلم يبق منها شىء ألبتة، ونسى هذا من الديوان.

وأما القرظ، فإنه ثمر السنط، وكان لا يتصرف فيه إلا الديوان، ومتى وجد منه مع أحد شىء اشتراه من غير الديوان نكل به، واستهلك ما وجد معه منه. فإذا اجتمع مال القرظ أقيم منه مراكب تباع، ويؤخذ من ثمنها الربع عند ما تصل إلى ساحل مصر بعدم ما تقوم أو ينادى عليها، وكان فيها حيف كبير. وقد بطل ذلك.

وأما ما يستأدى من أهل الذمة، فإنه كان يؤخذ منهم عما يرد ويصدر معهم من البضائع، فى مصر والإسكندرية وأخيم خاصة دون بقية البلاد، ضرائب بتقرير فى الديوان. وقد بطل ذلك أيضا.

وأما مقرر الجاموس ومقرر بقر الخيس ومقرر الأغنام، فإنه للسلطان من هذه الأصناف شىء كثير جدا، فيؤخذ من الجاموس للديوان على كل رأس من الراتب فى نظير ما يتحصل منه فى كل سنة من خمسة دنانير إلى ثلاثة دنانير، ومن اللاحق بحق النصف من الراتب، وأقل ما تنتج كل مائة خمسون إلى غير ذلك من ضرائب مقررة على الجاموس وعلى أبقار الخيس وعلى الغنم البيض والغنم الشعارى وعلى النحل. وقد بطل ذلك جميعه لقلة مال السلطان، وإعراضه عن العمارة وأسبابها، وتعاطى أسباب الخراب.

وأما المواريث، فإنها فى الدولة الفاطمية لم تكن كما هى اليوم، من أجل أن مذهبهم توريث ذوى الأرحام، وأن البنت إذا انفردت استحقت المال بأجمعه. فلما انقضت أيامهم، واستولت الأيوبية، ثم الدولة التركية، صار من جملة أموال السلطان مال المواريث الحشرية، وهى التى يستحقها بيت المال عند عدم الوارث، فتعدل فيها الوزارة مرة، وتظلم أخـــرى.

وأما المكوس، فقد تقدم حدوثها، وما كان من الملوك فيها، والذى بقى منها إلى الآن بديار مصر يلى أمره الوزير. وفى الحقيقة إنما هو نفع للأقباط يتخولون فيه بغير حق. وقد تضاعفت المكوس فى زمننا عما كنا نعهده منذ عهد تحدث الأمير جمال الدين يوسف الأستادار فى الأموال السلطانية، كما ذكر فى أسباب الخراب.

وأما البراطيل، وهى الأموال التى تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبيها وقضاتها وعمالها، فأول من عمل ذلك بمصر الصالح بن رزيك فى ولاة النواحى فقط، ثم بطل. وعمل فى أيام العزيز بن صلاح الدين أحيانا، وعمله الأمير شيخون فى الولاة فقط، ثم أفحش فيه الظاهر برقوق، كما يأتى فى أسباب الخراب.

وأما الحمايات والمستجأرات، فشئ حدث فى أيام الناصر فرج، وصار لذلك ديوان ومباشرون، وعمل مثل ذلك الأمراء. وهو من أعظم أسباب الخراب كما يذكر فى موضعه إن شاء الله تعالى.

ذكـــر الاهـــرام

اعلم أن الأهرام كانت بأرض مصر كثيرة جدا، منها بناحية بوصير شئ كثير، بعضها كبار، وبعضها صغار، وبعضها طين ولبن، وأكثرها حجر، وبعضها مدرج، وأكثرها مخروط أملس.

وقد كان منها بالجيزة تجاه مدينة مصر عدة كثيرة كلها صغار، هدمت فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد قراقوش، وبنى بها قلعة الجبل، والسور المحيط بالقاهرة ومصر والقناطر التى بالجيزة.

وأعظم الأهرام: الثلاثة التى هى اليوم قائمة تجاه مصر، وقد اختلف الناس فى وقت بنائها، واسم بانيها، والسبب فى بنائها، وقالوا فى ذلك أقوالا متباينة أكثرها غير صحيح، وسأقص عليك من نبأ ذلك ما يشفى ويكفى إن شاء الله تعالي.

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه الكاتب فى «أخبار مصر وعجائبها» فى أخبار سوريد بن سهلوق بن سرياق بن توميدون بن بدرسان بن هوصال، أحد ملوك مصر قبل الطوفان الذين كانوا يسكنون فى مدينة أمسوس الآتى ذكرها عن ذكر مدائن مصر من هذا الكتاب: وهو الذى بنى الهرمين العظيمين بمصر، المنسوبين إلى شداد بن عاد... والقبط تنكر أن تكون العادية دخلت بلادهم لقوة سحرهم.

وسبب بناء الهرمين أنه كان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة قد رأى سوريد فى منامه كأن الأرض انقلبت بأهلها، وكأن الناس قد هربوا على وجوههم، وكأن الكواكب تتساقط ويصدم بعضها بعضا بأصوات هائلة... فغمه ذلك، ولم يذكره لأحد، وعلم أنه سيحدث فى العالم أمر عظيم.

ثم رأى بعد ذلك بأيام كأن الكواكب الثابتة نزلت إلى الأرض فى صور طيور بيض، وكأنها تختطف الناس وتلقيهم بين جبلين عظيمين، وكأن الجبلين قد انطبقا عليهم، وكأن الكواكب المنيرة مظلمة مكسوفة.

فانتبه مرعوبا مذعورا، ودخل إلى هيكل الشمس، وتضرع ومرغ خديه على التراب وبكى.

فلما أصبح، جمع رؤساء الكهنة من جميع أعمال مصر - وكانوا مائة وثلاثين كاهنا - فخلا بهم، وحدثهم ما رآه أولا وآخرا، فأولوه بأمر عظيم يحدث فى العالم.

فقال عظيم الكهان، ويقال له أقليمون: إن أحلام الملوك لا تجرى على محال لعظم أقدارهم، وأنا أخبر الملك برؤيا رأيتها منذ سنة، ولم أذكرها لأحد من الناس.

رأيت كأنى قاعد مع الملك على وسط المنار الذى بأمسوس، وكأن الفلك قد انحط من موضعه حتى قارب رؤوسنا، وكان علينا كالقبة المحيطة بنا، وكأن الملك قد رفع يديه نحو السماء، وكواكبها قد خالطتها فى صور شتى مختلفة الأشكال، وكأن الناس قد جفلوا إلى قصر الملك وهم يستغيثون به، وكأن الملك قد رفع يديه حتى بلغتا رأسه وأمرنى أن أفعل كما فعل... ونحن على وجل شديد، إذ رأينا منها موضعا قد انفتح وخرج منه نور مضىء، وطلعت علينا منه الشمس، وكأنا استغثنا بالشمس فخاطبتنا أن الفلك سيعود إلى موضعه، فانتبهت مرعوبا.

ثم نمت فرأيت كأن مدينة أمسوس قد انقلبت بأهلها، والاصنام تهوى على رؤوسها، وكأن أناسا نزلوا من السماء بأيديهم مقامع من حديد يضربون الناس بها، فقلت لهم: ولم تفعلون بالناس كذا؟

قالوا: لأنهم كفروا بإلههم.

فقلت: فما بقى لهم من خلاص؟

قالوا: نعم، من أراد الخلاص فليلحق بصاحب السفينة.

فانتبهت مرعوبا.

فقال الملك: خذوا الارتفاع للكواكب، وانظروا هل من حادث؟

فبلغوا غايتهم فى استقصاء ذلك، وأخبروا بأمر الطوفان وبعده بالنار التى تخرج من برج الأسد تحرق العالم.

فقال الملك: انظروا، هل تلحق هذه الآفة بلادنا؟

فقالوا: نعم، تأتى فى الطوفان على أكثره، ويلحقه خراب يقيم عدة سنين.

قال: فانظروا هل يعود عامرا كما كان أو يبقى مغمورا بالماء دائما.

قالوا: بل تعود البلاد كما كانت وتعمر.

قال: ثم ماذا؟

قالوا: يقصدها ملك يقتل أهلها ويغنم مالها.

قال؟ ثم ماذا؟

قالوا: يقصدها قوم مشوهون من ناحية جبل النيل، ويملكون أكثرها.

قال: ثم ماذا؟

قالوا: ينقطع نيلها، وتخلو من أهلها.

فأمر عند ذلك بعمل الأهرام، وأن يعمل لها مسارب يدخل منها النيل إلى مكان بعينه، ثم يفيض إلى مواضع من أرض الغرب وأرض الصعيد، وملأها طلسمات وعجائب وأموالا وأصنافا وأجساد ملوكهم، وأمر الكهان فزبروا عليها جميع ما قالته الحكماء، وزبر فيها وفى سقوفها وحيطانها واسطواناتها جميع العلوم الغامضة التى يدعيها أهل مصر.

وصور فيها صور الكواكب كلها، وزبر عليها أسماء العقاقير ومنافعها ومضارها، وعلم الطلمسات وعلم الحساب والهندسة وجميع علومهم مفسرا لمن يعرف كتابتهم ولغتهم.

ولما شرع فى بنائها أمر بقطع الأسطوانات العظيمة، ونشر البلاط الهائل، واستخراج الرصاص من أرض المغرب، وإحضار الصخور من ناحية أسوان. فبنى بها أساس الأهرام الثلاثة الشرقى والغربى والملون، وكانت لهم صحائف وعليها كتابة، إذا قطع الحجر وتم إحكامه، وضعوا عليه تلك الصحائف وضربوه، فيبعد بتلك الضربة قدر مائة سهم، ثم يعاودون ذلك حتى يصل الحجر إلى الأهرام. وكانوا يمدون البلاطة ويجعلون فى ثقب بوسطها قطبا من حديد قائما، ثم يركبون عليها بلاطة أخرى مثقوبة الوسط ويدخلون القطب فيها، ثم يذاب الرصاص ويصب فى القطب حول البلاطة بهندام واتقان... إلى أن كملت.

وجعل لها أبوابا تحت الأرض بأربعين ذراعا: فأما باب الهرم الشرقي، فإنه من الناحية الشرقية على مقدار مائة ذراع من وسط حائط. وأما باب الهرم الملون، فإنه من الناحية

الجنوبية على مقدار مائة ذراع من وسط الحائط. فإذا حفر بعد هذا القياس، وصل إلى باب الأزج المبني، ويدخل إلى باب الهرم.

وجعل ارتفاع كل واحد من الأهرام فى الهواء مائة ذراع بالذراع الملكي، وهو بذراعهم خمسمائة ذراع بذراعنا الآن، وجعل طول كل واحد من جميع جهاته مائة ذراع بذراعهم، ثم هندسها من كل جانب حتى تحددت أعاليها من آخر طولها على ثمانية أذرع بذراعنا.

وكان ابتداء بنائها فى طالع سعيد اجتمعوا عليه وتخيروه. فلما فرغت، كساها ديباجا ملونا من فوقها إلى أسفلها، وعمل لها عيدا حضره أهل مملكته بأجمعها.

ثم عمل فى الهرم الغربى ثلاثين مخزنا من حجارة صوان ملون، وملئت بالأموال الجمة والآلات والتماثيل المعمولة من الجواهر النفيسة وآلات الحديد الفاخر من السلاح الذى لا يصدأ، والزجاج الذى ينطوى ولا ينكسر، والطلسمات الغريبة، وأصناف العقاقير المفردة والمؤلفة، والسموم القاتلة.

وعمل فى الهرم الشرقى أصناف القباب الفلكية والكواكب، وما عمله أجداده من التماثيل والدخن التى يتقرب بها إلى الكواكب ومصاحفها، وكون الكواكب الثابتة وما يحدث فى أدوارها وقتا وقتا، وما عمل لها من التواريخ والحوادث التى مضت، والأوقات التى ينتظر فيها ما يحدث، وكل من يلى مصر إلى آخر الزمان، وجعل فيها المطاهر التى فيها المياه المدبرة، وما أشبه ذلك.

وجعل فى الهرم الملون أجساد الكهنة فى توابيت من صوان أسود، ومع كل كاهن مصحف فيه عجائب صناعاته وأعماله وسيرته، وما عمل فى وقته، وما كان وما يكون من أول الزمان إلى آخره، وجعل فى الحيطان من كل جانب أصناما تعمل بأيديها جميع الصنائع على مراتبها وأقدارها، وصفة كل صنعة وعلاجها وما يصلح لها. ولم يترك عملا من العلوم حتى زبره ورسمه.

وجعل فيها أموال الكواكب التى أهديت إلى الكواكب، وأموال الكهنة، وهو شئ عظيم لا يحصى.

وجعل لكل هرم منها خادما: فخادم الهرم الغربي صنم من حجارة صوان مجزع، وهو واقف ومعه شبه حربة، وعلى رأسه حية قد تطوق بها: من قرب منه وثبت إليه وطوقت على عنقه وقتلته، ثم تعود إلى مكانها. وجعل خادم الهرم الشرقي صنما من جزع أسود مجزع بأسود وأبيض، له عينان مفتوحتان براقتان، وهو جالس على كرسي ومعه حربة: إذا نظر أحد إليه سمع من جهته صوتا يفزع منه فيخر على وجهه، ولا يبرح حتى يموت. وجعل خادم الهرم الملون صنما من حجر البهت على قاعدة منه: من نظر إليه، جذبه حتى يلتصق به فلا يفارقه حتى يموت.

فلما فرغ من ذلك، حصن الأهرام بالأرواح الروحانية، وذبح لها الذبائح لتمنع عن أنفسها من أرادها، إلا من عمل لها أعمال الوصول إليها.

وذكر القبط في كتبهم أن عليها منقوشا تفسيره بالعربية: أنا سوريد الملك، بنيت هذه الأهرام في وقت كذا كذا، وأتممت بناءها في ست سنين. فمن أتى بعدي، وزعم أنه ملك مثلي، فليهدمها في ستمائة سنة، وقد علم أن الهدم أيسر من البنيان، وأني كسوتها عند فراغها بالديباج، فليكسها بالحصر.

فنظروا فوجدوا أنه لا يقوم بهدمها شيء من الأزمان الطوال.

وحكى القبط في كتبهم أن روحانية الهرم الشمالي غلام أمرد، أصفر اللون، عريان في فمه أنياب كبار. وروحانية الهرم الجنوبي إمرأة عريانة، بادية الفرج، حسناء، في فمها أنياب كبار، تستهوي الإنسان إذا رأته، وتضحك له حتى يدنو منها فتسلبه عقله، وروحانية الهرم الملون شيخ في يده مجمرة من مجامر الكنائس يبخر بها. وقد رأى غير واحد من الناس هذه الروحانيات مرارا وهي تطوف حول الأهرام وقت القائلة وعند غروب الشمس.

قال: ولما مات سوريد، دفن في الهرم ومعه أمواله وكنوزه. وقالت القبط: إن سوريد هو الذي بنى البرابي، وأودع فيها كنوزا، وزبر عليها علوما، ووكل بها روحانيات تحفظها ممن يقصدها.

قال: وإما الأهرام الدهشورية، فيقال إن شدات بن عديم هو الذى بناها من الحجارة التى كانت قد قطعت فى زمن أبيه. وشدات هذا يزعم الناس أنه شداد بن عاد. وقال من أنكر أن يكون العادية دخلت مصر: إنما غلطوا باسم شدات بن عديم، فقالوا شداد ابن عاد، لكثرة ما يجرى على ألسنتهم شداد ابن عاد، وقلة ما يجرى على ألسنتهم شدات بن عديم، وإلا فما قدر أحد من الملوك يدخل مصر، ولا قوى على أهلها، غير بخت نصر والله أعلم.

وذكر أبو الحسن المسعودى فى كتابه «أخبار الزمان، ومن أباده الحدثان» أن الخليفة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد، لما قدم مصر وأتى على الأهرام، أحب أن يهدم أحدها ليعلم ما فيها، فقيل له إنك لا تقدر على ذلك، فقال: لابد من فتح شئ منه.

ففتحت له الثلمة المفتوحة الآن بنار توقد، وخل يرش، ومعاول وحدادين يعملون فيها، حتى أنفق عليها أموالا عظيمة، فوجدوا عرض الحائط قريبا من عشرين ذراعا. فلما انتهوا إلى آخر الحائط، وجدوا خلف الثقب مطهرة خضراء فيها ذهب مضروب، وزن كل دينار أوقية، وكان عددها ألف دينار.

فجعل المأمون يتعجب من ذلك الذهب ومن جودته، ثم أمر بجملة ما أنفق على الثلمة فوجدوا الذهب الذى أصابوه لا يزيد على ما أنفقوه ولا ينقص، فعجب من معرفتهم بمقدار ما ينفق عليه، ومن تركهم ما يوازيه فى الموضع، عجبا عظيما.

وقيل إن المطهرة التى وجد فيها الذهب كانت من زبرجد، فأمر بحملها إلى خزانته.

وكان آخر ما عمل من عجائب مصر، وأقام الناس سنين يقصدونه، وينزلون فى الزلاقة التى فيه: فمنهم من يسلم، ومنهم من يهلك.

فاتفق عشرون من الأحداث على دخوله، وأعدوا لذلك ما يحتاجون من طعام وشراب وحبال وشمع ونحوه، ونزلوا فى الزلاقة، فرأوا فيها من الخفاش ما يكون كالعقبان يضرب وجوههم، ثم أنهم أدلوا أحدهم بالحبال فانطبق عليه المكان، وحاولوا جذبه حتى أعياهم، فسمعوا صوتا أرعبهم فغشى عليهم، ثم قاموا وخرجوا من الهرم.

فبينما هم جلوس يتعجبون مما وقع لهم إذ أخرجت الأرض صاحبهم حيا من بين أيديهم

يتكلم بكلام لم يعرفوه، ثم سقط ميتا، فحملوه ومضوا به. فأخذهم الخفراء وأتوا بهم إلى الوالى فحدثوه خبرهم، ثم سألوا عن الكلام الذى قال صاحبهم قبل موته، فقيل لهم: معناه، هذا جزاء من طلب ما ليس له. وكان الذى فسر لهم معناه بعض أهل الصعيد.

وقال على بن رضوان الطبيب: فكرت فى بناء الأهرام، فأوجب علم الهندسة العملية، ورفع الثقيل إلى فوق، أن يكون القوم هندسوا سطحا مربعا، ونحتوا الحجارة ذكرا وأنثي، ورصوها بالجبس البحرى إلى أن ارتفع البناء مقدار ما يمكن رفع الثقيل. وكانوا كلما صعدوا ضموا البناء حتى يكون السطح الموازى للمربع الأسفل مربعا أصغر من المربع السفلاني، ثم عملوا فى السطح المربع الفوقانى مربعا أصغر بمقدار ما بقى فى الحاشية ما يمكن رفع الثقيل إليه ذكرا وأنثى، إلى أن ارتفع مقدار مثل المقدار الأول. ولم يزالوا يفعلون ذلك إلى أن بلغوا غاية لا يمكنهم بعدها أن يفعلوا ذلك، فقطعوا الارتفاع ونحتوا الجوانب البارزة التى فرضوها لرفع الثقيل، ونزلوا فى النحت من فوق إلى أسفل، وصار الجميع هرما واحدا.

وقياس الهرم الأول بالذراع التى تقاس بها اليوم الأبنية بمصر، كل حاشية منه أربعمائة ذراع، يكون بالذراع السوداء ـ التى طول كل ذراع منها أربعة وعشرين إصبعا ـ خمسمائة ذراع. وذلك أن قاعدته مربع متساوى الأضلاع والزوايا: ضلعان منهما على خط نصف النهار، وضلعان على خط المشرق والمغرب، وكل ضلع بالذراع السوداء خمسمائة ذراع. والخط المنحدر على استقامة من رأس الهرم إلى نصف ضلع المربع أربعمائة وسبعون ذراعا، يكون إذا تمم أيضا خمسمائة ذراع.

وأحيط بالهرم أربعة مثلثات ومربع، كل مثلث منها متساوى الساقين، كل ساق منه إذا تمم خمسمائة وستون ذراعا. والمثلثات الأربعة تجتمع رؤوسها عند نقطة واحدة، وهى رأس الهرم إذا تمم، فيلزم أن يكون عموده أربعمائة وثلاثون ذراعا.

وعلى هذا العمود مراكز أثقاله، ويكون تكسير كل مثلث من مثلثاته مائة وخمسة وعشرين ألف ذراع، إذا اجتمع تكاسيرها كان مبلغ تكسير سطح هذا الهرم خمسمائة ألف ذراع بالسوداء.

وما أحسب على وجه الأرض بناء أعظم منه، ولا أحسن هندسة، ولا أطول والله أعلم.

وقد فتح المأمون نقبا من هذا الهرم فوجد فيه زلاقة تصعد إلى بيت مربع مكعب ووجد فى سطحه قبر رخام، وهو باق فيه إلى اليوم، ولم يقدر أحد يخطه.

وبذلك أخبر جالينوس أنها قبور، فقال فى آخر الخامسة من تدبير الصحة بهذا اللفظ: «وهم يسمون من كان فى هذا السن الهرم، وهو اسم مشتق من الأهرام التى هم إليها صائرون عن قريب».

وقال الحوقلى فى صفة مصر: وبها الهرمان اللذان ليس على وجه الأرض لهما نظير ملك مسلم ولا كافر، ولا عمل ولا يعمل لهما.

وقرأ بعض بنى العباس على أحدهما: إنى قد بنيتها، فمن كان يدعى قوة فى ملكه فليهدمهما، فالهدم أيسر من البنيان. فهم بذلك، وأظنه المأمون أو المعتصم، فإذا خراج مصر لا يقوم به يومئذ. وكان خراجها على عهده، بالإنصاف فى الجباية وتوخى الرفق بالرعية والمعدلة، إذا بلغ النيل سبع عشرة ذراعا وعشر أصابع: أربعة آلاف ألف ومائتى ألف وسبعة وخمسين ألف دينار، والمقبوض على الفدان دينارين. فأعرض عن ذلك ولم يعد فيه شيئا.

وفى حد الفسطاط فى غربى النيل أبنية عظماء يكثر عددها، مفترشة فى سائر الصعيد، تدعى الأهرام، وليست كالهرمين اللذين تجاه الفسطاط، وعلى فرسخين منها، ارتفاع واحد منهما أربعمائة ذراع، وعرضه كارتفاعه مبنى بحجارة الكذان التى سمك الحجر وطوله وعرضه من العشر أذرع إلى الثمان، بحسب ما دعت الحاجة إلى وضع فى زيادته ونقصه، وأوجبيه الهندسة عندهم، لأنهما كلما ارتفعا فى البناء ضاقا حتى يصير أعلاهما من كل واحد منهما مثل مبرك جمل، وقد ملئت حيطانهما بالكتابة اليونانية.

وقد ذكر قوم أنهما قبران، وليس كذلك، وإنما حمل صاحبهما على عملهما أنه قضى بالطوفان أنه يهلك جميع ما على وجه الأرض إلا ما حصن فى مثلهما، فخزن ذخائره وأمواله فيهما. وأتى الطوفان ثم نضب، فصار ما كان فيهما إلى بيصر بن مصرايم بن حام بن نوح وقد خزن فيهما بعض الملوك المتأخرين، وجعلهما هراءه. والله أعلم.

وقال أبو يعقوب محمد بن إسحاق النديم الوراق فى كتاب «الفهرست» وقد ذكر هرمس البابلي : قد اختلف فى أمره :

فقيل إنه كان أحد السدنة السبعة الذين رتبوا لحفظ البيوت السبعة ، وإنه كان لترتيب عطارد ، وباسمه سمي ، فإن عطارد باللغة الكلدانية هرمس.

وقيل إنه انتقل إلى أرض مصر بأسباب ، وأنه ملكها ، وكان له أولاد منهم طا وصا وأشمن وأتريب وقفط ، وأنه كان حكيم زمانه ، وأنه لما توفى دفن فى البناء الذى يعرف بمدينة مصر بأبى هرميس ، ويعرفه العامة بالهرمين ، فإن أحدهما قبره ، والآخر قبر زوجته ، وقيل قبر ابنه الذى خلفه بعد موته.

وهذه البنية (يعنى الأهرام) طولها بالذراع الهاشمى أربعمائة ذراع وثمانون دراعا ، على مساحة أربعمائة وثمانين دراعا ، ثم ينخرط البناء ، فإذا حصل الإنسان فى رأسه ، كان مقدار سطحة أربعين دراعا ... هذا بالهندسة ..

وفى وسط هذا السطح قبة لطيفة فى وسطها شبيهة بالمقبرة ، وعند رأس ذلك القبر صخرتان فى نهاية النظافة والحسن وكثرة التلون ، وعلى كل واحدة منهما شخصان من حجارة صورة ذكر وأنثي ، وقد تلاقيا بوجهيهما ، وبيد الذكر لوح من حجارة فيه كتابة ، وبيد الأنثى مرآة ، والرف ذهب نقشه نقاش.

وبين الصخرتين برنية من حجارة على رأسها غطاء ذهب ، فلما قلع فإذا فيها شبيه بالقار بغير رائحة قد يبس. وفيها حقة ذهب ، فنزع رأسها ، فاذا فيها دم عبيط ، ساعة قرعه الهواء جمد كما يجمد الدم وجف.

وعلى القبور أغطية حجارة ، فلما قلعت إذا رجل نائم على قفاه على نهاية الصحة والجفاف ، بين الخلقة ، ظاهر الشعور ، وإلى جنبه امرأة على هيئته.

قال : وذلك السطح منقر نحو قامة ، كما يدور مثل المسمار ، ذات أزاج من حجارة ، فيها صور وتماثيل مطروحة وقائمة ، وغير ذلك من الآلة التى لا تعرف أشكالها.

وقال العلامة موفق الدين عبد اللطيف بن أبى العز يوسف بن أبى البركات محمد بن على بن سعد البغدادى المعروف بابن المطحن فى سيرته : وجاء رجل جاهل عجمي ، فخيل

إلى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف أن الهرم الصغير تحته مطلب، فأخرج إليه الحجارين وأكثر العسكر، وأخذوا فى هدمه، وأقاموا على ذلك شهورا، ثم تركوه عن عجز وخسران مبين فى المال والعقل.

ومن يرى حجارة الهرم يقول إنه قد استوصل الهرم، ومن يرى الهرم لايجد به إلا تشعيثا يسيرا. هل تقدرون على إعادته؟ فقال: لو بذل لنا السلطان عن كل حجر ألف دينار لم يمكنا ذلك.

وقال أبو الحسن المسعودى فى «مروج الذهب»: وأما الأهرام، فطولها عظيم وبنيانها عجيب، عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم السالفة والممالك الدائرة، لا يدرى ما تلك الكتابة ولا المراد بها. وقد قال من عنى بتقدير ذرعها: أن مقدار ارتفاع الهرم الكبير، ذهابا فى الجو، نحو أربعمائة ذراع أو أكثر، وكلما صعد دق ذلك، والعرض نحو ما وصفنا، وعليها من الرسوم علوم وخواص وسحر وأسرار الطبيعة، وأن من تلك الكتابة مكتوبا: إنا بنيناها، فمن يدعى موازاتنا فى الملك وبلوغ القدرة وانتهاء أمر السلطان، فليهدمها وليزل رسمها، فإن الهدم أيسر من البناء، والتفريق أسهل من التأليف.

وقد ذكر أن بعض ملوك الإسلام شرع بهدم بعضها، فإذا خراج مصر لايفى بقلعها، وهى من الحجر والرخام، وأنها قبور الملوك.

وكان الملك منهم إذا مات وضع فى حوض من حجارة - ويسمى بمصر والشام الجرون - وأطبق عليه، ثم بنى من الهرم على مقدار ما يريدون من ارتفاع الأساس، ثم يحمل الحوض ويوضع وسط الهرم، ثم يقنطر عليه البنيان، ثم يرفعون البناء على المقدار الذى يرونه، ويجعل باب الهرم تحت الهرم، ثم يحفر له طريق فى الأرض، ويعقد أزج طوله تحت الأرض مائة ذراع أو أكثر. ولكل هرم من هذه الأهرام باب مدخله على ما وصفت.

قال: وكان القوم يبنون الهرم من هذه الأهرام مدرجا ذا مراق كالدرج، فإذا فرغوا نحتوه من فوق إلى أسفل، فهذه كانت جبلتهم. وكانوا مع ذلك لهم قوة وصبر وطاعة.

وقال فى كتاب «البنية والاشراف»، والهرمان اللذان فى الجانب الغربى من فسطاط مصر هما من عجائب بنيان العالم، كل واحد منهما أربعمائة ذراع فى سمك مثل ذلك، مبنيان

بالحجر العظيم على الرياح الأربع، كل ركن من أركانهما يقابل ريحا منها، فأعظمها فيهما تأثيرا ريح الجنوب، وهى المريسي.

وأحد هذين الهرمين قبر أغاديمون، والآخر قبر هرمس، وبينهما نحو ألف سنة، وأغاديمون المتقدم.

وكان سكان مصر، وهم الأقباط، يعتقدون نبوتهما قبل ظهور النصرانية فيهم، على ما يوجبه رأى الصابئين فى النبوات، لا على طريق الوحي، بل هم عندهم نفوس طاهرة صفت وتهذبت من أدناس هذا العالم، فاتحدت بهم مواد علوية، فأخبروا عن الكائنات قبل كونها، وعن سرائر العالم، وغير ذلك.

وفى العرب من اليمانية من يرى أنهما قبل شداد بن عاد وغيره من ملوكهم السالفة الذين غلبوا على بلاد مصر فى قديم الدهر، وهم العرب العاربة من العماليق وغيرهم.

وهى عند من ذكرنا من الصابئين قبور أجساد طاهرة.

وذكر أبو زيد البلخى أنه وجد مكتوبا على الأهرام بكتابتهم خط، فعرب فإذا هو «بنو هذان الهرمان والنسر الواقع فى السرطان» فحسبوا من ذلك الوقت إلى الهجرة النبوية، فاذا هو ست وثلاثون ألف سنة شمسية مرتين، يكون اثنتين وسبعين ألف سنة شمسية.

وقال الهمدانى فى كتاب «الإكليل»: لم يوجد مما كان تحت الماء وقت الغرق من القرى قرية فيها بقية سوى نهاوند - وجدت كما هى اليوم لم تتغير - وأهرام الصعيد من أرض مصر.

وذكر أبو محمد عبد الله بن عبد الرحيم القيسى فى كتاب «تحفة الألباب» أن الأهرام مربعة الجملة، مثلثة الوجوه، وعددها ثمانية عشر هرما، فى مقابلة الفسطاط ثلاثة أهرام، أكبرها دوره ألفا ذراع، فى كل وجه خمسمائة ذراع، وعلوه خمسمائة ذراع، وكل حجر من حجارتهما ثلاثون ذراعا فى غلظ عشرة أذرع، قد أحكم إلصاقه ونحته.

ومنها عند مدينة فرعون يوسف هرم أعظم وأكبر، دوره ثلاثة آلاف ذراع، وعلوه سبعمائة، من حجارة كل حجر خمسون ذراعا.

وعند مدينة فرعون موسى أهرام أكبر وأعظم، وهو هرم آخر يعرف بهرم مدون كأنه جبل، وهو خمس طبقات.

وفتح المأمون الهرم الكبير الذى تجاه الفسطاط.

قال: وقد دخلت فى داخله، فرأيت قبة مربعة الأسفل، مدورة الأعلى، كبيرة، فى وسطها بئر عمقها عشرة أذرع، وهى مربعة، ينزل الإنسان فيها فيجد فى كل وجه من تربيع البئر بابا يفضى إلى دار كبيرة، فيها موتى من بنى آدم، عليهم أكفان كثيرة، أكثر من مائة ثوب على كل واحد، قد بليت بطول الزمان، واسودت.

وأجسامهم مثلنا ليسوا طوالا، ولم يسقط من أجسامهم ولا من شعورهم شيء، وليس فيهم شيخ ولا من شعره أبيض، وأجسادهم قوية لا يقدر الإنسان ان يزيل عضوا من أعضائهم ألبتة، ولكنهم خفوا حتى صاروا كالغثاء لطول الزمان، وفى تلك البئر أربعة من الدور مملوءة بأجساد الموتى، وفيها خفاش كثير، وكانوا يدفنون أيضا جميع الحيوان فى الرمـــال.

ولقد وجدت ثيابا ملفوفة كثيرا، مقدار جرمها أكثر من ذراع، وقد احترقت تلك الثياب من القدم، فأزلت الثياب إلى أن ظهرت خرق صحاح قوية بيض من كتان، أمثال العصائب، فيها أعلام من الحرير الأحمر، وفى داخلها هدهد ميت لم يتناثر من ريشه ولا من جسده شيء، كأنه قد مات الآن.

وفى القبة التى فى الهرم باب يفضى إلى علو الهرم، وليس فيه درج، عرضه نحو خمسة أشبار، يقال إنه صعد فيها فى زمان المأمون فأفضوا إلى قبة صغيرة فيها صورة آدمى من حجر أخضر كالدهنج، فأخرجت إلى المأمون فإذا هى مطبقة، فلما فتحت وجد فيها جسد آدمى عليه درع من ذهب، مزين بأنواع الجواهر، وعلى صدره نصل سيف لا قيمة له، وعند رأسه حجر ياقوت أحمر كبيضة الدجاجة، يضيء كلهب النار، فأخذه المأمون.

وقد رأيت الصنم الذى أخرج منه ذلك الميت ملقى عند باب دار الملك بمصر فى سنة إحدى عشرة وخمسمائة.

وقال القاضى الجليل أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي: روى على بن الحسن بن خلف ابن قديد، عن يحيي بن عثمان بن صالح، عن محمد على بن صخر التميمي، قال: حدثنى رجل من عجم مصر، من قرية من قراها تدعى قفط. وكان عالما بأمور مصر

وأحوالها، وطالبا لكتبها القديمة ومعادنها ـ قال: وجدنا فى كتبنا القديمة قال: وأما الأهرام فإن قوما احتفروا قبرا فى دير أبى هرميس، فوجدوا فيه ميتا فى أكفانه، وعلى صدره قرطاس ملفوف فى خرق، فاستخرجوه من الخرق فرأوا كتابا لا يعرفونه، وكان الكتاب بالقبطية الأولي، فطلبوا من يقرأه لهم فلم يقدروا عليه، فقيل لهم إن بدير القلمون من أرض الفيوم راهبا يقرأه. فخرجوا إليه، وقد ظنوا أنه فى الضيعة، فقرأه لهم.

وكان فيه: «كتب هذا الكتاب فى أول سنة من ملك ديقلطيانس الملك، وإنا استنسخناه من كتاب نسخ فى أول سنة من ملك فيلبش استنسخه من صحيفة من ذهب فرق كتابتها حرفا حرفا، وكان من الكتاب الأول ترجمه له أخوان من القبط يقال لأحدهما أيلو والآخر يرثا...

«وإن الملك فيلبش سألهما عن سبب معرفتهما بما جهله الناس من قراءته، فذكرا أنهما من ولد رجل من أهل مصر الأوائل، لم ينج من الطوفان من أهل مصر أحد غيره، وكان سبب نجاته أنه أتى نوحا عليه السلام فآمن به، ولم يأته من أهل مصر غيره، فحمله معه فى السفينة، فلما نضب ماء الطوفان أتى مصر ومعه نفر من ولد حام بن نوح، وكان بها حتى هلك، فورث ولده علم كتاب أهل مصر الأول، فورثناه عنه كابرا عن كابر».

وكان تاريخه الذى مضى إلى أن استنسخه فيلبش ألفا وثلاثمائة واثنتين وسبعين سنة، وأن الذى استنسخه فى صحيفة من ذهب فرق كتابتها حرفا حرفا على ما وجده فيلبش، وإن تاريخه إلى أن استنسخه ألف وسبعمائة سنة وخمس وثمانون سنة.

وكان الكتاب المنسوخ: «إنا نظرنا فيما ندل عليه النجوم فرأينا أن آفة نازلة من السماء وخارجة من الأرض. فلما بان لنا الكون نظرنا ما هو، فوجدناه ماء مفسدا للأرض وحيوانها ونباتها. فلما تم اليقين من ذلك عندنا قلنا لملكنا سوريد بن سهلوق: مر ببناء أفروشات وقبر لك وقبر لأهل بيتك، فبنى لهم الهرم الشرقي، وبنى لأخيه هوحيت الهرم الغربي، وبنى لابن هوحيت الهرم الملون، وبنيت أفروشات فى أسفل مصر وأعلاها...

«فكتبنا فى حيطانها علم غامض أمر النجوم وعللها، والصنعة والهندسة والطب، وغير ذلك مما ينفع ويضر، ملخصا مفسرا لمن عرف كلامنا وكتابتنا...

«وإن هذه الآفة نازلة بأقطار العالم، وذلك عند نزول قلب الأسد فى أول دقيقة من رأس السرطان، ويكون الكوكب عند نزوله إياها فى هذه المواضع من الفلك: الشمس والقمر فى أول دقيقة من رأس الحمل وقوريس فى درجة وثمان وعشرين دقيقة، ورراويس فى الحوت فى تسع وعشرين درجة وثمان وعشرين دقيقة، وآويس فى الحوت فى تسع وعشرين درجة وثلاث دقائق، وأفرد وبطن فى الحوت فى ثمان وعشرين درجة ودقائق، وهرمس فى الحوت فى سبع وعشرين درجة ودقائق، والجوزهر فى الميزان وأوج القمر فى الأسد فى خمس درجات ودقائق...

ثم نظرنا هل يكون بعد هذه الآفة كون مضر بالعالم، فأصبنا الكواكب تدل على أن آفة نازلة من السماء إلى الأرض، وأنها ضد الآفة الأولي، وهى نار محرقة أقطار العالم...

«ثم نظرنا متى يكون هذا الكون المضر فرأيناه يكون عند حلول قلب الأسد فى آخر دقيقة من الدرجة الخامسة عشرة من الأسد، ويكون ايليس معه فى دقيقة واحدة متصلة بقوريس من تثليث الرامي، ويكون راويس مشترى فى أول الأسد فى آخر احتراقه ومعه آويس فى دقيقة، ويكون سليس فى الدلو مقابلا لا يليس الشمس ومعه الذنب فى اثنتين وعشرين، ويكون كسوف شديد له مكث يوازى القمر، ويكون هرمس عطارد فى بعده الأبعد أمامها مقبلين، أما أفراد وبطن فللاستقامة، وأما هرمس فللرجعة...

«قال الملك فهل عندكم من خبر توقفونا عليه غير هاتين الآفتين؟

«قالوا: إذا قطع قلب الأسد ثلثى سدس أدواره، لم يبق من حيوان الأرض متحرك إلا تلف. فاذا استتم أدواره تحللت عقد الفلك، وسقط على الأرض.

«قال لهم: وأى يوم فيه انحلال الفلك؟

«قالوا: اليوم الثانى من بدو حركة الفلك»...

فهذا ما كان القرطاس.

فلما مات الملك سوريد بن سهلوق، دفن فى الهرم الشرقي، ودفن هوحيت فى الهرم الغربي، ودفن كرورس فى الهرم الذى أسفله من حجارة أسوان وأعلاه كذان.

ولهذه الأهرام أبواب فى أزج تحت الأرض، طول كل أزج مائة وخمسون ذراعا، فأما باب الهرم الشرقى فمن الناحية البحرية، وأما باب أزج الهرم الموزر فمن الناحية القبلية.

وفى الأهرام من الذهب وحجارة الزمرد ما لا يحتمله الوصف.

وإن مترجم هذا الكتاب من القبطى إلى العربى أجمل التاريخين إلى أول يوم من توت وهو يوم الأحد طلوع شمسه سنة خمس وعشرين ومائتين من سنى العرب، فبلغت أربعة آلاف وثلاثمائة وإحدى وعشرين سنة لسنى الشمس.

ثم نظر كم مضى للطوفان إلى يومه هذا فوجده ألفا وسبعمائة وإحدى وأربعين سنة وتسعة وخمسين يوما وثلاثة عشرة ساعة وأربعة أخماس ساعة وتسعة وخمسين جزءا من أربعمائة جزء من ساعة، فألقاها من الجملة فبقى معه ثلاثمائة وتسع ساعات وأحد وعشرون جزءا من أربعمائة جزء من ساعة.

فعلم أن هذا الكتاب المؤرخ كتب قبل الطوفان بهذه السنين والأيام والساعات والكسر من الساعة.

وأما الهرم الذى بدير أبى هرميس، فإنه قبر قرياس، وكان فارس أهل مصر، وكان يعد بألف فارس، فإذا لقيهم لم يقوموا به وانهزموا. وأنه مات فجزع الملك عليه جزعا بلغ منه، واكتأبت لموته الرعية، فدفنوه بدير هرميس، وبنوا عليه الهرم مدرجا. وكان طينه الذى بنى به مع الحجارة من الفيوم، وهذا معروف اذا نظر إلى طينه لم يعرف له معدن إلا بالفيوم، وليس بمنف ووسيم له شبه من الطين.

وأما قبر الملك صاحب قرياس هذا، فإنه الهرم الكبير من الأهرام التى فى بحرى دير أبى هرميس، وعلى بابه لوح كدان، مكتوب فيه باللازورد، وطول اللوح ذراعان فى ذراع، وكله مملوء كتبا مثل كتب البرابي... يصعد إلى باب الهرم بدرج بعضها صحيح لم ينخرم. وفى هذا الهرم ذخائر صاحبه من الذهب وحجارة الزمرد، وإنما سد بابه حجارة سقطت من أعاليه، ومن وقف عليه رآه بيتا.

وقال ابن عفير عن أشياخه: إن جياد بن مياد بن شمر بن شداد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، ملك الإسكندرية، وكانت تسمى إرم ذات العماد، فطال

ملكه وبلغ ثلاثمائة سنة. وهو الذى سار وبنى الأهرام وزبر فيها: أنا جياد بن مياد بن شمر بن شداد، الشاد بزراعة الواد، المؤيد الأوتاد، الجامع الصخر فى البلاد، المجند الأجناد، الناصب العماد، الكند الكناد، تخرجه أمة اسم نبيها حماد، آية ذلك إذا غشى بلد البلاد، سبعة ملوك أجناس السواد.

تاريخ هذا الزبر ألف سنة وأربعمائة سنة عداد.

وقال ابن عفير وابن عبد الحكم: وفى زمان شداد بن عاد بنيت الأهرام، فيما ذكر بعض المحدثين. ولم نجد عند أحد من أهل العلم من أهل مصر معرفة فى الأهرام ولا خبر ثبت.

وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: ما أحسب الأهرام بنيت إلا قبل الطوفان، لأنها لو بنيت بعده لكان علمها عند الناس.

وقال عبد الله بن شبرمة الجرهمي: لما نزلت العماليق أرض مصر حين أخرجها جرهم من مكة، بنت الأهرام، واتخذت لها المصانع، وبنت فيها العجائب، ولم تزل بمصر حتى أخرجها مالك بن دعر الخزاعي.

وقال ابن عفير: ولم يزل مشايخنا من أهل مصر يقولون الأهرام بناها شداد بن عاد، وهو الذى بنى المغار، وجند الأجناد... فالمغار والأجناد هى الدفائن... وكانوا يقولون بالرجعة، وإذا مات أحدهم دفن معه ماله كائنا ما كان، وإن كان صانعا دفن معه آلة صنعته، وكانت الصابئة تحج إلى الأهرام.

وقال أبو الريحان البيرونى فى كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية»: والفرس والمجوس تنكر الطوفان، وأقر به بعض الفرس لكنهم قالوا: كان بالشام والمغرب منه شئ فى زمان طمهورث، ولكنه لم يعم العمران كله، ولم يتجاوز عقبة حلوان، ولم يبلغ ممالك الشرق، وأن أهل الغرب لما أنذر به حكماؤهم بنوا أبنية ـ كالهرمين بمصر ـ ليدخلوها عند الآفة، وأن آثار ماء الطوفان وتأثيرات الأمواج كانت بينة على أنصاف الهرمين لم تتجاوزهما. انتهى.

ويقال إن الطوفان لما نضب ماؤه لم يوجد تحت الماء قرية سوى نهاوند ـ وجدت كما هى ـ وأهرام مصر وبرابيها، وهى التى بناها هرميس الأول الذى تسميه العرب إدريس. وكان قد

ألهـمه اللّه علم النجـوم، فدلته على أنه سينزل بالأرض آفة، وأنه سيبقى بقية من العـالم يحتاجون فيها إلى علم، فبنى هو وأهل عصره الأهرام والبرابي، وكتب علمه فيها.

وقـال أبو الصلت الأندلسى فى رسـالته، وقـد ذكـر أخـلاق أهل مـصـر: إلا أنه يظهـر من أمرهم أنه كـان فيهم طائفة من ذوى المعارف والعلوم، وخصوصا علم الهندسة والنجوم، ويدل على ذلك ما خلفوه من الصنائع البديعة المعجزة، كالأهرام والبرابي، فإنها من الآثار التى حيرت الأذهان الثاقبة، واستعجزت الأفكار الراجحة، وتركت لها شـغلا بالتعجب منها والتفكر فيها. وفى مثلها يقول أبو العلاء أحمد بن سليمان المعـرى من قصـيدته التى يرثى بها أباه:

تضل العقول الهبرزيات رشـدها
ولا يسلم الرأى القويم من الأفن

وقد كان أرباب الفصاحة كلمـا
رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

وأى شيء أعجب وأغرب، بعد مقدورات الله عز وجل ومصنوعاته، من القدرات على بناء جسم جسيم، من أعظم الحجارة، مربع القـاعدة، مخروط الشكل، ارتفاع عموده ثلاثمائة ذراع وتسعة عشر ذراعا، يحيط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الأضلاع، طول كل ضلع منهـا أربعـمـائة ذراع وسـتـون، وهو مع العظم من أحكام الصنعـة وإتقـان الهندام وحسن التقـدير، بحيث لـم يتـأثر إلى هلم جرا بعـصف الرياح وهطل السحـاب وزعـزعـة الزلازل. وهذه صـفة كل واحـد من الهرمين المحـاذيين للفسطاط من الجانب الغربى على ما شاهدناه منهما.

وقـد ذكـرت عـجـائب مـصـر، وإن مـا على وجـه الأرض بنيـة إلا وأنا أرثى لهـا من الليل والنهـار إلا الهرمـان، فأنا أرثى الليل والنهار منهمـا، وهذان الهرمان لهما اشراف على أرض مـصـر، وإطلال على بطـائحهـا، وإصعـاد فى جـوفهـا. وهمـا اللذان أراد أبو الطيب ا بقـــوله:

أين الذى الهرمـان مـن بنيـانه
ما قومه، ما يومه، ما المصرع؟

تتخلف الآثار عن سـكانها
حينا، ويدركهـا الفناء فتتبع

واتفق يوما أنا خرجنا إليهما، فلما طفنا بهما واستدرنا حولهما، كثر التعجب منهما، فقال بعضنا:

بعيشك هل أبصرت أعجـب منظرا
عل طول ما أبصرت من هرمى مصر؟

إنافا عنانا للسـماء وأشـرفا
على الجو إشراف السـماك أو النسر

وقد وافيا نشزا من الأرض عاليـا
كأنهمـا نهدان قامـا على صدر

وزعم قوم أن الأهرام قبور ملوك عظماء آثروا أن يتميزوا بها على سائر الملوك بعد مماتهم، كما تميزوا عنهم فى حياتهم، وتوخوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخى العصور.

ولما وصل الخليفة المأمون إلى مصر أمر بنقبها، فنقب أحد الهرمين المحاذيين للفسطاط بعد جهد شديد وعناء طويل، فوجدوا داخله مهاوى ومراقى يهول أمرها ويعسر السلوك فيها، ووجدوا فى أعلاها بيتا مكعبا طول كل ضلع من أضلاعه نحو من ثمانية أذرع، وفى وسطه حوض رخام مطبق، فلما كشف غطاؤه لم يجدوا فيه غير رمة بالية قد أتت عليها العصور الخالية. فعند ذلك أمر المأمون بالكف عن نقب ما سواه.

ويقال إن النفقة على نقبه كانت عظيمة والمؤونة شديدة.

ومن الناس من زعم أن هرمس الأول ـ المدعو بالمثلث بالنبوة والملك والحكمة، وهو الذى تسميه العبرانيون خنوخ بن برد ابن مهلايل بن فتيان بن أنوش بن شيب بن آدم عليه السلام،

وهو إدريس عليه السلام ـ استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان يعم الأرض، فأكثر من بنيان الأهرام وإيداعها الأموال، وصحائف العلوم، وما يشفق عليه من الذهاب والدروس، حفظا لها واحتياطا عليها.

ويقال إن الذى بناها ملك اسمه سوريد بن سهلوق بن سرياق، وقال آخرون إن الذى بنى الهرمين المحاذيين للفسطاط شداد بن عاد لرؤيا رآها.

والقبط تنكر دخول العمالقة بلد مصر، وتحقق أن بانيها سوريد لرؤيا رآها وهى أن آفة تنزل من السماء وهى الطوفان. وقالوا إنه بناهما فى مدة ستة أشهر، وغشاهما بالديباج الملون، وكتب عليهما: قد بنيناهما فى ستة أشهر، قل لمن يأتى من بعدنا يهدمهما فى ستمائة سنة، فالهدم أيسر من البنيان، وكسوناهما الديناج الملون، فليكسهما حصرا، فالحصر أهون من الديباج.

ورأينا سطوح كل واحد من هذين الهرمين مخطوطة من أعلاها إلى أسفلها بسطور متضايقة متوازية من كتابة بانيها، لا تعرف اليوم أحرفها، ولا تفهم معانيها.

وبالجملة، الأمر فيها عجيب، حتى أن غاية الوصف لها، والإغراق فى العبارة عنها، وعن حقيقة الموصوف منها، بخلاف ما قاله على ابن العباس الرومي، وإن تباعد الموصوفان، وتباين المقصودان، إذ يقول:

إذا ما وصفت أمرا لامرئ

فلا تغل فى وصفه واقصد

فإنك إن تغل تبد الظنو

ن فيه إلى الغرض الأبعد

فيصغر من حيث عظمته

لفضل المغيب على المشهد

ويقال إن المأمون أمر من صعد الهرم الكبير أن يدلى حبلا، فكان طوله ألف ذراع بالذراع الملكى ـ وهو ذراع وخمسان ـ وتربيعه أربعمائة ذراع فى مثلها، وكان صعوده فى ثلاث ساعات من النهار، وإنه وجد مقدار رأس الهرم قدر مبرك ثمانية جمال.

ويقال إنه وجد على المقبور فى الهرم حلة قد بليت ولم يبق منها سوى سلوكها من الذهب، وإن ثخانة الطلاء الذى عليه قدر شبر من مر وصبر.

ويقال إنه وجد موضع من هذا الهرم إيوان، فى صدره ثلاثة أبواب على ثلاثة بيوت، طول كل باب منها عشرة أذرع فى عرض خمسة أذرع من رخام منحوت محكم الهندام، وعلى صفحاته خط أزرق لم يحسنوا قراءته.

وإنهم أقاموا ثلاثة أيام يعملون الحيلة فى فتح هذه الأبواب، إلى أن رأوا أمامها على عشرة أذرع منها ثلاثة أعمدة من مرمر، وفى كل عمود خرق فى طوله، وفى وسط الخرق صورة طائر.

ففى الأول من هذه العمد صورة حمام من حجر أخضر، وفى الأوسط صورة بازى من حجر أصفر، وفى العمود الثالث صورة ديك من حجر أحمر.

فحركوا البازى فتحرك الباب الأول الذى فى مقابلته، فرفعوا البازى قليلا فارتفع الباب، وكان بحيث لا يرفعه مائة رجل من عظمه، فرفعوا التمثالين الآخرين، فارتفع البابان الآخران.

فدخلوا إلى البيت الأوسط، فوجدوا فيه ثلاثة سرر من حجارة شفافة مضيئة، وعليها ثلاثة من الأموات، على كل ميت ثلاث حلل، وعند رأسه مصحف بخط مجهول.

ووجدوا فى البيت الآخر عدة رفوف من حجارة، عليها أسفاط من حجارة فيها أوان من الذهب عجيبة الصنعة، مرصعة بأنواع الجواهر.

ووجدوا فى البيت الثالث عدة رفوف من حجارة، عليها أسفاط من حجارة فيها آلات الحرب وعدد السلاح، فقيس منها سيف فكان طوله سبعة أشبار، وكل درع من تلك الدروع اثنا عشر شبرا.

فأمر المأمون بحمل ما وجد فى البيوت، وأمر فحطت العمد فانطبقت الأبواب كما كانت.

ويقال كانت عدة الأهرام ثمانية عشر هرما منها تجاه مدينة الفسطاط ثلاثة، أكبرها دوره ألفا ذراع، وهو مربع، فى كل وجه من وجوهه الأربعة خمسمائة ذراع.

ويقال إن المأمون لما فتحه وجد فيه حوضا من حجر، مغطى بلوح من رخام وهو مملوء بالذهب، وعلى اللوح مكتوب بقلم عرب فكان: انا عمرنا هذا الهرم فى ألف يوم، وأبحنا لمن يهدمه فى ألف سنة، والهدم أسهل من العمارة. وكسونا جميعه بالديباج، وأبحنا لمن يكسوه الحصر، والحصر أيسر من الديباج. وجعلنا فى كل جهة من جهاته مالا بقدر ما يصرف على الوصول إليه.

فأمر المأمون أن يحسب ما صرف على النقب، فبلغ قدر ما وجد فى الحوض من غير زيادة ولا نقص.

ويقال إنه وجد فيه صورة آدمى من حجر أخضر كالدهنج، فيها طبق كالدواة، ففتح فإذا فيه جسد آدمى عليه درع من ذهب مزين بأنواع الجواهر، وعلى صدره نصل سيف لا قيمة له، وعند رأسه حجر من ياقوت أحمر فى قدر بيضة الدجاجة. فأخذه المأمون وقال: هذا خير من خراج الذهب.

وذكر بعض مؤرخى مصر أن هذا الصنم الأخضر الذى وجدت الرمة فيه لم يزل معلقا عند دار الملك بمدينة مصر إلى سنة إحدى عشرة وستمائة من سنى الهجرة.

وكان عند مدينة فرعون هرمان، وعند ميدوم هرم، وهذا آخرها.

وفى سنة تسع وسبعين وخمسمائة من سنى الهجرة ظهر بتربة بوصير من ناحية الجيزة بيت هرميس، ففتحه القاضى ابن الشهوزورى وأخذ منه أشياء من جملتها كباش وقرود وضفادع من حجر بازهر، وقوارير من دهنج، وأصنام من نحاس.

وقال ابن خرداذبة: من عجيب البنيان أن الهرمين بمصر سمك كل واحد منهما أربعمائة ذراع، وكلما ارتفع دق، وهما من رخام ومرمر، والطول أربعمائة ذراع فى عرض أربعمائة ذراع، مكتوب عليهما باليد كل سحر وكل عجيب من الطب، ومكتوب عليهما: إنى بنيتهما، فمن يدعى قوة فى ملكه فليهدمهما، فإن الهدم أيسر من البناء.

فاعتبر ذلك، فإذا خراج الدنيا لا يفى بهدمهما.

وقال فى كتاب «عجائب البنيان» عن الأهرام: قد انفردت مصر بهذه الأشكال، فليس لها بغيرها تمثال، يظنهما الناظر للديار المصرية نهدين، ويحسبهما القابل أن مكارم أهلها قد أعدتهما للتكرم أبلوجين، تراهما العين على بعد المسافة، وإذا حدثت عن عجائبهما يظن أنه حديث خرافة.

وقد أكثر الناس فى ذكر الأهرام ووصفها ومساحتها، وهى كثيرة العدد جدا، وكلها ببر الجيزة على سمت مصر القديمة، تمتد نحوا من مسافة ثلاثة أيام. وفى بوصير منها شئ كثير. وبعضها كبار وبعضها صغار، وبعضها طين وبعضها لبن، وأكثرها حجر، وبعضها مدرج، وأكثرها مخروط أملس.

وقد كان منها بالجيزة عدد كثير كلها صغار، هدمت فى زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على يد الطواشى بهاء الدين قراقوش، أخذ حجارتها وبنى بها القناطر فى الجيزة، وقد بقى من هذه الأهرام المهدومة تلها.

وأما الأهرام المتحدث عنها، فهى ثلاثة أهرام، موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط، وبينها مسافات كثيرة وزوايا متقابلة نحو الشرق. وإثنان عظيمان جدا فى قدر واحد، وهما متقاربان، ومبنيان بالحجارة البيض، وأما الثالث فصغير عنهما نحو الربع، لكنه مبنى بحجارة الصوان الأحمر المنقط، الشديد القوة والصلابة، ولا يكاد يؤثر فيه الحديد إلا فى الزمان الطويل، ونجده صغيرا بالقياس إلى ذينك، فاذا أتيت إليه وأفردته بالنظر هالك مرآه، وحير النظر فى تأمله.

وقد سلك فى بناء الأهرام طريق عجيب من الشكل والاتقان، ولذلك صبرت على ممر الأيام... لا، بل على ممرها صبر الزمان. فإنك إذا تأملتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثالا فى غاية إمكانها، حتى إنها تكاد تحدث عن قوة قومها، وتخبر عن سيرتهم، وتنطق عن علومهم وأذهانهم وتترجم عن سيرتهم وأخبارهم.

وذلك أن وضعها على شكل مخروط، ويبتدئ من قاعدة مربعة وينتهى إلى نقطة. ومن خواص الشكل المخروط أن مركز ثقله فى وسطه، يتساند على نفسه، ويتواقع، وليس له جهة أخرى يتساقط عليها.

ومن عجيب وضعه أنه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الأربع، فإن الريح تنكسر سورتها عند مسامتتها الزاوية، وليست كذلك عندما تلقى السطح.

وذكر المساح أن قاعدة كل من الهرمين العظيمين أربعمائة ذراع بالذراع السوداء، وينقطع المخروط فى أعلاه عند سطح مساحته عشرة أذرع فى مثلها. وذكر أن بعض الرماة رمى سهما فى قطر أحدهما وفى سمكه، فسقط السهم دون نصف المسافة. وذكر أن ذرع سطحها أحد عشر ذراعا بذراع اليد.

وفى أحد هذين الهرمين مدخل يلجه الناس، يفضى بهم إلى مسالك ضيقة وأسراب متنافذة وآبار ومهالك، وغير ذلك على ما يحكيه من يلجه. وأن أناسا كثيرين لهم غرام به وتخيل فيه، فيتوغلون فى أعماقه، ولابد أن ينتهوا إلى ما يعجزون عن سلوكه.

وأما المسلوك المطروق كثيرا، فزلاقة تفضى إلى أعلاه، فيوجد فيه بيت مربع فيه ناووس من حجر. وهذا المدخل ليس هو الباب فى أصل البناء، وإنما منقوب نقبا صادف اتفاقا، وذكر أن المأمون فتحه.

وحكى من دخله وصعد إلى البيت الذى فى أعلاه، فلما نزلوا حدثوا بعظيم ما شاهدوه، وأنه مملوء بالخفافيش وأبوالها، وتعظم فيه حتى تكون قدر الحمام، وفيه طاقات وروازن نحو أعلاه، كأنها عملت مسالك للريح ومنافذ للضوء بحجارة جافية، طول الحجر منها من عشرة أذرع إلى عشرين ذراعا، وسمكه من ذراعين إلى ثلاثة أذرع، وعرضه نحو ذلك.

والعجب كل العجب من وضع الحجر على الحجر بهندام ليس فى الإمكان أصح منه، بحيث لا تجد بينهما مدخل إبرة ولا خلل شعرة، وبينهما طين لونه الزرقة لا يدرى ما هو ولا صفته، وعلى تلك الحجارة كتابات بالقلم القديم المجهول الذى لم يوجد بديار مصر من

يزعم أنه سمع من يعرفه، وهذه الكتابات كثيرة جدا حتى لو نقل ما عليها إلى صحف لكانت قدر عشرة آلاف صحيفة.

وقرأت فى بعض كتب الصابئة القديمة أن أحد هذين الهرمين قبر أعاديمون، والآخر قبر هرمس، ويزعمون أنهما بيتان عظيمان، وأن أعاديمون أقدم وأعظم، وأنه كان يحج إليهما، ويهدى إليهما من أقطار البلاد.

وكان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما استقل بالملك بعد أبيه، سول له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الأهرام فبدأ بالصغير الأحمر، فأخرج إليه النقابين والحجارين وجماعة من أمراء دولته وعظماء مملكته، وأمرهم بهدمه. فخيموا عنده وحشروا الرجال والصناع، ووفروا عليهم النفقات.

وأقاموا نحو ثمانية أشهر، بخيلهم ورجلهم، يهدمون كل يوم - بعد الجهد واستفراغ بذل الوسع - الحجر والحجرين، يدفعونه بالأسافين، وقوم من أسفل يجذبونه بالقلوس والأشطان، فإذا سقط سمع له وجبة عظيمة من مسافة بعيدة، حتى ترجف الجبال وتزلزل الأرض، ويغوص فى الرمل فيتعبون تعبا آخر حتى يخرجوه، ويضربون فيه بالأسافين بعد ما ينقبون لها موضعا ويثبتونها فيه فيتقطع قطعا، وتسحب كل قطعة على العجل حتى يلقى فى ذيل الجبل، وهى مسافة قريبة.

فلما طال ثواؤهم، ونفدت نفقاتهم وتضاعف نصبهم، ووهت عزائمهم، كفوا محسورين لم ينالوا بغية، بل شوهوا الهرم، وأبانوا عن عجز وفشل. وكان ذلك فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة، ومع ذلك فإن الرائى لحجارة الهرم يظن أنه قد استؤصل، فإذا عاين الهرم ظن أنه لم يهدم منه شىء، وإنما سقط بعض جانب منه.

وحينما شوهدت المشقة التى يجدونها فى هدم كل حجر، سئل مقدم الحجارين فقيل له: لو بذل لكم السلطان ألف دينار على أن تردوا حجرا واحدا إلى مكانه وهندامه، هل كان يمكنكم؟ فأقسم بالله إنهم ليعجزون عنه ولو بذل لهم أضعاف ذلك.

وبإزاء الأهرام مغاير كثيرة العدد، كبيرة المقدار، عميقة الأغوار، لعل الفارس يدخلها

برمحه ويتخللها يوما أجمع ولا ينهيها لكبرها وسعتها وبعدها ، ويظهر من حالها أنها مقاطع حجارة الأهرام . وأما مقاطع حجارة الهرم الأحمر ، فيقال إنها بالقلزم وبأسوان .

وعند هذه الأهرام آثار أبنية جبابرة ، ومغاير كثيرة منقبة . وقلما ترى من ذلك شيئا إلا وترى عليه كتابات بهذا القلم المجهول . ولله در الفقيه عمارة اليمنى حيث يقول :

خليلى ما تحت السـماء بنية

تماثـل فى اتقـانها هرمى مصر

بناء يخاف الدهر منه ، وكل ما

على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر

تنزه طرفـى فى بديـع بنائهـا

ولم يتنزه فى المـراد بها فـكري

أخـذ هذا من قـول بعض الحكمـاء : كل شى يخشى عليـه من الدهر إلا الأهرام ، فـإنه يخشى على الدهر منها .

وقـال عـبـد الوهاب بن حـسن بن جـعـفـر بن الحـاجب ، ومـات فى سنة سبع وثمـانين وثلاثمائة :

انظر إلى الهرمـين إذ برزا

للعين فى علو وفى صعد

وكأنما الأرض العريضة قد

ظمئت لطول حرارة الكبد

حسرت عن الثديين بـارزة

تدعو الإله لفرقة الولـد

فأجاءها بالنيل يشـبعها

ريا وينقذها من الكمـد

لكرامة المولى المقيـم بها

خير الأنـــام مقوم الأود

وقال سيف الدين بن جبارة :

لله أي عجيبـــة وغريبـــة

في صنعة الأهرام للألـــباب

أخفت عن الأسماع قصة أهلها

ونضت عن الإبداع كل نقـاب

فكأنما هي كالخيـــام مقامة

من غير ما عمـــد ولا أطناب

وقال آخر :

انظر الى الهرمين واسمع منهما

ما يرويان عن الزمان الغـابر

وانظر إلى سر الليالي فيهـما

نظرا بعين القلب لا بالنـاظر

لو ينطقان لخبـــرانا بالذي

فعـــل الزمان بأول وبآخر

وإذا همـا بديا لعيني ناظـر

وصفـا له أذني جـواد عاثر

وقال الامام أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي : (٢٩٧)

---

(٢٩٧) هو أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون شرف الدين القيسي التيفاشي . عالم بالحجارة الكريمة ، ولد سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م ومات سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م.
أنظر : الديباج المذهب ٧٤ ، شجرة النور ١٧٠ .

ألست ترى الأهرام دام بناؤها
ويفنى لدنيا العالم الانس والجن

كأن رحى الأفلاك أكوارها على
قواعدها الأهرام والعالم الطحن

وقال :

قد كان للماضين من سكان مصر همم
فالفضل عنهم فضلة والعلم فيهم علم
ثم انقضت أعلامهم وعلمهم واحتطموا
وانظر تراها مظاهرا باد عليها الهرم

وقال :

خليلى لا باق على الحدثان
من الأول الباقى فيحدث ثاني

إلى هرمى مصر تناهت قوى الورى
وقد هرمت فى دهرها الهرمان

فلا تعجبا أن قد هرمت فإنما
رمانى بفقدان السباب زماني

وعوجا بقرطاجنة فانظر بها
جنابتى العادين تنتحبان

وإيوان كسرى فانظراه فإنه
يخبركما بالصدق كل أوان

فلا تحسبا أن الفناء يخصني
ألا كل ما فوق البسيطة فان

ووجدت بخط الشيخ شهاب الدين أحمد بن يحيي بن أبي حجلة التلمساني: (٢٩٨) أنشدني القاضي فخر الدين عبد الوهاب المصري لنفسه في الأهرام، سنة خمس وخمسين وسبعمائة، وأجاد:

أمباني الأهـــرام كم من واعظ
صدع القلـــوب ولم يفه بلسانه

أذكرتنـــي قولا تقادم عهـــده
« أين الذي الهرمان من بنيانه »

هن الجبال الشـــامخات تكاد أن
تمتد فوق الأرض عـــن كيوانـه

لو أن كسرى جالس في سفحها
لأجل مجلسه على إيـــوانه

ثبتت على حر الزمـــان وبرده
مددا ولم تأســف على حدثانه

والشمس في إحراقها والريح عند
هبوبها والســيل في جريـــانه

هل عابــد قد خصـــها بعبادة
فمباني الأهـــرام من أوثـانه

أو قائـل يقضي برجعي نفســه
مـن بعـد فرقته إلى جثمـــانه

فاختـــارها لكنـــوزه ولجسمه
قبرا ليأمن مـــن أذى طوفـــانه

---

(٢٩٨) هو أحمد بن يحيي بن أبي بكر التلمساني أبو العباس شهاب الدين ابن أبي حجلة عالم بالأدب شاعر من أهل تلمسان ولد سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م، ومات سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م.
أنظر: الدرر الكامنة ١/ ٣٢٩، آداب اللغة ٣/ ١٢٣.

أو أنها للســـــائرات مواصد
يختار راصـــدها أعز مكـــانه

أو أنها وصفت شـئون كواكب
أحكـــام فرس الدهر أو يونانه

أو أنهم نقشـــوا على حيطانها
علما يحـــار الفكـــر فى تبيانه

فى قلب رائيهـــا ليعلم نقشـها
فكر يعض عليـــه طـرف بنانه

ذكر الصنم الذي يقال له ابو الهول

هذا الصنم بين الهرمين عرف أولا بلهيب، وتقول أهل مصر اليوم أبو الهول .

قال القضاعي : صنم الهرمين، وهو « بهلويه » صنم كبير من حجارة فيما بين الهرمين، لا يظهـر منه سـوى رأسـه فقط، تسـميـه العـامة بأبى الهـول، ويقـال بلهيب، ويقـال إنه طلسم للرمل لئلا يغلب على ابليز الجيزة .

وقال فى كتاب « عجائب البنيان » : وعند الأهرام رأس وعنق بارزة من الأرض فى غاية العظم تسميه الناس أبا الهول، ويزعمون أن جثته مدفونة تحت الأرض . ويقتضى القياس بالنسبة إلى رأسه أن يكون طوله سبعين ذراعا فصاعداً، وفى وجهه حمرة ودهان يلمع عليه رونق الطراوة، وهو حسن الصورة مقبولها، عليه مسحة بهاء وجمـال، كأنه يضـحك تبســما .

وسئل بعض الفضلاء عن عـجيب ما رأى فقال : تناسب وجه أبى الهول، فإن أعـضاء وجهـه - كالأنف والعين والأذن - متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة، فإن أنف الطفل مثلا مناسب له، وهو حسن به، حتى لو كان ذلك الأنف لرجل كان مشوها .

وكذلك أنف الرجل لو كان لصبى لتشوهت صورته . وعلى هذا سائر الأعضاء ، فكل عضو ينبغى أن يكون على مقدار ماهيته بالقياس إلى الصورة ، وعلى نسبتها . والعجب من مصوره ، كيف قدر أن يحفظ التناسب للأعضاء مع عظمها . وإنه ليس فى أعمال الطبيعة ما يحاكيه .

ويقابله فى بر مصر ، قريبا من دار الملك ، صنم عظيم الخلقة والهيئة ، متناسب الأعضاء كما وصف ، وفى حجره مولود ، وعلى رأسه ماجور ... الجميع صوان مانع . يزعم الناس أنه امرأة ، وأنها سرية أبى الهول المذكور ، وهى بدرب منسوب اليها . ويقال لو وضع على رأس أبى الهول خيط ومد إلى سريته لكان على رأسها مستقيما . ويقال إن أبا الهول طلسم الرمل يمنعه عن النيل ، وإن السرية طلسم الماء يمنعه عن مصر .

وقال ابن المتوج : زقاق الصنم هو الزقاق الشارع ، أوله بأول السوق الكبير ، بجوار درب عمار ، ويعرف الصنم بسرية فرعون ، وذكر أنه طلسم النيل لئلا يغلب على البلد وقيل إن بلهيب الذى عند الأهرام يقابله ، وإن ظهر بلهيب إلى الرمل ، وظهر هذا إلى النيل ، وكل منهما مستقبل الشرق .وقد نزل فى سنة إحدى عشرة وسبعمائة أمير يعرف ببلاط ، فى نفر من الحجارين والقطاعين ، وكسروا الصنم المعروف بالسرية ، وقطعوه أعتابا وقواعد ، ظنا أن يكون تحته مال ، فلم يوجد سوى أعتاب من حجر عظيمة ، فحفر تحتها الى المــاء فلم يوجد شى وجعل من حجره قواعد تحتانية للعمد الصوان التى بالجامع المستجد بظاهر مصر ، المعروف بالجامع الجديد الناصري ، وأزيل عين هذا الصنم من مكانه ، والله أعلم .

وفى زمننا كان ششخص يعرف بالشيخ محمد صائم الدهر من جملة صوفية الخانقاه الصلاحية ، سعيد السعداء ، قام فى نحو من سنة ثمانين وسبعمائة ، لتغيير أشياء من المنكرات ، وسار الى الإهرام ، وشوه وجه أبى الهول وشعثه فهو على ذلك إلى اليوم ، ومن حينئذ غلب الرمل على أراض كثيرة من الجيزة ، وأهل تلك النواحى يرون أن سبب غلبة الرمل على الأراضى فساد وجه أبى الهول ، ولله عاقبة الأمور .

وما أحسن قول ظافر الحداد :

تأمــل هيئة الهرمــين واعجب
وبينهمــا أبو الهـول العجيب
كعُماريتن علــى رحيــل
بمحبوبين بينهمــــا رفيــب
وماء النيـــل تحتهمــا دموع
وصوت الريح عندهــما نحيب
وظاهر سجن يوسف مثل صب
تخلف فهـو مخــزون كئيب

ويقال إن أتريب بن قبط بن مصر بن بيصر ابن حام بن نوح أوصى أخاه صا عند موته أن يحمله فى سفينة ويدفنه بجزيرة وسط البحر فلما مات فعل ذلك من غير أن يعلم به أهل مصر ، فاتهمه الناس بقتل أتريب وحاربوه تسع سنين .

فلما مضى من حربهم خمس سنين مضى بهم حتى أوقفهم على قبر أتريب ، فحفروفلم يجدوا به شيئا ، وقد نقلته الشياطين إلى موضع أبى الهول ، . ودفنته هناك بجانب قبر أبيه وجده بيصر .

فازدادوا له تهمة ، وعادوا إلى مدينة منف وتحاربوا فأتاهم إبليس فدلهم على قبر أتريب حيث نقله ، فأخرجوه من قبره ووضعوه على سرير ، فتكلم لهم الشيطان على لسانه حتى افتتنوا به وسجدوا له ، وعبدوه فيما عبدوا من الأصنام .

وقتلوا صا ودفنوه على شاطى النيل فكان النيل إذا زاد لا يعلو قبره فافتتن به طائفة وقالوا : قد قتل صا ظلما ، وصاروا يسجدون لقبره كما يسجد أولئك لأتريب فعمد آخرون إلى حجر فنحتوه على صورة أشموم ، وكان يقال له أبو الهول ، ونصبوه بين الهرمين وجعلوا يسجدون له ... فصار أهل مصر ثلاث فرق .

ولم تزل الصابئة تعظم أبا الهول ، وتقرب له الديكة البيض ، وتبخره بالصندروس

ذكـــر الجبـــال

اعلم أن أرض مصر بأسرها محصورة بين جبلين آخذين من الجنوب إلى شمال، قليلى الارتفاع، وأحدهما أعظم من الآخر، والأعظم منها هو الجبل الشرقى المعروف بجبل لوقا، والغربى جبل صغير وبعضه غير متصل ببعض، والمسافة بينهما تضيق فى بعض المواضع وتتسع فى بعضها، وأوسع ما يكون بأسفل أرض مصر.

وهذان الجبلان أقرعان لا ينبت فيهما نبات، كما يكون فى جبال البلدان الأخر. وعلة ذلك أنهما بورقيان مالحان، لأن قوة طين مصر تجذب منها الرطوبات الموافقة فى التكوين، ولأن قوة الحرارة تحلل منهما الجوهر اللطيف العذب، وكذلك مياه الآبار منهما مالحة.

وهذان الجبلان يجففان ما يدفن فيهما، فإن أرض مصر بالطبع قليلة الأمطار.

وجبل لوقا فى مشرق أرض مصر يعوق عنها ريح الصبا، فعدمت مصر هذا الريح، ويعوق أيضا إشراق الشمس على أرض مصر إذا كانت على الأفق.

وتتعدد أسماء هذين الجبلين بحسب مواضعهما من الإقليم، فيطل على الفسطاط وعلى القاهرة الجبل المقطم.

ذكـــر جبـــل المقطـــم

اعلم أن الجبل المقطم أوله من الشرق من الصين حيث البحر المحيط، ويمر على بلاد الططر حتى يأتى فرغانة إلى جبال اليتم الممتد بها نهر السند إلى أن يصل الجبل إلى جيحون، فيقطعه ويمضى فى وسطه بين شعبتين منه وكأنه قطع ثم فى وسطه، ويستمر الجبل إلى الجورجان، ويأخذ على الطالقان إلى أعمال مرو والرود إلى طوس، فيكون جميع مدن طوس فيه، ويتصل به جبال أصبهان وشيراز إلى أن يصل إلى البحر الهندي، وينعطف هذا

الجبل ويمتد إلى شهرزور فيمر على الدجلة، ويتصل بجبل الجودي، موقف سفينة نوح عليه السلام فى الطوفان.

ولا يزال هذا الجبل مستمرا من أعمال آمد وميافارقين حتى يمر بثغور حلب فيسمى هناك جبل اللكام، إلى أن يعدى الثغور فيسمى نهرا، حتى يجاوز حمص فيسمى لبنان، ثم يمتد على الشام حتى ينتهى إلى بحر القلزم من جهة، ويتصل من الجهة الأخري، ويسمى المقطم، ثم يتشعب وتتصل أواخر شعبه بنهاية الغرب. ويقال إنه عرف بمقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام.

وجبل المقطم يمر على جانبى النيل إلى النوبة، ويعبر من فوق الفيوم فيتصل بالغرب إلى أرض مقراوة، ويمضى مغربا إلى سجلماسة(٢٩٩) ومنها إلى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر.

وقال إبراهيم بن وصيف شاه (وذكر مجيء مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح إلى أرض مصر): وكشف أصحاب إقليمون الكاهن عن كنوز مصر وعلومهم، التى هى بخط البرابي، وآثارهم والمعادن من الذهب والزبرجد والفيروزج وغير ذلك، ووصفوا لهم عمل الصنعة (يعنى الكيمياء). فجعل مصرايم أمرها إلى رجل من أهل بيته يقال له مقيطام الحكيم، فكان يعمل الكيمياء فى الجبل الشرقي، فسمى به المقطم من أجل أن مقيطام الحكيم كان يعمل فيه الكيمياء، واختصر من اسمه وبقى ما يدل عليه فقيل له جبل المقطم، يعنى جبل مقيطام الحكيم.

وقال البكرى رحمة اللّه تعالى عليه: المقطم - بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد الطاء المهملة وفتحها - جبل متصل بمصر يوارون فيه موتاهم.

وقال القضاعي: المقطم، ذكر أبو عبد اللّه اليمنى أن هذا الجبل نسب إلى المقطم بن مصر ابن بيصر بن حام بن نوح، وكان عبدا صالحا، فانفرد بعبادة اللّه عز وجل فيه، فسمى الجبل باسمه.

---

(٢٩٩) بكسر أوله وثانيه وسكون اللام وبعد الألف سين مهملة، مدينة فى جنوب المغرب.
أنظر: معجم البلدان ٥/ ٤١.

وليس هذا بصحيح، لأنه لا يعرف لمصر ولد اسمه المقطم. والذى ذكره العلماء أن المقطم مأخوذ من المقطم، وهو القطع، فكأنه لما كان منقطع الشجر والبنات سمى مقطما... ذكر ذلك على بن الحسن الهنائى الدوسي، المنبوذ بكراع، وغيره.

وروى عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم، عن الليث بن سعد رضى اللّه عنه، قال: سأل المقوقس عمرو بن العاص رضى اللّه عنه أن يبيعه سفح الجبل المقطم بسبعين ألف دينار (وفى نسخة بعشرين ألف دينار)، فعجب عمرو من ذلك وقال: أكتب بذلك الى أمير المؤمنين. فكتب بذلك الى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فكتب إليه عمر: سله لم أعطاك به ما أعطاك، وهى لا تزرع ولا يستنبط بها ماء؟

فسأله فقال: إنا لنجد صفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة.

فكتب بذلك إلى عمر فكتب إليه: إنا لا نعلم غراس الجنة إلا المؤمنين، فاقبر فيها من مات قبلك من المؤمنين، ولا تبعه بشى.

فكان أول من قبر فيها رجلا من المعافر يقال له عامر، فقيل عمرت.

فقال المقوقس لعمرو: وما ذلك، وما على هذا عاهدتنا.

فقطع لهم الحد الذى بين المقبرة وبينهم.

وذكر عمر بن أبى عمر الكندى فى فضائل مصر أن عمرو بن العاص رضى اللّه عنه سار فى سفح الجبل المقطم ومعه المقوقس، فقال له: ما لجبلكم هذا أقرع ليس به نبات كجبال الشام؟ فلو شققنا فى أسفله نهرا من النيل وغرسناه نخلا؟

فقال المقوقس: وجدنا فى الكتب أنه كان أكثر الجبال أشجارا ونباتا وفاكهة، وكان منزل المقطم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام. فلما كانت الليلة التى كلم الله فيها موسى عليه السلام، أوحى اللّه الى الجبال: إنى مكلم نبيا من أنبيائى على جبل منكم، فسمت الجبال كلها وتشامخت إلا جبل بيت المقدس فإنه هبط وتصاغر، فأوحى اللّه إليه: لم فعلت ذلك؟ - وهو به أخبر - فقال: فأمر اللّه سبحانه الجبال أن يحبوه كل جبل بما عليه من النبت، فجاد له المقطم بكل ما عليه من النبت حتى بقى كما ترى، فأوحى اللّه إليه: إنى معوضك على فعلك بشجر الجنة، أو غراس الجنة

فكتب ذلك عمرو بن العاص رضى اللّه عنه إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: انى لا أعلم شجر الجنة غير المؤمنين، فاجعله لهم مقبرة ... ففعل .

فغضب المقوقس من ذلك، قال لعمرو: ما على هذا صالحتنى .

فقطع له عمر قطيعا نحو الحبش تدفن فيه النصارى .

قال: وروى أن موسى عليه السلام سجد فسجد معه كل شجرة من المقطم إلى طرا .

وروى أنه مكتوب: وإذا فتح مقدسى ...

يريد وادى مسجد موسى عليه السلام بالمقطم عند مقطع الحجارة، فإن موسى عليه السلام كان يناجى ربه بذلك الوادى .

وروى أسد بن موسى قال: شهدت جنازة مع موسى بن لهيعة، فجلسنا حوله فرفع رأسه فنظر إلى الجبل فقال: إن عيسى بن مريم عليه السلام مر بسفح هذا الجبل وعليه جبة صوف وقد شد وسطه بشريط وأمه إلى جانبه، فالتفت إليها وقال: ياأمه، هذه مقبرة أمة محمد ﷺ .

وروى عبد اللّه بن لهيعة، عن عياش بن عباس، أن كعب الأحبار رضى اللّه عنه سأل رجلا يريد مصر فقال له: أهدنى تربة من سفح مقطمها، فأتاه منه بجراب، فلما حضرت كعبا الوفاة أمر به فجعل فى لحده تحت جثيه .

وروى عن كعب أنه سئل عن جبل مصر فقال: إنه لمقدس ما بين القصير الى اليحموم .

قال ابن لهيعة: والمقطم ما بين القصير إلى اليحموم .

قال ابن لهيعة: والمقطم ما بين القصير إلى مقطع الحجارة، وما بعد ذلك فمن اليحموم .

وفى هذا الجبل حجر الجوهر، وشيء من الفولاذ. وهو يمتد إلى أقاصى بلاد السودان .

الجبــــل الأحمــــر

هذا الجبل مطل على القاهرة من شرقيها الشمالي ، ويعرف باليحموم .

قال القضاعي : اليحاميم هى الجبال المتفرقة المطلة على القاهرة من جانبها الشرقى وجبابها .

وتنتهى هذه الجبال الى بعض طرق الجب . وقيل لها اليحاميم لاختلاف ألوانها . واليحموم فى كلام العرب الأسود المظلم .

وقال ابن عبد الحكم ، عن سعيد بن عبيد إنه لما قدم مصر وأهل مصر قد اتخذوا مصلى بحذاء ساقية أبى عون التى فى العسكر ، فقال : ما لهم وضعوا مصلاهم فى الجبل الملعون ، وتركوا الجبل المقدس (يعنى المقطم) ؟

وقال ابن عبد الظاهر : الجبل الأحمر ، ذكر القضاعى أن اليحموم هو الجبل المطل على القاهرة ، ولا أرى جبلا يطل على القاهرة غيره .

وقال البكري : اليحموم (بفتح أوله وإسكان ثانيه) . قال الحربي : اليحموم جبل بمصر .

وروى من طريق أبى قبيل عن عبد الله بن عمرو : أنه سأل كعبا عن المقطم : أملعون؟ قال : ليس بملعون ، ولكنه مقدس من القصير إلى اليحموم .

وذكر البكرى أيضا أن عابدا (بالباء الموحدة والدال المهملة ، على وزن فاعل) جبل بمصر قبل المقطم .

جبــــل يشــــكر

هذا الجبل فيما بين القاهرة ومصر عليه الجامع الطولونى .

قال القضاعي : جبل يشكر ، هو يشكر ابن جديلة من لخم ، وهو الذى عليه جامع ابن

طولون . ويشكر بن جديلة قبيلة من قبائل العرب اختطت عند الفتح بهذا الجبل ، فعرف بجبل يشكر لذلك .

قال ابن عبد الظاهر : وجامع ابن طولون على جبل يشكر ، وهو مكان مشهور بإجابة الدعاء ومكان مبارك . وقيل إن موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات .

وكان هذا الجبل يشرف على النيل ، وليس بينه وبين النيل شيء ، وكان يشرف على البركتين (أعنى بركة الفيل ، والبركة التى تعرف اليوم ببركة قارون) . وعلى هذا الجبل كانت تنصب المجانيق التى تجرب قبل إرسالها إلى الثغور .

الكبش

هو الجبل بجوار يشكر ، كان قديما يشرف على النيل من غربيه ثم لما اختط المسلمون مدينة الفسطاط بعد فتح أرض مصر ، صار الكبش من جملة خطة الحمراء القصوي ، وسمى الكبش .

الشرف

اسم لثلاثة مواضع : فاثنان منها فيما بين القاهرة ومصر ، وواحد فيما بين بركة الحبش وفسطاط مصر .

فأما الذى بظاهر القاهرة ، فأحدهما عليه الآن قلعة الجبل ، وهو من جملة الجبل المقطم .

والآخر فيما بين الجامع الطولونى ومصر ، فيشرف غربيه على جهة الخليج الكبير ، ويصير فيما بين كوم الجارح وخط الجامع الطولونى . وكان من خطة تجيب ، ثم صار من جملة العسكر.

وأما الشرف الثالث فيعرف اليوم بالرصد، وهو يشرف على راشدة .

وكان يقال للشرف سند . والسند ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح . ويقال فلان سند أى معتمد .

ذكر الرصد

هذا المكان شرف يطل من غربيه على راشدة، ومن قبليه على بركة الحبش، فيحسبه من رآه من جهة راشدة جبلا، وهو من شرقيه سهل يتوصل إليه من القرافة بغير ارتقاء ولا صعود، وهو محاذ للشرف الذى كان من جملة العسكر، والشرف الذى يعرف اليوم بالبكش .

وكان يقال له قديما الجرف، ثم عرف بالرصد من أجل أن الأفضل أبا القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى أقام فوقه كرة لرصد الكواكب، فعرف من حينئذ بالرصد .

وقال فى كتاب « عمل الرصد » : وحمل إلى الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر، من الشام، تقاويم لما يستأنف من السنين لاستقبال سنة خمسمائة من سنى الهجرة ... قيل مائة تقويم أو نحوها .

وكان منجمو الحضرة يومئذ - ابن الحلبى وابن الهيثمى وسهلون وغيرهم - يطلق لهم الجارى فى كل شهر والرسوم والكسوة على عمل التقويم فى كل سنة . وكان كل منهم يجتهد فى حسابه وما تصل قدرته إليه، فإذا كان فى غرة السنة حمل كل منهم تقويمه، فيقابل بينها وبين التقويمات المحضرة من الشام فيوجد بينها اختلاف كثير، فأنكر ذلك .

فلما كان غرة ثلاث عشرة وخمسمائة - عند إحضار التقاويم على العادة - جمع المنجمين والحساب التقاويم على العادة - جمع المنجمين والحساب وأهل العلم، وسألهم عن السبب فى الخلف بين التقاويم، فقالوا : الشامى يحسب ويعمل على رأى الزيج المهجور المأموني،

ونحن نعمل على رأى الزيج الحاكمى لقرب عهده، وبين المتقدم والمتأخر تفاوت وخلف، وقد أجمع القدماء أن القريب العهد أصح من التقدم لتنقل الكواكب وتغير الحساب.

وتحدثوا فى معنى ذلك بما هو مذكور فى موضعه، وأشاروا عليه بعمل رصد مستجد يصحح به الحساب، ويخرج به المعور والتفاوت، وتحصل به المنفعة العظيمة، والفائدة الجليلة، والسمعة الشريفة، والذكر الباقى.

فقال : من يتولى ذلك ؟

فقال صاحب دسته ومشيرة، الشيخ الأجل أبو الحسن بن أبى أسامة : هذا القاضى ابن أبى العيش الطرابلسى المهندس العالم الفاضل وكان ابن أبى العيش صهره زوج ابنته، وهو شيخ كبير السن والقدر، كثير المال، وساعده على ذلك القائد آبو عبد اللّٰه الذى تقلد الوزارة بعد الأفضل، ودعى بالمأمون بن البطائحى.

فاستصوب الأفضل ذلك وقال : مروه يهتم بذلك، ويستدعى ما يحتاج اليه.

فكان أول ما بدأ به لما حصل ذلك أن مدح نفسه - وكان الأفضل غيورا على كل شي، أشد ما عليه من يفتخر أو يلبس ثيابا مذكورة - ثم قال : هذه الآلآت عظيمة، وخطرها جسيم، ولا كل أحد يقوم عليها ولا يحسنها.

وأكثر الكلام والتوسعة، وقال : يحتاج أن الذى يتولى ذلك يعتمد معه الإنعام والإكرام، لتطيب نفسه للمباشرة، وينشرح صدره، ويقدح خاطره لما يعمل فى حقه.

فضجر الأفضل من ذلك وقال : لقد أكثر فى مدح نفسه ولدده، وما يعاملنا بعد لا حاجة إلى معاملته.

فأشار القائد بن البطائحى وقال : هنا من يبلغ الغرض بأسهل مأخذ، وأقرب وقت وأسرعه، وألطف معنى، أبو سعيد بن قرقة الطبيب، متولى خزائنى السلاح والسروج والصناعات وغير ذلك.

فأحضره للوقت، فاتفق له من الحديث الحسن السهل، وما سبب عمل الآلات، ومن ابتدأها من الأول، وذكر القدماء في العلم، ومن رصد منهم واحدا واحدا إلى آخرهم ... شرحا مستوفيا، كأنه يحفظه ظاهرا، أو يقرأه من كتاب .

فأعجب الأفضل والحاضرين، وقال: أي شيء تحتاج ؟

فقال: ما أحتاج كبير أمر، والأمور سهلة، وكل ما أحتاجه في خزائن السلطان - خلد الله ملكه - النحاس والرصاص والآلات، وكل ما أحتاج أستدعيه أولا أولا، إلا النفقات وأجرة الصناع فيتولاها غيري .

فأعجب به وقال: يطلق له جار لنفسه .

فقال: أنا مستخدم في عدة خدم، فجواري تكفيني، فأنا مملوك الدولة ما أحتاج إلى جار، وإذا بلغت الغرض وأنهيت الأشغال فهو المقصود .

وكان قيل للأفضل: هذا الرصد يحتاج إلى أموال عظيمة، فقال كم تقول يحتاج إليه ؟

فقال: ما ينفق عليه إلا مثل ما ينفق على مسجد أو مستنظر .

فرجع يكرر عليه القول، فقال: هاتوا ورقة . فكتب فيها: المملوك يقبل الأرض وينهي: دعت الحاجة إلى خروج الأمر العالي إلى دار الوكالة بإطلاق مائتي قنطار من النحاس الشجر، وثمانين قنطارا من النحاس القضيب الأندلسي، وأربعين قنطارا من النحاس الأحمر، ومن الرصاص ألف قنطار، ومن الحطب ومن الحديد والفولاذ من الصناعة ما لعله يحتاج إليه، ومن الأخشاب ومن النفقة مائة دينار على يد شاهد ينفق عليه، فإذا فرغت استدعى غيرها ... واختار موضعا يصلح الرصد فيه، ويكون العمل والصناعة فيه، ومباشرة السلطان فيما يتوقف عليه، وما يستأمر فيه .

فاستصوب الأفضل جميع ذلك، وأراد أن يخلع عليه . فقال القائد: هذا فيما بعد إذا شوهدت أعماله .

فخدم من أول الحال الى آخرها ولم يحصل له الدرهم الفرد، لأنه كان يستحيي أن يطلب وهو مستخدم عندهم . وكانوا بأجمعهم يؤملون طول المدة والبقاء، فقتل الأفضل ثاني سنة، وتغيرت الأحوال .

ثم إنهم اختاروا للرصد مسجد التنور فوق المقطم، فوجدوه بعيدا عن الحوائج، فأجمعوا على سطح الجرف بالمسجد المعروف بالفيلة الكبير - وكان قد صرف على المسجد خاصة ستة آلاف دينار - فحفروا فى مسجد الفيلة نقرا فى الجبل مكان الصهريج الآن، فعمل فيه قالب الحلقة الكبيرة - وقطرها عشرة أذرع ودورها ثلاثون ذراعا - وهندموه وحرروه أياما وعمل حوله عشر هرج، على كل هرجة منفاخان، وفى كل هرجة أحد عشر قنطارا نحاسا وأقل وأكثر، والجميع مائة قنطار وكسر، قسموها على الهرج، وطرح فيها النار من العصر، ونفخوا إلى الثانية من النهار.

وحضر الأفضل بكرة، وجلس على كرسي، فلما تهيأت الهرج ودارت أمر الأفضل بفتحها - وقد وقف على كل هرجة رجل، وأمروا بفتحها فى لحظة - ففتحت، وسال النحاس كالماء إلى القالب، وكان قد بقى فيه بعض النداوة، فلما استقر به النحاس بحرارته تقعقع المكان الندى فلم تتم الحلقة، ولما بردت وكشف عنها، إذ هى تامة ما خلا المكان الندي.

فضجر الأفضل وضاق صدره، ورمى الصناع بكيس فيه ألف درهم، وغضب وركب. فلاطفه ابن قرقة وقال: مثل هذه الآلة العظيمة التى ما سمع قط بمثلها، لو أعيد سبكها عشر مرات حتى تصح ما كان كثيرا.

فقال له الأفضل: اهتم فى إعادتها.

فسبكت وصحت، ولم يحضر الأفضل فى المرة الثانية ففرح بصحتها، وعملت ورفعت إلى سطح مسجد الفيلة، وأحضر لها جميع صناع النحاس، وعمل لها بركار خشب من السنديان - وهو بركار عجيب - وبنى فى وسط الحلقة مسطبة حجارة منقبة لرجل البركار، وهو قائم مثل عروس الطاحون، وفيه ساعد مثل ناف الطاحون، وقد لبس بالحديد، والجميع سنديان جيد، وطرف الساعد مهيأ لعدة فنون: تارة لتصحيح وجه الحلقة، وتارة لتعديل الأجناب، وتارة للخطوط والحزوز.

وأقام فى التصحيح فيها وأخذ زوائدها بالمبارد مدة طويلة، وجماعة الصناع والمهندسين وأرباب هذا العلم حاضرون، واستدعى لهم خيمة عظيمة ضربت على الجميع، وعقد تحت

الحلقة أقباء وثيقة، وأرادوا قيامها على سطح مسجد الفيلة فلم يتهيأ لهم، فإنهم وجدوا المشرق لأول بروز الشمس مسدودا، فاتفقوا على نقلها إلى المسجد الجيوشى مجاور الانطاكي، المعروف أيضا بالرصد، وكان الأفضل بناه ألطف من جامع الفيلة ولم يكمل، فلما صار برسم الرصد كمل.

فحضر الأفضل فى نقل الحلقة من جامع الفيلة إلى المسجد الجيوشي، وقد أحضرت الصوارى الطوال العظام والسرياقات والمنحاتات من الأسكندرية وغيرها، وجمعت الأسطولية ورجال السودان وبعض أصحاب الركاب والجند حتى أدلوه، وحملوه على العجل إلى مسجد الرصد الجيوشي.

وثانى يوم حضروا بأجمعهم حتى رفعوه إلى السطح، وكملوه، وأقاموا الحلقة، وجعلوا تحت أكتافها عمودين من رخام سبكوهما بالرصاص من أسفلهما وأعلاهما حتى لا يرتخى ثقل النحاس، وجعل فى الوسط عمود رخام، وبأعلاه قطب العضادة مسبوك بالنحاس الكثير لتدور عليه العضادة. وعملت من نحاس فما تمارست ولا دارت، فعملوها من خشب ساج وقطبها وأطرافها من نحاس صفائح ليخف الدوران، ثم رصدوا بها الشمس بعد كلفة.

وكانت الحلقة ترخى الدرجة والدقائق كل وقت للثقل، فعمل عمود من نحاس فوق عمود الرخام ليمسك رخوها. وغلبوا بعد ذلك، فكانت تختلف لشدة ما كانوا يحررونها بالشواقيل وعضادة الخشب.

وتردد إليها الأفضل مع كبر سنه وهو يرتعش، والقائد يحمله إلى فوق، ويقعد زمانا من التعب لا يتكلم ويده ترتعش، فرصدوا قدامه.

وفى خلال ذلك قتل الأفضل ليلة عيد الفطر سنة خمس عشرة وخمسمائة.

وقيل للأفضل عن ابن قرقة أنه أسرف فى كبر الحلقة وعظم مقدارها، فقال له الأفضل: لو اختصرت منها كان أهون.

فقال: وحق نعمتك، لو أمكننى أن أعمل حلقة تكون رجلها الواحدة على الأهرام والأخرى على التنور فعلت، فكلما كبرت الآلة صح التحرير. وأين هذا فى العالم العلوي؟

ثم أكثروا عليه فعمل حلقة دونها في الموضع المهندم بالطوب الأحمر، تحت المسجد الجيوشي، كان قطرها أقل من سبعة أذرع ودورها نحو أحد وعشرين ذراعا.

فلما كملت قتل الأفضل، ولم ينفق من مال السلطان في الأجرة والمؤن وما لابد منه سوى نحو مائة وستين دينارا.

فلما تمت الوزارة للمأمون البطائحي، أحب أن يكملها - ويقال له الرصد المأموني المصحح، كما قيل للأول الرصد المأموني الممتحن - فأخرج الأمر بنقل الرصد إلى باب النصر بالقاهرة، فنقل الرصد إلى الأولى بالعتالين والأسطولية وطوائف الرجال، وكان يدفع لهم كل يوم برسم الغداء جملة دراهم.

فلما صار فوق العجل مضوا به على الخندق من وراء الفتح على المشاهد إلى مسجد الذخيرة من ظاهر القاهرة، وتعبوا في دخوله من باب النصر تعبا عظيما لخوفهم أن يصدم فيتغير، فنصبوا الصواري على عقد باب النصر من داخل الباب، وتكاثر الرجال في جذب المياحين من أسفل ومن فوق حتى وصل إلى السطح الكبير، ثم نقلوه من السطح الكبير إلى السطح الفوقاني، وأوقفوا له العمد كما تقدم ذكره، ورصدوا بالحلقة الكبرى كما رصدوا بها على سطح الجرف، فصح لهم ما أرادوا من حال الشمس فقط.

ثم اهتموا بعمل ذات حلق يكون قطرها خمسة أذرع، وسبكت في فندق بالعطوفية من القاهرة، وكان الأمر فيها سهلا عندما لحقهم من العناء العظيم في الحلقة الكبيرة والحلقة الوسطي. وتجرد المأمون لعملها والحث فيها، وكان ابن قرقة يحضر كل يوم دفعتين، ويحضر أبو جعفر بن حسنداي، وأبو البركات بن أبي الليث صاحب الديوان وبيده الحل والعقد.

فقال له المأمون: أطلع إليهم كل يوم وأي شئ طلبوه وقع لهم به من غير مؤامرة.

وكان قصده ما أطعموه فيه من أن يقال الرصد المأموني المصحح، فلما أراد الله أن يبقى المأمون قليلا كان كمل جميع رصد الكواكب، لكنه قبض عليه ليلة السبت ثالث شهر رمضان سنة تسع وخمسمائة، وكان من جملة ما عدد من ذنوبه عمل الرصد المذكور والاجتهاد فيه، وقيل أطمعته نفسه في الخلافة بكونه سماه الرصد المأموني ونسبه إلى نفسه ولم ينسبه إلى الخليفة الآمر بأحكام الله.

وأما العامة والغوغاء فكانوا يقولون أرادوا أن يخاطبوا زحل، وأرادوا أن يعملوا الغيب.

وقال آخرون منهم: عمل هذا للسحر ونحو ذلك من الشناعات.

فلما قبض على المأمون بطل، وأنكر الخليفة على عمله، فلم يجسر أحد أن يذكره وأمر فكسر وحمل إلى المناخات، وهرب المستخدمون ومن كان فيه من الخاص.

وكان فيه من المهندسين برسم خدمته وملازمته فى كل يوم بحيث لا يتأخر منهم أحد: الشيخ أبو جعفر بن حسنداي، والقاضى بن أبى العيش، والخطيب أبو الحسن على بن سليمان بن أيوب، والشيخ أبو النجا بن سند الساعاتى الإسكندرانى المهندس، وأبو محمد عبد الكريم الصقلى المهندس، وغيرهم من الحساب والمنجمين كابن الحلبى وابن الهيثمى وأبى نصر تلميذ سهلون، وابن دياب، والقلعي، وجماعة يحضرون كل يوم إلى ضحوة النهار، فيحضر صاحب الديوان ابن أبى الليث، وكان ابن حسنداى ربما تأخر فى بعض الأيام، فإنه كان آمراً عظيما صاحب كبرياء وهيبة.

وفى كل يوم يبعث المأمون من يتفقد الجماعة ويطالعه بمن غاب منهم، لأنه كان كثير التفقد للأمور كلها، وله غمازون وأصحاب أخبار لا تنام، ولا يكاد يفوته شئ من أحوال الخاصة والعامة بمصر والقاهرة ومن يتحدث، وجعل فى كل بلد من الأعمال من يأتيه بسائر أخبارها.

وأنا أدركت هذا الموضع الذى يعرف اليوم بالرصد - حيث جامع الفيلة - عامرا، فيه عدة مساكن ومساجد، وبه أناس مقيمون دائما، وقد خرب ما هناك وصار لا أنيس به.

وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد أنشأ فيه سواقى لنقل الماء من أماكن قد حُفر لها خليج من البحر بجوار رباط الآثار النبوية، فاذا صار الماء فى سفح هذا الجرف المسمى بالرصد نقل بسواق هناك قد أنشئت، إلى أن يصير إلى القلعة. فمات ولم يكمل ما أراده من ذلك، كما ذكر فى أخبار قلعة الجبل من هذا الكتاب.

وما زال موضع هذا الرصد متنزها لأهل مصر، ويقال أن المعز لدين الله معدا لما قدم من بلاد المغرب إلى القاهرة، لم يعجبه مكانها، وقال للقائد جوهر: فاتك بناء القاهرة على النيل، فهلا كنت بنيتها على الجرف (يعنى هذا المكان).

ويقـــال أن اللحم علق بالقاهرة فتغير بعـد يوم وليلة ، وعلق بقلعة الجبل فـتغير بعـد يومين وليلتين ، وعلق فى موضـــع الرصد فلم يتغير ثلاثة أيام ولياليها ، لطيب هوائه. ولله در القائل :

يا ليـلة عاش سرورى بهـا

ومات من يحسدنا بالكمـد

وبت بالمعشوق فى المشتهى

وبات من يرقبنـا بالرصـــد

ذكر مدائن أرض مصر

قال ابن سيده : مدن بالمكان أقام ، والمدينة : الحصن يبنى فى أسطحة الأرض ، مشتق من ذلك ، والجمع مدائن ومدن. ومن هنا حكم أبو الحسن ـ فيما حكى الفارسى عنه ـ أن مدينة فعيـلة.

وقال العلامة أثير الدين أبو حيان : المدينة معروفة مشتقة من مدن ، فهى فعيلة ، ومن ذهب إلى أنها مفعلة من دان فقوله ضعيف لاجماع العرب على الهمز فى جمعها ، فإنهم قالوا مدائن بالهمز ، ولا يحفظ مداين بالياء ، ولا ضرورة تدعو إلى أنها مفعلة من دان ، ويقطع بأنها فعيلة جمعهم لها على فعل ، فإنهم قالوا مدن ، كما قالوا صحف فى صحيفة.

وأعلم أن مدائن مصر كثيرة ، منها ما دثر وجهل اسمه ورسمه ، ومنها ما عرف أسمه وبقى رسمه ، ومنها ما هو عامر.

وأول مدينة عرف أسمها فى أرض مصر مدينة أمسوس ، وقد محا الطوفان رسمها ، ولها أخبار معروفة ، وبها كان ملك مصر قبل الطوفان ، ثم صارت مدينة مصر بعد الطوفان مدينة منف ، وكان بها ملك القبط والفراعنة إلى أن خربها بخت نصر.

فلما قدم الإسكندر بن فيلبش المقدونى من مملكة الروم، عمر مدينة الإسكندرية عمارة جديدة، وصارت دار المملكة بمصر، إلى أن قدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين وفتح زرض مصر، فاختلط فسطاط مصر، وصارت مدينة مصر إلى أن قدم جوهر القائد من الغرب بعساكر المعز لدين الله أبى تميم معد، وملك مصر واختط القاهرة، فصارت دار المملكة بمصر إلى أن زالت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، فبنى قلعة الجبل... وصارت القاهرة مدينة مصر إلى يومنا هذا.

وفى أرض مصر عدة مدائن ليست دار ملك، وهى مدينة الفيوم ومدينة دلاص ومدينة أهناس ومدينة البهنسا ومدينة القيس ومدينة طلخا ومدينة الأشمونين ومدينة أنصنا ومدينة قوص ومدينة سيوط ومدينة فاو ومدينة أخميم ومدينة البلينا ومدينة هو ومدينة قنا ومدينة دندرة ومدينة قفط ومدينة الأقصر ومدينة إسنا ومدينة أرمنت ومدينة أدفو وثغر أسوان، وأدركناه مدينة... هذه مدائن الوجه القبلي.

وكان أهل مصر يسمون من يسكن من القبط بالصعيد المريس، ومن سكن منهم أسفل الأرض يسمونه البيما.

وفى الوجه البحرى مدينة نوب من الحوف الشرقى بأسفل الأرض، ومدينة عين شمس ومدينة أتريب ومدينة تنوا، ومن قراها ناحية زنكلون، ومدينة تمى ومدينة بسطة، ويعرف اليوم موضعها بتل بسطة، ومدينة قربيط ومدينة البتنون ومدينة منوف ومدينة طرة ومدينة منوف أيضا ومدينة سخا ومدينة الأوسة، وهى دميرة، ومدينة تيدة ومدينة الافراحون، ومن جملة قراها نشا، ومدينة بقيرة ومدينة بنا ومدينة شبراساط ومدينة سمنود ومدينة نوسا ومدينة سبتى ومدينة النجوم ـ وقد غلب على مدينة النجوم الرمال والسباخ، ويعرف اليوم منها قرية ادكو على ساحل البحر بين اسكندرية ورشيد ـ ومدينة تنيس ومدينة دمياط ومدينة الفرما ومدينة العريش ومدينة صا ومدينة برنوط ومدينة قرطسا ومدينة أخنو ومدينة رشيد ومدينة مريوط ومدينة لوبية ومراقية، وليس بعد لوبية ومراقية إلا أرض انطابلس وهى برية.

وفى كور القبلة فاران ومدينة القلزم ومدينة راية ومدينة أيلة ومدينة مدين.

وأكثر هذه المدائن قد خرب، ومنها ما له أخبار معروفة.

وقد استحدث فى الاسلام بعض مدائن، وسيأتى من أخبار ذلك إن شاء الله ما يكفي.

وديار مصر اليوم وجهان: قبلى وبحري، جملتهما خمس عشرة ولاية. فالوجه القبلى أكبرهما، وهو تسعة أعمال:

عمل قوص، وهو أجلها، ومنه أسوان وغرب قمولة، وأسوان حد المملكة من الجنوب.

وعمل اخميم.

وعمل سيوط.

وعمل منفلوط.

وعمل الأشمونين، وبها الطحاوية.

وعمل البهنسا.

وعمل الفيوم.

وعمل أطفيح.

وعمل الجيزة.

والوجه البحرى ستة أعمال:

عمل البحيرة، وهو متصل البر بالإسكندرية وبرقة.

وعمل الغربية، وهى جزيرة واحدة يشتمل عليها ما بين البحرين: بحر دمياط وبحر رشيد.

والمنوفية، ومنها ابيار التى تسمى جزيرة بنى نصر.

وعمل قليوب.

وعمل الشرقية.

وعمل أشموم طناح، ومنها الدقهلية والمرتاحية، وهنا موضع ثغر البرلس وثغر رشيد بالمنصورة.

وفى هذا الوجه الإسكندرية ودمياط وهما مدينتان لا عمل لهما.

وذكر أبو الحسن المسعودى فى كتاب «أخبار الزمان» أن الكوكة (وهى أمة من أهل أيلة) ملكوا الأرض وقسموا الصعيد على ثمانين كورة، وجعلوه أربعة أقسام.

وكان عدد مدن مصر الداخلة فى كورها ثلاثين مدينة، فيها جميع العجائب والكور مثل أخميم وقفط وقوص والفيوم.

ويقال إن مصر بن بيصر قسم الأرض بين أولاده، فأعطى ولده أشمون من حد بلده إلى رأس البحر إلى دمياط، وأعطى ولده أنصنا من حد أنصنا إلى الجنادل، وأعطى لولده صا من صا أسفل الأرض إلى الاسكندرية، وأعطى لولده منوف وسط الأرض منف وما حولها، وأعطى لولده أتريب شرقى الأرض إلى البرية - برية فاران - وأعطى لبناته الثلاث، وهى الفرما وسريام وبدورة، بقاعا من أرض مصر محددة فيما بين اخواتهن.

ذكر مدينة أمسوس وعجائبها وملوكها

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه الكاتب فى كتاب «أخبار مصر وعجائبها»: وكانت مصر القديمة اسمها أمسوس. وأول من ملك أرض مصر نقراوش الجبار بن مصرايم - ومعنى نقراوش: ملك قومه - الأول ابن مركابيل بن دوابيل بن عريان بن آدم عليه السلام. ركب فى نيف وسبعين راكبا من بنى عرياب جبابرة، كلهم يطلبون موضعا يقطنون فيه، فرارا من بنى أبيهم عندما بغى بعضهم على بعض وتحاسدوا، وبغى عليهم بنو قابيل ابن آدم.

فلم يزالوا يمشون حتى وصلوا إلى النيل، فلما رأوا سعة البلد فيه وحسنه، أعجبهم فأقاموا فيه، وبنوا الأبنية المحكمة. وبنى نقراوش مصر وسماها باسم أبية مصرايم، ثم تركها وأمر ببناء مدينة سماها أمسوس.

وقال ابن وصيف شاه: وكان قد وقع إليه علم ذلك من العلوم التى تعلمها داوييل من آدم عليه السلام، فبنى الأعلام، وأقام الأساطين، وعمل المصانع، واستخرج المعادن، ووضع الطلسمات، وشق الأنهار، وبنى المدائن... فكل علم جليل كان فى أيدى المصريين إنما هو من فضل علم نقراوش وأصحابه، كان ذلك مرموزا على الحجارة، ففسره قليمون الكاهن الذى ركب مع نوح عليه السلام فى السفينة.

ونقراوش هو الذى بنى مدينة أمسوس وعمل بها عجائب كثيرة: منها طائر يصفر كل يوم عند طلوع الشمس مرتين وعند غروبها مرتين، فيستدلون بصفيره على ما يكون من الحوادث حتى يتهيأوا لها.

ومنها صنم من حجر أسود فى وسط المدينة، تجاهه صنم مثله، إذا دخل إلى المدينة سارق لا يقدر أن يزول حتى يسلك بينهما، فاذا دخل بينهما أطبقا عليه فيؤخذ.

وعمل صورة من نحاس على منار عال، لا يزال عليها سحاب يطلع، فكل من استمطرها أمطرت عليه ما شاء.

وعمل على حد البلاد أصناما من نحاس مجوفة، وملأها كبريتا، ووكل بها روحانية النار، فكانت اذا قصدهم قاصد أرسلت تلك الأصنام من أفواهها نارا أحرقته.

وعمل فوق جبل بطرس منارا يفور بالماء، ويسقى ما حوله من المزارع... ولم تزل هذه الآثار حتى أزالها الطوفان.

ويقال إنه هو الذى أصلح مجرى النيل، وكان قبله يتفرق بين الجبلين، وأنه وجه إلى بلاد النوبة جماعة هندسوه، وشقوا نهرا عظيما منه بنوا عليه المدن وغرسوا الغروس. وأحب أن يعرف مخرج النيل فسار حتى بلغ خلف خط الأستواء، ووقف على البحر الأسود الزفتي، ورأى النيل يجرى على البحر مثل الخيوط حتى يدخل تحت جبل القمر ويخرج منه إلى بطائح.

ويقال انه هو الذى عمل التماثيل التى هناك .

وعاد إلى أمسوس وقسم البلاد بين أولاده : فجعل لابنه الأكبر - واسمه نقاوش - الجانب الغربي ، ولابنه شورب الجانب الشرقي ، وبنى لابنه الأصغر - واسمه مصرايم - مدينة برسان وأسكنه فيها وأقام ملكا على مصر مائة وثمانين سنة .

ولما مات لطخ جسده بأدوية ماسكة ، وجعل فى تابوت من ذهب ، وعمل له تابوت مصفح بالذهب ، ووضع فيه ومعه كنوز وإكسير وأوان من ذهب لا يحصى لذلك كثرة . وزبروا على الناووس تاريخ موته ، وأقاموا عليه طلسما يمنعه من الحشرات المفسدة .

وملك بعده ابنه نقاوش بن نقراوش ، وكان كأبيه فى علم الكهانة والطلسمات ، وهو أول من عمل بمصر هيكلا ، وجعل فيه صور الكواكب السبعة ، وكتب على هيكل كل كوكب منافعه ومضاره ، وألبسها كلها الثياب الفاخرة ، وأقام لها خدمة وسدنة .

وخرج من أمسوس مغربا حتى بلغ البحر المحيط ، وأقام عليه أساطين على رؤوسها أصنام تسرج عيونها فى الليل .

ومضى على بلاد السودان الى النيل ، وأمر ببناء حائط على جنب النيل ، وعمل له أبوابا يخرج منها الماء .

وبنى فى صحراء الغرب خلف الواحات ثلاث مدن على أساطين مسرفات من حجارة ملونة شفافة ، وفى كل مدينة عدة خزائن من الحكمة .

وفى إحداها صنم للشمس على صورة إنسان وجسد طائر من ذهب ، وعيناه من جوهر أصفر ، وهو جالس على سريرمن مغناطيس ، وفى يده مصحف العلوم .

وفى احداها صنم رأسه رأس انسان بجسد طائر ، ومعه صورة امرأة جالسة قد عملت من زئبق معقود ، لها ذؤابتان ، فى يدها مرآة ، وعلى رأسها صورة كوكب ، وقد رفعت المرآة بيديها إلى وجهها.

وفى إحداها مطهرة فيها سبعة ألوان من سائل يرد إليها ولا يغير بعضها لون بعض .

وفى بعضها صورة شيخ جالس قد عمل من الفيروزج ، وبين يديه صبية جلوس كلهم من عقيق.

وفى بعضها صورة هرمس (يعنى عطارد) ، وهو ينظر إلى مائدة بين يديه من نوشادر ، على قوائم من كبريت أحمر ، وفى وسطهاصحفة من جوهر ، وجعل فيها صورة عقاب من زبرجد أخضر ، وعيناه من يافوت أصفر ، بين يديه حية زرقاء من فضة ، قد لوت ذنبها على رجليه ، ورفعت رأسها كأنها تنفخ عليه ، وجعل فيها صفة المريخ وهو راكب على فرس ، وفى يده سيف مسلول من حديد أخضر ، وجعل فيها عمودا من جوهر أحمر ، وعليه قبة من ذهب فيها صورة المشتري ، وجعل فيها قبة من آنك على أربعة أعمدة من جزع أزرق ، وفى سقفها صورة الشمس والقمر متحاذيين فى صورة رجل وامرأة يتحادثان ، وجعل فيها قبة من كبريت أحمر فيها صورة الزهرة على هيئة امرأة ممسكة بضفائرها ، وتحتها رجل من زبرجد أخضر فى يده كتاب فيه علم من علومهم كأنه يقرأ فيه عليها .

وجعل فى بقية الخزائن من كنوز الأموال والجواهر والحلى وإكسير الصنعة وصنوف الأدوية والسموم القاتلة ما لا يحصى كثرة .

وجعل على باب كل مدينة طلسما يمنع من دخولها ، وأنفذ مسارب تحت الأرض ينفذ بعضها إلى بعض ، طول كل سرب ثلاثة أميال وبنى أيضا مدينة بأرض مصر اسمها حلجمة ، وعمل فيها جنة صفح حيطانها بالجواهر الملونة بالذهب ، وغرس فيها أصناف الأشجار ، وأجرى تحتها الأنهار ، وغرس فيها شجرة مولدة تطعم سائر الفواكه ، وعمل فيها قبة من رخام أحمر على رأسها صنم يدور مع الشمس ، ووكل بها شياطين إذا خرج أحد من بيته فى الليل هلك ، وأقام بها أساطين زبر عليها جميع العلوم وصور العقاقير ومنافعها ومضارها .

وجعل لهذه المدينة مسارب تتصل بمسارب تلك المدن الثلاث ، بين كل سرب منها وبين هذه المدينة عشرون ميلا .

فلم تزل هذه المدائن حتى أفسدها الطوفان .

ولما مات بعد مائة وتسع سنين من ملكه على مصر ، جعل فى ناووس مطلسم ودفن فيه .

وملك بعده أخوه مصرام بن نقراوش الجبار ابن مصرايم - ويقال به سميت مصر - وكان حكيما ، فعمل هيكلا للشمس من مرمر مموه بذهب أحمر ، وفى وسطه فرس من جوهر

أزرق عليه صورة الشمس من ذهب أحمر ، وعلى رأسه فنديل من الزجاج فيه حجر مدبر يضئ أكثر من السراج .

ثم انه ذلل الأسد وركبها ، وسار إلى البحر المحيط ، وجعل فى وسطه قلعة بيضاء عليها صنم للشمس ، وزبر عليه اسمه وصفته ، وعمل صنما من نحاس زبر عليه : أنا مصرام الجبار ، كاشف الأسرار ، الغالب القهار ، وضعت الطلسمات الصادقة ، وأقمت الصور الناطقة ، ونصبت الأعلام الهائلة على البحار السائلة ، ليعلم من بعدى أنه لا يملك أحد أشد من أيدى .

وعاد إلى أمسوس ، واحتجب عن الناس ثلاثين سنة ، واستخلف رجلا يقال له عيقام من ولد عرياب بن آدم ، وكان كاهنا ساحرا.

فلما مضت المدة أحب أهل مصر أن يروه ، فجمعهم عيقام بعد ما أعلم مصرام ، فظهر لهم فى أعلى مجلس مزين بأصناف الزينة ، فى صورة هائلة ملأت قلوبهم رعبا ، فخروا له ساجدين ، ودعوا له . ثم أحضر اليهم الطعام فأكلوا وشربوا ، وأمرهم بالرجوع الى مواضعهم ، ولم يروه بعدها .

فملك بعده خليفته عيقام ، وقد حكى عنه أهل مصر حكايات لا تصدقها العقول .

ويقال إن إدريس عليه السلام رفع فى أيامه ، وإنه رأى فى علمه كون الطوفان ، فبنى خلف خط الاستواء فى سفح جبل القمر قصرا من نحاس ، وجعل فيه خمسةوثمانين تمثالا من نحاس يخرج ماء النيل من حلوقها ويصب فى بطحاء تنتهى إلى مصر .

وسار إليه من أمسوس ، فشاهد حكمة بنيانه ، وزخرفة حيطانه وما فيها من النقوش من صور الأفلاك وغيرها .

وكان قصرا تسرج فيه المصابيح ، وتنصب فيه الموائد ، وعليها من كل الأطعمةالفاخرة فى الأوانى النفيسة ما لو أكل منها عسكر لما نقصت ذرة ، ولا يعرف من عملها ولا من وضعها ، وفى وسط القصر بركة من ماء جامد الظاهر ، وترى حركته من وراء ما جمد منه .

فأعجب بما رأي ، وعاد الى أمسوس ، واستخلف ابنه عرياق ، وقلده الملك وأوصاه ، وعاد الى ذلك القصر وأقام به حتى هلك .

والى عيقام هذا يعزى مصحف القبط الذى فيه تواريخهم، وجميع ما يجرى فى آخر الزمان .

فقام من بعده ابنه عرياق ويقال أرياق بن عيقام، ويقال له الأثيم، فعمل أعمالا عجيبة :

منها شجرة صفراء لها أغصان من حديد بخطاطيف، إذا قرب الظالم منها أخذته تلك الخطاطيف ولا تفارقه حتى يقر بظلمه، ويخرج منه لخصمه .

ومنها صنم من كدان أسود سماه عبد زحل، كانوا يتحاكمون إليه : فمن زاغ عن الحق ثبت فى مكانه، ولم يقدر على الخروج منه حتى ينصف خصمه من نفسه، ولو أقام سنة . ومن كانت له حاجة قام ليلا ونظر إلى الكواكب وتضرع وذكر اسم عرياق، فإذا أصبح وجد حاجته على بابه .

وعمل شجرة من حديد ذات أغصان، ولطخها بدواء مدبر، فكانت تجلب كل صنف من الدواب والسباع والوحوش إليها حتى يتمكن من صيدها .

وكان إذا غضب على أهل اقليم سلط عليهم الوحوش والسباع، وتارة يجعل ماءهم من الإيداق .

ويقال إن هاروت وماروت كانا فى زمانه، وإنه بنى جنة عظيمة، واغتصب النساء الحسان وأسكنهن فيها، فعملت عليه امرأة منهن وسمته فهلك .

وملك بعده لوجيم بن نقاوش، ويقال بل هو من بنى نقراوش الجبار، ويعرف بلوجيم الفتي، وهو الذى أخذ الملك من عرياق بن عيقام الكاهن ورده لبنى نقراوش بعدما خرج منهم بلا حرب ولا قتل .

وكان عالما بالكهانة والطلسمات فعمل أعمالا عجيبة منها أن الغداف والغراب كثر فى أيامه وأتلف الزرع، فعمل أربع منارات فى جوانب مدينة أمسوس الأربعة، وعلى كل منارة صورة غراب فى فمه حية قد التوت عليه، فنفرت عنهم الطيور المضرة من حينئذ، ولم تقربهم حتى زالت المنارات بالطوفان .

وكان حسن السيرة، منصفا للرعية، عادلا، مقربا للكهنة . ولما مات دفن فى ناووس ومعه كنوزه، وعمل طلسم يمنعه .

وملك بعده ابنه خصليم، وكان فاضلا عالما كاهنا، فعمل أعمالا عجيبة . وهو أول من عمل مقياسا لزيادة ماء النيل بأن جمع أرباب العلوم والهندسة فقدروا بيتا من رخام على حافة النيل، وفى وسطه بركة صغيرة من نحاس فيها ماء موزون، وعليها من جانبيها عقابان من نحاس أحدهما ذكر والآخر أنثى . فإذا كان أول الشهر الذى يزيد فيه النيل فتح هذا البيت، وجمع الكهان فيه بين يديه، وزمزم الكهان بكلامهم حتى يصفر أحد العقابين : فإن صفر الذكر كان الماء تاما، وإن صفرت الأنثى كان الماء ناقصا، فيستعدون عند ذلك لغلاء الأسعار بما يصلحون به شأنهم .

وهو الذى بنى القنطرة ببلاد النوبة على النيل .

ولما مات جعل فى ناووس ومعه كنوزه، وعمل عليه طلسم .

وملك بعده ابنه هو صال، ويقال يوصال ومعناه خادم الزهرة، ويقال سومال بن لوجيم الملك النقراوشى من بنى نقراوش الجبار .

ويقال ان نوحا عليه السلام ولد فى أيامه .

وكان فاضلا كاهنا عالما بالسحر والطلسمات فعمل عجائب . منها أنه بنى مدينة عمل فى وسطها صنما للشمس يدور بدورانها، ويبيت مغربا، ويصبح مشرقا . وعمل سربا تحت النيل، فشق الأرض وخرج منه متنكرا حتى بلغ مدينة بابل، وكشف أعمال الملوك .

وكان نوح عليه السلام فى زمانه .

وولد له عشرون ولدا، فجعل مع كل ولد منهم قطرا، وهو رأس الكهنة . وأقام فى الملك مائة وسبع عشرة سنة، ثم لزم الهياكل وأقام أولاده على حالهم، كل منهم فى قسمه الذى أعطاه اياه أبوه مدة سبع سنين .

ثم اجتمعوا على واحد منهم وملكوه عليهم، وكان اسمه تدرشان، وقيل تدرسان، فلما ملك نفى جميع إخوته إلى المدائن الداخلة فى الغرب، واقتصر على امرأة من بنات عمه،

وكانت ساحرة . وعمل له قصرا من خشب منقوشا فيه صورة الكواكب، وبسطه بأحسن الفرش، وحمله على الماء، وصار يجلس فيه .

فبينما هو فيه ذات يوم إذ هبت ريح شديدة اضطرب منها الماء، فانقلب القصر وتكسر، فغرق هو ومن كان معه فى القصر.

وملك بعده أخوه نمرود الجبار، ويقال شمرود بن هوصال، فأحسن السيرة وأنصف الرعية وبسط العدل، وجمع إخوته وفرق عليهم كنوز أخيهم، فسر الناس به.

وطلب امرأة أخيه الساحرة ففرت منه بابنها إلى مدينة ببلاد الصعيد، وامتنعت عليه بسحرها، وأقامت مدة. واجتمع السحرة إلى ابنها - وكان اسمه توميدون - وحملوه على طلب الملك، فسار وخرج إليه شمرود وإخوته، فاقتتلوا قتالا عظيما كان فيه الظفر لتوميدون فقتله، وملك من بعده.

فقام توميدون بن تدرسان بالملك فى مدينة أمسوس، وكان عالما فاضلا، فتقوى بسحر أمه، وعملت له أعمالا عجيبة، منها قبة من زجاج على هيئة الكرة، تدور بدوران الفلك، وصورت فيها صور الكواكب، فكانوا يعرفون بها أسرار الطبائع وعلوم العالم.

فلما ماتت أمه الساحرة بعد ستين سنة من ملكه، طلى جسدها بما يدفع عنه النتن والحشرات، ودفنت تحت صنم القمر. ويقال إنها كانت بعد موتها يسمع من عندها صوت بعض الأرواح، وتخبرها بعجائب، وتجيب عما تسأل عنه.

ولما مات توميدون بعد مائة سنة من ملكه، عمل له صورة من زجاج مقسومة نصفين، وأدخل فيها بعد ما طلى بالأدوية المانعة من النتن، وأطبقت الصورة عليه حتى التحمت، وأقيم فى هيكل الأصنام، ودفنت كنوزه عنده، وصار يعمل له فى كل سنة عيد.

وملك بعده ابنه شرياق، ويقال له سرياق بن توميدون بن تدرسان بن هوصال. وكان كأبيه فى علم الكهانة والسحر والطلمسات، فعمل أعمالا عجيبة، منها على باب مدينة أمسوس هيئة بطة من نحاس قائمة على أسطوانة إذا دخل غريب من ناحية من النواحى

صفقت بجناحيها وصرخت، فيؤخذ ذلك الغريب ويكشف أمره حتى يعرف فيما قدم، وشق من النيل نهرا يمر إلى مدائن الغرب، وبنى عليه أعلاما ومدنا ومنتزهات.

وسار ملك من بنى فراشى بن آدم، ويقال من بنى صوانيتى بن آدم، خرج من ناحية العراق فى أيامه، وغلب على بلاد الشام، وقصد مصر ليأخذ ملكها فقيل له إنك لا تقدر عليها لسحر أهلها. فتنكر ودخل فى جماعة من خواصه ليكشف حال أهل مصر، فلما وصل إلى أول حد مصر حبسه الموكلون بذلك الحد هو ومن معه حتى يأمر الملك فيهم بأمره، ويبعثوا إليه بصفتهم.

وكان قد رأى فى منامه كأنه على منار عال، وكأن طائرا عظيما انقض عليه ليخطفه فحاد عنه حتى كاد يسقط من المنار، فجاوزه الطائر وسلم منه.

فانتبه مذعورا وقص رؤياه على كبير الكهنة، فقال: يطلبك ملك ولا يقدر عليك. ونظر فى نجومه فرأى الملك الذى يطلب ملكه قد دخل إلى مصر، وكان ذلك هو الوقت الذى قدم عليه فيه الرسل بصفات الذين وصلوا إلى حد مصر، فأمر بإحضارهم إليه بعدما يطاف بهم على عجائب مصر كلها ليروها.

فأوثقوهم وساروا بهم، وأوقفوهم على عجائب أرض مصر وما فيها من الطلسمات، حتى بلغوا إلى الإسكندرية، ثم إلى أمسوس، ثم إلى الجنة التى عملها مصرام. وكان الملك شرياق مقيما بها. فعندما وصلوا إليها أظهرت السحرة التماثيل العجيبة، فدخلوا عليه وحوله الكهنة وبين يديه نار لا يصل إليه أحد حتى يخوضها، فمن كان بريئا لم تضره، ومن كان يريد بالملك سوءا أو أضمر له مكروها أخذته النار.

فشق القوم فى وسط النار واحدا بعد واحد من غير أن تضرهم، حتى انتهى الأمر إلى ملك العراق، فعندما دنا من النار أخذته بحرها فولى هاربا، فأتبعوه حتى أخذوه وأوقفوه بين يدى شرياق، فلم يزل به حتى اعترف، فأمر بصلبه، فصلب على الحصن الذى أخذ منه، ونودى عليه: هذا جزاء من طلب ما لا يصل إليه، وعفا عن الباقين فساروا من مصر

وتحدثوا بما رأوه من العجائب، فانقطع طمع ملوك الأرض عن طلب ملك مصر.

ومات شرياق بعدما ملك مصر مائة وثلاثين سنة، فجعل فى ناووس ومعه أمواله وطلسم يحفظه ممن يقصده.

وملك بعده ابنه شهلوق، وكان عالما بالكهانة والطلسمات، فقسم ماء النيل موزونا يصرف إلى كل ناحية قسطها، ورتب الدولة، وعمل بيت نار، وهو أول من عبد النار، وعمل بأمسوس عجائب، منها شجرة على أعلى الجبال تقسم بها الرياح التى تمنع من أراد مصر بأذى أو فساد من جنى أو إنسى أو سبع أو طائر.

وعمل بالمدينة قبة مركبة على سبعة أركان، ولها سبعة أبواب على كل ركن باب، وفى وسط القبة قبة من صفر، وفى أعلاها صور الكواكب السبعة، وتحت القبة قبة أخرى معلقة على سبع أساطين.

وعلى الباب الأول من القبة أسد ولبوة من صفر وهما رابضان، كان يذبح لهما جروا أسود ويبخرهما بشعره. وعلى الباب الثانى ثور وبقرة يذبح لهما عجلا ويبخرهما بشعره. وعلى الباب الثالث خنزير وخنزيرة يذبح لهما خنوصا ويبخرهما بشعره. وعلى الباب الرابع كبش وشاة يذبح لهما سخلة ويبخرهما بشعرها. وعلى الباب الخامس ثعلب وثعلبة يذبح لهما فرخ ثعلب ويبخرهما بشعره. وعلى الباب السادس عقاب وأنثاه يذبح لهما فرخ عقاب ويبخرهما بريشه. وعلى الباب السابع نسر وأنثاه يذبح لهما فرخ نسر ويبخرهما بريشه... ويلطخ كلا منها بدم ما ذبح له، وتحرق سائر القرابين، ويوضع رمادها تحت عتبات أبواب القبة، وجعل لهذه القبة سدنة يشعلون المصابيح ليلا ونهارا.

وقسم الناس بمصر سبع مراتب، لكل مرتبة منهم باب من أبواب تلك القبة... فكان الخصم اذا تقدم إلى شئ من تلك الصور، وكان ظالما، فانه يلتصق بها ولا يتخلص منها حتى يخرج من الحق الذى عليه: الذكر للذكر، والأنثى للأنثي، فيعرفون بذلك الظالم من المظلوم.

ولم تزل هذه القبة بأمسوس حتى أزالها الطوفان.

ويقال أنه رأى أباه فى النوم وهو يأمره أن ينطلق إلى جبل وصفه له من جبال مصر، فإن فيه كوة صفتها كذا، على بابها أفعى لها رأسان، اذا أقبل إليها كشرت فى وجهه. فخذ معك طائرين صغيرين ذكرا وأنثى فاذبحهما لها، وألقمها إياهما، فإنها تأخذ برأسيهما وتنتحى بها إلى سرب. فإذا غابت ادخل الكوة تجد فيها امرأة عظيمة من نور حار يابس، فإنها تسطع لك وتحس بحرارتها فلا تدن منها تحترق، ولكن اقعد حذاءها، وسلم عليها، فإنها تخاطبك. فافهم ما تقول لك واعمل به، فإنك تشرف بذلك، وتدلك على كنوز جدك مصرام، فإنها حافظة لها.

فلما انتبه عمل ما أمره أبوه، فلما قعد بجانب المرأة وسلم، قالت له: أتعرفني؟

قال: لا

قالت: أنا صورة النار المعبودة فى الأمم الخالية، وقد أردت أن تحيي ذكري، وتجدد لى بيتا تقد لى فيه نارا دائمة بقدر واحد، وتتخذ لها عيدا فى كل سنة تحضره أنت وقومك، فإنك تتخذ بذلك عندى يدا أنيلك بها شرفا إلى شرفك، وملكا إلى ملكك، وأمنع عنك من يطلبك بسوء، وأدلك على كنوز جدك مصرام.

فضمن لها أن يفعل كل ما أمرته به، فدلته على الكنوز التى تحت المدائن المعلقة، وعلمته كيف يصير إليها وكيف يحترس من الأرواح الموكلة بها وما ينجيه منها.

ثم قال لها: كيف لى بأن أراك فى وقت آخر؟

قالت: لا تعد، فإن الأفعى لا تمكنك ولكن بخر فى بيتك بكذا فإنى آتيك.

فسر بذلك، وغابت عنه، وخرج، ففعل ما أمرته به من عمل بيت النار، وأخذ كنوز مصرام.

ولما مات جعل فى ناووس ومعه سائر أمواله وكنوزه، وجعل عليه طلسم يحفظه ممن يقصده.

وملك بعده ابنه سوريد، وكان حكيما فاضلا، وهو أول من جبى الخراج بمصر، وأول من أمر بالإنفاق على المرضى والزمنى من خزائنه، وأول من سن رقعة الصباح.

وعمل أعمالا عجيبة، منها مرآة من خلاط كان ينظر فيها إلى الأقاليم فيعرف فيها ما حدث من الحوادث، وما يخصب منها وما يجدب. وأقام هذه المرآة فى وسط مدينة أمسوس، وكانت من نحاس.

وعمل فى أمسوس صورة إمرأة جالسة فى حجرها صبى ترضعه. وكانت المرأة من نساء مصر إذا أصابتها علة فى موضع من جسمها أتت هذه الصورة ومسحت ذلك الموضع من جسدها بمثل ذلك الموضع من الصورة فتزول عنها العلة، وإن قل لبنها مسحت ثديها بثدى الصورة فيغزر لبنها، وإن قل حيضها مسحت فرجها بفرج الصورة فيكثر حيضها، وإن كثر دمها مسحت أسفل ركبها بمثل ذلك من الصورة، وإن عسرت ولادة إمرأة مسحت رأس الصبى الذى فى حجر الصورة فتضع حملها، وإن أرادت التحبب إلى زوجها مسحت وجهها وتقول افعلى كذا وكذا، فاذا وضعت الزانية يدها عليها ارتعدت حتى تتوب.

ولم تزل هذه الصورة إلى أن أزالها الطوفان. وفى كتب القبط أنها وجدت بعد الطوفان، وأن أكثر الناس عبدوها.

وسوريد هذا هو الذى بنى الهرمين العظيمين بمصر المنسوبين إلى شداد بن عاد، والقبط تنكر أن تكون العادية دخلت بلادهم لقوة سحرهم.

ولما مات سوريد دفن فى الهرم ومعه كنوزه. ويقال إنه كان قبل الطوفان بثلثمائة سنة، وإنه ملك مائة سنة وتسعين سنة.

فملك بعده ابنه هرجيب، وكان كأبيه حكيما فاضلا فى علم السحر والطلسمات، فعمل أعمالا عجيبة، واستخرج معادن كثيرة، وأظهر علم الكيمياء، وبنى أهرام دهشور وحمل إليها أموالا عظيمة وجواهر نفيسة وعقاقير وسمومات، وجعل عليها روحانيات تحفظها.

وشج رجل رجلا فأمر بقطع أصابعه، وسرق رجل مالا فملك المسروق له رق السارق.

ولما مات دفن فى الهرم ومعه جميع أمواله وذخائرة.

وملك بعده ابنه مناوس، ويقال منقاوس؛ وكان كأبيه فى الحكمة، إلا أنه كان جبارا فاسقا سفاكا للدماء، ينتزع النساء من أزواجهن ويبيح ذلك لخواصه.

وعمل أعمالا عجيبة، واستخرج كنوزا، وبنى قصورا من ذهب وفضة، وأجرى فيها الأنهار، وجعل حصباءها من أصناف الجواهر النفيسة، وسلط رجلا جبارا اسمه قرناس على الناس، ووجهه لمحاربة الأمم الغربية، فقتل منهم خلائق.

ولما مات دفن فى بعض قصوره ومعه أمواله، وعمل عليه طلسم يحفظه ويمنعه من كل طالب.

وملك بعده ابنه أفروس، وكان كأبيه فى العلم والحكمة، ولما ملك أظهر العدل وأحسن السيرة، ورد النساء اللاتى غصبن فى أيام أبيه على أزواجهن.

وعمل قبة طولها خمسون ذراعا فى عرض مائة ذراع، وركب فى جوانبها طيورا من صفر تصفر بأصوات مختلفة مطربة لا تفتر ساعة.

وعمل فى وسط مدينة أمسوس منارا عليه رأس انسان من صفر، كلما مضى من النهار أو الليل ساعة صاح صيحة يعلم من سمعها بمضى ساعة.

وعمل منارا عليه قبة من صفر مذهب ولطخها بلطوخات، فإذا غربت الشمس فى كل ليلة اشتعلت القبة نورا تضىء له مدينة أمسوس طول الليل حتى يصير النهار، لا تطفئها الرياح ولا الأمطار، فإذا طلع النهار خمد ضوؤها.

وأهدى لبعض ملوك بابل مدهنا من زبرجد قطره خمسة أشبار. ويقال إنه وجد بعد الطوفان.

وعمل فى الجبل الشرقى صنما عظيما قائما على قاعدة، وهو مصبوغ مصفر بالذهب، ووجهه إلى الشمس يدور معها حتى تغرب، ثم يدور ليلا حتى يحاذى المشرق مع الفجر، فإذا أشرقت الشمس استقبلها بوجهه.

وبنى بصحراء الغرب مدنا كثيرة، وأودعها كنوزا عظيمة، ونكح ثلاثمائة امرأة، ولم يولد له ولد، فإن الله تعالى كان قد أعقم الأرحام لما يريد من إهلاك العالم بالطوفان، ووقع الموت فى الناس والبهائم.

ولما مات وضع فى ناووس بالجبل الشرقى ومعه أمواله، وطلسم عليه.

وملك بعده أرمالينوس، فعمل أعمالا عجيبة، وبنى مدنا ومصانع، وجدد الطلسمات.

وكان له ابن عم يسمى فرعان، وكان جبارا، فأبعده وجعله على جيش سار به عنه، فقهر ملوكا وقتل أمما عظيمة، وغنم أموالا كثيرة وعاد، فشغفت به إمرأة من نساء الملك، وما زالت به حتى اجتمع بها وتآلفا وأقاما على ذلك مدة، فخافا الملك أن يفطن بهما، فعملت المرأة لأرمالينوس سما فى شرابه هلك منه.

وملك بعده ابن عمه فرعان بن مشور، فلم ينازعه أحد لشجاعته وسياسته، ولم تطل أعوامه حتى رأى قليمون الكاهن كأن طيورا بيضا قد نزلت من السماء وهى تقول: من أراد النجاة فليلحق بصاحب السفينة.

وكان عندهم علم بحدوث الطوفان من أيام سوريد وبنائه الأهرام لأجل ذلك، واتخذ الناس سراديب تحت الأرض مصفحة بالزجاج قد حبست الرياح فيها بتدبير، وعمل منها فرعان لنفسه ولأهله عدة.

فما كذب أن جمع أهله وولده وتلاميذه، ولحق بنوح عليه السلام وآمن به، وأقام معه حتى ركب فى السفينة.

وجاء الطوفان فى أيام فرعان فأغرق أرض مصر كلها، وخرب عمائرها، وأزال تلك المعالم كلها، وأقام الماء عليها ستة أشهر، ووصل إلى أنصاف الهرمين العظيمين... وسيأتى خبر ذلك إن شاء الله تعالى عند ذكر محن مصر من هذا الكتاب.

ويقال إن فرعان كان عاتيا متجبرا يغصب الأموال والنساء، وأنه كتب إلى الدرشيل ابن لحويل ببابل يشير عليه بقتل نوح عليه السلام، وأنه استخف بالكهنة والهياكل. ففسدت فى أيامه أرض مصر، ونقص الزرع وأجدبت النواحي، لانهماكه فى ضلاله وظلمة، وإقباله على لهوه ولعبه. وإن الناس اقتدوا به ففشا ظلم بعضهم لبعض. وإنه لما أقبل الطوفان وسحت الأمطار، قام سكران يريد الهرب إلى الهرم، فتخلخلت الأرض به، وطلب الأبواب فخانته رجلاه، وسقط يخور حتى هلك، وهلك من دخل الأسراب بالعم والله تعالى أعلم.

ذكر مدينة منف وملوكها

هذه المدينة كانت فى غربى النيل على مسافة اثنى عشر ميلا من مدينة فسطاط مصر، وهى أول مدينة عمرت بأرض مصر بعد الطوفان، وصارت دار المملكة بعد مدينة أمسوس التى تقدم ذكرها، إلى أن أخربها بخت نصر.

وقد ذكرها الله تعالى فى كتابه العزيز بقوله تعالى «ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها»، قال الأمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى كتاب «جامع البيان فى تفسير القرآن»: عن السدى أنه قال: كان موسى عليه السلام حين كبر يركب كمراكب فرعون ويلبس مثل ما يلبس، وكان إنما يدعى ابن فرعون. ثم إن فرعون ركب مركبا وليس عنده موسي، فلما جاء موسى عليه السلام قيل له إن فرعون قد ركب، فركب فى أثره، فأدركه المقيل فى أرض يقال لها منف، فدخلها نصف النهار وقد تغلقت أسواقها وليس فى طرقها أحد، وهى التى يقول الله جل ذكره: ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾(*).

وقال ابن عبد الحكم، عن عبد الله بن لهيعة: أول من سكن بمصر بعد أن أغرق الله قوم نوح عليه السلام، بيصر بن حام بن نوح فسكن منف - وهى أول مدينة عمرت بعد الطوفان - هو وولده، وهم ثلاثون نفسا، منهم أربعة أولاد قد بلغوا وتزوجوا، وهم مصر وفارق وماج وياج بنو بيصر، وكان مصر أكبرهم، فبذلك سميت مافه (ومافه بلسان القبط: ثلاثون) وكانت إقامتهم قبل ذلك بسفح المقطم، ونقروا هناك منازل كثيرة.

وقال ابن خرداذبة فى كتاب «المسالك والممالك»: ومدينة منف هى مدينة فرعون التى كان ينزلها، واتخذ لها سبعين بابا من حديد، وجعل حيطان المدينة من الحديد والصفر. وفيها كانت الأنهار تجرى من تحت سريره، وهى أربعة.

ويروى أن مدينة منف كانت قناطر وجسورا بتدبير وتقدير، حتى إن الماء ليجرى تحت منازلها وأفنيتها فيحسونه كيف شاءوا ويرسلونه كيف شاءوا، فذلك قوله تعالى

(*) سورة القصص آية ١٥ - ك ٢٨.

حكاية عن فرعون ﴿ أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى، أفلا تبصرون ﴾(*).

وكان بها كثير من الأصنام لم تزل قائمة إلى أن سقطت فيها سقط من الأصنام فى الساعة التى أشار فيها النبى صلى الله عليه وسلم إلى الأصنام يوم فتح مكة، بقضيب فى يده وهو يطوف حولها ويقول: ﴿ جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا ﴾(**)، فما أشار إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار لقفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقى منها صنم إلا وقع.

وفى تلك الساعة سقطت أصنام الأرض من الشرق إلى الغرب، وبقى أصحابها متعجبين لا يعلمون لها سببا أوجب سقوطها، وبقيت أصنام مدينة منف ساقطة من ساعته، وفيها الصنمان الكبيران المجاوران للبيت الأخضر الذى كان به صنم العزيز، وكان من ذهب وعيناه ياقوتتان لا يقدر على مثلهما. ثم قطعت الأصنام والبيت الأخضر من بعد سنة ستمائة.

ويقال كانت منف ثلاثين ميلا طولا فى عشرين ميلا عرضا، وإن بعض بنى يافث بن نوح عمل فى أيام مصرايم آلة تحمل الماء حتى تلقيه على أعلى سور مدينة منف. وذلك أنه جعلها درجا مجوفة كلما وصل الماء إلى درجة امتلأت الأخري، حتى يصعد الماء إلى أعلى السور، ثم ينحط فيدخل جميع بيوت المدينة، ثم يخرج من موضع إلى خارج المدينة.

وكان بمنف بيت من الصوان الأخضر المانع الذى لا يعمل فيه الحديد قطعة واحدة، وفيه صور منقوشة وكتابة، وعلى وجه بابه صور حيات ناشرة صدورها... لو اجتمع ألوف من الناس على تحريكه ما قدروا لعظمه وثقله.

والصابئة تقول إنه بيت القمر.

وكان هذا البيت من جملة سبعة بيوت كانت بمنف للكواكب السبعة.

وهذا البيت الأخضر هدمه الأمير سيف الدين شيخون العمرى بعد سنة خمسين وسبعمائة، ومنه شئ فى خانقاهه وجامعة الذى بخط الصليبة خارج القاهرة.

(*) الزخرف- آية ٥١ ك ٤٣ .
(**) الإسراء- آية ٨١ ك ١٧ .

وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن القيسي في كتابه «تحفة الألباب»: ورأيت في قصر فرعون موسى بيتا كبيرا من صخرة واحدة، أخضر كالآس، فيه صورة الأفلاك والنجوم، لم نر عجبا أحسن منه.

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي: وكانت دار الملك بمصر في قديم الدهر مدينة منف، وهي في غربي النيل على مسافة اثنى عشر ميلا من الفسطاط.

فلما بنى الإسكندر مدينة الإسكندرية رغب الناس في عمارتها، فكانت دار العلم ومقر الحكمة إلى أن فتحها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، واختط عمرو بن العاص مدينته المعروفة بالفسطاط، فانتشر أهل مصر وغيرهم من العرب والعجم إلى سكناها، فصارت قاعدة ديار مصر ومركزها إلى وقتنا هذا.

وقال الأستاذ ابراهيم بن وصيف شاه الكاتب، وقد ذكر أخبار مدينة أمسوس وخراب عمائر أرض مصر بطوفان نوح عليه السلام: ولما نزل الماء كان أول من ملك مصر بعد الطوفان بيصر ابن حام بن نوح، وكان معه ثلاثون من الجبابرة من أهله وولده، فاجتمعوا وبنوا مدينة منف ونزلوا بها.

وكان قليمون الكاهن الذي تقدم ذكره في خبر مدينة أمسوس من جملتهم، وكان قد زوج ابنته ببيصر المذكور، وجاءت معه إلى مصر، وولدت منه ولدا سماه مصرايم، فلما مات بيصر دفن في موضع دير أبي هرميس ويقال إن دير أبي هرميس غربي الأهرام، ويقال إنها أول مقبرة دفن بها بأرض مصر. وكان موته بعد ألف وثمانمائة وست سنين مضت من وقت الطوفان.

وقال غيره: ثم بنى مصرايم مدينة سماها باسمه، فجاءه رجل من بني يافث فعمل له سورا قائما، وصنع له درجا، وأجرى الماء إلى أن بقي يصعد إلى أعلى السور إلى المدينة فينتفع به فيها بغير مشقة ولا كلفة، ثم يخرج من ناحية أخري. وكتب على السور: هذه صنعة من يموت لا صنعة من يدوم.

وملك بعد بيصر ابنه مصرايم - ويقال له مصر - بن بيصر، فأظهره قليمون الكاهن على كنوز مصر وعلمه قراءة خطهم، وأطلعة على حكمهم. وبنى مصرايم المدن، وشق الأنهار، وغرس الأشجار، وبنى مدينة عظيمة سماها درسان، وهى العريش، ونكح إمرأة من أولاد الكهنة فولدت له ابنا سماه قفطيم، وبنى مدينة رقودة مكان الإسكندرية.

ولما مات مصرايم جعل له سرب طوله مائة وخمسون ذراعا وبسط بالمرمر الأبيض، وعمل فى وسط مجلس مصفح بصفائح الذهب، وله أربعة أبواب على كل باب تمثال من ذهب على رأسه تاج من ذهب، وهو جالس على كرسى من ذهب قوائمه من زبرجد، ونقش فى صدر كل تمثال آيات مانعة. وحبسوا جسده فى جسد من زبرجد أخضر، شبه تابوت، طوله أربعون ذراعا، دفن فيه ومعه جميع ما كان فى خزائنه من ذهب وفضة وجوهر، منها ألف قطعة من زبرجد مخروط، وألف تمثال من جوهر نفيس، وألف آنية من ذهب، وعدة سبائك من فضة.

وعمل عليه طلسم مانع من الوصول إليه، وزبروا عليه: «مات مصرايم بن بيصر بن حام ابن نوح بعد ألفين وستمائة سنة - مضت من الطوفان، ولم يعبد الأصنام، فصار إلى جنة لا هرم فيها ولا سقم، ولا هم ولا حزن. وكتب اسم الله الأعظم عليه حتى لا يصل إليه أحد إلا ملك يأتى فى آخر الزمان، يدين بدين الملك الديان، ويؤمن بالبعث والفرقان، والنبى الداعى إلى الأيمان فى آخر الزمان».

وسقفوا فوق السرب بالصخور العظام، وهالوا عليه الرمال حتى سدوا بين جبلين متقابلين.

ويقال كان مصر بن بيصر مع جد أبيه نوح عليه السلام فى السفينة، فدعا له أن يسكنه الله الأرض الطيبة المباركة التى هى أم البلاد وغوث العباد ونهرها أفضل الأنهار، ويجعل له فيها أفضل البركات، ويسخر له الأرض ولولده ويذللها ويقويهم عليها، فسأله عنها فوصفها له وأخبره بها.

وكان بيصر بن حام قد كبر وضعف، فساقه ولده مصرايم وجميع إخوته إلى مصر فنزلوها، وبذلك سميت مصر.

وملك بعده ابنه قبطيم، ويقال له قفط، بن مصرايم، وهو أول من عمل العجائب بعد الطوفان، فاستخرج المعادن، وشق الأنهار، ونصب الأعلام والمنارات، وعمل الطلسمات.

ويقال إن مصرايم لما مات اختلف أولاده من بعده، وكان قفط أصغرهم، فاجتمعوا عند الأهرام ورضوا بأن من غلب منهم أخاه أخذ الملك. فتحارب أشموم وأتريب فغلب أتريب، ثم تحارب صا هو وأشموم فغلب أشموم، ثم تحارب قفط وصا فغلب قفط. فأخذ قفط الملك بعد أبيه، وأطاعه إخوته، وسكن مدينة منف دار مملكة أبيه، وتزوج إمرأة ولدت له أربعة أولاد هم: قفطريم وأشمون وأتريب وصا، فتناسلوا وكثروا وعمروا البلاد.

ثم إنه قسم الأرض بين أولاده الأربعة عند وفاته: فجعل لولده قفطريم من أسوان إلى قفط، وجعل لولده أشمون من مدينة قفط إلى مدينة منف، وجعل لولده أتريب الجرف كله، وجعل لولده صا من ناحية البحيرة إلى الغرب.

وجعل أمرهم إلى قفطريم، وأمر كل واحد منهم أن يبنى لنفسه مدينة فى حيزة.

وجعل لنفسه سربا تحت الجبل الكبير وصفحه بالمرمر، وعمل فيه منافذ للريح، فصارت تنخرق فيه بدوى عظيم، وأقام فى السرب رؤوسا من نحاس مطلية تضىء كالسرج ليلا ونهارا.

ولما مات وضع جسده بهذا السرب فى جرن من ذهب، بعدما ألبس ثيابا منسوجة بالدر والمرجان، وأقيم عند رأسه عمود من مرمر عليه جوهرة تضىء، وعمل حول الجرن توابيت من حجارة ملونة حولها مصاحف الحكمة، ووضعت عنده أمواله وكنوزه وذخائره، وزبروا عليه كما زبروا على أبيه.

وانتقل كل من أولاده إلى حيزه، فانتقل صا بأهله وأولاده وسكن مدينة صا الأتى ذكرها.

ويقال كانت البلبلة فى أيام قفط، وإنه ألهمه الله تعالى اللغة القبطية، وإنه أقام ملكا أربعمائة وثمانين سنة، ومات فدفن بأرض الواحات، وملك بعده أخوه أشمن بن مصر.

وقيل بل أسكن فى حياته ابنه قفطريم فى حيزه، فشرع فى العمارة، وكان جبارا عظيم الخلقة، فأثار من المعادن ما لم يثره أحد قبله، وبنى مدينة دندرة وعمل فى جبل قفط منارا عاليا يرى منه البحر الشرقي، ووجد هناك معادن من الزئبق، وعمل البركة التى سماها صيادة الطير.

وهلك عاد بالريح فى آخر أيامه. وفى أيامه أثارت الشياطين الأصنام التى أغرقها الطوفان فعبدت.

وأقام ملكا أربعمائة وثمانين سنة ومات.

وذكر ابن عبد الحكم: بعد مصر بن بيصر قفط بن مصر، وأن الذى ملك بعد قفط أخوه أشمن، ثم أتريب بن مصر، ثم صا بن مصر، ثم ابنه تدراس بن صا، ثم ابنه ماليق بن تدراس، ثم ابنه حزابا بن ماليق، ثم ابنه كلكلى بن حزابا.

ويقال أن أشمن لما ملك بعد أخيه، سار إليه شداد بن هداد بن شداد بن عاد وملك أرض مصر وهدم مبانيها، وبنى أهراما، ومضى إلى موضع الإسكندرية فبناها، وأقام دهرا ثم خرجت العادية من أرض مصر، فعاد أشمن إلى ملكه، وإنه ملك بعده أخوه صا، ثم ملك بعد صا ابنه تدراس، وفى أيامه بعث الله صالحا إلى ثمود.

ومات، فملك ابنه ماليق البودسير، وكان من الجبابرة العظام، عمل أعمالا عظيمة، منها منار فوقه قبة لها أربعة أركان، فى كل ركن كوة يخرج منها فى يوم معلوم عندهم من كل سنة دخان ملتف فى ألوان شتي، يستدلون بكل لون على شيء: فإن خرج الدخان أخضر دل على العمارة والخصب فى تلك السنة، وإن خرج أبيض دل على الجدب وقلة الخير، وإن خرج أحمر دل على الحروب وقصد الأعداء، وإن خرج أصفر دل على النيران وآفات تحدث من الملك، وإن خرج أسود دل على الأمطار والسيول وفساد بعض الأرض، وإن خرج مختلطا دل على كثرة الظلم وبغى الناس بعضهم على بعض.

وعمل شجرة من نحاس تجذب سائر الوحوش حتى تصل إليها، فلا تستطيع الحركة إلى أن تؤخذ، فشبع أهل مصر من لحوم الوحوش.

واتفق أن غرابا نقر عين صبى من أولاد الكهنة فقلعها، فعمل شجرة من نحاس عليها غراب منشور الجناحين، وفى منقارة حية، وعلى ظهره أسطر، فكانت الغربان تقع على هذه الشجرة ولا تبرح حتى تموت.

وكانت الرمال قد كثرت فى أيامه على أرض مصر من ناحية الغرب، فعمل صنما من صوان أسود على قاعدة منه، وفوق كتفه قفة فيها مسحاة، ونقش على وجهه وصدره وذراعيه كتابة، وجعل وجهه إلى الغرب، فانكشفت الرمال، ورجعت بها الرياح إلى ورائها وصارت تلالا عالية.

ويعث بهرمس الحكيم إلى جبل القمر الذى يخرج منه النيل، فعمل تماثيل النحاس، وعدل جانبى النيل - وكان قبله يفيض فى مواضع ويتقطع فى مواضع - وسار مغربا لينظر ما وراء ذلك، فوقع على أرض واسعة ينخرق فيها الماء والأشجار، فبنى فيها متنزهات وأقام بها وحول إليها عدة من أهله، فعمروا تلك النواحى حتى صارت أرض الغرب كلها حروب كثيرة أفنتهم، فخربت البلاد ولم يبق منها إلا الواحات.

ثم إن البودسير احتجب عن الناس، وصار يبرز وجهه من مقعده فى النادر، وربما خاطبهم من حيث لا يرونه.

وذكر أبو الحسن المسعودى فى كتاب «أخبار زمان» أن أول من تحقق بالكهانة وغير الدين وعبد الكواكب: البودسير. وتزعم القبط أن الكواكب كانت تخاطبه، وأن له عجائب كثيرة، منها أنه استتر عن الناس عدة سنين من ملكه، وكان يظهر لهم وقتا بعد وقت مرة فى كل سنة، وهو حلول الشمس فى برج الحمل، ويدخل الناس إليه فيخاطبهم وهم يرونه، فيأمرهم وينهاهم ويحذرهم مخالفة أمره، ثم بنيت له قبة من فضة مطلية بذهب، فصار يجلس فى أعلاها وله وجه عظيم، فيخاطبهم.

فلما مات ملك بعده ابنه أرقليمون، وكان كاهنا ساحرا، فعمل أعمالا عظيمة، منها أنه كان يجلس فى السحاب فيرونه فى صورة إنسان عظيم، وأقام مدة على ذلك.

ثم إنه غاب عن أهل مصر وصاروا بغير ملك، ثم رأوا صورة بحذاء جرم الشمس عند حلولها أول برج الحمل، فأمرهم أن يقلدوا الملك عديم بن قفطيم، وأعلمهم أنه ما بقى يعود إليهم.

فولوا عليه عديم بن قفطيم، وكان جبارا عظيما، وهو أول من صلب بمصر، وذلك أن إمرأة ورجلا زنيا فصلبهما، وجعل ظهر كل منهما لظهر الآخر.

وبنى أربع مدائن أودعها كنوزا عظيمة، وجعل عليها طلسمات وعدة عجائب، وعمل منارا على البحر الشرقى وعليه صنم إلى الشرق حتى لا يغلب البحر على أرض مصر، وعمل قنطرة على النيل فى أرض مصر، وعمل قنطرة على النيل فى أرض النوبة.

وأقام ملكا مائة وأربعين سنة، ومات وعمره سبعمائة وثلاثون سنة.

وملك بعده إبنه شدات بن عديم - وهو الذى تسميه العامة شداد بن عاد - وكان عالما كاهنا ساحرا، ويقال إنه هو الذى بنى الأهرام الدهشورية، وعمل أعمالا عظيمة وطلسمات عجيبة، وبنى فى الجانب الشرقى مدائن، وفى أيامه بنيت قوص، وغزا الحبشة وسباهم، وأقام ملكا تسعين سنة.

وهو أول من أتخذ الجوارح وصاد بها، وولد الكلاب السلوقية، وعمل فى بركة سيوط تماسيح منصوبة تنصب إليها التماسيح من النيل انصبابا فيقتلها ويعلق جلودها فى السفن.

واتفق أنه طرد صيدا فكبا به فرسه فى وهدة فهلك. وكان قد غضب على بعض خدمه فرماه من جبل عال فتقطع، فرأى أنه يصيبه مثل ذلك.

ولما هلك وضع فى ناووس ودفنت معه أمواله، وعمل عليه طلسم يمنعه ممن يقصده، وكتب عليه: لا ينبغى لذى القدرة أن يخرج عن الواجب، ولا يفعل ما لا يجوز له فعله، فيجازى بعمله... هذا ناووس بن شدات بن عديم، فعل ما لا يحل له فعله، فكوفئ عليه بمثله.

وملك بعده ابنه منقاوش، وكان حكيما فاضلا كاهنا، عمل أعمالا عجيبة، وبنى أشياء معجبة، منها أنه عمل هيكلا لصور الكواكب على ثمانية فراسخ من منف، وكنز من الأموال ما لا يحصي، وفتح عليه من المعادن ما لم يفتح به على غيره.

وسار فى الجنوب يوما، ثم سار مغربا يوما وبعض آخر، فانتهى فى اليوم الثالث إلى جبل أسود، فعمل تحته أسرابا ومغاير، ودفن فيها أمواله، وزبر عليها حتى أنه من كثرتها يقال أنه دفن حمل اثنى عشر ألف عجلة ذهبا وجواهر.

وأقام أربع سنين يرسل فى كل سنة عجلا كثيرة يدفنها. وبقيت آثار العجل ترى فى ما بين منف والمغرب زمانا طويلا.

وبنى هيكلا للقمر، ويقال إنه هو الذى بنى مدينة منف لبناته، وكن ثلاثين بنتا. وأنه ألزم الناس بعمل الكيمياء فكانوا لا يفترون عن عملها ليلا ولا نهارا، حتى اجتمع عنده مال عظيم وجوهر كثير.

وهو الذى بنى مدينة عين شمس، وقسم خراج مصر أرباعا: جعل الربع للملك، والربع للجند، والربع ينفق فى مصالح الأرض، والربع الرابع يدفن لحادثة تحدث.

وهو الذى قسم أرض مصر على مائة وثلاثين كورة.

وأقام ملكا إحدى وتسعين سنة ومات.

فملك بعده ابنه عليم بن منقاوش، وكان جبارا لا يطاق، وفى أيامه كان نزول الملكين اللذين يعلمان الناس السحر، والقبط تزعم أنهما نزلا بأرض مصر ثم نقلا إلى بابل.

ثم ملك بعده أخوه مناوش بن منقاوش، وكان عالما كاهنا فاضلا، بنى مواضع كثيرة فى الجبال والصحاري، وكنز فيها كنوزا عظيمة، وأقام عليها أعلاما، وبنى فى صحراء الغرب مدينة، وأقام منارة، وكنز حولها كنوزا عظيمة، وجعل فيها شجرة تطلع كل لون من الفاكهة، وهو أول من عبد البقر بمصر.

وكان يطلب الحكمة ويستخرج كتبها، وكذا كان كل من ملك منهم يجتهد فى أن يعمل له غريبة من الأعمال لم تعمل لمن كان قبله، وتثبت فى كتبهم، وتزبر على الحجارة.

ولما مات ملك بعده ابنه هوميس، وكان قليل الحكمة فلم يعمل شيئا مما عمله آباؤه، ومات وقد أقام إحدى عشرة سنة.

فملك بعده أشمون بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح، وكان حيزه من أشمون إلى منف فى الغرب، وحيزه فى الشرق إلى حد البحر الملح مما يحاذى برقة، وهو آخر حد مصر، ومن بلاد الصعيد إلى حدود أخميم، وكانت منزله مدينة الأشمونين، وكان طولها اثنى عشر ميلا فى مثلها.

وبنى فى شرقى النيل مدينة أنصنا، وبنى بها قصرا عظيما، واتخذ بها أبنية وملاعب وعجائب كثيرة، وبنى مدينة طهراطيس. وهو أول من لعب بالكرة والصولجان.

ويقال إنه بنى مدنا كثيرة عمل فيها عجائب، منها مدينة فى سفح الجبل لها أربعة أبواب من كل ناحية باب: فعلى الباب الشرقى صورة عقاب، وعلى الباب الغربى صورة ثور، وعلى الباب الشمالى صورة أسد، وعلى الباب الجنوبى صورة كلب.

وفى هذه الصورة روحانيات تنطق، فإذا قدم غريب لا يقدر على الدخول إليها إلا بإذن الموكلين بها، ودفن تحت كل شكل من هذه الأشكال الأربعة صنفا من الكنوز.

وغرس فى هذه المدينة شجرة مولدة تثمر كل لون من الفاكهة، ونصب منارا طوله ثمانون ذراعا، فوقه قبة تتلون كل يوم لونا حتى تمضى سبعة أيام ثم تعود إلى اللون الأول، فكانت تلك المدينة تكسى من تلك الألوان شعاعا مثل لونها.

وأجرى حول المنار ماء شقه من النيل وجعل فيه سمكا من كل لون، وأقام حول المدينة طلسمات فى هيئة أناس رؤسها كالقردة، وأسكن هذه المدينة السحرة، وكانوا يعملون فيها أصناف السحر.

وبنى بالقرب منها مدينة عرفت بذات العجائب، وبنى مجالس مصفحة بزجاج ملون فى وسط النيل، وبنى سربا تحت الأرض من الأشمونين إلى أنصنا.

وقيل إنه هو الذى بنى مدينة عين شمس، وأنه ملك ثمانمائة سنة، وإن قوم عاد انتزعوا منه الملك بعد ستمائة سنة، وأقاموا بمصر تسعين سنة، فأصابهم وباء خرجوا منه

إلى المدينة بطريق الحجاز إلى وادى القرى، فعاد أشمون بعد خروج العادية إلى ملك مصر.

وهو أول من علم النوروز بمصر، وفى زمانه بنيت مدينة البهنسا.

ولما مات جعل له ناووس فى آخر حد الأشمونين، ودفن فيه ومعه كنوزه العظيمة وعجائبه الكثيرة، منها ألف برنية من العقاقير المدبرة لفنون الأعمال، وزبروا على ناووسه اسمه ونسبه، وجعل عليه طلسم يمنعه ممن يقصده.

وملك بعده ابنه صا، ثم بعد صا ابنه تدراس.

وقيل ملك مناقيوش، وكان شجاعا فاضلا، فاستأنف العمارة، وبنى القري، ونصب الأعلام، وعمل العجائب الهائلة، وبنى مدائن منها مدينة أخميم، وحول الكهنة إليها.

وأقام ملكا نيفا وأربعين سنة، ومات فدفن فى الهرم الشرقى ومعه كنوزه.

وملك بعده ابنه، وقد اختلف فى اسمه، وكان فاضلا حازما معظما عند أهل مصر. وهو أول من عمل المارستان، وأول من عمل الميدان للرياضة، وفى أيامه بنيت مدينة سنترية فى صحراء الوحات. ثم إن نساءه تغايرن عليه، فقتلته إحداهن بسكين، فدفن فى ناووس ومعه أمواله، وعمل عليه طلسم يحفظه.

وملك بعده ابنه مرقورة، وكان حكيما كاهنا، وهو أول من ذلل السباع وركبها، وبنى المدن، وعمر الهياكل، وأقام الأصنام.

ولما مات جعل له ناووس فى صحراء الغرب، ودفن معه ماله.

وملك بعده ابنه بلاطس، وكان صبيا، فدبرت أمه أمر الملك، وكانت حازمة فأجرت الأمور على أحسن ما يكون، وأظهرت العدل، ووضعت عن الناس الخراج فأحبوها. ولما كبر ابنها أحب الصيد، فعملت له أمه أعمالا عجيبة. وأقام ملكا ثلاث عشرة سنة وجدر فمات، وانتقل الملك إلى أعمامه.

فملك بعده أتريب بن قبطيم بن مصرايم، وهو الثالث عشر من ملوك مصر بعد

الطوفان، وهو الذى بنى مدينة أتريب وعاش خمسمائة سنة، منها مدة ملكه ثلاثمائة وستون سنة.

ويقال إن النيل وقف فى أيام أتريب مائة وأربعين سنة، حتى أكلت البهائم بأرض مصر ولم يبق بها بهيمة، ورؤى أتريب ماشيا يبسط يديه ويقبضهما من الجوع، ومات عامة أهل مصر جوعا، ثم أغيثوا بعد ذلك وكثر الرخاء، ودام مدة مائتى سنة، وبيع كل أردب بدانق وأقل.

ولما مات اتهم أخوه صا بقتله، وحاربه أهل مصر تسع سنين وقتلوه.

فملكت بعده ابنته تدورة، وكانت كاهنة ساحرة، فساست الملك أحسن سياسة ودبرت الملك أجود تدبير، وعملت طلسمات عجيبة، منها طلسم منع الوحش والطير أن يشرب من النيل حتى مات أكثرها عطشا، ووقعت فى زمانها صيحة ارتجت لها الأرض فهلكت.

وملك بعدها أخوها قليمون بن أتريب، وكان حكيما فاضلا، فبنى البنيان وعمل الطلسمات. وفى أيامه بنيت مدينة تنيس الأولي، وبنيت مدينة دمياط. وأقام ملكا تسعين سنة ومات فدفن فى ناووس.

وملك بعده ابنه فرسون، وكان فاضلا كاهنا، بنى المدائن، وجدد الهياكل. وكان حدثا، فقصده بعض ملوك حمير فى جموع عظيمة، فخرج إليهم، ولقيه بمدينة إيليا وقاتله قتالا شديدا حتى تفانى من الفريقين معظمهما، وأظهر المصريون أشياء من سحرهم فانهزم الحميرى فى طائفة يسيرة، وقتل فرسون عامة أصحابه وأخذ ما كان معهم، وعاد مظفرا إلى مدينة منف.

وعمل منارا على بحر القلزم فى رأسه مرآة تجذب المراكب إلى الساحل حتى يوخذ منها ما هو مقرر عليها من المال.

وأقام ملكا مائتى سنة وستين، ومات فدفن فى ناووس خلف الجبل الأسود الشرقي، وعمل فيه قبة على اثنى عشر بيتا، فى كل بيت أعجوبة، ودفن معه ماله، وعمل عليه طلسم يحفظه.

وملك بعده نحو أربعة، وصار الملك إلى صا بن قبطيم، وكان أصغر ولد أبيه وأحبهم إليه.

ولما مات ملكت بعده نوبية الكاهنة، وكانت ساحرة، فكانت تجلس على سرير من نار، فاذا تحاكم إليها أحد وكان صادقا شق تلك النار من غير أن تضره، وإن كان كاذبا أخذته تلك النار، وكانت تتصور كل يوم فى صور كثيرة الأشكال.

ثم بنت قصرا واحتجبت فيه، وجعلت فى سوره أنابيب من نحاس مجوفة، وكتبت على كل أنبوبة فنا من الفنون التى يتحاكم الناس بها إليها، فكان من أتاها فى محاكمة وقف عند الأنبوب الذى فيه محاكمته، وتكلم بما يريده، وسأل عنه بصوت خفي، فإذا فرغ جعل أذنه فى الأنبوب فيأتيه منه جواب ما سأل. ولم يزل هذا القصر والأنابيب حتى أتلفه بخت نصر.

وملك بعدها مرقونس، وكان فاضلا حكيما، وكانت أمه بنت ملك النوبه، فعملت عجائب، وصنع فى أيامه كل غريبة. وملك ثلاثا وسبعين سنة، ومات وعمره مائتان وأربعون سنة.

فملك بعده ابنه ايساد، وهو ابن خمس وأربعين سنة، وكان جبارا طماح العين، فاتنزى امرأة أبيه، وانكشف أمره معها، وكان أكبر همه اللهو واللعب، فجمع كل ملة فى مملكته، ورفض العلوم، وأهمل أمر الهياكل والكهنة، وترك النظر فى أحوال الناس، وبنى قصورا على النيل ليتنزه فيها، وأتلف أكثر الأموال فى اللعب.

فكرهه الناس وكرههم، إلى أن سموه فمات عن مائة وعشرين سنة.

وملك بعده ابنه صا، ويقال إن صا هو ابن مرقونس، وهو أخو إيساد. ولما ملك سكن منف، ووعد الناس بخير، وملك الأحياز كلها، وعمل بها عجائب وطلسمات، ورد الكهنة إلى مراتبهم، ونفى الملهين وأهل الشر، ونصب العقاب الذى عمله أبوه وشرف هيكله ودعا إليه، وبنى بداخل الواحات مدينة، ونصب قرب البحر أعلاما كثيرة، وجعل

على الأطراف أصحاب أخبار يرفعون إليه ما يجرى فى حدودهم، وعمل على حافتى النيل منابر يوقد عليهم إذا حزبهم أمر أو قصدهم أحد، وجعل بحافتى بحر الملح منارا يعلم به أمر البحر .

ويقال إنه بنى أكثر مدينة منف وكل بنيان عظيم بالإسكندرية .

وكان لما ملك البلد بأسره جمع الحكماء ونظر فى النجوم، وكان بها حاذقا، فرأى أن مصر لابد أن تغرق من نيلها، وانها تخرب على يد رجل يأتى من ناحية الشام، فجمع كل فاعل بمصر، وبنى مدينة فى الواح الأقصى .

وقصده ملك الإفرنجة وملك منه مدينة منف، وقدم معه ألف مركب، وهدم أكثر الإسكندرية، ودخل إلى النيل من رشيد حتى أخذ منف، وفر منه صا إلى المدائن الداخلة، وتحصن بها من عدوه، فامتنعت بالطلسمات أياما كثيرة، ثم كانت العاقبة له، وعاد عدوه منهزماً، ورجع إلى منف فتتبع الكهنة، وقتل منهم كثيراً.

وأقام ملكاً سبعاً وستين سنة، وعاش مائة وسبعين سنة.

وملك ابنه تدراس، واستولى على الأحياز كلها، وصفا له الوقت، وملك مصر، وكان محتكماً مجرباً ذا أيد وقوة ومعرفة بالأمور، فأظهر العدل، وأقام الهياكل وأهلها قياماً حسناً، وبنى بيتا للزهرة، وحفر خليج سخا.

وحارب بعض عمالقة الشام، ودخل إلى فلسطين، وقتل بها خلقاً وسبى بعض أهلها إلى مصر، وغزا السودان من الزنج والحبشة، ووجه فى النيل بثلاثمائة سفينة فلقى السودان -وكانوا زهاء ألف ألف- فهزمهم وقتل أكثرهم، وأسر منهم خلقاً كثيراً، وساق الفيلة والنمور إلى مصر.

وعمل على حدود بلده منارات زبر عليها اسمه ومسيره وظفره.

وفى أيامه بعث الله نبيه صالحاً إلى ثمود.

ويقال إنه هو الذى أنزل النوبة حيث هي، وذلك أنه لما أوغل فى أرض الحبشة وقتل أم

السودان، وجد فيهم أمة تقرأ صحف آدم وشيث وإدريس، فمن عليها وأنزلها على نحو من شهر من أرض مصر، فسموا النوبة... ومات بمنف.

فملك بعده أبنه ماليق، وكان عاقلاً كريماً حسن الصورة، مخالفاً لأبيه وأهل مصر فى عبادة الكواكب والبقر.

ويقال إنه كان موجداً على دين أجداده قبطيم ومصرايم، وكانت القبط تذمه لذلك.

وأمر الناس باتخاذ كل فاره من الخيل، وأقتنى السلاح، وأكثر الأسفار، وأنشأ فى بحر المغرب مائتى سفينة، وخرج فى جيش عظيم فى البر والبحر، وأتى البربر فهزمهم وأستأصل أكثرهم.

وبلغ أفريقيه، وسار إلى الأندلس يريد الإفرنجة، فلم يمر بأمة إلا أبادها. فحشد له ملك الأفرنجة وحاربه شهراً، ثم طلب صلحه وأهدى إليه، فسار عنه ودوخ الأمم المتصلة بالبحر الأخضر.

والقبط تذكر أنه رأى سبعين أعجوبة، وعمل أعمالاً على البحر وزبر عليها اسمه ومسيره، وخرب مدن البربر، ورجع فتلقاه أهل مصر بأصناف الرياحين وأنواع اللهو، وفرشت له الطرفات. فهابه الملوك وحملوا إليه الهدايا.

ومازال موحداً حتى مات.

فملك بعده أبنه حزاباً، وكان لينا سهل الخلق، قد عرفه أبوه التوحيد ونهاه عن عباده الأصنام، فرجع عن ذلك بعده إلى دين قومه.

وغزا الهند والسودان بعد ما عمل مائة سفينة على شكل سفن الهند، وتجهز وحمل معه أمرأته ووجوه أصحابه، واستخلف أبنه كلكلى على مصر - وكان صبياً - وجعل معه وزيراً كاهناً. فمر على ساحل اليمن وعاث فى مدائنه، وبلغ سرنديب وأوقع بأهلها، وبلغ جزيرة بين الهند والصين فأذعن له أهلها، وتنقل فى تلك الجزائر سنين.

فيقال إنه أقام فى سفره سبع عشرة سنة ورجع غانماً، فهابه الملوك. وبنى عدة هياكل وأقام بها الأصنام للكواكب. ثم غزا نواحى الشام فأطاعه أهله، ورجع فغزا النوبة والسودان،

وضرب عليهم خراجاً يحملونه إليه، ورفع أقدار الكهنة ومصاحفهم. وكان يرى أن هذا الظفر بمعونة الكواكب له.

ومات وقد ملك خمساً وسبعين سنة.

فقام ابنه كلكلي، وعقد له بالإسكندرية فأقام بها شهراً، ثم قدم إلى منف. وكان أصنامياً، فسر به أهل مصر، وكان يحب الحكمة وإظهار العجائب، ويقرب أهلها ويجيزهم، وعمل الكيمياء، وخزن أموالاً عظيمة بصحارى العرب.

وهو أول من أظهر علم الكيمياء بمصر، وكان علمها مكتوماً، وكان من تقدمه من الملوك أمروا بترك صنعتها، فعملها كلكلى وملأ دور الحكمة منها حتى لم يكن الذهب فى زمن بمصر أكثر منه فى وقته، ولا الخراج، لأنه كان مائة ألف ألف وبضعة عشر ألف ألف مثقال، فاستغنوا عن إثارة المعادن.

وعمل أيضاً من الحجارة الملونة التى تشف شيئاً كثيراً، وعمل من الفيروزج وغيره أشياء واخترع أموراً تخرج عن حد العقل حتى سمى حكيم الملوك، وغلب جميع الكهنة فى علومهم، وكان يخبرهم بما يغيب عنهم.

وكان نمرود إبراهيم عليه السلام فى وقته، فاتصل بنمرود خبر حكمته وسحره فاستزاره.

وكان النمرود جبارا مشوه الخلق، يسكن السواد من العراق، وآتاه الله قوة وقدرة وبطشا فغلب على كثير من الأمم.

فتقول القبط إن النمرود لما استزار كلكلي، وجه إليه أن يلقاه بموضع كذا، فسار إلى الموضع على أربعة أفراس تحمله ذوات أجنحة، وقد أحاط به نور كالنار، وحوله صورة هائلة وقد خيل بها، وهو متوشح بثعبان متحزم ببعضه، وقد فغر فاه، وهو يضربه بقضيب آس.

فلما رآه النمرود هاله، وأقر له بجليل الحكمة، وسأله أن يكون ظهيرا له.

ويقال إنه كان يرتفع ويجلس على الهرم الغربى فى قبة تلوح على رأسه، فإذا دهم أهل البلد أمر اجتمعوا حول الهرم، فيقيم أياما لا يأكل ولا يشرب.

ثم استتر مدة حتى توهموا أنه هلك، فطمع فيه الملوك وقصده ملك من العرب فى جيش عظيم حتى قدم وادى هبيب، فأقبل حتى جللهم من سحره بشى كالغمام شديد الحر، فأقاموا تحته أياما متحيرين، ثم طار إلى مصر وأمرهم بالخروج إلى الجيش، فوجدوهم قد ماتوا هم ودوابهم ... فهابه الكهنة مهابة لم يهابوها أحدا قبله.

وعمر طويلا، وغاب فلم يعلم خبره.

وقال ابن عبد الحكم: إن كلكلى بن حزابا ملكهم نحو مائة سنة، ثم مات ولا ولد له، فملك أخوه ماليا بن حزابا.

قال ابن وصيف شاه: وقام أخوه ماليا، وكان شرها كثير الأكل والشرب، منفردا بالرفاهية، غير ناظر فى شى من الحكمة، وجعل أمر البلد الى وزيره، واشتغل بالنساء، وكان له من النساء ثمانون امرأة، فهجم عليه ابنه طوطيس، وهو سكران، فقتله، وقتل امرأة كانت عنده.

وملك بعده ابنه طوطيس. ويقال إنه عمروابن امرى القيس بن بابليون بن حمير بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان - ويقال الوليد بن الريان - وانه أحد فراعنة مصر من ولد دان بن فهلوج بن امراز بن أشود بن سام بن نوح ... وقيل فراعنة مصرمن ولد عملاق الأول ابن لاود بن سام بن نوح.

وكان جبارا جريئا شديد البأس مهيبا، والقبط تزعم أنه أول الفراعنة بمصر، وهو فرعون ابراهيم عليه السلام، ويقال إن الفراعنة سبعة هو أولهم.

وحفر نهرا فى شرقى مصر بسفح الجبل، حتى ينتهى الى مرفأ السفن فى البحر الملح، وكان يحمل إلى هاجر - أم اسماعيل التى أعطاها إبراهيم عليه السلام - الحنطة وأصناف الغلات، فتصل إلى جدة، فأحيي بلد الحجاز مدة.

ويقال إن كل ما حليت به الكعبة فى ذلك العصر مما أهداه ملك مصر، ولكثرة ما حمل إلى الحجاز سمته العرب من جرهم الصادوق.

وفى كتاب هروشيش أن سلطان المصريين فى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام كان بأيدى قوم يدعون ببنى فاليق بن دارش، ودام ملكهم بمصر مائة وعشرين سنة.

وقال ابن إسحاق عن بعضهم : إن فراعنة مصر من ولد دان بن فلهوج بن إمراز بن أشود بن سام بن نوح.

قال : والمشهور أنهم من العماليق، منهم الريان بن الوليد (ويقال الوليد بن الريان) فرعون يوسف، والوليد بن مصعب فرعون موسي، ومنهم سنان بن علوان.

قال ابن وصيف شاه : وإنما قيل له فرعون لأنه أكثر القتل، ولم يرزق غير ابنة، وكانت عاقلة، فخافت لكثرة قتله الناس، فقتلته بسم، وله فى الملك مائة وسبعون سنة.

وملكت بعده جورياق، فوعدت الناس بالإحسان، وجمعت الأموال، وقدمت الكهنة وأهل الحكمة ورؤساء السحرة، ورفعت أقدارهم، وجددت الهياكل.

وصار من لم يرضها إلى مدينة أتريب، وملكوا رجلا من ولد أتريب، وقد تقدم خبره فى الإسكندرية.

وجورياق أول إمرأة ملكت مصر من ولد نوح عليه السلام، وماتت.

فملكت بعدها إبنة عمها زلفى بنت مأمون، وكانت عذراء عاقلة، فوعدت الناس بالجميل. وقام عليها أيمن الأتريبي، واستنصر بملك العمالقة، فسير معه قائدا، فأخرجت إليه جيشا فالتقوا بالعريش واقتتلوا حتى فنى منهم كثير من الناس، ثم انهزم أصحاب زلفى إلى منف، وهم فى أقفيتهم.

فخرجت زلفى إلى الصعيد، ونزلت الأشمونين، فكان بينها وبين عساكر العمالقة حروب انهزموا فيها، وخرجوا عن منف بعد ما عاشوا فيها، وعدوا إلى الجرف فامتنعوا به، وصارت مصر بينهم نصفين.

ثم إن زلفى عاودت الحرب، فاستمرت ثلاثة أشهر حتى انهزمت إلى قوص وأيمن خلفها، فلما أيقنت أنها تؤخذ سمت نفسها فهلكت.

وقال ابن عبد الحكم : ثم توفى طوطيس بن ماليا، فاستخلفت ابنته جورياق ابنة طوطيس، ولم يكن له ولد غيرها، ثم توفيت جورياق، فاستخلفت ابنة عمها زلفى ابنة مأمون بن ماليا، فعمرت دهرا طويلا.

وكثروا ونموا، وملأوا أرض مصر كلها، فطمعت فيهم العمالقة، فغزاهم الوليد بن دومع فقاتلهم قتالا عظيما، ثم رضوا أن يملكوه عليهم، فملكهم نحوا من مائة سنة فطغى وتكبر وأظهر الفاحشة، فسلط الله عليه سبعا فافترسه وأكل لحمه.

والذى ملك مصر من الفراعنة خمسة.

وملك أيمن وتجبر، وقتل خلقا ممن حاربه.

وكان الوليد بن دومع العمليقى قد خرج فى جيش كثيف، فبعث غلاما يقال له فرعون إلى مصر ففتحها، ثم قدم بعده واستباح أهل مصر وأخذ أموالهم، ثم خرج ليقف على مصب النيل فرأى جبل القمر، وأقام فى غيبته أربعين سنة ورجع إلى مصر، وقد خالفة فرعون وفر منه، فاستبعد أهل مصر وملكهم مائة وعشرين سنة حتى هلك.

وملك إبنه الريان بن الوليد بن دومع، أحد العمالقة، وكان أقوى أهل الأرض فى زمانه وأعظمهم ملكا.

والعمالقة ولد عمليق بن لاود بن سام بن نوح، وهو فرعون يوسف عليه السلام، والقبط تسميه نهراوش.

وقيل فرعون يوسف اسمه الريان بن الوليد ابن ليث بن قاران بن عمرو بن عمليق بن بلقع ابن عابر بن إشليخا بن لود بن سام بن نوح.

وقيل فرعون يوسف هو جد فرعون موسى أبو أبيه، وإسمه برخو، وكان عظيم الخلق جميل الوجه عاقلا، فوعد الناس الجميل، وأسقط عنهم الخراج لثلاث سنين، وفرق المال فيهم.

وملك رجلا من أهل بيته يقال له أطفين، وهو الذى يقال له العزيز، وكان عاقلا أديبا مستعملا للعدل والعمارة، فأمر أن ينصب له سرير من فضة فى قصر الملك يجلس عليه، ويخرج وجميع الكتاب والوزراء بين يديه، فكفى نهراوش ما خلف ستره، وقام بجميع أموره، وخلاه للذاته. فأقام على قصفه مدة ـ والبلد عامر ـ فقصده رجل من العمالقة، وسار إلى مصر فى جيوشه، فخرج إليه وقاتله وهزمه وسار خلفه، ودخل الشام وعاش هنالك.. فهابته الملوك ولاطفته.

وقيل إنه بلغ الموصل، وضرب على أهل الشام خراجا. وخرج لغزو بلاد المغرب فى ستمائة ألف، ومر بأرض البربر وجلا كثيرا منهم، ومر إلى البحر الأخضر، وسار إلى الجنوب فقدم النوبة، وعاد إلى مدينة منف.

وكان من خبر يوسف معه ما ذكر عند ذكر الفيوم.

وملك بعده ابنه دريموش، ويقال له دارم ابن الريان، وهو الفرعون الرابع، فخالف سنة أبيه، وكان يوسف خليفته فيقبل منه تارة ويخالفه تارة، وظهر فى أيامه معدن فضة فأثار منه شيئا عظيما.

وفى أيامه مات يوسف عليه السلام، فاستوزر بعده رجلا حمله على أذى الناس وأخذ أموالهم، فبلغ ذلك منهم مبلغا عظيما. ثم زاد فى التجرى حتى اقتلع كل إمرأة جميلة بمدينة منف من أهلها، فكان لا يسمع بإمرأة حسناء فى موضع إلا وجه إليها فحملت إليه.

فاضطرب الناس، وشغبوا عليه، وعطلوا الصنائع والأعمال والأسواق، فعدا عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وزاد الأمر حتى اجتمعوا على خلعه، فبرز لهم وأسقط عنهم خراج ثلاث سنين، وأنفق فيهم مالا... فسكتوا.

وفى أيامه ثار القبط على بنى إسرائيل، وطلبوا من الوزير أن يخرجهم من مصر، فما زال بهم حتى أمسكوا.

وبلغ الملك ذلك، وكان قد خرج إلى الصعيد، فتوعد أهل مصر، فشغبوا عليه وحشدوا له، فحاربوه فقتل منهم خلقا كثيرا، وظفر بمن بقى فقتلهم وصلبهم على حافتى النيل، وعاد إلى أعظم ما كان عليه من أخذ الأموال والنساء واستخدام أشراف القبط وبنى إسرائيل، فأجمع الكل على ذمه، فركب النيل للنزهة وثار به ريح عاصف فغرق، فلم يوجد إلا ناحية شطنوف، وقيل فيما بين طرا وحلوان.

فقدم الوزير ابنه معاويوس - وكان صبيا، ويقال له معدان - فأسقط عن الناس ما أسقطه أبوه من الخراج، ووعد بالإحسان فاستقام له الأمر، ورد نساء الناس. وهو خامس الفراعنة.

وحدث في زمانه طوفان مصر، وكثر بنو إسرائيل وعابوا الأصنام، فأفردوا ناحية عن البلد بحيث لا يختلط بهم غيرهم، وأقطعوا موضعا في قبلي منف فاجتمعوا فيه وبنوا فيه معبدا.

وغلب بعض الكنعانيين على الشام، ومنع من الضريبة التي كانت على أهل الشام لملك مصر، فاجتمع الناس إلى معدان، وحثوه على المسير لحربه، فامتنع عن المسير ولزم الهيكل.

فزعموا أنه قام في هيكل زحل للعبادة، فتجلى له زحل وخاطبه وقال له: قد جعلتك ربا على أهل بلدك، وحبوتك بالقدرة عليهم وعلى غيرهم، وسأرفعك إلى فلا تخل من ذكري.

فعظم عند نفسه وتجبر، وأمر الناس أن يسموه ربا، وترفع عن أن ينظر في شئ من أمر الملك، وجعل عليه إبنة اكسامس.

فقام إبنه اكسامس في الملك - ويقال كاسم ابن معدان - فرتب الناس مراتب، وقسم الكور والأعمال، وأمر باستنباط العمارات وإظهار الصناعات، ووسع على الناس في أرزاقهم، وأمر بتنظيف الهياكل وتجديد لباسها وأوانيها، وزاد في القرابين.

وهو الذي يقال له كاشم بن معدان بن دارم بن الريان بن الوليد بن دومعُ العمليقي، وهو سادس الفراعنة، وسموا فراعنة بفرعان الأول، فصار اسما لكل من تجبر وعلا أمره.

فطال ملكه، وأقام أعلاما كثيرة حول منف، وعمل مدنا كثيرة ومناير للوقودات وطلسمات، وأقام سبع سنين بأجمل أمر.

فلما مات وزير أبيه استخلف رجلا من أهل بيت المملكة يقال له ظلما بن قومس. وكان شجاعا ساحرا كاهنا كاتبا حكيما متصرفا في كل فن، وكانت نفسه تنازعه الملك، فأصلح أمر الملك، وبنى مدنا من الجانبين، ورأى في نجومه أنه سيكون حدث فبنى بناحية رقودة والصعيد ملاعب ومصانع.

وشكا إليه القبط من الإسرائيليين، فقال: هم عبيدكم. فأذلوهم من حينئذ. وخرج إلى ناحية البربر فعاث وقتل وسبي.

وفى أيامه بنيت منارة الإسكندرية، وهاج البحر المالح فغرّق كثيرا من القرى والجنان والمصانع.

ومات إكسامس، وكان ملكه أحدى وثلاثين سنة، منها إحدى عشرة سنة يدبر أمره ظلما.

فلما مات اضطرب الناس واتهموا ظلما أنه سمه. فقام وولى لاطيس بن اكسامس، وكان جريئا معجبا صلفا، فأمر ونهى، وألزم الناس أعمالهم، وقال: أنا مستقيم ما استقمتم، وإن ملتم عن الواجب ملت عنكم، وحط جماعة عن مراتبهم، وصرف ظلما عن خلافته، واستخلف غيره، وأنفذ ظلما إلى الصعيد فى جماعة من الإسرائيليين، وجدد بناء الهناكل، وبنى القرى، وأثار معادن كثيرة، وكنز فى صحراء الشرق عدة كنوز، وكان يحب الحكمة.

ثم تجبر وعلا أمره وأمر ألا يجلس أحد فى مجلسه ولا فى قصر الملك لا كاهن ولا غيره، بل يقومون على أرجلهم حتى يمضوا. وزاد فى أذى الناس والعنف بهم، ومنع فضول ما بأيديهم وقصرهم على القوت، وجمع أموالهم، وطلب النساء وانتزع كثيرا منهن، وفعل أكثر مما فعله من تقدمه قبله، واستعبد بنى إسرائيل، وقتل جماعة من الكهنة، فأبغضه الخاص والعام.

وثار ظلما بالصعيد وكاتب وجوه الناس، فكتب لاطيس بصرفه عن العمل، فامتنع وحارب عساكره، وزحف حتى دخل منف.

ظلما بن قومس فرعون موسي، يقال أن اسمه الوليد بن مصعب بن أراهون بن الهلوت إبن قارون بن عمرو بن عمليق بن بلقع بن عابر ابن إشليخا بن لود بن سام بن نوح، وأنه من العمالقة. وكان قصيرا، طويل اللحية، أشهل العين اليسري، أعرج. وزعم قوم أنه من القبط، وأن نسبه ونسب أهل بيته مشهور عندهم. وقيل غير ذلك.

وكان من خبره ما ذكرنا فى كنيسة دموه. وقال ابن عبد الحكم: ولما أغرق الله فرعون بقيت مصر بعد غرقه ليس فيها من أشراف أهلها أحد، ولم يبق إلا العبيد والأجراء والنساء، فأعظم أشراف من بمصر من النساء أن يولين منهن أحدا، وأجمع رأيهن أن يولين امرأة يقال لها دلوكة.

فملكت دلوكة إبنة زبا، ويقال دلوكة بنت قاران. وكان لها عقل وتجارب ومعرفة، وكانت في شرف منهن، وهي يومئذ بنت مائة وستين سنة. فبنت جدارا حصنت به مصر من الأعداء، وكان من حد زنج إلى أفريقية إلى الواحات إلى بلد النوبة، على كل موضع منه حرس قيام ليلهم ونهارهم، يقدون النار وقودا لا يطفأ أبدا، أحاط به على جميع أرض مصر كلها في ستة أشهر، وهو حائط العجوز.

وفي أيامها بنت تدورة الساحرة البرابي في وسط منف.

فملكتهم دلوكة عشرين سنة، حتى بلغ صبي من أبناء أكابرهم يقال له دركون بن بلاطس. ثم مات واستخلف ابنه تودست، ثم توفي تودست بن دركون، فاستخلف أدقاش، فلم يملك إلا ثلاث سنين حتى مات، فاستخلف أخوه مرينا بن مرينوس.

ثم توفي فاستخلف استادس بن مرينا، فطغى وتكبر وسفك الدم وأظهر الفاحشة، فخلعوه وقتلوه، وبايعوا رجلا من أشرافهم يقال له بلطوس بن ميناكيل، فملكهم أربعين سنة. ثم توفي فقام إبنه مالوس.

ثم توفي مالوس فاستخلف أخوه ميناكيل ابن بلطوس بن ميناكيل، فملكهم زمانا.

ثم توفي واستخلف ابنه نولة ابن ميناكيل، فملكهم مائة وعشرين سنة.

وهو الأعرج الذى سبى ملك بيت المقدس وقدم به إلى مصر، وكان قد تمكن وطغى وبلغ مبلغا لم يبلغه أحد ممن قبله بعد فرعون، فصرعته دابته فمات.

وقيل له الأعرج لأنه لما غزا أهل بيت المقدس ونهبهم وسبى ملكهم يوشيا بن أمون بن منشا ابن حزقيا، هم أن يصعد على كرسى نبي الله سليمان بن داود. وكان بلولب لا يمكن أحدا ان يصعد عليه إلا برجليه جميعا. فصعد برجل واحدة، وهي اليمني، فدار اللولب على ساقة الأخرى فاندقت، فلم يزل يجمع بها إلى أن مات، فلذلك سمي الأعرج.

فاستخلف مرنيوس بن نولة، فملكهم زمانا ثم توفي. واستخلف ابنه مرفورة فملكهم ستين سنة ثم توفي، واستخلف أخوه نقاس بن مرنيوس، وانهدم البربا في زمنه فلم يقدر أحد على إصلاحه، ثم توفي نقاس واستخلف إبنه قوميس بن نقاس، فملكهم دهرا

وحاربه بخت نصر وقتله، وخرب مدينة منف وغيرها من المدائن، وسبى أهل مصر ولم يترك بها أحدا حتى بقيت أرض مصر أربعين سنة خرابا ليس فيها ساكن.

وذكر فى ترجمة كتاب هروشيش الأندلسي، فى وصف الدول والحروب، أن فيما بين غرق فرعون موسى إلى مائة وسبع سنين كان بمصر ملك يسمى نوشردس، كان يقتل الغرباء والأضياف، ويذبحهم لأوثانه، ويجعل دماءهم قربانا لها.

وأن بعد غرق فرعون إلى ثلاثمائة وثمان وعشرين سنة كان بمصر ملك يسمى برونه، وكان عظيم المملكة قوى السلطان. أخذ بالحرب أكثر نواحى الجنوب برا وبحرا.

وهو أول من حارب الروم الذين قيل لهم بعد ذلك الغوط، وكان قد أرسل إليهم يدعوهم إلى طاعته ويخوفهم حربه، فأجابوه: ليس من الرأى المحمود للملك الغنى محاربة قوم فقراء لكثرة نوازل الحروب واختلاف حوادثها بالظفر والهلاك، وإنا لا ننتظر مجيئك، بل نسرع لغارتك.

وأتبعوا قولهم عملا، وخرج فرعون إليهم فخرجوا مسرعين إليه، وهزموا جيوشه ونهبوا عساكره وأمواله وعدده وجميع ذخائره، ومضوا فنهبوا أرض مصر حتى كادوا يغلبون عليها لولا وحول عرضت لهم منعتهم مما خلفها ثم انصرفوا إلى بلاد الشام بحروب متصلة حتى أذلوا أهلها وجعلوهم يؤدون إليهم المغارم.

وأقاموا محاربين لمن خالفهم فى غزوهم خمس عشرة سنة، ولم ينصرفوا إلى بلادهم حتى أتتهم من نسائهم من يقلن لهم: إما أن تنصرفوا، وإما أن تتخذ الأزواج ونطلب النسل من عند المجاورين لنا، فعند ذلك انصرفوا إلى بلادهم وقد امتلأت أيديهم أموالا وأوقارا جمة، وقد خلفوا وراءهم ذكرا مفزعا.

ويقال إن ملوك مدين ملكوا مصر خمسمائة عام بعد غرق فرعون وهلاك دلوكة حتى أخرجهم منها نبى الله سليمان بن داود، فعاد الملك بعدهم إلى القبط، وإن جالوت بن بالوت، لما قتله داود، سار ابنه جالوت بن جالوت إلى مصر وبها ملوك مدين، فأنزله ملك مصر بالجانب الغربي، فأقام بها مدة ثم سار إلى بلاد الغرب.

ويقال إن القبط ملكوا مصر بعد دلوكة وابنها مدة ستمائة سنة وعشرين سنة ، وعدتهم سبعة وعشرين ملكا هم :

ديوسقوليطا ، ومدته ثمان وسبعون سنة ، وقيل ثمان وثمانون سنة.

ثم ملك بعده سماناداوس ستا وعشرين سنة.

وقام بعده سوماناس مدة مائة سنة.

ثم ملك مفخراس أربع سنين.

ثم ملك أماناقوناس تسع سنين.

ثم أسحوريس ست سنين.

ثم فسيناخس تسع سنين

ثم فسوسانس خمسا وثلاثين سنة.

ثم ملك سوناخوسيس إحدى وعشرين سنة.

ثم ملك أساليون خمس عشرة سنة.

ثم طافالونيس ثلاث عشرة سنة.

ثم نطافاناسطلس خمسا وعشرين سنة.

ثم أساراثون تسع سنين.

ثم ملك فسامرس عشر سنين.

ثم أوفاينواس أربعا وأربعين سنة .

ثم ساياقور ثنتى عشرة سنة .

ثم سخس الحبشى ثنتى عشرة سنة.

ثم طراحوش الحبشى عشرين سنة.

ثم إمراس الحبشي ثنتي عشرة سنة.

ثم استطافيناس سبع سنين.

ثم باخفاسوس ست سنين.

ثم ياخو ثمان سنين.

ثم فساماملطيقوش أربعا وأربعين سنة.

ثم بحنوقا ست سنين.

ثم فسامرتاس سبع عشرة سنة.

ثم وافرس خمسا وعشرين سنة.

ثم أماسلس اثنين وأربعين سنة.

وملك بعد هؤلاء مصر خمسة ملوك من ملوك بابل، وهم: أمرطيوش ست سنين، ثم مافرطاس سبع سنين، ثم أوخرس اثنتى عشرة سنة، ثم فساموت مدة سنتين، ثم ملك موتاطوس سبع سنين.

ثم ملك ثلاثة ملوك من أثور، وهو الجرامقة الذين ملكوا الموصل والجزيرة، وهم: نافاطانبوش ثلاث عشرة سنة، ثم طوس سبع سنين، ثم نافاطانيناس ثمان عشرة سنة.

ثم انتقل ملك مصر منهم إلى الإسكندر بن فيلبش اليوناني.

وهذه أسماء رومية، ولعلها أو بعضها متداخل فيما تقدم ذكره ممن ملك بعد دلوكة.

وبين بخت نصر وبين الطوفان ألفا سنة وثلاثمائة وست وخمسون سنة وأشهر، ويجتمع من حساب ما وقع فى التوراة أن بين الطوفان وبين خراب بيت المقدس على يد بخت نصر من السنين ألفا وستمائة وأربعا وثمانين سنة. وهذا خلاف ما نقله المسعودي، والله تعالى أعلم بالصواب.

ذكر مدينة الإسكندرية

هذه المدينة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعا. وقد بنيت غير مرة : فأول ما بنيت بعد كون الطوفان فى زمان مصرايم بن بيصر ابن نوح ، وكان يقال لها إذ ذاك مدينة رقودة ، ثم بنيت بعد ذلك مرتين. فلما كان فى أيام اليونانيين جددها الإسكندر بن فيليبش المقدوني ، الذى قهر دارا وملك ممالك الفرس بعد تخريب بخت نصر مدينة منف بمائة وعشرين سنة شمسية ، فعرفت به.

ومنذ جددها الإسكندر المذكور ، انتقل تخت المملكة من مدينة منف إلى الإسكندرية ، فصارت دار المملكة بديار مصر. ولم تزل على ذلك حتى ظهر دين الإسلام ، وقدم عمرو بن العاص بجيوش المسلمين ، وفتح الحصن والإسكندرية. وصارت ديار مصر أرض إسلام ، فانتقل تخت الملك حينئذ من الإسكندرية إلى فسطاط مصر ، وصار الفسطاط من بعد الإسكندرية دار مملكة ديار مصر.

وسأقص عليك من أخبار الإسكندرية ما وصل إليه علمى إن شاء الله تعالي.

ذكر أبو الحسن المسعودى فى كتاب «أخبار الزمان» أن الكوكة (وهى أمة فى غابر الدهر من أهل أيلة) ملكوا الأرض وقسموها على ثلاثين كورة وأربعة أقسام ، كل قسم عمل ، وبنوا فى كل عمل مدينة بها ملك يجلس على منبر من ذهب ، وله بربا وهى بيت الحكمة ، وله هيكل على اسم كوكب فيه أصنام من ذهب. وجعلوا الإسكندرية ، واسمها رقودة ، خمس عشرة كورة ، وجعلوا فيها كبار الكهنة ، ونصبوا فى هياكلها من أصنام الذهب أكثر مما نصبوا فى غيرها ، فكان ما بها مائتا صنم من ذهب. وقسموا الصعيد ثمانين كورة على أربعة أقسام وثلاثين مدينة فيها جميع العجائب.

وذكر بطليموس فى كتاب «الأقاليم ووصف الجزائر والبحار والمدن» أن مدينة الإسكندرية لبرج الأسد ، ودليلها المريخ ، وساعاتها أربع عشرة ساعة ، وطولها ستون درجة ونصف درجة ، يكون ذلك أربع ساعات مستوية وثلث عشر ساعة.

وقال ابن وصيف شاه فى ذكر أخبار مصرايم بن بيصر بن نوح : وعلمهم أيضا عمل الطلسمات، وكانت تخرج من البحر دواب تفسد زرعهم وجنانهم وبنيانهم، فعملوا لها الطلسمات، فغابت ولم تعد، وبنوا على غير البحر مدنا، منها مدينة رقودة مكان الإسكندرية، وجعلوا فى وسطها قبة على أساطين من نحاس مذهب، والقبة مذهبة، ونصبوا فوقها مرآة من أخلاط شتى قطرها خمسة أشبار وارتفاع القبة مائة ذراع.

فكانوا إذا قصدهم قاصد من الأمم التى حولهم، فإن كان مما يهمهم وكان من البحر عملوا لتلك المرآة عملا فألقت شعاعها على ذلك الشئ فأحرقته، فلم تزل إلى أن غلب البحر عليها. ويقال إن الأسكندر إنما عمل المنارة تشبيها بها.

وكان عليها أيضا مرآة يرى فيها من يقصدهم من بلاد الروم، فاحتال عليهم بعض ملوكهم ووجه إليها ما أزالها، وكانت من زجاج مدبر.

قال: وذكر بعض القبط أن رجلا من بنى الكهنة الذين قتلهم إيساد ملك مصر صار إلى ملك كان فى بلاد الإفرنجة فذكر له كثرة كنوز مصر وعجائبها، وضمن له أن يوصله إلى ملكها وأموالها، ويرفع عنه أذى طلسماتها حتى يبلغ جميع ما يريد.

فلما اتصل بصا بن مرقونس آخى إيساد، وهو ملك مصر يومئذ، أن صاحب بلاد الإفرنجة يتجهز إليه، عمد إلى جبل بين البحر الملح وشرقى النيل فأصعد إليه أكثر كنوزه، وبنى عليها قبابا مصفحة بالرصاص.

وظهر صاحب بلاد الإفرنجة فى ألف مركب، فكان لا يمر بشئ من أعلام مصر ومنازلها إلا هدمه، وكسر الأصنام بمعونة ذلك الكاهن حتى أتى الإسكندرية الأولى فعاث فيها وفيما حولها، وهدم أكثر معالمها، إلى أن دخل النيل من ناحية رشيد وصعد إلى منف، وأهل النواحى يحاربونه، وهو ينهب ما مر به ويقتل ما قدر عليه، إلى أن طلب المدائن الداخلة لأخذ كنوزها، فوجدها ممتنعة بالطلسمات الشداد والمياه العميقة والخنادق والشداخات، فأقام عليها أياما كثيرة فلم يمكنه الوصول إليها، وغضب على الكاهن فقتله من أجل جماعة من أصحابه هلكوا.

فاجتمع أهل النواحى وقتلوا من أصحابه الذين بالمراكب خلقا، وأحرقوا بعض المراكب، وقام أهل مصر بسحرهم وتهاويلهم، فأتت رياح أغرقت أكثر مراكبه حتى نجا بنفسه، وقد خرج فعاد الناس إلى منازلهم وقراهم.

ورجع الملك صا إلى مدينة منف وأقام بها، وتجهز لغزو بلدان الروم وبعث إليها، وخرب الجزائر فهابته الملوك، وتتبع الكهنة فقتل منهم خلقا كثيرا.

وأقام ملكا سبعا وستين سنة، ومات وعمره مائة وسبعون سنة، ودفن بمنف فى وسطها تحت الأرض، ومعه الأموال والجواهر والتماثيل والطلسمات كما فعل آباؤه: منها أربعة آلاف مثقال ذهبا على صور حيوانات برية وبحرية، وتمثال عقاب من حجر أخضر، وتمثال تنين من ذهب، وزبروا عليها اسمه، وغلبته الملوك وسيرته، وعهد إلى ابنه تدراس.

قال: ولما جلست جورياق ابنه طوطيس، أول فراعنة مصر - وهو فرعون إبراهيم الخليل عليه السلام - على سرير الملك بعد قتلها لأبيها، وعدت الناس بالأحسان وأخذت فى جمع الأموال، فاجتمع لها ما لم يجتمع لملك، وقدمت الكهنة وأهل الحكمة ورؤساء السحرة ورفعت أقدارهم، وأمرت بتجديد الهياكل.

وصار من لم يرضها إلى مدينة أتريب، وملكوا عليهم رجلا من ولد أتريب يقال له ايداخس، فعقد على رأسه تاجا واجتمع إليه جماعة. فأنفذت إليه جيشا فهزموه وقتلوا أكثر أصحابه، فهرب إلى الشام وبها الكنعانيون فاستغاث بملكهم، فجهزه بجيش عظيم، ففتحت جورياق الخزائن، وفرقت الأموال، وقوت السحرة فعملوا أعمالهم.

وتقدم إيداخس بجيوش الكنعانيين وعليها قائد منهم يقال له جيرون. فلما نزلوا أرض مصر بعثت ظئرا لها من عقلاء النساء إلى القائد سرا عن إيداخس تعرفه رغبتها فى تزوجه، وأنها لا تختار أحدا من أهل بيتها، وأنه إذا قتل إيداخس تزوجت به وسلمته ملك مصر.

ففرح بذلك وسم إيداخس بسم أنفذته إليه فقتله.

وبعثت إليه بعد قتل إيداخس أنه لا يجوز أن أتزوجك حتى يظهر قومك فى بلدى وتبنى لى مدينة عجيبة - وكان افتخارهم حينئذ بالبنيان وإقامة الأعلام وعمل العجائب - وقالت: انتقل من موضعك إلى غربى بلدي، فثم آثار لنا كثيرة، فاقتف تلك الأعمال وابن عليها.

ففعل، وبنى مدينة فى صحراء الغرب يقال لها قيدومة، وأجرى إليها من النيل نهرا، وغرس حولها غروسا كثيرة، وأقام بها منارا عاليا فوقه منظر مصفح بالذهب والفضة والزجاج والرخام، وهى تمده بالأموال، وتكاتب صاحبه عنه وتهاديه وهو لا يعلم.

فلما فرغ منها قالت له: إن لنا مدينة أخرى حصينة كانت لأوائلنا، وقد خربت منها أمكنة وتشعث حصنها، فأمض إليها واعمل فى إصلاح تلك المدينة حتى انتقل أنا إلى هذه المدينة التى بنيتها، فإذا فرغت من إصلاح تلك المدينة فأنفذ إلى جيشك حتى أصير إليك وأبعد عن مدينتى وأهل بيتي، فإنى أكره أن تدخل علي، فمضى وجد فى عمل الأسكندرية الثانية.

وأهل التاريخ يذكرون أن الذى قصدها الوليد بن دومع العمليقى ثانى الفراعنة. وكان سبب قصدها أنه كان به علة فوجه إلى الأقطار ليحمل إليه من مائها حتى يرى ما يلائمه. فوجه إلى مملكة مصر غلاما فوقف على كثرة خيراتها، وحمل إليه من مائها وألطافها، وعاد إليه فعرفه حال مصر. فسار إليها فى جيش كثيف، وكاتب الملكة يخطبها لنفسه، فأجابته وشرطت عليه أن يبنى لها مدينة يظهر فيها أيده وقوته، ويجعلها لها مهرا. فأجابها وشق مصر إلى ناحية الغرب فبعثت إليه أصناف الرياحين والفواكه، وخلقت وجوه الدواب.

فمضى إلى الأسكندرية وقد خربت بعد خروج العادية منها، فنقل ما كان من حجارتها ومعالمها وعمدها، ووضع أساس مدينة عظيمة، وبعث إليها مائة ألف فاعل، وأقام فى بنائها مدة، وأنفق جميع ما كان معه من المال، وكلما بنى شيئا خرج من البحر دواب فتقلعه، فاذا أصبح لم يجد من البناء شيئا فاهتم لذلك.

وكانت جورياق قد أنفذت إليه ألف رأس من المعز اللبون يستعمل ألبانها فى مطبخه، وكانت مع راع تثق به يرعاها هنالك، فكان إذا أراد أن ينصرف عند المساء خرجت إليه من البحر جارية حسناء فتتوق نفسه إليها، فإذا كلمها شرطت عليه أن تصارعه، فإن صرعها كانت له، وإن صرعته أخذت من المعز رأسين.

فكانت طول الأيام تصرعه وتأخذ الغنم، حتى أخذت أكثر من نصفها، وتغير باقيها لشغله بحب الجارية عن رعيها، ونحل جسمه. فمر به صاحبه وسأله عن حاله فأخبره الخبر

خوفا من سطوته، فلبس ثياب الراعى، وتولى رعى الغنم يومه إلى المساء.

فخرجت إليه الجارية وشرطت عليه الشرط فأجابها، وصارعها فصرعها وشدها، فقالت: إن كان ولابد من أخذى فسلمنى لصاحبى الأول، فإنه ألف بى وقد عذبته مدة.

فردها إليه وقال له: سلها عن هذا البنيان الذى نبنيه ويزال من ليلته، من يفعل ذلك؟ وهل فى ثباته من حيلة؟

فسألها الراعى عن ذلك، فقالت: إن دواب البحر التى تنزع بنيانكم.

فقال: فهل من حيلة؟

قالت: نعم، تعملون توابيت من زجاج كثيف بأغطية، وتجعلون فيها أقواما يحسنون التصوير، ويكون معهم صحف وأنقاش وزاد يكفيهم أياما، وتحمل التوابيت فى المراكب بعد ما تشد بالحبال، فإذا توسطوا الماء أمروا المصورين أن يصوروا جميع ما يمر بهم، ثم ترفع التوابيت، فإذا وقفتم على تلك الصور فاعملوا لها أشباها من صفر أو حجارة أو رصاص، وانصبوها قدام البنيان الذى تبنونه من جانب البحر، فإن تلك الدواب إذا خرجت ورأت صورها هربت ولم تعد.

فعرف الراعى صاحبه ذلك ففعله، وتم البنيان وبنى المدينة.

وقال قوم: إن صاحب البناء والغنم هو جيرون، كان قصدهم قبل الوليد، وإنما أتاهم الوليد بعد جورياق وقهرهم وملك مصر.

وذكروا أن الأموال التى كانت مع جيرون نفدت كلها فى تلك المدينة ولم تتم، فأمر الراعى أن يخبر الجارية فقالت: إن فى المدينة التى خربت ملعبا مستديرا حوله سبعة عمد على رؤوسها تماثيل من صفر قيام، فقرب لكل تمثال منها ثورا سمينا، ولطخ العمود الذى تحته من دم الثور، وبخره بشعر من ذنبه وشىء من نحاتة قرونه وأظلافه، وقل له: هذا قربانك فأطلق لى ما عندك. ثم قس من كل عمود إلى الجهة التى يتوجه إليها وجه التمثال مائة ذراع، واحفر عند امتلاء القمر واستقامة زحل، فإنك تنتهى بعد خمسين ذراعا إلى بلاطة

عظيمة، فلطخها بمرارة الثور وأقلها، فإنك تنزل إلى سرب طوله خمسون ذراعا، فى آخره خزانة مقفلة، ومفتاح القفل تحت عتبة الباب فخذه ولطخ الباب ببقية المرارة ودم الثور، وبخره بنحاتة فروته وأظلافه وشعر ذنبه، وأدخل فإنه يستقبلك صنم فى عنقه لوح من صفر مكتوب فيه جميع ما فى الخزانة، فخذ ما شئت ولا تعترض ميتا تجده ولا ما عليه.

وكذلك كل عمود وتمثاله، فإنك تجد مثل تلك الخزانة. وهذه نواويس سبعة من الملوك وكنوزهم.

فلما سمع ذلك سر به، وامتثله فوجد ما لا يدرك وصفه، ووجد من العجائب شيئا كثيرا، فتم بناء المدينة .

وبلغ ذلك جورباق فساءها، وكانت قد أرادت اتعابه وهلاكه بالحيله .

ويقال انه وجد فيما وجد درجا من ذهب مختوما، فيه مكحله زبرجد فيها درور أخضر ومعها عرق أحمر، من اكتحل من ذلك الدرور بالعرق وكان أشيب، عاد شابا واسود شعره وأضاء بصره حتى يدرك الروحانيين، ووجد تمثالا من ذهب إذا ظهر غيمت السماء وأمطرت، ومثال غراب من حجر إذا سئل عن شئ صوت وأجاب عنه، ووجد فى كل خزانة عشر أعجوبات .

فلما فرغ من بناء المدينة وجه الى جورياق يحثها على القدوم إليه، فحملت اليه فرشا فاخرا ليبسطه فى المجلس الذى يجلس فيه، وقالت له : اقسم جيشك أثلاثا فأنفذ إلى ثلثه، حتى إذا بلغت ثلث الطريق فأنفذ الثلث الاخر، فإذا جزت نصف الطريق فأنفذ الثلث الباقى ليكونوا من ورائي، لئلا يرانى أحد إذا دخلت عليك، ولا يكون عندك إلا صبية تثق بهم يخدمونك، فإنى أوافيك فى جوار تكفيك الخدمة ولا أحتشمهن ففعل .

وأقامت تحمل الجهاز إليه والأموال حتى علم بمسيرها فوجه اليها ثلث جيشه، فعلمت لهم الأطعمة والأشربة المسمومة، وأنزلهم جواريها وحشمها وقدموا إليهم الأطعمة والأشربة والطيب وأنواع اللهو، فلم يصبح منهم أحد حيا وسارت، فلقيها الثلث

الآخـر فـفـعلت له مـثل ذلك وهى توجـه إليـه أنهـا أنفذت جيشـه إلى قـصـرها ومملكتـهـا يحفظونهما .

وسارت حتى دخلت عـليه هى وظئرها وجواريها ، فنفخت ظئرها فى وجهه نفخة بهت إليهـا ، ورشت عليه مـا كان معـهـا فارتعدت أعضاؤه ، وقال : من ظن أنه يغلب النساء فقد كذبته نفسه وغلبته النساء .

ثم إنها فصدت عروقه وقالت : دماء الملوك شفاء ، وأخذت رأسه ووجهت به إلى قصرها ونصـبـتـه عليـه ، وحـولت تلك الأمـوال إلى مـدينة منف ، وبنت منارا بالإسكندرية وزبرت اسمها واسمه ، وما فعلت به ، وتاريخ الوقت .

فلما بلغ خبرها الملوك هابوها وأطاعوها وهادوها .

وعملت بمصر عجائب كثيرة ، وبنت على حد مصر من ناحية النوبة حصنا وقنطرة يجرى ماء النيل من تحتها ، واعتلت فقلدت ابنة عمها زلفى بنت مأمون ، وماتت

وقال ابن خردادبة : روى أن الاسكندرية بنيت فى ثلاثمائة سنة ، وأن أهـلها مكثوا سبعين سنة لا يمشـون فيها بالنهـار إلا بخرق سود مخـافة على أبصـارهـم من شدة بياض حيطانها ، ومنارتهـا العجيبة على سرطان زجاج فى البحر ، وأنه كـان فيهـا سوى أهلها ستمائة ألف من اليهود خول لأهلها .

وقـال ابن وصـيـف شـاه : وكـانت العـمـارة ممتـدة فى رمـال رشـيد والإسكندرية إلى برقـة ، فكان الرجل يسير فى أرض مصر فلا يحتاج إلى زاد لكثرة الفواكه والخـيرات ، ولا يسـير إلا فى ظلال تستره من حر الشمس .

وعمل الملك صا بن قبطيم فى تلك الصحارى قصورا ، وغرس فيها غروسا ، وساق إليها من النيل أنهارا ، فكان يسلك من الجانب الغربى إلى حد الغرب فى عمارة متصلة .

فلمـا انقرض أولئك القوم بقيت آثارهم فى تـلك الصـحـاري ، وخربت تلك المنازل وباد أهلها ، ولا يزال من دخل تلك الصحارى يحكى ما رآه فيها من الآثار والعجائب .

وقال ابن عبد الحكم: وكان الذى بنى الاسكندرية وأسس بناءها ذو القرنين الرومي، واسمه الإسكندر، وبه سميت الإسكندرية، وهو أول من عمل الوشي، وكان أبوه أول القياصرة.

وقيل إنه رجل من أهل مصر اسمه مرزبا بن مرزبة اليوناني، من ولد يونان بن يافث بن نوح عليه السلام.

وقيل كان من أهل لوبية (كورة من كور مصر الغربية). وقال ابن لهيعة: وأهلها روم.

ويقال هو رجل من حمير، قال تبع:

قد كان ذو القرنين جدى مسلما
ملكا تدين له الملوك بمحشد

بلغ المغارب والمشارق يبتغي
أسباب علم من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها
فى عين ذى خلب وثأط حرمد

ويروى « قد كان ذو القرنين قبلى مسلما ».

وحدثنى عثمان بن صالح، حدثنى عبد الله ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن سعد بن مسعود التجيبي، عن شيخين من قومه قالا: كنا بالإسكندرية، فاستطلنا يومنا فقلنا: لو انطلقنا إلى عقبة بن عامر نتحدث عنده، فانطلقنا إليه فوجدناه جالسا فى داره، فأخبرناه أنا استطلنا يومنا.

فقال: وأنا مثل ذلك، إنما خرجت حين استطلته.

ثم أقبل علينا فقال: كنت عند رسول الله ﷺ أخدمه، فإذا أنا برجال من أهل الكتاب معهم مصاحف أو كتب، فقالوا: استأذن لنا على رسول الله ﷺ، فانصرفت إليه فأخبرته

بمكانهم فقال رسول الله ﷺ: « مالى ولهم، سألونى عما لا أدرى، انما أنا عبد لا أعلم إلا ما علمنى ربى » .

ثم قال: «أبلغنى وضوءا »، فتوضأ ثم قام إلى مسجد بيته فركع ركعتين، فلم ينصرف حتى عرفت السرور فى وجهه والبشر، ثم انصرف فقال: « أدخلهم، ومن وجدت بالباب من أصحابى فأدخله» .

قال: فأدخلتهم، فلما وقفوا الى رسول الله ﷺ قال لهم: «إن شئتم أخبرتكم عما أردتم أن تسألونى قبل أن تتكلموا، وان أحببتم تكلمتم وأخبرتكم» .

قالوا: بلى، أخبرنا قبل أن نتكلم .

قال: « أحببتم أن تسألونى عن ذى القرنين، وسأخبركم عما تجدونه مكتوبا عندكم، إن أمره إنه غلام من الروم أعطى ملكا، فسار حتى أتى ساحل البحر من أرض مصر فابتنى عنده مدينة يقال لها الإسكندرية .

« فلما فرغ من بنائها أتاه ملك فعرج به حتى استقله فرفعه، فقال: انظر ما تحتك؟ فقال: أرى مدينتى وأرى مدائن معها ثم عرج به فقال: انظر؟ فقال: قد اختلطت مدينتى مع المدائن فلا أعرفها ثم زاد فقال انظر؟ فقال: أرى مدينتى وحدها ولا أرى غيرها . قال له الملك: إنما تلك الأرض كلها، والذى ترى يحيط بها هو البحر. وإنما أراد ربك أن يريك الأرض، وقد جعل لك سلطانا فيها سوف يعلم الجاهل ويثبت العالم .

« فسار حتى بلغ مغرب الشمس، ثم سار حتى بلغ مطلع الشمس، ثم أتى السدين، وهما جبلان لينان يزلق عنهما كل شئ، فبنى السد ثم جاز يأجوج ومأجوج، فوجد قوما وجوههم وجوه الكلاب يقاتلون يأجوج ومأجوج، ثم قطعهم فوجد أمة قصارا يقاتلون القوم الذين وجوههم وجوه الكلاب، ووجد أمة من الغرانيق يقاتلون القوم القصار، ثم مضى فوجد أمة من الحيات تلتقم الحية منها الصخرة العظيمة، ثم أفضى إلى البحر المدير بالأرض».

فقالوا: نشهد أن أمره هكذا كما ذكرت، وأنا لجده هكذا فى كتابنا .

وعن خالد بن معدان الكلاعى أن رسول الله ﷺ سئل عن ذى القرنين فقال: «ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب» .

قال خالد: وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يقول ياذا القرنين، فقال: اللهم غفرا، أما رضيتم أن تسموا بالأنبياء حتى تسميتم بالملائكة!

وقال قتادة عن الحسن: كان ذو القرنين ملكا، وكان رجلا صالحا .

قال: وإنما سمى ذا القرنين لأن عليا رضى الله عنه سئل عن ذى القرنين فقال: لم يكن ملكا ولا نبيا، ولكن كان عبدا صالحا أحب الله فأحبه الله، ونصح لله فنصحه الله ... بعثه الله عز وجل إلى قومه فضربوه على قرنيه فمات، فسمي ذا القرنين .

ويقال انما سمى ذا القرنين لأنه جاوز قرنى الشمس من المغرب والمشرق .

ويقال انما سمى ذا القرنين لأنه كان له غديرتان من شعر رأسه يطأ فيهما، وقيل بل كان له قرنان صغيران تواريهما العمامة .

وعن ابن شهاب: إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مشرقها .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: كان أول شأن الإسكندرية أن فرعون اتخذ بها مصانع ومجالس، وكان أول من عمرها وبنى فيها، فلم تزل على بنائه ومصانعه ثم تداولها ملوك مصر بعده، فبنت دلوكة بنت زبا منارة الإسكندرية ومنارة بوقير بعد فرعون . فلما ظهر سليمان بن داود عليهما السلام على الأرض اتخذ بها مجلسا وبنى فيها مسجدا .

ثم ان ذا القرنين ملكها فهدم ما كان من بناء الملوك والفراعنة وغيرهم، إلا بناء سليمان لم يهدمه ولم يغيره، وأصلح ما كان رث منه، وأقر المنارة على حالها، ثم بنى الإسكندرية من

أولها بنـــاء يشبه بعضـه بعضا ثم تداولها الملوك بعـده من الروم وغـيرهـم، ليس من ملك إلا يكون له بها بناء يضعه بالإسكندرية يعرف به وينسب إليه .

قال ابن لهيعة : وبلغنى أنه وجد بالإسكندرية حجر مكتوب فيه : أنا شداد بن عاد، وأنا الذى نصب العماد، وحيد الأحياد، وشد بذراعه الواد، بنيتهن اذ لا شيب ولا موت، واذ الحجارة فى اللين مثل الطين .

وفى رواية : وكنزت فى البحر كنزا على اثنى عشر دراعا، لن يخرجه أحد حتى تخرجه أمة محمد ﷺ .

قال ابن لهيعة : والأحياد كالمغار

وقال أبو على القالى فى كتاب « الأمالى » :

وأنشد ابن الأعرابى وغيره :

تسألنى عن السنين كم لي

فقلت لو عمرت عمر الحسل

أو عمر نوح زمن الفطحـل

لو أننى أوتيت عـلم الحكـل

وعشت دهرا زمن الفطحـل

لكنت رهـن هـرم أو قتـــل

وفـــى روايـــة :

علم سـليمان كلام النمل

أيام كان الصخر مثل الوحل

وقال آخر : زمن الفطحل : إذ السلام رطاب

وعندهم أن زمن الفطحل زمان كان بعد الطوفان عظم فيه الخصب وحسنت أحوال أهله .

وقال بعضهم : زمن الفطحل زمن لم يخلف بعد

وقال « علم الحكل » الحكل ما لا يسمع صوته من الحيوان .

وهذا الرجز لرؤية بن العجاج بن رؤية بن لبيد بن صخر بن كثيف بن حيي بن بكر بن ربيعة بن سعد بن مالك بن زيد مناة بن تميم(٣٠٠) .

وذلك أنه ورد ماء لعكل فرأى فتاة فأعجبته فخطبها ، فقالت : أرى سنا ، فهل من مال؟

قال : نعم ، قطعة من ابل

قالت : فهل من ورق؟

قال : لا

قالت : يا آل عكل أكبرا وإمعارا !

فقال رؤبة :

لما ازدرت قدرى وقلت إبلى
تألفت واتصلت بعكل حظى
وهزت رأسها تستبلى
تسألنى عن السنين كم لى
فقلت لو عمرت عمر الحسل
أو عمر نوح زمن الفطحل
والصخر مبتل كطين الوحل

---

(٣٠٠) رؤبة بن عبدالله العجاج بن رؤبة التميمى السعدى أبو الجحاف أو أبو محمد ، راجز من الفصحاء المشهورين من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، مات سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م.
أنظر : وفيات الأعيان ١/ ١٨٧ ، البداية والنهاية ١٠/ ٩٦ ، خزانة الأدب ١/ ٤٣ ، الشعر والشعراء ٢٣٠ .

وفـــى روايــــة :

لو أنني أوتيت علم الحــكل

علــم سليمان كلام النمــل

وسألت أبا بكر بن دريد عن زمن الفطحل

فقال : تزعم العرب أنه زمان كانت فيه الحجارة رطبة .

قال ابن عبد الحكم : ويقال إن الذي بنى الإسكندرية شداد بن عاد ، والله أعلم .

وكانت الإسكندرية ثلاث مدن ، بعضها إلى جنب بعض : منيعة ، وهي موضع المنارة وما والاها ، والاسكندرية - وهي موضع قصبة الإسكندرية اليوم - ونقيطة .وكان على كل واحدة منهن سور ، وسور من خلف ذلك على الثلاث مدن يحيط بهن جميعا .

وقيل كان على الإسكندرية سبعة حصون منيعة ، وسبعة خنادق .

قال : وإن ذا القرنين لما بنى الإسكندرية رخمها بالرخام الأبيض جدرها وأرضها ، فكان لباسهم فيها السواد والحمرة ، فمن قبل ذلك لبس الرهبان السواد من نصوع بياض الرخام . ولم يكونوا يسرجون فيها بالليل من بياض الرخام ، وإذا كان القمر أدخل الرجل الذي يخيط بالليل في ضوء القمر مع بياض الرخام الخيط في ثقب الإبرة . ويقال بنيت الاسكندرية في ثلاثمائة سنة ، وسكنت ثلاثمائة سنة ، وخرجت ثلاثمائة . ولقد مكثت ثلاثمائة سنة ما يدخلها أحد إلا وعلى بصره خرقة سوداء من بياض جصها وبلاطها ، ولقد مكثت سبعين سنة ما يستسرج فيها .

قال : وكانت الإسكندرية بيضاء تضيء بالليل والنهار ، وكانوا إذا غربت الشمس لم يخرج أحد من بيته ، ومن خرج اختطف .

وكان منهم راع يرعى على شاطئ البحر ، فكان يخرج من البحر شيء فيأخذ من غنمه ، فكمن له الراعي في موضع حتى خرج ، فإذا جارية قد نفشت شعرها ، ومانعته عن نفسها ،

فقوى عليها، فذهب بها إلى منزله فأنست به، فرأتهم لا يخرجون بعد غروب الشمس فسألتهم، فقالوا: من خرج منا اختطف. فهيأت لهم الطلسمات، فكانت أول من وضع الطلسمات بمصر فى الإسكندرية. وقيل كان الرخام قد سخر لهم حتى يكون من بكرة النهار كالعجين، فإذا انتصف النهار اشتد.

وقال المسعودي: ذكر جماعة من أهل العلم أن الإسكندر المقدونى لما استقام ملكه فى بلاده، وسار حتى يختار أرضا صحيحة الهواء والتربة والماء، حتى انتهى إلى موضع الإسكندرية فأصاب فيها أثر بنيان وعمدا كثيرة من الرخام، وفى وسطها عمود عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند، وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد: أنا شداد بن عاد، شددت بساعدى الواد، وقطعت عظيم العماد، وشوامخ الجبال والأطواد، وبنيت أرم ذات العماد، التى لم يخلق مثلها فى البلاد، وأردت أن أبنى هنا مدينة كإرم، وأنقل إليها كل ذى قدم وكرم، من جميع العشائر والأمم، وذلك إذ لا خوف ولا هرم، ولا اهتمام ولا سقم، فأصابنى ما أعجلني، وعما أردت قطعني، ومع وقوعه طال همى وشجني، وقل نومى وسكني، فارتحلت بالأمس عن دارى لا لقهر ملك جبار، ولا لخوف جيش جرار، ولا عن رغبة ولا عن صغار، ولكن لتمام المقدار، وانقطاع الآثار، وسلطان العزيز الجبار، فمن رأى أثري، وعرف خبرى وطول عمرى ونفاذ بصرى وشدة حذري، فلا يغتر بالدنيا بعدي، فإنها غرارة غدارة، تأخذ منه ما تعطي، وتسترجع منه ما تؤتي... وكلام كثير يرى فناء الدنيا ويمنع من الاغترار بها والسكون إليها.

فنزل الإسكندر مفكرا يتدبر هذا الكلام ويعتبره، ثم بعث يحشر الصناع من البلاد، وخط الأساس، وجعل طولها وعرضها أميالا، وجمع إليها العمد والرخام، وأتته المراكب فيها أنواع الرخام وأنواع المرمر والأحجار من جزيرة صقلية وبلاد أفريقية واقريطش وأقاصى بحر الروم مما يلى مصبه بحر اقيانوس، وحمل إليه أيضا من جزيرة رودس. وأمر الفعلة والصناع أن يدوروا بما رسم لهم من أساس سور المدينة.

وجعل على كل قطعة من الأرض خشبة قائمة، وجعل من الخشبة إلى الخشبة حبالا منوطة بعضها ببعض، وأوصل جميع ذلك بعمود من الرخام، وكان أمام مضربه، وعلق على العمود جرسا عظيما مصوتا، وأمر الناس والقوام على البنائين والفعلة والصناع أنهم إذا سمعوا صوت ذلك الجرس وتحركت الحبال، وقد علق على كل قطعة منها جرسا صغيرا، حرصوا على أن يضعوا أساس المدينة دفعة واحدة من سائر أقطارها، وأحب الإسكندر أن يجعل ذلك فى وقت يختاره، وطالع سعد.

فحرك الاسكندر رأسه وأخذته نعسة فى حال ارتقابه الوقت المحمود، فجاء غراب فجلس على حبل الجرس الكبير الذى فوق العمود فحركه، وخرج صوت الجرس، وتحركت الحبال وخفق ما عليها من الأجراس الصغار، وكان ذلك معمولا بحركات هندسية وحيل حكيمة. فلما رأى الصناع تلك الحبال قد تحركت، وسمعوا الأصوات، وضعوا الأساس دفعة واحدة، وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس. فاستيقظ الإسكندر من رقدته، وسأل عن الخبر فأخبر بذلك، فأعجب وقال: أردت أمرا وأراد اللّه غيره، ويأبى اللّه إلا ما يريد... أردت طول بقائها، وأراد اللّه سرعة فنائها وخرابها وتدوال الملوك إياها.

وإن الاسكندر لما أحكم بناءها، وثبت أساسها، وجن الليل عليهم، خرجت دواب البحر فأتت على جميع البنيان، فقال الإسكندر حين أصبح: هذا بدو الخراب فى عمارتها، وتحقق مراد البارى سبحانه من زوالها.

فتطير من فعل الدواب، فلم تزل البناة فى كل يوم تبنى وتحكم ويوكل من يمنع الدواب إذا خرجت من البحر، فيصبحون وقد خرجت وخربت البنيان.

فقلق الإسكندر لذلك وراعه ما رأى من البحر، فأقبل يفكر ما الذى يصنع، ورأى حيلة تنفع فى ذلك، حتى تدفع الأذية عن المدينة، فسنحت له الحيلة عند خلوه بنفسه وإيراده الأمور وإصدارها.

فلما أصبح دعا الصناع فاتخذوا له تابوتا من الخشب طوله عشرة أذرع فى عرض خمسة أذرع، وجعلت فيه جامات من الزجاج قد أحاط بها خشب التابوت باستدارتها، وقد أمسك

ذلك بالقار والزفت وغيره من الأطلية الدافعة للماء حذرا من دخول الماء إلى التابوت، وقد جعل فيها مواضع للحبال.

ودخل الأسكندر فى التابوت ورجلان من كتابه ممن له علم باتقان التصوير، وأمر أن تسد عليه الأبواب، وأن تطلى بما ذكرنا من الأطلية، وأمر بمركبين عظيمين فأخرجا إلى لجة البحر وعلق فى التابوت من أسفله مثقلات الرصاص والحديد والحجارة لتهوى بالتابوت سفلا، وجعل التابوت بين المركبين، وألصقهما بخشب بينهما لئلا يفترقا، وشد حبال التابوت إلى المركبين وطول حباله، فغاص التابوت حتى انتهى إلى قرار البحر.

فنظروا إلى دواب البحر وحيوانه من ذلك الزجاج الشفاف فى صفاء ماء البحر، فإذا بصور الشياطين على مثال الناس، وفيهم من له مثل رؤوس السباع وفى أيديهم الفئوس مع بعضهم، وفى أيدى بعضهم المناشير والمقامع يحكون بذلك صناع المدينة والفعلة وما فى أيديهم من آلات البناء.

فأثبت الإسكندر ومن معه تلك الصور، وحكوها بالتصوير فى القراطيس على اختلاف أنواعها وتشوه خلقها وقدودها. ثم حرك الحبال، فلما أحس بذلك من فى المركبين جذبوا الحبال وأخرجوا التابوت.

فخرج الإسكندر، وأمر صناع الحديد والنحاس والحجارة فعملوا تماثيل تلك الدواب على ما صور، فلما فرغوا منها وضعت على العمد بشاطئ البحر، ثم أمرهم فبنوا.

فلما جن الليل ظهرت الدواب والآفات من البحر، فنظرت إلى صورها على العمد مقابلة البحر، فرجعت ولم تعد بعد ذلك... فبنت الاسكندرية وشيدت.

وأمر الإسكندر أن يكتب على أبوابها: هذه الإسكندرية، أردت أن أبنيها على الفلاح والنجاح واليمن والسعادة والسرور والثبات فى الدهور، ولم يرد البارى عز وجل مالك السموات والأرض ومفنى الأمم أن يثبتها كذلك، فبنيتها وأحكمت بنياتها وشيدت سورها. وآتانى الله عز وجل من كل شئ علما وحكمة، وسهل لى وجوه الأسباب فلم يتعذر على

فى العالم شيء مما أردته، ولا امتنع عنى شيء مما طلبته، لطفا من الله عز وجل وصنعا لي، وصلاحا لعباده من أهل عصري، والحمد لله رب العالمين، لا إله إلا هو رب كل شيء .

ورسم بعد هذه الكتابة كل ما يحدث ببلده من الأحداث بعده فى مستقبل الزمان من الآفات والعمران والخراب، وما يؤول أمرها إليه إلى وقت دثور العالم .

وكان بناء الاسكندرية طبقات، وتحتها الفارس وبيده رمح لا تضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التى تحت المدينة .

وقد عمل لتلك العقود والآزاج مخاريق، ومتنفسات للضياء، ومنافذ للهواء .

وقد كانت الإسكندرية تضيء بالليل بغير مصباح لشدة بياض الرخام والمرمر، وكانت أسواقها وشوارعها وأزقتها مقنطرة كلها لا يصيب أهلها شيء من المطر وكان عليها سبعة أسوار من أنواع الحجارة المختلفة الألوان، بينها خنادق، وبين كل خندق وسور فصول وربما تعلق فى المدينة شقاق الحرير الأخضر لاختطاف بياض الرخام أبصار الناس لشدة بياضه .

فلما علم بذلك الإسكندر اتخذ الطلسمات على أعمدة هنالك تدعى المسال، وهى باقية إلى هذه الغاية، كل واحد من هذه الأعمدة على هيئة السروة، وطول كل واحد منها ثمانون ذراعا، على عمد من نحاس، وجعل تحتها صورا وأشكالا وكتابة .

قال مؤلفه رحمه اللّٰه : فيما تقدم من حكاية ابن وصيف شاه ما يتبين به وهم ما نقله المسعودى من أن الإسكندر هو الذى عمل التابوت حتى صور أشكال حيوانات البحر، فإن ابن وصيف شاه أعرف بأخبار أهل مصر .

وكذلك ما ذكره المسعودى من أن المسال من عمل الإسكندر وهم أيضا، بل هذه المسال هى المناير التى كان ينور عليها، والأعلام التى كانت ملوك مصر القدماء تنصبها . وهى من أعمال ملوك القبط الأول، ومن أعمال الفراعنة الذين ملكوا مصر من قديم الزمان .

ذكـــر الإســـكندر

هو الإسكندر بن فليبش بن آمنته - ويقال آمنتاس - بن هركلش - ويقال هرقول - الجبار الذى هو ابن الإسكندر الأعظم . ولى أبوه فليبش الملك فى بلد مجدونية - ويقال مقدونية - خمسا وعشرين سنة ، استنبط فيها ضروبا من المكر ، وابتدع أنواعا من الشر تقدم فيها كل من ولى الملك بها قبله .

وكان فى أول أمره قد جعله أخوه الإسكندر رهينة عند أمير من الروم ، فأقام عنده ثلاث سنين ، وكان فيلسوفا ، فتعلم عنده ضروب الفلسفة .

فلما قتل أخوه الإسكندر ، اجتمع الناس على تولية فليبش ، فولوه أميرا ، فقام فى السلطان مقاما عظيما ، فحارب الروم وغلب عليهم ، ومضى إلى البرية فقتل بها من الناس آلافا ، وغلب على مدائن ، فاجتمع له جمع لا يقاد وجيش لا يرام ، فأذل جميع الروم ، وذهبت عينه فى بعض الحروب . وغمر البلدان والمدائن عمارة وهدما وسبيا وانتهابا .

ثم حشد جميع أهل بلد الروم ، وعبى عسكرا فيه مائتا ألف راجل وخمسون ألف فارس ، سوى من كان فيه من أصحابه المقدونيين ومن غيرهم من أجناس اليونانيين ، يريد غزو الفرس .

فبينا هو يجمع هذا الجمع نظر فى تزويج ابنة له يقال لها قلوبطرة من ختنه (أخى امرأته وخال ولده) الإسكندر ، وجلس قبل العرس بيومين يحدث قواده إذ سئل عن أى الموتات أحق يتمناها الانسان ! فقال : الواجب على الرجل القوى الظافر المجرب (يريد نفسه) ألا يتمنى الموت إلا بالسيف فجأة ، لئلا يعذبه المرض وتحل قوته الأوجاع .

فعجل له تمنى فى ذلك العرس ، وذلك أنه حضر لعبا كان على الخيل بين ولده الإسكندر وختنه الإسكندر ، فبينما هو فى ذلك غافله أحد أحداث الروم بطعنة فقتله بها ثائرا بأبيه عندما تمكن منه منفردا .

فولى الإسكندر الملك بعد أبيه فيلبش وكان أول شئ أظهر فيه قوته وعزمه فى بلد الروم، وكانوا قد خرجوا عن طاعة المقدونيين إلى طاعة الفرس، فدرسهم واستأصلهم وخرب مدنهم وجعلهم سبيا مبيعا، وجعل سائر بلادهم وكورهم تؤدى إليه الخراج ثم قتل جميع أختانه وأكثر أقاربه فى وقت تعبيته لمحاربة الفرس.

وكان جميع عسكره اثنين وعشرين ألف فارس وستين ألف راجل، وكانت مراكبه خمسمائة مركب وثمانين مركبا. فحرك بهذه العدة كبار ملوك الدنيا، وسار إلى الإسكندرية ودخل بيت المقدس وقرب فيه لله تعالى قربانا.

وخرج يريد محاربة دارا، وكان فى عسكر دارا ملك الفرس فى أول ملاقاته إياه ستمائة ألف مقاتل، فبلغه الإسكندر، وكانت إذ ذاك على الفرس وقعة شنعاء، ونكبة دهياء، قتل فيها منهم عدد لا يحصي، ولم يقتل من عسكر الاسكندر إلا مائة وعشرون فارسا وتسعون راجلا.

ومضى الاسكندر ففتح مدائن وانتهت ما فيها، فبلغه أن دارا قد عبى وأقبل نحوه بجمع عظيم، فخاف أن يلحقه فى ضيق الجبال التى كان فيها، فقطع نحوا من مائة ميل فى سرعة عجيبة حتى بلغ مدينة طرسوس، وكاد يهلك لفرط البرد حتى انقبض عصبه .. فلاقاه دارا فى ثلاثمائة ألف راجل ومائة ألف فارس.

فلما التقى الجمعان كاد الإسكندر يفر لكثرة ما كان فيه دارا وقلة ما كان فيه، ووقع القتال بينهما وباشر القواد الحرب لأنفسهم، وتنازل الأبطال، واختلف الطعن والضرب، وضاق الفضاء بأهله، فباشر كلا الملكين الحرب بأنفسهما: دارا والإسكندر، وكان الإسكندر أكمل أهل زمانه فروسية وأشجعهم وأقواهم جسما، فباشرا حتى جرحا جميعا، وتمادى الحرب بينهما حتى انهزم دارا، ونزلت الوقيعة بالفرس، فقتل من راجلهم نحو من ثمانين ألفا، ومن فرسانهم نحو من عشرة آلاف، وأسر منهم نحو من أربعين ألفا، ولم يسقط من عسكر الإسكندر إلا مائتان وثلاثون راجلا ومائة وخمسون فارسا.

فانتهب الإسكندر جميع عسكر الفرس، وأصاب فيه من الذهب والفضة والأمتعة الشريفة ما لا يحصى كثرة، وأصيب من جملة الأسارى أم دارا وزوجته وأخته وابنتاه،

فطلب دارا من الإسكندر فـديتـهن بنصف ملكه فلم يجبـه إلى ذلك. فـعـبى دارا مـرة ثالثـة وحشد الفرس عن آخرهم، واستجاش بكل من قدر عليه من الأمم، فبعث الإسكندر قائدا فى أسطول للغارة على بلد الفرس، ومضى الإسكندر إلى الشام فتلقاه هنالك ملوك الدنيا خاضعين له، فعفا عن بعض ونفى بعضا وقتل بعضا، ومضى إلى إحراز طرسوس. وكانت مدينة زاهرة قديمة عظيمة الشأن، وأهلها قد وثقوا بعون أهل أفريقية لهم لصهر كان بينهم. فحاصرهم فيها حتى افتتحها، ومضى منها إلى رودس وإلى مصر فانتهب الجميع، وبنى مدينة الإسكندرية بأرض مصر، وقال هروشيوش: وله فى بنيانها أخبار طويلة وسياسات كرهنا تطويل كتابنا بها.

ثم إن دارا لما يئس من مصالحته أقبل فى أربعمائة ألف راجل ومائة ألف فارس فتلقى الإسكندر مقبلا من ناحية مصر، فى أعمال مدينة طرسوس، فكانت بينهما معركة عجيبة شنيعة، اجتهادا من الروم على ما كانوا خبروه واعتادوا من الغلبة والظفر، واجتهادا من الفرس بالتوطين على الهلاك وتفضيل الموت على الرق والعبودية، فقلما يحكى عن معركة كان القتل فيها أكثر منه فى تلك المعركة.

فلما نظر دارا إلى أصحابه يتغلب عليهم ويهزمون، عزم على استعجال الموت فى تلك الحرب بالمباشرة لها بنفسه والصبر حتى يقتل معترضا للقتل، فلطف به بعض قواده حتى سلوه فانهزم، وذهبت قوة الفرس وعزهم، وذل بعدها سلطانهم، وسار بلد المشرق كله فى طاعة الروم، وانقطع ملك الفرس مدة أربعمائة عام وخمسين عاماً.

وأشتغل الإسكندر بتحصيل ما أصاب فى عسكر الفرس والنظر فيه، وقسمته على عسكره ثلاثين يوما.

ثم مضى إلى مدينة الفرس التى كانت رأس مملكتهم، والتى اجتمعت فيها أموال الدنيا ونعمها فهدمها ونهب ما فيها، فبلغه عن دارا أنه صار عند قوم مكبلا فى كبول من فضة، فتهيأ وخرج فى ستة آلاف فوجده بالطريق مجروحا جراحا كثيرة، فلم يلبث أن هلك منها. فأظهر الإسكندر الحزن عليه والمرثية له، وأمر بدفنه فى مقابر الملوك من أهل مملكته.

وكان فى أمر هذه الثلاث معارك عبرة لمن اعتبر، ووعظ لمن اتعظ، إذ قتل فيها من أهل مملكة واحدة نحو من خمسة عشر ألف ألف بين راكب وراجل من أهل آسيا - وهى العراق - وقد كان قتل من أهل تلك المملكة قبل ذلك بنحو من ستين سنة نحو تسعة عشر ألف ألف إلى ألف ألف ما بين راكب وراجل من أهل بلد العراق والشام وطرسوس ومصر وجزيرة رودس وجميع البلدان الذين درسهم الإسكندر أجمعين.

وكان سلطان الدنيا مقسوما بين قواده بعد ما زلزل بدواهيه العظيمة العالم كله، وعم أهله بعضا بالمنايا الفظيعة، وبعضا بالتوطين عليها والمباشرة لأهوالها. وأوصى عند وفاته أن يلقب كل قائم فى اليونانيين بعده ببطليموس تهويلا للإعداء، لأن معناه «الحربي».

فهذا هو الصحيح من خبر الإسكندر، فلا يلتفت إلى ما خالفه.

ويقال إنه كان أشقر أزرق، وهو أول من سمر بالليل، وكان له قوم يضحكونه ويحكون له الخرافات... يريد بذلك حفظ ملكه وحراسة نفسه، لا اللذة. وبه اقتدى الملوك فى السمر واتخاذ المضحكين والمخرفين.

ذكر تاريخ الإسكندر

قال أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني: تاريخ الإسكندر اليونانى - الذى يلقبه بعضهم بذى القرنين - على سنى الروم، وعليه عمل أكثر الأمم، لما خرج من بلاد يونان، وهو ابن ست وعشرين سنة لقتال دارا ملك الفرس.

ولما ورد بيت المقدس أمر اليهود بترك تاريخ داود وموسى عليهما السلام، والتحول إلى تاريخه. فأجابوه وانتقلوا إلى تاريخه، واستعملوه فيما يحتاجون إليه، بعد أن عملوه من السنة السادسة والعشرين لميلاده - وهو أول وقت تحركه - ليتموا ألف سنة من لدن موسى عليه السلام. وبقوا معتصمين بهذا التاريخ ومستعملين له.

وعليــه عـمل اليونانيين، وكانوا قبــله يؤرخـون بخـروج يونان بن نـورس عن بابـل إلى المغـــرب.

وأول تاريخ الإسكندر يوم الأثنين أول تشـرين الأول، ومـوافـقـه اليـوم الرابع من بابه. ومبادى الأيام عندهم من وقت طلوع الشـمس إلى وقت غـروبهـا، وإلى أن يصبح الصبـاح وتطلع الشـمس فقـد كـمل يوم بليلته. ومبادي الشـهور ترجع إلى عدد واحد له نظـم يجرى عليه دائما، وعدد شهور سنتهم اثنا عشر شهرا يخالف بعضها بعضا فى العدد.

وهذه أسماؤهم وعدد أيام كل شهر منها :

تشرين الأول : أحد وثلاثون يوما.

تشرين الثاني : ثلاثون يوما.

كانون الأول : أحد وثلاثون يوما.

كانون الثاني : أحد وثلاثون يوما.

شباط : ثمانية وعشرون يوما وربع.

آذار : أحد وثلاثون يوما.

نيسان : ثلاثون يوما.

أيار : أحد وثلاثون يوما.

حزيران : ثلاثون يوما.

تموز : أحد وثلاثون يوما.

آب : أحد وثلاثون يوما.

أيلول : ثلاثون يوما.

فسبعة أشهر، كل شهر منها أحد وثلاثون يوما، وأربعة أشهر كل شهر منها ثلاثون يوما، وشـهـر واحـد ثمـانية وعشـرون يومـا وربع يوم.ـ وذلك أنهـم جـعلوا شـبـاط كل ثلاث سنين متواليات ثمانية وعشرين يوما، وجعلوه فى السنة الرابعة تسعة وعشرين يوما.ـ فيكون عدة

أيام سنتهم ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وربع يوم، ويجعلون السنة الرابعة ثلاثمائة وستة وستين يوما ويسمونها السنة الكبيسة.

وإنما زادوا الربع فى كل سنة ليقرب عدد أيام سنتهم من عدد أيام السنة الشمسية، حتى تبقى أمورهم على نظام واحد، فتكون شهور البرد وشهور الحر وأوان الزرع ولقاح الشجر وجنى الثمر فى وقت معلوم من السنة، لا يتغير وقت من ذلك ألبتة.

وكان ابتداء الكبيس فى السنة الثالثة من ملك الإسكندر.

وبين يوم الإثنين أول يوم من تاريخ الإسكندر هذا وبين يوم الخميس أول شهر المحرم من السنة التى هاجر نبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة تسعمائة سنة وثلاث وثلاثون سنة ومائة وخمسة وخمسون يوما.

وبينه وبين يوم الجمعة أول يوم من الطوفان ألفا سنة وسبعمائة سنة واثنتان وتسعون سنة ومائة وثلاثة وتسعون يوما.

وبين ابتداء ملك بخت نصر وبين أول تاريخ الإسكندر أربعمائة وخمس وثلاثون سنة شمسية ومائتا يوم وثمانية وثلاثون يوما.

وقال أبو بكر أحمد بن على بن قيس بن وحشية فى كتاب «الفلاحة النبطية»: الشهر المسمى تموز-فيما ذكر القبط بحسب ما وجدت فى كتبهم-اسم رجل كانت له قصة عجيبة طويلة، وهو أنه دعا ملكا إلى عبادة الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر، وأن الملك قتله وعاش بعد القتلة، ثم قتله قتلات بعد ذلك قبيحة وفى كلها يعيش، ثم مات فى آخرها.

وإن شهورهم هذه كل واحد منها اسم رجل فاضل عالم كان فى القديم من النبط الذين كانوا مكان إقليم بابل قبل الكسدانيين. وذلك أن تموز هذا ليس من الكسدانيين ولا الكنعانيين ولا العبرانيين ولا الجرامقة، وإنما هو من الحزناسيين الأولين.

ولذلك يقولون فى كل شهورهم: إنها أسماء رجال مضوا، وإن تشرين الأول وتشرين الثانى اسما أخوين كانا فاضلين فى العلوم، وكذلك كان كانون الأول وكانون الثاني، وإن شباط اسم رجل نكح ألف امرأة-أبكارا كلهن-ولم ينسل نسلا ولا ولد ولدا، فجعلوه فى آخر الشهور لنقصانه عن النسل، فصار النقصان من العدد فيه.

والصابئون من البابليين والحزناسيين جميعا إلى وقتنا هذا ينوحون ويبكون على تموز فى الشهر المسمى تموز فى عيد لهم فيه منسوب إلى تموز، ويعددون تعديدا عظيما، وخاصة النساء، فإنهن يقمن ههنا جميعا وينحن ويبكين على تموز، ويهذين فى أمره هذيانا طويلا، وليس عندهم علم من أمره أكثر من أن يقولوا هكذا وجدنا أسلافنا ينوحون ويبكون على تموز فى هذا العيد المنسوب إلى تموز.

والنصارى تذكر أنهم يعلمونه لرجل يسمى جورجيس، أحد حواريي عيسى عليه السلام، دعا ملكا من الملوك إلى دين النصرانية فعذبه الملك بتلك القتلات.

فلا أدرى وقع إلى النصارى قصة تموز فأبدلوا مكانها اسم جورجيس وخالفوا الصابئين يعملون ذكران تموز أول يوم من شهر تموز، والنصارى يعملون لجورجيس فى آخر نيسان.

ويقال إن بعض ملوك رومية زاد فى شهور الروم كانون الثانى وشباط، فإن شهورهم كانت إلى زمانه عشرة أشهر كل شهر ستة وثلاثون يوما.

ويقال إن فريوريوس أول من ملك مدينة رومية، وإنه أقام ملكا ثلاثا وأربعين سنة، وزاد كانون الثانى وشباط فى شهور الروم بحكم أنها كانت إلى ذلك الزمان عشرة أشهر كل شهر ستة وثلاثون يوما.

وكان سبب نقص شباط يومين، وقوع غارة فى أيام فيطن رئيس جيش الروم مع خلف وحروب بينه وبين فريوريوس آلت إلى نصرة فيطن وأخذه مملكه الروم، وأمر بفريوريوس فنودى عليه: «أعيا مرديا»، وتفسيره: اخرج يا شباط، ثم غرق فى البحر. وسموا شهر شباط فريوريوس ليكون تذكار سوء له، فإن هذا الفعل كان فى يومى التابع والعشرين والثلاثين من شباط، فنقصوهما من شباط وزادوهما فى تموز وكانون الثاني، فجعلوا كل شهر منهما أحدا وثلاثين يوما.

ثم بعد زمان جاء ملك آخر فقال: لا يحسن أن يكون شباط فى وسط السنة، فنقله إلى آخرها... ولم يزل الروم من ذلك الوقت يتطيرون من شباط.

ذكر الفرق بين الإسكندر وذي القرنين وانهما رجلان

اعلم أن التحقيق عند علماء الأخبار أن ذا القرنين الذى ذكره الله فى كتابه العزيز فقال: ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا. إنا مكنا له في الأرض، وآتيناه من كل شئ سببا...﴾(*) الآيات، عربى قد كثر ذكره فى أشعار العرب، وإن اسمه الصعب بن ذى مراثد ابن الحارث الرائش بن الهمال ذى سدد بن عاد ذى منح بن عامر الملطاط بن سكسك بن وائل ابن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود ابن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، وأنه ملك من ملوك حمير وهم العرب العاربة، ويقال لهم أيضا العرب العرباء.

وكان ذو القرنين تبّعا متوجا، ولما ولى الملك تجبر، ثم تواضع لله واجتمع بالخضر. وقد غلط من ظن أن الإسكندر بن فليبش هو ذو القرنين الذى بنى السد، فإن لفظة ذو عربية، وذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن، وذاك رومى يوناني.

قال أبو جعفر الطبري: وكان الخضر فى أيام أفريدون الملك بن الضحاك فى قول عامة علماء أهل الكتاب الأول، وقبل موسى بن عمران عليه السلام.

وقيل إنه كان على مقدمة ذى القرنين الأكبر الذى كان على أيام إبراهيم الخليل عليه السلام، وإن الخضر بلغ مع ذى القرنين أيام مسيره فى البلاد نهر الحياة فشرب من مائه وهو لا يعلم به ذو القرنين ولا من معه، فخلد، وهو حى عندهم إلى الآن.

وقال آخرون: إن ذا القرنين الذى كان على عهد إبراهيم الخليل عليه السلام هو أفريدون بن الضحاك، وعلى مقدمته كان الخضر.

وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام فى كتاب «التيجان فى معرفة ملوك الزمان» بعد ما ذكر نسب ذى القرنين الذى ذكرناه: وكان تبعا متوجا، لما ولى الملك تجبر، ثم تواضع واجتمع بالخضر ببيت المقدس، وسار معه مشارق الأرض ومغاربها، وأوتى من كل شئ سببا كما أخبر الله تعالى، وبنى السد على يأجوج ومأجوج، ومات بالعراق.

(*) سورة الكهف ـ آية ٨٣، ٨٤، ك ١٨.

فأما الإسكندر فانه يوناني، ويعرف بالإسكندر المجدوني، ويقال المقدوني.

سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن ذى القرنين: ممن كان؟ فقال: من حمير، وهو الصعب بن ذى مرائد الذى مكنه الله تعالى فى الأرض، وآتاه من كل شئ سببا، فبلغ قرنى الشمس ورأس الأرض، وبنى السد على يأجوج ومأجوج.

قيل له: فالإسكندر؟

قال: كان رجلا صالحا روميا حكيما، بنى على البحر فى أفريقية منارا، وأخذ أرض رومة، وأتى بحر الغرب، وأكثر عمل الآثار فى الغرب من المصانع والمدن.

وسئل كعب الأحبار عن ذى القرنين فقال: الصحيح عندنا من أحبارنا وأسلافنا أنه من حمير، وأنه الصعب بن ذى مرائد، والإسكندر كان رجلا من يونان من ولد عيصو بن إسحاق بن إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهما. ورجال الإسكندر أدركوا المسيح بن مريم، منهم جالينوس وأرسطاطاليس.

وقال الهمدانى فى كتاب «الأنساب»: وولد كهلان بن سبأ زيدا، فولد زيد عريبا ومالكا وغالبا وعميكرب. وقال الهيثم عميكرب بن سبأ أخو حمير وكهلان. فولد عميكرب أبا مالك فدرحا رمهيليل ابنى عميكرب، وولد غالب جنادة بن غالب. وقد ملك بعد مهيليل بن عميكرب بن سبأ. وولد عريب عمرا، فولد عمرو زيدا والهميسع، ويكنى أبا الصعب، وهو ذو القرنين الأول، وهو المساح والبناء. وفيه يقول النعمان بن بشير:

فمن ذا يعاددنا من الناس معشرا
كراما، فذو القرنين منا وحاتم

وفيه يقول الحارثى:

سموا لنا واحدا منكم فنعرفه
فى الجاهلية لاسم الملك محتملا
كالتبعين وذى القرنين يقبله
أهل الحجى فأحق القول ما قبلا

وفيه يقول ابن أبى ذئب الخزاعي :

ومنــا الذى بالخافقــين تغربا

وأصعد فى كل البــلاد وصـوبا

فقد نال قرن الشمس شرقا ومغربا

وفى ردم يأجوج بنى ثم نصبــا

وذلك ذو القرنين تفخــر حمير

بعسكر قيل ليس يحصى فيحسبا

قال الهمداني : وعلماء همدان تقول : ذو القرنين الصعب بن مالك بن الحارث الأعلى بن ربيعة بن الجبار بن مالك ، وفى ذى القرنين أقاويل كثيرة.

وقال الإمام فخر الدين الرازى فى كتاب «تفسير القرآن الكريم» : ومما يعترض به على من قال إن الإسكندر هو ذو القرنين أن معلم الإسكندر كان أرسطاطاليس بأمره يأتمر وبنهيه ينتهي ، واعتقاد أرسطاطاليس مشهور ، وذو القرنين نبي ، فكيف يقتدى نبى بأمر كافر؟.. فى هذا إشكال.

وقال الجاحظ فى كتاب «الحيوان» : إن ذا القرنين كانت أمه آدمية ، وأبوه من الملائكة ، ولذلك لما سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا ينادى رجلا : ياذا القرنين ، قال : أفرغتم من أسماء الأنبياء فارتفعتم إلى أسماء الملائكة؟!

وروى المختار بن أبى عبيد أن عليا رضى الله عنه كان إذا ذكر ذا القرنين قال : ذلك الملك الأمرط. والله أعلم.

ذكر من ولي الملك بالإسكندرية بعد الإسكندر

قال في كتاب هروشيوش: إن الإسكندر ملك الدنيا أثنتي عشرة سنة، فكانت الدنيا مأسورة بين يديه طول ولايته، فلما مات تركها بين يدى قواده المستخلفين تحته... فكان مثله معهم كمثل الأسد الذى ألقى صيده بين يدى أشباله، فتقاتلت عليه تلك الأشبال بعده. وذلك أنهم اقتسموا البلاد، فصارت مصر وأفريقية كلها وبلاد الغرب إلى قائده وصاحب خيله الذى ولى مكانه وهو بطليموس بن لاوي، ويقال بطليموس بن أرنبا المنطقي.

وذكر بقية ممالك القواد من أقصى بلاد الهند إلى آخر بلاد المغرب، ثم قال: فثارت بينهم حروب، وسببها رسالة كانت خرجت من عند الإسكندر بأن يرجع جميع الغرباء المنفيين إلى بلادهم، ويسقط عنهم الرق والعبودية. فاستثقل ذلك ملك بلاد الروم، إذ خاف أن يكون الغرباء والمنفيون إذا رجعوا إلى بلدانهم ومواطنهم يطلبون النقمة لأنفسهم، فكان هذا الأمر سبب خروجهم عن طاعة سلطان المجدونيين.

وقال غيره: وبطليموس هذا سبى بنى معد بعد ما غزا فلسطين، ثم أطلقهم وحباهم بآنية جوهر وضعت في بيت المقدس، وملك عشرين سنة.

وقال غيره: ولى أربعين سنة، وقيل ثمانيا وثلاثين سنة.

وقيل أن اسمه فليدلفوس - وهو محب الأب - وكان مجدونيا. وهو الذى غنم اليهود ونقل كثيرا منهم إلى مصر. وفى زمانه كان زينون الفيلسوف، وكان هذا الملك فيلسوفا. وأقبل برديقا أحد قواد الإسكندر إلى مصر بعسكر عظيم وجيش عرمرم، فتفرق سلطان مجدونية على قسمين.

ثم إن بطليموس جمع عساكر مصر وأفريقية ولاقى برديقا فهزمه وأصاب عسكره، ثم قتله وأصاب ما كان معه، وحارب عدة من قواد الإسكندر.

وقال غيره: وكان بطليموس هذا حكيما عالما شابا مدبرا، وهو أول من اقتنى البزاة ولعب بها وضراها، وكان من قبله من الملوك لا يلعب بها.

ولما مات، ملك الإسكندرية بعده بطليموس الثاني، واسمه فيلوزوفوس - ويقال له محب الأخ - وكانت مدة ملكه ثمانيا وثلاثين سنة. وهو الذى أطلق اليهود الذين كانوا مأسورين بأرض مصر، ورد الأوانى المقدسة على عزير النبي.

وهو الذى تخير السبعين مترجما من علماء اليهود الذين ترجموا كتب التوراة والأنبياء من اللسان العبرانى إلى اللسان الرومى اليونانى واللاطيني، وكان فيلسوف منجما.

ومات، فولى بعده ابنه بطليموس وأوراخيطس - المعروف بمحب الأب - ستا وعشرين سنة، ثم ولى بعده أخوه بطليموس فيلوبطور سبع عشرة سنة. وهو الذى قتل من اليهود نحوا من ستين ألفا، وتغلب عليهم.

ويقال إنه صاحب علم الفلك والنجوم وكتاب «المجسطي».

ثم ملك بعده ابنه بطليموس أسفاميش - محب الأم - أربعا وعشرين سنة.

ثم ولى بعده ابنه بطليموس فلوناطرة -وهو الصانع - خمسا وثلاثين سنة، وهو الذى غلب ملك الشام، وحمل اليهود أنواع البلاء والعذاب.

ثم ملك الإسكندرية بعده ابنه بطليموس ابرياطيش - وهو الإسكندرانى - تسعا وعشرين سنة. وفى زمانه غلب الرومانيون على الأندلس، واحترقت مدينة قرطاجنة بالنار، وأقامت النار فيها سبعة عشر يوما، فهدمت وحولت أساساتها حتى صار رخام أسوارها غبارا، وذلك إلى تسعمائة سنة من وقت بنيانها، وبيع جميع أهلها رقيقا، إلا قليلا من خيارهم وأشرافهم. وكان المتولى لتخريبها قواد رومة..

ثم ولى بعده ابنه بطليموس شوطار - الذى يقال له الحديد - سبع عشرة سنة. وكان قبيح السيرة، تزوج بأخته ثم فارقها على أقبح حال مما تزوجها عليه، فى خبر له، ثم تزوج ربيبته التى كانت بنت أخته، ثم زوجها من ابنه المولود له من أخته... وكثرت فواحشه حتى نفاه أهل الإسكندرية، فمات منفيا.

وولى أخو بطليموس ديوشيش ثمانيا وثلاثين سنة. وفى زمانه غلب قائد الرومانيين على بيت المقدس، وجعل اليهود يؤدون إليه الجزية.

وظهرت في ذلك الزمان علامات في السماء مهولة : منها أنه ظهر في السماء بناحية مطلع الشمس من مدينة رومة مما يلي ناحية الجنوب نار ملتهبة عظيمة ، وكسر قوم خبزا في صنع لهم فانفجر من الخبز دم سائل ، ونزل بمدينة رومة مدة سبعة أيام متوالية برد كان يوجد في داخله حجارة وشقاف ، وإنفتحت الأرض فصار فيها غور عظيم وخرج منه لهب اشتعل حتى ظنوه بلغ السماء ، ونظر أهل رومة يومئذ إلى عمود من الأرض إلى السماء لونه لون الذهب ، وكان من عظمه تكاد الشمس أن تغيب منه.

ثم ولي الإسكندرية بعده كلوباطرة سنتين ، فدامت مملكة الإسكندرية - وهي الدولة المجدونية - إلى أول ملوك قيصر الذي هو أول ملوك الرومانيين ، مائتين وإحدى وثمانين سنة.

فبعث قيصر قائدين بعساكر كثيرة لفتح مصر ، فتزوج أحدهما كلوباطرة ابنة ديوشيش الملقب بطليموس ، وقتل القائد الآخر ، وخالف قيصر. فسار إليه قيصر بنفسه ، وجرت أمور آلت إلى سقوط الإسكندرية بعد حروب ، واستولى قيصر على مملكة مصر ، وقتل كلوباطرة وولديها ، وقتل القائد الذي تزوجها. ويقال بل سمت نفسها عندما تيقنت غلبة قيصر لها.

ويقال إنها كانت ذات حزم ومعرفة وتدبير ، وإنها حفرت خليج الإسكندرية وأجرت فيه الماء من مصر ، وبنت الإسكندرية أبنية عجيبة ، منها هيكل زحل ، وعملت فيه صنما من نحاس أسود. وكان أهل مصر والإسكندرية يعملون له عيدا في اليوم الثاني والعشرين من هتور ، ويحج إليه اليونانيون من سائر الأقطار ويذبحون له ذبائح لا تحصى كثرة. فلما ظهرت ملة النصارى في الإسكندرية جعلوا هيكل زحل كنيسة ، ولم تزل إلى أن هدمها جيوش المعز لدين الله عند قدومهم من المغرب إلى أرض مصر في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة من سني الهجرة النبوية.

ويقال إن كلوباطرة هي التي بنت حائط العجوز بمصر. ويشبه أن يكون هذا غير صحيح.

ويقال إنها بنت مقياسا بمدينة أخميم ، ومقياسا آخر بأنصنا.

ويقال كانت مدة ملكها ثلاثين سنة. وليس بصحيح.

وبموت كلوباطرة انقطعت مملكة مـصـر ، وصـارت تحت يد ملوك الروم من أهل مـدينة رومـة ، ثـم تحت يد ملوك الروم من أهل قـسطنطينيـة. فلم تزل تحت أيديهـم يولون فـيـهـا من قـبلهم من شـاءوا ، فـيـصـيـر إلى الإسكندرية ويقـيـم بهـا ، إلى أن قـدم عـمـرو بن العـاص بالمسلمين ، وفتح الله على يده الحصن والإسكندرية وجميع أرض مصر.

ويقال معنى كلوباطرة : الباكية.

فكان جـمـيع المدة التى مـا بين ذهاب دولة البطالسـة من الإسكندرية وقـدوم عـمـرو بن العاص إلى مصر وفتحها ستمائة سنة وبضعا وسبعين سنة .

وفى خلال هذه المدة قوى جانب ملوك الفرس على القياصرة ، وملكوا منهم بلاد الشام ، واستـولوا على أرض مـصر والإسكندرية فى أيام كسـرى أبرويز بن هرمز ، فـبعث قـائدا إلى مصر وملك الإسكندرية وقتل الروم ، وأقاموا بالإسكندرية مدة عشر سنين .

فلمـا استـبـد هرقل بمملكة الروم وخـرج من القسطنطينية لجمع الأموال من سائر مملكته أخذ حـماة ودمشق ، وصار إلى بيت المقدس وقد خربها الفرس فأمر ببنائها ، وسار منها إلى أرض مـصـر ، ودخل الإسكندرية وقـتل من بهـا من الفرس ، وأقـام بهـا بطريقـا ، ثـم عـاد إلى قسطنطينية ... فاستمرت مصر بعده تحت ايالة الروم ، حتى ملكها المسلمون .

ويقال إن كل بناء بمصر من آجر فهو للفرس ، وما فيها من بناء حجر فهو للروم والله أعلم .

ذكر منارة الإسكندرية

قال المسعودي : فأما منارة الإسكندرية ، فذهب الأكثرون من المصريين والإسكندرانيين ممن عنى بأخبار بلدهم أن الإسكندر بن فيليبش المقدونى هو الذى بناها .

ومنهم من رأى أن دلوكة الملكة بنتها وجعلتها مرقبا لمن يرد من العدو الى بلدهم .

ومن الناس من رأى أن العاشر من فراعنة مصر هو الذى بناها .

ومنهم من رأى أن الذى بنى مـدينة رومـة هو الذى بنى مـدينة الإسكندرية ومنارتهـا والأهرام بمصر، وانما أضيفت الإسكندرية الى الإسكندر لشهرته باستيلائه على الأكثر من ممالك العالم فشهرت به، وذكروا فى ذلك أخبارا كثيرة يستدلون بها على ما قالوا.

والإسكندر لم يطرقـه فى هذا البحر عـدو، ولا هاب ملكا يرد إليه فى بلده ويغزوه فى داره، فيكون هو الذى جعلها مرقبا.

وإن الذى بناها جعلهـا على كرسى من الزجاج على هيئة السرطان فى جوف البحـر، وعلى طرف اللسـان الذى هو داخل فى البحـر من البر، وجـعل على أعـلاها تمـاثيل من النحاس وغيره.

منها تمثال قد أشـار بسبابته من يده اليمنى نحـو الشمس أينما كانت من الفلك، وإذا علت فى الفلك فإصبعه يشير بهـا نحوها، فإذا انخفضت صارت يده سـفلا تدور معهـا حيث دارت.

ومنها تمثال يشير بيده إلى البحر، إذا صار العدو منه على نحو من ليلة، فإذا دنا وجاز أن يرى بالبصر لقرب المسـافة، سـمع لذلك التمثال صـوت هائل يسمع من مسـيرة ميلين أو ثلاثة، فيعلم أهل المدينة أن العدو قد دنا منهم فيرمقونه بأبصارهم.

ومنها تمثال كلما مضى من الليل أو النهار ساعة، سمعوا له صوتا بخلاف ما صوت فى الساعة التى قبلها، وصوته مطرب.

وقـد كـان ملك الروم فى ملك الوليد بن عبـد الملك بن مروان أنفـذ خـادمـا من خـواص خدمه ذا رأى ودهاء، فجاء مستأمنا إلى بعض الثغور، فورد بآلة حسنة ومعه جماعة، فجاء إلى الوليد فأخبره أنه من خواص الملك، وأنه أراد قتله لموجدة وحال بلغته عنه لم يكن لها أصل، وانه استـوحش ورغب فى الإسـلام .فـأسلم على يد الوليـد، وتقـرب من قلبـه، وتنصح إليه فى دفائن استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من الشام بكتب كانت معه فيها صفات تلك الدفائن.

فلما صارت إلى الوليد تلك الأموال والجواهر شرهت نفسه، واستحكم طمعه، فقال له الخادم: يا أمير المؤمنين، إن ههنا أموالا وجواهر ودفائن للملوك.

فسأله الوليد عن الخبر فقال: تحت منارة الإسكندرية أموال ملوك الأرض، وذلك أن الإسكندر احتوى على الأموال والجواهر التى كانت لشداد بن عاد وملوك مصر، فبنى لها أزجا تحت الأرض، وقنطر لها الأقباء والقناطر والسراديب، وأودعها تلك الذخائر من العين والورق والجوهر، وبنى فوق ذلك هذه المنارة.

وكان طولها فى الهواء ألف ذراع، والمرآة فى علوه، والديادبة جلوس حوله، فإذا نظروا إلى العدو فى البحر فى ضوء تلك المرآة صوتوا لمن قرب منهم، ونشروا أعلاما فيراها من بعد منهم، فتحذر الناس وتنذر البلد، فلا يكون للعدو عليهم سبيل.

فبعث الوليد مع الخادم بجيش وأناس من ثقاته وخواصه، فهدم نصف المنارة من أعلاها وأزيلت المرآة، فضج الناس من هذا وعلموا أنها مكيدة وحيلة فى أمرها. فلما علم الخادم استفاضة ذلك، وأنه سينم الى الوليد، وانه قد بلغ ما تحتاج إليه، هرب فى الليل فى مركب كان قد أعده، وواطأ على ذلك، فتمت حيلته. وبقيت المنارة على ما ذكرناه إلى هذا الوقت، وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة.

وكانت حوالى منارة الإسكندرية فى البحر مغاص يخرج منه قطع من الجوهر يتخذ منه فصوص للخواتم أنواعا من الجواهر، يقال إن ذلك من آلات اتخذها الإسكندر للشراب، فلما مات كسرتها أمه ورمت بها فى تلك المواضع من البحر.

ومنهم من رأى أن الإسكندر اتخذ ذلك النوع من الجواهر وغرقه حول المنارة، لكيلاتخلو من الناس حولها، لأن من شأن الجوهر أن يكون مطلوبا أبدا فى كل عصر.

ويقال ان هذه المنارة إنما جعلت المرآة فى أعلاها لأن ملوك الروم بعد الإسكندر كانت تحارب ملوك مصر والإسكندرية، فجعل من كل بالإسكندرية من الملوك تلك المرآة ترى من يرد فى البحر من عدوهم.

وكان من يدخلها يتيه فيها، إلا أن يكون عارفا بالدخول والخروج فيها، لكثرة بيوتها وطبقاتها وممراتها.

وقد ذكر أن المغاربة، حين وافوا فى خلافة المقتدر فى جيش صاحب المغرب، دخل جماعة منهم على خيولهم إلى المنارة، فتاهوا فيها فى طرق تؤول إلى مهاو تهوى الى السرطان الزجاج، وفيه مخاريق إلى البحر فتهورت دوابهم وفقد منهم عدد كثير، وعلم بهم بعد ذلك وقيل ان تهورهم كان على كرسى لها قدامها.

وفى المنارة مسجد فى هذا الوقت يرابط فيه مطوعة المصريين وغيرهم.

وفى سنة سبع وسبعين وسبعمائة، سقط رأس المنارة من زلزلة.

ويقال ان منارة الإسكندرية كانت مبنية بحجارة مهندمة مضببة برصاص على قناطر من الزجاج، وتلك القناطر على ظهر سرطان، وكان فى المنارة ثلاثمائة بيت بعضها فوق بعض، وكانت الدابة تصعد بحملها إلى سائر البيوت من داخل المنارة ولهذه البيوت طاقات تشرف على البحر، وكان على الجانب الشرقى من المنارة كتابة عربت فإذا هي: بنت هذه المنظرة قريبا بنت مرينوس اليونانية لرصد الكواكب.

وقال ابن وصيف شاه، وقد ذكر أخبار مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح: وبنوا على البحر مدنا منها رقودة مكان الإسكندرية، وجعلوا فى وسطها قبة على أساطين من نحاس مذهب، والقبة مذهبة، ونصبوا فوقها منارة عليها مرآة من أخلاط شتي، قطرها خمسة أشبار، وكان ارتفاع القبة مائة ذراع، فكانوا إذا قصدهم قاصد من الأمم التى حولهم، فإن كان مما يهمهم أو من البحر، عملوا لتلك المرآة عملا فألقت شعاعها على ذلك الشئ فأحرقته فلم تزل على حالها إلى أن غلب عليها البحر فنسفها.

ويقال إن الإسكندر إنما عمل المنار الذى كان شبيها بها، وقد كان أيضا عليه مرآة يرى فيها من يقصدهم من بلاد الروم، فاحتال بعض ملوك الروم فوجه من أزالها، وكانت من زجاج مدبر.

وقال المسعودى فى كتاب «التنبيه والإشراف»: وقد كان وزير المتوكل عبيد الله ابن يحيي بن خاقان، لما أمر المستعين بنفيه إلى برقة فى سنة ثمان وأربعين ومائتين، صار إلى الإسكندرية من بلاد مصر، فرأى حمرة الشمس على علو المنارة التى بها وقت المغيب، فقدر

أنه يلزمه ألا يفطر إذا كان صائما أو تغرب الشمس من جميع أقطار الأرض، فأمر إنسانا أن يصعد إلى أعلى منارة الإسكندرية ومعه حجر، وأن يتأمل موضع سقوط الشمس، فإذا سقطت رمى بالحجر، ففعل الرجل ذلك، فوصل الحجر إلى قرار الأرض بعد صلاه العشاء الآخرة، فجعل إفطاره بعد صلاة العشاء الآخرة فيما بعد إذا صام فى مثل ذلك الوقت.

وكان عند رجوعه إلى سر من رأى لا يفطر إلا بعد العشاء الآخرة. وعنده أن هذا فرضه، وأن الوقتين متساويان، وهذا غاية ما يكون من قلة العلم بالفرض، ومجارى الشرق والغرب.

وقد ذكر أرسطاطاليس فى كتاب « الآثار العلوية » أن بناحية المشرق الصيفى جبلا شامخا جدا، وأن من علامة ارتفاعه أن الشمس لا تغيب عنه إلى ثلاث ساعات من الليل، وتشرق عليه قبل الصبح بثلاث ساعات.

ومنارة الإسكندرية أحد بنيان العالم العجيب، بناها بعض البطالسة ملوك اليونانيين بعد وفاة الإسكندر بن فيلبيش الملك لما كان بينهم وبين ملوك رومة من الحروب فى البر والبحر، فجعلوا هذه المنارة مرقبا، فى أعاليها مرآة عظيمة من نوع الأحجار المشفة ليشاهد منها مراكب البحر إذا أقبلت من رومة على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها، فكانوا يراعون ذلك فى تلك المرآة، فيستعدون لهم قبل ورودهم.

وطول المنارة فى هذا الوقت على التقريب مائتان وثلاثون ذراعا. وكان طولها قديما نحوا من أربعمائة ذراع، فهدمت على طول الأزمان وترادف الزلازل والأمطار، لأن بلد الإسكندرية تمطر، وليس سبيلها سبيل فسطاط مصر، إذ كان الأغلب عليها ألا تمطر إلا اليسير.

وبناوها ثلاثة أشكال: فقريب من النصف وأكثر من الثلث مربع الشكل، بناؤه بأحجار بيض، يكون نحوا من مائة ذراع وعشرة أذرع على التقريب، ثم من بعد ذلك مثمن الشكل، مبنى بالحجر والجص نحو من نيف وستين ذراعا، وحواليه فضاء يدور فيه الإنسان وأعلاها مدور.

وكان أحمد بن طولون رم شيئا منها، وجعل فى أعلاه قبة من الخشب ليصعد إليها من داخلها، وهى مبسوطة مورية بغير درج وفى الجهة الشمالية من المنارة كتابة برصاص مدفون بقلم يوناني، طول كل حرف ذراع فى عرض شبر، ومقدارها على جهه الأرض نحو من مائة ذراع، وماء البحر قد بلغ أصلها.

وقد كان تهدم أحد أركانها الغربية مما يلى البحر، فبناها أبو الجيش خمارويه بن أحمد ابن طولون.

وبينها وبين مدينة الإسكندرية فى هذا الوقت نحو من ميل، وهى على طرف لسان من الأرض قد ركب البحر جنبتيه، وهى مبنية على فم مينا الإسكندرية، وليس بالمينا القديم. لأن القديم فى المدينة العتيقة لا ترسى فيه المراكب لبعده عن العمران. والمينا هو الموضع الذى ترسى فيه مراكب البحر.

وأهل الإسكندرية يخبرون عن أسلافهم أنهم شاهدوا بين المنارة وبين البحر نحوا مما بين المدينة والمنارة فى هذا الوقت، فغلب عليه ماء البحر فى المدة اليسيرة، وأن ذلك فى زيادة.

قال: وتهدم فى شهر رمضان سنة أربع وأربعين وثلاثمائة نحو من ثلاثين ذراعا من أعاليها بالزلزلة التى كانت ببلاد مصر وكثير من بلاد الشام والمغرب فى ساعة واحدة، على ما وردت به علينا الأخبار المتواترة ونحن بفسطاط مصر، وكانت عظيمة جدا مهولة فظيعة أقامت نحو نصف ساعة زمانية، وذلك لنصف يوم السبت لثمان عشرة ليلة خلت من هذا الشهر، وهو الخامس من كانون الآخر والتاسع من طوبة.

وكان لهذه المنارة مجمع فى يوم خميس العدس، يخرج سائر أهل الإسكندرية إلى المنارة من مساكنهم بمآكلهم - ولابد أن يكون فيها عدس - فيفتح باب المنار ويدخله الناس، فمنهم من يذكر الله، ومنهم من يصلي، ومنهم من يلهو ... ولا يزالون إلى نصف النهار ثم ينصرفون. ومن ذلك اليوم يحترس على البحر من هجوم العدو.

وكان فى المنارة قوم مرتبون لوقود النار طول الليل، فيقصد ركاب السفن تلك النار على بعد، فاذا رأى أهل المنار مايريبهم أشعلوا النار من جهة المدينة، فاذا رآها الحرس ضربوا الأبواق والأجراس، فيتحرك عند ذلك الناس لمحاربة العدو.

ويقال إن المنار كان بعيدا عن البحر، فلما كان فى أيام قسطنطين هاج البحر وغرق مواضع كثيرة وكنائس عديدة بمدينة الإسكندرية، ولم يزل يغلب عليها بعد ذلك ويأخذ منها شيئا بعد شيء.

وذكر بعضهم أنه قاسه فكان مائتى ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعا. وهى ثلاث طبقات: الطبقة الأولى مربعة، وهى مائة وإحدى وعشرون ذراعا ونصف ذراع. والطبقة الثانية مثمنة، وهى إحدى وثمانون ذراعا ونصف ذراع، والطبقة الثالثة مدورة، وهى إحدى وثلاثون ذراعا ونصف ذراع.

وذكر ابن جبير فى رحلته أن منار الإسكندرية يظهر على أزيد من سبعين ميلا، وأنه ذرع أحد جوانبه الأربعة فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة فأناف على خمسين ذراعا، وأن طول المنار أزيد من مائة وخمسين قامة. وفى أعلاه مسجد يتبرك الناس بالصلاة فيه.

وقال ابن عبد الحكم: ويقال إن الذى بنى منار الإسكندرية كلوباطرة الملكة، وهى التى ساقت خليجها حتى أدخلته الإسكندرية، ولم يكن يبلغها، إنما كان يعدل من قرية يقال لها كسا قبالة الكريون، فحفرته حتى أدخلته الإسكندرية، وهى التى بلطت قاعه.

ولما استولى أحمد بن طولون على الإسكندرية بنى فى أعلى المنار قبة من خشب فأخذتها الرياح.

وفى أيام الظاهر بيبرس تداعى بعض أركان المنار وسقط، فأمر ببناء ما انهدم منه فى سنة ثلاث وسبعين وستمائة، وبنى مكان هذه القبة مسجدا، وهدم فى ذى الحجة سنة اثنين وسبعمائة عند حدوث الزلزلة، ثم بنى فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة على يد الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وهو باق الى يومنا هذا.

ولله در الوجية الدروي. حيث يقول فى منار الإسكندرية:

وسامية الأرجاء تهدى أخا السري

ضياء إذا ما حندس الليل أظلمـا

لبست بها بردا من الأنـس صافيا

فكان بتذكار الأحبة معلـــــما

وقد ظللتنى من ذراهابقــبــة

ألاحظ فيها من صحــابى أنجما

فخيل أن البحر تحتى غمـــامة

وأنى قد خيمت فى كبــد السما

وقال ابن قلاقس من أبيات :

ومنزل جاوز الجـــوزاء مرتقيا

كأنما فيه للنســـــرين أوكار

راسى القرارة سامى الفرع فى يده

للنون والنور أخبار وأخــــبار

أطلقت فيه عنان النظم فاطـردت

خيل لها فى بديع الشعر مضمار

وقال الوزير أبو عبد الله محمد بن الحسن ابن عبد ربه :

لله در منـــار اســـكندرية كم

يســـمو إليه على بعد من الحدق

من شامخ الأنف فى عرنينه شمم

كأنه باهت فى دارة الأفــــق

للمنشـــآت الجوارى عند رؤيته

كموقع النـوم فى أجفان ذى أرق

وقال عمر بن أبى عمر الكندى فى فضائل مصر : ذكر أهل العلم أن المنارة كانت فى وسط الإسكندرية حتى غلب عليها البحر فصارت فى جوفه، ألا ترى الأبنية والأساسات فى البحر إلى الآن عيانا؟

وقال عبد الله بن عمرو : عجائب الدنيا أربعة : مرآة كانت معلقة بمنارة الإسكندرية، فكان يجلس الجالس تحتها فيرى من بالقسطنطينية، وبينهما عرض البحر... وذكر الثلاثة.

ذكر الملعب الذى كان بالإسكندرية وغيره من العجائب

قال القضاعي : ومن عجائب مصر الإسكندرية وما بها من العجائب ، فمن عجائبها المنارة والسوارى والملعب الذى كانوا يجتمعون فيه فى يوم من السنة ، ثم يرمون بأكرة فلا تقع فى حجر أحد إلا ملك مصر.

وحضر عيدا من أعيادهم عمرو بن العاص ، فوقعت الأكرة فى حجرة فملك البلد بعد ذلك فى الإسلام.

ثم حضر هذا الملعب ألف ألف من الناس ، فلا يكون فيهم أحد إلا وهو ينظر فى وجه صاحبه. ثم إن قرئ كتاب سمعوه جميعا ، أو لعب لون من اللعب رأوه عن آخرهم ، لا يتظالمون فيه بأكثر من مراتب العلية والسفلية.

وقال ابن عبد الحكم : فلما كانت سنة ثمان عشرة من الهجرة ، وقدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجابية ، خلا به عمرو بن العاص واستاذته فى المسير إلى مصر.

وكان عمرو قد دخل فى الجاهلية مصر وعرف طرقها ، ورأى كثرة ما فيها. وكان سبب دخوله إياها أنه قدم إلى بيت المقدس لتجارة فى نفر من قريش ، فإذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس فخرج فى بعض جبالها يسيح ، وكان عمرو يرعى إبله وإبل أصحابه ، وكانت رعية الأبل نوبا بينهم.

فبينا عمرو يرعى إبله ، إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر ، فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له ، فشرب حتى روى ونام الشماس مكانه ، وكانت إلى جنب الشماس حيث نام حفرة ، فخرجت منها حية عظيمة ، فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها.

فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد أنجاه الله منها ، فقال لعمرو : ما هذه ؟

فأخبره عمرو أنه رماها فقتلها، فأقبل إلى عمرو فقبل رأسه وقال: قد أحياني الله بك مرتين: مرة من شدة العطش، ومرة من هذه الحية، فما أقدمك هذه البلاد؟

قال: قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل فى تجارتنا.

فقال له الشماس: وكم تراك ترجو أن تصيب فى تجارتك؟

قال: رجائى أن أصيب ما أشترى به بعيرا، فإنى لا أملك إلا بعيرين، فآمل أن أصيب بعيرا آخر فتكون ثلاثة أبعرة.

فقال له الشماس: أرأيت دية أحدكم بينكم كم هي؟

قال: مائة من الأبل.

فقال له الشماس: لسنا أصحاب إبل، إنما نحن أصحاب دنانير؟

قال: تكون ألف دينار.

فقال له الشماس: إنى رجل غريب فى هذه البلاد، وإنما قدمت أصلى فى كنيسة بيت المقدس وأسيح فى هذه الجبال شهرا، جعلت ذلك نذرا على نفسي، وقد قضيت ذلك، وأنا أريد الرجوع إلى بلادي، فهل لك أن تتبعنى إلى بلادى ولك عليّ عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين، لأن الله عز وجل أحيانى بك مرتين؟

فقال له عمرو: أين بلادك؟

قال: مصر، فى مدينة يقال لها الإسكندرية.

قال له عمرو: لا أعرفها، ولم أدخلها قط.

فقال له الشماس: لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها.

فقال له عمرو: وتفى لى بما تقول، ولى عليك بذلك العهد والميثاق؟

فقال له الشماس: نعم، ولك والله على العهد والميثاق أن أفى لك، وأن أردك إلى أصحابك.

فقال له عمرو ـ كم يكون مكثى فى ذلك؟

قال : شهرا، تنطلق معى ذاهبا عشرا، وتقيم عندنا عشرا، وترجع فى عشر. ولك على أن أحفظك ذاهبا، وأن أبعث معك من يحفظك راجعا.

فقال له عمرو: أنظرنى حتى أشاور أصحابى فى ذلك.

فانطلق عمرو إلى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس، وقال لهم تقيمون على حتى أرجع إليكم، ولكم على العهد أن أعطيكم شطر ذلك، على أن يصحبنى رجل منكم آنس به.

فقالوا: نعم، وبعثوا معه رجلا منهم.

فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس، حتى انتهوا إلى مصر، فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها، وما بها من الأموال والخير ما أعجبه، فقال عمرو للشماس: ما رأيت مثل ذلك.

ومضى إلى الإسكندرية، فنظر عمرو إلى كثرة ما فيها من الأموال والعمارة، وجودة بنائها وكثرة أهلها، فازداد عجبا. ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيدا فيها عظيما يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم، ولهم كرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكمامهم، وفيما أختبروا من تلك الكرة ـ على ما وصفها من مضى منهم ـ أنها من وقعت الكرة فى كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم.

فلما قدم عمرو الإسكندرية أكرمه الشماس الأكرام كله، وكساه ثوب ديباج ألبسه أياه. وجلس عمرو والشماس مع الناس فى ذلك المجلس، حيث يترامون بالكرة وهم يتلقونها بأكمامهم، فرمى بها رجل منهم، فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو، فعجبوا من ذلك، وقالوا: ما كذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة. أترى هذا الأعرابى يملكنا؟ هذا ما لا يكون أبدا.

وإن ذلك الشماس مشى فى أهل الإسكندرية، وأعلمهم أن عمرا أحياه مرتين، وأنه قد ضمن له ألفى دينار، وسألهم أن يجمعوا ذلك له فيما بينهم، ففعلوا ودفعوها إلى عمرو.

فانطلق عمرو وصاحبه، وبعث معهما الشماس دليلا ورسولا، وزودهما وأكرمهما حتى رجع هو وصاحبه إلى أصحابهما... فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها، ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها أموالا.

فلما رجع عمرو إلى أصحابه، دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار، وأمسك لنفسه ألفا.

قال عمرو: وكان أول مال اعتقدته وتأثلته.

ذكر عمود السوارى

هذا العمود حجر أحمر منقط، وهو من الصوان الماتع، كان حوله نحو أربعمائة عمود كسرها قراجا - وإلى الإسكندرية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب - ورماها بشاطئ البحر ليوعر على العدو سلوكه إذا قدموا.

ويذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق أرسطاطاليس الذى كان يدرس به الحكمة، وأنه كان دار علم، وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص بإشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

ويقال إن ارتفاع هذا العمود سبعون ذراعا، وقطره خمسة أذرع.

وذكر بعضهم أن طوله بقاعدتيه إثنان وستون ذراعا وسدس ذراع، وهو على نشز طوله ثلاثة وعشرون ذراعا ونصف ذراع، فجملة ذلك خمسة وثمانون ذراعا وثلثا ذراع، وطول قاعدته السفلى اثنا عشر ذراعا، وطول القاعدة العليا سبعة أذرع ونصف.

قال المسعودي: وفى الجانب الغربى من صعيد مصر جبل رخام عظيم، كانت الأوائل تقطع منه العمد وغيرها، وكانوا يحملون ما عملوا بعد النقر.

فأما العمد والقواعد والرؤوس التى يسميها أهل مصر الأسوانية - ومنها حجارة الطواحين - فتلك نقرها الأولون قبل حدوث النصرانية بمائتين من السنين، ومنها العمد التى بالإسكندرية، والعمود بها الضخم الكبير لا يعلم بالعالم عمود مثله.

وقد رأيت فى جبل أسوان أخا هذا العمود وقد هندس ونقر، ولم يفصل من الجبل، ولم يحمل ما ظهر منه، وإنما كانوا ينتظرون به أن يفصل من الجبل، ثم يحمل إلى حيث يريد القوم... انتهى .

وكان بالإسكندرية من العمد العظام، وأنواع الحجارة والرخام الذى لا تنتقل القطعة منه إلا بألوف من الناس، وقد علقت بين السماء والأرض على فوق المائة ذراع، وفوق رؤوس أساطين. دائر الإسطوانة ما بين الخمسة عشر ذراعا فى عشرة أذرع فى سمك عشرة أذرع، بغرائب الألوان.

وكان بالإسكندرية قصر عظيم لا نظير له فى معمور الأرض، على ربوة عظيمة بإزاء باب البلد، وطوله خمسمائة ذراع، وعرضة على النصف من ذلك، وبابه من أعظم بناء وأتقنه، كل عضادة منه حجر واحد، وعتبته حجر واحد.

وكان فيه نحو مائة إسطوانة، وبإزائه إسطوانة عظيمة لم يسمع بمثلها، غلظها ستة وثلاثون شبرا، وعلوها بحيث لا يدرك أعلاها قاذف حجر، وعليها رأس محكم الصناعة يدل على أنه كان فوق ذلك بناء، وتحتها قاعدة حجر أحمر محكم الصناعة، عرض كل ضلع منه عشرون شبرا فى ارتفاع ثمانية أشبار.

والإسطوانة منزلة فى عمود من حديد قد خرقت به الأرض، فإذا اشتدت الرياح رأيتها تتحرك، وربما وضع تحتها الحجارة فطحنتها لشدة حركتها.

وكنت هذه الإسطوانة إحدى عجائب الدنيا. وقد زعم قوم أنها مما عملة الجن لسليمان بن داود عليهما السلام، كما هى عادتهم فى نسبة كل ما يستعظمون عمله إلى أنه من صنيع الجن، وليس كذلك، بل كانت مما عمله القدماء من أهل مصر.

وكان فى وسطه قبة، ومن حولها أساطين، وعلى الجميع قبة من حجر واحد رخام أبيض كأحسن ما أنت راء من الصنائع.

ويقال إن بعض ملوك مصر دخل الإسكندرية، فأعجبه هذا القصر وأراد أن يبنى مثله، فجمع الصناع والمهندسين ليقيموا له قصرا عظيما على هيئته، فما منهم إلا من اعترف بعجزه عن مثله، إلا شيخا منهم فإنه التزم أن يصنع مثله.

فسر الملك ذلك، وأذن له فى طلب ما يحتاج إليه من المؤن والآلات والرجال.

فقال: ائتونى بثورين مطيقين، وعجله كبير... فللحال أتى بذلك.

فمضى إلى المقابر القديمة، وحفر منها قبرا أخرج منه جمجمة عظيمة، رفعها عدة من الرجال على عجلة، فما جرها الثوران، مع قوتهما، إلا بعد جهد وعناء.

فلما وقف بها بين يدى الملك، قال: أصلح الله سيدنا، أن أتيتنى بقوم رؤوسهم مثل هذا الرأس، عملت لك مثل هذا القصر.

فتيقن الملك عند ذلك عجز أهل زمانه عن إقامة مثل ذلك القصر.

وقد ذكر أنه كان بالإسكندرية ضرس إنسان، عند قصاب يزن به اللحم، زنته ثمانية أرطال.

ويقال أن عمود السواري، الموجود الآن خارج مدينة الإسكندرية، أحد سبعة أعمدة أتى بأحدها البتون بن مرة العادي، وهو يحمله تحت أبطه، من جبل بريم الأحمر قبلى أسوان، إلى الإسكندرية، فإنكسر ضلعه لأنه كان ضعيف القوى فى قومه.

فشق ذلك على يعمر بن شداد بن عاد، وقال: ليتنى فديته بنصف ملكي.

وجاء بعمود آخر جحدر بن سنان الثمودى ـ وكان قويا ـ فحمله من أسوان تحت إبطه وجاء بقية رجالهم، كل رجل بعمود، فأقام العمد السبعة الجاورد بن قطن المؤتفكى ـ وكان بناءها ـ بعد أن أختاروا لها طالعا سعيدا كما هى عادتهم فى عامة أعمالهم.

وقد ذكر غير واحد أن الصخور، فى القديم من الدهر، كانت تلين، فعمل منها أعمدة ناعط ومأرب وبينون ومأثر اليمن، وأعمدة دمشق ومصر ومدين وتدمر، وأن كل شئ كان يتكلم.

قال أمية بن الصلت:

وإذ هم لا لبوس لهم عراة

وإذ صخر السلام لهم رطاب

وقال قوم: عمود السوارى من جملة أعمدة كانت تحمل رواقا يقال له بيت الحكمة، وذلك حيث انتهت علوم أهل الغرب إلى خمس فرق وهم: أصحاب الرواق هذا، وأصحاب الإسطوانة وكانوا ببعلبك، وأصحاب البرابى وكانوا بصعيد مصر، والمشاءون وكانوا بمقدونية.

وكأنى بمن قل علمه ينكر على إيراد هذا الفصل، ويراه من قبيل المحال ومما وضعه القصاص، ويجزم بكذبه... فلا يوحشنك حكايتى له، واسمع قول اللّه تعالى عن عاد قوم هود: ﴿**واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح، وزادكم فى الخلق بسطة**﴾(٣٠١)، أى طولا وعظم جسم.

قال عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما: كان أطولهم مائة ذراع، وأقصرهم ستين ذراعا. وهذه الزيادة كانت على خلق آبائهم، وقيل على خلق قوم نوح.

وقال وهب بن منبه: كان رأس أحدهم مثل قبة عظيمة، وكانت عين الرجل منهم تفرخ فيها السباع، وكذلك مناخرهم.

وروى شهر بن حوشب، عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أنه قال: إن كان الرجل من قوم عاد ليحمل المصراعين، لو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يطيقوه. وإن كان أحدهم ليغمز بقدمه الأرض فيدخل فيها.

وروى عبد اللّه بن لهيعة، عن يزيد بن عمرو المعافري، عن ابن بجرة قال: أستظل سبعون رجلا من قوم موسى عليه السلام فى قحف رجل من العماليق.

وعن زيد بن أسلم: بلغنى أن الضبعة وأولادها ربين فى حجاب عين رجل من العماليق.

وقال تعالى: ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التى لم يخلق مثلها فى البلاد**﴾(٣٠٢).

قال المبرد: وقولها (يعنى الخنساء): رفيع العماد، إنما تريد الطول. ويقال رجل معمد: يريد طويلا، ومنه قوله تعالى: «إرم ذات العماد»، أى الطوال.

---

(٣٠١) ٦٩ك الأعراف ٧.
(٣٠٢) ٦، ٧، ٨ك الفجر ٨٩.

وقال البغوي(٣٠٣) : سموا ذات العماد، لأنهم كانوا أهل عمد سيارة. وهو قول قتادة ومجاهد والكلبي، ورواية عطاء عن ابن عباس.

وقال بعضهم: سموا ذات العماد، لطول قاماتهم. قال ابن عباس: يعنى طولهم مثل العماد.

قال مقاتل: كان طول أحدهم أثنى عشر ذراعا.

وفى «كشاف» الزمخشري: لم يخلق مثلها (مثل عاد) فى البلاد عظم أجرام وقوة، كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع، وكان يأتى الصخرة العظيمة فيحملها فيلقيها على الحى فيهلكهم.

وقد ذكر غير واحد أنه وجد فى خلافة المقتدر بالله، أبى الفضل جعفر بن المعتضد، كنز بمصر فيه ضلع إنسان، طوله أربعة عشر شبرا فى عرض ثلاثة أشبار.

واعلم أن أعين بنى آدم ضيقة، وقد نشأت نفوسهم فى محل صغير، فإذا حدث القوم بما يتجاوز مقدار عقولهم أو مبلغ أجسامهم ـ مما ليس له عندهم أصل يقيسونه عليه إلا ما يشاهدونه أو يألفونه ـ عجلوا إلى الارتياب فيه، وسارعوا إلى الشك فى الخبر عنه، إلا من كان معه علم وفهم، فإنه يفحص عما يبلغه من ذلك حتى يجد دليلا على قبوله أو رده.

وكيف يرد مثل هذه الأخبار، وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**خلق الله آدم طوله ستون ذراعا فى السماء، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن**».

وذكر محمد بن عبدالرحيم بن سليمان بن ربيع القيسى الغرناطي(٣٠٤) فى كتاب «تحفة الألباب» قال: نقل الشعبى فى كتاب «سير الملوك» أن الضحاك بن علوان لما هرب منه لام بن عامر إلى ناحية الشمال، أرسل فى طلبه أميرين، مع كل أمير طائفة من الجبارين،

---

(٣٠٣) هو الحسين بن مسعود بن محمد الفرّاء أو ابن الفراء أبو محمد. ويلقب بمحيي السنة البغوي. ولد سنة ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م ومات سنة ٥١٠هـ/ ١١١٧م.
أنظر: وفيات الأعيان ١/ ١٤٥.

(٣٠٤) هو محمد بن عبدالرحيم بن سليمان أبو عبدالله وأبو حامد بن أبى الربيع المازنى القيسى الأندلسي الغرناطي، ولد سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م ومات سنة ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م.
أنظر: الوافى بالوفيات ٣/ ٢٤٥، آداب اللغة ٣/ ٨٦.

خرج أحدهما قاصدا إلى بلغار، والآخر إلى باشقرد فأقام أولئك الجبارون فى أرض بلغار وفى باشقرد.

قال الإقليشي: وقد رأيت صورهم فى باشقرد، ورأيت قبورهم بها، فكان مما رأيته ثنية أحدهم، طولها أربعة أشبار وعرضها شبران، وقد كان عندى فى باشقرد نصف أصل الثنية، أخرجت لى من فكه الأسفل فكان عرضها شبرا، ووزنها ألف مثقال ومائتا مثقال، أنا وزنتها بيدي، وهى الآن فى دارى فى باشقرد، وكان دور فك ذلك العادى سبعة عشر ذراعا.

وفى بيت بعض أصحابى فى باشقرد عضد أحدهم، طوله ثمانية وعشرون ذراعا، وأضلاعه كل ضلع ثلاثة أشبار وأكثر كاللوح الرخام، وأخرج إليّ نصف رسغ يد أحدهم، فكنت لا أقدر أن أرفعه بيد واحدة حتى أرفعه بيدى جميعها.

قال: ولقد رأيت فى بلد بلغار، سنة ثلاثين وخمسمائة، من نسل العاديين رجلا طوالا، كان طوله أكثر من سبعة أذرع، وكان يسمى دنقي، وكان يأخذ الفرس تحت أبطه كما يأخذ الإنسان الطفل الصغير، وكان إذا وقع القتال بتلك الناحية يقاتل بشجرة من شجر البلوط: يمسكها كالعصا فى يده، لو ضرب بها الفيل قتله. وكان خيرا متواضعا، كلما التقانى سلم على ورحب بى وأكرمني، وكان رأسى لا يصل إلى حقوه.

وكانت له أخت على طوله، رأيتها فى بلغار مرارا عدة، قال لى القاضى يعقوب بن النعمان (يعنى قاضى بلغار): إن هذه المرأة الطويلة العادية قتلت زوجها، وكان إسمه آدم، وكان من أقوى أهل بلغار، ضمته إلى صدرها فكسرت أضلاعه، فمات من ساعته.

قال: ولم يكن فى بلغار حمام تسعهم إلا حمام واحدة واسعة الأبواب... انتهي.

وقد حدثنى الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد الفريابي، عن أبيه، أنه شاهد قبرا أحتفر بمدينة قرطاجنة من أفريقية، فإذا جثة رجل قدر عظم رأسه كثورين عظيمين، ووجد معه لوح مكتوب بالقلم المسند، وهو قلم عاد وحروفه مقطعه، ما نصه:

«أنا كوش بن كنعان ابن الملوك من آل عاد. ملكت بهذه الأرض ألف مدينة، وبنيت بها على ألف بكر، وركبت من الخيل العتاق سبعة آلاف حمر وصفر وشهب وبيض ودهم، ثم

لم يغن عني ذلك شيئا، وجاءني صائح فصاح بي صيحة أخرجتني من الدنيا، فمن كان عاقلا ممن جاء بعدي فليعتبر بي، وأنشد:

ياواقفــا يرعــى الســـها
برســـم ربــع قــد وهى
قف واســـتمع ثــم اعتــبر
إن كنت من أهـــل النــهى
بالأمـــس كنــا فوقهـــا
واليـــوم صـــرنا تحتهـــا
لكــل حـــد غـــايـــة
لكـــل أمـــر منتــهى

قال: فأمر السلطان أبو بكر بن يحيي الحفصى صاحب تونس بطمه، فطم القبر.

قال مؤلفه رحمه الله تعالى: وأنا أدركت شيئا من ذلك، وهو أنه ترافع فى بعض الأيام طائفة من الحجارين إلى السلطان الملك الظاهر برقوق أعوام بضع وتسعين وسبعمائة، وقد اختلفوا على مال وجدوه بجبل المقطم...

وهو أنهم كانوا يقطعون الحجارة من مغار فيما يلى قلعة الجبل من بحريها، فانكشف لهم حجر أسود عليه كتابة، فاجتمعوا على قطع ما بين هذا الحجر طمعا فى وجود مال، فانتهى بهم القطع إلى عمود عظيم قائم فى قلب الجبل، فلعجلتهم أقبلوا بمعاولهم عليه حتى تكسر قطعا، فإذا هو مجوف وإنسان قائم على قدميه بطوله، وتناثر لهم من جهة رأسه دنانير كثيرة فاقتسموها وتنافسوا فى قسمتها، واختلفوا حتى اشتهر أمرهم وترافعوا إلى السلطان.

فبعث من كشف المغار، فوجد الحجر والعمود وقد تكسر، فأخذ منهم ما وجد بأيديهم من الدنانير، ولم يجد من يعرف ما قد كتب على الحجر.

وتسامع الناس بالخبر، فأقبلوا إلى المغار وعبثوا برمة الميت.

فأخبرني من شاهد سنا من أسنان هذا الميت أنها سوداء بقدر الباذنجانة، وأن عظم ساقة فيما بين قدمه إلى ركبته خمسة أذرع، فيجيء من هذا حساب طوله عشرين ذراعا وأزيد، ودماغ سن وأحدة من أسنانة فى قدر الباذنجانة ما هو إلا كالقبة الكبيرة.

وأخبرني السيد الشريف، قاضي القضاة بدمشق، شهاب الدين أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني، المعروف بابن عدنان وبابن أبي الجن، أنه وقف في سنة أربع عشرة وثمانمائة، بمقبرة باب الصغير من دمشق، على قبر ليدفن فيه ميت لهم، فلما تهيأ القبر ولم يبق إلا أن يدلى فيه الميت، انخسف وخرج من الخسف ذباب كثير كبار زرق الألوان حتى كادت تظلهم فنزل الحفار فى الخسف، فإذا قبر طوله اثنان وعشرون ذراعا، وفيه بطوله ميت قد صار كالرماد.

وأخبرني أيضا أنه شاهد بهذه المقبرة ضرس إنسان وله ثلاث شعب وقد سقطت منه قطعة، وهو في قدر البطيخة، وأنه وزن بحضرته فبلغ رطلين وتسع أواق بالرطل الشامي، وأن القطعة التى انكسرت منه نحو أوقيتين بالشامي. فيكون على هذا زنة هذا الضرس نحو اثنى عشر رطلا بالمصري. والله تعالى أعلم.

ذكر طرف مما قيل في الإسكندرية

قال أبو عمرو الكندي: أجمع الناس أنه ليس فى الدنيا مدينة على ثلاث طبقات غير الإسكندرية.

ولما دخل عبد العزيز بن مروان الإسكندرية سأل رجلا من علماء الروم عنها وعن عدد أهلها.

فقال: والله أيها الأمير ما أدرك علم هذا أحد من الملوك، والذى أخبرك كم كان فيها من اليهود، فإن ملك الروم أمر بإحصائهم فكانوا ستمائة ألف.

قال: فما هذا الخراب الذى فى أطرافها؟

قال: بلغنى عن بعض ملوك فارس، حين ملكوا مصر، أنه أمر بفرض دينار على كل محتلم لعمران الإسكندرية، فأتاه كبراء أهلها وعلماؤهم وقالوا: أيها الملك لا تتعب، فإن الإسكندرية أقام الإسكندر على بنائها ثلاثمائة سنة، وعمرت ثلاثمائة سنة. ولقد أقام أهلها سبعين سنة لا يمشون فيها نهارا إلا بخرق سود فى أيديهم، خوفا على أبصارهم من شدة بياضها.

ومن فضائلها ما قاله بعض المفسرين من أهل العلم أنها المدينة التى وصفها الله عز وجل فى كتابة العزيز فقال: ﴿ **إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾(*) .

وقال أحمد بن صالح: قال لى سفيان بن عيينة: يا مصرى أين تسكن؟

قلت: أسكن الفسطاط.

فقال: أتأتى الإسكندرية؟

قلت: نعم.

قال: تلك كنانة الله، يجعل فيها خيار سهامه.

وقال عبد الله بن مرزوق الصدفي: لما نعى لى ابن عمى خال بن يزيد ـ وكان قد توفى بالإسكندرية ـ لقينى موسى بن على بن رباح وعبد الله بن لهيعة والليث بن سعد متفرقين، كلهم يقول: أليس مات بالإسكندرية؟

فأقول: نعم.

فيقولون: هو حى عند اله يرزق، ويجرى عليه أجر رباطه ما أقامت الدنيا، وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك.

وقال الذين ينظرون فى الأهوية والبلدان وترتب الأقاليم والأمصار: إنه لم تطل أعمار الناس فى بلد من البلدان طولها بمربوط من كورة الإسكندرية ووادى فرغانة.

(*) ٧، ٨ ك الفجر ٨٩.

وقال الحسن بن صفوان: وأما الإسكندرية وتنيس وأمثالهما: فقربها من البحر، وسكون الحرارة والبرد عندهم، وظهور ريح الصبا فيهم، مما يصلح أمرهم، ويرق طباعهم، ويرفع همتهم، وليس يعرض لهم ما يعرض لأهل اليشمون من غلظ الطبع والحمارية.

وقد وصف أهل الإسكندرية بالبخل... قال جلال الدين بن مكرم بن أبى الحسن بن أحمد الخزرجى ملك الحفاظ:

نزيل سكندرية ليس يقري

بغير الماء أو نعت السواري

ويتحف حين يكرم بالهواء الـ

ملاتن والأشارة للمنار

وذكر البحر والأمواج فيه

ووصف مراكب الروم الكبار

فلا يطمع نزيلهم بخبز

فما فيها لذاك الحرف قاري

وقال أحمد بن خرداذبة: من الفسطاط إلى ذوات الساحل أربعة وعشرون ميلا، ثم إلى مربوط ثلاثون ميلا، ثم إلى كوم شريك ثلاثون ميلا، ثم إلى كريون أربعة وعشرون ميلا، ثم إلى الإسكندرية أربعة وعشرون ميلا.

وقال آخر: وطريق الإسكندرية إذا نضب ماء النيل يأخذ بين المدائن والضياع. وذلك إذا أخذت من شطنوف إلى سبك العبيد، فهو منزل فيه منية لطيفة، وبينهما أثنا عشر سقسا.

ومن سبك إلى مدينة منوف- وهى كبيرة فيها حمامات وأسواق، وبها قوم فيهم يسار ووجوه من الناس- وبينهما ستة عشر سقسا.

ومن منوف إلى محله صرد- وفيها منبر وحمام وفنادق وسوق صالح- ستة عشر سقسا.

ومن محله صرد إلى سخا - وهى مدينة كبيرة ذات حمامات وأسواق وعمل واسع، وإقليم جليل له عامل بعسكر وجند، وبه الكتان الكثير وزيت الفجل وقموح عظيمة - ستة عشر سقسا.

ومن سخا إلى شبركمية - وهى مدينة كبيرة بها جامع وأسواق - ستة عشر سقسا.

ومن بركمية إلى مسير - وهى مدينة بها جامع وأسواق - ستة عشر سقسا.

ومن مسير إلى سنهور - وهى مدينة ذات إقليم كبير، وبها حمامات وأسواق وعمل كبير - ستة عشر سقسا.

ومن سنهور إلى النخوم - وهى إقليم، وبها حمامات وفنادق وأسواق - ستة عشر سقسا.

ومن النخوم إلى سترو - وكانت مدينة عظيمة حسنة على بحيرة اليشمون - عشرون سقسا.

ومن نسترو إلى البرلس - وهى مدينة كثيرة الصيد فى البحيرة، وبها حمامات - عشر سقسات.

ومن البرلس إلى إخنا - وهى حصن على شط بحر الملح - عشر سقسات.

ومن إخنا إلى رشيد - وهى مدينة على النيل، ومنها يصب النيل فى البحر من فوهة تعرف بالأشتوم وهى المدخل - ثلاثون سقساً. وكان بها أسواق صالحة وحمام، وبها نخيل وضريبة على ما يحمل من الإسكندرية.

وهذا الطريق، الآخذ من شطنوف إلى رشيد، ربما امتنع سلوكه عند زيادة النيل.

والثياب المنسوجة بالإسكندرية لا نظير لها، وتحمل فى أقطار الأرض وفى ثياب الإسكندرية ما يباع الكتان منه، إذا عمل ثياباً يقال لها الشرب، كان زنة درهم بدرهم فضة، وما يدخل فى الطرز فيباع بنظير وزنه مرات عديدة.

ذكر فتح الإسكندرية

قال أبو عمرو الكندى : لما حاز المسلمون الحصن بما فيه، أجمع عمرو على المسير إلى الإسكندرية، فسار إليها فى ربيع الأول سنة عشرين.

وقال غيره : بل سار فى جمادى الآخرة منها.

وذكر سيف بن عمر أن عمرو بن العاص بعث إلى الإسكندرية، وهو على عين شمس، عوف بن مالك، فنزل عليها وبعث يقول لأهلها : إن شئتم أن تنزلوا فلكم الأمان، فقالوا : نعم. فراسلهم وتربصوا أهل عين شمس، وسار المسلمون من بين ذلك.

وقال ابن عبد الحكم (ويقال إن المقوقس إنما صالح عمرو بن العاص) : لما فتح الإسكندرية حاصر أهلها ثلاثة أشهر، وألح عليهم فخافوه، وسأله المقوقس الصلح عنهم كما صالحه على القبط، على أن يستنظر رأى الملك.

فحدثنا يزيد بن أبى حبيب أن المقوقس الرومي، الذى كان ملكاً على مصر، صالح عمرو ابن العاص على أن يسير من أراد من الروم المسير، ويقر من أراد من الروم على أمر قد سماه.

فبلغ ذلك هرقل ملك الروم، فسخط أشد السخط، وأنكر أشد الإنكار، وبعث الجيوش فأغلقوا أبواب الإسكندرية، وآذنوا عمرا بالحرب.

فخرج إليه المقوقس فقال : أسألك ثلاثا.

قال : ما هن ؟

قال : لا تبذل للروم ما بذلت لي، فإنى قد نصحت لهم فاستغشوني، ولا تنقض القبط فإن النقض لم يأت من قبلهم، وأن تأمر بى إذا مت فادفنى فى بخنس.

فقال عمرو : هذه أهونهن علينا.

قال : فخرج عمرو بالمسلمين حين أمكنهم الخروج، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط، وقد أصلحوا لهم الطرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم.

وسمعت بذلك الروم فاستعدت واستجاشت وقدمت عليهم مراكب من أرض الروم فيها جمع عظيم من الروم بالعدة والسلاح، فخرج إليهم عمرو من الفسطاط متوجهاً إلى الإسكندرية، فلم ير منهم أحداً، حتى بلغ مربوط فلقى فيها طائفة من الروم، فقاتلهم قتالاً خفيفاً فهزمهم الله.

ومضى عمرو بمن معه حتى لقى جمع الروم بكوم شريك، فاقتتلوا ثلاثة أيام، ثم فتح الله على المسلمين، وولى الروم أكتافهم.

ويقال بل أرسل عمرو بن العاص شريك بن سمى فى آثارهم، فأدركهم عند الكوم الذى يقال له كوم شريك، فهزمهم، وكان على مقدمه عمرو - وعمرو بمربوط - فألجأوه الى الكوم فاعتصم به، وأحاطت به الروم.

فلما رأى ذلك شريك بن سمى أمر أبا ناعمة مالك بن ناعمة الصدفى - وهو صاحب الفرس الأشقر الذى يقال له أشقر صدف، وكان لا يجارى سرعة - فانحط عليهم من الكوم، وطلبته الروم فلم تدركه، حتى أتى عمراً فأخبره.

فأقبل عمرو متوجهاً، وسمعت به الروم فانصرفت، ثم التقوا بسلطيس فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم هزمهم اللّه تعالي، ثم التقوا بالكريون فاقتتلوا بها بضعة عشر يوماً.

وكان عبد اللّه بن عمرو على المقدمة، وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو، فأصابت عبد اللّه بن عمرو جراحات كثيرة فقال : ياوردان لو تقهقرت قليلاً نصيب الروح.

فقال وردان : الروح تريد؟ الروح أمامك وليس خلفك.

فتقدم عبد اللّه، فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه، فقال :

أقول لها إذا جشأت وجاشت

رويدك تحمدى أو تستريحي

وهذا البيت لعمرو بن الأطنابة، وهو أن رجلاً من بنى النجار كان مجاوراً لمعاذ بن النعمان فقتل، فقال معاذ: لا أقتل به إلا عمراً بن الأطنابة، وهو يومئذ أشرف الخزرج، فقال عمرو :

ألا مــن مبلــغ الأكفــاء عني
وقد تهدى النصــيحة للنصيح

بأنكــم وما تزجون شـــطري
من القـــول المرغى والصريح

ســيقدم بعضكم عجـلاً عليه
وما أثر اللسان إلى الجـــروح

أبت لــي عفتي وأبى بلائي
وأخذي الحمد بالثمــن الربيح

وإعطائي على المكـــروه مالي
وأقدامي على البطـــل المشيح

وقولي كما جشأت وجاشــت
مكانك تحمي أو تســـتريحي

لأدفع عن مآثر صالحـــات
وأحمي بعد عن عرض صحيح

بذي شطب كلون الملح صـاف
ونفس لم تقر علـــى القبيـــح

الشطب : سعف النخل الأخضر، الواحدة شطبة. وجشأت : ارتفعت من حزن أو فزع، وجاشت : دارت للغثيان، وقيل هما بمعنى ارتفع. والمشيح : البارد المنكمش.

فرجع الرسول إلى عمرو فأخبره بما قال، فقال عمرو : هو ابني حقاً.. وصلى عمرو يومئذ صلاة الخوف.

ثم فتح اللّه للمسلمين، وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة، وأتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية. فتحصن بها الروم ـ وكان عليها حصون متينة لاترام.. حصن دون حصن ـ فنزل

المسلمون ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما أحتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة، فأقاموا شهرين.

ثم تحول، فخرجت عليه خيل من ناحية البحيرة مستترة بالحصن، فواقعوه، فقتل يومئذ من المسلمين أثنا عشر رجلاً... ورسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية فى المراكب بمادة الروم.

وكان ملك الروم يقول : لئن ظهرت العرب على الإسكندرية، ففى ذلك انقطاع الروم وهلاكهم، لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية.

وإنما كان عيد الروم - حين غلبت العرب على الشام - بالإسكندرية. فقال الملك : لئن غلبونا على الإسكنردية هلكت الروم وانقطع ملكها.

فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه إلى الإسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه. فلما فرغ من جهازه، صرعه الله عز وجل فأماته، وكفى المسلمين مؤنته وكان موته فى سنة تسع عشرة، فكسر الله بموته شوكة الروم، فرجع جمع كثير ممن كان قد توجه.

وقال الليث : مات هرقل فى سنة عشرين، وفيها فتحت قيسارية الشام.

قال : واستأسدت العرب عند ذلك، وألحت بالقتال على أهل الإسكندرية، فقاتلوهم قتالاً شديداً، وخرج طرف من الروم من باب حصن الإسكندرية، فحملوا على الناس فقتلوا رجلاً من مهرة، واحتزوا رأسه ومضوا به، فجعل المهريون يتغضبون ويقولون: لا ندفنه إلا برأسه.

فقال عمرو : تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يبالى بغضبكم، احملوا على القوم إذا خرجوا فاقتلوا منهم رجلاً، ثم أرموا برأسه يرمونكم برأس صاحبكم.

فخرجت الروم إليهم فاقتتلوا. فقتل من الروم رجل من بطارقتهم، فاحتزوا رأسه ورموا به الروم، فرمت الروم برأس المهرى اليهم، فقال : دونكم الآن فادفنوا صاحبكم.

وكان عمرو يقول : ثلاث قبائل من مصر : أما مهرة فقوم يقتلون ولا يقتلون، وأما عافق فقوم يقتلون ولا يقتلون، وأما بلى فأكثرها رجلاً صحب النبى ﷺ، وأفضلها فارساً.

وقال رجل لعمرو : لو جعلت المنجنيق ورميتهم به لهدم حائطهم.

فقال عمرو : تستطيع أن يفنى مقامك من الصف.

وقيل له : إن العدو قد غشوك ، ونحن نخاف على رايطة (يريدون أمرأته).

فقال : إذن يتخذوا أرياطاً كثيرة.

ولما استبحر القتال بارز رجل من الروم مسلمة بن مخلد، فصرعه الرومى وألقاه عن فرسه ، وهوى إليه ليقتله حتى حماه رجلاً من أصحابه ـ وكان مسلمة لا يقاوم ولكنها مقادير ـ ففرحت بذلك الروم ، وشق على المسلمين.

وغضب عمرو بن العاص لذلك ، وكان مسلمة كثير اللحم ثقيل البدن ، فقال عمرو عند ذلك : ما بال الرجل الستة الذى يشبه النساء ، يتعرض مداخل الرجال ويتشبه بهم. فغضب من ذلك مسلمه ولم يركب.

ثم أشتد القتال حتى اقتحموا حصن الإسكندرية ، فقاتلهم العرب فى الحصن ، ثم جاشت عليهم الروم حتى أخرجوهم جميعاً من الحصن ، إلا أربعة نفر تفرقوا فى الحصن ، وأغلقوا عليهم باب الحصن... أحدهم عمرو بن العاص ، والآخر مسلمة ، ولم نحفظ الآخرين ، وحالو بينهم وبين أصحابهم ، ولا يدرى الروم من هم.

فلما رأى ذلك عمرو بن العاص وأصحابه ، التجأوا إلى ديماس من حماماتهم ، فدخلوا فيه فاحترزوا به.

فأمروا رومياً أن يكلمهم بالعربية ، فقال لهم : إنكم قد صرتم بأيدينا أساري ، فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم.. فامتنعو عليه.

ثم قال لهم. إن فى أيدى أصحابكم منا رجالاً أسروهم ، ونحن نعطيكم العهود نفادى بكم أصحابنا ولا نقتلكم.. فأبوا عليه.

فلما رأى ذلك الرومى منهم قال لهم : هل بكم إلى خصلة وهى نصف ، فإن غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم ، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خلينا سبيلكم إلى أصحابكم.

فرضوا بذلك، وتعاهدوا عليه، وعمرو ومسلمه وصاحباهما فى الحصن فى الديماس.

فتداعوا إلى البراز، فبرز رجل من الروم- وقد وثقت الروم بنجدته وشدته- وقالوا : يبرز رجل منكم لصاحبنا.

فأراد عمرو أن يبرز، فمنعه مسلمه وقال : ما هذا؟ تخطىء مرتين : تشذ من أصحابك وأنت أمير، وإنما قوامهم بك وقلوبهم معلقة نحوك، لا يدرون ما أمرك ولا ترضى حتى تبارز وتتعرض للقتل، فإن قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك . مكانك وأنا أكفيك أن شاء الله تعالى.

فقال عمرو : دونك فربما فرجها اللّه بك.

فبرز مسلمة للرومي، فتجاولا ساعة، ثم أعانه اللّه عليه فقتله.

فكر مسلمة وأصحابه، ووفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه، ففتحوا لهم باب الحصن فخرجوا، ولا تدرى الروم أن أمير القوم فيهم حتى بلغهم بعد ذلك فأسفوا على ذلك، وأكلوا أيديهم تغيظاً على ما فاتهم.

فلما خرجوا استحيا عمرو مما كان قال لمسلمة حين غضب، فقال عمرو عند ذلك : استغفر لى ما كنت قلت لك.. فاستغفر له.

وقال عمرو، ما أفحشت قط إلا ثلاث مرار : مرتين فى الجاهلية، وهذه الثالثة، وما منهن مرة إلا وقد ندمت، وما استحييت من واحدة منهن أشد مما استحييت مما قلت لك. ووالله إنى لأرجو ألا أعود إلى الرابعة ما بقيت.

قال : وأقام عمرو محاصر الإسكندرية أشهراً.

فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه قال : ما أبطأوا بالفتح إلا لما أحدثوا. وكتب إلى عمرو بن العاص :

« أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلونهم منذ سنين، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، فإن اللّه تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم...

« وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقاوم ألف رجل على ما كنت أعرف، إلا أن يكونوا غيَّرهم ما غيَّر غيرهم...

« فإذا أتاك كتابي هذا، فاخطب الناس، وحضهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعاً أن يكونوا لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد. وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة. وليعج الناس إلى الله، ويسألوه النصر على عدوهم».

فلما أتى عمرو بن العاص رضى الله عنه الكتاب، جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر رضى الله عنه. ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله تعالى ويسألوه النصر... ففعلوا، ففتح الله عليهم.

ويقال أن عمرو بن العاص استشار مسلمة فقال : أشر على في قتال هؤلاء.

فقال له مسلمة : أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب، من أصحاب رسول الله ﷺ، فتعقد له على الناس، فيكون هو الذى يباشر القتال ويكفيكه.

فقال عمرو : من ذلك ؟

قال : عبادة بن الصامت.

فدعاه عمرو، فأتاه وهو راكب على فرسه، فلما دنا منه أراد النزول، فقال له عمرو : عزمت عليك أن نزلت، ناولنى سنان رمحك. فناوله إياه. فنزع عمرو عمامته عن رأسه، وعقد له وولاه قتال الروم.

فتقدم عباده مكانه، فصادف الروم وقاتلهم، ففتح الله على يديه الإسكندرية من يومهم ذلك.

وكان حصار الإسكندرية بعد موت هرقل تسعة أشهر، وخمسة أشهر قبل ذلك. وفتحت يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة أحدى وعشرين.

وقال أبو عمرو الكندى : وحاصر عمرو الإسكندرية ثلاثة أشهر، ثم فتحها عنوة، وهو الفتح الأول. ويقال : بل فتحها عمرو لمستهل المحرم سنة إحدى وعشرين.

قال القضاعى عن الليث : أقام عمرو بالإسكندرية، فى حصارها وفتحها، ستة أشهر، ثم إنتقل إلى الفسطاط فاتخذها دارا فى ذى القعدة.

وقال ابن عبدالحكم : فلما هزم اللّه تعالى الروم وفتح الإسكندرية، هرب الروم فى البر والبحر، فخلف عمرو بالإسكندرية ألف رجل من أصحابه، ومضى ومن معه فى طلب من هرب من الروم فى البر، فرجع من كان هرب من الروم فى البحر إلى الإسكندرية، فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم.

وبلغ ذلك عمراً، فكر راجعاً ففتحها وأقام بها، وكتب إلى عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه : «إن اللّه قد فتح علينا الإسكندرية بغير عقد ولا عهد».

فكتب إليه عمر رضى اللّه عنه يقبح رأيه، ويأمره ألا يجاوزها.

قال ابن لهيعة : وهو فتح الإسكندرية الثاني. وكان سبب فتحها هذا أن رجلا يقال له ابن بسامه كان بواباً، فسأل عمرا أن يؤمنه على نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب. فأجابه عمرو إلى ذلك، ففتح له ابن بسامه الباب، فدخل عمرو.

وقتل من المسلمين، من حين كان من أمر الإسكندرية ما كان إلى أن فتحت، اثنان وعشرون رجلاً.

وبعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج، وافداً إلى عمر بن لخطاب بشيرا له بالفتح، فقال له معاوية : ألا تكتب معى ؟

فقال له عمرو : وما أصنع بالكتاب، ألست رجلاً عربياً تبلغ الرسالة وما رأيت وحضرت؟

فلما قدم على عمر أخبره بفتح الإسكندرية، فخر عمر ساجداً، وقال : الحمد للّه.

وقال معاوية بن خديج : بعثنى عمرو بن العاص إلى عمر رضى اللّه عنه بفتح الإسكندرية، فقدمت المدينة فى الظهيرة، فأنخت راحلتى بباب المسجد، ثم دخلت المسجد.

فبينا أنا قاعد فيه، إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فرأتنى شاحباً عليّ ثياب السفر، فأتتنى وقالت : من أنت ؟

فقلت : أنا معاوية بن خديج رسول عمرو بن العاص.

فانصرفت عني.، ثم أقبلت تشد أسمع حفيف إزارها على ساقها، حتى دنت مني، ثم قالت : قم فأجب أمير المؤمنين يدعوك.. فتبعتها.

فلما دخلت، فإذا بعمر يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخري، فقال : ما عندك؟

فقلت : خير يا أمير المؤمنين، فتح الله الإسكندرية.

فخرج معى إلى المسجد، فقال للمؤذن : أذن فى الناس «الصلاة جامعة». فاجتمع الناس.

ثم قال لى : قم فأخبر أصحابك. فقمت فأخبرتهم.

ثم صلى ودخل منزله، واستقبل القبلة فدعا بدعوات.

ثم جلس فقال : يا جاريه، هل من طعام ؟

فأتت بخبز وزيت، فقال: كل.... فأكلت حياء. ثم قال : كل، فإن المسافر يحب الطعام، فلو كنت آكلاً لأكلت معك. فأصبت على حياء.

ثم قال : يا جارية، هل من تمر ؟

فأتت بتمر فى طبق، فقال : كل. فأكلت على حياء.

ثم قال : ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد ؟

قال : قلت أمير المؤمنين قائل.

قال : بئس ما قلت (أو بئس ما ظننت)، لئن نمت النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية؟

ثم كتب عمرو بن العاص بعد ذلك إلى عمر بن الخطاب : «أما بعد، فإنى فتحت مدينة لا أصف ما فيها، غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية، وأربعمائة ملهى للملوك».

وعن أبى قبيل أن عمرا لما فتح الإسكندرية وجد فيها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر.

وترحل من الإسكندرية، فى الليلة التى دخلها عمرو، وفى الليلة التى خافوا فيها دخول عمرو، سبعون ألف يهودي.

وكان بالإسكندرية، فيما أحصى من الحمامات، اثنا عشر ألف ديماس، أصغر ديماس منها يسع ألف مجلس، كل مجلس يسع جماعة نفر.

وكان عدة من بالإسكندرية من الروم مائتى ألف رجل، فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن.

وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار، فحصل فيها ثلاثون ألفاً مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل.

وبقى من بقى من الأسارى من بلغ الخراج. فأحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان.

فاختلف الناس على عمرو فى قسمها، فكان أكثر الناس يريدون قسمها.

فقال عمرو : لا أقدر على قسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين.

فكتب إليه يعلمه بفتحها وشأنها ويعلمه أن المسلمين طلبوا قسمها.

فكتب إليه عمر : لا تقسمها، وذرها يكون خراجها فيئا للمسلمين، وقوة لهم على جهاد عدوهم.

فأقرها عمرو، وأحصى أهلها، وفرض عليهم الخراج.

فكانت مصر صلحاً كلها بفريضة دينارين على كل رجل، لا يزاد على أحد منهم فى جزية رأسه أكثر من دينارين، إلا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع... إلا الإسكندرية، فإنهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وليهم، لأن الإسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد، ولم يكن لهم صلح ولا ذمة.

وقد كانت قرى من قرى مصر قاتلت، فسبوا منها قرية يقال لها بلهيب، وقرية يقال لها الخيس، وقرية يقال له سلطيس... فوقع سباياهم بالمدينة وغيرها، فردهم عمر بن الخطاب إلى قراهم، وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة.

وعن يزيد بن أبى حبيب أن عمرا سبى أهل بهليب وسلطيس وقرطيا وسخا، فتفرقوا وبلغ أولهم المدينة حتى نقضوا. ثم كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بردهم، فرد من وجد منهم.

وفى رواية أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب فى أهل سلطيس خاصة: من كان منهم فى أيديكم فخيروه بين الإسلام، فإن أسلم فهو من المسلمين، له مالهم وعليه ما عليهم، وإن اختار دينه، فخلوا بينه وبين قريته.. فكان البلهيبى خير يومئذ فاختار الاسلام.

وفى رواية أن أهل سلطيس وصا وبلهيب ظاهروا الروم على المسلمين فى جمع كان لهم فلما ظهر عليهم المسلمون، استحلوهم وقالوا: هؤلاء لنا فئ مع الإسكندرية.

فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك.

فكتب إليه عمر. أن تجعل الإسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين، وتضرب عليهم الخراج، ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة المسلمين على عدوهم، ولا يجعلون فيئا ولا عبيدا. ففعل ذلك.

ويقال إنما ردهم عمر رضى الله عنه لعهد كان تقدم لهم.

وقال ابن لهيعة: جبى عمرو جزية الإسكندرية ستمائة ألف دينار، لأنه وجد ثلاثمائة ألف من أهل الذمة، فقدر عليهم دينارين دينارين، فبلغت ذلك.

وقيل كانت جزية الإسكندرية ثمانية عشر ألف دينار. فلما كانت خلافة هشام بن عبدالملك بلغت ستة وثلاثين ألف دينار.

ويقال إن عمرو بن العاص استبقى أهل الإسكندرية، فلم يقتل ولم يسب، بل جعلهم ذمة كأهل النوبة.

ذكر ما كان من فعل المسلمين بالإسكندرية ، وانتقاض الروم

قال ابن عبدالحكم : فأما الإسكندرية فلم يكن بها خطط ، وإنما كانت أخائذ ، من أخذ منزلاً نزل فيه هو وبنو أبيه. وإن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ، أقبل هو وعبادة بن الصامت حتى علوا الكوم الذى فيه مسجد عمرو بن العاص ، فقال معاوية بن خديج : ننزل. فنزل عمرو القصر ، ونزل أبو ذر منزلاً كان غربيّ المصلى الذى عند مسجد عمرو مما يلى البحر وقد انهدم ، ونزل معاوية ابن خديج فوق الُتل ، وضرب عبادة بن الصامت خباء فلم يزل فيه حتى خرج من الإسكندرية. ويقال إن أبا الدرداء كان معه. والله أعلم.

قال : فلما استقامت لهم البلاد قطع عمرو ابن العاص من أصحابه لرباط الإسكندرية ربع الناس ، وربما فى السواحل ، والنصف مقيمون معه.

وكان يصير بالإسكندرية خاصة الربع فى الصيف بقدر ستة أشهر ، ويعقب بعدهم شاتية ستة أشهر وكان لكل عريف قصر ينزل فيه بمن معه من أصحابه ، واتخذوا فيه أخائذ.

وعن يزيد بن أبى حبيب أن المسلمين لما سكنو الإسكندرية فى رباطهم ، ثم قفلوا ، ثم غزوا ابتدروا ، فكان الرجل منهم يأتى المنزل الذى كان فيه صاحبه قبل ذلك ، فيبتدره فيسكنه.

فلما غزوا ، قال عمرو : إنى أخاف أن تحربوا المنازل إذا كنتم تتعاورونها.

فلما كان عند الكريون قال لهم : سيروا على بركة الله ، فمن ركز منكم رمحه فى دار فهى له ولبنى بنيه.

فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحه فى منزل منها ، ثم يأتى الآخر فيركز رمحه فى بعض بيوت الدار ، فكانت الدار تكون لقبيلتين وثلاث. وكانوا يسكنوها ، حتى إذا قفلوا سكنها الروم وعليهم مرمتها.

وكان يزيد بن أبى حبيب يقول : لا يحل من كرائها شئ ولا بيعها، ولا يورث منها شئ، إنما كانت لهم يسكنوها فى رباطهم.

وعن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية، ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها، هم أن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها فكتب إلى عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنه يستأذنه فى ذلك.

فسأل عمر الرسول : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل.

فكتب عمر إلى عمرو : «إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم شتاء ولا صيفاً».

فتحول عمرو بن العاص إلى الفسطاط.

قال : وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص وهو نازل بمدائن كسري، وإلى عامله بالبصرة، وإلى عمرو بن العاص وهو نازل بالإسكندرية : «ألا تجعلوا بينى وبينكم ماء، متى ما أردت أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم، قدمت».

فتحول سعد بن أبى وقاص من مدائن كسرى إلى الكوفة، وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه فنزل البصرة، وتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط.

وكان عمر بن الخطاب يبعث فى كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية. وكان على الولاء : لا يغفلها، ويكنف مرابطها، ولا يأمن الروم عليها.

وكتب عثمان رضى اللَّه عنه إلى عبد اللَّه بن سعد بن أبى سرح : «قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين الإسكندرية، وقد نقضت الروم مرتين. فألزم الإسكندرية مرابطيها، ثم أجرى عليهم أرزاقهم، وأعقب بينهم فى كل ستة أشهر.

قال : وكانت الإسكندرية انتقضت، وجاءت الروم، عليهم منويل الخصي، فى المراكب حتى أرسوا بالإسكندرية، فأجابهم من بها من الروم. ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث. وقد كان عثمان رضى اللَّه عنه عزل عمرو بن العاص، وولى عبد اللَّه بن سعد بن أبى سرح.

فلما نزلت الروم سأل أهل مصر عثمان أن يقر عمرا حتى يفرغ من قتال الروم، فإن له معرفة بالحرب وهيبة فى العدو، ففعل.

وكان على الإسكندرية سورها، فحلف عمرو بن العاص، لئن أظفره الله عليهم، ليهدمن سورها حتى يكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان.

فخرج إليهم عمرو فى البر والبحر، فضموا إلى المقوقس من أطاعه من القبط، وأما الروم فلم يطعه منهم أحد.

فقال خارجة بن حذافة لعمرو : ناهضهم قبل أن يكثر مددهم، فلا آمن أن تنتقض مصر كلها.

فقال عمرو : لا، ولكن أدعهم حتى يسيروا إلي، فإنهم يصيبون من مروا به فيخزى الله بعضهم ببعض.

فخرجوا من الإسكندرية، ومعهم من نقض من أهل القري، فجعلوا ينزلون القرية فيشربون خمورها، ويأكلون أطعمتها، وينتهبون ما مروا به.

فلم يتعرض لهم عمرو حتى بلغوا نفيوس، فلقوهم فى البر والبحر. فبدأت الروم القبط، فرموا بالنشاب فى الماء رمياً شديداً، حتى أصابت النشاب يومئذ فرس عمرو فى لبته وهو فى البر فعقر، فنزل عنه عمرو.

ثم خرجوا من البحر، فاجتمعوا هم والذين فى البر، فنفحوا المسلمين بالنشاب، فاستأخر المسلمون عنهم شيئاً، وحملوا على المسلمين حمله ولى المسلمون منها، وانهزم شريك بن سمى فى خيله.

وكانت الروم قد جعلت صفوفاً خلف صفوف.

وبرز يومئذ بطريق - ممن جاء من أرض الروم - على فرس له، عليه سلاح مذهب، فدعا إلى البراز فبرز إليه رجل من زبيد - يقال له حومل، يكنى أبا مذحج - فاقتتلا طويلاً برمحين يتطاردان، ثم ألقى البطريق الرمح وأخذ السيف، فألقى حومل رمحه وأخذ سيفه، وكان

يعرف بالنجدة، فجعل عمرو يصيح : أبا مذحج، فيجيبه، لبيك، والناس على شاطئ النيل فى البر على تعبيتهم وصفوفهم، فتجاولا ساعة بالسيف، ثم حمل عليه البطريق، فاحتمله وكان نحيفاً، فاخترط حومل خنجراً كان فى منطقته أو فى ذراعه، فضرب به نحر العلج أو ترقوته فأثبته، ووقع عليه فأخذ سلبه.

ثم مات حومل بعد ذلك بأيام رحمه الله، فرؤى عمرو يحمل سريره بين عمودى نعشه حتى دفنه بالمقطم.

ثم شد المسلمون عليهم، فكانت هزيمتهم. فطلبهم المسلمون حتى ألحقوهم بالإسكندرية، ففتح الله عليهم، وقتل منويل الخصي، وقتلهم عمرو حتى أمعن فى مدينتهم.

فكلم فى ذلك، فأمر برفع السيف عنهم. وبنى فى ذلك الموضع الذى رفع فيه السيف مسجداً، وهو المسجد الذى بالإسكندرية، الذى يقال له مسجد الرحمة، سمى بذلك لرفع عمرو السيف هناك، وهدم سورها كله، وجمع ما أصاب منهم.

فجاءه أهل تلك القرى ممن لم يكن نقض، فقالوا: قد كنا على صلحنا، وقد مر علينا هؤلاء اللصوص، فأخذوا متاعنا ودوابنا، وهو قائم فى يديك فرد عليهم عمرو ما كان لهم من متاع عرفوه وأقاموا عليه البينة.

وقال بعضهم لعمرو : ما حل لك ما صنعت بنا، كان لنا أن تقاتل عنا لأنا فى ذمتك ولم ننقض، فأما من نقض فأبعده الله.

فندم عمرو وقال : يا ليتنى كنت لقيتهم حين خرجوا من الإسكندرية.

وكان سبب نقض الإسكندرية هذا، أن ظلما صاحب اخنا قدم على عمرو فقال : أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصبر لها.

فقال عمرو، وهو يشير إلى ركن كنيسة لو أعطيتنى من الركن إلى السقف ما أخبرتك، إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم، وإن خفف عنا خففنا عنكم.

فغضب صاحب اخنا، وخرج إلى الروم فقدم بهم، فهزمهم الله تعالى.

وأسر فأتى به إلى عمرو، فقال له الناس : أقتله.

فقال : لا، بل انطلق فجئنا بجيش آخر.

وسوره وتوجه، وكساه برنس أرجوان، فرضى بأداء الجزية، فقيل له : لو أتيت ملك الروم؟

فقال : لو أتيته لقتلني، وقال : قتلت أصحابي.

وعن أبى قبيل أن عتبة بن أبى سفيان عقد لعلقمة القطيفى على الإسكندرية، وبعث معه أثنى عشر ألفاً فكتب علقمة إلى معاوية بن أبى سفيان يشكو عتبة حين غرر به وبمن معه. فكتب إليه معاوية : «إنى قد أمددتك بعشرة آلاف من أهل الشام، وبخمسة آلاف من أهل المدينة»، فكان فى الإسكندرية سبعة وعشرون ألفاً.

وفى رواية : أن علقمة بن يزيد كان على الإسكندرية ومعه أثنا عشر ألفاً، فكتب إلى معاوية : إنك خلفتنى بالإسكندرية وليس معى إلا أثنا عشر ألفاً، ما يكاد بعضنا يرى بعضاً من القلة».

فكتب إليه معاوية : «إنى قد أمددتك بعبد اللّه بن مطيع فى أربعة آلاف من أهل المدينة، وأمرت معن بن يزيد السلمى أن يكون بالرملة فى أربعة آلاف ممسكين بأعنة خيولهم، متى بلغهم عنك فزع يعبروا إليك».

قال ابن لهيعة : وقد كان عمرو بن العاص يقول : ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة.

وكان عمرو، حين توجه إلى الإسكندرية، خرب القرية التى تعرف اليوم بخربة وردان.

واختلف علينا السبب الذى خربت له. فحدثنا سعيد بن عفير أن عمرا لما توجه إلى نقيوس لقتال الروم، عدل وردان لقضاء حاجته عند الصبح، فاختطفه أهل الخربة فغيبوه ففقده عمرو وسأل عنه وقفا أثره، فوجدوه فى بعض دورهم، فأمر باخرابها وإخراجهم منها.

وقيل كان أهل الخربه رهباناً كلهم، فغدروا بقوم من ساقة عمرو، فقتلوهم بعد أن بلغ عمرو الكريون، فأقام عمرو، ووجه إليهم وردان فقتلهم وخربها، فهى خراب إلى اليوم.

وقيل كان أهل الخربة أهل تويت وخبت، فأرسل عمرو إلى أرضهم فأخذ له منها جراب فيه تراب من ترابها، فكلمهم فلم يجيبوه إلى شئ، فأمر بإخراجهم، ثم أمر بالتراب ففرش تحت مصلاه، ثم قعد عليه، ثم دعاهم فكلمهم، فأجابوه إلى ما أحب، ثم أمر بالتراب فرفع، ثم دعاهم فلم يجيبوه إلى شئ... فعل ذلك مراراً فلما رأى عمرو ذلك قال : هذه بلدة لا يصلح أن توطأ فأمر بإخرابها.

فلما هزم اللّه الروم أراد عثمان رضى اللّه عنه أن يكون عمرو بن العاص على الحرب، وعبد اللّه بن سعد على الخراج، فقال عمرو : أنا إذن كماسك البقرة برقنيها وآخر يحلبها... فأبى عمرو.

وكان فتح عمرو هذا عنوة قسرا فى خلافة عثمان سنة خمس وعشرين، وبينه وبين الفتح الأول أربع سنين.

وقال الليث : كان فتح الإسكندرية الأول سنة اثنتين وعشرين، وكان فتحها الآخر سنة خمس وعشرين.

وأقامت الجيش من السماء يقاتلون الناس سبع سنين، بعد أن فتحت مصر، مما يفتحون عليهم من تلك المياه والغياض.

قال : ثم غزا عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح ذا الصوارى فى سنة أربع وثلاثين.

وكان من حديث هذه الغزوة أن عبد اللّه بن سعد، لما نزل ذا الصواري، أنزل نصف الناس مع بسر بن أرطأة فى البر فلما مضوا أتى آت إلى عبد اللّه بن سعد فقال : ما كنت فاعلاً حين ينزل بك ابن هرقل فى ألف مركب، فافعله الساعة.

وكانت مراكب المسلمين مائتى مركب ونيفا.

فقام عبد اللّه بن سعد بين ظهرانى الناس فقال : بلغنى أن ابن هرقل قد أقبل اليكم فى ألف مركب، فأشيروا على فما كلمه زجل من المسلمين.

فجلس قليلاً لترجع إليهم أفئدتهم، ثم قام الثانية فكلمهم، فما كلمه أحد.

فجلس، ثم قام الثالثة فقال : إنه لم يبق شيء فأشيروا علي.

فقام رجل من أهل المدينة ـ كان متطوعا مع عبد الله بن سعد ـ فقال : أيها الأمير أن الله جل ثناؤه يقول : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين ﴾(*).

فقال عبد الله : أركبوا فركبوا، وإنما في كل مركب نصف شحنته، لأنه قد خرج النصف الآخر إلى البر مع بسر فلقوهم، فاقتتلوا بالنبل والنشاب.

وتأخر ابن هرقل لئلا تصيبه الهزيمة، وجعلت القوارب تختلف إليه بالأخبار، فقال : ما فعلوا ؟

قالوا : قد اقتتلوا بالنبل والنشاب.

فقال : غلبت الروم

ثم أتوه، فقال : ما فعلوا ؟

قالوا : قد نفذ النبل والنشاب، فهم يرمون بالحجارة.

فقال : غلبت الروم

ثم أتوه، فقال : ما فعوا ؟

قالوا : قد نفذت الحجارة، وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف.

قال : غلب الروم.

وكانت السفن إذ ذاك تقرن بالسلاسل عند القتال.

قال : فقرن مركب عبد الله يومئذ ـ وهو الأمير ـ بمركب من مراكب العدو، فكان مركب العدو يجتر مركب عبد الله إليهم، فقام علقمة بن يزيد القطيفي، وكان مع عبد الله بن سعد في المركب، فضرب السلسلة بسيفه فقطعها.

(*) ٢٤٩ م البقرة ٢

فسأل عبد اللّه امرأته بعد ذلك بسيسة أبنة حمزة بن يشرح ـ وكانت مع عبد اللّه يومئذ، وكان الناس يغزون بنسائهم فى المراكب ـ من رأيت أشد قتالاً ؟

قالت : علقمة صاحب السلسلة.

وكان عبد اللّه قد خطب بسيسة إلى أبيها فقال له : أن علقمة قط خطبها، وله عليّ فيها رأي، فإن تركها أفعل.

فكلم عبد اللّه علقمة فتركها، فتزوجها عبد اللّه بن سعد، ثم هلك عنها علقمة فتزوجها بعده كريب بن أبرهة وماتت تحته.

وقيل مشت الروم إلى قسطنطين بن هرقل، فى سنة خمس وثلاثين، فقالوا : أتترك الإسكندرية فى أيدى العرب وهى مدينتنا الكبرى ؟

فقال : ما أصنع بكم ؟ ما تقدرون أن تمالكوا ساعة إذا لقيتم العرب.

قالوا : اخرج على أنا نموت.. فتبايعوا على ذلك.

فخرج فى ألف مركب يريد الإسكندرية، فسار فى أيام غالبة الرياح، فبعث اللّه عليهم ريحاً فغرقتهم، إلا قسطنطين فإنه نجا بمركبه، فألقته الريح بصقليه، فسألوه عن أمره، فأخبرهم.

فقالوا : شتت النصرانية، وأفنيت رجالها، لو دخلت العرب علينا لم نجد من يردهم.

فقال : خرجنا مقتدرين فأصابنا هذا.

فصنعوا له الحمام ودخلوا عليه، فقال : ويلكم، يذهب رجالكم، وتقتلون ملككم ؟

قالوا : كأنه غرق معهم. ثم قتلوه وخلوا من كان معه فى المركب.

قال أبو عمرو الكندى : وإنما سميت غزوة ذى الصوارى لكثرة صوارى المراكب واجتماعها.

ذكر بحيرة الإسكندرية

قال ابن عبدالحكم : كانت بحيرة الإسكندرية كروما كلها لامرأة المقوقس، فكانت تأخذ خراجها منهم الخمر بفريضة عليهم، فكثر الخمر عليها حتى ضاقت به ذرعاً، فقالت : لا حاجة لى فى الخمر، أعطونى دنانير.

فقالوا : ليس عندنا.

فأرسلت إليهم الماء فغرقتها، فصارت بحيرة يصاد فيها الحيتان، حتى استخرجها الخلفاء من بنى العباس، فسدوا جسورها وزرعوها.

ثم صارت بحيرة طولها إقلاع يوم فى عرض يوم، ويصير اليها الماء من أشتوم فى البحر الرومي، ويخرج منها إلى بحيرة دونها فى خليج عليه مدينتان : إحداهما الحدبة، والأخرى إتكو، وهى كثيرة المقاثى والنخل، وكلها فى الرمل.

ويصب فى هذه البحيرة خليج من النيل - يسمى الحافر - طوله نصف يوم إقلاعاً، وهو كثير الطير والسمك والعشب.

وكان السمك، بوجود هذه البحيرة فى الإسكندرية، غاية فى الكثرة، يباع بأقل القيم وأبخس الأثمان. ثم أنقطع الماء عن هذه البحيرة منذ ....

ذكر خليج الإسكندرية

يقال إن كلوباطرة الملكة هى التى ساقت خليج الإسكندرية حتى أدخلته إليه. ولم يكن يبلغها الماء، فحفرته حتى أدخلته الإسكندرية، وبلطت قاعة بالرخام من أوله إلى آخره، ولم يزل يوجد ذلك فيه.

وقال أبو الحسن المخزومى فى كتاب «المنهاج» : أما خليج الإسكندرية فإنه من فوهة الخليج إلى ترعة بودرة ليس على شئ منها سد : بومنحرج، محلة بتوك، أسينة أورين، محلة فرنو، محلة حسن، منية طراد ـ وتعرف بالقاعة ـ محلتا نصر ومسروق.

فأما ترعة لقانة فإنها تفتح بعد سبعة أيام من توت.

والترعة الجديدة تفتح فى السادس عشر من توت.

وترعة بودرة، تفتح بعد سبعة أيام من توت.

وترعة بويحيي، وترعة بو السحما، وترعة القهوقية، ليس على شئ من ذلك سد.

وترعة الشراك تفتح بعد سبعة أيام من توت.

وترعة أبو خراشة، وترعة البربيط، يشرب منها ديسو وسمخراط وشيرنويه ومنية حماد وسنادة وبعض محله مارية.

وترعة فيشة بلخا تفتح فى ثانى عشر توت.

وجرت العادة أن تفتح فى النوروز ترعة بويط.

ومقطع سمديسة يفتح فى الثانى والعشرين من توت.

ومقطع ياطس يفتح فى تاسع عشر توت.

ولما سد المقطع المذكور، عملت بعد ذلك ترعة تروى الصفقة القبلية منها، فتفتح فى يوم النوروز.

ولما استحدثت ترعة افلاقة، وخرجت فى أرض ياطس، جرت العادة، إذا رويت الصفقة القبلية من افلاقة، تطلق الترعة المذكورة على القسم البحرى من ياطس إلى أن يروي.

وترعة القارورة محدثة.

وترعة بفوها تفتح فى ثانى عشر توت.

وترعة افلاقة تفتح فى عاشر توت.

وترعة اسكنيدة تفتح فى سادس توت.

تراع بحر دمنهور تفتح فى العشرين من مسرى إلى سادس توت. ويروى منها بعض طاموس، وبعض كنيسة الغيط، وبعض قرطسا ودمنهور.

ترعة القواديس، منها تشرب شبرا النخلة وكوم التلول.

تراع شبرا النخلة تفتح على أعاليها من أول توت.

وترعة بسطرى تفتح فى خامس عشر مسرى.

وترعة مسيد فى ثامن توت.

وترعة سنتويه تفتح فى ثامن عشر توت.

وبحر دمشوية يفتح فى العشرين من مسري، ومنه تشرب منيه رزقون، وسفط كرداسة، ودمشوية، ومحلة الشيخ ومصيل.

وترعة دمشوية تفتح فى تاسع توت، ويقيم الماء عليها سبعة عشر يوماً، وتفتح إلى محلة الشيخ، ومصيل يقيم الماء عليها ثلاثين يوماً، ويسد بعد ذلك على دمشوية سبعة أيام.

وعلى سفط ومنية رزقون ترعة برسيق، كانت تفتح فى أول توت.

محلة برسيق ليس عليها سد.

محلة الكروم تفتح فى ثامن توت. ومنها تشرب عدة أماكن، وهى محلة الكروم وكفورها، وهى دنيسة وكوم الولائد وكوم الصخرة وديرامس والصفاصف، وما يخرج عن كفورها وهى تلمسا والجلمون من حقوق محلة كيل. ومنها تشرب الجهة الغربية.

شبراإبار ليس عليها سد.

وترعة قافلة كانت تفتح فى ثامن توت، وليس عليها الآن سد.

وترعة بلقطر وكفورها، كانت تفتح فى تاسع توت، وليس عليها الآن سد.

ترعة الراهب ليس عليها سد.

وترعة دسونس المقاريضي تسقى الحلفاية، وتفتح فى ثامن توت.

وكذلك ترعة مرحنا والملعقية، وترعة نيلامة وبيشاي، وآخر تراع الحجيجة، وترعة الكريون تفتح فى ثامن توت.

وترعة السلقون كانت تفتح فى سادس توت، وليس عليها الآن سد.

وترعة أرمياخ تفتح في ثانى عشر توت.

وترعة أبلوق تفتح في سادس توت.

وأما جون رمسيس فإن بحر رمسيس كان يضرب السد فيه على تراع رمسيس من أول النيل إلى سابع عشر توت. والذى يشرف من السد المذكور، من النواحب والكفور، رمسيس ومحلة جعفر وفليشان وبعض أبنية البعيدى وبعض خربتا وبعض البلكوس وبعض بولين وبعض محلة وافد والبيضاء وبعض طيلاس.

ثم يفتح سد دكدولة، وهو محدث يقيم الماء عليه عشرة أيام، وتشرب منه دكدولة ومحلة معن ومنية أسامى وبعض صيفية.

ثم يقطع سد العطامي، وهو محدث، ومنه يشرب بعض جنبوية وبليانة البحرية والسرة وأبو حمار والبهوط.

ثم يقطع سد دسونس وأبو دينار وترعة طبرينة، فيشرب منه دنسال، وطلموس. يقيم الماء عليه ستة أيام، ومنه تشرف منية عطية وسلطيس.

وأما بحر دمنهور فإنه يسد على سلطيس إلى سابع عشر توت، ومنه تشرب سلطيس وزهرا وبعض طابوس وبعض قرطسا وبعض كيسة الغيط ودمنهور.

ثم يقطع سد نديبة، وهو محدث، فيقيم ثمانية أيام، ومنه تشرب نديبة ودقرس والعميرية والنسرين.

ثم يفتح ويسد على محلة خفض ومحله كيل ومحلة نمير.

ثم يقطع سد سلطيس، وهو محدث، فيقيم عشرة أيام بعد اختلاط الماءين ببحر دمنهور ورمسيس.

ثم يقطع جسر ملولة، ومنه تشرب تروجه وأرسيس والمراسى وغابة الأعساس وبعض سمرو ومحله نمير، ويبقى هناك إلى أنقضاء النيل.

وأما ترعة طبرينة فهى محدثة، وإذا رويت طبرينة تطلق على دسونس أم دينار، ثم تقطع على طاموس بمقدار ريها، ثم تطلق فى النيل العالى على أرض قراقس، ويطلق الماء على قرطسا وكنيسة الغيط.

وخليج الطبرينة إذا خرج الماء منه يسقى منه فى أول النيل، إلى أن يضرب جسر شبرا وسيم، فيسقى منه شبرا وسيم وبعض البلكوس وحفيرة الزعفرانى وبعض بولين ومسجد غانم والصواب وكوم شريك ومنية مغيين وتل الفطامى ومحله وافد.

ثم يقطع جسر دليجة، ومنه يشرب بعض خربتا وبعض فليشن وبعض بولين والبيضا ودنست وتليانة الأبراج وتل بقا والحدين واليهودية والنسوم وأبو صمادة والحصن وقلاوة بنى عبيد وطوخ دخاية ودرشا وسقرا ودليجة ولمحة وطيبة، ثم يقطع على منية وزراقة الحجر والمحزون وبعض حيارس وأفريم وأبو سمار وأم الضروع.

خليج ابن زلوم - ويعرف بخليج ابن ظلوم وسدّ مخرج التعيدى - لا يفتح إلى عشرة أيام من توت، ومنه يشرب شابور وكنيسة مبارك وبعض سرسيقة وبعض دموشة ومنية يزيد وحوض لماصلى وحصلة سلمون وبعض سنيت وبعض التعيدى وبعض فليشان.

ثم يفتح، فيشرب منه أمليط وبعض انباى وبعض كنيسة عبدالملك وبعض أرمنية وميسينا وبعض محلة عبيد وسقط خالد وبرنامة وشبرا نوبة وكيمان شراس وبعض دمشوه، وتقام الحراس على جسر سفط.

ويشرب من خليج الإسكندرية وما يفيض منه، أهل الباطن وأهل البحيرة فى فجاج وأودية، فيكون ذلك الماء صلة، وهم قبيل من دنانة والرمحانة وبنى يزان وقبائل البربر، ويزرعون عليه فيستوفى منهم الخراج.

وبين مشارق الفرما من ناحية جوجير وفاقوس، وبين آخر ما يشرب من خليج الإسكندرية، مسيرة شهر، كان عامرا كله - فى محلول ومعقود - إلى ما بعد الخمسين وثلاثمائة من سنى الهجرة، وقد خرب معظم ذلك.

وقال أبو بكر الطرطوسي، عمن حدثه من مشايخ البحر، أنه قال : شاهدت الإسكندرية والصيد فى الخليج مطلق للرعية، والسمك فيه يطفو لماء به كثرة حتى تصيده الأطفال بالخرق، ثم حجره الوالى ومنع الناس من صيده، فذهب حتى كاد لا يرى فيه إلا الواحدة بعد الواحدة إلى يومنا هذا.

وقال أبو عمرو الكندى فى كتاب «الموالي» عن الحارث بن مسكين : إنه تقلد قضاء مصر من قبل أمير المؤمنين الواثق بالله فى سنة تسع وثلاثين ومائتين، فذكر سيرته وقال : وحفر خليج الإسكندرية، وورد الكتاب بصرفه فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين ومائتين.

وقال جامع السيرة الطولونية : وفى ربيع الأول سنة تسع وخمسين ومائتين، أمر أحمد ابن طولون بحفر خليج الإسكندرية.

وقال المسعودى : وقد كان النيل انقطع عن بلاد الإسكندرية قبل سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

وقد كان الإسكندر بنى الإسكندرية على هذا الخليج من النيل، وكان عليها معظم ماء النيل، فكان يسقى الإسكندرية وبلاد مريوط وكانت بلاد مريوط فى نهاية العمارة والجنان المتصلة بأرض برقة، وكانت السفن تجرى فى النيل وتتصل بأسواق الإسكندرية.

وقد بلط أرض خليجها فى المدينة بالأحجار والمرمر، وانقطع الماء عنها لعوارض سدت خليجها ومنعت الناس دخوله، فصار شربهم من الآبار، وصار النيل على يوم منهم.

وذكر المسبحى أن الحاكم بأمر الله أبا منصور بن العزيز، أطلق لحفر خليج الإسكندرية، فى سنة أربع وأربعمائة، خمسة عشر ألف دينار، فحفر كله.

وفى سنة اثنتين وستين وستمائة بعث الملك الظاهر بيبرس الأمير علي، أمير جاندار، لحفر خليج الإسكندرية، وقد امتلأت فوهته بالطين، وقل الماء فى الإسكندرية، فابتدأ بالحفر من التعيدي، وأنشأ هناك مسجداً. وتولى مباشرة هذا الحفر المعلم تعاسيف ناظر الدواوين.

ثم بعث السلطان، فى سنة أربع وستين وستمائة، لحفر هذا الخليج الأمير علم الدين سنجر المسروري، ثم سار بعامة الأمراء والأجناد، وباشر الحفر بنفسه، وعمل فيه الأمراء وجميع الناس إلى أن زالت الرمال التى كانت على الساحل بين التعيدى وفم الخليج، ثم عدى إلى بارنبار، وغرق مراكب هناك وبنى عليها بالحجارة، فلما تم الغرض عاد إلى قلعة الجبل.

ثم تعطل استمرار جريان الماء فيه بطول السنة، وصار يحفر سريعاً بعد شهرين أو نحوهما من دخول الماء إليه، واحتاج أهل الإسكندرية فى طول السنة إلى الشرب من الصهاريج التى يخزن فيها الماء.

إلى أن كانت سنة عشر وسبعمائة، فقدم الأمير بدر الدين بكتوت الخزنداري، المعروف بأمير شكار، متولى الإسكندرية إلى قلعة الجبل، وحسّن للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حفره، وذكر له ما فى ذلك من المنافع.

أولهما : حمل الغلال وأصناف المتجر إلى الإسكندرية فى المراكب، وفى ذلك توفير للكلف، وزيادة فى مال الديوان.

وثانيهما : عمارة ما على حافتى الخليج من الأراضى بإنشاء الضياع والسواقي، فينمو الخراج بهذا نمو كثيراً.

وثالثهما : انتفاع الناس به فى عمارة بساتينهم، وشرب مائه دائماً.

فأعجب السلطان ذلك، وندب الأمير بدر الدين محمد بن كندعدى بن الوزيرى مع بكتوت لعمله، وتقدم إلى جميع أمراء الدولة بإخراج مباشريهم لإحضار رجال النواحى الجارية فى إقطاعاتهم للعمل للحفير، وكتب لولاة الأعمال بالوقوف فى العمل.

فاجتمع من النواحى نحو الأربعين ألف رجل، جمعت فى نحو العشرين يوماً، ووقع العمل فى شهر رجب من السنة المذكورة، وأفرد لكل أهل ناحية قطعة يحفرونها حتى كمل.... فجاء قياس الحفر، من فم بحر النيل إلى ناحية شنبار، ثمانية آلاف قصبة حاكمية، ومن شنبار إلى الإسكندرية مثلها.

وكان الخليج الأصلى يدخل الماء إليه من حد شنبار، فجعل فم هذا البحر يرمى عليه، وعمل عمقه ست قصبات فى عرض ثمانى قصبات. فلما انتهوا إلى حد الخليج الأول، حفر أيضاً على نظير الخليج المستجد، فصارا بحراً واحداً، وركبت عليه السدود والقناطر.

ووجد فى الخليج الأول عند حفره، من الرصاص المبنى تحت الصهاريج، شئ كثير جداً، فلم يتعرض السلطان لشئ منه، وأنعم به على الأمير بكتوت.

وعظمت المشقة فى حفر هذا الخليج، فإن الذى تجاوز البحر منه غلب عليه الماء، فصارت الرجال تغطس فيه وترفع الطين من أسفله، ثم كثر الماء فركبت السواقى حتى نزحته.

إلا أن عظيم النفع به سهل جميع ذلك، فإن السفن جرت فيه طول السنة، واستغنى أهل الإسكندرية عن شرب ماء الصهاريج، وبادر الناس للعمارة على جانبى الخليج، فلم يمض غير قليل حتى استجد عليه ما يزيد على مائة ألف فدان، زرعت بعد ما كانت سباخاً، وما ينيف على ستمائة ساقية برسم القلقاس والنيلة والسمسم، وفوق الأربعين ضيعة، وأزيد من ألف غيط بالأسكندرية، وعمرت منه عدة بلاد كثيرة، وتحول عالم عظيم إلى سكنى ما استجد عليه، وفيه.

ولما فرغ العمل فى الخليج شرع الأمير بكتوت فى عمل جسر من ماله، فإن الناس كانوا، فى وقت هيجان البحر، يجدون مشقة عظيمة لغلبة الماء على أراضى السباخ، فأقام ثلاثة أشهر حتى بنى رصيفاً، دك أساسه بالحجر والرصاص وأعلاه بالحجر والكلس، وعمل فيه ثلاثين قنطرة.

وأنشأ خانا ينزله الناس، ورتب فيه الخفراء، ووقف على مصالحه رزقه، فبلغ مصروفه نحو الستين ألف دينار مصرية، سوى ما أخذ من الحجارة التى بعضها من قصر قديم كان خارج الإسكندرية، وسوى ما وجده من الرصاص فى سرب بأسفل هذا القصر ينتهى بمن يمشى فيه إلى قريب البحر، وسوى ما أنعم به عليه من الرصاص الموجود بالخليج.

ولـم يزل الخليج فيه الماء السنة إلى ما بعد سنة سبعين وسبعمائة، فانقطع الماء منه وصار الماء لا يدخل إليه إلا فى أيام زيادة ماء النيل فقط، ثم يجف عند نقصه، فتلف من أجل هذا أكثر بساتين الإسكندرية وخربت، وتلاشى كثير من القرى التى كانت على هذا الخليج.

وسبب انقطاع الماء عنه غلبة الروم على الأشتوم الذى كان يعبر منه ماء بحر الملح إلى بحيرة الإسكندرية حتى جفت، وصار الرمل تلقيه الرياح فى الخليج، فانطم فمه وعلا قاعه.

وقصد من أدركناه من ملوك مصر حفر هذا الخليج غير مرة، فلم يتهيأ ذلك إلى أن كانت سلطنة الملك الأشرف برسباي، فندب لحفره الأمير جرباش الكريمي، المعروف بعاشق.

فتوجه إليه، وجمع له من قدر عليه من رجال النواحي، فبلغت عدتهم ثمانمائة وخمسة وسبعين رجلاً، ابتدأوا فى حفره من حادى عشر جمادى الأولى سنة ست وعشرين وثمانمائة إلى حادى عشر شعبان لتمام تسعين يوماً، فانتهى عملهم.

ومشى الماء فى الخليج حتى انتهى إلى حده من مدينة الإسكندرية، وجرت فيه السفن، فسر الناس به سروراً كبيراً.

وجبى ما أنفق على العمال فى الحفر من أرباب النواحى التى على الخليج، ومن أرباب البساتين بالإسكندرية، ولم يكن فى حفره كبير شناعة، مما جرت به عادة الولاة فى مثل ذلك، ولله الحمد.

وعندما انتهى قدم الأمير جرباش إلى قلعة الجبل، فخلع السلطان عليه وشكره، ثم عمله حاجب الحجاب، فلم يستمر ذلك إلا قليلاً حتى انطم بالرمل، وتعذر سلوك الخليج بالمراكب إلا فى أيام النيل فقط.

ذكر جمل حوادث الإسكندرية

وفي سنة تسع وتسعين ومائة، عظمت الحروب بديار مصر بين المطلب بن عبد الله الخزاعي أمير مصر، وبين عبدالعزيز بن الوزير الجروي الثائر بتنيس، فعقد المطلب على الإسكندرية لمحمد بن هبيرة بن هاشم ابن خديج، فاستخلف محمد خاله عمر بن عبدالملك بن محمد بن عبدالرحمن بن معاوية بن خديج - الذي يقال له عمر بن ملاك - ثم عزله المطلب بعد ثلاثة أشهر بأخيه الفضل بن عبد الله بن مالك.

وكانت بالإسكندرية مراكب الأندلسيين قد قفلوا من غزوهم. وكان سبب قدوم هذه المراكب ما جرى لأهل قرطبة بوقعة الربض مع الحكم بن هشام في سنة اثنتين وثمانين ومائة، فأخرج جماعة منهم، فوصلوا إلى ثغر الإسكندرية زيادة على عشرة آلاف.

وكان سبب ثورتهم أن قصابا من الإسكندرية رمى وجه رجل منهم بكرش، فأنفوا من ذلك، وصاروا إلى ما صاروا إليه، وذلك لما نزلوا رمل الإسكندرية ليبتاعوا ما يصلحهم. وكذلك كانوا على الرمان، وكانت الأمراء لا تبيحهم دخول الإسكندرية، إنما كان الناس يخرجون إليهم فيبايعونهم.

فلما عزل عمر بن ملاك، كتب إليه عبدالعزيز الجروي يأمره بالوثوب على الإسكندرية والدعاء له بها، فبعث عمر بن ملاك إلى الأندلسيين، فدعاهم إلى القيام معه في إخراج الفضل عنها، فساروا معه، وأخرج الفضل، ودعا للجروي.

فوثب أهل الإسكندرية على الأندلسيين، وأخرجوهم وردوا الفضل، وقتل من الأندلسيين نفر، وانهزم الباقون إلى مراكبهم. فعزل المطلب أخاه، وولى عليها إسحاق بن أبرهة بن الصباح في شهر رمضان سنة تسع وتسعين، ثم عزله بأبي ذكر بن جنادة المعافري.

فلما اقتتل السرى بن الحكم هو والمطلب بن عبد الله، وغلب السرى على مصر، وثب عمر ابن ملاك على أبي ذكر، وأخرجه من الإسكندرية، ودعا للجروي، وأقبل الأندلسيون إليه فأفسدوا، فأمرهم بالخروج إلى مراكبهم، فشق ذلك عليهم.

وظهرت بالإسكندرية طائفة يسمون بالصوفية، يأمرون بالمعروف، ويعارضون السلطان فى أموره، فترأس عليهم رجل منهم، يقال له أبو عبدالرحمن الصوفي، فصاروا مع الأندلسيين يدا واحدة، واعتضدوا بلخم، وكانت لخم أعز من فى ناحية الإسكندرية.

فخوصم أبو عبدالرحمن الصوفى إلى عمر بن ملاك فى امرأة، فقضى على أبى عبدالرحمن، فوجد فى نفسه من ذلك، وخرج إلى الأندلسيين فألف بينهم وبين لخم، ورجا أهل الأندلس أن يدركوا ثأراً من عمر بن ملاك.

فساروا إلى عمر بن ملاك، وهم زهاء عشرة آلاف، فحصروه فى قصره، وخشى أن القصر لايمنعه منهم، وخاف أن يدخلوا عليه عنوة فيفضح فى حرمه، فاغتسل وتحنط وتكفن، وأمر أهله أن يدلوه إليهم، فدلى فأخذته السيوف فقتل.

ثم ولى أخوه محمد بن عبد الله الذى يلقب جيوس، فقتل.

ثم ولى عليهم عبد الله البطال بن عبدالواحد بن محمد بن عبدالرحمن بن معاوية بن خديج، فقتل.

ثم ولى عليهم أخوه أبو هبيرة الحارث، فقتل.

ثم ولى عليهم خديج بن عبدالواحد، فقتل.... وانصرف القوم، وذلك فى ذى القعدة.

ثم فسد ما بين لخم والأندلسيين عند مقتل ابن ملاك، واقتتلوا، فانهزمت لخم، فظفر الأندلسيون بالإسكندرية فى ذى الحجة، فولوها أبا عبدالرحمن الصوفي، فبلغ من الفساد والنهب والقتل مالم يسمع بمثله، فعزله الأندلسيون، وولوا رجلاً منهم يعرف بالكناني.

ثم حاربت بنو مدلج الأندلسيين، فظفر بهم الأندلسيون ونفروهم عن البلاد، فلم يقدر بنو مدلج على الرجوع إلى أرض الإسكندرية حتى طلب السرى من الأندلسيين أن يردوهم، فأذنوا لهم حينئذ ورجعوا.

وكان أبو قبيل يقول : أنا على الإسكندرية من أربعين مركباً مسلمين، وليسوا بمسلمين، تأتى فى آخر الصيف، أخوف منى عليها من الروم.

فيقال له : ما هذه الأربعون مركباً فى هذا الخلق لو كانت نيراناً تضطرم ؟

فيقول : أسكت ويلك، منها وممن فيها يكون خراب الإسكندرية وما حولها.

وبلغ عبدالعزيز الجروى قتل ابن ملاك، فسار فى خمسين ألفاً حتى نزل على حصن الإسكندرية، وحصرها حتى اجهد من فيها. فبلغة أن السرى بن الحكم بعث إلى تنيس بعثاً فكر راجعاً فى المحرم سنة إحدى ومائتين، فدعا الأندلسيون للسري.

ثم لما خلع أهل مصر المأمون، ودعوا لإبراهيم بن المهدي، وقام الجروى بذلك، سار إلى الإسكندرية، وحصر الأندلسيين حتى دخلها صلحاً، ودعى له بها، ثم سار عنها إلى الفسطاط، فحارب السرى وقتل ابنه، ثم انصرف.

فثار الأندلسيون بعامل الجروى واخرجوه من الإسكندرية، وخلعوا الجروي، ودعوا للسري.

فسار إليهم الجروى فى شهر رمضان سنة ثلاث ومائتين، فعارضته القبط بسخا، وأمدتهم بنو مدلج ـ وهم فى نحو من مائتى ألف ـ فهزمهم، وبعث بجيوشه إلى الإسكندرية فحاصروها.

وكانت بين السرى وبين أهل الصعيد حروب.

ثم إن الجروى سار إلى الإسكندرية سيره الرابع وحصرها، ونصب عليها المجانيق سبعة أشهر، من أول شعبان سنة أربع ومائتين إلى سلخ صفر سنة خمس، فأصاب الجروى فلقة من حجر منجنيقة، فمات سلخ صفر سنة خمس ومائتين.

وقام من بعده أبنه علي، فلم تزل الفتن بالأندلسيين فى الإسكندرية متصلة، إلى أن قدم عبدالله بن طاهر إلى مصر من قبل أمير المؤمنين المأمون، وأخرج عبيد الله بن السرى من مصر، وسار إلى الإسكندرية فى قواد العجم من أهل خراسان، مستهل صفر سنة اثنتى عشرة ومائتين، فحاصرها بضع عشرة ليلة حتى خرج إليه أهلها بأمان.

وصالحه الأندلسيون على أن يسيرهم من الإسكندرية حيث أحبوا ، على ألا يخرجوا فى مراكبهم أحداً من أهل مصر ولا عبداً ولا آبقاً، فإن فعلوا فقد حلت له دماؤهم ، ونكث عهده.... وتوجهوا.

فبعث ابن طاهر من يفتش عليهم مراكبهم، فوجدوا فيها جمعاً من الذين اشترط عليهم ألا يخرجوهم، فأمر بإحراق مراكبهم، فسألوه أن يردهم إلى شرطهم، ففعل.

وساروا إلى جزيرة إقريطش وملكوها، وكان الأمير معهم أبو حفص عمر بن عيسي، ثم ملكها ولده من بعده، وعمرها الأندلسيون إلى أن غزاها الروم سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، وملكها بعد حصار طويل.

وولى على الإسكندرية إلياس بن أسد بن سامان، ورجع إلى الفسطاط فى جمادى الآخرة، ثم سار إلى العراق.

ولما انتفض أسفل الأرض فى جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين، وحاربهم الأفشين ومعه عيسى بن منصور الرافق أمير مصر، وبعث عبد الله بن يزيد بن مزيد الشيبانى إلى الغربية، فانهزم إلى الإسكندرية، واستجاشت عليه بنو مدلج، وحصروه فى شوال.

فسار الأفشين، وأوقع بمن فى طريقه حتى قدم الإسكندرية فى جنوده، فلقيته طائفه من بنى مدلج، فهزمهم مرتين، وأسر منهم وقتل.

ودخل الإسكندرية لعشر بقين من ذى الحجة، ففر منه رؤساؤها، وكان عليها معاوية بن عبدالواحد بن محمد بن عبدالرحمن بن معاوية بن خديج، فأصلح أمرها.

ثم خرج إلى أهل البشرود فامتنعوا عليه، حتى قدم المأمون إلى مصر، فصار إلى البشرود، والأفشين قد أوقع بالقبط بها كما تقدم ذكره.

ولما ولى إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب أفريقية فى سنة إحدى وستين ومائتين، حسنت سيرته، فكانت القوافل والتجار تسير فى الطريق وهى آمنة، وبنى الحصون والمحارس على ساحل البحر، حتى كانت توقد النار من مدينة سبتة إلى الإسكندرية، فيصل الخبر منها إلى الإسكندرية فى ليلة واحدة وبينهما مسيرة أشهر.

وفى سنة اثنتين وثلاثمائة دخل حباسه، فى جيوش أفريقية، إلى الأسكندرية فى المحرم، ومعه مائة ألف أو زيادة عليها، وقدمت الجيوش من المشرق مدداً لتكين أمير مصر، وسار حباسه من الإسكندرية.

ونودى بالنفير فى الفسطاط، لعشر بقين من جمادى الآخرة، فلم يتخلف عن الخروج إلى الجيزة أحد من الخاصة والعامة، إلا من عجز عن الحركة لمرض أو عذر. وأتاهم حباسه، فلقوه وهزموه، ثم دار عليهم، فقتل من أهل مصر نحو من عشرة آلاف، ونهض حباسه إلى أفريقية، وأقاموا بمصر مضطربين.

فأقبل مؤنس الخادم من العراق فى رمضان بجيوش كثيرة، فصرف تكين فى ذى القعدة. وولى ذكاء الأعور فى صفر سنة ثلاث وثلاثمائة، فخرج فى جيوشه إلى الإسكندرية، وتتبع كل من يوماً إليه بمكاتبه صاحب أفريقية، فسجن منهم وقتل كثيراً.

وجلا أهل لوبيه ومراقية إلى الإسكندرية، فى شوال سنة أربع وثلاثمائة، خوفاً من صاحب برقة.

وفى سنة سبع وثلاثمائة سارت مقدمة المهدى عبيد الله من أفريقية، مع ابنه أبى القاسم، إلى لوبيه. فهرب أهل الإسكندرية وجلوا عنها، وخرج منها مظفر بن ذكاء الأعور فى جيشه، ودخلت إليها العساكر يوم الجمعة لثمان خلون من صفر، وفر أهل القوة من الفسطاط إلى الشام.

فخرج ذكاء أمير مصر إلى الجيزة وعسكر بها، ثم مرض ومات على مصافه بالجيزة فى ربيع الأول.

فولى تكين بعده ولايته الثانية من قبل المقتدر، ونزل الجيزة.

وأقبلت مراكب صاحب أفريقية إلى الإسكندرية عليها سليمان الخادم، فقدم ثمل الخادم، صاحب مراكب طرسوس، فالتقيا برشيد فى شوال، فاقتتلا.

فبعث الله ريحا على مراكب سليمان ألقتها إلى البر، فتكسر أكثرها، وأخذ من فيها أخذاً باليد، وقتل أكثرهم، وأسر من بقى وسيقوا إلى الفسطاط، فقتل منهم نحو سبعمائة رجل.

وسار أبو القاسم بن المهدى من الإسكندرية إلى الفيوم، وملك جزيرة الأشمونين والفيوم وأزال عنها جند مصر.

فمضى ثمل الخادم فى مراكبه إلى الإسكندرية، فقاتل من بها من أهل أفريقية فظفر بهم، ونقل أهل الإسكندرية إلى رشيد.

وعاد إلى الفسطاط، ومضى فى مراكبه إلى اللاهون، ولحقته العساكر، فدخلوا إلى الفيوم فى صفر سنة سبع وثلاثمائة. فخرج أبو القاسم بن المهدى إلى برقة، ولم يكن بينهما قتال، ورجعت العساكر إلى الفسطاط.

ومازالت الإسكندرية وأعمالها فى اضطراب إلى أن قدمت جيوش المعز لدين الله مع القائد جوهر، فى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، فملكتها. وما برحت إلى أن قام بها نزار بن المستنصر، وكان من أمره ما قد ذكر عند ذكر خزائن القصر.

وفى سنة ثنتى عشرة وستمائة، اجتمع بالإسكندرية ثلاثة آلاف من تجار الفرنج، وقدمت بطسة إلى المينا فيها من ملوك الفرنج ملكان، فهموا أن يثوروا ويقتلوا أهل البلد ويملكوها.

فتوجه الملك العادل أبو بكر بن أيوب إليها، وقبض على التجار المذكورين وعلى من بالبطسة، واستصفى أموالهم وسجنهم، وسجن الملكين، وجرت خطوب حتى أطلق السلطان نساءهم، وعاد إلى القاهرة.

وفى سنة أربع وخمسين وخمسمائة بنى الملك الصالح طلائع بن زريك على بلبيس حصناً من لبن.

وفى سنة اثنتين وستين وخمسمائة كانت وقعة البابين، بين الوزير شاور وأسد الدين شيركوه، فانهزم عسكر شيركوه، ومضى منهم طائفة إلى الإسكندرية، ثم كانت لشيركوه على شاور، فانهزم منه إلى القاهرة.

ومضى شيركوه إلى الإسكندرية، فخرج إليه أهل الثغر، وفيهم نجم الدين محمد بن مصال والى الثغر، وقاضيه الأشرف بن الحباب، وناظره القاضى الرشيد بن الزبير، وسروا بقدومه، وسلموه المدينة.

ثم سار منها يريد بلاد الصعيد، واستخلف ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على الثغر فى ألف فارس. فنزل عليه شاور، ومعه مرى ملك الفرنج، فقام معه أهل الثغر، واستعدوا لقتال شاور، فكان ما أخرجوه أربعة وعشرين ألف فرس.

فوعدهم شاور أن يضع عنهم المكوس والواجبات، ويعطيهم الخمس إذا سلموه صلاح الدين، فأبوا ذلك، وألحوا فى قتاله، فحصرهم حتى قل الطعام عندهم.

فتوجه إليهم شيركوه، وقد حشد من العربان جموعاً كثيرة، فبعث إليه شاور، وبذل له خمسة آلاف دينار على أن يرجع إلى الشام، فأجابه إلى ذلك.

وفتحت المدينة، وخرج صلاح الدين إلى مرى ملك الفرنج، وجلس معه، فما زال به شاور أن يسلمه صلاح الدين فلم يوافقه، بل سيره إلى عمه شيركوه من البحر على عكا بمن معه إلى دمشق.

ودخل شاور إلى الإسكندرية فى سابع عشر شوال، فاستتر ابن مصال وفر إلى الشام، وقبض على ابن الخباب، وعوقب حتى فداه أهله بمال جزيل، ولم يقدر على ابن الزبير وخرج إلى رشيد.

هذا، وقد امتنع الفقيه أبو الطاهر بن عوف وجماعة كثيرة بالمنار، فوقف عليهم شاور، فقال له أبن عوف : اعذرنا يا أمير الجيوش، وسامحنا بما فعلناه.

فعفا عنهم، وولى القاضى الأشرف أبا القاسم عبدالرحمن بن منصور بن نجا ناظراً على الأموال. وخرج ومعه مرى ملك الفرنج إلى القاهرة، ثم توجه مرى إلى بلاده.

وفى سنة إحدى وسبعين وستمائة ورد الخبر بحركة الفرنج إلى ثغور مصر، فاهتم الملك الظاهر بيبرس بأمر الشواني، ونصب على أسوار الإسكندرية نحو مائة منجنيق.

وفى يوم الخميس، خامس شهر رجب سنة سبع وعشرين، خرج بعض تجار الفرنج إلى ظاهر باب البحر، حيث تجتمع العامة للفرجة، وتعرض إلى صبى أمرد يراوده عن نفسه.

فأنكر ذلك بعض من هناك من المسلمين، وقال: هذا ما يحل. فأخذ الفرنجى خفا كان بيده وضربه على وجهه، فصاح بالناس فأتوه، فقام الفرنج مع صاحبهم.

واتسع الحرق، إلى أن ركب متولى الثغر، وأغلق أبواب المدينة، وطلب من أثار الفتنة، ففروا، وعاد إلى داره وترك الأبواب مغلقة.

وكان بظاهر المدينة خلق كثير قد توجهوا على عادتهم فى حوائجهم، فحيل بينهم وبين بيوتهم، وجاء الليل وهم قيام على الأبواب يضجون ويصيحون، فمضى أعيان البلد إلى المتولي، ومازالوا به حتى فتح لهم.

فدخلوا مبادرين وهم يزدحمون، فمات منهم زيادة على عشرة أنفس، وتلفت أعضاء جماعة، وذهب من عمائم الناس ومناديلهم وغير ذلك شئ كثير، وعظم البكاء والصراخ طول الليل.

فلما كان من الغد ركب الوالى لكشف أحوال الناس، فتكاثروا عليه ورجموه، فانهزم منهم إلى داره، فتبعوه وقاتلوه، فقاتلهم من أعلى الدار حتى سفكت بينهما دماء كثيرة، وأحرقوا بابه، ونهبوا دورا بجانبه. فكتب يستنجد وإلى دمنهور ومن حوله من العربان، فأتوه واحتاطوا بالمدينة.

وسرح الطائر إلى السلطان بخروج أهل الإسكندرية عن الطاعة، فاشتد غضبه، وخشى من إطلاقهم الأمراء المسجونين، وبعث إلى القضاة فجمعهم واستفتاهم فى قتالهم، فكتبوا بما يجب.

وخرج إليهم الوزير مغلطاى الجمالي، وطوغان شاد الدواوين، وأيدمر أمير جندار، وعدة من المماليك السلطانية، وناظر الخاص، ومع الوزير تذكرة بإراقة دماء أهل الفساد، ومصادرة جماعة، وأخذ أموال أهل البلد، والقبض على الأسلحة المعدة بها للغزاة، وأمساك القاضى والشهود، وحمل الأمراء المسجونين إلى القاهرة.

فساروا فى عاشره، وقدموا الثغر بعد ثلاثة أيام، ونزل الوزير بالحبس، وفرض على الناس خمسمائة ألف دينار مصرية، وأحضر قاضى القضاة عماد الدين ونائبه فى الحديد، وأنكر عليهما كونهما شهرا النداء فى البلد بالغزاه فى سبيل الله. فأنكرا وقوع هذا منهما، وأنهما لم يكن فى قدرتهما رد السواد الأعظم.

فضرب نائبه ابن الشيبى ضرباً مبرحاً، وألزمه بحمل ستمائة ألف درهم، وألزم القاضى بخمسمائة ألف درهم، وكان قد رسم بشنقه، فتلطف فى مكاتبه السلطان، واعتذر عنه وبرأه حتى عفا عنه.

وتتبع العامة، فوسط منهم ثلاثين رجلاً فى يوم الجمعة ثالث عشرة، فتسارع الناس إلى دورهم من الخوف، فذهبت عدة عمائم، وأشتد الخوف مدة عشرين يوماً، وكتب السلطان تتوالى بالإيقاع بأهل الثغر وأخذ أموالهم، والوزير يحسن فى الجواب إلى أن جهز الأمراء المسجونين وسار من الثغر.

وقد استعرض ما به من السلاح فوجد ستة آلاف عدة كاملة، جعلها جميعها فى قاعة وختم عليها، وبلغت الجباية من الناس ما ينيف على مائتين وستين ألف دينار.

فكانت هذه من المحن العظيمة، والحوادث الشنيعة.. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ذكر مدينة اتريب

هذه المدينة بناها أتريب بن قبطيم بن مصر ابن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام.

قال ابن وصيف شاه : وكان أتريب قد انتقل إلى حيزه بعد موت أبيه قبطيم، وهى المدينة التى كان أبوه بناها له، وكان طولها اثنى عشر ميلاً، ولها أثنا عشر باباً.

وجعل فى شارعها الأعظم ثلاث قباب عالية على أعمدة بعضها فوق بعض، منها قبة فى وسط المدينة، وقبتان فى طرفيها، وجعل على كل قبة مرقباً كبيراً، وفى كل ناحية منها ملعباً ومجالس ومتنزهات تشرق.

وشق فى غربيها نهراً، وعقد عليه قناطر، وجعل من فوقها مجالس متصلة، وحولها المنازل تدور بالخليج متصلة بالقناطر على رياض مزروعة من خلفها الجنان والبساتين.

وعلى كل باب من الأبواب أعجوبة من تماثيل وأصنام متحركة، وأصنام تمنع من يؤذي.

وجعل فى داخل كل باب صورة شيطانين من صفر، فإذا قصدها أحد من أهل الخير قهقة الشيطان الذى عن يمنة الباب، وإن كان من أهل الشر بكى الشيطان الذى عن يسرة الباب.

وجعل فى كل منتزه منها من الوحش الآلف والطيور المغردة كل مستحسن، وفوق قباب المدينة صوراً تصفر إذا هبت الرياح، ونصب مرآه ترى البلاد البعيدة.

وبنى حذاءها فى الشرق مدينة، وجعل فيها ملاعب وأصناماً بارزة فى صور مختلفة، وفى وسطها بركة إذا مر بها الطير سقط عليها فلا يبرح حتى يؤخذ.

وجعل لها حصناً بأثنى عشر باباً، على كل باب تمثال يعمل أعجوبة.

وعمل حواليها جناناً، وجعل بالقرب منها - فى ناحية الشرق - مجلساً منقوشاً على ثمانى أساطين، وفوقه قبة عليها طائر منشور الجناحين، يصفر فى كل يوم ثلاث تصفيرات : بكرة، ونصف النهار، وعند غروب الشمس.

وأقام فيها أصناماً وعجائب كثيرة.

وبنى مدنا كثيرة، وأقام فيها رجلاً يقال له برسان، يعمل الكيمياء، وضرب منها دنانير، فى كل دينار سبعة مثاقيل، عليها صورته.

وعاش أترتب ملكاً ثلاثمائة وستين سنة، وبلغ من العمر خمسمائة سنة.

وعمل له ناووس فى جبل بالشرق، حفر له تحته سرب بطن بالزجاج والمرمر، وجعل على سرير من ذهب مرصع، وحملت إليه ذخائره، وجعلوا على بابه صورة تنين لا يدنو منه أحد إلا أهلكه، وسووا عليه الرمال، وزبروا عليه اسمه وتاريخ وقته.

وقال ابن الكندى : أربع كور بمصر ليس على وجه الأرض أفضل منها، ولا تحت السماء لهن نظير : كورة الفيوم، وكورة أترتيب، وكورة سمنود، وكورة أنصنا.

وكورة أتريب من جملة كور أسفل الأرض، وهى مائة وثمانى قري.

وكان يقال مدائن السحرة من ديار مصر سبع، وهى : أرمنت، وببا، وبوصير، وأنصنا، وصان، وأتريب، وصا.

ذكر مدينة تنيس

تنيس (بكسر التاء المنقوطة باثنتين من فوقها وكسر النون المشددة وياء آخر الحروف وسين مهملة) بلدة من بلاد مصر فى وسط الماء. وهى من كورة الخليج، سميت بتنيس بن حام بن نوح. ويقال بناها قليمون من ولد أتريب بن قبطيم أحد ملوك القبط فى القديم.

قال ابن وصيف شاه : وملكت بعد أتريب ابنته، فدبرت الملك وساسته بأيد وقوة، خمساً وثلاثين سنة، وماتت. فقام بالملك من بعدها ابن أختها قليمون الملك، فرد الوزراء إلى مراتبهم، وأقام الكهان على مواضعهم، ولم يخرج الأمر عن رأيهم، وجد فى العمارات وطلب الحكم.

وفى أيامه بنيت تنيس الأولى التى غرقها البحر، وكان بينه وبينها شئ كثير، وحولها الزرع والشجر والكروم، وقرى ومعاصر للخمر، وعمارة لم يكن أحسن منها.

فأمر الملك أن يبنى له فى وسطها مجالس، وينصب له عليها قباب، وتزين بأحسن الزينة والنقوش، وأمر بفرشها وإصلاحها.

وكان إذا بدأ النيل يجرى انتقل الملك إليها، فأقام بها إلى النوروز ورجع.

وكان للملك بها أمناء يقسمون المياه، ويعطون كل قرية قسطها، وكان على تلك القرى حصن يدور بقناطر، وكان كل ملك يأتى يأمر بعمارتها والزيادة فيها، ويجعلها له متنزها.

ويقال أن الجنتين اللتين ذكرهما الله تعالى فى كتابه العزيز، إذ يقول : ﴿ **واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب، وحففناهما بنخل...** ﴾(*) الآيات، كانتا لأخوين من بيت الملك أقطعهما ذلك الموضع، فأحسنا عمارته وهندسته وبنيانه. وكان الملك يتنزه فيهما، ويؤتى منهما بغرائب الفواكه والبقول، ويعمل له من الأطعمة والأشربة ما يستطيبه.

(*) ٣٢ك الكهف ١٨

فعجب بذلك المكان أحد الأخوين، وكان كثير الضيافة والصدقة، ففرق ماله فى وجوه البر. وكان الآخر ممسكاً يسخر من أخيه إذا فرق ماله، وكلما باع من قسمه شيئاً اشتراه منه، حتى بقى لايملك شيئاً.

وصارت تلك الجنة لأخيه، واحتاج إلى سؤاله، فانتهزه وطرده، وعيره بالتبذير وقال : قد كنت أنصحك بصيانة مالك فلم تفعل، ونفعنى امساكى فصرت أكثر منك مالاً وولداً، وولى عنه مسروراً بماله وجنته.

فأمر الله تعالى البحر، فركب تلك القرى وغرقها جميعها، فأقبل صاحبها يولول ويدعو بالثبور ﴿ ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً ﴾(*)... قال الله جل جلاله : ﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ﴾(**) .

وفى زمان قليمون الملك بنيت دمياط.

وملك قليمون تسعين سنة، وعمل لنفسه ناووساً فى الجبل الشرقي، وحول إليه الأموال والجواهر وسائر الذخائر، وجعل من داخله تماثيل تدور بلواليب، فى أيديها سيوف، من دخل قطعته.

وجعل عن يمينه ويساره أسدين من نحاس مذهب بلوالب، من أتاه حطماه، وزبر عليه : هذا قبر قليمون بن أتريب بن قبطيم بن مصر، عمر دهرا، وأتاه الموت فما استطاع له دفعاً. فمن وصل إليه فلا يسلبه ما عليه، وليأخذ من بين يديه.

ويقال إن تنيس أخ لدمياط.

وقال المسعودى فى كتاب «مروج الذهب» وغيره : تنيس كانت أرضاً لم يكن بمصر مثلها أستواء وطيب تربة، وكانت جناناً ونخلاً وكرماً وشجراً ومزارع، وكانت فيها مجار على ارتفاع من الأرض.

ولم ير الناس بلداً أحسن من هذه الأرض، ولا أحسن اتصالاً من جنانها وكرومها، ولم يكن بمصر كورة يقال إنها تشبهها إلا الفيوم.

(*) ٤٢ ك الكهف ١٨
(**) ٤٣ ك الكهف ١٨

وكان الماء منحدراً إليها، لا ينقطع عنها صيفاً ولا شتاء، يسقون جنانهم إذا شاءوا، وكذلك زروعهم، وسائره يصب إلى البحر من جميع خلجانه، ومن الموضع المعروف بالأشتوم.

وقد كان بين البحر وبين هذه الأرض مسيرة يوم، وكان فيما بين العريش وجزيرة قبرس طريق مسلوك إلى قبرس تسلكه الدواب يبساً، ولم يكن بين العريش وجزيرة قبرس فى البحر سير طويل، حتى علا الماء الطريق الذى كان بين العريش وقبرس.

فلما مضت لدقلطيانوس من ملكه مائتان واحدى وخمسون سنة، هجم الماء من البحر على بعض المواضع، التى تسمى اليوم بحيرة تنيس، فأغرقه، وصار يزيد فى كل عام حتى أغرقها بأجمعها. فما كان من القرى التى فى قرارها غرق، وأما الذى كان منها على ارتفاع من الأرض، فبقى منه تونة وبورا، وغير ذلك مما هو باق إلى هذا الوقت، والماء محيط بها.

وكان أهل القرى التى فى هذه البحيرة ينقلون موتاهم إلى تنيس، فنبشوهم واحداً بعد واحد. وكان استحكام غرق هذه الأرض بأجمعها قبل أن تفتح مصر بمائة سنة.

قال : وقد كان لملك من الملوك التى كانت دارها الفرما، مع أركون من أراكنة البلينا وما أتصل بها من الأرض، حروب عملت فيها خنادق وخلجان، فتحت من النيل إلى البحر، يمتنع بها كل واحد من الآخر. وكان ذلك داعياً لتشعب الماء من النيل، واستيلائه على هذه الأرض.

وقال فى كتاب «أخبار الزمان» : وكانت تنيس عظيمة لها مائة باب.

وقال ابن بطلان(٣٠٥) : تنيس بلد صغير، على جزيرة فى وسط البحر، ميله إلى الجنوب عن وسط الإقليم الرابع خمس درج، وأرضه سبخه، وهواؤه مختلف، وشرب أهله من مياه مخزونة فى صهاريج تملأ فى كل سنة عند عذوبة مياه البحر بدخول ماء النيل إليها، وجميع حاجاتها مجلوبة إليها فى المراكب.

---

(٣٠٥) هو المختار بن الحسن بن عبدون بن بطلان أبوالحسن طبيب باحث من أهل بغداد، سافر يريد مصر سنة ٤٣٩هـ ومر بحلب فأكرمه معز الدولة ثمال بن صالح، ودخل مصر سنة ٤٤١هـ فأقام ثلاث سنوات ورحل إلى القسطنطينية ثم إلى أنطاكية فترهب. وكان مسيحياً وسمى يوانيس ومات فيها سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م، ومن كتبه «دعوة الأطباء» و «تقويم الصحة» و «الأمراض العارضة» و «كناش الأديرة والرهبان» و «المدخل إلى الطب».

وأكثر أغذية أهلها السمك والجبن وألبان البقر، فإن ضمان الجبن السلطانى سبعمائة دينار حساباً، عن كل ألف قالب دينار ونصف، وضمان السمك عشرة آلاف دينار.

وأخلاق أهلها سهلة منقادة، وطبائعهم مائلة إلى الرطوبة والأنوثة.

قال أبو السرى الطبيب : إنه كان يولد بها فى كل سنة مائتا مخنث، وهم يحبون النظافة والدماثة والغناء واللذة، وأكثرهم يبيتون سكاري، وهم قليلو الرياضة لضيق البلد، وأبدانهم ممتلئة الأخلاط، وحصل بها مرض، يقال له الفواق التنيسي، أقام بأهلها ثلاثين سنة.

وقال جامع تاريخ دمياط : وكان على تنيس رجل، يقال له أبو ثور، من العرب المتنصرة. فلما فتحت دمياط سار إليها المسلمون، فبرز اليهم نحو عشرين ألفاً من العرب المتنصرة والقبط والروم، وكانت بينهم حروب آلت إلى وقوع أبى ثور فى أيدى المسلمين وانهزام أصحابه. فدخل المسلمون البلد، وبنوا كنيستها جامعاً، وقسموا الغنائم، وساروا إلى الفرما.

فلم تزل تنيس بيد المسلمين إلى أن كانت إمرة بشر بن صفوان الكلبى على مصر، من قبل يزيد بن عبدالملك، فى شهر رمضان سنة إحدى ومائة، فنزل الروم تنيس، فقتل مزاحم ابن مسلمة المرادى أميرها فى جمع من الموالي، وفيهم يقول الشاعر :

ألم تربع فيخبرك الرجال

بما لاقى بتنيس الموالي

وكانت تنيس مدينة كبيرة، وفيها آثار كثيرة للأوائل، وكان أهلها مياسير أصحاب ثراء. وأكثرهم حاكة، وبها يحاك ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا.

وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة، لا يدخل فيه من الغزل - سداء ولحمة - غير أوقيتين، وينسج باقية بالذهب، بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة، تبلغ قيمته ألف دينار. وليس فى الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه - وهو ساذج بغير ذهب - مائه دينار عينا غير طراز تنيس ودمياط.

وكان النيل إذا أطلق يشرب منه من بمشارق الفرما من ناحية جرجير وفاقوس، من خليج تنيس...

فكانت من أجل مدن مصر، وإن كانت شطا وديفو ودميرة وتونة، وما قاربها من تلك الجزائر، يعمل فيها الثوب الرفيع، فليس ذلك يقارب التنيسى والدمياطي.

وكان الحمل منها، إلى ما بعد سنة ستين وثلاثمائة، يبلغ من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين ألف دينار لجهاز العراق، فلما تولى الوزير يعقوب بن كلس تدبير المال، استأصل ذلك بالنوائب.

وكان يسكن بمدينة تنيس ودمياط نصارى تحت الذمة، وكان أهل تنيس يصيدون السمانى وغير ذلك من الطير على أبواب دورهم (والسمانى طائر يخرج من البحر فيقع فى تلك الشباك)، وكانت السفن تركب من تنيس إلى الفرما وهى على ساحل البحر.

ولما مات هارون الرشيد، وقام من بعده ابنه محمد الأمين، وأراد الغدر والنكث بالمأمون، كان على مصر حاتم بن هرثمة بن أعين من قبل الأمين، فلما ثار عليه أهل تنو ونمي، بعث إليهم السرى بن الحكم وعبدالعزيز بن الوزير الجروي، فغلبا بعد الثمانية من شوال سنة أربع وتسعين ومائة.

ثم ولى الأمير جابر بن الأشعث الطائى مصر، وصرف حاتم بن هرثمة، وكان جابر لينا. فلما تباعد ما بين محمد الأمين وبين أخيه عبد اللّه المأمون، وخلع محمد أخاه من ولاية العهد، وترك الدعاء له على المنابر، وعهد إلى ابنه موسى ولقبه بالشديد، ودعى له... تكلم الجند بمصر بينهم فى خلع محمد غضباً للمأمون، فبعث إليهم جابر ينهاهم عن ذلك، ويخوفهم عواقب الفتن.

وأقبل السرى بن الحكم يدعو الناس إلى خلع محمد، وكان ممن دخل إلى مصر فى أيام الرشيد من جند الليث بن الفضل، وكان خاملاً، فارتفع ذكره بقيامه فى خلع محمد الأمين.

وكتب المأمون إلى أشراف مصر يدعوهم إلى القيام بدعوته، فأجابوه وبايعوا المأمون فى رجب سنة ست وتسعين ومائة، ووثبوا بجابر فأخرجوه، وولوا عباد بن محمد.

فبلغ ذلك محمداً الأمين، فكتب إلى رؤساء الحوف بولاية ربيعة بن قيس الجرشي، وكان رئيس قيس الحوف، فانقاد أهل الحوف كلهم معه، يمنها وقيسها، وأظهروا دعوة الأمين وخلع المأمون، وساروا إلى الفسطاط لمحاربة أهلها، واقتتلوا فكانت بينهما قتلي، ثم انصرفوا وعادوا مراراً إلى الحرب.

فعقد عباد بن محمد لعبد العزيز الجروي، وسيره في جيش ليحارب القوم في دارهم، فخرج في ذي القعدة سنة سبع وتسعين ومائة، وحاربهم بعمريط، فانهزم الجروي، ومضى في قومه من لخم وجذام إلى فاقوس، فقال له قومه: لم لا تدعو لنفسك، فما أنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الأرض؟

فمضى فيهم إلى تنيس فنزلها، ثم بعث بعماله يجبون الخراج من أسفل الأرض.

فبعث ربيعة بن قيس يمنعه من الجباية، وسار أهل الحوف في المحرم سنة ثمان وتسعين إلى الفسطاط... فاقتتلوا، وقتل جمع من الفريقين. وبلغ أهل الحوف قتل الأمين، فتفرقوا.

وولى أمرة مصر مطلب بن عبد الله الخزاعى من قبل المأمون، فدخلها في ربيع الأول، وولى عبدالعزيز الجروى شرطته، ثم عزله وعقد له على حرب أسفل الأرض.

ثم صرف المطلب، وولى العباس بن موسى ابن عيسى في شوال، فولى عبدالعزيز الشرطة. فلما ثار الجند، وأعادوا المطلب في المحرم سنة تسع وتسعين، هرب الجروى إلى تنيس.

وأقبل العباس بن موسى بن عيسى من مكة إلى الحوف، فنزل ببلبيس ودعا قيسا إلى نصرته، ثم مضى إلى الجروى بتنيس، فأشار عليه أن ينزل دار قيس، فرجع إلى بلبيس في جمادى الآخره، وبها مات مسموماً في طعام دسه إليه المطلب على يد قيس.

فدان أهل الأحواف للمطلب وبايعوه، وسارعوا إلى جب عميرة وسالموه عندما القوه، وبعث إلى الجروى يأمره بالشخوص إلى الفسطاط، فامتنع من ذلك، وسار في مراكبه حتى نزل شنطوف.

فبعث إليه المطلب السرى بن الحكم فى جمع من الجند يسألونه الصلح، فأجابهم إليه، ثم اجتهد فى الغدر بهم، فتيقظوا له، فمضى راجعاً إلى بنا، فأتبعوه وحاربوه.

ثم عاد فدعاهم إلى الصلح ولاطف السري، فخرج إليه فى زلاج، وخرج الجروى فى مثله، فالتقيا فى وسط النيل مقابل سنفا، وقد أعد الجروى فى باطن زلاجه الحبال، وأمر أصحابه بسندفا إذا لصق بزلج السرى أن يجروا الحبال إليها، فلصق الجروى بزلاج السري، فربطه فى زلاجه وجر الحبال، وأسر السرى ومضى به إلى تنيس فسجنه بها، وذلك فى جمادى الأولى.

ثم كر الجروى وقاتل، فلقيه جموع المطلب بسفط سليط فى رجب، فظفر.

ولما عزل عمر بن ملاك عن الإسكندرية، ثار بالأندلسيين ودعا للجروي. فأقبل عبد الله بن موسى بن عيسى إلى مصر، طالباً بدم أخيه العباس، فى المحرم سنة مائتين، فنزل على عبدالعزيز الجروي، فسار معه فى جيوش كثيرة العدد فى البر والبحر حتى نزل الجيزة.

فخرج إليه المطلب فى أهل مصر، فحاربوه فى صفر، فرجع الجروى إلى شرقيون، ومضى عبد الله بن موسى إلى الحجاز، وظهر المطلب على أن أبا حرملة فرجا الأسود هو الذى كاتب عبد الله بن موسى وحرضه على المسير، فطلبه ففر إلى الجروي.

وجد المطلب فى أمر الجروي، فأخرج الجروى السرى بن الحكم من السجن، وعاهده وعاقده على أن يثور بالمطلب ويخلعه، فعاهده السرى على ذلك فأطلقه، وألقى إلى أهل مصر أن كتاباً ورد بولايته، فأستقبله الجند من أهل خراسان، وعقدوا له عليهم.

وامتنع المصريون من ولايته، فنزل داره بالحمراء، وأمده قيس بجمع منهم، وحارب المصريين فهزمهم وقتل منهم، فطلب المطلب منه الأمان فأمنه، وخرج من مصر، واستبد السرى بن الحكم بأمر مصر فى مستهل شهر رمضان.

فلما قتل الأندلسيون عمر بن ملاك بالإسكندرية، سار إليها الجروى فى خمسين ألفاً، فبعث السرى إلى تنيس بعثاً، فكر الجروى راجعاً إلى تنيس فى محرم سنة إحدى ومائتين فلما ثار الجند بالسرى فى شهر ربيع الأول، وبايعوا سليمان بن غالب، قام عباد بن محمد عليه وخلعه.

وقام بالأمر على بن حمزه بن جعفر بن سليمان بن على بن عبدالله بن عباس فى مستهل شعبان، فامتنع عباد أن يبايعه ولحق بالجروي، ثم لحق به أيضاً سليمان بن غالب، فكان معه.

وعاد السرى إلى ولاية مصر فى شعبان، وقوى سلطانه.

فلما كان فى المحرم سنة اثنتين ومائتين، ورد كتاب المأمون إليه يأمره بالبيعة لولى عهده على بنى موسى الرضي، فبويع له بمصر.

وقام فى فساد ذلك إبراهيم بن المهدى ببغداد، وكتب إلى وجوه الجند بمصر يأمرهم بخلع المأمون وولى عهده، وبالوثوب على السري.

فقام بذلك الحارث بن زرعة بن محرم بالفسطاط، وعبدالعزيز بن الوزير الجروى بأسفل الأرض، ومسلمة بن عبدالملك الطحاوى الأزدى بالصعيد، وخالفوا السري، ودعوا إلى إبراهيم بن المهدي، وعقدوا على ذلك الأمر لعبدالعزيز بن عبدالرحمن الأزدي، فحاربه السرى وظفر به فى صفر.

ولحق كل من كره بيعه على الرضى بالجروي، لمنعته بتنيس وشدة سلطانه، فسار إلى الإسكندرية وملكها، ودعى له بها وببلاد الصعيد. ثم سار فى جميع كبير لمحاربة السري، واستعد كل منهما لصاحبه بأعظم ما قدر عليه. فبعث إليه السرى ابنه ميموناً، فالتقيا بشطنوف، فقتل ميمون فى جمادى الأولى سنة ثلاث ومائتين.

وأقبل الجروى فى مراكبه إلى الفسطاط ليحرقها، فخرج إليه أهل المسجد وسألوه الكف، فانصرف عنها.

وحارب الإسكندرية غير مرة، وقتل بها من حجر أصابه من منجنيقة فى آخر صفر سنة خمس ومائتين، ومات السرى بعده بثلاثة أشهر فى آخر جمادى الأولى.

وقام بعد الجروى ابنه على بن عبدالعزيز الجروي، فحارب أبا نصر محمد بن السرى - أمير مصر بعد أبيه - بشطنوف، ثم التقيا بدمنهور، فيقال إن القتلى بينهما يومئذ كانوا سبعة آلاف، وانهزم ابن السرى إلى الفسطاط، فتبعته مراكب ابن الجروى ثم عادت، فدخل أبو حرملة فرج بينهما حتى اصطلحا.

ومات ابن السرى فى شعبان سنة ست ومائتين. فولى بعده أخوه عبيد الله بن السري، فكف عن ابن الجروي.

وبعث المأمون مخلد بن يزيد بن مزيد الشيبانى إلى مصر فى جيش من ربيعة، فامتنع عبيد اللّه بن السرى من التسليم له ومانعه، فاقتتلوا.

وانضم على بن الجروى إلى خالد بن يزيد، وأقام له الأنزال وأغاثه، وسار حتى نزل على خندق عبيدالله بن السري، فاقتتلا فى شهر ربيع الأول سنة سبع ومائتين، وجرت بينهما حروب بعد ذلك آلت إلى ترفع خالد إلى أرض الحوف.

فكره ذلك ابن الجروي، ومكر به حتى أخرجه من عمله إلى غربى النيل، فنزل نهيا، وانصرف ابن الجروى إلى تنيس، فصار خالد فى ضر وجهد، وعسكر له ابن السرى فى شهر رمضان وأسره، وأخرجه من مصر إلى مكة فى البحر.

وبعث المأمون بولاية عبيد اللّه بن السرى على ما فى يده، وهو فسطاط مصر وصعيدها وغربيها، وبولاية على بن عبدالعزيز الجروى تنيس مع الحوف الشرقى وضمنه خراجه.

وأقبل ابن الجروى على استخراج خراجه من أهل الحوف، فمانعوه وكتبوا إلى أبن السرى يستمدونه عليه، فأمدهم بأخيه، فالتقيا بكورة بنا فى بلقينة، فاقتتلوا فى صفر سنة تسع ومائتين، وامتدت الحروب بينهما إلى أثناء ربيع الأول وهم منتصفون.

فانصرف ابن الجروى فيمن معه إلى دمياط. فسار ابن السرى إلى محلة شريقون ونهبها، وبعث إلى تنيس ودمياط فملكهما.

ولحق ابن الجروى بالفرما، وسار منها إلى العريش، فنزل فيما بينها وبين غزة، ثم عاد وأغار على الفرما فى جمادى الآخرة، ففر أصحاب ابن السرى من تنيس.

وسار ابن الجروى إلى شطنوف، فخرج إليه ابن السري. واقتتلا، فكانت لابن الجروى فى أول النهار، ثم أتاه كمين ابن السرى فانهزم، وذلك فى رجب، فمضى إلى العريش، وسار ابن السرى إلى تنيس ودمياط.

ثم أقبل ابن الجروي، فى المحرم سنة عشر ومائتين، وملك تنيس ودمياط بغير قتال، فبعث إليه ابن السرى البعوث، فحاربهم.

فبينما هم فى ذلك إذ قدم عبد الله بن طاهر، فتلقاه ابن الجروى بالأموال والأنزال، وانضم إليه ونزل معه ببلبيس، فامتنع ابن السرى ودافع ابن طاهر، فتراخى له، وبعث فجبى المال، ونزل زفتا، وبعث إلى شطنوف عيسى الجلودى على جسر عقده من زفتا، وجعل ابن الجروى على سفنه التى جاءته من الشام لمعرفته بالحرب، فهزم مراكب ابن السرى فى المحرم سنة إحدى عشرة.

وصالح ابن طاهر عبيد الله بن السرى فى صفر، وخلع عليه وأجازه بعشرة آلاف دينار، وأقره بالخروج إلى المأمون، فسكنت فتن مصر بعبد الله بن طاهر.

وفى سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، ولدت بتنيس معزى جدياً له قرون عدة، ورأسه مع صدره، وبدنه ومقدمه بصوف أبيض، ومؤخره بشعر أسود، وذنبه ذنب شاة.

وولدت أمرأة سخلة لها رأس مدور، ولها يدان ورجلان وذنب.

ولثلاث بقين من ذى الحجة من هذه السنة، حدث بتنيس رعد وبرق وريح شديدة وسواد عظيم فى الجو. ثم ظهر وقت السحر فى السماء عمود نار احمرت منه السماء والأرض أشد حمرة، وخرج غبار ودخان يأخذ بالأنفاس، فلم يزل إلى الرابعة من النهار حتى ظهرت الشمس، ولم يزل كذلك خمسة أيام.

وفى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، حضر عند قاضى تنيس أبى محمد عبد الله بن أبى الريس رجل وأمرأة، فطالبت المرأة الرجل بفرض واجب عليه، فقال الرجل : تزوجت بها منذ خمسة أيام، فوجدت لها ما للرجال وما للنساء.

فبعث اليها القاضى امرأة لتشرف عليها، فأخبرت أن لها فوق القبل ذكراً بخصيتين والفرج تحتها والذكر أقلف، وأنها رائعة الحسن، فطلقها الزوج.

قال أبو عمرو الكندى : حدثنى أبو نصر أحمد بن على قال : حدثنى يس بن عبدالأحد قال : سمعت أبى يقول : لما دخل عبد الله بن طاهر مصر كنت فيمن دخل عليه، فقال :

حدثنا عبد اللّه بن لهيعة، عن أبي قبيل عن سبيع، قال : يا أهل مصر، كيف بكم إذا كان فى بلدكم فتن، فوليكم فيها الأعرج ثم الأصفر ثم الأمرد، ثم يأتى رجل من ولد الحسين، لا يدفع ولا يمنع، تبلغ راياته البحر الأخضر، يملؤها عدلاً.

فقلت : كان ذلك.... كانت الفتنة : فوليها السرى وهو الأعرج، والأصفر ابنه أبو النصر، والأمرد عبيد اللّه بن السري، وأنت عبد اللّه بن طاهر بن الحسين.

ثم إن عبد اللّه بن طاهر سار إلى الإسكندرية، وأصلح أمرها، وأخرج ابن الجروى إلى العراق.

ثم قدم به الأفشين إلى مصر فى ذى الحجة سنة خمس عشرة، وقد أمر الأفشين أن يطالبه بالأموال التى عنده، فإن دفعها إليه وإلا قتله، فطالبه فلم يدفع إليه شيئاً، فقدمه بعد الأضحى بثلاث فقتله.

وفى جمادى الآخرة سنه تسع عشرة ومائتين، ثار يحيي بن الوزير فى تنيس، فخرج إليه المظفر بن كندر أمير مصر، فقاتله فى بحيرة تنيس وأسره، وتفرق عنه أصحابه.

وفى سنة تسع وثلاثين ومائتين، أمر المتوكل ببناء حصن على البحر بتنيس، فتولى عمارته عنبة بن إسحاق أمير مصر، وأنفق فيه وفى حصن دمياط والفرما مالا عظيما.

وفى سنة تسع وأربعين ومائتين، عذبت بحيرة تنيس صيفاً وشتاء، ثم عادت ملحاً صيفاً وشتاء. وكانت قبل ذلك تقيم ستة أشهر عذبة وستة أشهر مالحة.

وفى سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، وصلت مراكب من صقلية، فنهبوا مدينة تنيس.

وفى سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة، صيد بأشتوم تنيس حوت طوله ثمانية وعشرون ذراعاً ونصف، من ذلك طول رأسه تسعة أذرع، ودائر بطنه مع ظهره خمسة عشر ذراعاً، وفتحه فمه تسعة وعشرون شبراً، وعرض ذنبه خمسة أذرع ونصف، وله يدان يجدف بهما طول كل يد ثلاثة أذرع.

وهو أملس أغبر غليظ الجلد، مخطط البطن ببياض وسواد، ولسانه أحمر، وفيه خمل كالريش طوله نحو الذراع يعمل منه أمشاط شبه الذيل، وله عينان كعينى البقر.

فأمر أمير تنيس أبو اسحاق ابن لوية به، فشق بطنه وملح بمائة أردب ملح، ورفع فكه الأعلى يعود خشب طويل، وكان الرجل يدخل إلى جوفه بقفاف الملح وهو قائم غير منحن، وحمل إلى القصر حتى رآه العزيز بالله.

وفى ليلة الجمعة، ثامن عشر ربيع الأول سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، شاهد أهل تنيس تسعة أعمدة من نار تلتهب فى آفاق السماء من ناحية الشمال، فخرج الناس إلى ظاهر البلد يدعون الله تعالى حتى أصبحوا، فخبت تلك النيران.

وفيها صيد ببحيرة تنيس حوت طوله ذراع، ونصفه الأعلى فيه رأس وعينان وعنق وصدر على صورة أسد، ويداه فى صدره بمخالبه، ونصفه الأدنى صورة حوت بغير قشر... فحمل إلى القاهرة.

وفى سنة سبع وتسعين وثلاثمائة، ولدت جارية بنتا برأسين : أحدهما بوجه أبيض مستدير، والآخر يوجه أسمر فيه سهولة، فى كل وجه عينان، فكانت ترضعهما. وكلاهما مركب على عنق واحد، فى جسد واحد، بيدين ورجلين وفرج ودبر.

فحملت إلى العزيز حتى رآها، ووهب لأمها جملة من المال، ثم عادت إلى تنيس وماتت بعد شهور.

وفى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وصل إلى تنيس، من شوانى صقلية، نحو أربعين مركباً، فحصروها يومين وأقلعوا.

ثم وصل إليها من صقلية أيضاً، فى سنة ثلاث وسبعين، نحو أربعين مركباً، فقاتلوا أهل تنيس حتى ملكوها.

وكان محمد بن إسحاق صاحب الأسطول قد حيل بينه وبين مراكبه، فتحيز فى طائفه من المسلمين إلى مصلى تنيس، فلما أجنهم الليل هجم بمن معه البلد على الفرنج وهم فى غفلة، فأخذ منهم مائة وعشرين فقطع رؤوسهم، فأصبح الفرنج إلى المصلي، وقاتلوا من بها من المسلمين، فقتل من المسلمين نحو السبعين، وسار من بقى منهم إلى دمياط.

فمال الفرنج على تنيس، وألقوا فيها النار فأحرقوها، وساروا - وقد امتلأت أيديهم بالغنائم والأسرى - إلى جهة الإسكندرية بعدما أقاموا بتنيس أربعة أيام.

ثم لما كانت سنة ست وسبعين وخمسمائة، نزل فرنج عسقلان، فى عشر حراريق، على أعمال تنيس، وعليها رجل منهم يقال له المعز، فأسر جماعة. وكان على مصر الملك العادل من قبل أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف عندما سار إلى بلاد الشام.

ثم مضى المعز، وعاد فأسر ونهب، فثار به المسلمون وقاتلوه، فظفرهم الله به وقبضوا عليه، وقطعوا يديه ورجليه، وصلبوه.

وفى سنة سبع وسبعين وخمسمائة، انتدب السلطان لعمارة قلعة تنيس وتجديد الآلات بها، عندما اشتد خوف أهل تنيس من الإقامة بها، فقدر لعمارة سورها القديم - على أساساته الباقية - مبلغ ثلاثة آلاف دينار على ثمن أصناف وآجر.

وفى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، كتب بإخلاء تنيس ونقل أهلها إلى دمياط، فأخليت فى صفر من الذرارى والأثقال، ولم يبق بها سوى المقاتلة فى قلعتها.

وفى شوال من سنة أربع وعشرين وستمائة، أمر الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر ابن أيوب بهدم مدينة تنيس، وكانت من المدن الجليلة، تعمل بها الثياب السرية، وتصنع بها كسوة الكعبة.

قال الفاكهى فى كتاب «أخبار مكة» : ورأيت كسوة مما يلى الركن الغربى (يعنى من الكعبة) مكتوباً عليها : «مما أمر به السرى بن الحكم وعبدالعزيز بن الوزير الجروي، بأمر الفضل بن سهل ذى الرياستين وطاهر بن الحسين، سنة سبع وتسعين ومائة».

ورأيت شقة من قباطى مصر فى وسطها، إلا أنهم كتبوا فى أركان البيت بخط دقيق أسود «مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين».

ورأيت كسوة من كسا المهدى مكتوباً عليها «بسم الله، بركة من الله لعبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع فى طراز تنيس، على يد الحكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة».

ورأيت كسوة من قباطى مصر مكتوباً عليها «بسم اللّه، بركة من اللّه، مما أمر به عبد اللّه المهدى محمد أمير المؤمنين، أصلحه اللّه، محمد بن سليمان أن يصنع فى طراز تنيس كسوة الكعبة، على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع وخمسين ومائة».

قال المسبحى فى حوادث سنة أربع وثمانين وثلاثمائة : وفى ذى القعدة ورد يحيي بن اليمان من تنيس ودمياط والفرما بهديته، وهى أسفاط وتخوت وصناديق مال، وخيل وبغال وحمير، وثلاث مظال، وكسوتان للكعبة.

وفى ذى الحجة سنة اثنتين وأربعمائة، وردت هدية تنيس الواردة فى كل سنة : منها خمس نوق مزينة، ومائة رأس من الخيل بسروجها ولجمها، وتجافيف وصناعات عدة، وثلاث قباب ديبقية بمراتبها، ومتحرقات وبنود، وما جرى الرسم بحمله من المتاع والمال والبز.

ولما قدم الحاكم، استدعت أخته السيدة سيدة الملك، إلى عامل تنيس عن الحاكم، بأن يحمل مالاً كان اجتمع قبله، ويعجل توجيهه، وقيل انه كان ألف ألف دينار وألفى ألف درهم، اجتمعت من ارتفاع البلد لثلاث سنين، وأمره الحاكم بتركها عنده... فحمل ذلك إليها، وبه استعانت على ما دبرت.

وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة، ورد الخبر على الخليفة الظاهر لإعزاز دين اللّه، أبى هاشم على بن الحاكم بأمر اللّه، أن السودان وغيرهم ثاروا بتنيس وطلبوا أرزاقهم، وضيقوا على العامل حتى هرب، وأنهم عاثوا فى البلد وأفسدوا، ومدوا أيديهم إلى الناس، وقطعوا الطرقات، وأخذوا من المودع ألفاً وخمسمائة دينار.

فقام الجرجراى وقعد، وقال : كيف يفعل هذا بخزانة السلطان؟ وساءنا فعل هذا بتنيس أو بيت المال، وسير خمسين فارساً للقبض على الجناة.

ومازالت تنيس مدينة عامرة، ليس بأرض مصر مدينة أحسن منها، ولا أحصن من عمارتها، إلى أن خربها الملك الكامل محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب، فى سنة أربع وعشرين وستمائة، فاستمرت خراباً، ولم يبق منها إلا رسومها فى وسط البحيرة.

وكان من جملة كورة تنيس : بورا، ومنها، وإيوان، وشطا.

وبحيرتها الآن يصاد منها السمك، وهى قليلة العمق يسار فيها بالعادي، وتلتقى السفينتان هذه صاعدة وهذه نازلة بريح واحدة، وقلع كل واحدة منهما مملوء بالريح، سيرهما فى السرعة مستو.

وتتوسط البحيرة عدة جزائر تعرف اليوم بالعزب (جمع عزبة بضم العين المهملة وزاى ثم باء موحدة)، سكنها طائفة من الصيادين وفى بعضها ملاحات يؤخذ منها ملح عذب لذيذ ملوحته، وماؤها ملح وقد يحلو أيام النيل.

تونة : وكان من جملة عمل مدينة تنيس قرية يقال لها تونة، يعمل بها طراز تنيس، ويصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة أحياناً.

قال الفاكهى : ورأيت أيضاً كسوة لهارون الرشيد، من قباطى مصر، مكتوباً عليها «بسم الله، بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هارون أمير المؤمنين، أكرمه الله، مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل فى طراز تونة سنة تسعين ومائة».

سمناى : قرية من قرى تنيس، غلبت عليها بحيرة تنيس فصارت جزيرة.

فلما كان فى شهر ربيع الأول، سنة سبع وثلاثين وثمانمائة، كشف عن حجارة وآجر بها، فإذا عضادات زجاج كثيرة مكتوب على بعضها اسم الإمام المعز لدين الله، وعلى بعضها اسم الإمام العزيز بالله نزار، ومنها ما عليه اسم الإمام الحاكم بأمر الله، ومنها ما عليه اسم الإمام الظاهر لإعزاز دين الله، ومنها ما عليه اسم المستنصر، وهو أكثرها... أخبرنى بذلك من شاهده ورآه.

بورا : كانت فيما بين تنيس ودمياط، وإليها ينسب السمك الذى يقال له «البوري»، وإليها ينسب أيضاً بنو البورى الذين كانوا بالقاهرة والإسكندرية.

وفى سنة عشر وستمائة، وصل العدو إليها بشوانيه وسباها، فقدمت إليها القطائع التى كانت على رشيد، فسار عنها العدو.

القيس (بفتح القاف وبعدها سين مهملة) : بلد ينسب إليها الثياب القيسية، آثارها إلى اليوم باقية على البحر الملح فيما بين السوادة والواردة، وبعدها من مدينة الفرما قريب من ستة برد فى البر.

وهناك تل عظيم من رمل، خارج فى البحر الشامي، يقطع الفرنج عنده الطريق على المارة، وبالقرب من التل سباخ، ينبت فيه ملح يحمله العربان إلى غزة والرملة، ويقرب هذا السباخ آبار يزرع عندها مقاثى لعربان تلك البوادي.

ذكر مدينة صا

قال ابن وصيف شاه : ولما قسم قبطيم بن مصرايم الأرض بين أشمون وأتريب وقفط وصا، انتقل كل واحد إلى قسمه وحيزه، فخرج صا بأهله وولده وحشمه إلى حيزه. وهو بلد البحيرة والإسكندرية - حتى انتهى إلى برقة ونزل مدينة صا قبل أن تبنى الإسكندرية.

وكان صا أصغر ولد أبيه واحبهم إليه، فلما ملك حيزه أمر بالنظر فى العمارات وبناء المدائن والبلدان والهياكل، وإظهار العجائب، كما صنع إخوته، وطلب الزيادة فى ذلك.

وقال مرهون الهندى صاحب بانه : فبنى من حد صا إلى حد لوبيه ومراقية على البحر أعلاماً، وجعل على رؤوس تلك الأعلام مرائى من أخلاط شتي.

فكان منها ما يمنع من دواب البحر وأذاها. ومنها ما إذا قصدهم عدو من الجزائر وأصابها الشمس، ألقت شعاعاً على مراكبهم فأحرقتها. ومنها ما يرى المدائن التى تحاذيهم من عدوة البحر وما يعمله أهلها. ومنها ما ينظر فيه إلى إقليم مصر، فيعلم منه ما يخصب وما يجدب فى كل سنة.

وجعل فيها حمامات تقد من نفسها، وجعل مستشرفات ومتنزهات. وكان ينزل كل يوم منها فى موضع بمن يخصه من خدمة وحشمه، وجعل حواليها بساتين، وسرح فيها الطيور المغردة والوحش المستأمن والأنهار المطردة والرياض المونقة.

وجعل شرفات قصوره من حجارة ملونة تلمع إذا أصابتها الشمس، فينشر شعاعها على ما حولها، ولم يدع شيئاً من آله النعمة والرفاهية إلا استعمله.

فكانت العمارة ممتدة فى رمال رشيد ورمال الإسكندرية إلى برقة. وكان الرجل يسافر فى أرض مصر لا يحتاج إلى زاد لكثرة الفواكه والخيرات، ولا يسير إلا فى ظلال تستره فى الشمس.

وعمل فى تلك الصحارى قصوراً، وغرس فيها غروساً، وساق إليها من النيل أنهاراً... فكان يسلك من الجانب الغربى إلى حد الغرب فى عمارة متصلة.

فلما انقرض أولئك القوم بقيت آثارهم فى تلك الصحاري، وخربت تلك المنازل، وباد أهلها.

ولايزال من دخل تلك الصحارى يحكى ما رآه فيها من الآثار والعجائب.

قال مؤلفه رحمه الله: حدثنى الثقة عمن دخل مدينة صا ومشى فى خرابها، فإذا هو بلبنة طولها أربعة أشبار، فتناولها وأخذ يتأملها، ثم كسرها، فإذا فيها سنبلة قدر شبر وافر كأنها كما حصدت، وفركها بيده، فخرج منها قمح أبيض كبار حبه جداً، فى قدر حب اللوبيا، فأكله كله فلم يجد فيه تغيراً.

ودخل آخر إليها قبيل سنة تسعين وسبعمائة، وأخذ منها لبنة طولها ذراع ونصف فى عرض ذراع، فكسرها، فإذا فيها سنبلة قمح، ثخن كل قمحة منها فى مقدار ما يكون أكبر من الحمص، فلم يطق كسره إلا بعدما رضه بالحجارة رضا.

ووجد بصا صنم لطيف طول أصبع، فاتفق أنه ألقى فى خابية ماء فصار خمراً. وكان ذلك عند رجل من تنيس، فصلحت حاله من بيعه ذلك الخمر. فطلبه الأمير الأوحد مستولى تنيس، ومازال به حتى أخذ الصنم منه.

رمـــل الغرابـــي

أعلم أن هذا الرمل ممتد فى الأرض، ويسميه بعضهم الرمل الهبير، وطوله من وراء جبل طى إلى أن يتصل مشرقاً بالبحر، ويمضى من وراء جبل طى إلى أرض مصر، ثم إلى بلد النوبة، ويمتد إلى البحر المحيط مسيرة خمسة أشهر.

ومنه عرق يضرب من القادسية إلى البحرين، فيعبر البحرين، فيمر على مشارق خوزستان وفارس إلى أن يرد سجستان، ويمر مشرقاً إلى مر، وآخذاً على جيحون فى برية خوارزم، ويأخذ فى بلاد الخدلخية إلى الصين والبحر المحيط فى جهة الشرق.

وهو، على ما وصفته وسقته، من المحيط بالمشرق إلى المحيط بالمغرب. وفيه جبال عظام لا ترتقي. وبعضه فى أرض سهلة ينتقل من مكان إلى مكان، ومنه أصفر لين اللمس، وأحمر وأزرق سماوي، وأسود حالك، وأكحل مشبع كالنيل، وأبيض كالثلج، ومنه ما يحكى الغبار نعومة، ومنه خشن جريش اللمس.

وزعم بعضهم أن رمل الغرابى وما يتصل به من حد العريش إلى أرض العباس حادث.

وذكر فى سبب كونه خبر فيه معتبر، وهو أن شداد بن هداد بن شداد بن عاد، أحد الملوك العادية، قدم إلى مصر، وغلب بكثرة جيوشه أشمون بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح ملك مصر، وهدم ما بناه هو وآباؤه، وبنى لنفسه أهراماً، ونصب أعلاماً زبر عليها الطلسمات، واختط موضع الإسكندرية.

وأقام هناك دهراً إلى أن نزل به وبقومه وباء، فخرجوا من أرض مصر إلى جهة وادى القري، فيما بين المدينة النبوية وأرض الشام، وعمروا الملاعب والمصانع لحبس المياه التى تجتمع من الأمطار والسيول، فكان سعة كل مصنع ميلاً فى ميل، وغرسوا النخل وغيره، وزرعوا أصناف الزراعات فيما بين راية وأيلة إلى البحر الغربي.

وامتدت منازلهم من الدثنة إلى العريش والجفار، فى أرض سلهة ذات عيون تجرى

وأشجار مثمرة وزروع كثيرة، فأقاموا بهذه الأرض دهراً طويلاً، حتى عتوا وبغوا وتجبروا وطغوا، وقالوا : نحن الأكثرون قوة، الأشدون الأغلبون.

فسلط اللّه عليهم الريح فأهلكتهم، ونسفت مصانعهم وديارهم حتى سحلتها رملاً.

فما تراه من هذه الرمال التى بأرض الجفار - ما بين العباسة حيث المنزلة التى تعرف اليوم بالصالحية إلى العريش - من رمل مصانع العادية وسحالة صخورهم، لما أهلكهم اللّه بالريح، ودمرهم تدميراً.

واياك وإنكار ذلك لغرابته، ففى القرآن الكريم ما يشهد لصحته.. قال تعالى : ﴿ **وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾(*) أى كالشئ الهالك البالي. وقيل الرميم نبات الأرض إذا يبس وديس، وقيل الورق الجاف المتحطم مثل الهشيم. والرميم الخلق البالى من كل شئ.

مراقية : مدينة مراقية كورة من كور مصر الغربية، وهى آخر حد أرض مصر. وفى آخر أرض مراقية تلقى أرض انطابلس وهى برقة، وبعدها من مدينة سنتريه نحو من بريدين.

وكان قطراً كبيراً به نخل كثير ومزارع، وبه عيون جارية، وبها إلى اليوم بقية، وثمرها جيد إلى الغاية، وزرعها إذا بذر ينبت من الحبة الواحدة من القمح مائة سنبلة، وأقل ما تنبت تسعون سنبلة، وكذلك الأرز بها فإنه جيد زاك. وبها إلى اليوم بساتين متعددة.

وكانت مراقية، فى القديم من الزمان، سكنها البربر اللذين نفاهم داود عليه السلام من أرض فلسطين، فنزلها منهم خلائق، ومنها تفرقت البربر : فنزلت زناته ومغيلة وضريسة الجبال، ونزلت لواته أرض برقة، ونزلت هوارة طرابلس المغرب، ثم انتشرت البربر إلى السويس.

فلما كان فى شوال سنة أربع وثلاثمائة من سنى الهجرة المحمدية جلا أهل لوبية ومراقية إلى الإسكندرية خوفاً من صاحب برقة.

(*) ٤١، ٤٢ ك الذاريات ٥١

ولم تزل فى اختلال إلى أن تلاشت فى زمننا، وبها بعد ذلك بقية جيدة.

كوم شريك : هذا المكان بالقرب من الإسكندرية، له ذكر فى الأخبار، عرف بشريك بن سمى بن عبد يغوث بن جزء المرادى القطيفي، من الصحابة رضى الله عنهم.

وكان على مقدمة عمرو بن العاص فى فتح الإسكندرية الثاني، فعندما كثرت جمائع الروم، انحاز شريك إلى هذا الكوم بأصحابه، ودافع الروم حتى أدركه عمرو.

وكوم شريك هذا من جملة حوف رمسيس.

غيفة : قرية تقارب مدينة بلبيس، من الفسطاط إليه مرحلتان، كانت منزلة قافلة الحاج.

ويقال أن صواع الملك الذى فقد من مدينة مصر، وجد فى رجال أخوة يوسف عليه السلام بغيفة هذه.

سمنود : كان بها برباً عليه هيئة درقة فيها كتابة.. حكى ابن زولاق، عن أبى القاسم مأمون العدل، أنه نسخ الكتابة فى قرطاس وصورة على درقة، قال : فما كنت أستقبل به أحداً إلا ولى هارباً.

وكان بها أيضاً تماثيل وصور من يملك مصر، فيهم قوم عليهم شاسيات، وبأيديهم الحراب، وعليهم مكتوب «هؤلاء يملكون مدينة مصر».

ذكر مدينة بلبيس

وسميت فى التوراة «أرض حاشان»، وفيها نزل يعقوب لما قدم على ولده يوسف عليهما السلام، فأنزله بأرض حاشان، وهى بلبيس الى العلاقمة، من أجل مواشيهم.

قال ابن سعيد : بلبيس، وإليها يصل حكمه إلى الورادة، وهى آخر حد مصر.

وإليها تنتهى المعاملة بفضة السواد، ويصير الناس يتعاملون بالفلوس بعدها إلى العريش، وهى أول الشام، وقيل هى آخر مصر.

وقال أبو عبيد البكرى : بلبيس (بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده باء مثل الأولى مفتوحة أيضاً وياء ساكنة وسين مهملة) وهو موضع قريب مصر معروف.

وذكر ابن خرداذبة فى كتاب «المسالك والممالك» : أن بين بلبيس ومدينة فسطاط مصر أربعة وعشرين ميلاً.

وذكر الواقدى أن المقوقس زوج ابنته أرمانوسة من قسطنطين بن هرقل، وجهزها بأموالها وجواريها وغلمانها وحشمها، لتسير إليه حتى يبنى عليها فى مدينة قيسارية وهم محاصرون لها. فخرجت إلى بلبيس وأقامت بها، وبعثت حاجبها الكبير فى ألفى فارس إلى الفرما، ليحفظ الطريق، ولا يدع أحداً من الروم ولا غيرهم يعبر إلى مصر.

وبعث المقوقس رسله إلى أطراف بلاده، مما يلى الشام، ألا يتركوا أحداً يدخل أرض مصر، مخافة أن يتحدثوا بغلبة المسلمين على الشام، فيدخل الرعب فى قلوب عساكره.

فلما قدم عمر بن الخطاب الجابية، وصار عمرو بن العاص إلى مصر، نزل على بلبيس- وبها أرمانوسة ابنة المقوقس- فقاتل من بها، وقتل منهم زهاء ألف فارس وأسر ثلاثة آلاف، وانهزم من بقى إلى المقوقس، وأخذت أرمانوسة وجميع مالها، وسائر ما كان للقبط فى بلبيس.

فأحب عمرو ملاطفة المقوقس، فسير إليه ابنته أرمانوسة مكرمة فى جميع مالها مع قيس بن أبى العاص السهمي، فسر بقدومها، ثم سار عمرو إلى القصر.

ولم تزل من مدائن مصر الكبار، حتى نزل عليها مرى ملك الفرنج، وأخذها عنوة بعد حصار طويل، وقتل منها آلافاً.

ولها أخبار كثيرة.

وقد خربت منذ عهد الحوادث بديار مصر، بعد سنة ست وثمانمائة، بعد ما أدركناها وبها عمارة كثيرة، وفيها عدة بساتين، وأهلها أصحاب يسار ونعم سنية.

ذكر بلد الورادة

الورادة من جملة الجفار.

قال عبيد اللّه بن عبد اللّه بن خرداذبة فى كتاب «المسالك والممالك» : وصفة الطريق والأرض من الرملة إلى أردود أثنا عشر ميلا ، ثم إلى غزة عشرون ميلاً، ثم إلى العريش أربعة وعشرون ميلاً فى رمل ، ثم إلى الورادة ثمانية عشر ميلاً، ثم إلى الغريب عشرون ميلاً، ثم إلى الفرما أربعة وعشرون ميلاً.

قال الخليفة المأمون :

للبيـــلك كـــان بالميـــدا
ن أقصـــر منـــه بالفرمـــا

غريـــب فى قرى مصـــر
يقاســـى الهـــم والسدما

ثم إلى جرير ثلاثون ميلا ، ثم إلى القاصرة أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى مسجد قضاعة ثمانية عشر ميلاً ثم إلى بلبيس أحد وعشرون ميلاً، ثم إلى فسطاط مدينة مصر أربعة وعشرون ميلاً.

وقال جامع تاريخ دمياط : ولما افتتح المسلمون الفرما ، بعدما افتتحوا دمياط وتنيس ، ساروا إلى البقارة فأسلم من بها ، وساروا منها إلى الورادة ، فدخل أهلها فى الإسلام وما حولها إلى عسقلان.

وقال القاضى الفاضل فى متجددات شهر المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة : وصابحنا الورادة فبتنا على مينا الورادة. ودخلنا الورادة ، فرأيت تاريخ منارة جامعها سنة ثمان وأربعمائة ، واسم الحاكم بأمر الله عليها.

والورادة من جملة الجفار. ويقال أخذ اسمها من الورود. ولم يزل جامعها عامراً تقام به الجمعة إلى ما بعد السبعمائة.

وبلد الورادة القديمة فى شرقى المنزلة التى يقال لها اليوم الصالحية ، وبها آثار عمائر ونخل قليل.

الصالحية : هذه البلدة اختطها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادي ، بأرض المسانح والعلاقمة ، فى أول الرمل الذى بين مصر والشام ، وأنشأ بها قصوراً وجامعاً وسوقاً ، لتكون منزلة العساكر إذا خرجوا من الرمل ، وذلك فى سنة أربع وأربعين وستمائة.

ذكر مدينة أيلة

ذكر ابن حبيب أن أثال (بضم أوله ثم ثاء مثلثة) وادى أيلة ، وأيلة (بفتح أوله ، على وزن فعله) مدينة على شاطئ البحر فيما بين مصر ومكه ، سميت بأيلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام.

وأيلة أول حد الحجاز ، وقد كانت مدينة جليلة القدر على ساحل البحر الملح ، بها التجارة الكثيرة ، وأهلها أخلاط من الناس.

وكانت حد مملكة الروم فى الزمن الغابر ، وعلى ميل منها باب معقود لقيصر ، قد كان فيه مسلحته يأخذون المكس.

وبين أيلة والقدس ست مراحل ، والطور الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام على يوم وليلة من أيلة.

وكانت فى الإسلام منزلاً لبنى أمية ، وأكثرهم موالى عثمان بن عفان ، وكانوا سقاة الحاج. وكان بها علم كثير وآداب ، ومتاجر وأسواق عامرة ، وكانت كثيرة النخل والزروع.

وعقبة أيلة لا يصعد إليها من هو راكب، وأصلحها فائق، مولى خمارويه بن أحمد بن طولون، وسوى طريقها، ورم ما استرم منها.

وكان بأيلة مساجد عديدة، وبها كثير من اليهود، ويزعمون أن عندهم برد النبي ﷺ، وأنه بعثة اليهم أماناً، وكانوا يخرجونه رداء عدنياً ملفوفاً في الثياب قد أبرز منه قدر شبر فقط.

ويقال إن أيلة هي القرية التي ذكرها الله تعالى في كتابه حيث قال : ﴿ **وأسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحـــر، إذ يعدون في السبت، إذ تأتيهم حيتانهم يـــوم سبتهم شرعا، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون** ﴾(*) .

وقد اختلف في تعيين هذه القرية، فقال ابن عباس رضى الله عنهما وعكرمة والسدى : هي أيلة. وعن أبن عباس أيضاً أنها مدينة بين أيلة والطور. وعن الزهرى أنها طبرية.

وقال قتادة وزيد بن أسلم : هي ساحل من سواحل الشام، بين مدين وعينونة، يقـال لها معنـاة.

وسئل الحسين بن الفضل : هل تجد في كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتاً، والحرام يأتيك جزافاً ؟

قال : نعم في قصة أيلة ﴿ **إذ تأتيهم حيتانهم يـــوم سبتهم شـــرعاً، ويوم لا يســـبتون لا تأتيهم** ﴾(٣٠٦).

وكان من خبر أهل القرية أنهم كانوا من بني اسرائيل، وقد حرم الله عليهم العمل في يوم السبت، فزين لهم أبليس الحيلة وقال : إنما نهيتم عن أخذ الحيتان يوم السبت، فاتخذوا الحياض، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء، فيأخذونها يوم الأحد.

(*) ١٦٣ ك الأعراف ٧

(٣٠٦) ١٦٣ ك الأعراف ٧ .

وقيل كان الرجل يأخذ خيطاً، ويضع فيه وهقه ويلقيه فى ذنب الحوت، وهو (بتحريك الهاء وإسكانها) حبل كالطول، ويجعل فى الطرف الآخر من الخيط وتداً، ويتركه كذلك إلى يوم الأحد.

ثم تطرق الناس، حين رأوا من صنع هذا لا يبتلي، حتى كثر الصيد للحيتان، ومشى به فى الأسواق، وأعلن الفسقة بصيده.

فقامت طائفه من بنى اسرائيل، وجاهرت بالنهي، واعتزلت وقالت : لا نساكنكم.

فقسموا القرية بجدار، فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم، ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا : ان للناس لشأنا.

فعلوا على الجدار، فإذا هم قردة، فدخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسابها من الأنس، فجعلت تأتيهم فتشم ثيابهم وتبكي، فيقول الناهون للقردة : ألم ننهكم؟ فتقول برأسها : نعم.

قال قتادة : فصارت الشباب قردة، والشيوخ خنازير، فما نجا إلا الذين نهوا، وهلك سائرهم.

وقيل إن ذلك كان فى زمن نبى الله داود عليه السلام.

وقيل أن آيلة أصلها أيليالية، وقد وقع ذكرها فى التوراة كذلك.

وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى : دكالة من البربر بطن من المصامدة وقالت طائفة : إن دكالة ولد أيلة ـ ويقال أيل ـ الذى سميت به عقبة أيلة، وآخر : أنهم من دغفل بن أيلة، وأنهم يعزون إلى البربر، ويقولون : نحن من ربيعة الفرس. وفى ذلك خلاف عظيم.

وذكر المسعودى أن يوشع بن نون عليه السلام، حارب السميدع بن هرمز بن مالك العمليقى ملك الشام، ببلد أيلة نحو مدين، وقتله واحتوى على ملكه. وفى ذلك يقول عون بن سعيد الجرهمى :

ألم تر أن العملقى بن هرمز

بأيلة أمسى لحمه قد تمزعا

تداعت عليه من يهود جحافل

ثمانون ألفا حاسرين ودرعـا

وهى أبيات كثيرة

وقال ابن اسحاق : فلما انتهى رسول اللّه ﷺ إلى تبوك، أتاه تحيه بن روبة صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه الجزية، وكتب لهم كتاباً فهو عندهم، وكتب لتحبة بن روبة :

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا أمنة من اللّه ومحمد النبى رسوله، لتحية بن روبة وأهل أيلة، أساقفهم وسائرهم، فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة النبى ﷺ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر. فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر.. هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة، بإن رسول الله ﷺ».

وكان ذلك فى سنة تسع من الهجرة. ولم تزل مدينة أيلة عامرة آهلة.

وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة، طرق عبد اللّه بن أدريس الجعفرى أيلية ـ ومعه بعض بنى الجراح ـ ونهبها، وأخذ منها ثلاثة آلف دينار وعدة غلال، وسبى النساء والأطفال، ثم إنه صرف عن ولاية وادى القري، فسارت إليه سريه من القاهرة لمحاربته.

قال القاضى الفاضل : وفى سنة ست وستين وخمسمائة، أنشأ الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب مراكب مفصلة، وحملها على الجمال، وسار بها من القاهرة فى عسكر كبير لمحاربة قلعة أيلة، وكانت قد ملكها الفرنج وامتنعوا بها، فنازلها فى ربيع الأول، وأقام المراكب وأصلحها وطرحها فى البحر، وشحنها بالمقاتلة والأسلحة.

وقاتل قلعة أيلة فى البر والبحر حتى فتحها فى العشرين من شهر ربيع الآخر، وقتل من بها من الفرنج وأسرهم، وأسكن بها جماعة من ثقاته، وقواهم بما يحتاجون إليه من سلاح وغيره، وعاد إلى القاهرة فى آخر جمادى الأولى .

وفى سنة سبع وسبعين، وصل كتاب النائب بقلعة أيلة، أن المراكب على تحفظ وخوف شديد من الفرنج، ثم وصل الأيرس - لعنه الله - إلى أيلة وربط العقبة، وسير عسكره إلى ناحية تبوك، وربط جانب الشام لخوفه من عسكر يطلبه من الشام أو مصر.

فلما كان فى شعبان من السنة المذكورة، كثر المطر بالجبل المقابل للقلعة بأيلة، حتى صارت به مياه استغنى بها أهل القلعة عن ورود العين مدة شهرين، وتأثرت بيوت القلعة لتتابع المطر، ووهت لضعف أساسها، فتداركها أصحابها، وأصلحوها.

وذكر أبو الحسن المسعودى فى كتاب «أخبار الزمان ومن أباده الحدثان» الكوكه، وهم أمة لهم أربعة ملوك ملكوا أرض أيلة والحجاز.

وبنى كل واحد منهم مدينة سماها باسمه، وجعلوا سائر الأرض خيمات وقسموها على ثلاثين كورة، وجعلوها أربعة أعمال لكل عمل ملك يجلس على منبر ذهب فى مدينته.

وعمل بربا - وهى بيت الحكمة - وعمل هيكلاً لأخذ الكواكب، وجعل فيه أصناماً من ذهب، كل صنم له مرتبة.

وكانت الإسكندرية، واسمها رقودة، فجعلوا لها خمس عشرة كورة، وجعلوا فيها كبار الكهنة، ونصبوا فى هياكلها من أصنام الذهب أكثر مما فى غيرها، وكان فيها مائتا صنم من ذهب.

وقسموا الصعيد على ثمانين كورة، وجعلوه أربعة أقسام، وكان عدد مدن أهل مصر، الداخلة فى كورها، ثلاثين مدينة فيها العجائب.

وقيل أن حميرا الأكبر، واسمه العرنجح ابن سبأ الأكبر - واسمه عامر، ويعرف بعبد شمس ابن يشجب بن يعرب بن قحطان - لما ملك بعد أبيه جمع جيوشه، وسار يطأ الأمم، ويدوس الممالك كما فعل أبوه، فأمعن فى المشرق حتى أبعد يأجوج ومأجوج إلى مطلع الشمس، ثم قفل نحو المغرب.

فجاءه قبائل من أهل اليمن، من بنى هود بن عابر بن شالخ بن أرفشخذ بن سام بن نوح، يشكون من ثمود بن عابر بن أرم بن سام بن نوح، وما نزل بهم من ظلمهم. فأمر برفعهم من أرض اليمن، وأنزلهم أيلة، فعمروها من أيلة إلى ذات الآصال إلى أطراف جبل نجد.

فقطعت ثمود هناك الصخور، ونحتوا من الجبال البيوت، وتكبروا وطغوا. فبعث الله فيهم صالحاً نبياً ورسولاً، فكذبوه وسألوه أن يخرج لهم ناقة من صخرة، فأخرجها لهم، فعقروها، فأهلكهم الله بالصيحة، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين.

وقد ذكر أن موسى عليه السلام سار ببنى إسرائيل، بعد موت أخيه هارون، إلى أرض أولاد العيص ـ وهى التى تعرف بجبال السراة ـ جنب بلد الشوبك. ثم مر فيها إلى أيلة، وتوجه بعد أيام إلى برية باب، حيث بلاد الكرك حتى حارب تلك الأمم.

وكان إلى جانب أيلة مدينة، يقال لها عصبون، جليلة عظيمة.

مربوط : كورة من كورة الإسكندرية، كانت لشدة بياضها لا يكاد يبين فيها دخول الليل إلا بعد وقت، وكان الناس يمشون فيها وفى أيديهم خرق سود خوفاً على أبصارهم، ومن شدة بياضها لبس الرهبان السواد.

وكانت بلاد مربوط فى نهاية العمارة والجنان المتصلة بأرض برقة. وهى اليوم من قرى الإسكندرية، يزرع بها الفواكه وغيرها. وقد وقفها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير على جهات بر بالجامع الحاكمى من القاهرة، وبها جامع عمر فى سنة ست وستين وستمائة.

ثم استأجرها الملك المؤيد شيخ المحمودي، فى سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، وجدد عمارة بستانها، وقد خرب لترداد عرب لبدة وبرقة إليه، فاستمرت فى ديوان السلطان.

وادى هبيب : هذا الوادى بالجانب الغربى من أرض مصر، فيما بين مريوط والفيوم، يجلب منه الملح والنطرون.

عرف بهبيب بن محمد بن معقل بن الواقعة ابن حزام بن عفان الغفاري، أحد أصحاب رسول الله ﷺ، شهد فتح مكة، وروى عنه أبو تميم الجيشاني، وأسلم مولى تجيب، وسعيد بن عبدالرحمن الغفاري.

وكان قد اعتزل، عند فتنة عثمان رضى الله عنه، بهذا الوادى فعرف به، وكان يقول : لا يفرق بين قضاء دين رمضان، ويجمع بين الصلاتين فى السفر.

ويقال لهذا الوادى أيضاً : وادى الملوك، ووادى النطرون، وبرية شهاب، وبرية الاسقيط، وميزان القلوب.

وكان به مائة دير للنصاري، وبقى به سبعة ديورة.

وقد ذكرت، عند ذكر الأديار من هذا الكتاب : وهو واد كثير الفوائد، فيه النطرون ويتحصل منه مال كثير، وفيه الملح الأندراني، والملح السلطانى ـ وهو على هيئة ألواح الرخام ـ وفيه الوكت، والكحل الأسود، ومعمل الزجاج. وفيه الماسكة، وهو طين أصفر فى داخل حجر أسود، يحك فى الماء ويشرب لوجع المعدة. وفيه البردى لعمل الحصر، وفيه عين الغراب، وهو ماء فى هيئة البركة، وطولها نحو خمسة عشر ذراعاً فى عرض خمسة أذرع، فى معار بالجبل، لا يعلم من أين يأتى ولا إلى أين يذهب، وهو حلو رائق.

ويذكر أنه خرج منه سبعون ألف راهب، بيد كل واحد عكاز، فتلقوا عمرو بن العاص بالطرانة، مرجعه من الإسكندرية، يطلبون أمانة لهم على أنفسهم وأديارهم.

فكتب لهم بذلك أماناً بقى عندهم، وكتب لهم أيضاً بجراية الوجه البحرى فاستمرت بأيديهم. وإن جرايتهم جاءت فى سنة زيادة على خمسة آلاف إردب، وهى الآن لا تبلغ مائة إردب.

ذكر مدينة مدين

اعلن أن مدين - أمة شعيب - هو بنو مديان بن ابراهيم عليه السلام، وأمهم قنطوراء ابنه يقطان الكنعانية، ولدت له ثمانية من الولد تناسلت منهم أمم.

ومدين على بحر القلزم، تحاذى تبوك على نحو ست مراحل، وهى أكبر من تبوك، وبها البئر التى استقى منها موسى لسائمة شعيب، وعمل عليها بيت.

قال الفراء : مدين اسم بلد وقطر، وقيل اسم قبيلة سميت باسم أبيها مدين، ويقال له مديان بن إبراهيم... قاله مقاتل وغيره.

والجمهور على أن مدين أعجمي، وقيل عربي. فإن كان عربياً فإنه يحتمل أن يكون فعيلاً من مدن بالمكان أقام به، وهو بناء نادر وقيل مهمل، أو مفعلاً من دان فتصحيحه شاذ، وهو ممنوع الصرف على كل حال، سواء كان اسم الأرض أو اسم القبيلة، عجمياً أو عربياً.

وقال المسعودى : قد تنازع أهل الشرائع فى قوم شعيب بن نوفل بن رعويل بن مر بن عيقاً بن مدين بن ابراهيم عليه السلام، وكان لسانه العربية، فمنهم من رأى أنهم من العرب الداثرة والأمم البائدة، وبعض من ذكرنا من الأجيال الخالية.

ومنهم من رأى أنهم من ولد المحصن بن جندل بن يعصب بن مدين بن إبراهيم الخليل، وأن شعيباً آخرهم فى النسب.

وقد كانوا عدة ملوك، تفرقوا فى ممالك متصلة، فمنهم المسمى بأبجد، وهوز، وحطي، وكلمن، وسعفص، وقرشت.

وهم - على ما ذكرنا - بنو المحصن بن جندل وأحرف الجمل هى أسماء هؤلاء الملوك، وهى الأثنان والعشرون حرفاً التى عليها حساب الجمل. وقد قيل فى هذه الحروف غير ما ذكرنا من الوجوه.

فكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز. وكان هوز وحطى ملكين ببلاد وج - وهى الطائف - وما اتصل بذلك من أرض نجد، وكلمن وسعفص وقرشت ملوك بمدين، وقيل ببلاد مصر. وكان كلمن على ملك مدين.

ومن الناس من رأى أنه كان ملك جميع من سمينا مشاعاً متصلٌ على ما ذكرنا ، وأن عذاب يوم الظلة كان فى ملك كلمن منهم ، وأن شعيباً دعاهم فكذبوه ، فوعدهم بعذاب يوم الظلة ، ففتح عليهم باب من السماء من نار ، ونجا شعيب بمن آمن معه إلى الموضع المعروف بأيلة ، وهى غيضة نحو مدين.

فلما أحس القوم بالبلاء ، وأشتد عليهم الحر ، وأيقنوا بالهلاك ، طلبوا شعيباً ومن آمن معه - وقد أظلتهم سحابه بيضاء ، طيبه النسيم والهواء ، لا يجدون فيها ألم العذاب - فأخرجوا شعيباً ومن آمن معه من مواضعهم ، وأزالوهم عن أماكنهم ، وتوهموا أن ذلك ينجيهم مما نزل بهم ، فجعلها الله عليهم ناراً فأتت عليهم.

فرثت جارية بنت كلمن أباها ، وكانت بالحجاز ، فقالت :

كلمن هدم ركنى ... هلكه وسط المحله

سيد القوم أتاه الـ ... حتف ناراً وسط ظله

كونت ناراً فأضحت ... دار قومى مضمحله

وقال المنتصر بن المنذر المدينى :

ألا ياشعيب قد نطقت مقالة

أبدت بها عمرا وتحيي بنى عمرو

هم ملكوا أرض الحجاز بأوجه

كمثل شعاع الشمس فى صورة البدر

وهم قطنوا البيت الحرام وزينوا

قطورا وفازوا بالمكارم والفخر

ملوك بنى حطى وسعفص ذى الندى

وهوز أرباب الثنية والحجر

قال المسعودى : ولهؤلاء الملوك أخبار عجيبة من حروب وسير، وكيفية تغلبهم على هذه الممالك وتملكهم عليها، وإبادتهم من كان فيها قبلهم من الأمم. وقيل أن الأيكة المذكورة فى قوله عز وجل : ﴿ ولقد كذب أصحاب الأيكة المرسلين ﴾(*) ، وفى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وإن كان أصحب الأيكة الظالمين فانتقمنا منهم ﴾(**) هى مدين، وقيل من ساحل البحر إلى مدين، وقيل هى غيضة نحو مدين.

وقيل بل أصحاب الأيكة الذين بعث إليهم شعيب كانوا بتبوك بين الحجر وأول الشام، ولم يكن شعيب منهم، وإنما كان من مدين.

وقال أبو عبيد البكرى : الأيكة المذكورة فى كتاب الله تعالي، التى كنت منازل قوم شعيب، روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فيها روايتان : إحداهما أن الأيكة من مدين إلى شعيب، والرواية لثانية أنها من ساحل البحر إلى مدين.

وكان شجرهم المقل، والأيكة عند أهل اللغة : الشجر الملتف، وكانوا أصحاب شجر ملتف.

وقال قوم : الأيكة الغيضة، وليكة اسم البلد وما حولها، كما قيل مكة وبكة.

وقال أبو جعفر النحاس : ولا يعلم ليكة اسم البلد.

وقال ابن قتيبة : وكان بعضهم يزعم أن بكة هو موضع المسجد، وما حولها مكة، كما فرق بين الأيكة وليكة، فقيل الأيكة الغيضة، وليكة البلد حولها.

وقال البكرى : مدين بلد بالشام معلوم تلقاء غزة، وهو المذكور فى كتاب الله تعالى.

وهذا وهم، بل مدين من أرض مصر.

وبعث رسول الله ﷺ سرية إلى مدينة مدين، أميرهم زيد بن حارثة رضى الله عنه، فأصاب سبباً من أهل ميتاً (قال ابن إسحاق : وميتا هى السواحل) فبيعوا، وفرق بين الأمهات والأولاد.

(*) ١٧٦ ك الشعراء ٢٦

(**) سورة الحجر - آيتا ٧٨، ٧٩ ك ١٥ .

فخرج رسول الله ﷺ وهم يبكون، فقال: «مالهم؟» فأخبر خبرهم، فقال: «لا تبيعوهم إلا جميعاً».

ومدين من منازل جذام بن عدى بن الحارث ابن مرة بن أدد بن زيد بن عمرو بن عزيب بن كهلان. وشعيب النبي، المبعوث إلى أهل مدين، أحد بنى وائل بن جذام.

وقد روى أن رسول الله ﷺ قال لوفد جذام: «مرحباً بقوم شعيب وأصهار موسى، ولا تقوم الساعة حتى يتزوج فيكم المسيح ويولد له».

وقال محمد بن سهل الأحول: مدين من أعراض المدينة، مثل فدك والفرع ورهاط.

قال مؤلفه رحمه الله تعالى: وكان بأرض مدين عدة مدائن كثيرة قد باد أهلها وخربت، وبقى منها إلى يومنا هذا ـ وهو سنة خمس وعشرين وثمانمائة ـ نحو الأربعين مدينة قائمة، منها ما يعرف اسمه، ومنها ما قد جهل اسمه.

فمما يعرف اسمه ـ فيما بين أرض الحجاز وبلاط فلسطين وديار مصر ـ ست عشرة مدينة، منها فى ناحية فلسطين عشر مدائن، وهى: الخلصة، والسنيطة، والمدرة، والمنية، والأعوج، والخويرق، والبئرين، والماءين، والسبع، والمعلق.

وأعظم هذه المدائن العشر الخلصة والسنيطة، وكثيراً ما تنقل حجارتها إلى غزة ويبنى بها هناك.

ومن مدائن مدين بناحية بحر القلزم والطور مدينة فاران، ومدينة الرقة، ومدينة القلزم، ومدينة أيلة، ومدينة مدين.

وبمدينة مدين إلى الآن آثار عجيبة، وعمد عظيمة.

ووجد فى مدينة الأعوج، أعوام بضع وستين وسبعمائة، جب بقلعتها بعيد المهوي، يبلغ عمقه نحو مائة ذراع، وبقاعه عدة أسفار على رفوف، حمل منها سفر طوله ذراعان وأزيد، قد غلف بلوحين من خشب، وكتابة بالقلم المسند، طول الألف واللام نحو شبر.

فوجد ببلاد الكرك من قرأه، فإذا هو سفر من عشرة أسفار، قد ابتدأه بحمد الله، ثم قال: خروج موسى من أرض مصر إلى بلاد مدين، وملوك بنى مدين فيما بعد شعيب. فذكر

لموسى عليه السلام عدة أسماء منها : اسمه بالعربية موسى بن عمران، وبالعبرانية موشي، وبالفارسية داران، وبالقبطية هروسيس.

وذكر أنه تزوج ابنه شعيب، وأنه أقام بمدين ثماني حجج، ثم قال لابنه شعيب : قد أتممت لك شرطك، وسأزيدك ستتين فضلاً مني.

بقية خبر مدينة مدين

قال : وخرج موسى متوجهاً إلى مصر، والملك يومئذ على مدين أبجد.

قال : وقوى أمر أبجد، فطغى حتى ملك الحجاز واليمن، وكان له خمسة أولاد، هم : هوز، وحطي، وكلمن، وسعفص، وقرشت. فأقام أبجد ملكاً باليمن مائة سنة ومات.

وقد استخلف من بعده ابنه كلمن باليمن، وجعل ابنه هوز على الحجاز، وابنه حطى على أرض مصر، وأبنه سعفص على الجزيرة وبلادها حيث الموصل وحران إلى أرض العراق، وابنه قرشت على العراق ومشارفها من خراسان.

وكان قرشت هو الجبار فيهم، وكان سعفص وهوز وكلمن أهل عدل وحلم، وكان حطى صاحب بطش وجرأة.

وكان بنو إسرائيل إذ ذاك بالشام، فلم يملك أولاد أبجد أرض الشام، ولا احتووا عليها.

وكانت مدة ملكهم نحوا من مائة وخمسين سنة. فتم لهم بدولة أبيهم أبجد ثلاثمائة سنة وأزيد.

ثم ملك بعدهم على بنى اسرائيل روزيت ابن هوز، وعرزيت بن حطى بن أبجد، نحو سبع سنين. ثم خرجت الدولة عن أولاد أيجد.

وأقام هذا الكتاب عندهم زماناً، ثم أعادوه إلى الجب من قلعة الأعوج.

حدثني بهذا الخبر الحافظ المتقن الضابط أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالرحمن الغرياني التونسي المالكي، قال : حدثني به شتر بن غنيم العامري ـ شيخ لقبه بأرض فلسطين ـ أنه شهد الكتاب المذكور وهو شاب، وحفظ منه ما تقدم ذكره.

وقيل إن مالك بن دعر بن حجر بن جديلة ابن لخم، كان له أربعة وعشرون ولداً ذكراً، فكثرت أولادهم حتى بنوا المدائن والقرى والحصون، وعمروا بلاد مدين كلها، وغلبوا على بلاد الشام ومصر والحجاز وغيرها خمسمائة سنة.

وقيل إنما كان استيلاء ملوك مدين على مصر خمسمائة سنة، بعد غرق فرعون موسى وهلاك دلوكة بنت زفان، حتى أخرجهم منها نبي الله سليمان بن داود، فعاد الملك إلى القبط بعدهم.

ذكر مدينة فاران

هذه المدينة بساحل بحر القلزم، وهي من مدن العماليق، على تل بين جبلين، وفي الجبلين نقوب كثيرة لا تحصى مملوءة أمواتاً.

ومن هناك إلى بحر القلزم مرحلة واحدة، ويقال له هناك ساحل بحر فاران، وهو البحر الذي أغرق الله فيه فرعون.

وبين مدينة فاران والتيه مرحلتان.

ويذكر أن فاران اسم لجبال مكة، وقيل اسم لجبال الحجاز، وهي التي ذكرت في التوراة.

والتحقيق أن فاران والطور كورتان من كور مصر القبلية، وهي غير فاران المذكورة في التوراة.

وقيل إن فاران بن عمرو بن عمليق هو الذي نسب إليه جبال الحرم، فقيل جبال فاران، وبعضهم يقول جبال فران.

وكانت مدينة فاران من جملة مدائن مدين إلى اليوم، وبها نخل كثير مثمر أكلت من ثمره، وبها نهر عظيم، وهي خراب يمر بها العربان.

ذكر أرض الجفار

أعلم أن الجفار أسم لخمس مدائن وهى : الفرما، والبقارة، والورادة، والعريش، ورفح.

والجفار كله رمل، وسمى بالجفار لشدة المشى فيه على الناس والدواب، من كثرة رمله، وبعد مراحله.

والجفار تجفر فيه الإبل، فاتخذ له هذا الاسم... كما قيل للحبل الذى يهجر به البعير هجار، وللذى يحجر به حجار، وللذى يعقل به عقال، وللذى يبطن بن بطان، وللذى يخطم به خطام، وللذى يزم به زمام.

واشتقت البقارة من البقر، والورادة من الوريد، والعريش أخذ من العرش، وقيل أن رفح اسم جبل.

وكان يسكن الجفار فى القديم خدام بن العريان.

ويقال إن أرض الجفار كانت فى الدهر الأول والزمن الغابر متصلة العمارة، كثيرة البركات، مشهورة بالخيرات، لكثرة زراعة أهلها الزعفران والعصفر وقصب السكر. وكان ماؤها غزيراً عذباً، ثم صار بها نخل يحدث بها من كل النواحي، إلى أن دمرها الله تدميراً، فصارت إلى اليوم ذات رمل عظيم يسلك فيه إلى العريش والى رفح، كله قفر، تعرف بقعته برمل الغرابي، قليل الماء، عديم المرعي، لا أنيس به... فسبحان محيل الأحوال.

ذكر صعيد مصر

الصعيد : المرتفع من الأرض، وقيل الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة، وقيل ما لم يخالطه رمل ولا سبخه، وقيل هو وجه الأرض، وقيل الأرض الطيبة، وقيل هو كل تراب طيب.

وتسمية هذه الجهة من أرض مصر بهذا الأسم إنما حدث فى الإسلام، سماها العرب بذلك لأنها جهة مرتفعة عما دونها من أرض مصر، ولذلك يقال فيها أعلى الأرض، ولأنها أرض ليس فيها رمل ولا سباخ، بل كلها أرض طيبة مباركة. ويقال للصعيد أيضاً الوجه القبلي.

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه : ولما حضرت مصرايم الوفاة عهد إلى ابنه قبطيم، وكان قد قسم أرض مصر بين بنيه : فجعل لقبطيم من بلد قفط إلى أسوان، ولأشمون من بلد أشمون إلى منف، ولأتريب الحوف كله، ولصا من ناحية صا البحيرة إلى قرب برقة.

وقال لأخيه فارق : لك من برقه إلى الغرب، فهو صاحب أفريقية، وولده الأفارق.

وأمر كل واحد من بنية أن يبنى لنفسه مدينة فى موضعه.

وقال ابن عبدالحكم : فلما كثر ولد مصر وأولاد أولادهم، قطع مصر لكل واحد منهم قطعة يحوزها لنفسه ولولده، وقسم لهم هذا النيل.

فقطع لأبنه قفط موضع قفط فسكنها، وبه سميت قفط قفطاً، وما فوقها إلى أسوان، وما دونها إلى أشمون فى الشرق والغرب.

وقطع لأشمون من أشمون، فما دونها فى الشرق والغرب، إلى منف، فسكن أشمون أشمون، فسميت به.

وقطع لصا ما بين صا إلى البحر، فسكن صا فسميت به.

فكانت مصر كلها على أربعة أجزاء : جزءين بالصعيد، وجزءين بأسفل الأرض.

وقال أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوى فى كتاب «الطالع السعيد فى تاريخ الصعيد» : مسافة إقليم الصعيد الأعلى مسيرة أثنى عشر يوماً بسير الجمال، وعرضه ثلاث

ساعات وأكثر بحسب الأماكن العامرة. ويتصل عرضه فى الكورة الشرقية بالبحر الملح وأراضى البجة، وفى الغربية بألواح، وهى كورتان : شرقية وغربية، والنيل بينهما فاصل.

وأول الشرقية من مرج بنى هميم، المتصلة أرضها بأراضى جرجا من عمل أخميم، وآخرها من قبلى الهو، ويليها أول أراضى النوبة، وفى هذه الكورة تيج وقفط وقوص.

وأول الكورة الغربية برديس تتصل أرضها بأرض جرجا، وفى هذه الكورة الغربية سمهود، وآخر الكورة الغربية أسوان، وبحافته أكثر النخل من الجانبين، لتكون مساحة الأراضى التى فيها النخل والبساتين تقارب عشرين ألف فدان، والمستولى على إقليم الصعيد المشتري.

ويقال كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب تمراً، فغصبها بعض الولاة، فلم تحمل فى ذلك العام ولا تمرة واحدة، وكانت هذه النخلة فى الجانب الغربي، ويبيع منها فى الغلاء كل ويبة بدينار.

ويقال لما صورت الدنيا لأمير المؤمنين هارون بن محمد الرشيد، لم يستحسن إلا كورة سيوط من صعيد مصر، فإنها ثلاثون ألف فدان فى استواء من الأرض، لو وقعت فيها قطرة ماء لا تنشرت فى جميعها.

وبالصعيد بقايا سحر قديم.

حكى الأمير طقطباً ـ والى قوص فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ـ قال : أمسكت امرأة ساحرة فقلت لها : أريد أن أبصر شيئاً من سحرك.

فقالت : أجود عملى أن أسحر العقرب على اسم شحص بعينه، فلابد أن تقع عليه، ويصيبه سمها فتقتله.

فقلت : أرينى هذا، وأقصدينى بسحرك.

فأخذت عقرباً وعملت ما أحبت، ثم أرسلت العقرب فتبعني، وأنا أتنحى عنه، وهو يقصدني.

فجلست على تخت وضعته على بركة ماء، فأقبل العقرب إلى ذلك الماء، وأخذ فى التوصل إلى فلم يطلق ذلك، فمر الى الحائط، وصعد فيه وأنا أشاهده، حتى وصل إلى

السقف، ومر فيه إلى أن صار فوقي، وألقى نفسه صوبي، وسعى نحوى حتى قرب مني، فضربته فقتلته، ثم قتلت الساحرة أيضاً.

وأرض الصعيد كثيرة المواشي، من الضأن وغير ذلك لكثرة نتاجه، حتى أن الرأس الواحد من نعاج الضأن يتولد عنه فى عشر ستون ألفاً وأربعة وعشرون رأساً... وذلك بتقدير السلامة، وأن تلد كلها أثاثاً، وتلد مرة واحدة كل سنة، ولا تلد فى كل بطن غير رأس واحد، وإلا فإن ولدت فى السنة مرتين، وكان فى كل بطن رأسان، تضاعف العدد. وتأمل حساب ما قلناه تجده صحيحاً.

وقد شوهد كثيراً أن من أغنام الصعيد ما يلد من السنة ثلاث مرات، ويلد فى البطن الواحد ثلاثة أرؤس.

وكانت الكثرة والغلبة ببلاد الصعيد لست قبائل وهم : بنو هلال، وبلي، وجهينة، وقريش، ولواته، وبنو كلاب. وكان ينزل مع هؤلاء عدة قبائل سواهم من الأنصار ومن مزينة وبنى دراج وبنى كلاب وثعلبة وجذام.

وبلغ من عمارة الصعيد أن الرجل، فى أيام الناصر محمد بن قلاوون وما بعدها، كان يمر من القاهرة إلى أسوان فلا يحتاج إلى نفقه، بل يجد بكل بلد وناحية عدة دور للضيافة إذا دخل دارا منها أحضر لدابته علفها وجيء له بما يليق به من الأكل ونحوه، وآل أمره الآن إلى ألا يجد الرجل أحداً فيما بين القاهرة وأسوان يضيفه لضيق الحال.

ثم تلاشى أمر بلاد الصعيد منذ سنة الشراقى فى أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون سنة ست وسبعين وسبعمائة، وتزايد تلاشيه فى أيام الظاهر برقوق لجور الولاه. ولم يزل فى إدبار إلى أن كانت سنة ست وثمانمائة، وشرقت مصر بقصور مد النيل، فدهى أهل الصعيد من ذلك بما لا يوصف، حتى أنه مات من مدينة قوص سبعة عشر ألف إنسان، ومات من مدينة سيوط أحد عشر ألف إنسان ممن غسل، وكفن، ومن مدينة هو خمسة عشر ألف إنسان... وذلك كله سوى الطرحى على الطرقات، ومن لا يعرف من الغرباء ونحوهم. ثم دمر فى أيام المؤيد شيخ فلم يبق منه إلا رسوم تبذل الولاة الجهد فى محوها، نسأل الله حسن الخاتمة.

ذكر الجنادل
ولمع من أخبار أرض النوبة

الجندل ما يقل الرجل من الحجارة، وقيل هو الحجر كله، الواحدة جندلة.

والجندل الجنادل، قال سيبويه : وقالوا جندل يعنون الجنادل، وصرفوه لنقصان البناء عما لاينصرف، وأرض جندلة ذات جندل. وقيل الجندل المكان الغليظ فيه حجارة، ومكان جندل : كثير الجندل.

قال عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى فى كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوه والبجة والنيل : وأول بلد النوبة قرية تعرف بالقصر من أسوان إليها خمسة أميال، وآخر حصن للمسلمين جزيرة تعرف ببلاق بينها وبين قرية النوبة ميل، وهو ساحل بلد النوبة.

ومن أسوان إلى هذا الموضع جنادل كثيرة الحجر، لا تسلكها المراكب إلا بالحيلة ودلالة من يخبر بذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك، لأن هذه الجنادل متقطعة وشعاب معترضة فى النيل، ولانصبابه فيها خرير عظيم ودوى يسمع من بعد.

وبهذه القرية مسلحة وباب إلى بلد النوبة، ومنها إلى الجنادل الأولى من بلد النوبة عشر مراحل. وهى الناحية التى يتصرف فيها المسلمون، ولهم فيما قرب أملاك، ويتجرون فى أعلاها. وفيها جماعة من المسلمين قاطنون، لا يفصح أحدهم بالعربية، وشجرها كثير.

وهى ناحية ضيقة شظفة كثيرة الجبال، وما تخرج عن النيل، وقراها متسطرة على شاطئه، وشجرها النخل والمقل، وأعلاها أوسع من أدناها، وفى أعلاها الكروم. والنيل لايروى مزارعها لارتفاع أرضها، وزرعها الفدان والفدانان والثلاثة على أعناق البقر بالدواليب.

والقمح عندهم قليل والشعير أكثر والسلت، ويعتقبون الأرض لضيقها فيزرعونها فى الصيف، بعد تطريتها بالزبل والتراب، الدخن والذرة والجاورس والسمسم واللوبيا.

وفى هذه الناحية لجراش مدينة المريس، وقلعة أبريم، وقلعة أخرى دونها، وبها مينا تعرف بأدراء ينسب إليها لقمان الحكيم وذو النون، وبها بربا عجيب.

ولهذه الناحية وال من قبل عظيم النوبة يعرف بصاحب الجبل من أجل ولاتهم لقربه من أرض الإسلام. ومن يخرج إلى بلد النوبة من المسلمين فمعاملته معه، فى تجارة أو هدية إليه أو إلى مولاه، يقبل الجميع ويكافئ عليه بالرقيق، ولا يطلق لأحد الصعود إلى مولاه لا لمسلم ولا لغيره.

وأول الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى هى ساحل، وإليها تنتهى مراب النوبة المصعدة من القصر أول بلدهم، ولا تتجاوزها المراكب، ولا يطلق لأحد من المسلمين ولا من غيرهم الصعود منها إلا بإذن من صاحب جبلهم، ومنها المقس الأعلى ست مراحل.

وهى جنادل كلها، وشر ناحية رأيتها لهم لصعوبتها وضيقها ومشتقة مسالكها.

أما بحرها فجنادل وجبال معترضة فيه، حتى أن النيل ينصب من شعاب ويضيق فى مواضع حتى يكون سعة ما بين الجانبين خمسين ذراعاً.

وبرها مجاوب ضيقة، وجبال شاهقة، وطرقات ضيقة، حتى لا يمكن الراكب أن يصعد منها، والراجل الضعيف يعجز عن سلوكها، ورمال فى غربها وشرقها.

وهذه الجبال حصنهم، وإليها يفزع أهل الناحية التى قبلها المتصلة بأرض الإسلام.

وفى جزائرها نخل يسير، وزرع حقير، وأكثر أكلهم السمك، ويدهنون بشحمه.

وهى من أرض مريس، وصاحب الجبل واليهم، والمسلحة بالمقس الأعلى صاحبها من قبل كبيرهم شديد الضبط لها، حتى أن عظيمهم إذا صار بها وقف به المسلحى وأوهم أنه يفتش عليه، حتى يجد الطريق إلى ولده ووزيره فمن دونهما.

ولا يجوزها دينار ولا درهم، إذ كانوا لا يتبايعون بذلك إلا دون الجنادل مع المسلمين، وما فوق ذلك لا بيع بينهم ولا شراء، وإنما هى معاوضة بالرقيق والمواشى والحبال والحديد والحبوب.

ولا يطلق لأحد أن يجوزها إلا بأذن الملك، ومن خالف كان جزاؤه القتل كائناً من كان. وبهذا الاحتياط تنكتم أخبارهم، حتى أن العسكر منهم يهجم على البلد إلى البادية وغيرهم فلا يعلمون به.

والسنباد الذى يخرط به الجوهر يخرج من النيل فى هذه المواضع، يغطس عليه فيوجد جسمه بارداً مخالفاً للحجارة، فإذا أشكل عليه نفخ فيه بالفم فيعرق.

ومن هذه المسلحة إلى قرية تعرف بساى جنادل أيضاً، وهى آخر كرسيهم، ولهم فيها أسقف، وفيها بربا.

ثم ناحية سقلودا، وتفسيرها السبع ولاة، وهى أشبه الأرض بالأرض المتاخمة لأرض الإسلام فى السعة والضيق فى مواضع والنخل والكرم والزرع وشجر المقل. وفيها شئ من شجر القطن، ويعمل منه ثياب وخشة، وبها شجر الزيتون.

وواليها من قبل كبيرهم، وتحت يده ولاة يتصرفون.

وفيها قلعة تعرف بأصطنون، وهى أول الجنادل الثلاثة، وهى أشد الجنادل صعوبة لأن فيها جبلاً معترضاً من الشرق إلى الغرب فى النيل، والماء ينصب من ثلاثة أبواب ـ وربما رجع إلى بابين عند انحساره ـ شديد الخرير عجيب المنظر، يتحدر الماء عليه من علو الجبل.

وقبليه فرش حجارة فى النيل نحو ثلاثة برد إلى قرية تعرف بيستو، وهى آخر قرى مريس وأول بلد مقرة.

ومن هذا الموضع إلى حد المسلمين لسانهم مريسي، وهى آخر عمل متملكهم.

ثم ناحية بقون، وتفسيرها العجب، وهى عند اسمها لحسنها. وما رأيت على النيل أوسع منها. وقدرت أن سعة النيل فيها من الشرق إلى الغرب مسيرة خمس مراحل... الجزائر تقطعه، والأنهار منه تجرى بينها على أرض منخفضة، وقرى متصلة، وعمارة حسنة، بأبرجة حمام ومواش وأنعام.

وأكثر ميرة مدينتهم منها، وطيورها النقط والنوبى والببغا، وغير ذلك من الطيور الحسان. وأكثر نزهة كبيرهم فى هذه الناحية.

قال : وكنت معه فى بعض لأوقات فكان سيرنا فى ظل شجر من الحافتين فى الخلجان الضيقة. وقيل إن التمساح لا يضر هناك، ورأيتهم يعبرون أكثر هذه الأنهار سباحة.

ثم سفدبقل وهى ناحية ضيقة شبيهة بأول بلادهم إلا أن فيها جزائر حسانا، وفيها دون المرحلتين نحو ثلاثين قرية بالأبنية الحسان والكنائس والأديار والنخل الكثير والكروم والبساتين والزرع، ومروج كبار فيها إبل وجمال صهب مؤبلة للنتاج.

وكبيرهم يكثر الدخول إليها لأن طرفها القبلى يحاذى دنقلة مدينتهم، ومن مدينة دنقلة دار المملكة الى أسوان خمسون مرحلة.

وذكر صفتها ثم قال : إنهم يسقفون مجالسهم بخشب السنط، وبخشب الساج الذى يأتى به النيل فى وقت الزيادة، سقالات منحوته لا يدرى من أين تأتي، ولقد رأيت على بعضها علامة غريبة.

ومسافة ما بين دنقلة إلى أول بلد علوة أكثر مما بينها وبين أسوان، وفى ذلك من القرى والضياع والجزائر والمواشى والنخل والشجر والمقل والزرع والكرم أضعاف ما فى الجانب الذى يلى أرض الإسلام.

وفى هذه الأماكن جزائر عظام مسيرة أيام، فيها الجبال والوحش والسباع، ومفاوز يخاف فيها العطش.

والنيل ينعطف من هذه النواحى إلى مطلع الشمس وإلى مغربها مسيرة أيام حتى يصير المصعد كالمنحدر. وهى الناحية التى تبلغ العطوف من النيل الى المعدن المعروف بالشلة، وهو بلد يعرف بشنقير، ومنه خرج العمرى وتغلب على هذه الناحية إلى أن كان من أمره ما كان.

وفرس البحر يكثر فى هذه المواضع.

ومن هذا الموضع طرق إلى سواكن وباصع ودهلك وجزائر البحر، ومنها عبر من لجا من بنى أمية عند هربهم إلى النوبة.

وفيها خلق من البجة يعرفون بالرنافج انتقلوا إلى النوبة قديماً وقطنوا هناك، وهم على حدتهم فى الرعى واللغة لا يخالطون النوبة ولا يسكنون قراهم، وعليهم وال من قبل النوبة.

ذكر تشعب النيل من بلاد علوة
ومن يسكن عليه من الأمم

أعلم أن النوبة والمقره جنسان بلسانين كلاهما على النيل : فالنوبة هم المريس المجاورون لأرض الإسلام، وبين أول بلدهم وبين أسوان خمسة أميال.

ويقال إن سلها جد النوبة، ومقرى جد المقرة، من اليمن.

وقيل النوبة ومقرى من حمير.

وأكثر أهل الأنساب على أنهم جميعاً من ولد حام بن نوح.

وكان بين النوبة والمقرة حروب قبل النصرانية.

وأول أرض المقره قرية تعرف بنافة على مرحلة من أسوان. ومدينة ملكهم يقال لها لجراش، على أقل من عشر مراحل من أسوان. ويقال إن موسى صلوات اللّٰه عليه غزاهم قبل مبعثه فى أيام فرعون، فأخرب نافة، وكانوا صابئة يعبدون الكواكب وينصبون التماثيل لها، ثم تنصروا جميعاً : النوبة والمقرة.

ومدينة دنقلة هى دار مملكتهم، وأول بلاد علوة قرى فى الشرق على شاطئ النيل تعرف بالأبواب. ولهذه الناحية وال من قبل صاحب علوة يعرف بالرحراح.

والنيل يتشعب من هذه الناحية على سبعة أنهار، فمنها نهر يأتى من ناحية المشرق كدر الماء يجف فى الصيف حتى يسكن بطنه، فإذا كان وقت زيادة النيل نبع فيه الماء، وزادت البرك التى فيه، وأقبل المطر والسيول فى سائر البلد فوقعت الزيادة فى النيل. وقيل إن آخر هذا النهر عين عظيمة تأتى من جبل.

قال مؤرخ النوبة : وحدثنى سميون صاحب عهد بلد علوة أنه يوجد فى بطن هذا النهر حوت لاقشر له، ليس هو من جنس ما فى النيل، يحفر عليه قامة وأكثر حتى يخرج، وهو كبير.

وعليه جنس مولد بين العلوة والبجة يقال لهم الديجيون، وجنس يقال لهم بازة، يأتى من عندهم طير يعرف بحمام بازين.

وبعد هؤلاء أول بلاد الحبشة، ثم النيل الأبيض، وهو نهر يأتى من ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن.

قال : وقد سألت من طرق بلاد السودان من المغاربة عن النيل الذى عندهم وعن لونه، فذكر أنه يخرج من جبال الرمل (أو جبل الرمل) وأنه يجتمع فى بلد السودان فى برك عظام، ثم ينصب إلى ما لا يعرف، وأنه ليس بأبيض، فإما أن يكون اكتسب ذلك اللون مما يمر عليه، أو من نهز آخر ينصب إليه، وعليه أجناس من جانبيه.

ثم النيل الأخضر، وهو نهر يأتى من القبلة مما يلى الشرق شديد الخضرة، صافى اللون جداً، يرى ما فى قعرة من السمك، وطعمه مخالف لطعم النيل، يعطش الشارب منه بسرعة، وحيتان الجميع واحدة، غير أن الطعم مختلف، ويأتى فيه وقت الزيادة خشب الساج والبقم والغثاء، وخشب له رائحة كرائحة اللبان، وخشب غليظ ينحت ويعمل منه مقدام. وعلى شاطئه ينبت هذا الخشب أيضاً. وقيل إنه وجد فيه عود البخور.

قال : وقد رأيت على بعض سقالات الساج المنحوتة التى تأتى فيه وقت الزيادة علامة غريبة، ويجتمع هذان النهران الأبيض والأخضر عند مدينة متملك بلد علوة، ويبقيان على ألوانهما قريباً من مرحلة، ثم يختلطان بعد ذلك وبينهما أمواج كبار عظيمة بتلاطمهما.

قال : وأخبرنى من نقل النيل الأبيض وصبه فى النيل الأخضر، فبقى فيه مثل اللبن ساعة قبل أن يختلطا. وبين هذين النهرين جزيرة لا يعرف لها غاية، وكذلك لا يعرف لهذين النهرين نهاية. فأولهما يعرف عرضه، ثم يتسع فيصير مسافة شهر، ثم لا تدرك سعتهما لخوف من يسكنهما بعضهم من بعض. لأن فيهما أجناساً كثيرة وخلقاً عظيماً.

قال : وبلغنى أن بعض متملكى بلد علوة سار فيها يريد أقصاها فلم يأت عليه بعد سنين وأن فى طرفها القبلى جنساً يسكنون ودوابهم فى بيوت تحت الأرض مثل السراديب بالنهار من شدة حر الشمس، ويسرحون فى الليل، وفيهم قوم عراة.

والأنهــار الأربعة البـاقية تأتى أيضاً من القبلة، مما يلى الشرق أيضاً، فى وقت واحد، ولا يعرف لها نهاية أيضاً، وهى دون النهرين الأبيض والأخضر فى العرض وكثرة الخلجان والجزائر.

وجـميع الأنهـار الأربعـة تنصب فى الأخـضـر، وكذلك الأول الذى قـدمت ذكـره، ثم يجتمع مع الأبيض. وكلها مسكونة عامرة مسلوك فيها بالسفن وغيرها، وأحد هذه الأربعة يأتى مدّة من بلاد الحبشة.

قال : ولقد أكثرت السؤال عنها، واستكشفتها من قوم عن قوم، فما وجدت مخبراً يقول إنه وقف على نهاية جميع هذه الأنهار. والذى انتهى إليه علم من عرفنى عن آخرين إلى خراب، وأنه يأتى فى وقت الزيادة فى هذه الأنهار آلة مراكب وأبواب وغير ذلك، فيدل على عماره بعد الخراب.

فأما الزيادة، فيجمعون أنها من الأمطار مع مادة تأتى من ذاتها. والدليل على ذلك النهر الذى يجف ويسكن بطنه، ثم ينبع وقت الزيادة، ومن عجائبه أن زيادته فى أنهار مجتمعة، وسائر النواحى والبلدان فى مصر وما يليها، والصعيد وأسوان وبلد النوبة وعلوة وما وراء ذلك فى زمان واحد.

وأكثر ما وقف عليه من هذه الزيادة أنه ربما وجدت مثلاً بأسوان ولا توجد بقوص ثم تأتى بعد. فإذا كثرت الأمطار عندهم، واتصلت السيول، علم أنها سنة ري. وإذا قصرت الأمطار علم أنها سنة ظمأ.

قال : وأما من طرق بلاد الزنج، فإنهم أخبرونى عن مسيرهم فى بحر الصين إلى بلد الزنج بالريح الشمالى مساحلين للجانب الشرقى من جزيرة مصر، حتى ينتهوا إلى موضع يعرف برأس حفري، وهو عندهم آخر جزيرة مصر، فينظرون كوكباً يهتدون به، فيقصدون الغرب، ثم يعودون إلى البحري، ويصير الشمال فى وجوههم، حتى يأتوا إلى قبيلة من بلاد الزنج. وهى مدينة متملكهم، وتصير قبلتهم للصلاة إلى جدة.

قال : وبعض الأنهار الأربعة يأتى من بلاد الزنج لأنه يأتى فيه الخشب الزنجي.

وسوبة مدينة العلوى شرقى الجزيرة الكبرى التى بين البحرين الأبيض والأخضر فى الطرف الشمالى منها عند مجتمعهما، وشرقيها النهر الذى يجف ويسكن بطنه. وفيها أبنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبساتين، ولها رباط فيه جماعة من المسلمين.

ومتملك علوة أكثر مالاً من متملك المقرة، وأعظم جيشاً، وعنده من الخيل ما ليس عند المقري، وبلده أخصب وأوسع، والنخل والكرم عندهم يسير.

وأكثر حبوبهم الذرة البيضاء التى مثل الأرز، منها خبزهم ومزرهم، واللحم عندهم كثير لكثرة المواشى والمروج الواسعة العظيمة السعة، حتى أنه لايوصل إلى الجبل إلا فى أيام.

وعندهم خيل عتاق، وجمال صهب عراب، ودينهم النصرانية يعاقبة، وأساقفتهم من قبل صاحب الإسكندرية كالنوبة، وكتبهم بالرومية، يفسرونها بلسانهم، وهم أقل فهماً من النـوبة.

وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم، ولا ينكرون ذلك عليه، بل يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقع بهم. وينادون: الملك يعيش، فليكن أمره. وهو يتتوج بالذهب، والذهب كثير فى بلده.

ومما فى بلده من العجائب أن فى الجزيرة الكبرى التى بين البحرين جنساً يعرف بالكرنينا، لهم أرض واسعة مزروعة من النيل والمطر، فإذا كان وقت الزرع خرج كل واحد منهم بما عنده من البذر، واختط على مقدار ما معه، وزرع فى أربعة أركان الخطة يسيرا، وجعل البذر فى وسط الخطة وشيئا من المزر، وانصرف عنه. فإذا أصبح وجد ما اختط قد زرع وشرب المزر. فإذا كان وقت الحصاد حصد يسيرا منه ووضعه فى موضع أراده ومعه مزر وينصرف، فيجد الزرع قد حصد بأسره وجرن فإذا أراد دراسه وتذريته فعل به كذلك. وربما أراد أحدهم أن ينقى زرعه من الحشيش، فيلفظ بقلع شئ من الزرع فيصبح وقد قلع جميع الزرع.

وهذه الناحية التى فيها ما ذكرته بلدان واسعة مسيرة شهرين فى شهرين، يزرع جميعها فى وقت واحد.

وميسرة بلد علوة ومتملكهم من هذه الناحية، فيوجهون المراكب فتوسق، وربما وقع بينهم حرب.

قال : وهذه الحكاية صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة والعلوة، وكل من يطرق ذلك البلد من تجار المسلمين لا يشكون فيه، ولا يرتابون به، ولولا أن أشتهاره وانتشاره مما لا يجوز التواطؤ على مثله، لما ذكرت شيئاً منه لشناعته.

فأما أهل الناحية فيزعمون أن الجن تفعل ذلك، وأنها تظهر لبعضهم وتخدمهم بحجارة ينطاعون لهم بها، وتعمل لهم عجائب، وأن السحاب يطيعهم.

قال : ومن عجائب ما حدثنى به متملك المقرة للنوبة، أنهم يمطرون فى الجبال، ويلتقطون منه للوقت سمكاً على وجه الأرض. وسألتهم عن جنسه فذكروا أنه صغير القدر بأذناب حمر.

قال : وقد رأيت جماعة وأجناساً ممن تقدم ذكر أكثرهم، يعترفون بالبارى سبحانه وتعالي، ويتقربون إليه بالشمس والقمر والكواكب، ومنهم من لا يعرف البارى ويعبد الشمس والنار، ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة.

وذكر أنه رأى رجلاً فى مجلس عظيم المقرة سأله عن بلده فقال : مسافته إلى النيل ثلاثة أهلة. وسأله عن دينه فقال : ربى وربك الله، ورب الملك ورب الناس كلهم واحد.

وأنه قال له : فأين يكون ؟

قال : فى السماء وحده.

وقال إنه إذا أبطأ عنهم المطر، أو أصابهم الوباء، أو وقع بدوابهم آفة، صعدوا الجبل، ودعوا الله فيجابون للوقت، وتقضى حاجتهم قبل أن ينزلوا.

وسأله : هل أرسل فيكم رسول ؟

قال : لا.

فذكر له بعثة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه، وما أيدوا به من المعجزات، فقال : إذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا.

ثم قال : قد صدقتهم إن كانوا فعلوا.

قال المؤلف رحمه الله : وقد غلب أولاد كنز الدولة على النوبة وملكوها من زمن وبنى بدنقلة جامع يأوى إليه الغرباء.

واعلم أن على ضفة النيل أيضاً الكانم، وملكها مسلم وبينه وبين بلاد مالى مسافة بعيدة جداً، وقاعدة ملكه بلدة اسمها حيمي، وأول ملكه بلدة اسمها زرلا، وآخرها طولا بلدة يقال لها كاكا، وبينهما نحو ثلاثة أشهر.

وهم يتلمثون، وملكهم متحجب لايرى إلا يومى العيدين، بكرة وعند العصر، وطول السنة لا يكلمه أحد إلا من وراء حجاب.

وغالب عيشهم الأرز، وهو ينبت من غير بذر. وعندهم القمح والذرة والتين والليمون والباذنجان واللفت والرطب. ويتعاملون بقماش ينسج عندهم اسمه دندي، طول كل ثوب عشرة أذرع، يشترون به من ربع ذراع فأكثر. ويتعاملون أيضاً بالودع والخرز والنحاس المكسر والورق، وجميع ذلك بسعر ذلك القماش.

وفى جنوبها شعارى وصحارى فيها أشخاص متوحشة كالفيول، قريبة من شكل الآدمي، لا يلحقها الفارس، تؤذى الناس.

ويظهر فى الليل أيضاً شبه نار تضيء، فإذا مشى أحد ليلحقها بعدت عنه، ولو جرى إليها لايصل إليها بل لاتزال أمامه، فإذا رماها بحجر فأصابها تشظى منها شرر.

وتعظم عندهم اليقطينة حتى تصنع منها مراكب يعبر فيها فى النيل.

وهذه البلاد بين أفريقية وبرقة ممتدة فى الجنوب إلى سمت الغرب الأوسط. وهى بلاد قحط وشظف وسوء مزاج. وأول من بث بها الإسلام الهادى العثماني، ادعى أنه من ولد عثمان بن عفان رضى الله عنه، وصارت بعده لليزنيين من بنى سيف بن ذى يزن. وهم على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله، والعدل قائم بينهم، وهم يابسون فى الدين لا يلينون. وبنوا بمدينة مصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق فى سنى أربعين وستمائة، وصارت وفودهم تنزل بها، وسيرد ذكرها فى المدارس إن شاء الله تعالى.

ذكر البجة ويقال إنهم من البربر

اعلم أن أول بلد البجة، من قرية تعرف بالحزية معدن الزمرد فى صحراء قوص. وبين هذا الموضع وبين قوص نحو من ثلاث مراحل. وذكر الجاحظ أنه ليس فى الدنيا معدن للزمرد غير هذا الموضع. وهو يوجد فى مغاير بعيدة مظلمة، يدخل إليها بالمصابيح وبحبال يستدل بها على الرجوع خوف الضلال. ويحفر عليه بالمعاول فيوجد فى وسط الحجارة وحوله غشيم دونه فى الصبغ والجوهر.

وآخر بلاد البجة أول بلاد الحبشة، وهم فى بطن هذه الجزيرة - أعنى جزيرة مصر - إلى سيف البحر الملح مما يلى جزائر سواكن وباضع ودهلك.

وهم بادية يتبعون الكلأ حيثما كان الرعى بأخبية من جلود، وأنسابهم من جهة النساء، ولكل بطن منهم رئيس، وليس عليهم متملك ولا لهم دين.

وهم يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب، ويقولون إن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح، فإنه إن كان من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال.

وكان لهم قديماً رئيس يرجع جميع رؤسائهم إلى حكمه، يسكن قرية تعرف بهجر هى أقصى جزيرة البجة.

ويركبون النجب الصهب، وتنتج عندهم، وكذلك الجمال العراب كثيرة عندهم أيضاً.

والمواشى من البقر والغنم والضأن غاية فى الكثرة عندهم. وبقرهم حسان ملمعة بقرون عظام، ومنها جم، وكباشهم كذلك منمرة ولها ألبان. وغذاؤهم اللحم وشرب اللبن، وأكلهم للجبن قليل وفيهم من يأكله، وأبدانهم صحاح، وبطونهم خماص، وألوانهم مشرقة الصفرة، ولهم سرعة فى الجرى يباينون بها الناس.

وكذلك جمالهم شديدة العدو صبورة عليه وعلى العطش، يسابقون عليها الخيل، ويقاتلون عليها، وتدور بهم كما يشتهون، ويقطعون عليها من البلاد ما يتفاوت ذكره،

ويتطاردون عليها فى الحرب، فيرمى الواحد منهم الحربة فإن وقعت فى الرمية طار إليها الجمل فأخذها صاحبها، وإن وقعت فى الأرض ضرب الجمل بجرانه الأرض فأخذها صاحبها.

ونبغ منهم فى بعض الأوقات رجل يعرف بكلاز، شديد مقدام، وله جمل ما سمع بمثله فى السرعة، وكان أعور وصاحبه كذلك.... التزم لقومه أنه يشرف على مصلى مصر يوم العيد، وقد قرب العيد قرباً لايكون للبلوغ إليه فى مثله حقيقة، فوفى بذلك، وأشرف على المقطم، وضربت الخيل خلفه فلم يلحق.

وهذا هو الذى أوجب أن يكون فى السفح طليعة يوم العيد. وكان الطولونية وغيرهم من أمراء مصر يوقفون فى سفح الجبل المقطم - مما يلى الموضع المعروف بالحبش - جيشاً كثيفاً مراعياً للناس حتى ينصرفوا من عيدهم فى كل عيد.

وهم أصحاب ذمة، فإذا غدر أحدهم رفع المغدور به ثوباً على حربة وقال: هذا عرض فلان (يعنى أبا الغادر)، فتصير سيئة عليه إلى أن يترضاه.

وهم يبالغون فى الضيافة، فإذا طرق أحدهم الضيف ذبح له، فإذا تجاوز ثلاثة نفر نحر لهم من أقرب الأنعام إليه سواء كانت له أو لغيره، وإن لم يكن شئ نحر راحلة الضيف وعوضه ما هو خير منها.

وسلاحهم الحراب السباعية، مقدار طول الحديدة ثلاثة أذرع، والعود أربعة أذرع، وبذلك سميت سباعية. والحديدة فى عرض السيف لايخرجونها من أيديهم إلا فى بعض الأوقات، لأن فى آخر العود شيئاً شبيهاً بالفلكة يمنع خروجها عن أيديهم.

وصناع هذه الحراب نساء فى موضع لايختلط بهن رجل إلا المشترى منهن: فإذا ولدت إحداهن من الطارقين لهن جارية استحيتها، وإن ولدت غلاماً قتلته. ويقلن إن الرجال بلاء وحرب.

ودرقهم من جلود البقر مشعرة، ودرق مقلوبة تعرف بالأكسومة من جلود الجواميس - وكذلك الدهلكية - ومن دابة فى البحر.

وقسيهم عربية كبار غلاظ من السدر والشوحط، يرمون عليها بنبل مسموم. وهذا السم يعمل من عروق شجر الغلف... يطبخ على النار حتى يصير مثل الغرا. فإذا أرادوا تجربته شرط أحدهم جسده وسيل الدم ثم شممه هذا السم، فإذا تراجع الدم علم أنه جيد، ومسح الدم لئلاً يرجع إلى جسمه فيقتله. فإذا أصاب الإنسان قتل لوقته، ولو مثل شرطة الحجام. وليس له عمل فى غير الجرح والدم، وإن شرب منه لم يضر.

وبلدانهم كلها معادن، وكلما تصاعدت كانت أجود ذهباً وأكثر. وفيها معادن الفضة والنحاس والحديد والرصاص وحجر المغنيطيس والمرقشيتا والحمست والزمرد وحجارة شطبا، فإذ بلت الشطبة منها بزيت، وقدت مثل الفتيلة، وغير ذلك مما شغلهم طلب معادن الذهب عما سواه.

والبجة لا تتعرض لعمل شيء من هذه المعادن.

وفى أوديتهم شجر المقل والإهليلج والإذخر والشيح والسنا والحنظل وشجر البان، وغير ذلك. وبأقصى بلدهم النخل وشجر الكرم والرياحين، وغير ذلك مما لم يزرعه أحد. وبها سائر الوحش من السباع والفيلة والنمور والفهود والقردة وعناق الأرض والزباد، ودابة تشبه الغزال حسنة المنظر لها قرنان على لون الذهب، قليلة البقاء إذا صيدت، ومن الطيور الببغا والنقيط والنوبى والقمارى ودجاج الحبش وحمام بازين، وغير ذلك.

وليس منهم رجل إلا منزوع البيضة اليمني، وأما النساء فمقطوع أشفارْ فروجهن، وإنه يلتحم حتى يشق عنه للمتزوج بمقدار ذكر الرجل، ثم قل هذا الفعل عندهم.

وقيل إن السبب فى ذلك أن ملكا من الملوك حاربهم قديماً، ثم صالحهم وشرط عليهم قطع ثدى من يولد لهم من النساء وقطع ذكور من يولد من الرجال.. أراد بذلك قطع النسل منهم، فوفوا بالشرط، وقلبوا المعنى فى أن جعلوا قطع الثدى للرجال والفروج للنساء.

وفيهم جنس يقلعون ثناياهم ويقولون : لا نتشبه بالحمير. وفيهم جنس آخر فى آخر بلاد البجة يقال لهم البازة، نساء جميعهم يتسمون باسم واحد، وكذلك الرجال... فطرقهم فى وقت رجل مسلم له جمال، فدعا بعضهم بعضاً وقالوا : هذا الله قد نزل من السماء، وهو جالس تحت الشجرة، فجعلوا ينظرون إليه من بعد.

وتعظم الحيات ببلدهم وتكثر أصنافها ، ورؤيت حية فى غدير ماء قد أخرجت ذنبها والتفت على امرأة وردت فقتلتها ، فرؤى شحمها قد خرج من دبرها من شدة الضغطة.

وبها حية ليس لها رأس ، وطرفاها سواء ، منقشة ليست بالكبيرة ، إذا مشى الإنسان على أثرها مات ، وإذا قتلت وأمسك القاتل ما قتلها به من عود أو حربة فى يده ولم يلقه من ساعته مات. وقتلت حية منها بخشبة ، فانشقت الخشبة. وإذا تأمل هذه الحية أحد وهى ميتة أو حية أصابه ضررها.

وفى البجة شر ، وتسرع إليه ، ولهم فى الإسلام وقبله أذية على شرق صعيد مصر... خربوا هناك قرى عديدة. وكانت فراعنة مصر تغزوهم وتوادعهم أحياناً لحاجتهم إلى المعادن ، وكذلك الروم لما أن ملكوا مصر. ولهم فى المعادن آثار مشهورة ، وكان أصحابهم بها وقد فتحت مصر.

قال عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم : وتجمع لعبدالله بن سعد بن أبى سرح فى انصرافه من النوبة على شاطئ النيل البجة ، فسأل عن شأنهم فأخبر أن ليس لهم ملك يرجعون إليه ، فهان عليه أمرهم وتركهم ، فلم يكن لهم عقد ولا صلح.

وكان أول من هادنهم عبيد الله بن الحبحاب السلولي. ويذكر أنه وجد فى كتاب ابن الحبحاب : لهم ثلاثمائة بكر فى كل عام حين ينزلون الريف مجتازين ، تجارا غير مقيمين ، على ألا يقتلوا مسلماً ولا ذمياً ، فإن قتلوه فلا عهد لهم. ولا يؤووا عبيد المسلمين ، وأن يردوا آبقيهم إذا وقعوا إليهم. ويقال إنهم كانوا يؤاخذون بهذا ، وبكل شاة أخذها البجارى فعليه أربعة دنانير ، وللبقرة عشرة ، وكان وكيلهم مقيماً بالريف رهينة بيد المسلمين.

ثم كثر المسلمون فى المعدن فخالطوهم وتزوجوا فيهم.

وأسلم كثير من الجنس المعروف بالحدارب إسلاماً ضعيفاً ، وهم شوكة القوم ووجوههم ، وهم مما يلى مصر من أول حدهم إلى العلاقى وعيذاب المعبر منه إلى جده وما وراء ذلك.

ومنهم جنس آخر يعرفون بالرنافج ، هم أكثر عدداً من الحدارب ، غير أنهم تبع لهم ، وخفراؤهم يحمونهم ويحبونهم المواشي. ولكل رئيس من الحدارب قوم من الرنافج فى حملته ، فهم كالعبيد يتوارثونهم بعد أن كانت الرنافج قديماً أظهر عليهم.

ثم كثرت أذيتهم على المسلمين، وكان ولاة أسوان من العراق، فرفع إلى أمير المؤمنين المأمون خبرهم، فأخرج إليهم عبد الله بن الجهم، فكانت له معهم وقائع، ثم وادعهم وكتب بينه وبين كنون، رئيسهم الكبير الذى يكون بقريتهم هجر المقدم ذكرها، كتاباً نسخته :

« هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين، صاحب جيش الغزاة، عامل الأمير أبى إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله، فى شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومائتين، لكنون بن عبدالعزيز عظيم البجة بأسوان...

« إنك سألتنى وطلبت إلى أن أؤمنك وأهل بلدك من البجة، وأعقد لك ولهم أماناً على وعلى جميع المسلمين، فأجبتك إلى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أماناً ما استقمت وأستقاموا، على ما أعطيتنى وشرطت لى فى كتابى هذا ....

« وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكا للمأمون عبد الله بن هارون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى، وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين، إلا أنك تكون فى بلدك ملكاً على ما أنت عليه فى البجة.

« وعلى أن تؤدى إليه الخراج فى كل عام على ما كان عليه سلف البجة، وذلك مائة من الإبل، أو ثلاثمائة دينار وازنة داخلة فى بيت المال، والخيار فى ذلك لأمير المؤمنين ولولاته. وليس لك أن تخرم شيئاً عليك من الخراج.

« وعلى أن كل أحد منكم إن ذكر محمداً رسول الله ﷺ أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغى أن يذكره به، أو قتل أحداً من المسلمين حراً أو عبداً، فقد برئت منه الذمة : ذمة الله، وذمة رسوله ﷺ، وذمة أمير المؤمنين أعزه الله، وذمة جماعة المسلمين، وحل دمة كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم.

« وعلى أن أحدا منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال، أو دله على عورة من عورات المسلمين أو أثر لعزتهم، فقد نقض ذمة عهده، وحل دمه».

«وعلى أن أحدا منكم أن قتل أحدا من المسلمين عمداً أو سهواً أو خطأ، حرا أو عبداً أو أحداً من أهل ذمة المسلمين، أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمتهم مالا ببلد البجة، أو

ببلاد الإسلام، أو ببلاد النوبة، أو فى شئ من البلدان براً أو بحراً : فعليه فى قتل المسلم عشر ديات، وفى قتل العبد المسلم عشر قيم، وفى قتل الذمى عشر ديات من دياتهم، وفى كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرة أضعافه. وإن دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاجراً أو مقيماً أو مجتازاً أو حاجاً، فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم».

« ولا تؤووا أحدا من آبقى المسلمين، فإن أتاكم آت، فعليكم أن تردوه إلى المسلمين».

« وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت فى بلادكم بلا مؤونة تلزمهم فى ذلك.

« وعلى أنكم إن نزلتم ريف صعيد مصر لتجارة أو مجتازين، لا تظهرون سلاحاً، ولا تدخلون المدائن والقرى بحال».

« ولا تمنعوا أحداً من المسلمين الدخول فى بلادكم والتجارة فيها براً ولا بحراً، ولا تخيفوا السبيل، ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمة، ولا تسرقوا لمسلم ولا ذمى مالاً».

«وعلى ألا تهدموا شيئاً من المساجد التى ابتناها المسلمون بصيحة وهجر، وسائر بلادكم طولاً وعرضاً، فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولاذمة».

«وعلى أن كنون بن عبدالعزيز يقيم بريف صعيد مصر، وكيلاً يفى للمسلمين بما شرط لهم من دفع الخراج، ورد ما أصابه البجة للمسلمين من دم ومال».

«وعلى أن أحدا من البجة لا يعترض حد القصر إلى قرية يقال لها قبان من بلد النوبة حد الأعمدة».

«عقد عبد اللّه بن الجهم مولى أمير المؤمنين لكنون بن عبدالعزيز كبير البجة الأمان على ما سمينا وشرطنا فى كتابنا هذا، وعلى أن يوافى به أمير المؤمنين. فإن زاغ كنون أو عاث، فلا عهد له ولاذمة».

« وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم من البجة».

« وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبد اللّه بن الجهم، وأخذ بذلك عهد اللّه بأعظم ما أخذ على خلقه من الوفاء والميثاق.

«ولكنون بن عبدالعزيز ولجميع البجة عهد الله وميثاقه، وذمة أمير المؤمنين، وذمة الأمير أبى إسحاق بن أمير المؤمنين الرشيد، وذمة عبد الله بن الجهم، وذمة المسلمين، بالوفاء بما أعطاه عبد الله بن الجهم ما وفى كنون بن عبدالعزيز بجميع ما شرط عليه. فإن غيَّر كنون أو بدل أحد من البجة، فذمة الله جل اسمه وذمة أمير المؤمنين وذمة الأمير أبى إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلميين بريئة منهم».

وترجم جميع ما فى هذا الكتاب حرفاً حرفاً زكريا بن صالح المخزومى من سكان جدة، وعبد الله بن اسماعيل القرشي. ثم نسق جماعة من شهود أسوان.

فأقام البجة على ذلك برهة، ثم عادوا إلى غزو الريف من صعيد مصر، وكثر الضجيج منهم إلى أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله، فندب لحربهم محمد بن عبد الله القمي، فسأل أن يختار من الرجال من أحب، ولم يرغب إلى الكثرة لصعوبة المسالك.

فخرج إليهم من مصر فى عدة قليلة ورجال منتخبة، وسارت المراكب فى البحر. فاجتمع البجة لهم فى عدد كثير عظيم قد ركبوا الإبل فهاب المسلمون ذلك، فشغلهم بكتاب طويل كتبه فى طومار ولفه بثوب، فاجتمعوا لقراءته، فحمل عليهم وفى أعناق الخيل الأجراس فنفرت الجمال بالبجة، ولم تثبت لصلصلة الأجراس. فركب المسلمون أقفيتهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقتل كبيرهم.

فقام من بعده ابن أخيه، وبعث يطلب الهدنة، فصالحهم على أن يطأ بساط أمير المؤمنين. فسار إلى بغداد، وقدم على المتوكل بسر من رأى فى سنة إحدى وأربعين ومائتين. فصولح على أداء الأداوة والبقط، واشترط عليهم ألا يمنعوا المسلمين من العمل فى المعدن.

وأقام القمى بأسوان مدة، وترك فى خزائنها ما كان معه من السلاح وآلة الغزو. فلم تزل الولاة تأخذ منه حتى لم يبقوا منه شيئاً.

فلما كثر المسلمون فى المعادن واختلطوا بالبجة قل شرهم، وظهر التبر لكثرة طلابه، وتسامع الناس به فوفدوا من البلدان، وقدم عليهم أبو عبدالرحمن بن عبد الله بن

عبدالحميد العمري، بعد محاربته النوبة فى سنة خمس وخمسين ومائتين، ومعه ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب. فكثرت بهم العمارة فى البجة، حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة، غير الجلاب التى تحمل من القلزم إلى عيذاب، ومالت البجة إلى ربيعة وتزوجوا إليهم.

وقيل أن كهان البجة قبل إسلام من أسلم منهم، ذكرت عن معبودهم الطاعة لربيعة ولكنون معاً، فهم على ذلك.

فلما قتل العمري، واستولت ربيعة على الجزائر، والأهم على ذلك البجة، فأخرجت من خالفها من العرب، وتصاهروا إلى رؤساء البجة، وبذلك كف ضررهم عن المسلمين.

والبجة الداخلة فى صحراء بلد علوة مما يلى البحر الملح إلى أول الحبشة. ورجالهم فى الظعن والمواشى واتباع الرعى والمعيشة والمراكب والسلاح، كحال الحدارب، إلا أن الحدارب أشجع وأهدى من الداخلة على كفرهم من عبادة الشيطان والاقتداء بكهانهم.

ولكل بطن كاهن يضرب له قبة من أدم معبدهم فيها. فإذا رأوا استخباره عما يحتاجون إليه، تعرى ودخل إلى القبة مستديراً، ويخرج إليهم وبه أثر جنون وصرع، يقول: الشيطان يقرئكم السلام، ويقول لكم ارحلوا عن هذه الحلة فإن الرهط الفلانى يقع بكم. وسألتم عن الغزو إلى بلد كذا، فسيروا فإنكم تظفرون وتغنمون كذا وكذا. والجمال التى تأخذونها من موضع كذا وهى لي، والجارية الفلانية التى تجدونها فى الخباء الفلاني، والغنم التى من صفتها كذا... ونحو هذا القول.

فيزعمون أنه يصدقهم فى أكثر من ذلك. فإذا غنموا أخرجوا من الغنيمة ماذكر، ودفعوه إلى الكاهن يتموله، ويحرمون ألبان نوقها على من لم يقبل. فإذا أرادوا الرحيل، حمل الكاهن هذه القبة على جمل مفرد، فيزعمون أن ذلك الجمل لايثور إلا يجهد ـ وكذلك سيره ـ ويتصبب عرقاً، والخيمة فارغة لا شئ فيها.

وقد بقى فى الحدارب جماعة على هذا المذهب، ومنهم من يتمسك بذلك مع إسلامه.

قال مؤرخ النوبة، ومنه لخصت ما تقدم ذكره : وقد قرأت فى خطبة الأجناس لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ذكر البجة والكجة، ويقول عنهم : شديد كلبهم، قليل سلبهم. فالبجة كذلك، وأما الكجة فلا أعرفهم.

انتهى ما ذكره عبد الله بن أحمد مؤرخ النوبة.

وقال أبو الحسن المسعودى : فأما البجة فإنها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر، وتشعبوا فرقاً وملكوا عليهم ملكاً. وفى أرضهم معادن الذهب ـ وهو التبر ـ ومعادن الزمرد. وتتصل سراياهم ومناسرهم على النجب إلى بلاد النوبة، فيغزون ويسبون.

وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البجة إلى أن قوى الإسلام وظهر، وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقى وعيذاب، وسكن فى تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، فاشتدت شوكتهم، وتزوجوا من البجة، فقويت البجة، ثم صاهرها قوم من ربيعة، فقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم ممن سكن تلك الديار.

وصاحب المعدن فى وقتنا هذا ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ـ بشر بن مروان بن إسحاق بن ربيعة... يركب فى ثلاثة آلاف ألف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن، وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة فى الحجف التحاوية، وهم الحدارب، وهم مسلمون من بين سائر البجة. والداخلة من البجة كفار يعبدون صنماً لهم.

والبجة المالكة لمعدن الزمرد يتصل ديارها بالعلاقي، وهو معدن الذهب. وبين العلاقى والنيل خمس عشرة مرحلة، وأقرب العمارة إليه مدينة أسوان.

وجزيرة سواكن أقل من ميل فى ميل، وبينها وبين البحر الحبشى بحر قصير يخاض. وأهلها طائفة من البجة تسمى الخاسة، وهم مسلمون، ولهم بها ملك.

وقال الهمدانى : نكح كنعان بن حام أرتيب بنت شاويل بن ترس بن يافث، فولدت له حقاً والأساود ونوبة وقران والزنج والزغاوة وأجناس السودان.

وقيل البجة من ولد حام بن نوح، وقيل من ولد كوش بن كنعان بن حام.

وقيل البجة قبيلة من الحبش أصحاب أخبية من شعر، وألوانهم أشد سواداً من الحبشة، يتزيون بزى العرب. وليس لهم مدن ولا قرى ولامزارع، ومعيشتهم مما ينقل إليهم من أرض الحبشة وأرض مصر والنوبة.

وكانت البجة تعبد الأصنام، ثم أسلموا فى إمارة عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وفيهم كرم وسماحة.

وهم قبائل وأفخاذ، لكل فخذ رئيس، وهم أهل نجعة، وطعامهم اللحم واللبن فقط.

ذكر مدينة اسوان

أسوان من قولهم أسى الرجل يأسى أسي، إذا حزن. ورجل أسيان وأسوان، أى حزين.

وأسوان فى آخر بلاد الصعيد، وهى ثغر من ثغور الإقليم يفصل بين النوبة وأرض مصر. وكانت كثيرة الحنطة وغيرها من الحبوب. والفواكه والخضروات والبقول. وكانت كثيرة الحيوان من الإبل والبقر والغنم، ولحمانها هناك غاية فى الطيب والسمن. وكانت أسعارها أبدا رخيصة، وبها تجارات وبضائع تحمل منها إلى بلاد النوبة.

ولا يتصل بأسوان من شرقها بلد إسلامي.

وفى جنوبها جبل به معدن الزمرذ، وهو فى برية منقطعة عن العمارة، على خمسة عشر يوماً من أسوان معدن الذهب.

ويتصل بأسوان من غربيها الواحات، ويسلك من أسوان إلى عيذاب، ويتوصل من عيذاب إلى الحجاز وإلى اليمن والهند.

قال المسعودى : ومدينة أسوان يسكنها خلق من العرب من قحطان ونزار بن ربيعة ومضر وخلق كثير من قريش، وأكثرهم من الحجاز. والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير... تودع النواة فى الأرض، فتنبت نخلة، ويؤكل من ثمرها بعد سنتين.

ولمن بأسوان ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة، يؤدون خراجها إلى ملك النوبة، وابتيعت هذه الضياع من النوبة فى صدر الإسلام فى دولة بنى أمية وبنى العباس.

وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون - حين دخل مصر - على هؤلاء القوم، بوفد وفدهم إلى الفسطاط ذكروا عنه أن أناساً من أهل مملكته وعبيده باعوا ضياعا من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان، وأنها ضياعه والقوم عبيد لا أملاك لهم، وإنما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العامرين فيها.

فجعل المأمون أمرهم إلى الحاكم بمدينة أسوان، ومن بها من أهل العلم والشيوخ.

وعلم من ابتاع هذه الضياع من أهل أسوان أنها ستنزع من أيديهم، فاحتالوا على ملك النوبة بأن يقدموا إلى من ابتيع منهم من النوبة أنهم إذا حضروا حضرة الحاكم ألا يقروا لملكهم بالعبودية، وأن يقولوا: سبيلنا معاشر النوبة سبيلكم مع ملككم، يجب علينا طاعته وترك مخالفته، فإن كنتم أنتم عبيداً لملككم وأموالكم له، فنحن كذلك.

فلما جمع الحاكم بينهم وبين صاحب الملك، أتوا بهذا الكلام للحاكم ونحوه مما أوقفوهم عليه من هذا المعني، فمضى البيع - لعدم اقرارهم بالرق لملكهم - إلى هذا الوقت، وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس.

وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك نوعين : من وصفنا أحرار غير عبيد، والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد، وهم من سكن النوبة فى غير هذه البلاد المجاورة لأسوان، وهى بلاد مريس.

قال : وأما النوبة فافترقت فرقتين : فرقة فى شرق النيل وغربه، فأناخت على شاطئه، واتصلت ديارها بديار القبط من أرض صعيد مصر، واتسعت مساكن النوبة على شاطئ النيل مصعدة، ولحقوا بقريب من أعاليه، وبنوا دار مملكة، وهى مدينة عظيمة تدعى دنقلة. والفرقة الأخرى من النوبة يقال لها علوة، وبنوا مدينة عظيمة سموها سرقته.

والبلد المتصل بمملكته بأرض أسوان يعرف بمريس، وإليه تضاف الريح المريسية، وعمل هذا الملك متصل بأعمال مصر من أرض الصعيد ومدينة أسوان.

قال : وفى الجانب الشرقى من صعيد مصر جبل رخام عظيم كانت الأوائل تقطع منه العمد وغيرها. فأما العمد والقواعد والرؤوس التى يسميها أهل مصر «الأسوانية»، ومنها حجارة الطواحين، فتلك نقرها الأولون قبل حدوث النصرانية بمائتين من السنين، ومنها العمد التى بالإسكندرية.

وفى ذى الحجة سنة أربع وأربعين وثلثمائة أغار ملك النوبة على أسوان، وقتل جمعاً من المسلمين. فخرج إليه محمد بن عبد اللّه الخازن على عسكر مصر من قبل أونوجور بن الأخشيد، فى محرم سنة خمس وأربعين. فساروا فى البر والبحر، وبعثوا بعدة من النوبة أسروهم، فضربت أعناقهم بعد ما أوقع بملك النوبة. وسار الخازن حتى فتح مدينة أبريم وسبى أهلها. وقدم إلى مصر فى نصف جمادى الأولى سنة خمس وأربعين بمائة وخمسين أسيراً وعدة رؤوس.

وقال القاضى الفاضل : إن متحصل ثغر أسوان فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة بلغ خمسة وعشرين ألف دينار.

وقال الكمال جعفر الأدفوى : وكان بأسوان ثمانون رسولاً من رسل الشرع. وتحصل من أسوان فى سنة واحدة ثلاثون ألف إردب تمراً. وأخبرنا من وقف على مكتوب كان فيه أربعون شريفاً خاصة، وأن مكتوباً آخر رأى فيه ستين شريفاً دون من عداهم.

قال : ووقفت أنا على مكتوب فيه نحو من أربعين، مؤرخ بما بعد العشرين وستمائة من الهجرة.

وكان بثغر أسوان بنو الكنز من ربيعة... أمراء ممدوحون مقصودون، صنع لهم الفاضل الشديد أبو الحسن بن عرام سيرة ذكر فيها مناقبهم وأسماء من مدحهم ومن ورد عليهم.

ولما أرسل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب جيشاً إلى كنز الدولة وأصحابه، ترحلوا عن البلاد، فدخلوا بيوتهم فوجدوا بها قصائد من مدحهم، منها قصيدة أبى محمد الحسن ابن الزبير، قال فيها :

وينجده ـ إن خانه الدهر أو سطا ـ

أناس إذا ما المجد الذل أتهمــــوا

أجاروا فما تحت الكواكـب خائف

وجادوا فما فوق البســـيطة معدم

وأنه أجازه عليها بألف دينار، ووقف عليه ساقية تساوى ألف دينار.

وكان بأسوان رجال من العسكر مستعدون بالأسلحة لحفظ الثغر من هجوم النوبة والسودان عليه. فلما زالت الدولة الفاطمية أهمل ذلك، فسار ملك النوبة فى عشرة آلاف، ونزل تجاه أسوان فى جزيرة، وأسر من كان فيها من المسلمين.

ثم تلاشى بعد ذلك أمر الثغر، واستولى عليه أولاد الكنز من بعد سنة تسعين وسبعمائة، فأفسدوا فساداً كبيراً، وكانت لهم مع ولاة أسوان عدة حروب... إلى أن كانت المحن منذ سنة ست وثمانمائة، وخرب إقليم الصعيد، فارتفعت يد السلطنة عن ثغر أسوان، ولم يبق للسلطان فى مدينة أسوان وال، واتضع حاله عدة سنين.

ثم زحفت هوارة فى محرم سنة خمس عشرة وثمانمائة إلى أسوان، وحاربت أولاد الكنز وهزموهم، وقتلوا كثيراً من الناس، وسبوا ما هناك من النساء والأولاد، واسترقوا الجميع، وهدموا سور مدينة أسوان، ومضوا بالسبي، وقد تركوها خراباً يبابا لا سكن بها. فاستمرت على ذلك بعدما كانت بحيث يقول عنها عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى فى كتاب «أخبار النوبة» : إن أبا عبدالرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى لما غلب على المعدن، كتب إلى أسوان يسأل التجار الخروج إليه بالجهاز من طريق المعدن، فخرج إلى رجل يعرف بعثمان بن حيخلة التميمى فى ألف راحلة فيها الجهاز والبر.

وذكر أن العمرى لما عاد إلى بلاد البجة بعد حروبه للنوبة، كثرت العمارة حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة، غير الجلاب التى تحمل من القلزم إلى عيذاب.

قال : ومما شاهده جماعة من شيوخنا الثقاة بأسوان بقرية تدعى أساشي ، هى من أسوان على مرحلتين ونصف ، أنهم رأوا شرقها من جانب النيل قرية بسور وخارج بابها جميزة ، وناس يدخلون ويخرجون ، فإذا عبروا إلى الموضع لم يجدوا شيئاً.

وهذا يكون فى الشتاء دون الصيف قبل طلوع الشمس. والناس مجمعون على رؤيتها ، وصحة هذا الخبر.

وكان بها أنواع من التمر ، وأنواع من الرطب ، منها نوع من الرطب أشد ما يكون من خضرة السلق. وأمر هارون الرشيد أن يجمع له من ألوان تمر أسوان من كل صنف تمرة واحدة ، فجمع له ويبة ولا يعرف فى الدنيا بسر يتتمر قبل أن يصير رطباً إلا بأسوان.

ذكر بلاق

بلاق أجل حصن للمسلمين ، وهى جزيرة تقرب من الجنادل محيط بها النيل ، فيها بلد كبير يسكنه خلق كثير من الناس. وبها نخل عظيم ، ومنبر فى جامع. وإليها تنتهى سفن النوبة وسفن المسلمين من أسوان. وبينها وبين القرية التى تعرف بالقصر - وهى أول بلد النوبة - ميل واحد. وبينها وبين أسوان أربعة أميال. ومن أسوان إلى هذا الموضع جنادل فى البحر لا تسلكها المراكب إلا بالحيلة ودلالة من يخبر ذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك.

وبالقصر مسلحة وباب إلى بلد النوبة.

ذكر حائط العجوز

هذا الحائط كان حصناً لأرض مصر يحدق بجميعها، وكان فيه محارس ومسالح، ومن ورائه خليج يجرى فيه الماء، معقود عليه القناطر، عملته دلوكه بنت زبا. وقد وهى وتلاشى، ولم يبق منه إلا يسير فى شط النيل الشرقى ينتهى إلى أسوان.

قال أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم، فى كتاب «فتوح مصر» : فبقيت مصر بعد غرقهم (يعنى فرعون وجنوده) وليس فيها من أشراف أهلها أحد، ولم يبق بها إلا العبيد والأجراء والنساء. فأعظم أشراف من بمصر من النساء أن يولين منهم أحداً، وأجمع رأيهن أن يولين أمرأة منهن يقال لها دلوكة بنت زبا، وكان لها عقل ومعرفة وتجارب، وكانت فى شرف منهن وموضع، وهى يومئذ بنت مائة سنة وستين سنة.

فملكوها، فخافت أن يتناولها ملوك الأرض، فجمعت نساء الأشراف فقالت لهن: أن بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد، ولا يمد عينه إليها، وقد هلك أكابرنا وأشرافنا، وذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم. وقد رأيت أن أبنى حصناً أحدق به جميع بلادنا، فأضع عليه المحارس من كل ناحية، فإنا لا نأمن من أن يطمع فينا الناس.

فبنت جداراً أحاطت به على جميع أرض مصر كلها، المزارع والمدائن والقري، وجعلت دونه خليجاً يجرى فيه الماء، وأقامت القناطر والترع، وجعلت فيه محارس ومسالح، على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة، وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل. وجعلت فى كل محرس رجالاً، وأجرت عليهم الأرزاق. وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس، فإذا أتاهم أحد يخافونه ضرب بعضهم إلى بعض بالأجراس، فأتاهم الخبر من أى جهة كانت فى ساعة واحدة فنظروا فى ذلك.

فمنعت بذلك مصر ممن أرادها.

وفرغت من بنائه فى ستة أشهر. وهو الجدر الذى يقال له جدار العجوز بمصر، وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كبيرة. والله أعلم.

ذكر البقط

البقط ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام، ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم. فإن كانت هذه الكلمة عربية، فهى إما من قولهم: فى الأرض بقط من بقل وعشب، أى نبذ من مرعي، فيكون معناه على هذا نبذة من المال، أو يكون من قولهم إن فى بنى تميم بقطا من ربيعة أى فرقة أو قطعة، فيكون معناه على هذا فرقة من المال أو قطعة منه. ومنه بقط الأرض فرقة منها، وبقط الشئ فرّقه. والبقط أن تعطى الحبة على الثلث أو الربع. والبقط أيضاً ما سقط من التمر إذا قطع فأخطأ المخرف، فيكون معناه على هذا بعض ما فى أيدى النوبة.

وكان يؤخذ منهم فى قرية يقال لها القصر، مسافتها من أسوان خمسة أميال فيما بين بلد بلاق وبلد النوبة. وكان القصر فرضة لقوص.

وأول ما تقرر هذا البقط على النوبة فى إمارة عمرو بن العاص، لما بعث عبد اللّه بن سعد ابن أبى سرح بعد فتح مصر إلى النوبة سنة عشرين ـ وقيل سنة إحدى وعشرين ـ فى عشرين ألفاً، فمكث بها زماناً، فكتب اليه عمرو يأمره بالرجوع إليه.

فلما مات عمرو رضى اللّه عنه نقض النوبة الصلح الذى جرى بينهم وبين عبد اللّه بن سعد، وكثرت سراياهم إلى الصعيد فأخربوا وأفسدوا. فغزاهم مرة ثانية عبد اللّه بن سعد ابن أبى سرح وهو على إمارة مصر فى خلافة عثمان رضى اللّه عنه سنة إحدى وثلاثين، وحصرهم بمدينة دنقلة حصاراً شديداً، ورماهم بالمنجنيق ـ ولم تكن النوبة تعرفه ـ وخسف بهم كنيستهم بحجر. فبهرهم ذلك وطلب ملكهم ـ واسمه قليدوروث ـ الصلح، وخرج إلى عبد اللّه وأبدى ضعفاً ومسكنة وتواضعاً. فتلقاه عبد اللّه ورفعه وقربه، ثم قرر الصلح معه على ثلاثمائة وستين رأساً فى كل سنة. ووعده عبد اللّه بحبوب يهديها إليه لما شكا له قلة الطعام ببلده، وكتب لهم كتاباً نسخته بعد البسملة :

« عهد من الأمير عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة : أن عبد اللّه

بن سعد جعل لهم أماناً وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة.

« إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبى ﷺ ألا نحاربكم، ولا ننصب لكم حرباً، ولا نغزوكم، ما أقمتم على الشرائط التى بيننا وبينكم.

« على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه.

« وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم. وإن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه، ولا تمنعوا منه، ولا تتعرضوا لمسلم قصده وحاوره إلى أن ينصرف عنه.

« وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصلياً، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته.

« وعليكم فى كل سنة ثلثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيها ذكران وإناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم.. تدفعون ذلك إلى والى أسوان.

« وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم، ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان.

« فإن أنتم آويتم عبداً لمسلم، أو قتلتم مسلماً أو معاهداً، أو تعرضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم، أو منعتم شيئاً من الثلاثمائة رأس والستين رأساً، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان، وعدنا نحن وأنتم على سواء، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

« علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد ﷺ، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم، الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك.. كتبه عمرو بن شرحبيل فى رمضان سنة إحدى وثلاثين».

وكانت النوبة دفعت إلى عمرو بن العاص ما صولحوا عليه من البقط قبل نكثهم، وأهدوا إلى عمرو أربعين رأسا من الرقيق فلم يقبلها ورد الهدية إلى كبير البقط - ويقال له سمقوس - فاشترى له بذلك جهازاً وخمراً ووجهه إليه.

وبعث إليهم عبد الله بن سعد ما وعدهم به من الحبوب : قمحاً وشعيراً وعدساً، وثياباً، وخيلاً. ثم تطاول الرسم على ذلك فصار رسماً يأخذونه عند دفع البقط في كل سنة، وصارت الأربعون رأساً التي أهديت إلى عمرو يأخذها والى مصر.

وعن أبي خليفة حميد بن هشام البحتري أن الذي صولح عليه النوبة ثلاثمائة وستون رأساً لفئ المسلمين، ولصاحب مصر أربعون رأساً، ويدفع إليهم ألف أردب قمحاً، ولرسله ثلاثمائة إردب، ومن الشعير كذلك، ومن الخمر ألف أقتيز، للمتملك ولرسله ثلاثمائة اقتيز، وفرسين من نتاج خيل الإمارة، ومن أصناف الثياب مائة ثوب، ومن القباطى أربعة أثواب للمتملك ولرسله ثلاثة، ومن البقطرية ثمانية أثواب، ومن المعلمة خمسة أثواب، وجبه مجملة للملك، ومن قمص أبي بقطر عشرة أثواب، ومن أحاص عشرة أثواب، وهي ثياب غلاظ.

قال أبو خليفة : ليس في كتاب عبد الله بن وهب، ولا في كتاب الواقدي، تسمية ينتهى إليها، وإنما أخذت التسمية من أبي زكريا.. قال أبو زكريا : سمعت والدى عمرو بن صالح يقول هذا الخبر، فحفظت منه ما وقفت عليه.

وقال : حضرت مجلس الأمير عبد الله بن طاهر، وهو على مصر، فقال : أنت عثمان ابن صالح الذي وجهنا إليك في كتاب بقط النوبة ؟

قلت : نعم.

فأقبل على محفوظ بن سليمان فقال : ما أعجب أمر هذه البلدة! وجهنا إليهم نطلب علماً من علومهم وإلى هذا الشيخ، فما شفانا أحد منهم.

فقلت : أصلح الله الأمير، إن الذي طلبت من خبر النوبة عندي، قد حفظه شيوخ عن الشيوخ الذين حضروا هناك، والهدنة والصلح الذي جرى بين عبد الله بن سعد وبين النوبة.

ثم حدثته عن أخبارهم كما سمعت، فأنكر عطيه الخمر، فقلت: قد أنكرها عبدالعزيز ابن مروان.

وكان هذا المجلس بفسطاط مصر سنة إحدى عشرة ومائتين، بعد أن تم الصلح بينه وبين عبدالله بن السرى بن الحكم التميمى الأمير كان قبله.

قال عثمان بن صالح : فوجه الأمير إلى الديوان بظهر المسجد الجامع بمصر، فاستخرج منه خبر النوبة فوجده كما ذكرت، فسره ذلك.

وعن مالك بن أنس أنه كان يرى أن أرض النوبة إلى حد علوة صلحا، وكان لا يجيز شراء رقيقهم. وكان أصحابه مثل عبد اللّه بن عبد الحكم وعبد اللّه بن وهب والليث بن سعد ويزيد بن أبى حبيب وغيرهم من فقهاء مصر يرون خلاف ذلك..

قال الليث بن سعد : نحن أعرف بأرض النوبة من الإمام مالك بن أنس، إنما صولحوا على ألا نغزوهم ولا نمنع منهم عدواً، فما استرقه متملكهم أو غزا بعضهم بعضاً فشراؤه جائز، وما استرقه بغاة المسلمين وسراقهم فغير جائز.

وكان عند جماعة منهم جوار نوبيات لفرشهم. ولم يزل النوبة يؤدون البقط فى كل سنة، ويدفع إليهم ما تقدم ذكره، إلى أيام أمير المؤمنين المعتصم باللّه أبى إسحاق بن الرشيد، وكبير النوبة يومئذ زكرياء بن بحنس. وكانت النوبة ربما عجزت عن دفع البقط فشنت الغارة عليهم ولاة المسلمين القريبون من بلادهم، ويمنع من إخراج الجهاز إليهم، فأنكر فيرقى ولد كبيرهم زكرياء على أبيه بذله الطاعة لغيره، واستعجزه فيما يدفع، فقال له أبوه : فما تشاء.

قال : عصيانهم ومحاربتهم.

قال أبوه : هذا شئ رآه السلف من آبائنا صواباً، وأخشى أن يفضى هذا الأمر إليك فتقدم على محاربة المسلمين. غير أنى أوجهك إلى ملكهم رسولاً، فأنت ترى حالنا وحالهم، فإن رأيت لنا بهم طاقة حاربناهم على خبرة، وإلا سألته الإحسان إلينا.

فشخص فيرقى إلى بغداد، وكانت البلدان تزين له ويسير على المدن، وانحدر بانحداره رئيس البجة بأسبابه، ولقيا المعتصم فنظرا إلى ما بهرهما من حال العراق فى كثرة الجيوش

وعظم العمارة مع ما شاهداه فى طريقهما . فقرب المعتصم فيرقى وأدناه ، وأحسن إليه احساناً تاماً ، وقبل هديته وكافأة بأضعافها ، وقال له : تمن ما شئت.

فسأله فى إطلاق المحبوسين فأجابه إلى ذلك.

وكبر فى عين المعتصم ، ووهب له لدار التى نزلها بالعراق ، وأمر أن يشترى له فى كل منزل من طريقه دارتكون لرسلهم ، فإنه امتنع من دخول دار لأحد فى طريقه ، فأخذ له بمصر دار بالجيزة ، وأخرى ببنى وائل.

وأجرى لهم فى ديوان مصر سبعمائة دينار ، وفرساً وسرجا ولجاما ، وسيفا محلي ، وثوبا مثقلاً ، وعمامة من الخز ، وقميص شرب ورداء شرب ، وثياباً لرسله غير محدودة عند وصول البقط إلى مصر. ولهم حملان وخلع على المتولى لقبض البقط ، وعليهم رسوم معلومة لقابض البقط والمنصرفين معه ، وما يهدى إليهم بعد ذلك فغير محدود ، وهو عندهم هدية يجازون عليها.

ونظر المعتصم إلى ما كان يدفعه المسلمون فوجده أكثر من البقط ، وأنكر عطية الخمر ، وأجرى الحبوب والثياب التى تقدم ذكرها ، وقرر دفع البقط بعد انقضاء كل ثلاث سنين ، وكتب لهم كتاباً بذلك بقى فى يد النوبة.

وادعى النوبى على قوم من أهل أسوان أنهم اشتروا أملاكاً من عبيده ، فأمر المعتصم بالنظر فى ذلك. فأحضر والى البلد والمختار للحكم فيه التابعين من النوبة وسألاهم عما ادعاه صاحبهم من بيعهم ، فأنكروا ذلك وقالوا : نحن رعية. فزال ما ادعاه.

وطلب أشياء غير ذلك من إزالة المسلحة المعروفة بالقصر عن موضعها إلى الحد الذى بينهم وبين المسلمين ، لأن المسلحة على أرضهم ، فلم يجبه إلى ذلك. ولم يزل الرسم جارياً بدفع البقط على هذا التقرير ، ويدفع إليهم ما أجراه المعتصم ، إلى أن قدمت الدولة الفاطمية إلى مصر... ذكر ذلك مؤرخ النوبة.

وقال أبو الحسن المسعودي : والبقط هو ما يقبض من السبى فى كل سنة ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم ، وهم ثلاثمائة رأس وخمسة وستون رأساً لبيت المال ، بشرط الهدنة بين

النوبة والمسلمين. وللأمير بمصر غير ما ذكرنا أربعون والمسلمين. وللأمير بمصر غير ما ذكرنا أربعون رأساً، ولخليفته المقيم بأسوان - وهو المتولى لقبض البقط - عشرون رأساً، وللحاكم المقيم بأسوان الذى يحضر مع أمير أسوان قبض البقط خمسة أرؤس، ولاثنى عشر شاهداً عدولا من أهل أسوان يحضرون مع الحاكم لقبض البقط اثنا عشر رأساً من السبي.. على حسب ما جرى به الرسم فى صدر الإسلام فى بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة.

وقال البلاذرى فى كتاب «الفتوحات»: إن المقرر على النوبة أربعمائة رأس يأخذون بها طعاماً (أى غلة)، وألزمهم أمير المؤمنين المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور ثلثمائة وستين رأساً وزرافة.

وفى سنة أربع وسبعين وستمائة كثر خبث داود متملك النوبة، وأقبل إلى أن قرب من مدينة أسوان، وحرق عدة سواق بعدما أفسد بعيذاب. فمضى إليه والى قوص فلم يدركه، وقبض على صاحب الخيل فى عدة من النوبة، وحملهم الى السلطان الملك الظاهرة بيبرس البندقدارى بقلعة الجبل فوسطهم.

وقدم سكندة ابن أخت متملك النوبة متظلماً من خاله داود، فجرد السلطان معه الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانى الأستادار، والأمير عزالدين أيبك الأفرم، وأمير جاندار، فى جماعة كثيرة من العسكر ومن أجناد الولايات وعربان الوجه القبلى والزراقين والرماة ورجال الحراريق.

فساروا فى أول شعبان من القاهرة حتى وصلوا إلى أرض النوبة، فخرجوا إلى لقائهم على النجب، بأيديهم الحراب، وعليهم دكادك سود.

فاقتتل الفريقان قتالاً كبيراً، انهزم فيه النوبة، وأغار الأفرم على قلعة الدر، وقتل وسبي. وأوغل الفارقانى فى أرض النوبة براً وبحراً يقتل ويأسر، فحاز من المواشى مالا يعد، ونزل بجزيرة ميكائيل برأس الجنادل، ونفر المراكب من الجنادل.

ففر النوبة إلى الجزائر، وكتب لقمر الدولة نائب داود متملك النوبة أماناً، فحلف لسكنده على الطاعة، وأحضر رجال المريس ومن فر.

وخاض الأفرم إلى برج فى الماء وحصره حتى أخذه، وقتل به مائتين، وأسر أخا لداود، فهرب داود والعسكر فى أثره مدة ثلاثة أيام، وهم يقتلون ويأسرون، حتى أذعن القوم.

وأسرت أم داود وأخته، ولم يقدر على داود فتقرر سكندة عوضه، وقرر على نفسه القطعية فى كل سنة ثلاث فيلة وثلاث زرافات وخمس فهود من إناثها، ومائة نجيب أصهب وأربعمائة رأس من البقر المنتجة، على أن تكون بلاد النوبة نصفين: نصفها للسلطان، ونصفها لعمارة البلاد وحفظها، ما خلا بلاد الجنادل، فإنها كلها للسلطان لقربها من أسوان، وهى نحو الربع من بلاد النوبة. وأن يحمل ما بها من التمر والقطن والحقوق الجارية بها العادة من قديم الزمان. وأن يقوموا بالجزية ما بقوا على النصرانية، فيدفع كل بالغ منهم فى السنة ديناراً عيناً.

وكتب نسخة يمين بذلك حلف عليها الملك سكندة، ونسخة يمين أخرى حلفت عليها الرعية.

وخرب الأميران كنائس النوبة، وأخذ ما فيها، وقبض على نحو عشرين أميراً من أمراء النوبة، وأفرج عمن كان بأيدى النوبة من أهل أسوان وعيذاب من المسلمين فى أسرهم.

وألبس سكندة تاج الملك، وأقعد على سرير المملكة، بعد ما حلف والتزم أن يحمل جميع ما لداود ولكل من قتل وأسر من مال ودواب إلى السلطان مع البقط القديم، وهو أربعمائة رأس من الرقيق فى كل سنة وزرافة (من ذلك ما كان للخليفة ثلاثمائة وستون رأساً، ولنائبه بمصر أربعون رأساً)، على أن يطلق لهم إذا وصلوا بالبقط تاماً من القمح ألف أردب لتملكهم، وثلاثمائة أردب لرسله.

ذكر صحراء عيذاب

اعلم أن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على مائتى سنة لا يتوجهون إلى مكة - شرفها الله تعالى - إلا من صحراء عيذاب. يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط إلى قوص، ثم يركبون الإبل من قوص ويعبرون هذه الصحراء إلى عيذاب، ثم يركبون البحر

فى الجلاب إلى جدة ساحل مكة. وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة ، يردون فى البحر إلى عيذاب ، ثم يسلكون هذه الصحراء إلى قوص ، ومنها يردون مدينة مصر.

فكانت هذه الصحراء لاتزال عامرة آهلة بما يصدر أو يرد من قوافل التجار والحجاج ، حتى أن كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك لتوجد ملقاه بها ، والقفول صاعدة وهابطة ، لا يعترض لها أحد ، إلى أن يأخذها صاحبها.

فلم تزل مسلكاً للحجاج فى ذهابهم وإيابهم زيادة على مائتى سنة : من أعوام بضع وخمسين وأربعمائة ، إلى أعوام بضع وستين وستمائة. وذلك منذ كانت الشدة العظمى فى أيام الخليفة المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر وانقطاع الحج فى البر... إلى أن كسا السلطان الملك الظاهرة ركن الدين بيبرس البندقدارى الكعبة وعمل لها مفتاحاً ، ثم أخرج قافلة الحاج من البر فى سنة ست وستين وستمائة ، فقل سلوك الحاج لهذه الصحراء.

واستمرت بضائع التجار تحمل من عيذاب إلى قوص حتى بطل ذلك بعد سنة ستين وسبعمائة ، وتلاشى أمر قوص من حينئذ.

وهذه الصحراء مسافتها من قوص إلى عيذاب سبعة عشر يوماً ، ويفقد فيها الماء ثلاثة أيام متوالية ، وتارة يفقد أربعة أيام.

وعيذاب مدينة على ساحل بحر جدة ، وهى غير مسورة ، وأكثر بيوتها أخصاص.

وكانت من أعظم مراسى الدنيا ، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة. فلما انقطع ورود مراكب الهند واليمن إليها ، صارت المرسى العظيمة عدن من بلاد اليمن ، إلى أن كانت أعوام بضع وعشرين وثمانمائة فصارت جدة أعظم مراسى الدنيا ، وكذلك هرمز فإنها مرسى جليل.

وعيذاب فى صحراء لا نبات فيها ، وكل ما يؤكل بها مجلوب إليها حتى الماء. وكان لأهلها من الحجاج والتجار فوائد لا تحصي ، وكان لهم على كل حمل يحملونه للحجاج ضريبة مقررة ، وكانوا يكارون الحجاج الجلاب التى تحملهم فى البحر إلى جدة ومن جدة إلى عيذاب ، فيجتمع لهم من ذلك مال عظيم.

ولـم يكن فى أهل عيذاب إلا من له جلبة فأكثر على قدر يساره.

وفى بحر عيذاب مغاص اللؤلؤ فى جزائر قريبة منها، تخرج إليه الغواصون فى وقت معين من كل سنة فى الزوارق، حتى يوافوه بتلك الجزائر فيقيمون هنالك أياماً ثم يعودون بما قسم لهم من الحظ. والمغاص فيها قريب القعر.

وعيش أهل عيذاب عيش البهائم، وهم أقرب إلى الوحش فى أخلاقهم من الإنس.

وكان الحجاج يجدون فى ركوبهم الجلاب على البحر أهوالاً عظيمة، لأن الرياح تلقيهم فى الغالب بمراس فى صحارى بعيدة مما يلى الجنوب، فينزل إليهم التجار من جبالهم فيكارونهم الجمال، ويسلكون بهم على غير ماء.. فربما هلك أكثرهم عطشا وأخذ التجار ما كان معهم، ومنهم من يصل ويهلك عطشا. والذى يسلم منهم يدخل إلى عيذاب كأنه نشر من كفن، قد استحالت هيئاتهم، وتغيرت صفاتهم.

وأكثر هلاك الحجاج بهذه المراسي، ومنهم من يساعده الريح فتحطه بمرسى عيذاب، وهو الأقل.

وجلباتهم التى تحمل الحجاج فى البحر لا يستعمل فيها مسمار ألبته، إنما يحيط خشبها بالقنبار ـ وهو متخذ من شجر النارجيل ـ ويخللونها بدسر من عيدان النخيل، ثم يسقونها بسمن أو دهن الخروع أو دهن القرش، وهو حوت عظيم فى البحر يبتلع الغرقي. وقلاع هذه الجلاب من خوص شجر المقل.

ولأهل عيذاب فى الحجاج أحكام الطواغيت، فإنهم يبالغون فى شحن الجلبة بالناس حتى يبقى بعضهم فوق بعض حرصاً على الأجرة، ولا يبالون بما يصيب الناس فى البحر، بل يقولون دائماً: علينا بالألواح، وعلى الحجاج بالأرواح.

وأهل عيذاب من البجاة، ولهم ملك منهم، وبها وال من قبل سلطان مصر. وأدركت قاضيها عندنا بالقاهرة أسود اللون. والبجاة قوم لادين لهم ولاعقل، ورجالهم ونساؤهم أبدا عراة، وعلى عوراتهم خرق، وكثير منهم لايسترون عوراتهم.

وعيذاب حرها شديد بسموم محرق.

ذكر مدينة الأقصر

هذه المدينة من مدائن الصعيد العظيمة، يقال أن أهلها المريس، ومنها الحمير المريسية.

ذكر البلينا

هذه ... ...

وذكر الكمال الأدفوى أنه وقع بين أهل البلد ووالى قوص، فتوجهوا إلى القاهرة وصرفوه، وولى غيره. وطلع الخطيب بالبلينا صحبته، وكان اقطاعه أرمنت، فلما وصل إليها أضافه أهلها بستين منسفاً من طعام اللبن، فقال للخطيب: فى بلادكم مثل هذا؟ فقال الخطيب : وحلوي.

فلما وصل إلى أخيم تقدم الخطيب إلى البلينا، فعندما وصل الوالى إليها أخرجوا له ستين منسفاً حلوى وستين منسفاً شواء.

قال : وبعض الحكام بها فى عيد من الأعياد امتدحه من أهلها خمسة وعشرون شاعراً. وفيها من لا يرضى بمدح القاضي، وفيها من تقصر رتبته عن ذلك.

قال : وكان فيها عدة مسابك للسكر، ويوصف أهلها بالمكارم.

ذكر سمهود

هذه المدينة بالجانب الغربى من النيل، قال الأدفوي : كان بسمهود سبعة عشر حجراً لاعتصار قصب السكر. ويقال إن الفار لا يدخل قصبها.

ذكر أرجنوس

هذه المدينة من جملة عمل البهنسا، بها كنيسة بظاهرها فيها بئر يقال لها بئر سيرس صغيرة لها عيد يعمل فى اليوم الخامس والعشرين من بشنس أحد شهور القبط، فيفور بها الماء عند مضى ست ساعات من النهار حتى يطفو ثم يعود إلى ما كان عليه. ويستدل النصارى على زيادة النيل فى كل سنة بقدر ما على الماء من الأرض، فيزعمون أن الأمر فى النيل وزيادته يكون موافقاً لذلك.

ذكر ابو بط

هذه المدينة أيضاً من جملة البهنساوية، كان بها منارة محكمة البناء، إذا هزها الرجل تحركت يميناً وشمالاً، فيرى ميلها رؤية ظاهرة بانتقال ظلها عن موضعه.

ذكر ملوي

هذه المدينة بالجانب الغربى من النيل، وأرضها معروفة بزراعة قصب السكر، وكان بها عدة أحجار لاعتصاره. وآخر من كان بها أولاد فضيل، بلغت زراعتهم فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ألفاً وخمسمائة فدان من القصب فى كل سنة. فأوقع النشو - ناظر الخاص - الحوطة على موجودهم فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، فوجد من جملة مالهم أربعة عشر ألف قنطار من القند حملها إلى دار القند بمصر، سوى العسل. وألزمهم بحمل ثمانية آلاف قنطار بعد ذلك. وأفرج عنهم، فوجدوا لهم حاصلاً لم يهتد له النشو فيه عشرة آلاف قنطار قند، سوى مالهم من عبيد وغلال وغير ذلك.

ذكر مدينة انصنا

اعلم أن مدينة أنصنا إحدى مدائن صعيد مصر القديمة، وفيها عدة عجائب، منها الملعب، ويقال إنه كان مقياس النيل وإنه من بناء دلوكة أحد من ملك مصر، وكان كالطيلسان، وفى دائرة عمد على عدة أيام السنة الشمسية، كلها من الصوان الأحمر الماتع، ومسافة ما بين كل عمودين مقدار خطوة إنسان.

وكان ماء النيل يدخل إلى هذا الملعب من فوهة عند زيادة الماء. فإذا بلغ ماء النيل الحد الذى كان اذ ذاك يحصل منه رى أرض مصر وكفايتها، جلس الملك عند ذلك فى مشرف له، وصعد القوم من خواصه إلى رؤوس الأعمدة المذكورة، فيتعادون عليها ما بين ذاهب وآت، ويتساقطون من الأعمدة الى الملعب وهو ممتلئ بالماء.

قال أبو عبيد البكرى : أنصنا ـ بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده صاد مهملة مكسورة ونون وألف ـ كورة من كور مصر معروفة، منها كانت سرية النبى ﷺ أم ابنه إبراهيم من قرية يقال لها حفن من قرى هذه الكورة.

ويقال إن سحره فرعون كانوا منها، وإنه جلبهم منها يوم الموعد للقاء موسى عليه السلام.

ويقال إن التمساح لايضر بساحل أنصنا لطلاسم وضعت بها، وإنه إذا حاذى برها انقلب على ظهره حتى يجاوزها.

ويقال إن الذى بنى مدينة أنصنا أشمون ابن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح.

وهى واقعة فى شرقى النيل، وكانت حسنة البساتين والمتنزهات، كثيرة الثمار والفواكه، وهى الآن خراب.

وقال أبو حنيفة الدينورى : ولا ينبت البنج إلا بأنصنا، وهو عود ينشر منه ألواح للسفن، وربما أرعفت ناشرها. ويباع اللوح منها بخمسين ديناراً ونحوها. وإذا شد لوح منها بلوح وطرح فى الماء ستة أيام، صارا لوحاً واحداً.

وكان لأنصنا سور عتيق هدمه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وجعل على كل مركب منحدر فى النيل جزءاً من حمل صخره إلى القاهرة، فنقل بأسره إليها.

ذكر القيس

أعلم أن القيس من البلاد التى تجاور مدينة البهنسا. وكان يقال القيس والبهنسا.

قال ابن عبدالحكم : بعث عمرو بن العاص قيس بن الحارث إلى الصعيد، فسار حتى أتى القيس فنزل بها فسميت به.

وقال ابن يونس : قيس بن الحارث المرادى ثم الكعبي، شهد فتح مصر يروى عن عمر بن الخطاب، وكان يفتى الناس فى زمانه. روى عنه سويد بن قيس. وقيل شديد بن قيس ابن ثعلبه. وروى عنه عسكر بن سوادة. وهو الذى فتح القرية بصعيد مصر المعروفة بالقيس فنسبت إليه.

وقال ابن الكندي: ولهم ثياب الصوف، وأكسية المرعز، وليس هى بالدنيا إلا بمصر. وذكر بعض أهل مصر أن معاوية بن أبى سفيان لما كبر كان لا يدفأ، فاجتمعوا أنه لا يدفيه إلا الأكسية تعمل بمصر من صفوفها المرعز العسلى العين المصبوغ. فعمل لها منها عدد، فما احتاج منها إلا إلى واحد. ولهم طراز القيس والبهنسا فى الستور والمضارب، يعرفون به، ومنه طراز أهل الدنيا.

وظهر بها بالقرب من البهنسا سرب فى أيام السلطان الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، فأمر متولى البهنساوية بكشفه، فجمع له أهل المعرفة بالعوم والغطس، فكانوا ما ينيف على مائتى رجل ما فيهم إلا من نزل السرب فلم يجد له قراراً ولا جوانب.

فأمر بعمل مركب طويل رقيق بحيث يمكن إدخاله من رأس السرب وشحنه بالأزواد والرجال، وركب فيه حبالاً مربوطة فى خوازيق عند رأس السرب، وحمل مع الرجال آلات يعرفون بها أوقات الليل والنهار، وعدة شموع وغيرها مما تستخرج به النار وتشعل به.

وأمرهم أن يسلكوا بالمركب فى السرب حتى ينفذ نصف ما معهم من الزاد. فساروا بالمركب فى ظلمه وهم يلقون الحبال ولا يجدون لما هم سائرون فيه من الماء جوانب. فما زالوا حتى قلت أزوادهم، فأبطلوا حركة المركب بالمجاذيف إلى داخل السرب وجروا الحبال ليرجعوا إلى حيث دخلوا، حتى انتهوا إلى رأس السرب.

فكانت مدة غيبتهم فى السرب ستة أيام : أربعة منها دخولاً إلى جوفة وتطواف جوانبه، ويومان رجوعاً إلى رأس السرب. ولم يقفوا فى هذه المدة على نهاية السرب.

فكتب بذلك الأمير علاء الدين الطنبغا والى البهنسا إلى الملك الكامل، فتعجب عجباً كثيراً، واشتغل عن ذلك بمحاربة الفرنج على دمياط. فلما رحلوا عن دمياط وعادوا إلى القاهرة، خرج بعد ذلك حتى شاهد السرب المذكور.

ذكر دروط بلهاسة

أعلم أن دروط ـ وهى بفتح الدال المهملة وضم الراء وسكون الواو وطاء ـ اسم لثلاث قرى : دروط أشموم من الأشمونين، ودروط سريان من الأشمونين أيضاً، ودروط بلهاسة من ناحية البهنسا بالعصيد.

وبها جامع أنشأة زياد بن المغيرة بن زياد بن عمرو العتكي، ومات فى المحرم سنة إحدى وتسعين ومائة فدفن به. وقال فيه الشاعر :

حلف الجود خلفـــة برًّ فيها
ما برأ اللـــه واحـــــداً كزياد

كان غيثا لمصر إذ كان حيـــا
وأمانا من الســـنين الشــداد

ومات أخوه إبراهيم بن المغيرة سنة سبع وتسعين ومائة، فقال الشاعر فيه :

ابن المغـــيرة إبراهيـــم من ذهب

يزداد حسـناً على طول الدهارير

لو كان يملك ما فى الأرض عجله

إلى العفـــاة ولم يهمم بتأخـــير

ومات أحم بن زياد بن المغيرة فى المحرم سنة ست وثلاثين ومائتين، فقال الشاعر فيه:

أحمد مات ماجـداً مفقـوداً

ولقــد كان أحمـد محمــوداً

ورث المجـد عن أب ثم عـم

مثـله ليس بعـــده موجـــوداً

ذكر سكر

هى من الأطفيحية، تجاهها واد به إلى وقتنا هذا شكل جمل من الحجر كأكبر ما يرى من الجمال وأحسنها هيئة. وهو قائم على أربعة وقد استقبل بوجهه المشرق، وعلى فخذه الأيمن كتابه بقلمهم، وهى أحرف مقطعة فى ثلاثة أسطر.

ثم على نحو مائة وخمسين خطوة منه جمل آخر مثله سواء، ووجهه إلى وجه الجمل الأول، وليس عليه كتابة.

وفيما بين الجملين المذكورين هيئة أعدال قد ملئت قماشاً عدتها أربعون زكيبة موضوعة بالأرض، عشرين تجاه عشرين، وجميعها من حجارة، ولا يشك من رآها أنها أحمال قماش.

وبعد مائة وخمسين خطوة منها جمل ثالث على هيئة الجملين المذكورين وهو أيضاً قائم، وظهره إلى ظهر الجمل الثاني، ووجهه إلى الجبل، وهناك آخر الوادي. وليس على هذا الجمل أيضاً كتابة...

أخبرنى بذلك من لا أتهم روايته.

ذكر منية الخصيب

هذه المدينة تنسب إلى الخصيب بن عبدالحميد، صاحب خراج مصر من قبل أمير المؤمنين هارون الرشيد.

ذكر منية الناسك

هى بلدة من جملة الأطفيحية عرفت بالناسك أخى الوزير بهرام الأرمنى فى أيام الخليفة الحافظ لدين اللّه أبى الميمون عبدالمجيد بن محمد، ولى من قبل أخيه مدينة قوص سنة تسع وعشرين وخمسمائة - وولاية قوص يومئذ أجل ولايات مصر - فجار على المسلمين، واشتد عسفه وأذاه لهم. فعندما وصل الخبر بقيام رضوان بن ولخشى على بهرام وهزيمته منه وتقلده الوزارة بعده، ثار أهل قوص بالناسك فى جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة وقتلوه، وربطوا كلباً ميتاً فى رجله، وسحبوه حتى ألقوه على مزبلة. وكان نصرانياً.

ذكر الجيزة

قال ابن سيده: الجيزة الناحية والجانب، وجمعها جيز وجيز. والجيز جانب الوادي، وقد يقال فيه الجيزة.

واعلم أن الجيزة اسم لقرية كبيرة جميلة البنيان على النيل من جانبه الغربى تجاه مدينة فسطاط مصر. لها فى كل يوم أحد سوق عظيم يجوع إليه من النواحى أصناف كثيرة جداً، ويجتمع فيه عالم عظيم. وبها عدة مساجد جامعة.

وقد روى الحافظ أبو بكر بن ثابت الخطيب، من حديث نبيط بن شريط، قال: قال رسول الله ﷺ: « **الجيزة روضة من رياض الجنة، ومصر خزائن الله في أرضة** ».

ويقال إن مسجد التوبة الذى بالجيزة كان فيه تابوت موسى عليه السلام الذى قذفته أمه فى بالنيل. وبها النخلة التى أرضعت مريم تحتها عيسي، فلم يثمر غيرها.

وقال ابن عبدالحكم عن يزيد بن أبى حبيب: فاستحبت همدان ومن والاها الجيزة، فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما يعلمه بما صنع الله للمسلمين، وما فتح عليهم، وما فعلوا فى خططهم، وما استحبت همدان من النزول بالجيزة. فكتب إليه عمر يحمد الله على ما كان من ذلك، ويقول له: كيف رضيت أن تفرق أصحابك؟ لم يكن ينبغى لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر، ولا تدرى ما يفجأهم، فلعلك لاتقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره. فاجمعهم إليك، فإن أبوا عليك وأعجبهم موضعهم بالجيزة وأحبوا ما هنالك، فابن عليهم من فيء المسلمين حصنا.

فعرض عليهم عمرو ذلك فأبوا، وأعجبهم موضعهم بالجيزة - ومن والاهم على ذلك من رهطهم يافع وغيرها - وأحبوا ما هنالك. فبنى لهم عمرو بن العاص الحصن فى الجيزة فى سنة إحدى وعشرين، وفرغ من بنائه فى سنة اثنتين وعشرين.

ويقال ان عمرو بن العاص لما سأل أهل الجيزة أن ينضموا إلى الفسطاط، قالوا: مقدم قدمناه فى سبيل الله، ما كنا لنرحل منه إلى غيره. فنزلت يافع الجيزة فيها مبرح بن شهاب، وهمدان وذو أصبح فيهم أبو شمر ابن أبرهة، وطائفة من الحجر.

وقال القضاعى: ولما رجع عمرو بن العاص من الإسكندرية، ونزل الفسطاط، جعل طائفة من جيشه بالجيزة خوفاً من عدو يغشاهم من تلك الناحية. فجعل فيها آل ذى أصبح من حمير وهم كثير، ويافع بن زيد من رعين، وجعل فيها همدان، وجعل فيها طائفة من الأزديين بنى الحجر بن الهبو بن الأزد، وطائفة من الحبشة.. وديوانهم فى الأزد.

فلما استقر عمرو فى الفسطاط، أمر الذين خلفهم بالجيزة أن ينضموا إليه، فكرهوا ذلك وقالوا: هذا مقدم قدمناه فى سبيل الله وأقمنا به، ما كنا بالذين نرغب عنه ونحن به منذ أشهر.

فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بذلك، يخبره أن همدان وآل ذى أصبح ويافعا ومن كان معهم أحبوا المقام بالجيزة.

فكتب إليه: كيف رضيت أن تفرق عنك أصحابك وتجعل بينك وبينهم بحراً، لا تدرى ما يفجأهم، فلعلك لا تقدر على غيائهم. فأجمعهم إليك ولا تفرقهم، فإن أبوا وأعجبهم مكانهم فأبن عليهم حصناً من فئ المسلمين.

فجمعهم عمرو وأخبرهم بكتاب عمر، فامتنعوا من الخروج من الجيزة. فأمر عمرو ببناء الحصن عليهم، فكرهوا ذلك وقالوا: لاحصن أحصن لنا من سيوفنا. وكرهت ذلك همدان ويافع، فأقرع عمرو بينهم فوقعت القرعة عل يافع، فبنى فيهم الحصن فى سنة إحدى وعشرين، وفرغ من بنائه فى سنة اثنتين وعشرين.

وأمرهم عمرو بالخطط بها فاختط ذو أصبح من حمير من الشرق، ومضوا إلى الغرب حتى بلغوا أرض الحرث والزرع، وكرهوا أن يبنى الحصن فيهم.

واختط يافع بن الحارث من رعين بوسط الجيزة، وبنى الحصن فى خططهم، وخرجت طائفة منهم عن الحصن أنفه منه.

واختطت بكيل بن جشم بن نوف ـ من همدان ـ فى مهب الجنوب من الجيزة فى شرقيها.

واختطت حاشد بن جشم بن نوف فى مهب الشمال من الجيزة فى غربيها.

واختطت الجياوية بنو عامر بن بكيل فى قبلى الجيزة.

واختطت بنو حجر بن أرحب بن بكيل فى قبلى الجيزة.

واختطت بنو كعب بن مالك بن الحجر بن الهبو بن الأزد فيما بين بكيل ويافع.

والحبشة اختطوا على الشارع الأعظم.

والمسجد الجامع بالجيزة بناه محمد بن عبد الله الخازن، فى المحرم سنة خمسين وثلاثمائة، بأمر الأمير على بن الإخشيد. فتقدم كافور إلى الخازن ببنائه، وعمل له مستغلاً. وكان الناس قبل ذلك بالجيزة يصلون الجمعة فى مسجد همدان، وهو مسجد مراحق بن عامر بن بكيل، كان يجمع فيه الجمعة فى الجيزة.

وشارف بناء هذا الجامع، مع الخازن، أبو الحسن بن أبى جعفر الطحاوي.

واحتاجوا إلى عمد للجامع، فمضى الخازن فى الليل إلى كنيسة بأعمال الجيزة فقلع عمدها ونصب بدلها أركاناً، وحمل العمد إلى الجامع. فترك أبوالحسن بن الطحاوى الصلاة فيه مذ ذاك تورعا.

قال اليمنى : وقد كان ابن الطحاوى يصلى فى جامع الفسطاط العتيق وبعض عمده، أو أكثرها، ورخامه من كنائس الإسكندرية وأرياف مصر، وبعضه بناه قرة بن شريك عامل الوليد ابن عبدالملك.

ويقال إن بالجيزة قبر كعب الأحبار، وإنه كان بها أحجار ورخام قد صورت فيها التماسيح، فكانت لاتظهر فيما يلى البلد من النيل مقدار ثلاثة أميال علوا وسفلا.

وفى سنة أربع وعشرين وسبعمائة، منع الملك الناصر محمد بن قلاوون الوزير أن يتعرض إلى شئ مما يتحصل من مال الجيزة، فصار جميعه يحمل إليه.

ذكر سجن يوسف عليه السلام

قال القضاعى : سجن يوسف عليه السلام ببوصير من عمل الجيزة، أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان. وفيه أثر نبيين : أحدهما يوسف، سجن به المدة التى ذكر أن مبلغها سبع سنين، وكان الوحى ينزل عليه فيه.

وسطح السجن موضع معروف بإجابة الدعاء... يذكر أن كافور الأخشيدى سأل أبا بكر بن الحداد عن موضع معروف بإجابة الدعاء ليدعو فيه، فأشار عليه بالدعاء على سطح السجن.

والنبى الآخر موسى عليه السلام، وقد بنى على أثره مسجد هناك يعرف بمسجد موسى.

أخبرنا أبو الحسن على بن إبراهيم الشرفى بالشرف قال: حدثنا أبو محمد عبدالله بن الورد ـ وكان قد هلكت أخته وورث منها موروثاً، وكنا نسمع عليه دائماً، وكان لسجن يوسف وقت يمضى الناس إليه يتفرجون ـ فقال لنا يوماً: يا أصحابنا، هذا أوان السجن، نريد أن نذهب إليه.

وأخرج عشرة دنانير فناولها لأصحابه وقال لهم: ما اشتهيتموه فاشتروه. فمضى أصحاب الحديث واشتروا ما أرادوا.

وعدينا يوم أحد الجيزة كلنا، وبتنا فى مسجد همدان، فلما كان الصباح مشينا حتى جئنا إلى مسجد موسي، وهو الذى فى السهل، ومنه يطلع إلى السجن، وبينه وبين السجن تل عظيم من الرمل، فقال الشيخ: من يحملنى ويطلع بى إلى هذا السجن حتى أحدثه بحديث لا أحدثه لأحد بعده حتى تفارق روحى الدنيا؟

قال الشرفى: فأخذت الشيخ وحملته حتى صرت فى أعلاه، فنزل وقال: معك ورقة؟

قلت: لا.

قال: أبصر لى بلاطة.

فأخذ فحمة وكتب: حدثنى يحيي بن أيوب، عن يحيي بن بكير، عن زيد بن أسلم أبن يسار، عن أبن عباس قال: إن جبريل أتى الى يوسف فى هذا السجن، فى هذا البيت المظلم، فقال له يوسف: من أنت الذى مذ دخلت السجن ما رأيت أحسن وجها منك؟

فقال له: أنا جبريل.

فبكى يوسف فقال: ما يبكيك يا نبى اللّٰه؟

فقال: إيش يعمل جبريل فى مقام المذنبين؟

فقال: أما علمت أن اللّٰه تعالى يطهر البقاع بالأنبياء، والله لقد طهر اللّٰه بك السجن وما حوله.

فما أقام إلى آخر النهار حتى أخرج من السجن!

قال القضاعى : سقط بين يحيي وزيد رجل.

وقال الفقيه أبو محمد أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، وذكر سجن يوسف: لو سافر الرجل من العراق ليصلى فيه وينظر إليه، لما عنفته فى سفره.

وقال الفقيه ابو إسحاق المروزي: لو سافر الرجل من العراق لينظر إليه ما عنفته.

وذكر المسبحى فى حوادث شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة وأربعمائة: إن العامة والسوقة طافت الأسواق بمصر بالطبول والبوقات، يجمعون من التجار وأرباب الأسواق ما ينفقونه فى مضيهم إلى سجن يوسف، فقال لهم التجار: شغلنا بعدم الأقوات يمنعنا من هذا. وكان قد اشتد الغلاء.

وأنهوا حالهم إلى الحضرة المطهرة (يعنى أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين دين الله أبا الحسن على بن الحاكم بأمر الله)، فرسم لنائب الدولة أبى طاهر بن كافئ- متولى الشرطة السفلى- الترسيم على التجار حتى يدفعوا إليهم ما جرت به رسومهم، ورسم لهم بالخروج إلى سجن يوسف، ووعدوا أن يطلق لهم من الحضرة ضعف ما أطلق لهم فى السنة الماضية من الهبة، فخرجوا.

وفى يوم السبت لتسع خلون من جمادى الأولى ركب القائد الأجل عز الدولة وسناها معضاد الخادم الأسود فى سائر الأتراك ووجوه القواد، وشق البلد ونزل إلى الصناعة التى بالجسر بمن معه. ثم خرج من هناك وعدى فى سائر عساكره إلى الجيزة، حتى رتب لأمير المؤمنين عساكر تكون معه مقيمة هناك لحفظه، لأنه عدى يوم الإثنين لإحدى عشرة خلت منه فى أربع عشاريات وأربع عشرة بغلة من بغال النقل، وفى جميع من معه من خاصته وحرمه إلى سجن يوسف عليه السلام، وأقام هناك يومين وليلتين، إلى أن عاد الرمادية الخارجون إلى السجن بالتماثيل والمضاحك والحكايات والسماجات، فضحك منهم واستظرفهم، وعاد إلى قصره بكرة يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت منه.

وأقام أهل الأسواق نحو الأسبوعين يطرقون الشوارع بالخيال والسماجات والتماثيل، ويطلعون إلى القاهرة بذلك ليشاهدهم أمير المؤمنين، ويعودون ومعهم سجل قد كتب لهم: ألا يعارض أحد منهم فى ذهابه وعوده، وأن يعتمد إكرامهم وصيانتهم.

ولم يزالوا على ذلك إلى أن تكامل جميعهم. وكان دخولهم من سجن يوسف يوم السبت لأربع عشرة بقيت من جمادى الأولي، وشقوا الشوارع بالحكايات والسماجات والتماثيل، فتعطل الناس فى ذلك اليوم عن أشغالهم ومعايشهم. واجتمع فى الأسواق خلق كثير لنظرهم، وظل الناس أكثر هذا اليوم على ذلك.

وأطلق لجميعهم ثمانية آلاف درهم، وكانوا اثنى عشر سوقاً، ونزلوا مسرورين.

وبخارج مدينة الجيزة موضع يعرف بأبى هريرة، فيظن من لا علم له أنه أبو هريرة الصحابي، وليس كذلك، بل هو منسوب إلى ابن ابنته.

ذكر قرية ترسا

قال القضاعى: وذكر أن القاسم بن عبيد اللّه بن الحبحاب عامل هشام بن عبدالملك على خراج مصر، بنى فى الجيزة قرية تعرف بترسا.

والقاسم هذا خرج إلى مصر وولى الخلافة عن أبيه عبيد الله بن الحبحاب السلولى على الخراج فى خلافه هشام بن عبدالملك. ثم أمره هشام على خراج مصر حين خرج أبوه إلى إمارة إفريقية فى سنة ست عشرة ومائة، فلم يزل إلى سنة أربع وعشرين ومائة، فنزع عن مصر. وجمع لحفص بن الوليد عربها وعجمها، فصار يلى الخراج والصلات معاً.

وبترسا هذه كانت وقعة هارون بن محمد الجعدي.

ذكر منية أندونة

هى أحدى قرى الجيزة، عرفت بأندونة كاتب أحمد المداينى الذى كان يتقلد ضياع موسى بن بغا التى بمصر، فقبض أحمد بن طولون على أندونة هذا. وكان نصرانياً. فأخذ منه خمسين ألف دينار.

ذكر وسيم

قال أبن عبدالحكم : وخرج عبد اللّه بن عبد الملك بن مروان أمير مصر إلى وسيم، وكانت لرجل من القبط، فسأل عبدالله أن يأتيه إلى منزله ويجعل له مائة ألف دينار. فخرج إليه عبد اللّه ابن عبد الملك.

وقيل إنما خرج عبد اللّه إلى قرية أبى النمرس مع رجل من الكتاب يقال له أبن حنظلة. فأتى عبدالله العزل وولاية قرة بن شريك وهو هناك. فلما بلغة ذلك قام ليلبس سراويلة فلبسه منكوساً.

وقيل إن عبد اللّه لما بلغة العزل، رد المال على أصحابه وقال : قد عزلنا.

وكان عبد اللّه قد ركب معه إلى المعدية، وعدى أصحابه قبله وتأخر، فورد الكتاب بعزله فقال صاحب المال : واللّه لابد أن تشرف منزلي، وتكون ضيفي، وتأكل طعامي. وواللّه لاعاد لى شئ من ذلك، ولا أدعك منصرفاً. فعدى معه.

ذكر منية عقبة

هذه القرية بالجيزة عرفت بعقبة بن عامر الجهنى رضى اللّه عني.

قال ابن عبدالحكم : كتب عقبة بن عامر إلى معاوية بن أبى سفيان رضى اللّه عنهما يسأله أرضا يسترفق فيها عند قرية عقبة، فكتب له معاوية بألف ذراع فى ألف ذراع، فقال له مولى له كان عنده: أنظر أصلحك اللّه أرضا صالحة.

فقال عقبة : ليس لنا ذلك، إن فى عهدهم شرطواً ستة: منها ألا يؤخذ من أرضهم شيء، ولا من نسائهم ولا من أولادهم، ولا يزاد عليهم، ويدفع عنهم موضع الخوف من عدوهم. وأنا شاهد لهم بذلك.

وفى رواية : كتب عقبة إلى معاوية يسأله نقيعا فى قرية يبنى فيها منازل ومساكن، فأمر له معاوية بألف ذراع فى ألف ذراع، فقال له مواليه ومن كان عنده: أنظر إلى أرض تعجبك فاختط فيها وابتن.

فقال : إنه ليس لنا ذلك. لهم فى عهدهم ستة شروط: منه ألا يؤخذ من أرضهم شيء، ولا يزاد عليهم، ولا يكلفوا غير طاقتهم، ولا تؤخذ ذراريهم، وأن يقاتل عنهم عدوهم من ورائهم.

قال أبو سعيد بن يونس: وهذه الأرض التى اقتطعها عقبة هى المنية المعروفة بمنية عقبة فى جيزة فسطاط عمر: عقبة بن عامر بن عيسى بن عمرو بن عدى بن عمرو بن رفاعة بن مودوعة بن عدى بن غنم بن الربعة بن رشدان ابن قيس بن جهينة... كذا نسبة أبو عمرو الكندي.

وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: عقبة بن عامر بن حسن الجهنى من جهينة بن زيد بن مسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ـ وقد اختلف فى هذا النسب ـ يكنى أبا حماد، وقيل أبا أسد، وقيل أبا عمرو، وقيل أبا سعاد، وقيل أبا الأسود.

وقال خليفة بن خياط : وقتل أبو عامر عقبة بن عامر الجهنى يوم النهروان شهيدا ، وذلك سنة ثمان وثلاثين. وهذا غلط منه ، وفى كتابه بعد : وفى سنة ثمان وخمسين توفى عقبة ابن عامر الجهني.

قال : سكن عقبة بن عامر مصر ، وكان والياً عليها ، وابتنى بها دارا ، وتوفى فى آخر خلافه معاوية. روى عنه من الصحابة جابر وابن عباس وأبو أمامه ومسلمة بن مخلد، وأما رواته من التابعين فكثير.

وقال الكندي : ثم وليها عقبة بن عامر من قبل معاوية ، وجمع له صلاتها وخراجها ، فجعل على شرطته حمادا. وكان عقبة قارئاً فقيها فرضيا شاعرا ، له الهجرة والصحبة السابقة. وكان صاحب بغلة رسول اللّه ، الشهباء الذى يقودها فى الأسفار. وكان صرف عقبة عن مصر بمسلمة ابن مخلد ، لعشر بقين من ربيع الأول سنة أربعين. فكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر.

وقال أبن يونس : توفى بمصر سنة ثمان وخمسين ، ودفن فى مقبرتها بالمقطم. وكان يخضب بالسواد ، رحمه اللّه تعالى.

ذكر حلوان

يقال إنها تنسب إلى حلوان بن بابليون بن عمرو بن أمرئ القيس ملك مصر بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان. وكان حلوان هذا بالشام على مقدمة أبرهة ذى المنار أحد التبايعة.

قال ابن عبدالحكم : وكان الطاعون قد وقع بالفسطاط ، فخرج عبدالعزيز بن مروان من الفسطاط فنزل بحلوان داخلاً فى الصحراء فى موضع منها يقال له أبو قرقورة ، وهو رأس العين التى احتفرها عبدالعزيز بن مروان وساقها إلى نخيله التى غرسها بحلوان.

فكان ابن خديج يرسل إلى عبدالعزيز فى كل يوم بخبر ما يحدث فى البلد من موت وغيره ، فأرسل إليه ذات يوم رسولاً فأتاه فقال له عبدالعزيز : ما اسمك ؟

فقال : أبو طالب.

فثقل ذلك على عبدالعزيز وغاظه.

فقال له عبدالعزيز : أسألك عن اسمك فتقول أبو طالب ! ما اسمك؟

فقال : مدرك.... فتفاءل بذلك.

ومرض فى مخرجه ذلك ومات هنالك، فحمل فى البحر يراد به الفسطاط حتى تغير، فأنزل فى بعض خصوص ساحل مريس فغسل فيه وأخرجت من هنالك جنازته، وخرج معه بالمجامر فيها العود لما كان قد تغير من ريحه.

وأوصى عبدالعزيز أن يمر بجنازته إذا مات على منزل جناب بن مرثد بن زيد بن هانئ الرعينى صاحب حرسه. وكان صديقاً له، وقد توفى قبل عبدالعزيز. فمر بجنازته على باب جناب، وقد خرج عيال جناب ولبسن السواد ووقفن على الباب صائحات ثم أتبعنه إلى المقبرة.

وكان لنصيب من عبدالعزيز ناحية، فقدم عليه فى مرضه فأذن له، فلما رأى شدة مرضه أنشأ يقول :

ونزور سيدنا وسيد غيرنا

ليت التشكى كان بالعواد

لو كان يقبل فدية لفديته

بالمصطفى من طارفى وتلادى

فلما سمع صوته فتح عينيه وأمر له بألف دينار. واستبشر بذلك آل عبدالعزيز وفرحوا به، ثم مات.

وقال الكندي : ووقع الطاعون بمصر فى سنة سبعين، فخرج عبدالعزيز بن مروان منها إلى الشرقية منتدياً، فنزل حلوان فأعجبته، فاتخذها وسكنها. وجعل بها الحرس والأعوان والشرط، فكان عليهم جناب بن مرثد بحلوان.

وبنى عبدالعزيز بحلوان الدور والمساجد، وعمرها أحسن عمارة وأحكمها، وغرس نخلها وكرمها، فقال ابن قيس الرقيات :

سقيا لحلوان ذى الكروم وما
صنف من تينه ومن عنبه
نخل مواقير بالقنساء من الـ
برنى يهتز ثم فى سربه
أسود سكانه الحمام فما
ينفك غربانه على رطبه

ولما غرس عبدالعزيز نخل حلوان وأطعم، دخله والجند معه، فجعل يطوف فيه ويقف على غروسه ومساقيه، فقال يزيد بن عروة الجملي : ألا قلت أيها الأمير كما قال العبد الصالح : ما شاء الله لا قوة إلا بالله؟!

فقال : أذكرتني، شكراً يا غلام، قل لأنيتاس يزيد فى عطائه عشرة دنانير.

عبدالعزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى أبو الأصبغ، أمه ليلى ابنة زبان بن الأصبغ الكندي. روى عن أبى هريرة وعقبة بن عامر الجهني، وروى عنه على بن رياح وبحير بن داخرة وعبيد لله بن مالك الخولانى وكعب بن علقمة، ووثقه النسائى وابن سعد.

ولما سار أبوه مروان إلى مصر، بعثه فى جيش إلى أيلة ليدخل مصر من تلك الناحية، فبعث إليه ابن جحدم أمير مصر بجيش عليهم زهير بن قيس البلوي، فلقى عبدالعزيز ببصاق - وهى سطح عقبه أيلة - فقاتله فانهزم زهير ومن معه.

فلما غلب مروان على مصر فى جمادى الآخرة سنة خمس وستين، جعل صلاتها وخراجها إلى ابنه عبدالعزيز بعد ما أقام بمصر شهرين، فقال عبدالعزيز : يا أمير المؤمنين، كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبي؟

فقال له مروان : يا بني، عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره، يكن لك عينا على

غيره، وينقاد قومه إليك. وقد جعلت معك أخاك بشرا مؤنسا، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً. وما عليك يا بنى أن تكون أميراً بأقصى الأرض، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك وخمولك فى منزلك ؟

وأوصاه عند مخرجه من مصر إلى الشام فقال: أوصيك بتقوى اللّٰه فى سر أمرك وعلانيته، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. وأوصيك ألا تجعل لداعى اللّٰه عليك سبيلاً، فإن المؤذن يدعو إلى فريضة افترضها الله، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً. وأوصيك ألا تعد الناس موعداً الا أنفذته لهم، وإن حملته على الأسنة. وأوصيك ألا تعجل فى شئ من الحكم حتى تستشير، فإن اللّٰه لو أغنى أحداً عن ذلك لأغنى نبيه محمداً ﷺ عن ذلك بالوحى الذى يأتيه... قال الله عز وجل: ﴿وشاورهم في الأمر﴾(*).

وخرج مروان من مصر لهلال رجب سنة خمس وستين، فوليها عبدالعزيز على صلاتها وخراجها.

وتوفى مروان لهلال رمضان، وبويع ابنه عبدالملك بن مروان، فأقر أخاه عبدالعزيز. ووفد على عبدالملك فى سنة سبع وستين، وجعل على الحرس والخيل والأعوان جناب ابن مرثد الرعيني، فأشتد سلطانه. وكان الرجل إذا أغلظ لعبدالعزيز وخرج، تناوله جناب ومن معه فضربوه وحبسوه.

وعبدالعزيز أول من عرف بمصر فى سنة إحدى وسبعين.. قال يزيد بن أبى حبيب: أول من أحدث القعود يوم عرفه فى المسجد بعد العصر عبدالعزيز بن مروان.

وفى سنة اثنتين وسبعين، صرف بعث البحر إلى مكة لقتال عبد اللّٰه بن الزبير، وجعل عليهم مالك بن شرحبيل الخولاني، وهم ثلاثة آلاف رجل فيهم عبدالرحمن بن بحنس مولى ابن ابزي، وهم الذى قتل ابن الزبير.

(*) ١٥٩م آل عمران ٣

وخرج إلى الإسكندرية فى سنة أربع وسبعين، ووفد على أخيه عبدالملك فى سنة خمس وسبعين، وهدم جامع الفسطاط كله، وزاد فيه من جوانبه كلها فى سنة سبع وسبعين، وأمر بضرب الدنانير المنقوشة.

وقال ابن عفير: كان لعبدالعزيز ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره. وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل.

وكتب عبدالملك إليه أن ينزل له عن ولاية العهد ليعهد إلى الوليد وسليمان، فأبى ذلك وكتب إليه: إن يكن لك ولد فلنا أولاد، ويقضى اللّٰه ما يشاء.

فغضب عبدالملك، فبعث إليه عبدالعزيز يعلى بن رياح يترضاه. فلما قدم على عبدالملك، استعطفه على أخيه، فشكا عبدالملك وقال: فرق الله بينى وبينه.

فلم يزل به على حتى رضي، فقدم على عبدالعزيز فأخبره عن عبدالملك وعن حاله، ثم أخبره بدعوته فقال له: أفعل؟ أنا واللّٰه مفارقه، واللّٰه ما دعا دعوة قط إلا أجيبت.

وكان عبدالعيز يقول: قدمت مصر فى إمرة مسلمة بن مخلد، فتمنيت بها ثلاث أمانى فأدركتها: تمنيت ولاية مصر، وأن أجمع بين امرأتى مسلمة، ويحجبنى قيس بن كليب حاجبه.

فتوفى مسلمة، وقدم مصر فوليها، وحجبه قيس، وتزوج أمرأتى مسلمة.

وتوفى ابنه الأصبغ بن عبدالعزيز لتسع بقين من ربيع الآخر سنة ست وثمانين. فمرض عبدالعزيز، وتوفى ليلة الأثنين لثلاث عشرة خلت من جمادى الأولى سنة ست وثمانين. فحمل فى النيل من حلوان إلى الفسطاط فدفن بها.

وقال ابن أبى مليكة: رأيت عبدالعزيز بن مروان حين حضره الموت يقول: ألا ليتنى لم أك شيئاً مذكوراً، ألا ليتنى كنابته من الأرض أو كراعى إبل فى طرف الحجاز.

ولما مات لم يوجد له مال ناض إلا سبعة آلاف دينار، وحلوان والقيسارية، وثياب بعضها مرقوع، وخيل، ورقيق. وكانت ولايته على مصر عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوماً، ولم يلها فى الإسلام قبله أطول ولاية منه.

وكان بحلوان فى النيل معدية من صوان تعدى بالخيل، تحمل فيها الناس وغيرهم من البر الشرقى بحلوان إلى البر الغربي. فلما كان ... ...

وهذا من الأسرار التى فى الخليقة. فإن جميع الأجسام المعدنية، كالحديد والنحاس والفضة والرصاص والذهب والقصدير، إذا عمل من شئ منها إناء يسع من الماء أكثر من وزنه فإنه يعوم على وجه الماء، ويحمل ما يمكنه ولا يغرق.

وما برح المسافرون فى بحر الهند - إذا أظلم عليهم الليل ولم يروا ما يهديهم من الكواكب الى معرفة الجهات - يحملون حديدة مجوفة على شكل سمكة ويبالغون فى ترقيقها جهد المقدرة، ثم يعمل فى فم السمكة شئ من مغناطيس جيد، ويحك فيها بالمغناطيس، فإن السمكة إذا وضعت فى الماء دارت واستقبلت القطب الجنوبى بفمها، واستدبرت القطب الشمالي، وهذا أيضاً من أسرار الخليقة.

فإذا عرفوا جهتى الجنوب والشمال، تبين منهما المشرق والمغرب، فإن من استقبل الجنوب فقد استدبر الشمال وصار المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره. فإذا تحددت الجهات الأربع، عرفوا مواقع البلاد بها، فيقصدون حينئذ جهة الناحية التى يريدونها.

ذكر مدينة العريش

العريش مدينة فيما بين أرض فلسطين وإقليم مصر. وهى مدينة قديمة من جملة المدائن التى اختطت بعد الطوفان.

قال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه عن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام: وكان غلاماً مرفها، فلما قرب من مصر بنى له عريشا من أغصان الشجر وستره بحشيش الأرض. ثم بنى له بعد ذلك فى هذا الموضع مدينة وسماها درسان (أى باب الجنة). فزرعوا وغرسوا الأشجار والجنان من درسان إلى البحر، فكانت كلها زروعاً وجناناً وعمارة.

وقال آخر: انما سميت بذلك لأن بيصر بن حام بن نوح تحمل فى ولده، وهم أربعة ومعهم أولادهم، فكانوا ثلاثين ما بين ذكر وأنثي. وقدم ابنه مصر بن بيصر أمامه نحو أرض مصر حتى خرج من حد الشام، فتاهوا وسقط مصر فى موضع العريش ـ وقد أشتد تعبه ـ ونام، فرأى قائلاً يبشره بحصوله فى أرض ذات خير ودر وملك وفخر. فانتبه فزعا، فإذا عليه عريش من أطراف الشجر، وحوله عيون ماء. فحمد الله وسأله أن يجمعه بأبيه وإخوته، وأن يبارك له فى أرضه، فاستجيب له، وقادهم الله إليه فنزلوا فى العريش وأقاموا به. فأخرج اللهم لهم من البحر دواب ما بين خيل وحمر وبقر وغنم وإبل، فساقوها حتى أتوا موضع مدينة منف فنزلوه، وبنوا فيه قرية سميت بالقبطية مافة (يعنى قرية ثلاثين).

فنمت ذرية بيصر حتى عمروا الأرض وزرعوا، وكثرت مواشيهم. وظهرت لهم المعادن، فكان الرجل منهم يستخرج القطعة من الزبرجد يعمل منها مائدة كبيرة، ويخرج من الذهب ما تكون القطعة منه مثل الأسطوانة، وكالبعير الرابض.

وقال ابن سعيد عن البيهقى : كان دخول إخوة يوسف وأبويه عليهم السلام عليه بمدينة العريش، وهى أول أرض مصر، لأنه بمدينة العريش، وهى أول أرض مصر، لأنه خرج إلى تلقيهم حتى نزل المدينة بطرف سلطانه. وكان له هناك عرش ـ وهو سرير السلطنة ـ فأجلس أبويه عليه. وكانت تلك المدينة تسمى فى القديم بمدينة العرش لذلك، ثم سمتها العامة مدينة العريش فغلب ذلك عليها.

ويقال إنه كان ليوسف عليه السلام حرس فى أطراف أرض مصر من جميع جوانبها. فلما أصاب الشام القحط، وسارت أخوة يوسف لتمتار من مصر، أقاموا بالعريش. وكتب صاحب الحرس إلى يوسف: إن أولاد يعقوب الكنعانى يريدون البلد لقحط نزل بهم. فعمل إخوة يوسف عند ذلك عرشاً يستظلون به من الشمس حتى يعود الجواب، فسمى الموضع العريش. وكتب يوسف بالأذن لهم، فكان من شأنهم ما قد ذكر فى موضعه.

ويقال للعرش الج... فهذا كما تري. وابن وصيف شاه أعرف بأخبار مصر.

وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة، طرق عبدالله بن أدريس الجعفرى العريش بمعاونة بنى الجراح، وأحرقها وأخذ جميع ما فيها.

وقال القاضى الفاضل: وفى جمادى الآخرة سنة سبع وسبعين وخمسمائة، ورد الخبر بأن نخل العريش قطع الفرنج أكثره وحملوا جذوعه إلى بلادهم، وملئت منه، ولم يجدوا مخاطباً على ذلك.

ونقل عن ابن عبدالحكم أن الجفار بأجمعه كان أيام فرعون موسى فى غاية العمارة بالمياه والقرى والسكان، وأن قول الله تعالى: ﴿ **ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** ﴾(*) عن هذه المواضع، وأن العمارة كانت متصلة منه إلى اليمن، ولذلك سميت العريش عريشاً.

وقيل إنها نهاية التخوم من الشام، وإن اليه كان ينتهى رعاة إبراهيم الخليل عليه السلام بمواشيه، وإنه عليه السلام اتخذ به عريشاً كان يجلس فيه حتى تحلب مواشيه بين يديه، فسمى العريش من أجل ذلك.

وقيل إن مالك بن دعر بن حجر بن جديلة بن لخم كان له أربعة وعشرون ولداً، منهم العريش بن مالك، وبه سميت العريش لأنه نزل بها وبناها مدينة.

وعن كعب الأحبار أن بالعريش قبور عشرة أنبياء.

ذكر مدينة الفرماء

قال البكري: الفرما - بفتح أوله وثانيه ممدود على وزن فعلاء وقد يقصر - مدينة تلقاء مصر.

وقال ابن خالويه فى كتاب «ليس»: الفرما هذه سميت بأخى الإسكندر، كان يسمى الفرما، وكان كافراً. وهى قرية أم اسماعيل بن إبراهيم... انتهى.

ويقال اسمه الفرما بن فيلقوس، ويقال فيه ابن فليس، ويقل بليس. وكات الفرما على شط بحيرة تنيس، وكانت مدينة خصباء، وبها قبر جالينوس الحكيم.

(*) ١٣٧ ك الأعراف ٧.

وبنى بها المتوكل على الله حصناً على البحر، تولى بناءه عنبسه بن إسحاق أمير مصر فى سنة تسع وثلاثين ومائتين عندما بنى حصن دمياط وحصن تنيس، وأنفق فيها مالاً عظيماً.

ولما فتح عمرو بن العاص عين شمس أنفذ إلى الفرماء أبرهة بن الصباح، فصالحه أهلها على خمسمائة دينار هرقلية وأربعمائة ناقة وألف رأس من الغنم، فرحل عنهم إلى البقارة.

وفى سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة نزل الروم عليها، فنفر الناس إليهم وقتلوا منهم رجلين. ثم نزلوا فى جمادى الأولى سنة تسع وأربعين وثلاثمائة، فخرج إليهم المسلمون وأخذوا منهم مركباً، وقتلوا من فيه وأسرو عشرة.

وقال اليعقوبي: الفرما أول مدن مصر من جهة الشمال، وبها أخلاط من الناس. وبينها البحر الأخضر ثلاثة أميال.

وقال ابن الكندي: ومنها الفرما، وهى أكثر عجائب، وأقدم آثاراً. ويذكر أهل مصر أنه كان منها طريق إلى جزيرة قبرس فى البر، فغلب عليها البحر. ويقولون أنه كان فيما غلب عليه البحر مقطع الرخام الأبلق، وأن مقطع الأبيض بلوبية.

وقال يحيي بن عثمان: كنت أرابط فى الفرما، وكان بينها وبين البحر قريب من يوم، يخرج الناس والمرابطون فى أخصاص على الساحل، ثم علا البحر على ذلك كله.

وقال ابن قديد: وجه ابن المدبر - وكان بتنيس - إلى الفرما فى هدم أبواب من حجارة شرقى الحصن احتاج أن يعمل منها جيراً. فلما قلع منها حجر أو حجران خرج أهل الفرما بالسلاح فمنعوا من قلعها وقالوا: هذه الأبواب التى قال الله فيها على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿ **يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة** ﴾(*) .

والفرما بها النخل العجيب الذى يثمر حين ينقطع البسر والرطب من سائر الدنيا، فيبتدئ هذا الرطب من حين يلد النخل فى الكوانين، فلا ينقطع أربعة أشهر حتى يجوع البلح فى الربيع. وهذا لايوجد فى بلد من البلدان، لا بالبصرة، ولا بالحجاز، ولا باليمن، ولا بغيرها من البلدن. ويكون فى هذا البسر ما وزن البسرة الواحدة فوق العشرين درهماً، وفيه ما طول البسرة نحو الشبر والفتر.

(*) ٦٧ ك سوسف ١٢

وقال ابن المأمون البطايحى فى حوادث سنة تسع وخمسمائة : ووصلت النجابون من والى الشرقية تخبر بأن بغدوين ملك الفرنج وصل إلى أعمال الفرما.

فسير الأفضل بن أمير الجيوش للوقت إلى وإلى الشرقية بأن يسير المركزية والمقطعين بها، وسير الراجل من العطوفية، وأن يسير الوالى بنفسه بعد أن يتقدم الى العربان بأسرهم بأن يكونوا فى الطوالع، ويطاردوا الفرنج، ويشارفوهم بالليل قبل وصول العساكر إليهم.. فاعتمد ذلك.

ثم أمر بإخراج الخيام وتجهيز الأصحاب والحواشي.

فلما تواصلت العساكر وتقدمها العربان، وطاردوا الفرنج، وعلم بغدوين ملك الفرنج أن العساكر متواصلة إليه، وتحقق أن الإقامة لاتمكنه، أمر أصحابه بالنهب والتخريب والإحراق، وهدم المساجد، فأحرق جامعها ومساجدها وجميع البلد، وعزم على الرحيل، فأخذه الله سبحانه وتعالي، وعجل بنفسه إلى النار. فكتم أصحابه موته، وصاروا بعد أن شقوا بطن بغدوين وملأوه ملحا حتى بقى إلى بلاده، فدفنوه بها.

وأما العساكر الإسلامية، فإنهم شنوا الغارات على بلاد العدو، وعادوا بعد أن خيموا على ظاهر عسقلان.

وكتب إلى الأمير ظهير الدين طفدكين - صاحب دمشق - بأن يتوجه إلى بلاد الفرنج. فسار إلى عسقلان، وحملت إليه الضيافات.

وطولع بخبر وصوله فأمر بحمل الخيام وعدة وافرة من الخيل والكسوات والبنود والأعلام وسيف ذهب ومنطقة ذهب وطوق ذهب وبدلة طقم وخيمة كبيرة مكملة ومرتبة ملوكية وفرشها وجميع آلاتها وما تحتاج إليه من آلات الفضة.

وسير برسم شمس الخواص - وهو مقدم كبير - خلعة مذهبة ومنطقة ذهب وسيف.

وسير برسم المميزين من الواصلين خلع وسيوف. وسلم ذلك بثبت لأحد الحجاب، وسير معه فراشان برسم الخيام.

وأمر بضرب الخيمة الكبيرة وفرشها، وأن يركب والى عسقلان، وظهير الدين وشمس الخواص وجميع الأمراء الواصلين والمقيمين بعسقلان إلى باب الخيمة ويقبلوه، ثم إلى بساطها والمرتبة المنصوبة، ثم يجلس الوالى وظهير الدين وشمس الخواص والمقدمون ويقف الناس بأجمعهم إجلالاً وتعظيماً. ويخلع على الأمير ظهير الدين وشمس الخواص، وتشد المناطق فى أوساطهما، ويقلدا بالسيوف، ويخلع بعدهما على المميزين، ثم يسير ظهير الدين والمقدمون بالتشريف والأعلام والرايات المسيرة إليهم، إلى أن يصلوا إلى الخيام التى ضربت لهم، فإذا كان كل يوم يركب الوالى والأميران والمقدمون والعساكر إلى الخيمة الملوكية، ويتفاوضون فيما يجب من تدبير العساكر... فامتثل ذلك.

وتواصلت الغارات على بلاد العدو، وأسرو وقتلوا. فسيرت إليهم الخلع ثانياً، وجعل لشمس الخواص خاصة فى هذه السفرة عشرة آلاف دينار، وتسلم ظهير الدين الخيمة الكبيرة بما فيها. وكان تقدير ما حصل له ولأصحابه ثلاثين ألف دينار. وبلغ المنفق فى هذه النوبة وعلى ذهاب بغدوين وهلاكه مائة ألف دينار.

وفى شهر رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة نزل الفرنج على الفرما فى جمع كبير وأحرقوها ونهبوا أهلها.

وآخر أمرها أن الوزير شاور خربها لما خرج منها متوليها ملهم أخو الضرغام فاستمرت خراباً لم تعمر بعد ذلك.

وكان بالفرما والبقارة والورادة عرب من جذام يقال لهم القاطع، وهو جرى بن عوف ابن مالك بن شنوءة بن بديل بن جشم بن جذام، منهم عبدالعزيز بن الوزير بن صابى بن مالك بن عامر بن عدى بن حرش بن بقر بن نصر بن القاطع، مات فى صفر سنة خمس ومائتين.

وللسروى والجروى هنا أخبار كثيرة نبهنا عليها فى كتاب «عقد جواهر الأسفاط فى أخبار مدينة الفسطاط».

وقال ابن الكندي: وبها مجمع البحرين، وهو البرزخ الذى ذكره الله عز وجل فقال:

﴿مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان﴾(*)، وقال: ﴿وجعل بين البحرين حاجزا﴾(**)، وهما بحر الروم وبحر الصين، والحاجز بينهما مسيرة ليلة ما بين القلزم والفرما. وليس يتقاربان فى بلد من البلدان أقرب منهما بهذا الموضع، وبينهما فى السفر مسيرة شهور.

ذكر مدينة القلزم

القلزم - بضم القاف وسكون اللام وضم الزاى وميم - بلدة كانت على ساحل بحر اليمن فى أقصاه من جهة مصر. وهى كورة من كور مصر، وإليها ينسب بحر القلزم، وبالقرب منها غرق فرعون، وبينها وبين مدينة مصر ثلاثة أيام.

وقد خربت، ويعرف اليوم موضعها بالسويس تجاه عجرود.

ولم يكن بالقلزم ماء ولا شجر ولازرع، وإنما يحمل الماء إليها من آبار بعيدة. وكان بها فرضة مصر والشام، ومنها تحمل الحمولات إلى الحجاز واليمن.

ولم يكن بين القلزم وفاران قرية ولا مدينة. وهى نخل يسير فيه صيادو السمك. وكذلك من فاران وجيلان إلى أيلة.

قال ابن الطوير: والبلد المعروف بالقلزم أكثرها باق إلى اليوم. ويراها الراكب السائر من مصر إلى الحجاز.

وكانت فى القديم ساحلاً من سواحل الديار المصرية. ورأيت شيئاً من حسابه من جهة مستخدميه فى حواصل القصر وما ينفق على وإليه وقاضيه وداعيه وخطيبه والأجناد المركزين به لحفظه وقربه وجامعه ومساجده، وكان مسكوناً مأهولاً.

قال المسبحى فى حوادث سنة سبع وثمانين وثلثمائة: وفى شهر رمضان سامح أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أهل مدينة القلزم مما كان يؤخذ من مكوس المراكب.

(*) ١٩، ٢٠ الرحمن ك ٧٨.

(**) ٦١ النمل ك ٢٧.

وقال ابن خرداذبة عن التجار: فيركبون فى البحر الغربي، ويخرجون بالفرماء ويحملون تجاراتهم على الظهر إلى القلزم. وبينهما خمسة وعشرون فرسخا. ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم إلى تجار جدة، ثم يمضون الى السند والهند والصين. ومن القلزم ينزل الناس فى برية وصحراء ست مراحل إلى أيلة، ويتزودون من الماء لهذه المراحل الست.

ويقال إن بين القلزم وبحر الروم ثلاث مراحل، وإن ما بينهما هو البرزخ الذى ذكره الله تعالى بقول: ﴿ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ .

التـــــيه

هو أرض بالقرب من أيلة، بينهما عقبة لايكاد الراكب يصعدها لصعوبتها، إلا أنها مهدت فى زمان خمارويه بن أحمد بن طولون. ويسير الراكب مرحلتين فى محض التيه هذا حتى يوافق ساحل بحرفاران، حيث كانت مدينة فاران، وهناك غرق فرعون.

والتيه مقدار أربعين فرسخا فى مثلها، وفيه تاه بنو إسرائيل أربعين سنة، لم يدخلوا مدينة ولا أووا إلى بيت، ولا بدلوا ثوبا. وفيه مات موسى عليه السلام.

ويقال أن طول التيه نحو من ستة أيام.

واتفق أن المماليك البحرية لما خرجوا من القاهرة هاربين، فى سنة اثنتين وخمسين وستمائة، مر طائفة منهم بالتيه فتاهوا فيه خمسة أيام، ثم تراءى لهم فى اليوم السادس سواد على بعد، فقصدوه فإذا مدينة عظيمة لها سور وأبواب كلها من رخام أخضر، فدخلوا بها وطافوا بها فإذا هى قد غلب عليها الرمل حتى طم أسواقها ودورها. ووجدوا بها أوانى وملابس، وكانوا إذ تناولوا منها شيئاً تناثر من طول البلي. ووجدوا فى صينية بعض البزازين تسعة دنانير ذهباً، عليها صورة غزال وكتابة عبرانية، وحفروا موضعاً، فإذا حجر على صهريج ماء فشربوا منه ماء أبرد من الثلج.

ثم خرجوا ومشوا ليلة ، فإذا بطائفة من العربان فحملوهم إلى مدينة الكرك. فدفعوا الدنانير لبعض الصيارفة ، فإذا عليها أنها ضربت فى أيام موسى عليه السلام. ودفع لهم فى كل دينار مائة درهم.

وقيل لهم أن هذه المدينة الخضراء من مدن بنى اسرائيل ، ولها طوفان رمل يزيد تارة وينقص أخري ، لا يراها إلا تائه. والله أعلم.

ذكر مدينة دمياط

أعلم أن دمياط كورة من كور أرض مصر بينها وبين تنيس أثنا عشر فرسخا.

ويقال سميت بدمياط من ولد أشمن بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام.

ويقال إن أدريس عليه السلام كان أول ما أنزل عليه ذو القوة والجبروت : أنا الله مدين المدائن ، الفلك بأمرى وصنعي ، أجمع بين العذب والملح والنار والثلج ، وذلك بقدرتى ومكنون علمى الدال والميم والألف والطاء.

قيل هم بالسريانية دمياط ، فتكون دمياط كلمة سريانية أصلها دمط : أى القدرة ، إشارة إلى مجمع العذب والملح.

وقال الأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه : دمياط بلد قديم بنى فى زمن قليمون بن أتريب بن قبطيم بن مصرايم على اسم غلام كانت أمه ساحره لقليمون.

ولما قدم المسلمون إلى إرض مصر ، كان على دمياط رجل من أخوال المقوقس يقال له الهاموك. فلما افتتح عمرو بن العاص مصر ، امتنع الهاموك بدمياط واستعد للحرب ، فأنفذ إليه عمرو بن العاص المقداد بن الأسود فى طائفة من المسلمين فحاربهم الهاموك ، وقتل ابنه فى الحرب ، فعاد إلى دمياط ، وجمع إليه أصحابه فاستشارهم فى أمره.

وكان عنده حكيم قد حضر الشورى فقال : أيها الملك ، أن جوهر العقل لاقيمة له ، وما استغنى به أحد إلا هداه إلى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك ، وهؤلاء العرب من بدء أمرهم لم ترد لهم راية ، وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد ، وما لأحد عليهم قدرة ، ولسنا بأشد من جيوش الشام ولا أعز وأمنع. وإن القوم قد أيدوا بالنصر والظفر. والرأى أن تعقد مع القوم صلحاً ننال به الأمن وحقن الدماء وصينة الحرم ، فما أنت بأكثر رجالاً من المقوقس.

فلم يعبأ الهاموك بقوله ، وغضب منه فقتله. وكان له أبن عارف عاقل ، وله دار ملاصقة للسور ، فخرج إلى المسلمين فى الليل ودلهم على عورات البلد ، فاستولى المسلمون عليها وتمكنوا منها. وبرز الهاموك للحرب ، فلم يشعر بالمسلمين إلا وهم يكبرون على سور البلد وقد ملكوه. فعندما رأى شطا بن الهاموك المسلمين فوق السور ، لحق بالمسلمين ومعه عدة من أصحابه. ففت ذلك فى عضد أبيه وأستأمن للمقداد. فتسلم المسلمون دمياط ، واستخلف المقداد عليها ، وسير بخبر الفتح إلى عمرو بن العاص.

وخرج شطا - وقد أسلم - إلى البرلس والدميرة وأشموم طناح ، فحشد أهل تلك النواحى وقدم بهم مدداً للمسلمين وعوناً لهم على عدوهم.

وسار بهم مع المسلمين لفتح تنيس ، فبرز لأهلها وقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتل رحمه الله فى المعركة شهيداً ، بعد ما أنكى فيهم وقتل منهم ، فحمل من المعركة ودفن فى مكانه المعروف به خارج دمياط. وكان قتله فى ليلة الجمعة النصف من شعبان ، فلذلك صارت هذه الليلة من كل سنة موسماً يجتمع الناس فيها من النواحى عند شطا ويحيونها ، وهم على ذلك إلى اليوم.

وما زالت دمياط بيد المسلمين إلى أن نزل عليها الروم فى سنة تسعين من الهجرة فأسروا خالد بن كيسان - وكان على البحر هناك - وسيروه إلى ملك الروم ، فأنفذه إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبدالملك من أجل الهدنة التى كانت بينه وبين الروم.

فلما كانت خلافة هشام بن عبدالملك نازل الروم دمياط فى ثلاثمائة وستين مركباً ، فقتلوا وسبوا ، وذلك فى سنة إحدى وعشرين ومائة.

ولما كانت الفتنة بين الأخوين محمد الأمين وعبد الله المأمون، وكانت الفتن بأرض مصر، طمع الروم فى البلاد، ونازلوا دمياط فى أعوام بضع ومائتين.

ثم لما كانت خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله، وأمير مصر يومئذ عنبسة بن إسحاق، نزل الروم دمياط يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين ومائتين، فملكوها وما فيها، وقتلوا بها جمعاً كثيراً من المسلمين، وسبوا النساء والأطفال وأهل الذمة. فنفر إليهم عنبسة بن إسحاق يوم النحر فى جيشه، ونفر كثير من الناس إليهم فلم يدركوهم. ومضى الروم إلى تنيس فأقاموا بأشتومها، فلم يتبعهم عنبسة، فقال يحيي بن الفضيل للمتوكل :

أترضى بأن يوطا حريمك عنوة

وأن يستباح المسلمون ويحربوا

حمار أتى دمياط والروم وثب

بتنيس رأى العين منه وأقرب

مقيمون بالأشتوم يبغون مثل ما

أصابوه من دمياط والحرب ترتب

فما رام من دمياط شبرا ولادري

من العجز ما يأتى وما يتجنب

فلا تنسنا إنا بدار مضيعة

بمصر، وإن الدين قد كاد يذهب

فأمر المتوكل ببناء حصن دمياط، فابتدئ فى بنائه يوم الإثنين لثلاث خلون من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين ومائتين، وأنشأ من حينئذ الأسطول بمصر.

فلما كان فى سنة سبع طرق الروم دمياط فى نحو مائتى مركب، فأقاموا يعيشون فى السواحل شهراً وهم يقتلون ويأسرون، وكانت للمسلمين معهم معارك.

ثم لما كانت الفتن بعد موت كافور الإخشيدي، طرق الروم دمياط لعشر خلون من رجب سنة سبع وخمسين وثلاثمائة فى بضع وعشرين مركباً، فقتلوا وأسروا مائة وخمسين من المسلمين.

وفى سنة ثمان وأربعمائة، ظهر بدمياط سمكة عظيمة طولها مائتان وستون ذراعاً، وعرضها مائة ذراع. وكانت حمير الملح تدخل فى جوفها موسوقة فتفرغ وتخرج، ووقف خمسة رجال فى قحفها ومعهم المجاريف يجرفون الشحم ويناولونه الناس، وأقام أهل تلك النواحى مدة طويلة يأكلون من لحمها.

وفى أيام الخليفة الفائز بنصر اللّه عيسي، والوزير حينئذ الصالح طلائع بن رزيك، نزل على دمياط نحو ستين مركباً فى جمادى الآخرة سنة خمسين وخمسمائة بعث بها لوجيز ابن رجا وصاحب صقلية، فعاثوا وقتلوا، ونزلوا تنيس ورشيد والإسكندرية، فأكثروا فيها الفساد.

ثم كانت خلافة العاضد لدين الله فى وزارة شاوربن مجبر السعدى - الوزارة الثانية - عندما حضر ملك الفرنج مرى إلى القاهرة وحصرها، وقرر على أهلها المال، وأحترقت مدينة الفسطاط، فنزل على تنيس وأشموم ومنية غمر، وصاحب أسطول الفرنج فى عشرين شونة، فقتل وأسر وسبي.

وفى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب للعاضد، وصل الفرنج إلى دمياط فى شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وخمسمائة، وهم فيما يزيد على ألف ومائتى مركب. فخرجت العساكر من القاهرة، وقد بلغت النفقة عليهم زيادة على خمسمائة ألف وخمسين ألف دينار. فأقامت الحرب مدة خمسة وخمسين يوماً، وكانت صعبة شديدة. واتهم فى هذه النوبة عدة من أعيان المصريين بممالأة الفرنج ومكاتبتهم، وقبض عليهم الملك الناصر وقتلهم.

وكان سبب هذه النوبة أن الغز لما قدموا إلى مصر من الشام صحبة أسد الدين شيركوه، تحرك الفرنج لغزو ديار مصر خشية من تمكن الغز بها، فاستمدوا إخوانهم أهل صقلية فأمدوهم بالأموال والسلاح، وبعثوا إليهم بعدة وافرة. فساروا بالدبابات والمجانيق، ونزلوا على دمياط فى صفر - وهم فى العدة التى ذكرنا من المراكب - وأحاطوا بها بحراً وبراً. فبعث السلطان بابن اخيه تقى الدين عمرو، وأتبعه بالأمير شهاب الدين الحازمى فى العساكر الى دمياط، وأمدهما بالأموال والميرة والسلاح. واشتد الأمر على أهل دمياط وهم ثابتون على محاربة الفرنج.

فسير صلاح الدين إلى نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام يستنجده، ويعلمه بأنه لايمكنه الخروج من القاهرة إلى لقاء الفرنج خوفاً من قيام المصريين عليه.

فجهز إليه العساكر شيئاً بعد شيء، وخرج نور الدين من دمشق بنفسه إلى بلاد الفرنج التى بالساحل وأغار عليها واستباحها.

فبلغ ذلك الفرنج وهم على دمياط، فخافوا على بلادهم من نور الدين أن يتمكن منها، فرحلوا عن دمياط فى الخامس والعشرين من ربيع الأول، بعد ما غرق لهم نحو الثلاثمائة مركب، وقلت رجالهم بفناء وقع فيهم، وأحرقوا ما ثقل عليهم حمله من المنجنيقات وغيرها.

وكان صلاح الدين يقول: ما رأيت أكرم من العاضد.. أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار، سوى ما أرسله إلى من الثياب وغيرها.

وفى سنة سبع وسبعين وخمسمائة، رتبت المقاتلة على البرجين، وشدت مراكب إلى السلسلة ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من بين البرجين، ورم شعث سور المدينة وسدت ثلمة، وأتقنت السلسلة التى بين البرجين... فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار. واعتبر السور، فكان قياسه أربعة آلاف وستمائة وثلاثين ذراعاً.

وفى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، أمر السلطان بقطع أشجار بساتين دمياط وحفر خندقها، وعمل جسرا عند سلسلة البرج.

وفى سنة خمس عشرة وستمائة، كانت واقعة دمياط العظمي. وكان سبب هذه الواقعة أن الفرنج فى سنة أربع عشرة وستمائة تتابعت أمدادهم من رومية الكبرى مقر البابا ومن غيرهم من بلاد الفرنج. وساروا إلى مدينة عكا فاجتمع بها عدة من ملوك الفرنج، وتعاقدوا على قصد القدس وأخذه من أيدى المسلمين، فصاروا بعكا فى جمع عظيم.

وبلغ ذلك الملك أبا بكر بن أيوب، فخرج من مصر فى العساكر إلى الرملة. فبرز الفرنج من عكا فى جموع عظيمة. فسار العادل إلى بيسان، فقصده الفرنج فخافهم لكثرتهم وقلة عسكره، فأخذ على عقبه يريد دمشق.

وكان أهل بيسان وما حولها قد أطمأنوا لنزول السلطان هناك، فأقاموا فى أماكنهم وما هو إلا أن سار السلطان، وإذا بالفرنج قد وضعوا السيف فى الناس، ونهبوا البلاد، فحازوا من أموال المسلمين مالا يحصى كثرة، وأخذوا بيسان وبانياس وسائر القرى التى هناك. وأقاموا ثلاثة أيام، ثم عادوا إلى مرج عكا بالغنائم والسبي، وهلك من المسلمين خلق كثير. فاستراح الفرنج بالمرج أياماً، ثم عادوا ثانياً ونهبوا صيداً والشقيف، وعادوا إلى مرج عكا فأقاموا به.

وكان ذلك كله فيما بين النصف من شهر رمضان وعيد الفطر، والملك العادل مقيم ببرج الصفر، وقد سير ابنه المعظم عيسى بعسكر إلى نابلس لمنع الفرنج من طروقها والوصول إلى بيت المقدس.

فنازل الفرنج قلعة الطور سبعة عشر يوماً ثم عادوا إلى عكا.

وعزموا على قصد الديار المصرية فركبوا بجموعهم البحر، وساروا إلى دمياط فى صفر فنزلوا عليها يوم الثلاثاء رابع ربيع الأول سنة خمس عشرة وستمائة - الموافق الثامن حزيران - وهم نحو السبعين ألف فارس وأربعمائة ألف راجل. فخيموا تجاه دمياط فى البر الغربي، وحفروا على عسكرهم خندقاً، وأقاموا عليه سوراً.

وشرعوا فى قتال برج دمياط، فإنه كان برجا منيعاً فيه سلاسل من حديد غلاظ تمد على النيل لتمنع المراكب الواصلة فى البحر الملح من الدخول إلى ديار مصر فى النيل.

وذلك أن النيل إذا انتهى إلى فسطاط مصر مر عليه فى ناحية الشمال إلى شطنوف، فإذا صار إلى شطنوف انقسم قسمين: أحدهما يمر فى الشمال إلى رشيد فيصب فى البحر الملح، والشطر الآخر يمر من شطنوف الى جوجر. ثم يتفرق من عند جوجر فرقتين: فرقة تمر الى أشموم فتصب فى بحيرة تنيس، وفرقة تمر من جوجر إلى دمياط فتصب فى البحر الملح هناك وتصير هذه الفرقة من النيل فاصلة بين مدينة دمياط والبر الغربي.

وهذا البر الغربى من دمياط يعرف بجزيرة دمياط، يحيط بها ماء النيل والبحر الملح. وفى مدة إقامة الفرنج بهذا البر الغربي، عملوا الآلات والمراسي، وأقاموا أبراجاً يزحفون بها فى المراكب إلى برج السلسلة ليملكوه، فإنهم إذا ملكوه تمكنوا من العبور فى النيل إلى القاهرة ومصر.

وكان هذا البرج مشحوناً بالمقاتلة، فتحيل الفرنج عليه، وعملوا برجا من الصوارى على بسطة كبيرة، وأقلعوا بها حتى أسندوها إليه وقاتلوه من به حتى أخذوه.

فبلغ نزول الفرنج على دمياط الملك الكامل - وكان يخلف أباه الملك العادل على ديار مصر - فخرج بمن معه من العساكر فى ثالث يوم من وقوع الطائر بخبر نزول الفرنج لخمس خلوان منه، وأمر والى الغربية بجمع العربان، وسار فى جمع كبير.

وخرج الأسطول فأقام تحت دمياط، ونزل السلطان بمن معه من العساكر بمنزلة العادلية قرب دمياط. وامتدت عساكره إلى دمياط لتمنع الفرنج من السور. والقتال مستمر، والبرج ممتنع مدة أربعة أشهر. والعادل يسير العساكر من البلاد الشامية شيئاً بعد شيء، حتى تكاملت عند الملك الكامل.

واهتم الملك لنزول الفرنج على دمياط واشتد خوفه، فرحل من مرج الصفر إلى عالفين، فنزل به المرض ومات فى سابع جمادى الآخرة. فكتم الملك المعظم عيسى موته، وحمله فى محفة وجعل عنده خادماً وطبيباً راكباً إلى جانب المحفة، والشرابدار يصلح الشراب ويحمله إلى الخادم فيشربه، ويوهم الناس أن السلطان شربه، إلى أن دخلوا به إلى قلعة دمشق، وصارت إليها الخزائن والبيوتات، فأعلن بموته وتسلم ابنه الملك المعظم جميع ما كان معه، ودفنه بالقلعة، ثم نقله إلى مدرسة العادلية بدمشق.

وبلغ الملك الكامل موت أبيه وهو بمنزلة العادلية قرب دمياط، فاستقل بمملكة ديار مصر.

واشتد الفرنج وألحوا فى القتال، حتى استولوا على برج السلسلة، وقطعوا السلاسل المتصلة به لتجوز مراكبهم فى بحر النيل ويتمكنوا من البلاد. فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسراً عظيماً لمنع الفرنج من عبور النيل، فقاتلت الفرنج عليه قتالاً شديداً إلى أن قطعوه.

وكان قد أنفق على البرج والجسر ما ينيف على سبعين ألف دينار.

وكان الكامل يركب فى كل يوم عدة مرار من العادلية الى دمياط لتدبير الأمور، وإعمال الحيلة فى مكايدة الفرنج. فأمر الملك الكامل أن يفرق عدة من المراكب فى النيل حتى تمنع

الفرنج من سلوك النيل. فعمد الفرنج إلى خليج هناك يعرف بالأزرق، كان النيل يجرى فيه قديماً، فحفروه وعمقوا حفره، وأجروا فيه الماء إلى البحر الملح، وأصعدوا مراكبهم فيه إلى بورة على أرض جيزة دمياط، مقابل المنزلة التى بها السلطان ليقاتلوه من هناك. فلما صاروا فى بورة جاءوه وقاتلوه فى الماء، وزحفوا إليه عدة مرار فلم يظفروا منه يطائل.

ولم يتغير على أهل دمياط شئ، لأن الميرة والأمداد متصلة إليهم، والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج، وأبواب المدينة مفتحة، وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر، والعربان تتخطف الفرنج فى كل ليلة بحيث امتنعوا من الرقاد خوفاً من غاراتهم.

فلما قوى طمع العرب فى الفرنج حتى صاروا يخطفونهم نهاراً، ويأخذون الخيم بمن فيها، أكمن الفرنج لهم عدة كمناء وقتلوا منهم خلقا كثيراً. وأدرك الناس الشتاء، وهاج البحر على مخيم المسلمين وغرقهم، فعظم البلاء وتزايد الغم.

وألح الفرنج فى القتال، وكادوا أن يملكوا، فبعث الله ريحا قطعت مراسى مرمة الفرنج- وكانت من عجائب الدنيا- فمرت إلى بر المسلمين فأخذوها، فإذا هى مصفحة بالحديد لاتعمل فيها النار، ومساحتها خمسمائة ذراع، فكسروها فإذا فيها مسامير زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً.

ويعث الكامل إلى الآفاق سبعين رسولاً، يستنجد أهل الإسلام لنصرة المسلمين، ويخوفهم من غلبة الفرنج على مصر. فساروا فى شوال، وأتته النجدات من حماة وحلب.

وبينا الناس فى ذلك، إذ طمع الأمير عماد الدين أحمد ابن الأمير سيف الدين أبى الحسين على بن أحمد الهكارى المعروف بأبن المشطوب فى الملك الكامل عندما بلغه موت الملك العادل. وكان له لفيف ينقادون إليه ويطيعونه، وكان أميراً كبيراً مقدماً عظيماً فى الأكراد الهكارية، وافر الحرمة عند الملوك، معدوداً بينهم مثل واحد منهم. وكان مع ذلك عالى الهمة، غزير الجود، واسع الكرم، شجاعاً، أبى النفس، تهابه الملوك، وله الوقائع المشهورة. وهو من أمراء دولة صلاح الدين يوسف.

فاتفق مع جماعة من الجند الأكراد على خلع الملك الكامل، وإقامة أخيه الملك الفائز إبراهيم ليصير له الحكم. ووافقه الأمير عز الدين الحميدي، والأمير أسد الدين الهكاري، والأمير مجاهد الدين وجماعة من الأمراء.

فلما بلغ ذلك الملك الكامل، دخل عليهم وهم مجتمعون والمصحف بين أيديهم ليحلفوا للفائز. فلما رأوه انفضوا، فخشى على نفسه فخرج.

فاتفق وصول الصاحب صفى الدين بن سكر من آمد إلى الملك الكامل، فإنه كان استدعاه بعد موت أبيه، فتلقاه وأكرمه وذكر له ما هو فيه، فضمن له تحصيل المال. فلما كان فى الليل ركب الملك الكامل وتوجه من العادلية فى جريدة إلى أشموم طناح، فنزلها.

وأصبح العسكر بغير سلطان، فركب كل منهم هواه، ولم يعطف الأخ على أخيه، وتركوا أثقالهم وخيامهم وأموالهم وأسلحتهم، ولحقوا بالسلطان. فبادر الفرنج فى الصباح إلى مدينة دمياط، ونزلوا البر الشرقى يوم الثلاثاء سادس عشر ذى القعدة بغير منازع ولا مدافع، وأخذوا سائر ما كان فى عسكر المسلمين وكان شيئاً لا يحيط به الوصف. وداخل السلطان هم عظيم، وكاد أن يفارق البلاد، فإنه تخيل من جميع من معه.

واشتد طمع الفرنج فى أرض مصر كلها، وظنوا أنهم قد ملكوها، إلا أن الله سبحانه وتعالى أغاث المسلمين، وثبت السلطان. ووافاه أخوه الملك المعظم بأشموم طناح فاشتد به أزره وقوى جأشه، وأطلعه على ما كان من أبن المشطوب، فوعده بازاحة ما يكره.

ثم إن المعظم ركب إلى خيمة ابن المشطوب واستدعاه للركوب معه ومسايرته، فاستمهله حتى يلبس خفيه وثياب الركوب فلم يمهله وأعجله.

فركب معه وسايره حتى خرج به من العسكر الكاملي، ثم قال له: يا عماد الدين، هذه البلاد لك، واشتهى أن تهبها لنا. وأعطاه نفقة، وسلمه إلى جماعة من أصحابه يثق بهم، وقال لهم: أخرجوه من الرمل، ولا تفارقوه حتى يخرج من الشام.

فلم يسع ابن المشطوب إلا امتثال ما قال المعظم، لأنه معه بمفرده ولا قدرة له على الممانعة. فساروا به إلى حماة، ثم مضى منها إلى المشرق.

ولما شيع الملك المعظم ابن المشطوب، رجع إلى الملك الكامل، وأمر أخاه الفائز إبراهيم أن يسير إلى ملوك الشام فى رسالة عن أخيه الملك الكامل لاستدعائهم إلى قتال الفرنج فمضى إلى دمشق، وخرج منها إلى حماه فمات بها مسموماً على ما قيل، فثبت للملك الكامل أمر الملك، وسكن روعه.

هذا والفرنج قد أحاطوا بدمياط برا وبحراً، وأحدقوا وضيقوا على أهلها، ومنعوا القوت من الوصول إليهم، وحفروا على عسكرهم المحيط بدمياط خندقاً، وبنوا عليه سوراً. وأهل دمياط يقاتلونهم أشد القتال، ويمانعونهم، وقد غلت عندهم الأسعار لقلة الأقوات.

ثم إن المعظم فارق الملك الكامل، وسار إلى بلاد الشام. وأقام الكامل لمحاربة الفرنج وانتدب شمائل - أحد الجاندارية فى الركاب - للدخول إلى دمياط، فكان يسبح فى الماء ويصل إلى أهل دمياط فيعدهم بوصول النجدات. فحظى بذلك عند الكامل، وتقرب منه حتى عمله والى القاهرة، وإليه تنسب خزانة شمائل بالقاهرة.

فلم يزل الحال على ذلك إلى أن دخلت سنة ست عشرة، فجهز المالك المنصور محمد بن عمرو بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة ابنه المظفر تقى الدين محموداً إلى مصر، لنجدة خاله الملك الكامل على الفرنج، فى جيش كثيف. فوصل إلى العسكر، وتلقاه الملك الكامل وأنزله فى ميمنة العسكر منزلة أبيه وجده عند السلطان صلاح الدين يوسف. فألح الفرنج فى القتال، وكان بدمياط نحو العشرين ألف مقاتل، فنهكتهم الأمراض، وغلت عندهم الأسعار حتى بلغت بيضة الدجاجة عندهم عدة دنانير.

قال الحافظ عبدالعظيم المنذري: سمعت الشيخ أبا الحسن على بن فضل يقول: كان لبعض بنى خيار بقرة فذبحوها وباعوها فى الحصار، فجاءت ثمانمائة دينار.

وقال فى «المعجم المترجم»: سمعت الأمير أبا بكر بن حسن بن خسويام يقول: كنت بدمياط فى حصار العدو بها، فبيع السكر بها بمائة وأربعين ديناراً الرطل، والدجاجة بثلاثين ديناراً.

قال: واشتريت ثلاث دجاجات بتسعين ديناراً، والراوية بأربعين درهما، والقبر يحفر

بأربعين مثقالاً. وأخذت اختى جملا فشقت جوفة وملأته دجاجاً وفاكهة وبقلاً وغير ذلك، وخاطته ورمته فى البحر، وكتبت إلى تقول قد فعلت كذا فإذا رأيتم جملاً ميتاً فخذوه، فوقع لنا ليلاً فأخذناه، وكان فيه ما يساوى جملة، ففرقته على الناس. ثم عمل بعد ذلك ثلاثة جمال على هيئته، ففطن لها الفرنج فأخذوها.

وامتلأت مساكنهم وطرقات البلد من الموتي، وعدمت الأقوات، وصار السكر كعزة الياقوت، وفقدت اللحوم فلم يقدر عليها بوجه، وآلت بهم الحال إلى أن لم يبق بها سوى قليل من القمح والشعير فقط.

فتسور الفرنج وأخذوا منه البلد فى يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان، وكانت مدة الحصار ستة عشر شهراً وأثنين وعشرين يوماً.

ولما أخذوا البلد وضعوا السيف فى الناس، فتجاوزوا الحد فى القتل، وأسرفوا فى مقدار القتلي. وبلغ ذلك السلطان، فرحل بعد أخذ دمياط بيومين، ونزل قبالة طلخا على رأس بحرأشموم ورأس بحر دمياط، وحيز فى المنزلة التى صار يقال لها المنصورة.

وحصن الفرنج أسوار دمياط، وجعلوا الجامع كنيسة، وبثوا سراياهم فى القرى فقتلوا ونهبوا. وسير السلطان الكتب الى الآفاق ليستحث الناس على الحضور لدفع الفرنج عن ملك مصر، وشرع العسكر فى بناء الدور والفنادق والحمامات والأسواق بمنزلة المنصورة.

وجهز الفرنج من أسروه من المسلمين فى البحر إلى عكا، وخرجوا من دمياط ونازلوا السلطان تجاه المنصورة، وصار بينهم وبينه بحر أشموم وبحر دمياط. وكان الفرنج فى مائتى ألف راجل وعشرة آلاف فارس.

فقدم المسلمون شوانيهم أمام المنصورة وعدتها مائة قطعة، واجتمع الناس من القاهرة ومصر وسائر النواحى من أسوان إلى القاهرة. ووصل الأمير حسام الدين يونس، والفقيه تقى الدين أبو الطاهر محمد بن الحسن بن عبدالرحمن المحلي، فأخرجا الناس من القاهرة ومصر، ونودى بالنفير العام. وخرج الأمير علاء الدين جلدك وجمال الدين بن صيرم لجمع الناس فيما بين القاهرة إلى آخر الحوف الشرقي، فاجتمع عالم لايقع عليه حصر.

وأنزل السلطان على ناحية شارمساح ألف فارس فى آلاف من العربان، ليحولوا بين الفرنج ودمياط. وسارت الشوانى ومعها حراقة كبيرة على رأس بحر المحلة، وعليها الأمير بدر الدين بن حسون، فانقطعت الميرة عن الفرنج من البر والبحر. وسارت عساكر المسلمين من الشرق والشام إلى الديار المصرية.

وكان قد خرج الفرنج من داخل البحر لمدد الفرنج على دمياط، فقدم منهم أمم لا تحصى يريدون التوغل فى أرض مصر. فلما تكاملوا بدمياط، خرجوا منها فى حدهم وحديدهم، ونزلوا تجاه الملك الكامل كما تقدم. فقدمت النجدات يقدمها الملك الأشرف موسى بن العادل، وعلى ساقتها الملك المعظم عيسي، فتلقاهم الملك الكامل، وأنزلهم عنده بالمنصورة فى ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة.

وتتابع مجيء الملوك، حتى بلغت عدة فرسان المسلمين نحو أربعين ألف فارس، فحاربوا الفرنج فى البر والبحر، وأخذوا منهم ست شوانى وجلاسه وبطسة، وأسروا من الفرنج ألفين ومائتين، ثم ظفر المسلمون بثلاث قطائع أخر.

فتضعضع الفرنج لذلك، وضاق بهم المقام، فبعثوا يطلبون الصلح، فقدم عند مجيء رسلهم أهل الإسكندرية فى ثمانية آلاف مقاتل. وكان الذى طلب الفرنج القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية، وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين يوسف من الساحل، ليرحلوا عن ديار مصر.

فبذل المسلمون لهم سائر ما ذكر من البلاد خلا مدينة الكرك والشوبك، فامتنع الفرنج من الصلح وقالوا: لابد من أخذهم الكرك والشوبك، ومبلغ ثلثمائة ألف دينار، عوضا عما خربه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق من أسوار القدس.

وكان المعظم لما مات أبوه العادل، واستولى الفرنج على دمياط، ونازلوا الملك الكامل قبالة المنصورة، خاف أن يصل منهم فى البحر من يأخذ القدس، ويتحصنوا به، فأمر بتخريب أسواره، وكانت أسواره وأبراجه فى غاية العظمة والمتعة، فأتى الهدم على جميعها ما خلا برج داود. وانتقل أكثر الناس من القدس، ولم يبق به إلا القليل. ونقل المعظم ما كان بالقدس من الأسلحة والآلات.

فامتنع المسلمون من إجابة الفرنج إلى ذلك وقاتلوهم، وعبر جماعة من المسلمين فى بحر المحلة إلى الأرض التى عليها الفرنج، وحفروا مكاناً عظيماً فى النيل -وكان فى قوة الزيادة- فركب الماء أكثر تلك الأرض وصار حائلاً بين الفرنج ومدينة دمياط.

وانحصروا، فلم يبق لهم سوى طريق ضيقة، فأمر السلطان للوقت بنصب الجسور عند أشموم طناح، فعبرت العساكر عليها، وملكت الطريق التى يسلكها الفرنج إلى دمياط إذا أرادوا الوصول إليها. فاضطربوا، وضاقت عليهم الأرض.

واتفق مع ذلك وصول مرمة عظيمة للفرنج فى البحر حولها عدة حراقات تحميها، وقد ملئت كلها بالميرة والأسلحة، فقاتلتهم شوانى المسلمين وظفرها الله بهم فأخذها المسلمون.

وعندما علم الفرنج ذلك أيقنوا بالهلاك. وصار المسلمون يرمونهم بالنشاب ويحملون على أطرافهم. فهدموا حينئذ خيامهم ومجانيقهم، وألقوا فيها النار، وهموا بالزحف على المسلمين ومقاتلتهم ليخلصوا إلى دمياط، فحال بينهم وبين ذلك كثرة الوحل والمياه الراكبة على الأرض. وخشوا من الإقامة لقلة أقواتهم، فذلوا وسألوا الأمان على أن يتركوا دمياط للمسلمين.

فاستشار السلطان فى ذلك، فاختلف الناس عليه: فمنهم من امتنع من تأمين الفرنج، ورأى أن يؤخذوا عنوة، ومنهم من جنح إلى إعطائهم الأمان خوفاً ممن وراءهم من الفرنج فى الجزائر وغيرها. ثم اتفقوا على الأمان، وأن يعطى كل من الفريقين رهائن. فتقرر ذلك فى تاسع شهر رجب سنة ثمان عشرة.

وسير الفرنج عشرين ملكاً رهنا عند الملك الكامل، وبعث الملك الكامل بابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب وجماعة من الأمراء إلى الفرنج.

وجلس السلطان مجلساً عظيماً لقدوم ملوك الفرنج، وقد وقف إخوته وأهل بيته بين يديه، وصار فى أبهة وناموس مهيب.

وخرج قسوس الفرنج ورهبانهم إلى دمياط، فسلموها للمسلمين فى تاسع عشره، وكان يوم تسليمها يوماً عظيماً.

وعندما تسلم المسلمون دمياط وصارت بأيديهم، قدمت نجدة فى البحر للفرنج، فكان

من جميل صنع اللّٰه تأخرها حتى ملكت دمياط بأيدى المسلمين، فإنها لو قدمت قبل ذلك لقوى بها الفرنج، فإن المسلمين وجدوا مدينة دمياط قد حصنها الفرنج وصارت بحيث لاترام.

ولما تم الأمر، بعث الفرنج بولد السلطان وأمرائه إليه، وسير إليهم السلطان من كان عنده من الملوك في الرهن، وتقررت الهدنة بين الفرنج والمسلمين مدة ثمانى سنين. وكان مما وقع الصلح عليه أن كلا من المسلمين والفرنج يطلق ما عنده من الأسري. وحلف السلطان وأخوته، وحلفت ملوك الفرنج. وتفرق الناس إلى بلادهم، ودخل الملك الكامل إلى دمياط باخوته وعساكره، وكان يوم دخوله إليها من الأيام المذكورة.

ورحل الفرنج إلى بلادهم، وعاد السلطان إلى مقر ملكه. وأطلقت الأسرى من ديار مصر، وكان فيهم من له من أيام السلطان صلاح الدين يوسف. وسارت ملوك الشام بعساكرها إلى بلادها.

وعمت بشارة أخذ المسلمين مدينة دمياط من الفرنج سائر الآفاق، فإن التتر كانوا قد استولوا على ممالك المشرق، فأشرف الفرنج على أخذ ديار مصر من أيدى المسلمين.

وكانت مدة نزول الفرنج على دمياط، إلى أن أقلعوا عنها سائرين إلى بلادهم، ثلاث سنين وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً، منها مدة استيلائهم على مدينة دمياط سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرون يوماً.

فلما كان فى سنة ست وأربعين وستمائة، حدث بالسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد ورم فى مأبضه تكون منه ناصور فتح وعسر برؤه، فمرض من ذلك، وانضاف إليه قرحة فى الصدر، فلزم الفراش، إلا أن علو همته اقتضى مسيرة من ديار مصر إلى الشام.

فسار فى محفة ونزل بقلعة دمشق، فورد عليه رسول الإمبراطور ملك الفرنج الألمانية بجزيرة صقلية فى هيئة تاجر، وأخبره سراً بأن بواش الذى يقال له «رواد فرنس» عازم على المسير إلى أرض مصر وأخذها.

فسار السلطان من دمشق وهو مريض فى محفة، ونزل بأشموم طناح فى المحرم سنة

سبع وأربعين، وجمع في مدينة دمياط من الأقوات والأزواد والأسلحة وآلات القتال شيئاً كثيراً، خوفاً أن يجرى على دمياط ما جرى في أيام أبيه، فأخذت بغير ذلك.

ولما نزل السلطان بأشموم، كتب إلى الأمير حسام الدين أبي على بن أبي على الهدباني - نائبة بديار مصر - أن يجهز الأسطول من صناعة مصر. فشرع في الاهتمام بذلك، وشحن الأسطول بالرجال والسلاح وسائر ما يحتاج إليه، وسيره شيئاً بعد شيء.

وجهز السلطان الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ومعه الأمراء والعساكر، فنزل بحيرة دمياط من برها الغربي، وصار النيل بينه وبينها.

فلما كان في الساعة الثانية من نهار الجمعة لتسع بقين من صفر، وردت مراكب الفرنج البحرية، وفيها جموعهم العظيمة، وقد انضم إليهم فرنج الساحل، وأرسوا بإزاء المسلمين. وبعث ملكهم إلى السلطان كتاباً نصه :

«أما بعد، فإنه لم يخف عليك أني أمين الأمة العيسوية، كما أنه لا يخفى على أنك أمين الأمة المحمدية. وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلى منهم الديار.

« وأنا قد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك النصح إلى النهاية. فلو حلفت لي بكل الأيمان، وأدخلت على الأقساء والرهبان، وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان، لكنت واصلاً اليك، وقاتلك في أعز البقاع إليك.

« فأما أن تكون البلاد لي، فياهدية حصلت في يدي، وأما أن تكون البلاد لك والغلبة علي، فيدك العليا ممتدة إلي.

« وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصي، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء».

فلما قرئ الكتاب على السلطان، وقد اشتد به المرض، بكى واسترجع. فكتب القاضي بهاء الدين زهير بن محمد الجواب :

« بسم الله الرحمن الرحيم، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين. أما بعد، فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا فرد إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه.

« ولو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا، وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم، ولابد أن تزل بك القدم، فى يوم أوله لنا وآخره عليك. فهنالك تسيء الظنون، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون».

« فإذا قرأت كتابى هذا، فتكون فيه على أول سورة النحل **﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾** وتكون على آخر سورة ص **﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾**، ونعود إلى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين **﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين ﴾**(*) وقول الحكماء: إن الباغى له مصرع، وبغيك يصرعك، وإلى البلاء يقلبك. والسلام».

وفى يوم السبت ورد الفرنج وضربوا خيامهم فى أكثر البلد التى فيها عساكر المسلمين، وكانت خيمة الملك رواد فرانس حمراء. فناوشهم المسلمون القتال، واستشهد يومئذ الأمير نجم الدين يوسف ابن شيخ الإسلام، والأمير صارم الدين أزبك الوزيرى.

فلما أمسى الليل، رحل الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ بعساكر المسلمين جبنا وصلفا، وسار بهم فى بر دمياط، وسار إلى جهة أشموم طناح فخاف من كل فى مدينة دمياط، وخرجوا منها على وجوههم فى الليل لا يلتفتون إلى شىء، وتركوا المدينة خالية من الناس، ولحقوا بالعسكر فى أشموم وهو حفاة عرايا، جياع حيارى، بمن معهم من النساء والأولاد، ومروا هاربين إلى القاهرة فأخذ منهم قطاع الطريق ما عليهم من الثياب وتركوهم عرايا.

فشنعت القالة على الأمير فخر الدين من كل أحد، وعد جميع ما نزل بالمسلمين من البلاء بسبب هزيمته، فإن دمياط كانت مشحونة بالمقاتلة والأزواد العظيمة والأسلحة

(*) ١٤٩ البقرة ك ٢.

وغيرها، خوفاً أن يصيبها فى هذه المدة ما أصابها فى أيام الكامل، فإنه ما أُتى عليها ذاك إلا من قلة الأقوات بها، ومع ذلك امتنعت من الفرنج أكثر من سنة حتى فنى أهلها كما تقدم، ولكن الله يفعل ما يريد.

ولما أصبح الفرنج يوم الأحد لسبع بقين من صفر، قصدوا دمياط، فإذا أبواب المدينة مفتحة، ولا أحد يدفع عنها، فظنوا أن ذلك مكيدة، وتمهلوا حتى ظهر لهم خلوها فدخلوا إليها من غير مانع ولا مدافع، واستولوا على ما بها من الأسلحة العظيمة وآلات الحرب والأقوات الخارجة عن الحد فى الكثرة والأموال والأمتعة، صفوا بغير كلفة، فأصيب الإسلام والمسلمون ببلاء لولا لطف الله لمحى اسم الإسلام ورسمه بالكلية.

وانزعج الناس فى القاهرة ومصر انزعاجاً عظيماً لما نزل بالمسلمين مع شدة مرض السلطان وعدم حركته. وأما السلطان فإنه اشتد حنقه على الأمير فخر الدين وقال: أما قدرت أنت والعساكر أن تقفوا ساعة بين يدى الفرنج، وأقام عليه القيامة، لكن الوقت لم يكن يسع غير الصبر والإغضاء. وغضب على الكنانيين الذين كانوا بدمياط ووبخهم فقالوا ما نعمل إذا كانت عساكر السلطان بأجمعهم وأمراؤه هربوا وأخربوا الزردخاناه.. كيف لانهرب نحن؟

فأمر بشنقهم لكونهم خرجوا من دمياط بغير إذن.. وكانت عدة من شنق من الأمراء الكنانية زيادة على خمسين أميراً فى ساعة واحدة، ومن جملتهم أمير جسيم له ابن جميل، سأل أن يشنق قبل ابنه، فأمر السلطان أن يشنق ابنه قبله، فشنق الابن ثم الأب.

ويقال إن شنق هؤلاء كان بفتوى الفقهاء.

فخاف جماعة من الأمراء وهموا بالقيام على السلطان، فأشار عليهم الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ بأن السلطان على خطة، فإن مات فقد كفيتم أمره، وإلا فهو بين أيديكم.

وأخذ السلطان فى اصلاح سور المنصورة، وانتقل إليها لخمس بقين من صفر، وجعل الستائر على السور. وقدمت الشوانى إلى تجاه المنصورة وفيها العدد الكاملة، وشرع العسكر فى تجديد الأبنية هناك، وقدم من العربان وأهل النواحى ومن المطوعة خلق لا يحصى عددهم، وأخذوا فى الإغارة على الفرنج. فملأ الفرنج أسوار مدينة دمياط بالمقاتلة والآلات.

فلما كان أول ربيع الأول، قدم إلى القاهرة من أسرى الفرنج الذين تخطفهم العربان ستة وثلاثون، منهم فارسان، وفى خامس ربيع الآخر ورد منهم تسعة وثلاثون. وفى سبعه ورد اثنان وعشرون أسيراً. وفى سادس عشره ورد خمسة وأربعون أسيراً، منهم ثلاثة خيالة. وفى ثامن عشر جمادى الأولى ورد خمسون أسيراً.

هذا، ومرض السلطان يتزايد، وقواه تتناقص، حتى أيس الأطباء منه.

وفى ثالث عشر رجب، قدم إلى القاهرة سبعة وأربعون أسيراً، وأحد عشر فارساً، وظفر المسلمون بسطح للفرنج فى البحر فيه مقاتلة بالقرب من نستراوة.

فلما كانت ليلة الأحد لأربع عشرة مضت من شعبان، مات الملك الصالح بالمنصورة، فلم يظهر موته، وحمل فى تابوت إلى قلعة الروضة. وقام بأمر العسكر الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، فإن شجرة الدر زوجة السلطان لما مات أحضرت الأمير فخر الدين، والطواشى جمال الدين محسناً- وإليه أمر المماليك البحرية والحاشية- وأعلمتهما بموته، فكتما ذلك خوفاً من الفرنج، لأنهم كانوا قد أشرفوا على تملك ديار مصر فقام الأمير فخر الدين بالتدبير، وسيروا إلى الملك المعظم توران شاه وهو بحصن كيفا الفارس أقطاى لإحضاره.

وأخذ الأمير فخر الدين بتحليف العسكر للملك الصالح، وابنه الملك المعظم بولاية العهد من بعده، وللأمير فخر الدين بأتابكية العسكر والقيام بأمر الملك...حتى حلفهم كلهم بالمنصورة وبالقاهرة فى دار الوزارة عند الأمير حسام الدين بن أبى على فى يوم الخميس لاثنتى عشرة بقيت من شعبان.

وكانت العلامات تخرج من الدهاليز السلطانية بالمنصورة إلى القاهرة بخط خادم يقال لها سهيل، لا يشك من رآها أنها خط السلطان. ومشى ذلك على الأمير حسام الدين بالقاهرة.

ولم يتفوه أحد بموت السلطان، إلى أن كان يوم الإثنين لثمان بقين من شعبان، ورد الأمر إلى القاهرة بدعاء الخطباء فى الجمعة الثانية للملك المعظم بعد الدعاء للسلطان، وأن ينقش اسمه على السكة.

فلما علم الفرنج بموت السلطان، خرجوا من دمياط بفارسهم وراجلهم -وشوانيهم تحاذيهم فى البحر- حتى نزلوا فارسكور يوم الخميس لخمس بقين من شعبان. فورد فى يوم الجمعة من الغد كتاب إلى القاهرة من العسكر، أوله : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾(*)، وفيه مواعظ بليغة بالحث على الجهاد فقرئ على منبر جامع القاهرة وقد جمع الناس لسماعه، فارتجت القاهرة ومصر وظواهرهما بالبكاء والعويل، وأيقن الناس باستيلاء الفرنج على البلاد لخلو الوقت من ملك يقوم بالأمر... لكنهم لم يهنوا، وخرجوا من القاهرة ومصر وسائر الأعمال، فاجتمع عالم عظيم.

فلما كان يوم الثلاثاء أول شهر رمضان، اقتتل المسلمون والفرنج، فاستشهد العلائى أمير مجلس وجماعة، ونزل الفرنج شارمساح.

وفى يوم الأثنين سابعه نزلوا البرمون، فاضطرب الناس وزلزلوا زلزالاً شديداً لقربهم من العسكر.

وفى يوم الأحد ثالث عشره، وصلوا تجاه المنصورة، وصار بينهم وبين المسلمين بحر أشموم وخندقوا عليهم، وأداروا على خندقهم سوراً ستروه بكثير من الستائر، ونصبوا المجانيق ليرموا بها على المسلمين، وصارت شوانيهم بإزائهم فى بحر النيل، وشوانى المسلمين بإزاء المنصورة، والتحم القتال براً وبحراً.

وفى سادس عشره، نفر إلى المسلمين ستة خياله أخبروا بمضايقه الفرنج.

وفى يوم عيد الفطر أسروا من الفرنج كند من أقارب الملك.

وأبلى عوام المسلمين فى قتال الفرنج بلاء كبيراً، وأنكوهم نكاية عظيمة. وصاروا يقتلون منهم فى كل وقت ويأسرون، ويلقون أنفسهم فى الماء ويمرون فيه إلى الجانب الذى فيه الفرنج ويتحيلون فى اختطاف الفرنج بكل حيلة، ولا يهابون الموت، حتى إن إنساناً قور بطيخة وحملها على رأسه، وغطس فى الماء حتى حاذى الفرنج، فظنه بعضهم بطيخة ونزل حتى يأخذها، فخطفه وأتى به إلى المسلمين.

(*) ٤١ التوبة م ٩.

وفى يوم الأربعاء سابع شوال، أخذ المسلمون شونة للفرنج فيها كند ومائتا رجل.

وفى يوم الخميس النصف منه، ركب الفرنج إلى بر المسلمين واقتتلوا، فقتل منهم أربعون فارسا، وسير فى عدة إلى القاهرة بسبعة وستين أسيراً، منهم ثلاثة من أكابر الدوادارية.

وفى يوم الخميس ثانى عشريه، أحرقت للفرنج مرمة عظيمة فى البحر، واستظهرت المسلمون عليهم.

وكان بحر أشموم فيه مخايض، فدل بعض من لادين له ممن يظهر الإسلام الفرنج عليه، فركبوا سحر يوم الثلاثاء خامس ذى القعدة أو رابعه، ولم يشعر المسلمون بهم إلا وقد هجموا على العسكر.

وكان الأمير فخر الدين قد عبر إلى الحمام، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد هجموا على العســكر.

فركب دهشاً غير معتد ولا متحفظ، وساق ليأمر الأمراء والأجناد بالركوب فى طائفة من مماليكه، فلقيه عدة من الفرنج الدوادارية، وحملوا عليه ففر أصحابه، وأتته طعنة فى جنبه، وأخذته السيوف من كل جانب، حتى لحق بالله عز وجل، وفى الحال غدت مماليكه فى طائفه إلى داره، وكسروا صناديقه وخزائنه، ونهبوا أمواله وخيوله.

وساق الفرنج عند مقتل الأمير فخر الدين إلى المنصورة، ففر المسلمون خوفاً منهم، وتفرقوا يمنه ويسره، وكادت الكسرة أن تكون، وتمحو الفرنج كلمة الإسلام من أرض مصر.

ووصل الملك رواد فرنس إلى باب قصر السلطان، ولم يبق إلا أن يملكه. فأذن الله تعالى أن طائفة المماليك من البحرية والجمدارية الذين استجدهم الملك الصالح، ومن جملتهم بيبرس البندقداري، حملوا على الفرنج حملة صدقوا فيها اللقاء، حتى أزاحوهم عن مواقفهم، وأبلوا فى مكافحتهم بالسيوف والدبابيس فانهزموا.

وبلغت عدة من قتل من فرسان الفرنج الخيالة فى هذه النوبة ألفاً وخمسمائة فارس، وأما الرجالة فإنها كانت وصلت إلى الجسر لتعدي، فلو تراخى الأمر حتى صاروا مع المسلمين

لأعضل الداء. على أن هذه الواقعة كانت بين الأزقة والدروب، ولولا ضيق المجال لما أفلت من الفرنج أحد.

فنجا من بقى منهم، وضربوا عليهم سورا، وحفروا خندقاً. وصارت طائفة منهم فى البر الشرقي، ومعظمهم فى الجزيرة المتصلة بدمياط.

وكانت البطاقة عند الكبسة سرحت على جناح الطائر إلى القاهرة، فانزعج الناس انزعاجاً عظيماً، ووردت السوقة وبعض العسكر، ولم تغلق أبواب القاهرة ليلة الأربعاء.

وفى يوم الأربعاء، سقط الطائر بالبشارة بهزيمة الفرنج وعدة من قتل منهم، فزينت القاهرة، وضربت البشائر بقلعة الجبل، وسار المعظم توران شاه إلى دمشق فدخلها يوم السبت آخر شهر رمضان، واستولى على من بها.

ولأربع مضين من شوال، سقط الطائر بوصوله إلى دمشق، فضربت البشائر فى العسكر بالمنصورة وفى قلعة الجبل.

وسار من دمشق لثلاث بقين منه، فتواترت الأخبار بقدومه، وخرج الأمير حسام الدين أبن أبى على إلى لقائه، فوافاه بالصالحية لأربع عشرة بقيت من ذى القعدة، ومن يومئذ أعلن بموت الملك الصالح، بعدما كان قبل ذلك لا ينطق أحد بموته ألبته، بل الأمور على حالها، والدهليز السلطانى بحاله، والسماط على العادة، وشجرة الدر أم خليل زوجة السلطان تدبر الأمور وتقول: السلطان مريض ما إليه وصول.

ثم سار من الصالحية، فتلقاه الأمراء والمماليك. واستقر بقصر السلطنة من المنصورة يوم الثلاثاء تاسع عشر ذى القعدة.

وفى أثناء هذه المدة، عمل المسلمون مراكب وحملوها على الجمال إلى بحر المحلة وألقوها فيه، وشحنوها بالمقاتلة. فعندما حاذت مراكب الفرنج بحر المحلة ـ وتلك المراكب فيه مكمنة ـ خرجت عليهم، ووقع الحرب بينهما.

وقدم الأسطول الإسلامى من جهة المنصورة وأحاط بالفرنج، فظفر باثنين وخمسين

مركباً للفرنج، وقتل وأسر منهم نحو ألف رجل. فانقطعت الميره عن الفرنج، واشتد عندهم الغلاء، وصاروا محصورين.

فلما كان أول يوم من ذى الحجة، أخذ الفرنج من المراكب التى فى بحر المحلة سبع حراريق، وفر من كان فيها من المسلمين.

وفى يوم عرفة، برزت الشوانى الإسلامية الى مراكب قدمت للفرنج فيها ميرة، فأخذت منها أثنين وثلاثين مركباً منها تسع شواني. فوهنت قوة الفرنج، وتزايد الغلاء عندهم، وشرعوا فى طلب الهدنة من المسلمين، على أن يسلموا دمياط، ويأخذوا بدلاً منها القدس وبعض بلاد الساحل، فلم يجابوا إلى ذلك.

فلما كان اليوم السابع والعشرون من ذى الحجة، أحرق الفرنج أخشابهم كلها، وأتلفوا مراكبهم يريدون التحصن بدمياط. ورحلوا فى ليلة الأربعاء لثلاث مضين من المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة إلى دمياط، وأخذت مراكبهم فى الانحدار قبالتهم. فركب المسلمون أقفيتهم بعدما عدوا إلى برهم، وطلع الفجر من يوم الأربعاء وقد أحاط المسلمون بالفرنج، وقتلوا وأسروا منهم كثيراً.. حتى قيل أن عدد من قتل من الفرنسان على فارسكور يزيد على عشرة آلاف، وأسر من الخيالة والرجالة والصناع والسوقة ما يناهز مائة ألف، ونهب من المال والذخائر والخيول والبغال ما لا يحصى.

وانحاز الملك رواد فرنس وأكابر الفرنج إلى تل، ووقفوا مستسلمين وسألوا الأمان. فأمنهم الطواشى جمال الدين محسن الصالحي، ونزلوا على أمانة، وأحيط بهم وسيقوا إلى المنصورة.

فقيد رواد فرنس، واعتقل فى الدار التى كان ينزل فيها القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان كاتب الإنشاء، ووكل به الطواشى صبيح المعظمي، واعتقل معه أخوه، ورتب له راتب يحمل إليه فى كل يوم.

ورسم الملك المعظم لسيف الدين يوسف بن الطورى - أحد من وصل صحبته من الشرق - أن يتولى قتل الأسر. فكان يخرج منهم كل ليلة ثلثمائة رجل ويقتلهم ويلقيهم فى البحر حتى فنوا.

ولما قبض على الملك رواد فرنس، رحل الملك المعظم من المنصورة، ونزل بالدهليز السلطانى على فارسكور، وعمل له برجا من خشب، وتراخى فى قصد دمياط. وكتب بخطه إلى الأمير جمال الدين بن يغمور نائبه بدمشق وولده توران شاه :

«الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن، وما النصر إلا من عند الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، وأما بنعمة ربك فحدث، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها... نبشر المجلس السامى الجمالى - بل نبشر المسلمين كافة - بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين، فإنه كان قد استكمل أمره واستحكم شره، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد، فنودوا لا تيأسوا من روح الله.

« ولما كان يوم الإثنين مستهل السنة المباركة، وهى سنة ثمان وأربعين وستمائة، تمم الله على الإسلام بركتها، فتحنا الخزائن، وبذلنا الأموال، وفرقنا السلاح، وجمعنا العربان والمطوعة، وخلقا لا يعلمهم إلا الله، جاءوا من كل فج عميق، ومكان سحيق. فلما رأى العدو ذلك، أرسل يطلب الصلح على ما وقع الاتفاق بينهم وبين الملك الكامل، فأبينا.

« ولما كانت ليلة الأربعاء، تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم وقصدوا دمياط هاربين، فسرنا فى آثارهم طالبين. وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل، وقد حل بهم الخزى والويل.

« فلما أصبحنا يوم الأربعاء، قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه فى اللجج، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج. والتجأ الفرنسيس إلى المنية وطلب الأمان، فأمناه وأخذناه وأكرمناه، وسلمناه دمياط بعون الله تعالى وقوته، وجلاله وعظمته».

وبعث مع الكتاب غفارة الملك فرنسيس فلبسها الأمير جمال الدين بن يعمور، وهى أشكر لاطا أحمر بفرو سنجاب. فقال الشيخ نجم الدين بن إسرائيل :

ان غفارة الفرنسيس جاءت

فهى حقا لسيد الأمراء

كبياض القرطاس لونا ولكن

صبغتها سيوفنا بالدماء

وقــــال آخــــر :

أسيد أمــلاك الزمان بأسـرهم
تنجزت من نصـــر الإله وعوده

فلا زال مولانا يبيح حمى العدي
ويلبس أثواب الملــــوك عبيده

وأخذ الملك المعظم يهدد زوجة أبيه شجرة الدر ويطالبها بمال أبيه، فخافته وكاتبت مماليك الملك الصالح تحرضهم عليه.

وكان المعظم لما وصل إليه الفارس أقطاى إلى حصن كيفا، وعده أن يعطيه أمرة فلم يف له بها، وأعرض مع ذلك عن مماليك أبيه واطرح امراءه، وصرف الأمير حسام الدين أبن أبى على عن نيابة السلطنة وأحضره إلى العسكر ولم يعبأ به، وأبعد غلمان أبيه.

واختص بمن وصل معه من المشرق، وجعلهم فى الوظائف السلطانية، فجعل الطواشى مسروراً ـ خادمه ـ أستادارا، وعمل صبيحاً ـ وكان عبداً حبشياً فحلاً ـ خازنداره، وأمر أن تكون له عصا من ذهب، وأعطاه مالا جزيلاً وإقطاعات جليلة.

وكان إذا سكر جمع الشمع وضرب رؤوسها بالسيف حتى تنقطع، ويقول: هكذا أفعل بالبحرية... فإنه كان فيه هرج وخفة. واحتجب على العكوف بملاذة، فنفرت منه النفوس.

وبقى كذلك إلى يوم الإثنين تاسع عشرى المحرم، وقد جلس على السماط، فتقدم إليه أحد المماليك البحرية وضربة بسيف قطع أصابع يديه، ففر إلى البرج، فاقتحموا عليه وسيوفهم مصلته، فصعد أعلى البرج الخشب فرموه بالنشاب وأطلقوا النار على البرج.

فألقى نفسه ومر إلى البحر وهو يقول: ما أريد ملككم، دعونى أرجع إلى الحصن، يا مسلمين، ما فيكم من يصطنعنى ويجيرني.

وسائر العساكر بالسيوف واقفة، فلم يجبه أحد، والنشاب يأخذه من كل ناحية. وأدركوه فقطع بالسيوف، ومات حريقاً غريقاً قتيلاً فى يوم الإثنين المذكور، وترك على الشط ثلاثة أيام ثم دفن.

ولما قتل الملك المعظم، اتفق أهل الدولة على إقامة شجرة الدر والدة خليل فى مملكة مصر، وأن يكون مقدم العسكر الأمير عزالدين أيبك التركمانى الصالحي.

وحلف الكل على ذلك، وسيروا إليها عز الدين الرومي، فقدم عليها فى قلعة الجبل وأعلمها بما اتفق، فرضيت به، وكتبت على التواقيع علامتها وهى والدة خليل، وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة.

وجرى الحديث مع الملك رواد فرنس فى تسليم دمياط، وتولى مفاوضته فى ذلك الأمير حسام الدين بن أبى على الهدياني، فأجاب إلى تسليمها، وأن يخلى عنه بعد محاورات. وسير إلى الفرنج بدمياط يأمرهم بتسليمها إلى المسلمين، فسلموها - بعد جهد جهيد من كثرة المراجعات - فى يوم الجمعة ثالث صفر، ورفع العلم السلطانى على سورها، وأعلن فيها بكلمة الإسلام وشهادة الحق، بعدما أقامت بيد الفرنج أحد عشر شهراً وسبعة أيام.

وأفرج عن الملك رواد فرنس، وعن أخيه وزوجته ومن بقى من أصحابه، إلى البر الغربي. وركبوا البحر من الغد - وهو يوم السبت رابع صفر - وأقلعوا إلى عكا.

وفى هذه النوبة يقول الوزير جمال الدين يحيي بن مطروح :

قل للفرنسيس إذا جئته

مقال نصح عن قؤول نصيح

آجرك الله على ما جرى

من قبل عباد يسوع المسيح

أتيت مصر تبتغى ملكها

تحسب أن الزمر ياطبل ريح

فساقك الحين إلى أدهم

ضاق به عن ناظريك الفسيح

وكل أصحـــابك أودعتهـم

بحسن تدبيرك بطن الضـريح

خمســـون ألفاً لايرى منهم

الا قتيـــل أو أســـير جـــريح

وفّقك اللـــه لأمثـــالها

لعل عيسى منكم يســـتريح

إن كان باباكم بذا راضيـــا

فرب غش قد أتى من نصيح

قل لهم إن أضمـــروا عودة

لأخذ ثأر أو لنقد صحـــيح

دار ابن لقمان على حالهـــا

والقيد باق والطواشى صبيح

وقدر الله أن الفرنسيس هذا بعد خلاصه من هذه الواقعة، جمع عدة جموع وقصد تونس، فقال شاب من أهلها يقال له أحمد ابن إسماعيل الزيات :

يا فرنسيس هذه أخت مصر

فتأهب لمـــا إليه تصـــير

لك فيها دار ابن لقمان قبر

وطواشيك، منكـــر ونكير

فكان هذا فألا حسنا، فإنه مات وهو على محاصرة تونس.

ولما تسلم الأمراء دمياط ، وردت البشرى إلى القاهرة ، فضربت البشائر وزينت القاهرة ومصر ، فقدمت العساكر من دمياط يوم الخميس تاسع صفر. فلما كان فى سلطنة الأشرف موسى ابن الملك المسعود أقسيس ابن الملك الكامل والملك المعز عزالدين التركماني ، وكثر الاختلاف بمصر ، واستولى الملك الناصر يوسف ابن العزيز على دمشق.. اتفق أرباب الدولة لمصر ـ وهم المماليك البحرية ـ على تخريب مدينة دمياط ، خوفاً من مسير الفرنج إليها مرة أخرى. فسيروا إليها الحجارين والفعلة ، فوقع الهدم فى أسوارها يوم الإثنين الثامن عشر من شعبان سنة ثمان وأربعين وستمائة ، حتى خربت كلها ، ومحيت آثارها ، ولم يبق منها سوى الجامع ، وصار فى قبليها أخصاص على النيل سكنها الناس الضعفاء ، وسموها المنشية.

وهذا السور هو الذى بناه أمير المؤمنين المتوكل على اللّه كما تقدم ذكره.

فلما استبد الملك الظاهر بيبرس البندقدرى الصالحى بمملكة مصر بعد قتل الملك المظفر قطز ، أخرج من مصر عدة من الحجارين فى سنة تسع وخمسين وستمائة لردم فم بحر دمياط. فمضوا وقطعوا كثيراً من القراييص وألقوها فى بحر النيل الذى ينصب من شمال دمياط فى البحر الملح حتى ضاق وتعذر دخول المراكب منه إلى دمياط.

وهو إلى اليوم على ذلك ، لا تقدر مراكب البحر الكبار أن تدخل منه ، وإنما ينقل ما فيها من البضائع فى مراكب نيلية تعرف عند أهل دمياط بالجروم (واحدها جرم) وتصير مراكب بحر الملح واقفة بآخر البحر ، قريباً من ملتقى البحرين.

ويزعم أهل دمياط الآن أن سبب امتناع دخول مراكب البحر جبل فى فم البحر ، أو رمل يتربى هناك. وهذا قول باطل حملهم عليه ما يجدونه من تلاف المراكب إذا هجمت على هذا المكان ، وجهلهم بأحوال الموجود ، وما مر من الوقائع.

وإلى يومنا هذا يخاف على المراكب عند ورودها فم البحر ، وكثيراً ما تتلف فيه. وقد سرت إليه حتى شاهدته ، ورأيته من أعجب ما يراه الإنسان.

وأما دمياط الآن فإنها حدثت بعد تخريب مدينة دمياط ، وعمل هناك أخصاص... وما برحت تزداد إلى أن صارت بلدة كبيرة ذات أسواق وحمامات وجوامع ومدارس

ومساجد. ودورها تشرف على النيل الأعظم، ومن ورائها البساتين. وهى أحسن بلاد الله منظـــراً.

وقد أخبرنى الأمير الوزير المشير الأستادار يلبغا السالمى رحمه الله، أنه لم ير فى البلاد التى سلكها من سمرقند إلى مصر أحسن من دمياط هذه، فظننت أنه يغلو فى مدحها إلى أن شاهدتها، فإذا هى أحسن بلد وأنزهة.

وفيهـا أقـول :

سقى عهد دمياط وحيـاه من عهـد

فقد زادنى ذكـراه وجـدا على وجد

ولا زالت الأنواء تسقى ســحابها

ديارا حكت من حسـنها جنة الخلد

فياحسن هاتيك الديـــار وطيبها

فكم قد حوت حسـنا يجل عن العد

فلله أنهـار تحـــف بروضـــها

لكالمرهف المصقول أو صفحـة الخد

وبشنينها الريان يحكـــى متيما

تبـدل من وصـل الأحبـــة بالصد

فقام على رجليه فى الدمـــع غارقا

يراعى نجوم الليـل من وحشه الفقد

وظـل على الأقـدام تحسـب أنه

لطـول انتظــار من حبيب على وعد

ولاسـيما تلك النواعير إنهـا
تجدد حزن الواله المدنـف الفرد
أطارحها شـجوى وصـارت كأنما
تطارح شـكواها بمثل الذى أبـدى
فقد خلتها الأفلاك فيها نجومهـا
تدور بمحض النفع منها وبالسـعد
وفى البرك الغـراء يا حسـن نوفر
حلا وغدا بالزهو يسطو على الورد
سـماء من البلور فيها كواكـب
عجيبة صبغ اللون محكمة النضد
وفى شاطئ النيـل المقـدس نزهة
تعيد شباب الشيب فى عيشه الرغد
وتنشى رياحاً تطرد الهم والأسـى
وتنشى ليالى الوصل من طيبها عندي
وفى مرج البحـرين جم عجـائب
تلوح وتبـدو من قريب ومن بعـد
كأن التقاء النيـل بالبحـر إذ غدا
مليكان سرا فى الجحافل مـن جند
وقد نزلا للحرب واحتـدم اللقا
ولا طعـن إلا بالمثقفـة الملـد

فظلا كما باتا وما برحـــــا كمـا

هما من جليل الخطب فى أعظم الجهد

فكم قد مضى لى من أفانين لــــذة

بشاطئها العذب الشـــهى لذى الورد

وكم قد نعمنا فى البســـاتين برهة

بعيش هنئ فى أمان وفى ســـــعد

وفى البرزخ المأنوس كم لى خلــوة

وعند شـــطا عن أيمن العلم الفرد

هناك ترى عــــين البصيرة ما تري

من الفضل والأفضال والخير والمجد

فيارب هيئ لى بفضــــلك عودة

ومن بهـــا فى غير بــلوى ولاجهـد

وبدمياط ـ حيث كانت المدينة التى هدمت ـ جامع من أجل مساجد المسلمين، تسميه العامة مسجد فتح، وهو المسجد الذى أسسه المسلمون عند فتح دمياط أول ما فتح الله أرض مصر على يد عمرو بن العاص. وعلى بابه مكتوب بالقلم الكوفى «أنه عمر بعد سنة خمسمائة من الهجرة». وفيه عدة من عمد الرخام، منها ما يعز وجود مثله.

وإنما عرف بجامع فتح، لنزول شخص يقل له فاتح به، فقالت العامة جامع فتح. وإنما هو فاتح بن عثمان الأسمر التكرورى قدم من مراكش إلى دمياط على قدم التجريد، وسقى بها الماء فى الأسواق احتساباً من غير أن يتناول من أحد شيئاً، ونزل فى ظاهر الثغر، ولزم الصلاة مع الجماعة.

وترك الناس جميعاً، ثم أقام بناحية تونة من بحيرة تنيس وهى خراب نحو سبع سنين، ورم مسجدها. ثم انتقل من تونة الى جامع دمياط، وأقام فى وكر بأسفل المنارة من غير أن

يخالط أحداً، إلا إذا أقيمت الصلاة خرج وصلي، فإذا سلم الإمام عاد إلى وكره، فإن عارضه أحد بحديث كلمه وهو قائم بعد انصرافه من الصلاة.

وكانت حاله أبدا اتصالاً فى انفصال، وقربا فى ابتعاد، وأنسا فى نفار.

وحج، فكان يفارق أصحابه عند الرحيل، فلا يرونه إلا وقت النزول، ويكون سيره منفرداً عنهم، لا يكلم أحداً، إلى أن عاد إلى دمياط فأخذ فى ترميم الجامع وتنظيفه بنفسه، حتى نقى ما كان فيه من الوطواط بسقوفه، وساق الماء إلى صهاريجه، وبلط صحنه، وسبك سطحه بالجبس، وأقام فيه.

وكان قبل ذلك من حين خربت دمياط لا يفتح إلا فى يوم الجمعة فقط، فرتب فيه إماماً راتباً يصلى الخمس. وسكن فى بيت الخطابة، وواظف على إقامة الأوراد به، وجعل فيه قراء يتلون القرآن بكرة وأصيلا، وقرر فيه رجلاً يقرأ ميعاداً يذكر الناس ويعلمهم.

وكان يقول: لو علمت بدمياط مكاناً أفضل من الجامع لأقمت به، ولو علمت فى الأرض بلداً يكون فيه الفقير أخمل من دمياط لرحلت اليه، وأقمت به.

وكان إذا ورد عليه أحد من الفقراء ولا يجد ما يطعمه، باع من لباسه ما يضيفه به. وكان يبيت ويصبح وليس له معلوم، ولا ما يقع عليه العين، أو تسمعه الأذن.

وكان يؤثر فى السر الفقراء والأرامل، ولا يسأل أحداً شيئاً، ولا يقبل غالباً، وإذا قبل ما يفتح الله عليه آثر به. وكان يبذل جهده فى كتم حاله، والله تعالى يظهر خيره وبركته من غير قصد منه لذلك.

وعرفت له عدة كرامات، وكان سلوكه على طريق السلف من التمسك بالكتاب والسنة، والنفور عن الفتنة، وترك الدعاوى واطراحها، وستر حاله، والتحفظ فى أقواله وأفعاله.

وكان لا يرافق أحداً فى الليل، ولا يعلم أحد يوم صومه من يوم فطره، ويجعل دائماً قول: «إن شاء اللّه تعالي» مكان قول غيره «واللّه».

ثم إن الشيخ عبدالعزيز الدميرى أشار عليه بالنكاح، وقال له: النكاح من السنة. فتزوج

من آخر عمره بامرأتين لم يدخل على واحدة منهما نهاراً ألبته، ولا أكل عندهما ولا شرب قط.

وكان ليله ظرفاً للعبادة، لكنه يأتى إليهما أحياناً، وينقطع أحياناً لاستغراق زمنه كله فى القيام بوظائف العبادات وإيثار الخلوة.

وكان خواص خدمه لا يعلمون بصومه من فطره، وإنما يحمل إليه ما يأكل ويوضع عنده بالخلوة، فلا يرى قط آكلاً.

وكان يحب الفقر، ويؤثر حال المسكنة، ويتطارح على الخمول والجفا، ويتواضع مع الفقراء، ويتعاظم على العظماء والأغنياء.

وكان يقرأ فى المصحف، ويطالع الكتب، ولم يره أحد يخط بيده شيئاً. وكانت تلاوته للقرآن بخشوع وتدبر. ولم يعمل له سجادة قط، ولا أخذ على أحد عهداً، ولا لبس طاقية، ولا قال أنا شيخ ولا أنا فقير، ومتى قال فى كلامه «أنا»، تفطن لما وقع منه، واستعاذ بالله من قول أنا، ولا حضر قط سماعاً، ولا أنكر على من يحضره.

وكان سلوكه صلاحاً من غير إصلاح، ويبالغ فى الترفع على أبناء الدنيا، ويترامى على الفقراء، ويقدم لهم الأكل، ولم يقدم لغنى أكلاً ألبته.

وإذا اجتمع عنده الناس، قدم الفقير على الغني. وإذا مضى الفقير من عنده، سار معه وشيعه عدة خطوات وهو حاف بغير نعل، ووقف على قدميه ينظره حتى يتوارى عنه.

ومن كان من الفقراء يشار إليه بمشيخة جلس بين يديه بأدب مع إمامته، وتقدمه فى الطريق ويقول: ما أقول لأحد افعل أو لا تفعل، من أراد السلوك يكفيه أن ينظر إلى أفعاله، فإن من لم يتسلك بنظره لايتسلك بسمعه.

وقال له شخص من خواصه: يا سيدي، ادع الله لنا أن يفتح علينا فنحن فقراء.

فقال: أن أردتم فتح الله، فلا تبقوا فى البيت شيئاً، ثم اطلبوا فتح اللّه بعد ذلك، فقد جاء: « لا تسأل اللّه ولك خاتم من حديد ».

ومن كلامه: الفقير بحال البكر، إذا سأل زالت بكارته.

وسأله بعض خواصه أن يدعو له بسعة، وشكا له الضيق، فقال: أنا ما أدعو لك بسعة، بل أطلب لك الأفضل والأكمل.

وكان مع اشتغاله بالعبادة واستغراق أوقاته فيها لا يغفل عن صاحبه، ولا ينسى حاجته حتى يقضيها، ويلازم الوفاء لأصحابه ويحسن معاشرتهم، ويعرف أحوال الناس على طبقاتهم، ويعظم لعلم، ويكرم الأيتام، ويشفق على الضعفاء والأرامل، ويبذل شفاعته فى قضاء حوائج الخاص والعام من غير أن يمل ولا يتبرم بكثرة ذلك، ويكثر من الإيثار فى السر، ولا يمسك لنفسه شيئا، ويستقل ما منه مع كثرة إحسانه، ويستكثر ما يدفع إليه وأن كان يسيراً، ويكافئ عليه بأحسن منه. ولم يصحب قط أميراً ولا وزيراً، بل كان فى سلوكه وطريقه يرفع فى تواضع، ويعزز مع مسكنة، وقرب فى ابتعاد، واتصال فى انفصال، وزهد فى الدنيا وأهلها. وكان أكبر من خبره.

ومن دعائه لنفسه، ولمن يسأل له الدعاء: اللهم ابعدنا عن الدنيا وأهلها، وبعدها عنا.

ومازال على ذلك إلى أن مات آخر ليلة أسفر صباحها عن الثامن من شهر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وستمائة، وترك ولدين ليس لهما قوت ليلة، وعليه مبلغ ألفى درهم دينار. ودفن بجوار الجامع، وقبره يزار إلى يومنا هذا.

ذكر شطا

شطا مدينة عند تنيس ودمياط، وإليها تنسب الثياب الشطوية.

ويقال إنها عرفت بشطا بن الهاموك، وكان أبوه خال المقوقس، وكان على دمياط. فلما فتح اللّٰه الحصن على يد عمرو بن العاص، واستولى على أرض مصر، جهز بعثا لفتح دمياط، فنازلوها إلى أن ملكوا سور المدينة، فخرج شطا فى ألفين من أصحبه ولحق بالمسلمين. وقد كان قبل ذلك يحب الخير ويميل إلى ما يسمعه من سيره أهل الإسلام.

ولما ملك المسلمون دمياط، امتنع عليهم صاحب تنيس، فخرج شطا إلى البرلس والدميرة وأشموم طناح يستنجد، فجمع الناس لقتال أهل تنيس، وسار بهم مع من كان بدمياط من المسلمين ومن قدم مدداً من عند عمرو بن العاص إلى قتال أهل تنيس.

فالتقى الفريقان، وأبلى شطا منهم بلاء حسناً وقتل من أبطال تنيس اثنى عشر رجلاً.

واستشهد فى ليلة الجمعة النصف من شعبان سنة أحدى وعشرين من الهجرة، فقبر- حيث هو الآن- خارج دمياط، وبنى على قبره، وصار الناس يجتمعون هناك فى ليلة النصف من شعبان كل عام، ويغدون للحضور من القري. وهم على ذلك إلى يومنا هذا.

وكانت تعمل كسوة الكعبة بشطا... قال الفاكهي: ورأيت فيها كسوة من كسا أمير المؤمنين هارون الرشيد من قباطى مصر، مكتوباً عليها: «بسم الله، بركة من الله لعبد الله هارون أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، مما أمر الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين بصنعته فى طراز شطا، كسوة الكعبة سنة إحدى وتسعين ومائة».

ومن المواضع المشهورة بدمياط:

البرزخ: وهو مسجد بحيرة دمياط، تسميه العامة البرزخ، ولا أعرف مستندهم فى ذلك.

وشاهدت فيه عجبا، وهو أن به منارة كبيرة مبنية من الآجر، إذا هزها أحد اهتزت، فلما صعدت أعلاها- حيث يقف المؤذنون- وحركتها، رأيت ظلها قد تحرك بتحريكى لها.

ويوجد حول هذا المسجد رم أموات يشبه أن تكون ممن استشهد فى وقائع الفرنج. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

ديبق: قرية من قرى دمياط، ينسب إليها الثياب المثقلة، والعمائم الشرب الملونة.

والديبقى: العلم المذهب.

وكانت العمائم الشرب المذهبة تعمل بها، ويكون طول كل عمامة منها مائة ذراع، وفيها رقمات منسوجة بالذهب.. فتبلغ العمامة من الذهب خمسمائة دينار، سوى الحرير والغزل. وحدثت هذه العمائم وغيرها فى أيام العزيز بالله بن المعز، سنة خمس وستين وثلاثمائة، إلى أن مات فى شعبان سنة ست وثمانين وثلاثمائة.

النحريرية : قرية من الأعمال الغربية، أسس حكرها الأمير شمس الدين سنقر السعدى نقيب الجيش فى أيام الناصر محمد بن قلاوون، وبالغ فى عمارتها، فبلغت فى أيامه عشرة آلاف درهم فضة.

ثم خرج عنها فعمرت للسلطان، واتسع أمرها حتى أنشئ فيها زيادة على ثلاثين بستاناً، ووصل حكرها لكثرة سكانها إلى ألف درهم فضة لكل فدان، وصارت بلدا كبير العمل، يبلغ فى السنة ما بين خراجى وهلالى ثلاثمائة ألف درهم فضة، عنها خمسة عشر ألف دينار ذهباً.

ومات سنقر هذا فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. وإليه تنسب المدرسة السعدية بخط حدرة البقر خارج باب زويلة.

جزيرة بنى نصر : منسوبة إلى بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن. وذلك أن بنى حماس بن ظالم بن جعيل بن عمرو بن درهمان أبن نصير بن معاوية بن بكر بن هوازن كانت لهم شوكة شديدة بأرض مصر، وكثروا حتى ملأوا أسفل الأرض، وغلبوا عليها حتى قويت عليهم قبيلة من البربر تعرف بلواته - ولواته تزعم أنها من قيس - فأجلت بنى نصر، وأسكنتها الجدار، فصاروا أهل قرى فى مكان عرف بهم وسط النيل، وهى جزيرة بنى نصر هذه.

ذكر الطريق فيما بين مدينة مصر ودمشق

أعلم أن البريد أول من رتب دوابه الملك دارا بن بهمن بن كيبشتاسف بن كيهراسف، أحد ملوك الفرس.

وأما فى الإسلام فأول من أقام البريد أمين المؤمنين المهدى محمد بن أبى جعفر المنصور، أقامه فيما بين مكة والمدينة واليمن، وجعله بغالاً وإبلا، وذلك فى سنة ست وستين ومائة.

وأصل هذه الكلمة «بريد ذنب» فإن دارا أقام فى سكك البريد دواب محذوفة الأذناب سميت «بريد ذنب»، ثم عربت وحذف منها نصفها الأخير فقيل «بريد».

وهذا الدرب الذى يسلكه العساكر والتجار وغيرهم من القاهرة على الرمل إلى مدينة غزة، ليس هو الدرب الذى يسلك فى القديم من مصر إلى الشام.

ولم يحدث هذا الدرب الذى يسلك فيه من الرمل الآن إلا بعد الخمسمائة من سنى الهجرة، عندما انقرضت الدولة الفاطمية.

وكان الدرب أولاً قبل استيلاء الفرنج على سواحل البلاد الشامية غير هذا... قال أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة فى كتاب «المسالك والممالك»: وصفة الأرض والطريق من دمشق إلى الكسوة اثنا عشر ميلا، ثم إلى جاسم أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى فيق أربعة وعشرون ميلا، ثم إلى طبرية مدينة الأردن ستة أميال، ومن طبرية إلى اللجون عشرون ميلاً، ثم إلى القلنسوة عشرون ميلاً، ثم إلى الرملة مدينة فلسطين أربعة وعشرون ميلاً. والطريق من الرملة إلى أزدود أثنا عشر ميلاً، ثم إلى غزة عشرون ميلاً، ثم إلى العريش أربعة وعشرون ميلاً فى رمل، ثم إلى الورادة ثمانية عشر ميلاً، ثم إلى أم العرب عشرون ميلاً، ثم إلى الفرما أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى جرير ثلاثون ميلاً، ثم إلى القاصرة أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى مسجد قضاعة ثمانية عشر ميلاً، ثم إلى بلبيس أحد وعشرون ميلاً، ثم إلى الفسطاط مدينة مصر أربعة وعشرون ميلاً.

فهذا كما ترى إنما كان الدرب المسلوك من مصر إلى دمشق، على غير ما هو الآن، فيسلك من بلبيس إلى الفرما فى البلاد التى تعرف اليوم ببلاد السباخ، من الحوف، ويسلك من الفرما - وهى بالقرب من قطية - إلى أم العرب - وهى بلاد خراب على البحر فيما بين قطية والورادة، ويقصدها قوم من الناس، ويحفرون فى كيمانها فيجدون دراهم من فضة خالصة، ثقيلة الوزن، كبيرة المقدار - ويسلك من أم العرب الى الورادة، وكانت بلدة فى غير موضعها الآن، قد ذكرت فى هذا الكتاب.

فلما خرج الفرنج من بحر القسطنطينية فى سنة تسعين وأربعمائة لأخذ البلاد من أيدى المسلمين، وأخذ بغدوين الشوبك وعمره فى سنة تسع وخمسمائة، وكان قد خرب من تقادم السنين، وأغار على العريش وهو يومئذ عامر... بطل السفر حينئذ من مصر إلى الشام، وسار يسلك عن طريق البر مع العرب مخافة الفرنج، إلى أن استنقذ السلطان صلاح

الدين يوسف بن أيوب بيت المقدس من أيدى الفرنج فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وأكثر من الإيقاع بالفرنج، وافتتح منهم عدة بلاد بالساحل، وصار يسلك هذا الدرب على الرمل. فسلكه المسافرون من حينئذ إلى أن ولى ملك مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، فأنشأ بأرض السباخ، على طرف الرمل، بلدة عرفت إلى اليوم بالصالحية وذلك فى سنة أربع وأربعين وستمائة، وصار بها ويقيم فيها، ونزل بها من بعده الملوك.

فلما ملك مصر الملك الظاهر بيبرس البندقداري، رتب البريد فى سائر الطرقات، حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق فى أربعة أيام ويعود فى مثلها. فصارت أخبار الممالك ترد إليه فى كل جمعه مرتين، ويتحكم فى سائر ممالكه بالعزل والولاية وهو مقيم بالقلعة، وأنفق فى ذلك مالاً عظيماً، حتى تم ترتيبه. وكان ذلك فى سنة تسع وخمسين وستمائة.

ومازال أمر البريد مستمراً فيما بين القاهرة ودمشق، يوجد بكل مركز من مراكزه عدة من الخيول المعدة للركوب ـ وتعرف بخيل البريد ـ وعندها عدة سواس، وللخيل رجال يعرفون بالسواقين، واحدهم سواق، يركب مع من رسم بركوبه خيل البريد ليسوق له فرسه ويخدمه مدة مسيره. ولا يركب أحد خيل البريد إلا بمرسوم سلطاني، فتارة يمنع الناس من ركوبه إلا من انتدبه السلطان لمهمارته، وتارة يركبه من يريد السفر من الأعيان بمرسوم سلطاني.

وكانت طرق الشام عامرة، يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف وغيره. ولكثرة ما كان فيه من الزمن أدركنا المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها ـ راكبة أو ماشية ـ لا تحمل زاداً ولا ماء.

فلما أخذ تيمورلنك دمشق وسبى أهلها، وحرقها فى سنة ثلاث وثمانمائة، خربت مراكز البريد واشتغل أهل الدولة بما نزل بالبلاد من المحن، وما دهوا به من كثرة الفتن، عن إقامة البريد، فاختل بانقطاعة طريق الشام خللا فاحشاً. والأمر على ذلك إلى وقتنا هذا، وهو سنة ثمان عشرة وثمانمائة.

ذكر مدينة حطين

هذه المدينة آثارها إلى اليوم باقية فيما بين حبوة والعاقولة بأرض العاقولة فيما بين قطية والعريش، تجاهها بميل ماء عذب تسميه العرب أبا العروق، وهو شرقيها.

وهذه المدينة تنسب إلى حطين، ويقال حطى بن الملك أبى جاد المديني. وأهل قطبة اليوم يسمون تلك الأرض ببلاد حطين والجفر.

وملك حطين هذا أرض مصر بعد موت أبيه، وكان صاحب حرب وبطش، وكان ينزل بقلعة فى جبال الأردن قريباً من طبرية، وإليه تنسب قرية حطين التى بها الآن قبر شعيب بالقرب من صفد.

ذكر مدينة الرقة

هذه المدينة من جملة مدائن مدين فيما بين بحر القلزم وجبل الطور. كان بها عندنا خرج موسى عليه السلام ببنى إسرائيل من مصر قوم من لخم آل فرعون يعبدون البقر، وإياهم عنى اللّه بقوله تعالى ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم...**﴾(*) الآية.

قال قتادة: أولئك القوم من لخم، وكانوا نزولاً بالرقة وقيل كانت أصنامهم تماثيل البقر، ولهذا أخرج لهم السامرى عجلاً.

وآثار هذه المدينة باقية إلى اليوم، فيما بقى من مدينة فاران والقلزم ومدين وأيلة، تمر بها الأعراب.

(*) ١٣٨ الأعراف ك ٧.

ذكر عين شمس

وكان يقال لها فى القديم رعمساس، وكانت عين شمس هيكلاً يحج النس إليه، ويقصدونه من أقطار الأرض، فى جمله ما كان يحج اليه من الهياكل التى كانت فى قديم الدهر.

ويقال أن الصابئة أخذت هذه الهياكل عن عاد وثمود. ويزعمون أنه عن شيث بن آدم، وعن هرمس الأول ـ وهو أدريس ـ وأن أدريس هو أول من تكلم فى الجواهر العلوية، والحركات النجومية، وبنى الهياكل ومجد الله فيها.

ويقال إن الهياكل كانت عدتها فى الزمن الغابر اثنى عشر هيكلاً، وهى : هيكل العلة الأولي، وهيكل العقل، وهيكل السياسة، وهيكل الصورة، وهيكل النفس ـ وكانت هذه الهياكل الخمسة مستديرات ـ والهيكل السادس هيكل زحل وهو مسدس، وبعده هيكل المشترى وهو مثلث، ثم هيكل المريخ وهو مربع، وهيكل الشمس وهو أيضاً مربع، وهيكل الزهرة وهو مثلث مستطيل، وهيكل عطارد مثلث فى جوف مربع مستطيل، وهيكل القمر مثمن.

وعللوا عبادتهم للهياكل بأن قالوا : لما كان صانع العالم مقدساً عن صفات الحدوث وجب العجز عن إدراك جلاله، وتعين أن يتقرب إليه عبده بالمقربين لديه، وهم الروحانيون، ليشفعوا لهم، ويكونوا وسايط لهم عنده.

وعنوا بالروحانيين الملائكة، وزعموا أنها المدبرات للكواكب السبعة السيارة فى أفلاكها، وهي هياكلها، وأنه لابد لكل روحانى من هيكل، ولابد لكل هيكل من فلك، وأن نسبة الروحانى إلى الهيكل نسبة الروح إلى الجسد.

وزعموا أنه لابد من رؤية المتوسط بين العباد وبين بارئهم حتى يتوجه إليه العبد بنفسه، ويستفيد منه. ففزعوا إلى الهياكل التى هى السيارات، فعرفوا بيوتها من الفلك، وعرفوا مطالعها ومغاربها واتصالاتها، وما لها من الأيام والليالى والساعات والأشخاص والصور والأقاليم، وغير ذلك مما هو معروف فى موضعه من العلم الرياضى.

وسموا هذه السبعة السيارة أرباباً وآلهة، وسموا الشمس إله الآلهه ورب الأرباب، وزعموا أنها المفيضة على السنة أنوارها، والمظهرة فيها آثارها. فكانوا يتقربون إلى الهياكل تقرباً إلى الروحانين لتقربهم إلى الباري، لزعمهم أن الهياكل أبدان الروحانيين، وكل من تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه.

وكانوا يصلون لكل كوكب يوماً يزعمون أنه رب ذلك اليوم، وكانت صلاتهم فى ثلاثة أوقات: الأولى عند طلوع الشمس، والثانية عند استوائها فى الفلك، والثالثة عند غروبها. فيصلون لزحل يوم السبت، وللمشترى يوم الأحد، وللمريخ يوم الإثنين، وللشمس يوم الثلاثاء، وللزهرة يوم الأربعاء، ولعطارد يوم الخميس، وللقمر يوم الجمعة.

ويقال إنه كان ببلخ هيكل بناه بنو حمير على اسم القمر لتعارض به الكعبة، فكانت الفرس تحجه وتكسوه الحرير، وكان اسمه نوبهر. فلما تمجست الفرس عملته بيت نار، وقيل للموكل بسدانته برمك (يعنى والى مكة). وانتهت البرمكة إلى جد خالد جد جعفر بن يحيي بن خالد، فأسلم على يد هشام بن عبدالملك، وسماه عبدالله.

وخرب هذا الهيكل قيس بن الهيثم فى أول خلافة معاوية سنة إحدى وأربعين. وكان بناء عظيماً حوله أروقة وثلاثمائة وستون مقصورة لسكن خدامه.

وكان بصنعاء قصر غمدان من بناء الضحاك، وكان هيكل الزهرة، وهدم فى خلافة عثمان بن عفان.

وكان بالأندلس، فى الجبل الفارق بين جزيرة الأندلس والأرض الكبيرة، هيكل المشترى من بناء كلوبطرة بنت بطليموس.

وكان بفرغانة بيت يقال له كلوسان هيكل للشمس، بناه بعض ملوك فارس الأول، خربه المعتصم.

وقد اختلف فيمن بنى هيكل عين شمس. وسأقص من أخباره ما لم أره مجموعاً فى كتاب.

قال ابن وصيف شاه: وقد كان الملك منقاوس إذا ركب عملوا بين يديه التخاييل العجيبة، فيجتمع الناس ويعجبون من أعمالهم. وأمر أن يبنى له هيكل للعبادة يكون له خصوصاً، ويجعل فيه قبة فيها صورة الشمس والكواكب، وجعل حولها أصناماً وعجائب، فكان الملك يركب إليه، ويقيم فيه سبعة أيام.

وجعل فيه عمودين زبر عليهما تاريخ الوقت الذى عمل فيه، وهما باقيان الى اليوم، وهو الموضع الذى يقال له عين شمس، ونقل إلى عين شمس كنوزاً وجواهر وطلسمات وعقاقير وعجائب، ودفنها بها وبنواحيها.

وأقام ملكاً إحدى وتسعين سنة، ومات من الطاعون، وقيل من سم.

وعمل له ناووس فى صحراء الغرب، وقيل فى غربى قوص، ودفن معه مصاحف الحكمة والصنعة، وتماثيل الذهب والجوهر، ومن الذهب المضروب شئ كثير.

ودفن معه تمثال روحانى الشمس من ذهب يلمع، وله جناحان من زبرجد، وصنم على صورة امرأته، وكان يحبها.

فلما ماتت أمر أن تعمل صورتها فى الهياكل كلها، وعمل صورتها من ذهب بذؤابتين سوداوين، وعليها حلة من جواهر منظومة وهى جالسة على كرسي. وكان يجعلها بين يديه فى كل موضع يجلس فيه، يتسلى بذلك عنها، فدفنت هذه الصورة معه تحت رجليه كأنها تخاطبه.

وقال الحكيم الفاضل أحمد بن خليفة فى كتاب «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» : واشتاق فيثاغورس إلى الاجتماع بالكهنة الذين كانوا بمصر، فورد على أهل مدينة الشمس- المعروفة فى زماننا بعين شمس- فقبلوه قبولاً كريهاً، وامتحنوه زماناً فلم يجدوا عليه نقصاً ولا تقصيراً.

فوجهوا به إلى كهنة منف كى يبالغوا فى امتحانه، فقبلوه على كراهة، واستقصوا امتحانه، فلم يجدوا عليه معيباً، ولا أصابوا له عثرة.

فبعثوا به إلى أهل ديوسوس ليمتحنوه، فلم يجدوا عليه طريقا ولا إدحاضة سبيلا، ففرضوا عليه فرائض صعبة كيما يمتنع من قبولها فيدحضوه، ويحرموه طلبته مخالفة لفرائض اليونانيين، فقبل ذلك وقام به.

فاشتد اعجابهم به، وفشا بمصر ورعة، حتب بلغ ذكره إلى أماسيس ملك مصر، فأعطاه سلطاناً على ضحايا الرب وعلى سائر قرابينهم، ولم يعط ذلك لغريب قط.

ويقال إنه كان للكواكب السبعة السيارة هياكل، يحج الناس إليها من سائر أقطار الدنيا، وضعها القدماء، فجعلوا على اسم كل كوكب هيكلا فى ناحية من نواحى الأرض.

زعموا أن البيت الأول هو الكعبة، وأنه مما أوصى إدريس - الذى يسمونه هرمس الأول المثلث - أن يحج إليه، وزعموا أنه منسوب لزحل.

والبيت الثانى بيت المريخ، وكان بمدينة صور من الساحل الشامي.

والبيت الثالث للمشتري، وكان بدمشق، بناه جيرون بن سعد بن عاد، وموضعه الآن جامع بنى أمية.

والبيت الرابع بيت الشمس بمصر، ويقال إنه من بناء هرشيك، أحد ملوك الطبقة الأولى من ملوك الفرس، وهو المسمى بعين شمس.

والبيت الخامس بيت الزهرة، وكان بمنتيج.

والبيت السادس بيت عطارد، وهو بصيدا من ساحل البحر الشامي.

والبيت السبع بيت القمر، وكان بحران - ويقال إنه قلعتها - ويسمى المدور، ولم يزل عامراً إلى أن خربه التتر. ويقال أنه كان هو هيكل الصابئة الأعظم.

وقال شافع بن على فى كتاب «عجائب البلدان» : وعين شمس مدينة صغيرة، تشاهد سورها محدقاً بها مهدوماً، ويظهر من أمرها أنها كانت بيت عبادة.

وفيها من الأصنام الهائلة العظيمة الشكل، من نحيت الحجارة، ما يكون طول الصنم بقدر ثلاثين ذراعاً، وأعضاؤه على تلك النسبة من العظم. وكل هذه الأصنام قائمة على قواعد، وبعضها قاعد على نصبات عجيب واتقانات محكمة.

وباب المدينة موجود إلى الآن .

وعلى معظم تلك الحجارة تصاوير على شكل الإنسان وغيره من الحيوان، وكتابة كثيرة بالقلم المجهول، وقلما ترى حجرا خلا عن كتابة أو نقش أو صورة.

وفى هذه المدينة المسلتان المشهورتان، وتسميان مسلتى فرعون.

وصفة المسلة قاعدة مربعة، طولها عشرة أذرع فى مثلها عرضا فى نحوها سمكا، قد وضعت على أساس ثابت فى الأرض، ثم أقيم عليها عمود مثلث مخروط ينيف طوله على مائة ذراع، يبتدئ من القاعدة ببسطة قطرها خمسة أذرع، وينتهى إلى نقطة.

وقد لبس رأسها بقلنسوة نحاس إلى نحو ثلاثة أذرع منها كالقمع، وقد تزنجر بالمطر وطول المدة، واخضر وسال من خضرته على بسيط المسلة، وكلها عليها كتابات بذلك القلم.

وكانت المسلتان قائمتين، ثم خربت إحداهما، وانصدعت من نصفها لعظم الثقل، وأخذ النحاس من رأسها.

ثم إن حولها من الأصنام شيئاً كثيراً لا يحصى عدده، على نصف تلك العظمى أو يليها. ولقلما يوجد فى هذه المسال الصغار ما هو قطعة واحدة، بل فصوصها بعضها على بعض، وقد تهدم أكثرها وإنما بقيت قواعدها.

وقال محمد بن إبراهيم الجزرى فى تايخه : وفى رابع شهر رمضان (يعنى من سنة ست وخمسين وستمائة) وقعت إحدى مسلتى فرعون، التى بأراضى المطرية من ضواحى القاهرة، فوجدوا داخلها مائتى قنطار من نحاس، وأخذ من رأسها عشرة آلاف دينار.

ويقال إن عين شمس بناها الوليد بن دومع من الملوك العماليق وقيل بناها الريان بن الوليد، وكانت سرير ملكه. والفرس تزعم أن هرشيك بناها.

ويقال طوله العمودية مائة ذراع. وقيل أربعة وثمانون ذراعاً. وقيل خمسون ذراعاً.

ويقال إن بخت نصر هو الذى خرب عين شمس لما دخل إلى مصر.

وقال القضاعى : وعين شمس - وهى هيكل الشمس - بها العمودان اللذان لم ير أعجب منهما ولا من شأنهما، طولهما فى السماء نحو من خمسين ذراعاً، وهما محمولان

على وجه الأرض، وبينهما صورة إنســـان على دابـة، وعلى رأسـهما شــبه الصـومعتين من نحـــاس.

فإذا جاء النيل قطر من رأسيهمـا ما تستبينه وتراه منهمـا واضحاً ينبع حتى يجرى من أسافلهما، فينبت فى أصلهما العوسج وغيره.

وإذا دخلت الشـمس دقيقـة من الجدى - وهو أقصر يوم فى السنة - انتـهت إلى الجنوبى منهما، قطلعت عليه على قمة رأسه. ثم إذا دخلت دقيقة من السرطان - وهو أطول يوم فى السنة - انتهت إلى الشمالى منهما، فطعت على قمة رأسه.

وهما منتهى الميلين، وخط الاستواء فى الواسطة منهما، ثم خطرت بينهما ذاهبة وجائية سائر السنة... كذا يقول أهل العلم بذلك.

وقال ابن سعيد فى كتاب المغرب: وكانت عين شمس، فى قديم الزمان، عظيمة الطول والعرض، متصلة البناء بمصر القديمة حيث مدينة الفسطاط الآن. ولما قدم عمرو بن العاص، نازل عين شمس - وكان جمع القوم - حتى فتحها.

وقال جامع السيرة الطولونية: كان بعين شمس صنم، بمقدار الرجل المعتدل الخلق، من كذان أبيض محكم الصنعة، يتخيل من استعرضه أنه ناطق.

فوصف لأحمد بن طولون، فاشتاق إلى تأمله، فنهاه ندوسة عنه وقال: ما رآه وال قط إلا عزل.

فركب إليه - وكان هذا فى سنة ثمان وخمسين ومائتين - وتأمله، ثم دعا بالقطاعين وأمرهم باجتثاثه من الأرض، ولم يترك منه شيئاً.

ثم قال لندوسة خازنه: يا ندوسة، من صرف منا صاحبه؟

قال: أنت أيها الأمير.

وعاش بعدها أحمد اثنتى عشرة سنة أميرا.

وبنى العزيز بالله نزار بن المعز قصوراً بعين شمس.

وقال أبو عبيد البكرى: عين شمس (بفتح الشين وإسكان ثانية بعده سين مهملة) عين ماء معروفة.

قال محمد بن حبيب : عين شمس حيث بنى فرعون الصرح. وزعم قوم أن عين شمس إلى هذا الماء أضيف.

وأول من سمى هذا الاسم سبأ بن يشجب.

وذكر الكلبى أن شمساً، الذى تسموا به، صنم قديم.

وقال ابن خرداذبة : وإسطوانتين بعين شمس من أرض مصر، ومن بقايا أساطين كانت هناك، فى رأس كل أسطوانة طوق من نحاس، يقطر من إحداهما ماء من تحت الطوق إلى نصف الأسطوانة لا يجاوزه، ولا ينقطع قطره ليلاً ولا نهاراً، فموضعه من الأسطوانة أخضر رطب، ولا يصل الماء إلى الأرض. وهو من بناء أوسهنك.

وذكر محمد بن عبدالرحيم فى كتاب «تحفة الألباب» أن هذا المنار مربع علوه مائة ذراع قطعة واحدة، محدد الرأس على قاعدة من حجر، وعلى رأس المنار غشاء من صفر كالذهب، فيه صورة إنسان على كرسى قد استقبل المشرق، ويخرج من تحت ذلك الغشاء الصفر ماء يسيل مقدار عشرة أذرع، وقد نبت منه شئ كالطحلب، فلا يبرح لمعان الماء على تلك الخضرة أبداً صيفاً وشتاء، لا ينقطع ولا يصل إلى الأرض منه شئ.

وبعين الشمس نبت يزرع كالقضبان يسمى البلسم، يتخذ منه دهم البلسان، لا يعرف بمكان من الأرض إلا هناك، وتؤكل لحى هذه القضبان فيكون له طعم، وفيه حرارة وحرافة لذيذة.

وبناحية المطرية، من حاضرة عين شمس، البلسان، وهو شجر قصار يسقى من ماء بئر هناك، وهذه البئر تعظمها النصاري، وتقصدها وتغتسل بمائها وتستشفى به.

ويخرج لاعتصار البلسان - أوان إدراكة - من قبل السلطان من يتولى ذلك ويحفظه، ويحمل إلى الخزانة السلطانية، ثم ينقل منه إلى قلاع الشام والمارستانات لمعالجة المبرودين، ولا يوخذ منه شئ الا من خزانة السلطان، بعد أخذ مرسوم بذلك.

وللملوك النصارى - من الحبشة والروم والفرنج - فيه غلو عظيم، وهم يتهادونه من صاحب مصر، ويرون أنهم لا يصح عندهم لأحد أن يتنصر إلا أن ينغمس فى ماء المعمودية ويعتقدون أنه لابد أن يكون فى ماء المعمودية شئ من دهن البلسان، ويسمونه الميرون.

وكان فى القديم إذا وصل من الشام خبر انتهى إلى صاحب عين شمس، ثم يرد من عين شمس إلى الحصن الذى عرف بقصر الشمع حيث الآن مدينة مصر، ثم يرد من الحصن إلى مدينة منف حيث كانت منف تحت الملك.

وسبب تعظيم النصارى لدهن البلسان ما ذكره فى كتاب «السنكسار» ـ وهو يشتمل على أخبار النصارى ـ أن المسيح لما خرجت به أمه، ومعهما يوسف النجار، من بيت المقدس، فرارا من هيرودس ملك اليهود، نزلت به أول موضع من أرض مصر مدينة بسطة فى رابع عشرى بشنس، فنزلوا بظاهرها، وأقاموا أياما.

ثم ساروا إلى مدينة سمنود، وعدوا النيل إلى الغربية، ومشوا إلى مدينة الأشمونين. وكان بأعلاها إذ ذاك شكل فرس من نحاس، قائم على أربعة أعمدة، فإذا قدم إليها غريب صهل.. فجاءوه ونظروا فى أمر القادم، فعندما وصلت مريم بالمسيح عليه السلام إلى المدينة سقط الفرس المذكور وتكسر، فدخلت به أمه.

وظهرت له عليه السلام فى الأشمونين آية، وهو أن خمسة جمال محملة زاحمتهم فى مرورهم، فصرخ فيها المسيح فى الأشمونين، فصارت حجارة.

ثم إنهم ساروا من الأشمونين، وأقاموا بقرية تسمى فيلس مدة أيام، ثم مضوا إلى مدينة تسمى قس وقام ـ وهى التى يقال لها اليوم القوصية ـ فنطق الشيطان من أجواف الأصنام التى بها، وقال: إن امرأة أتت ومعها ولدها يريدون أن يخربوا بيوت معابدكم. فخرج إليهم مائة رجل بسلاحهم، وطردوهم عن المدينة.

فمضوا إلى ناحية ميرة فى غربى القوصية، ونزلوا فى الموضع الذى يعرف اليوم بدير المحرق، وأقاموا به ستة أشهر وأياما، فرأى يوسف النجار فى منامه قائلا يخبره بموت هيرودس، ويأمره أن يرجع بالمسيح إلى القدس.

فعادوا من ميرة حتى نزلوا حيث الموضع الذى يعرف اليوم فى مدينة مصر بقصر الشمع، وأقاموا بمغارة تعرف اليوم بكنيسة بوسرجة.

ثم خرجوا منها إلى عين شمس، فاستراحوا هناك بجوار ماء، فغسلت مريم من ذلك الماء ثياب المسيح وقد اتسخت، وصبت غسالتها بتلك الأراضي، فأنبت الله هنالك البلسان، وكان إذ ذاك بالأردن، فانقطع من هناك وبقى بهذه الأرض.

وغمرت هذه البئر، التى هى الآن موجودة هناك، على ذلك الماء الذى غسلت منه مريم. وبلغنى أنها إلى الآن إذا اعتبرت يوجد ماؤها عينا جارية فى أسفلها... فهذا سبب تعظيم النصارى لهذه البئر وللبلسان، فإنه إنما سقى منها. والله اعلم.

المنصـــــورة

هذه البلدة على رأس بحر أشموم، تجاه ناحية طلخا، بناها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب، فى سنة ست عشرة وستمائة، عندما ملك الفرنج دمياط.

فنزل فى موضع هذه البلدة وخيم به، وبنى قصرا لسكناه، وأمر من معه من الأمراء والعساكر بالبناء، فبنى هناك عدة دور، ونصبت الأسواق، وأدار عليها سورا مما يلى البحر، وستره بالآلات الحربية والستائر.

وتسمى هذه المنزلة المدينة المنصورة، ولم يزل بها حتى استرجع مدينة دمياط ـ كما تقدم ذكره عند ذكر مدينة دمياط من كتابنا هذا ـ فصارت مدينة كبيرة، بها الحمامات والفنادق والأسواق.

ولما استنقذ الملك الكامل دمياط من الفرنج، ورحل الفرنج إلى بلادهم، جلس بقصره فى المنصورة وبين يديه إخواته: الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، والملك الأشرف موسى صاحب بلاد الشرق، وغيرهما من أهله وخواصه... فأمر الملك الأشرف جاريته فغنت على عودها:

ولما طغى فرعـــون عكـــا وقومه
وجاء إلى مصر ليفسـد فى الأرض

أتى نحوهم موسى وفى يده العصا

فأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

فطرب الأشرف، وقال لها: باللّه كرري .

فشق ذلك على الملك الكامل وأسكتها، وقال لجاريته: غن أنت.

فأخذت العود وغنت:

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا

لما قد جرى فى وقتنا وتجـــددا

أعباد عيسى إن عيســى وحزبه

وموسى جميعا ينصــران محمدا

وهذا البيت من قصيدة لشرف الدين بن حبارة أولها: «أبى الوجد إلا أن أبيت مسهدا».

فاعجب ذلك الملك الكامل، وأمر لكل من الجاريتين بخمسمائة دينار.

فنهض القاضى الصدر الأجل الرئيس هبة اللّه بن محاسن قاضى غزة ـ وكان من جملة الجلساء ـ على قدميه، وانشد يقول:

هنيئا فإن الســعد جاء مخــــلدا

وقد أنجز الرحمن بالنصــرة موعدا

حبانا إله الخلق فتحـــــا لنا بدا

مبينـــا وإنعاما وعـــزا مؤبـــدا

تهلل وجـــه الأرض بعد قطوبه

وأصبح وجه الشرك بالظلم أسـودا

ولما طغى البحر الخضـــم بأهله الـ

طغاة وأضحـــى بالمراكـــب مزبدا

أقام لهذا الديـــن من سل عزمه

صقيلا كما سل الحســام المهندا

فلم ينج إلا كل شــلو مجــدل

ثوى منهــم أو من تراه مقــيدا

ونادى لسان الكون فى الأرض رافعا

عقيرته فى الخافقين ومنشـــدا

أعباد عيســى ان عيســى وحزبه

وموسى جميعــا ينصران محمدا

فكانت هذه الليلة بالمنصورة من أحسن ليلة مرت للملك من الملوك.

وكان عند إنشاده يشير، إذا قال عيسي، الى عيسى المعظم، واذا قال موسي، إلى موسى الأشرف، واذا قال محمدا، الى السلطان الملك الكامل.

وقد قيل إن الذى أنشد هذه الأبيات إنما هو راجح المحلى الشاعر.

العباســية

هذه القرية فيما بين بلبيس والصالحية من أرض السدير، لم يزل متنزها لملوك مصر، وبها ولد العباس، وولد بها أيضا الملك الأمجد تقى الدين عباس بن العادل أبى بكر ابن أيوب.

وكان الملك الكامل محمد بن العادل يقيم بها كثيرا، ويقول: هذه تعلو مصر إذ أقمت بها أصطاد الطير من السماء، والسمك من الماء، والوحش من الفضاء، ويصل الخبز من قلعة الجبل إليّ بها فى قلعتى وهو سخن . وبنى بها آدرا ومناظر وبساتين، وبنى أمراؤه بها أيضا عدة مساكن فى البساتين .

ولم تزل العباسة على ذلك، حتى أنشأ الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل المنزلة الصالحية، فتلاشى حينئذ أمر العباسة، وخربت المناظر فى سلطنة الملك المعز أيبك.

فلما كانت سلطنة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، مر على السدير - وهو فم الوادى - فأعجب به، وبنى فى موضع اختاره منه قرية سماها الظاهرية، وأنشأ بها جامعا، وذلك فى سنة ست وستين وستمائة.

وسميت بالعباسية بنت أحمد بن طولون، فإنها خرجت الى هذا الموضع مودعة لبنت أخيها قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون، لما حملت إلى المعتضد، وضربت هناك فساطيطها، ثم بنت قرية فسميت باسمها.

ذكر مدينة قفط بصعيد مصر

هذه المدينة تعرف بقفطريم بن قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام. وكانت فى الدهر الاول مدينة الأقليم، وإنما بدأ خرابها بعد الأربعمائة من تاريخ الهجرة النبوية. وآخر ما كان فيها بعد السبعمائة من سنى الهجرة - أربعون مسبكا للسكر، وست معاصر للقصب.

ويقال كان فيها قباب بأعالى دورها، وكانت إشارة من ملك من أهلها عشرة آلاف دينار، أن يجعل فى داره قبة وبالقرب منها معدن الزمرد، ولم يبطل إلا من قريب.

فإن قفطريم ولى الملك بعد أبيه قبطيم.

قال ابن وصيف شاه: كان أكبر ولد أبيه، وكان جبارا عظييم الخلق، وهو الذى وضع أساسات الأهرام الدهشورية وغيرها، وهوالذى بنى مدينة دندرة ومدينة الأصنام، وهلكت عاد بالريح فى آخر أيامه.

وأثار من المعادن ما لم يشره غيره . وكان يتخذ من الذهب مثل حجر الرحى ، ومن الزبرجد مثل الإسطوانة ، ومن الاسبادشم فى صحراء الغرب كالقلعة .

وعمل من العجائب شيئا كثيرا ، وبنى منارا عاليا على جبل قفط يرى منه البحر الشرقى ، ووجد هناك معدن زئبق فعمل تمثالا كالعمود لا ينحل ولايذوب .وعمل البركة التى سماها صيادة الطير ، إذا مر عليها طائر سقط فيها ، ولم يقدر على الحركة حتى يؤخذ . وهذه البركة يقال إنها هناك إلى الآن ، وأما المنار فسقط .

وعمل عجائب كثيرة . وفى أيامه أثار عبادة الأصنام التى كان الطوفان غرقها ، وزين الشيطان أمرها وعبادتها .

ويقال نه بنى المدائن الداخلة وعمل فيها عجائب . وبنى غربى النيل وخلف الواحات الداخلة، مدنا عمل فيها عجائب كثيرة ، ووكل بها الروحانيين الذين يمنعون منها ، فما يستطيع أحد أن يدنو إليها ولا يدخلها إلا أن يعمل قرابين لأولئك الروحانيين .

وأقام قفطريم ملكا أربعمائة وثمانين سنة . وأكثر العجائب عملت فى وقته ووقت ابنه البودسير . ولذلك كان الصعيد أكثر عجائب من أسفل ، لأن حيز قفطريم فيه.

ولما حضر قفطريم الوفاة ، عمل ناووسسا فى الجبل الغربى قرب مدينة الكهان ، فى سرب تحت الأرض معقود على أزج إلى الأرض ، ونقر تحت الجبل دارا واسعة ، وجعل دورها خزائن منقورة ، وفى سقفه مسارب للرياح ، وبلط السرب وجميع الدار بالمرمر.

وجعل فى وسط الدار مجلسا على ثمانية أركان ، مصفح بالزجاج الملون المسبوك ، وجعل فى سقفه جواهر تسرج ، وجعل فى كل ركن من أركان المجلس تمثالا من الذهب بيده كالبوق الذى يبوق به .

وتحت القبة دكه مصفحة بذهب ، ولها حواف من زبرجد ، وفوق الدكة فرش من حرير ، وجعل عليه جسده بعد أن لطخ بالأدوية المجففة ، ووضع فى جانبه آلات كافور ، وسدلت عليه ثياب منسوجة بالذهب ، ووجهه مكشوف ، وعلى رأسه تاج مكلل ، وعن جونب الدكة أربعة تماثيل مجوفات من زجاج مسبوك ، فى صور النساء بأيديهن مراوح من ذهب ، وعلى صدره من فوق الثياب سيف فاخر قائمته من زبرجد .

وجعل فى تلك الخزائن من الذخائر وسبائك الذهب والتيجان والجوهر وبرابى الحكم وأصناف العقاقير والطلسمات ومصاحف العلوم ما لا يحصى كثرة .

وجعل على باب المجلس ديكا من ذهب ، على قاعدة من زجاج أخضر ، منشور الجناحين ، مزبورا عليه آيات مانعة .

وجعل على كل مدخل أزج صورتين من نحاس بأيديهما سيفان ، وقدامهما بلاطة تحتها لوالب من وطئها ضرباه بأسيافهما فقتلاه ، وفى سقف كل أزج كره ، وعليها لطوخ مدبر ، يسرج فيقد طول الزمان .

وسد باب الأزج بالأساطين المرصصة ، ورصوا على سقفه البلاط العظام ، وردمو فوقها الرمال ، وزبروا على باب الأزج :

« هذا المدخل الى جسد الملك المعظم ، المهيب الكريم الشديد قفطريم ، ذى الأيد والفخر والغلبة والقهر ، أفل نجمة ، وبقى ذكره وعلمه ، فلا يصل أحد إليه ، ولايقدر بحلية عليه، وذلك بعد سبعمائة وسبعين ودورات مضت من السنين » .

وقال المسعودى : ومعدن الزمرد فى عمل الصعيد الأعلى من مدينة قفط ، ومنها يخرج إلى هذا المعدن . والموضع الذى هو فيه يعرف بالخربة ، وهى مفازة وجبال ، والبجة تحمى هذا المكان المعروف بالخربة ، واليها يؤدى الخفازات من يرد الى حفر الزمرذ .

ووجدت جماعة من صعيد مصر من ذوى الدراية - ممن اتصلت معرفته بهذا المعدن ، وعرف هذا النوع من الجوهر - يخبرون أنه يكثر ويقل فى فصول السنة ، فيكثر فى قوة مواد الهواء وهبوب نوع من الرياح الأربع ، وتقوى الخضرة فيه والشعاع النورى فى أوائل الشهر ، والزيادة فى نور القمر .

وبين الموضع المعروف بالخربةالذى فيه معدن الزمرد ، وبين ما اتصل من العمارة وقرب منه من الديار ، مسيرة سبعة أيام . وهى قفط وقوص وغيرهما من صعيد مصر . وقوص راكبة النيل. وبين النيل وقفط نحو من ميلين .

ولمدينتى قفط وقوص أخبار عجيبة فى بدء عمارتهم ، وما كان فى أيام القبط من أخبارهما ، الا أن مدينة قفط فى هذا الوقت متداعية للخراب ، وقوص أعمر ، والناس فيها أكثر .

وكان بقفط بربا موكل بها روحانى فى صورة جارية سوداء تحمل صبيا أسود صغيرا ، وحكى أنها رؤيت بها مرارا .

ومعدن الزمرذ فى البر المتصل بأسوان ، وكان له ديوان فيه شهود وكتاب ، وينفق على العمال به ، وتنال لهم المؤن لحفره ، واستخراج الزمرذ منه . وهو فى جبال مرملة يحفر فيه ، وربما سقط على الجماعة به فماتوا. وكان يجمع ما يخرج إلى الفسطاط ، ومنه يحمل إلى البلاذ.

وقد كان الناس يسيرون من قوص الى معدن الزمرد فى ثمانية أيام بالسير المعتدل .

وكانت البجاة تنزل حوله وقريبا منه لأجل القيام بخفره وحفظه .

وهذا المعدن فى الجبل الآخذ على شرقى النيل ، فى بحرى قطعة عظيمة من هذا الجبل تسمى قرشندة ، وليس هناك من الجبال أعلى منها ، وهو فى منقطع من البر لا عمارة عنده ولا حوله ولا قريبا منه ، والماء عنه مسيرة نصف يوم أو أزيد ، وهو ما يتحصل من المطر ، ويعرف بغدير أعين ، يكثر بكثرة المطر ويقل بقلته .

وهذا المعدن فى صدر مفازة طويلة فيي حجر أبيض يستخرج منه الزمرد. وهذا الحجر الأبيض ثلاثة أنواع : أحدها يقال له طلق كافورى ، والثانى يقال له طلق فضى ، والثالث يقال له حجر جروى . ويضرب فى هذه الحجارة حتى يخرج الزمرد ، وهو كالغريق فيه .

وأنواعه الريانى ، وهو أقل من القليل ، لا يخرج إلا فى النادر ، وإذا استخرج ألقى فى الزيت الحار ، ثم يحط فى قطن ، ويصر ذلك القطن فى خرق خام أو نحوها وكان الاحتراز على هذا المعدن كثيرا جدا ، ويفتش الفعلة عند الخروج منه كل يوم حتى تفتش عوراتهم ، ومع ذلك فيختلسون منه بصناعات لهم فى ذلك .

ولم يزل هذا المعدن يستخرج منه الزمرد إلى أن أبطل العمل منه الوزير الصاحب علم الدين عبد الله بن زنبور، فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، فى سنة بضع وستين وسبعمائة .

وفى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، كانت فتنة كبيرة بمدينة قفط ، سببها أن داعيا من بنى عبد القوى ادعى أنه داود بن العاضد ، فاجتمع الناس عليه . فبعث السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، أخاه الملك العادل أبا بكر بن أيوب على جيش ، فقتل من أهل قفط نحو ثلاثة آلاف ، وصلبهم على شجرها ظاهر قفط بعمائمهم وطيالستهم.

ذكر مدينة دندرة

هى إحدى مدن الصعيد الأعلى القديمة. بناها قفطريم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام. وكان فيها بربا عظيمة فيها مائة وثمانون كوة، تدخل الشمس فى كل يوم من كوة حتى تأتى على آخرها، ثم تكر راجعة الى حيث بدأت. وكانت روحانيتها الموكلة بها تظهر فى هيئة إنسان له رأس أسد بقرنين.

وكان بها أيضا شجرة - تعرف بشجرة العباس - متوسطة، وأوراقها خضر مستديرة ، إذا قال الإنسان عندها : يا شجرة العباس جاءك الفاس، تجتمع أوراقها وتحزن لوقتها ثم تعود كما كانت.

وبين دندرة وبين قوص بريد واحد. وكانت برباً دندره أعظم من بربا أخميم.

ذكر الواحات الداخلة

الواحات منقطعة وراء الوجه القبلى فى مغاربه، ولا تعد فى الولايات ولا فى الأعمال، ولا يحكم عليها من قبل السلطان وال، وإنما يحكم عليها من قبل مقطعها.

وبلاد الواحات، بين مصر والإسكندرية والصعيد والنوبة والحبشة، بعضها داخل ببعض. وهو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره، ولا يفتقر إلى سواه. وأرضها شبية وزاجية، وعيون حامضة الطعم تستعمل كاستعمال الخل، وعيون مختلفة الطعوم من الحامض والقابض والمالح. ولكل نوع منها خاصية ومنفعة، وهى على قسمين : واحات داخلة، وواحات خارجة.... جملتها أربع واحات.

ويقال إن الواحات ولدوا حويلا بن كوش ابن كنعان بن حام بن نوح، وان أخرسبا بن كوش أبو الحبش وأبو شنبا بن كوش أبو زغاوة وأبو شفحيا بن كوش أبو الحبش الرمرم.

قال ابن وصيف شاه : ويقال إن قفطريم بنى المدائن الداخلة، وعمل فيها عجائب : منها الماء القائم كالعمود لا ينحل ولا يذوب، والبركة التى تسمى فلسطين أى صيادة الطير، إذا مر عليها الطير سقط فيها، ولم يمكنه الخروج منها حتى يؤخذ.

وعمل أيضاً عموداً من نحاس عليه صورة طائر. إذا قرب الأسد أو الحيات، أو غيرها من الأشياء المضرة، من تلك المدينة، صفر تصفيراً عالياً، فترجع تلك الدواب هاربة.

وعمل على أربعة أبواب هذه المدينة أربعة أصنام من نحاس، لا يقرب منها غريب إلا ألقى عليه النوم والسبات، فينام عندها، ولا يبرح حتى يأتيه أهل المدينة وينفخوا فى وجهه ليقوم، وإن لم يفعلوا ذلك لا يزال نائماً عند الأصنام حتى يهلك.

وعمل مناراً لطيفاً من زجاج ملون، على قاعدة من نحاس، وعمل على رأس المنار صورة صنم من أخلاط كثيرة، وفى يده كالقوس كأنه يرمى عنها، فإن عاينه غريب وقف فى موضعه، ولم يبرح حتى ينحيه أهل المدينة. وكان ذلك الصنم يتوجه إلى مهب الرياح الأربع من نفسه.

وقيل إن هذا الصنم على حاله إلى الآن، وإن الناس تحاموا تلك المدينة ـ على كثرة ما فيها من الكنوز والعجائب الظاهرة ـ خوفاً من ذلك الصنم أن تقع عين إنسان عليه، فلا يزال قائماً حتى يتلف. وكان بعض الملوك عمل على قلعة فما أمكنه، وهلك لذلك خلق كثير.

ويقال إنه عمل فى بعض المدائن الداخلة مرآة يرى فيها جميع ما يسأل الإنسان عنه وبنى غربى النيل، وخلف الواحات الداخلة، مدنا عمل فيها عجائب كثيرة، ووكل الروحانيين بها الذين يمنعون منها، فما يستطيع أحد أن يدنو إليها ولا يدخلها، أو يعمل قرابين أولئك الروحانيين، فيصل إليها حينئذ، ويأخذ من كنوزها ما أحب من غير مشقة ولا ضرر.

وبنى الملك صا بن الساد ـ وقيل صا ابن مرقونس ـ بداخل الواحات مدينة، وغرس حولها نخلاً كثيراً، وكان يسكن منف، وملك الأحياز كلها، وعمل عجائب وطلسمات، ورد الكهنة إلى مراتبهم، ونفى الملهيين وأهل الشر ممن كان يصحب الساد ابن مرقونس، وجعل على أطراف مصر أصحاب أخبار يرفعون إليه ما يجرى فى حدودهم، وعمل على غربى النيل منابر يوقد عليها إذا حزبهم أمر أو قصدهم قاصد.

وكان لما ملك البلد بأسره، جمع الحكماء إليه، ونظر فى نجومه ـ وكان بها حاذقاً ـ فرأى أن بلده لابد أن تغرق بالطوفان من نيلها، ورأى أنها تخرب على يد رجل يأتى من ناحية الشام... فجمع كل فاعل بمصر، وبنى فى الواح الأقصى مدينة، جعل طول حصنها فى الارتفاع خمسين ذراعاً، وأودعها جميع الحكم والأموال.

وهى المدينة التى وقع عليها موسى بن نصير فى زمن بنى أمية لما قدم من المغرب. فلما دخل مصر أخذ على ألواح الأقصى ـ وكان عنده علم منها ـ فأقام سبعة أيام يسير فى رمال بين الغرب والجنوب، فظهرت له مدينة عليها حصن وأبواب من حديد، فلم يمكنه فتح الأبواب. وكان إذا صعد إليها الرجال، وعلوا الحصن وأشرفوا على المدينة، ألقوا بأنفسهم فيها. فلما أعياه أمرها مضي، وهلك من أصحابه عدة.

قال: وفى تلك الصحارى كانت متنزهات القوم ومدنهم العجيبة وكنوزهم، إلا أن الرمال غلبت عليها، ولم يبق يملك ملك إلا وقد عمل للرمل طلسما لدفعه، ففسدت طلسماتهم لقدم الزمان.

قال : ولا ينبغى لأحد أن ينكر كثرة بنيانهم، ولا مداائنهم ولا ما نصبوه من الأعلام العظام، فقد كان للقوم بطش لم يكن لغيرهم، وإن آثارهم لبينة، مثل الأهرام والأعلام والإسكندرية وما فى صحارى الشرق، والجبال المنحوته، ومثل ما بالصعيد من البرابى وما نقشوه عليها من حكمتهم.. فلو تعاطى جميع ملوك الأرض أن يبنوا مثل الهرمين ما تهيأ لهم، وكذلك أن ينقشوا برباً لطال بهم الأمد ولم يمكنهم.

وحكى عن قوم من البنائين، فى ضياع الغرب، أن عاملاً عندهم عنف بهم، ففروا فى صحراء الغرب ومعهم زاد إلى أن تنصلح أحوالهم ويرجعوا.

فلما كانوا على مسيرة يوم وبعض آخر، قدموا إلى سفح جبل، فوجدوا عيراً أهلياً قد خرج من بعض الشعاب، فتبعه بعضهم، فانتهى إلى مساكن وأشجار ونخل ومياه تطرد، وقوم هناك يرعون ولهم مساكن، وكلمهم وأعجب بهم.

فجاء إلى أصحابه، وقدم بهم على أولئك القوم، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم، وأقاموا عندهم حتى صلحت أحوالهم، وخرجوا ليأتوا بأهاليهم ومواشيهم ويقيموا عندهم، فساروا مدة وهم لا يعرفون الطريق ولا يتأتى لهم العود، فأسفوا على ما فاتهم.

وضل آخرون عن الطريق فى الغرب، فوقعوا على مدينة عامرة كثيرة الناس والمواشى والنخيل والشجر، فأضافوهم وأطعموهم وسقوهم، وباتوا فى طاحونة، فسكروا من الشراب وناموا، فلم ينتبهوا إلا من حر الشمس، فإذا هم فى مدينة خراب ليس فيها أحد.

فخافوا وخرجوا، وظلوا يومهم سائرين إلى المساء، فظهرت لهم مدينة أكبر من الأولى وأعمر، وأكثر أهلاً وشجراً ومواشي، فأنسوا بهم وأخبروهم بخبر المدينة الأولي، فجعلوا يعجبون منهم ويضحكون، وانطلقوا بهم إلى وليمة لبعض أهل المدينة، فأكلوا وشربوا، وعنوا بهم حتى سكروا.

فلما كان من الغد انتبهوا، فإذا هم فى مدينة عظيمة ليس فيها أحد، وحولها نخل قد تساقط ثمره وتكدس. فخرجوا، وهم يجدون ريح الشراب ومبادى الخمار، فساروا يوماً إلى المساء، وإذا راع يرعى غنماً، فسألوه عن الطريق فدلهم، فساروا بعض يوم من الغد، فوصلوا مدينة الأشمونين بالصعيد.

قال : وهذه مدائن القوم الداخلة القديمة قد غلب عليها الجان ، ومنها ما سترته عن العيون ، فلا ينظر إليها أحد.

وقال : إن البودسير بن قفطريم بن قبطيم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ، فى أيامه بنيت بصحراء الغرب منابر ومتنزهات ، وحول إليها جماعة من أهل بيته ، فعمروا تلك النواحي ، وبنوا فيها حتى صارت أرض الغرب عامرة كلها. وأقامت على ذلك مدة كثيرة ، فخالطهم البربر ونكحوا منهم ، ثم تحاسدوا ، فكانت بينهم حروب خربت فيها تلك الجهات وبادت ، إلا بقية منازل تسمى الواحات.

ذكر مدينة سنترية

ومدينة سنترية من جملة الواحات ، بناها مناقيوش بانى مدينة أخميم. كان أحد ملوك القبط القدماء.

قال ابن وصيف شاه : وكان فى حزم أبيه وحنكته ، فعظم فى أعين أهل مصر. وهو أول من عمل الميدان ، وأمر أصحابه برياضة أنفسهم فيه ، وأول من عمل المارستان لعلاج المرضى والزمني ، وأودعه العقاقير ، ورتب فيه الأطباء ، وأجرى عليهم ما يسعهم ، وأقام الأمناء على ذلك.

وصنع لنفسه عيداً ، فكان الناس يجتمعون إليه فيه ، وسماه عيد الملك ، فى يوم من السنة ، فيأكلون ويشربون سبعة أيام ، وهو مشرف عليهم من مجلس على عمد قد طوقت بالذهب ، وألبست فاخر الثياب المنسوجة بالذهب ، وعليه قبة مصفحة من داخل بالرخام والزجاج والذهب.

وفى أيامه بنيت سنترية فى صحراء الواحات ، عملها من حجر أبيض مربعة ، وفى كل حائط باب فى وسطه شارع إلى حائط محاذ له ، وجعل فى كل شارع يمنة ويسرة أبواباً تنتهى طرقاتها إلى داخل المدينة ، وفى وسط المدينة ملعب يدور به من كل ناحية سبع درج ، وعليه

قبة من خشب مدهون، على عمد عظيمة من رخام، وفى وسطه منار من رخام، عليه صنم من صوان أسود يدور مع الشمس بدورانها، وبسائر نواحى القبة صور معلقة تصفر وتصيح بلغات مختلفة.

فكان الملك يجلس على الدرجة العالية من الملعب وحوله بنوه وأقاربه وأبناء الملوك، وعلى الدرجة الثانية رؤساء الكهنة والوزراء، وعلى الثالثة رؤساء الجيش، وعلى الرابعة الفلاسفة والمنجمون والأطباء وأرباب العلوم، وعلى الخامسة أصحاب العمارات، وعلى السادسة أصحاب المهن، وعلى السابعة العامة. فيقال لكل صنف منهم: أنظروا إلى من دونكم ولا تنظروا إلى من فوقكم، لا تلحقونهم. وهذا ضرب من التأديب.

وقتلته امرأته بسكين فمات. وكان ملكه ستين سنة.

وسنترية الآن بلد صغير، يسكنه نحو ستمائة رجل من البربر يعرفون سيوة، ولغتهم تعرف بالسيوية تقرب من لغة زناتة. وبها حدائق نخل، وأشجار من زيتون وتين وغير ذلك، وكرم كثير. وبها الآن نحو العشرين عينا تسيح بماء عذب. ومسافتها من الإسكندرية أحد عشر يوماً، ومن جيزة مصر أربعة عشر يوماً.

وهى قرية يصيب أهلها الحمى كثيراً، وثمرها غاية فى الجودة، وتعبث الجن بأهلها كثيراً، وتختطف من انفراد منهم، وتسمع الناس بها عزيف الجن.

ذكر الواحات الخارجة

بناها أحد ملوك القبط الأول، ويقال له البودسير بن قفطيم بن قبطيم بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام.

قال ابن وصيف شاه: وأراد البودسير أن يسير مغرباً لينظر إلى ما هنالك، فوقع على أرض واسعة متخرقة بالمياه والعيون كثيرة العشب، فبنى فيها منابر ومتنزهات، وأقام فيها جماعة من أهل بيته، فعمروا تلك النواحى وبنوا فيها حتى صارت أرض الغرب عمارة كلها.

وأقامت كذلك مدة كثيرة، وخالطهم البربر، فنكح بعضهم من بعض، ثم إنهم تحاسدوا وبغى بعضهم على بعض، فكانت بينهم حروب، فخرب ذلك البلد وباد أهله، إلا بقية منازل تسمى الوحات.

وقال المسعودى : وأما بلاد الواحات فهى بين بلاد مصر والإسكندرية وصعيد مصر والغرب وأرض الأحابش من النوبة وغيرهم. وبها أرض شبيه وزاجية، وعيون حامضة وغير ذلك من الطعوم.

وصاحب الواحات فى وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة) عبد الملك بن مروان، وهو رجل من لواته، إلا أنه مرواني المذهب، ويركب فى آلاف من الناس خيلاً ونجباً.

وبينه وبين الأحابش نحو من ستة أيام، وكذلك بينه وبين سائر ما ذكرنا من العمائر هذا المقدار من المسافة. وفى أرضه خواص وعجائب، وهو بلد قائم بنفسه، غير متصل بغيره، ولا يفتقر إليه. ويحمل من أرضه التمر والزبيب والعناب.

وحدثنى وكيل أبى الشيخ المعز حسام الدين عمرو بن محمد بن زنكى الشهرزوري، أنه سمع ببلاد الواحات أن فيها شجرة نارنج يقطف منها، فى سنة واحدة، أربعة عشر ألف حبة نارنج صفراء، سوى ما يتناثر وسوف ما هو أخضر.

فلم أصدق ذلك لغرابته، وقمت حتى شاهدت الشجرة المذكورة، فإذا هى كأعظم ما يكون من شجر الجميز بمصر وأكبر. وسألت مستوفى البلد عنها، فأحضر إلى جرائد حسباناته، وتصفحها حتى أوقفنى على أن منها فى سنة كذا قطف فى النارنجة الفلانية أربعة عشر ألف حبة نارنج مستوية صفراء، سوى ما بقى عليها من الأخضر، وسوى ما تناثر منها وهو صغير.

وبالواحات الشب الأبيض بواد تجاه مدينة إدفو. كان فى زمن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر، وفى زمن ابنه الصالح نجم الدين أيوب، على مقطعى الواحات حمل ألف قنطار شب أبيض فى كل سنة إلى القاهرة، ويطلق لهم فى نظير ذلك جوالى الواحات، ثم أهمل هذا فبطل.

وفى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة، سار ملك النوبة فى جيش عظيم إلى الواحات، فأوقع بأهلها وقتل منها وأسر كثيراً.

ذكر مدينة قوص

أعلم أن قوص أعظم مدائن الصعيد، وهى على النيل، بنيت بعد قفط فى أيام ملك من ملوك القبط الأول يقال له سدان بن عديم بن البودسير بن قفطريم. قيل سميت باسم قوص بن قفط بن أخميم بن سيفاف بن أشمن بن مصر.

قال أبن وصيف شاه : سدان بن عديم هو الذى بنى الأهرام الدهشورية من الحجارة التى قطعت فى زمان أبيه، وعمل مصاحف النيرلجات وهيكل أرمنت، وعمل فى المدائن الداخلة من أنصنا هيكلاً وأقام فيه فى أتريب، وهيكلاً فى شرقى الإسكندرية، وبنى فى الجانب الشرقى مدائن، وفى أيامه بنيت قوص العالية، وأسكن فيها قوماً من أهل الحكمة وأهل الصناعات.

وكانت الحبش والسودان قد عاثوا فى بلده، فأخرج لهم ابنه منقاوش فى جيش عظيم، فقتل منهم وسبي، وأستعبد الذين سباهم وصار ذلك سنة لهم، واقتطع معدن الذهب من أرضهم، وأقام ذلك السبى يعملون فيه ويحملون الذهب إليه.

وهو أول من أحب الصيد، واتخذ الجوارح، وولد الكلاب السلوقية من الذئاب والكلاب الأهلية، وعمل من العجائب والطلسمات لكل فن ما لا يحصى كثرة.

وقال الأدفوى فى تاريخ الصعيد: وقوص بجانب قفط، حكى بعض المؤرخين أنها شرعت فى العمارة، وشرعت قفط فى الخراب من سنة أربعمائة. قيل إنه حضر مرة قاضى قوص، فخرج من أسوان أربعمائة راكب بغلة إلى لقائه.

وفى شهر رمضان سنة اثنتين وستين وستمائة، أحضر إلى الملك الظاهر بيبرس فلوس وجدت مدفونة بقوص فأخذ منها فلس، فإذا على أحد وجهيه صورة ملك واقف وفى يده اليمنى ميزان وفى اليسرى سيف، وعلى الوجه الآخر رأس فيه أذن كبيرة وعين مفتوحة.

وبدائر الفلس كتابة، فقرأها راهب يوناني، فكان تاريخه إلى وقت قراءته ألفين وثلاثمائة سنة، وفيه «أنا غلياث الملك: ميزان العدل والكرم فى يمينى لمن أطاع، والسيف فى يسارى لمن عصي» وفى الوجه الآخر: «أنا غلياث الملك: أذنى مفتوحة لسماع المظلوم، وعينى مفتوحة أنظر بها مصالح ملكي».

وقوص كثيرة العقارب والسام أبرص، وبها صنف من العقارب القتالات، حتى إنه كان يقال لها أكلة العقرب، لأنه كان لا يجرى لمن لسعته حياة. واجتمع بها مرة، فى يوم صائف، على حائط الجامع سبعون سام أبرص صفاً واحداً. وكان الواحد من أهلها إذا مشى فى الصيف ليلاً خارج داره يأخذ بإحدى يديه مسرجة تضيء له، وبالأخرى مشك من حديد يشك به العقارب. ثم إنها تلاشت بعد سنة ثمانمائة.

فلما كانت الحوادث والمحن، مات بها سبعة عشر ألف إنسان فى سنة ست وثمانمائة. وكانت من العمارة بحيث إنه تعطل منها، فى شراقى البلاد سنة ست وسبعين وسبعمائة، مائة وخمسون مغلقاً (والمغلق عندهم بستان من عشرين فداناً فصاعدا، وله ساقية بأربعة وجوه) وذلك سوى ما تعطل مما هو دون ذلك، وهو كثير جداً.

ذكر مدينة اسنا

قال الأدفوي: وذكر أن أسنا فى سنة حصل منها أربعون ألف أردب تمر، واثنا عشر ألف أردب زبيب. وأسنا تشتمل على ما يقارب ثلاثة عشر ألف منزل، وقيل إنه كان بها فى وقت سبعون شاعراً.

ذكر مدينة أدفو

ومينة أدفو (يقال بالدال المهملة، ويقال أيضاً بالتاء المثناة من فوق)، قال الأدفوي: أخبرنى الخطيب العدل أبو بكر، خطيب أدفو، أن جمارة طرحت ثلاثة شماريخ فى كل شمروخ تمرة واحدة، وأنه قلع الجمارة بأصلها ووزنها فجاءت خمسة وعشرين درهماً، كلها بجريدها وخشبها، وذلك بأدفو.

ولما كان بعد سنة سبعمائة، حفر صناع الطوب، فظهرت صورة شخص من حجر شكل امرأة متربعة على كرسي، وعليها مثال شبكة، وفى ظهرها لوح مكتوب بالقلم اليوناني... رأيتها على هذه الحالة فى مدينة أدفو.

أهنـــــــاس

هى كورة من كور الصعيد، يقال إن عيسى ابن مريم عليه السلام ولد بها، وإن نخلة مريم عليها السلام التى ذكرت فى قوله تعالى ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيـــا ﴾(*) لم تزل بها إلى آخر أيام بنى أمية.

والذى عليه الجماهرة أن عيسى عليه السلام إنما ولد بقرية بيت لحم من مدينة بيت المقدس.

وبأهناس شجر البنج.

(*) ٢٥ ك مريم ١٩.

ذكر مدينة البهنسا

هذه المدينة فى جهة الغرب من النيل. بها تعمل الستور البهنسية، وينسج المطرز والمقاطع السلطانية، والمضارب الكبار والثياب المحبرة. وكان يعمل بها من الستور ما يبلغ طول الستر الواحد ثلاثين ذراعاً، وقيمة الزوج مائتا مثقال ذهب.

وإذا صنع بها شئ من الستور والأكسية والثياب، من الصوف أو القطن، فلابد أن يكون فيها اسم المتخذ له مكتوباً... على ذلك مضواً جيلاً بعد جيل.

وقبط مصر مجمعون على أن المسيح وأمه مريم كانا بالبهنسا، ثم انتقلا عنها إلى القدس.

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى عن المسيح وأمه **﴿وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾**(*) الربوة البهنسا.

وهذه المدينة بناها ملك من القبط يقال له مناوش بن منقاوش.

قال ابن وصيف شاه : واستخلف مناوش الملك، فطلب الحكمة مثل أبيه، واستخرج كتبها، وأكرم أهلها، وبذل فيها الجوائز، وطلب الإغراب فى عمل العجائب. وكان كل من ملوكهم يجد جهده فى أن يعمل له غريبة من الأعمال لم تعمل لمن كان قبله. وثبت فى كتبهم، وزبر على الحجارة فى تواريخهم.

وهو أول من عبد البقر من أهل مصر، وكان السبب فى ذلك أنه اعتل علة يئس منه فيها، فرأى فى منامه صورة روحانى عظيم يقول له : إنه لا يخرجك من علتك إلا عبادتك البقر، لأن الطالع كان وقت حلولها بك صورة ثور بقرنين.

ففعل ذلك، وأمر بأخذ ثور أبلق حسن الصورة، وعمل له مجلساً فى قصره، وسقفه بقبة مذهبة. فكان يبخره ويطيب موضعه، ووكل به سائساً يقوم به ويكنس تحته، ويعبده سراً من أهل مملكته، فبرأ من علته.

(*) ٥٠ ك المؤمنون ٢٣ .

وهو أول من عمل العجل فى علته، فكان يركب عليها البيوت من فوقها قباب الخشب. وعمل ذلك لأخذ من أحب من نسائه وخدمه إلى المواضع والمتنزهات، وكان البقر يجره، فإذا مر بمكان نزهة أقام فيه، وإذا مر بمكان خراب أمر بعمارته.

فيقال إنه نظر إلى ثور من البقر الذى يجر عجلته، أبلق حسن الشية، فأمر بترفيهه وسوقه بين يديه إعجاباً به، وجعل عليه جلاً من ديباج.

فلما كان فى يوم، وقد خلا فى موضع صار إليه، وقد انفرد عن عبيده وخدمه، والثور قائم، إذ خاطبه الثور وقال له: لو رفهنى الملك عن السير معه، وجعلنى فى هيكل وعبدني، وأمر أهل مملكته بعبادتي، كفيته جميع ما يريد، وعاونته على أمره، وقويته فى مملكته، وأزلت عنه جميع علله.

فارتاع لذلك، وأمر بالثور فغسل وطيب وأدخل فى هيكل، وأمر بعبادته.

فأقام ذلك الثــور يعبد مــدة، وصار فيه آية، وهـو أنه لايبـول ولا يروث، ولا يأكل إلا أطراف ورق القصب الأخضر فى كل شهر مرة.. فافتتن الناس به، وصار ذلك أصلاً لسيادة البقــر.

وبنى مواضع كنز فيها كنوزاً، وأقام عليها أعلاماً. وبنى فى صحراء الغرب مدينة يقال لها ديماس، وأقام فيها مناراً، ودفن حولها كنوزاً. ويقال انه هذه المدينة قائمة، وان قوما جازوا بها من نواحى الغرب وقد ضوا الطريق، فسمعوا بها عزيف الجن، ورأوا ضوءاً يتراءى بها.

وفى بعض كتبهم أن ذلك الثور، بعد مدة من عبادتهم له، أمرهم أن يعملوا صورته من ذهب أجوف، ويؤخذ من رأسه شعرات ومن ذنبه ومن نحاته قرونه وأظلافه، ويجعل فى التمثال المذكور. وعرفهم أن يلحق بعالمه، وأمرهم أن يجعلوا جسده فى جرن من حجر أحمر، ويدفن فى الهيكل، وينصب تمثال عليه، وزحل فى شرفه، والشمس تنظر إليه من تثليث القمر زائد النور، وينقش على التمثال علامات الكواكب السبعة.

ففعلوا ذلك، وكللوه بجميع الأصناف من الجواهر، وجعلوا عينيه جزعتين، وغرسوا فى الهيكل عليه شجرة، بعد ما دفنوه فى الجرن الأحمر، وبنوا مناراً طوله ثمانون ذراعاً، على رأسه قبة تتلون كل يوم لوناً حتى تمضى سبعة أيام، ثم تعود إلى اللون الأول.

وكسوا الهيكل ألوان الثياب، وشقوا نهراً من النيل إلى الهيكل، وجعل حوله طلسمات، رؤوسها رؤوس القرود على أبدان الناس، كل واحد منها لدفع مضرة وجلب منفعة.

وأقام عند الهيكل أربعة أصنام على أربعة أبواب، ودفن تحت كل صنم صنفاً من الكنوز، وكتب عليها قربانها وبخورها، وأسكنها الشجرة... فكانت تعرف بمدينة الشجرة، ومنها كانت أصناف الشجر تخرج.

وهو أول من عمل النيروز بمصر. وفى زمانه بنيت البهنسا، وأقام بها إسطوانات، وجعل فيما فوقها مجلساً من زجاج أصفر، عليه قبة مذهبة، إذا طلعت الشمس ألقت شعاعها على المدينة.

ويقال إنه ملكهم ثمانمائة وثلاثين سنة، ودفن فى أحد الأهرام الصغار القلبية، وقيل فى غربى الأشمونين.

ودفن معه من المال والجوهر والعجائب شيء كثير، وأصناف الكواكب السبعة التى يرى الدفين والحية، وألف سرج ذهباً وفضة، وعشرة آلاف جام وغضار من ذهب وفضة وزجاج، وألف عقاقير لفنون الأعمال. وزبروا عليه اسمه ومدة ملكه ووقت موته.

وفى سنة أربع وثلاثين وسبعمائة، ظهر بالأشمونين، فى واد بين جبلين، فساقى مربعة مملوءة ماء عذباً صافياً، فمشى شخص على حافتها طول يوم وليلة فلم يبلغ آخرها. ويقال إنها من عمل سوريد بانى الأهرام، لتكون عدة لما كانوا قد توقعوه من حدوث طوفان ناري.. فردم هذا الوادى بعد ذلك خوفاً من إتلاف الناس.

يقول الشيخ الإمام محمد بن أحمد الغريانى : حدثنى على بن حسن بن خالد الشعرى (ثلاث مرات لم يختلف قوله عليّ فيها) قال : حدثنى رجل من فزارة الساكنين بكورة البهنسا، قال : خرجت أنا ورجل رفيق لى نرتاد البلاد، ونطلب الرزق فى الأرض، وذلك بعد سنة عشر وثمانمائة، فقطعنا الجبل الغربى من ناحية البهنسا، وسرنا متوكلين على الله تعالي، فأقمنا أياماً ونحن نمشى ما بين الغرب والجنوب، فوقعنا فى واد كثير الشجر والنبات والماء والكلأ، ليس فيه أنيس.

وهو واد واسع فى الطول والعرض، نحو يوم فى الطول ويوم فى العرض، كله أعين وبساتين نخل وزيتون، كثير الأبل والمعز، والذئب والضبع به كثير، والإبل به متوحشة وكذلك المعز قد صارت به وحشية، بعد أن كانت آنسة به، وليس بالوادى لا رائح ولا غاد من الناس.

قال: فأخبرنى أنهما أقاما بالوادى نحوا من شهرين أو ثلاثة، وأنهما رأيا فى وسط الوادى مدينة حصينة منيعة عالية السور شامخة القصور، فإذا تقربا من سورها سمعا ضجيجاً عظيماً وأصواتاً مهولة مخوفة، ورأيا دخاناً يرتفع إلى جو السماء حتى يغطى سور المدينة وجميع ما فيها، وأن تلك الإبل الوحشية عدت على رواحلهما الأنسية فآذتها وقتلتها.

فتحيل عند ذلك الرجلان الفزاريان بحيل، وفتلا حبالاً وأشراكاً شباكاً من ليف النخل، وقيدا تلك الإبل الوحشية، وفتلا خوصاً، وضفرا قفافاً من الخوص لزادهما وملآها تمرا، وزللا من تلك الإبل الوحشية مكان رواحلهما عوضا عنها، وركباها متوجهين نحو الشرق، وحملا معهما من الجريد، أعنى جريد النخل، ما يعرفان به الطريق التى بينهما وبينها، ويجعلان ذلك أمارات لمرورهما إليها.

فكان كلما مرا على شرف، جعلا عليه جريدتين علماً، حتى وصلا إلى الجبل الغربى من مصر، فنزلا إلى البهنسا، فعرفا قومهما، وتحملا بأهاليهما.

فلما علوا سطح الجبل الغربي، وجدا كل ما فرقاه من جريد النخل على رؤوس الأكام مجتمعا فى مكان واحد فى أعلى الجبل، فرجعا عند ذلك لأهاليهما ومن معهم إلى أرض البهنسا.

وهذا ما حدثنى به. والله أعلم.

ذكر مدينة الأشمونين

كانت من أعظم مدن الصعيد، يقال إنها من بناء أشمون بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام.

وقال ابن وصيف شاه: كان أشمون أعدل ولد أبيه، وأرغبهم في صنعه تبقى ويبقى ذكرها. وهو الذى بنى المجالس المصفحة بالزجاج الملون وسط النيل.

وتقول القبط: إنه بنى سربا تحت الأرض، من الأشمونين إلى أنصنا تحت النيل. وقيل إنه حفره وعمله لبناته لأنهن كن يمضين إلى هيكل الشمس. وكان هذا السرب مبلط الأرض والحيطان والسقف بالزجاج الثخين الملون.

وقيل إن أشمون كان أطول إخوته ملكاً، وقال أهل الأثر: إنه ملك ثمانمائة سنة، وإن قوم عاد إنتزعوا منه الملك بعد ستمائة سنة من ملكه، وأقاموا تسعين سنة، وأستولوا على البلد، فانتقلوا إلى الدثينة من طريق الحجاز إلى وادى القرى فعمروها، واتخذوا بها المنازل والمصانع، وسلط الله عليهم الذر فأهلكهم، وعاد ملك مصر إلى أشموم.

ويقال أنه عمل على باب الأشمونين أوزة من نحاس، فكان الغريب إذا جاء ليدخل المدينة، صاحت الأوزة وصفقت بجناحيها فيعلم به، فإن أحبوا منعوه، وأن أحبوا تركوه. وكثرت الحيات فى وقته، فكانوا يصيدونها ويعملون من لحومها أدوية وترياقات، ثم ساقوها بسحرهم إلى وادى الحيات فى جبال لوبية ومراقية، فسجنوها هناك.

وقال فى كتاب هروشيش: أن أشمون ابن قبط أول ملوك المصريين، وإنه كان فى زمان شاروح بن راغو بن تالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، وإن سنى الدنيا صارت إلى زمان شاروح ألفين وتسعمائة وخمس سنين، يكون ذلك بعد الطوفان بستمائة وثلاث وستين سنة.

وبها كانت فرهة الخيل والبغال والحمير، وكان يعمل بها فرش القرمز الذى يشبه الأرمني.

وكان ينزل بأرض الأشمونين عدة بطون من بنى جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه. وكانوا بادية أصحاب شوكة. وكان معهم بنو مسلمة بن عبدالملك بن مروان حلفاء لهم، ومعهم بطن آخر يقال لهم بنو عسكر، يقال إن أباهم كان مولى لعبد الملك بن مروان، ويزعمون أنهم من بنى أمية صلبية. وكان معهم أيضاً حلفاء لهم بنو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان.. ينزلون أض دلجة عند أشمون.

ذكر مدينة إخميم

ضبطها البكرى بكسر الهمزة وإسكان الخاء ثم ميم وياء وميم على بناء افعيل. وهى فى الجانب الشرقى من النيل، والذى بناها مناقيوش أحد ملوك القبط الأول.

قال ابن وصيف شاه: كان جلداً محتكماً، فاستأنف العمارة، وبنى القري، ونصب الأعلام، وجمع الحكم ومصاحف الملوك والحكماء، وعمل العجائب، وبنى لنفسه مدينة انفرد بها، وعمل عليها حصناً، ونصب عليه أربعة أعلام، فى كل ركن من أركانه علم، وبين تلك الأعلام ثمانون صنعاً من نحاس، وأخلاط فى أيديها السلاح، وزبر على صدرها آياتها.

وكان بمنف رجل من أولاد الكهنة، من أعلم الناس بالسحر، وأبصرهم بأخذ التماسيح والسباع، وكان يعلم الغلمان السحر، فإذا حذقوا علم غيرهم. فأمر الملك أن يبنى له مدينة، ويحول إليها وهى إخميم.

فملكهم مناقيوش نيفا وأربعين سنة، ومات فدفن فى الهرم المحاذى لأطفيح، ومعه شئ كثير من المال والجوهر والآنية والتماثيل، وزبر عليه اسمه والوقت الذى هلك فيه.

قال: وذكر أهل إخميم أن رجلاً أتى من الشرق، وكان يلزم البربا، ويأتى إليه كل يوم ببخور وخلوق، فيبخر ويطيب صورة فى عضادة الباب، فيجد تحتها ديناراً فيأخذه وينصرف. ففعل ذلك مدة حتى وشى به غلام له إلى عامل البلد، فقبض عليه، فبذل مالاً وخرج عن البلد.

وكانت بربا إخميم من أعجب البرابى وأعظمها، قد بنيت لحزن برهم، فإنهم قضوا على أهل مصر بالطوفان قبل وقته بقرائن لكنهم اختلفوا فيه، فقال بعضهم: تكون نار فتحرق جميع ما على وجه الأرض، وقال آخرون: بل يكون ماء.... فعملوا هذه البرابى قبل الطوفان.

وكان فى هذه البربا صور الملوك الذين يملكون مصر، وكانت مبينة بحجر المرمر، وطول كل حجر منها خمسة أذرع فى سمك ذراعين، وهى سبعة دهاليز سقوفها حجارة، طول الحجر منها ثمانية عشر ذراعاً فى عرض خمسة أذرع، مدهونة باللازورد وغيره من الأصباغ التى يحسبها الناظر كأنما فرغ الدهان منها الآن لجدتها.

وكان كل دهليز منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة السيارة، وجدران هذه الدهاليز منقوشة بصور مختلفة الهيئات والمقادير، فيها رموز علوم القبط، من الكيمياء والسيمياء والطلسمات والطب والنجوم والهندسة وغير ذلك، أودعوها تلك الصور.

وذكر ابن جبير فى رحلته أن طول هذه البربا مائتان وعشرون ذراعاً، وسعتها مائة وسبعون ذراعاً، وأنها قائمة على أربعين سارية سوى الحيطان، دور كل سارية خمسون شبرا، وبين كل ساريتين ثلاثون شبرا.

ورؤوسها فى نهاية العظم كلها منقشة من أسفلها إلى أعلاها، ومن رأس كل سارية إلى الأخرى لوح عظيم من الحجر المنحوت فيها ما ذرعه ستة وخمسون شبرا طولاً، فى عرض عشرة أشبار وارتفاع ثمانية أشبار.

وسطحها من ألواح الحجارة، كأنها فرش واحد، فيه التصاوير البديعة والأصبغة الغريبة، كهيئة الطيور والآدميين، وغير ذلك فى داخلها وخارجها.

وعرض حائط البربا ثمانية عشر شبرا من حجارة مرصوصة... كذا قاسها ابن جبير فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة.

ويقال إن ذا النون عرف منها علم الكيمياء.

وما زالت هذه البربا قائمة إلى سنة ثمانين وسبعمائة، فخربها رجل من أهل إخميم،

يعرف بالخطيب كمال الدين بن بكر الخطيب علم الدين علي، ونال منها مالاً، فلم تطل حياته ومات. ومن حينئذ تلاشى أمر إخميم إلى أن خربت.

وقد ذكر جماعة أن بربا إخميم كانت فى هيئة غلام أمرد عريان، وأن قوما دخلوها مرة، فتبعهم وأخذ يضربهم ضرباً وجيعاً حتى خرجوا هاربين. وحكى مثل ذلك عمن دخل الأهرام أيضاً.

وقد حكى أن رجلاً ألصق على صورة من بربا اخميم شمعة، فكان إذا تركها فى موضع التجأت العقارب إليها، وإذا وضع الشمعة فى تابوت اجتمعت العقارب حوله.

ويقال إنه كان فى بربا إخميم شيطان قائم على رجل واحدة، وله يد واحدة وقد رفعها إلى الهواء، وفى جبهته وحواليه كتابه، وله إحليل ظاهر ملتصق بالحائط.

وكان يذكر أن من احتال حتى ينقب على ذلك الاحليل حتى يخرجه من غير أن ينكسر، ويعلقه على وسطه، فإنه لايزال منعظاً إلى أن ينزعه، ويجامع ما أحب ولا يفتر ما دام معلقاً عليه، وأن بعض من ولى إخميم اقتلعه فوجد منه شيئاً عجيباً من ذلك.

وكانت الانطاع تجلب من إخميم، وبها تعمل. ويقال إنه كان بها أثنا عشر ألف عريف على السحرة، وكان بها شجر البنج.

ويقال إن الذى بنى بربا إخميم اسمه دومرياً، وأنه جعل هذه البربا مثلاً للأمم الآتية بعده، وكتب فيها تواريخ الأمم والأجيال ومفاخرهم التى يفتخرون بها، وصور فيها الأنبياء والحكماء، وكتب فيها من يأتى من الملوك إلى آخر الدهر.

وكان بناؤه إياها والنسر برأس الحمل، والنسر يقيم عندهم فى كل برج ثلاثة آلاف سنة.

قلت : والنسر فى زماننا بآخر باب برج الجدي، فيكون على ذلك لهذه البربا منذ بنيت نحو الثلاثين ألف سنة.

وذكر أبو عبد الله محمد بن عبدالرحيم القيسي، فى كتاب تحفه الألباب، أن هذه البربا مربعة من حجارة منحوتة، ولها أربعة أبواب، يفضى كل باب إلى بيت له أربعة أبواب كلها مظلمة، ويصعد منها إلى بيوت كالغرف على قدرها.

ذكر مدينة العقاب

قال المسعودي: مدينة العقاب غربى أهرام أبو صير بالجيزة، على مسيرة خمسة أيام بلياليها للراكب المجد، وقد عور طريقها، وعمى المسلك إليها والسمت الذى يؤدى نحوها، وفيها عجائب البنيان والجواهر والأموال.

وقال ابن وصيف شاه: وكان الوليد بن دومع العمليقى قد خرج فى جيش كثيف يتنقل فى البلدان ويقهر ملوكها، فلما صار بالشام وجه غلاماً له يقال له عون، فسار إلى مصر وفتحها، ثم سار فتلقاه عون ودخل مصر فاستباح أهلها.

ثم سنح له أن يقف على مصب النيل، فخرج فى جيش كثيف، واستخلف عوناً على مصر، وأقام فى غيبته أربعين سنة.

وإن عونا، بعد سبع سنين من مسيره، تجبر وادعى أنه الملك، وأنكر أن يكون غلام الوليد وإنما هو أخوه، وغلب بالسحر، وسبى الحرائر، فمال الناس إليه، ولم يدع امرأة من بنات ملوك مصر إلا نكحها، ولا مالا إلا أخذه وقتل صاحبه. وهو مع ذلك يكرم الكهنة، ويعظم الهياكل.

فاتفق أنه رأى الوليد فى منامه وهو يقول له: من أمرك أن تتسمى باسم الملك، وقد علمت أنه من فعل ذلك استحق القتل؟ ونكحت بنات الملوك، وأخذت الأموال بغير واجب. ثم أمر بقدر ملئت زيتا، وأحميت حتى غلت، ونزع ثيابه ليلقيه فيها، فأتاه عقاب فاختطفه وحلق به فى الجو، وجعله فى هوة على رأس جبل، فسقط إلى واد فيه حمأة منتنة.

فانتبه مرعوباً، وقص ذلك على كهنته، فقالوا: نحن نخلصك منه بأن تعمل عقاباً وتعبده، فإنه الذى خلصك فى نومك.

فقال: أشهد لقد قال لي: أعرف لى هذا المقام ولا تنسه.

فعمل عقاباً من ذهب، وجعل عينيه جوهرتين، ووشحه بالجوهر، وعمل له هيكلاً

لطيفاً، وأرخى عليه ستور الحرير، وأقبلوا على تبخيرة وقربانه حتى نطق لهم، فأقبل عون على عبادته، ودعا الناس إلى ذلك فأجابوه.

ثم أمر فجمع له كل صانع بمصر، وأخرج أصحابه إلى صحراء الغرب لطلب أرض سهلة، حسنة الاستواء، يدخل إليها من مواضع صعبة وجبال وعرة، بحيث تقرب من مغيض الماء - التى هى اليوم الفيوم، وكانت مغيضاً لماء النيل حتى أصلحها يوسف عليه السلام - ليجرى الماء منها إلى المدينة.

فخرجوا، وأقاموا شهراً يطوفون حتى وجدوا بغيته، فلم يبق بمصر فاعل ولا مهندس، ولا أحد له بصر بالبناء وقطع الصخور ونحتها إلا وجه إليها، وأنفذ ألف رجل من الجيش وسبعمائة ساحر لمعاونتهم، وأنفذ معهم الآلات والأزواد على العجل... وطريق هذه العجل إلى الفيوم فى صحراء الغرب واضحة من خلف الأهرام.

فلما تكامل له ما أراد من نحت الحجارة خطوا المدينة فرسخين فى مثلهما، وحفروا فى الوسط بئراً جعلوا فيها تمثال خنزير من نحاس بأخلاط، ونصبوه على قاعدة نحاس ووجهه إلى الشرق، وذلك بطالع بيت زحل واستقامته وسلامته - وكان فى شرفه - وذبحوا خنزيراً، ولطخوا التمثال بدمه فى وجهه، وبخروه بشىء من شعره، وحشوا جوفه بدمه وشعره وعظامه ولحمه ومرارته، وجعلوا فى أذنيه من مراراته، وحرقوا بقية الخنزير، وجعلوا رماده فى قلة من نحاس بين يدى التمثال، ونقشوه بآيات زحل.

ثم شقوا فى البئر من الجهات الأربع، فى كل جهة سربا إلى حيطان المدينة، وعملوا على أفواهها منافس تجذب الهواء، وسدوا البئر، وعقدوا فيها قبة على عمد مرتفعة على حيطان المدينة، وجعلوا فيها شوارع يتصل كل شارع بباب من أبواب المدينة، وفصلوها بالطرقات والمنازل، وجعلوا حول القبة تماثيل فرسان من نحاس بأيديها حراب، ووجوها تجاه الأبواب.

وجعلوا أساس المدينة من حجر أسود، فوقه حجر أحمر، عليه حجر أصفر، من فوقه حجر أخضر، وفوق الجميع حجر أبيض يشف. وكلها مبنية بالرصاص المصبوب بين الحجارة، وفى قلوبها أعمدة من حديد على بناء الأهرام.

وجعلوا طول حصنها ستين ذراعاً فى عرض عشرين، وعلى رأس كل باب حصن بأعلاه عقاب كبير من صفر وأخلاط قد نشر جناحيه وهو أجوف، وعلى كل ركن فارس بيده حربه ووجهه إلى خارج المدينة.

وساق الماء إلى الباب الشرقي، ينحدر فى صبه إلى الباب الغربى ويخرج إلى صهاريج، وكذلك من الباب الجنوبى إلى الشمالي، وقرب للعقاب عقباناً ذكوراً، واجتلب الرياح إلى أفواه التماثيل، فصار يسمع لها أصوات هائلة، ووكل بها أرواحاً تمنع الداخل إليها إلا أن يكون من أهلها.

ونصب العقاب الذى يتعبد له تحت القبة فى وسط المدينة، على قاعدة بأربعة أركان على كل ركن وجه شيطان، وجعلها على عمود يديرها. فكان العقاب يدور إلى الجهات، فيقيم فى كل جهة ربع السنة.

فلما تم ذلك، نقل إلى المدينة الأموال والجواهر التى بمصر من عهد الملوك، والتماثيل والحكم وتراب الفضة والعقاقير والسلاح، وحول إليها كبار السحرة والكهنة وأصحاب الصنائع والتجار، وقسم المساكن بينهم، فلا يختلط أهل صناعة بسواهم.

وعمل بها ربضا لأصحاب المهن والزراعة، وعقد على تلك الأنهار قناطر يمشى عليها الداخل إلى المدينة، وجعل الماء يدور حول الربض، ونصب عليها أعلاماً وحرساً، ثم غرس وراء ذلك مما يتصل بالبرية النخل والكرم، وجمع أصناف الشجر على أقسام مقسومة، ومن وراء ذلك كله مزارع الغلات من كل جهة... كل ذلك خوفاً من الوليد.

قال : وبين هذه المدينة وبين منف ثلاثة أيام، وكان يقيم فيها ويخرج إليها، ثم يعود إلى منف، وكان لها أربعة أعياد فى السنة، وهى الأوقات التى يتحول العقاب فيها.

فلما تم العون ذلك، أطمأن قلبه... إلى أن وافى إليه كتاب الوليد من النوبة، يأمره بحمل الأزواد ونصب الأسواق. فوجه إليه فى البر والبحر بما أراد، وحول أهله ومن أصطفاه من بنات الملوك والكبراء إلى المدينة. فلما قرب الوليد، خرج إليها وتحصن فيها، واستخلف على منف.

فقدم الوليد، وقد سمع ما فعله عون، فغضب وهَّم أن يبعث إليه جيشاً، فعرف بخبر المدينة ومنعتها وخبر السحرة، فكتب إليه أن يقدم عليه، ويحذره عاقبة التخالف.

فأجابه: ما على الملك منى مئونة ولا تعرض، ولا عيب فى بلده لأنى عبده، وأنا له ردء فى هذا المكان من كل عدو يأتيه من الغرب، ولا أقدر على المسير إليه لخوفى منه، فليقرنى الملك بحالى كأحد عماله، وأوجه إليه ما يلزمنى من خراجه وهداياه.

ويعث إليه بأموال جليلة وجوهر نفيس... فكف عنه.

وأقام الوليد بمصر حتى مات.

ذكر مدينة الفيوم

أعلم أن موضع الفيوم كان مغيض ماء النيل. فلما ولى السيد يوسف الصديق عليه السلام تدبير أمور مصر، عمرها.

قال أبن وصيف شاه: ثم ملك الريان بن الوليد - وهو فرعون يوسف، والقبط تسميه نهراوش - فجلس على سرير الملك، وكان عظيم الخلق، جميل الوجه، عاقلاً متمكناً. فوعد بالجميل، وأسقط عن الناس خراج ثلاث سنين، وفرق المال فى الخاص والعام.

وملَّك على البلد رجلاً من أهل بيته يقال له أطفين، وهو الذى يسميه أهل الأثر العزيز، فأمر أن ينصب له فى قصر الملك سرير من فضة يجلس عليه، ويغدو فيه ويروح إلى باب الملك، ويخرج العمال والكتاب بين يديه. فكفى نهراوش ما خالف ستره، وقام بجميع أموره، وخلاه للذته.

فانغمس نهراوش فى لهوه، ولم ينظر فى عمل، ولا ظهر للناس حينا، والبلد عامر وهو لا يسأل عن شئ، وعمل له مجالس من زجاج ملون، وحولها ماء فيه أسماك مفرطة وبلور ملون، فكان إذا وقعت عليه الشمس ظهر له شعاع عجيب. وعملت له عدة متنزهات على عدد أيام السنة، فكان كل يوم فى موضع منها، وعمل له فى كل موضع من الآنية والفرش ما ليس لغيره.

فاتصل بملوك النواحى تشاغله بلذته وتدبير أطفين. فسار ملك من العماليق -يقال له أبو قابوس عاكر بن يتحوم- إلى مصر، ونزل على حدودها، فجهز إلى العزيز جيشاً عليه قائد يقال له بريانس، فأقام يحاربه ثلاث سنين، فظفر به العمليقى وقتله، وهدم الأعلام والمصانع، وقوى طمعه فى البلد.

فاجتمع الناس إلى قصر الملك واستغاثوا، فخرج إليهم، وعرض جيوشه، وخرج فى ستمائة ألف مقاتل سوى الأتباع، فالتقوا من وراء الحوف، وكان بينهما قتال شديد، فانهزم العمليقي، وتبعه نهراوش إلى حد الشام، وقتل خلقاً من أصحابه، وأفسد زروعهم وأشجارهم، وحرق وصلب، ونصب أعلاماً على الأماكن التى وصلها، وزبر عليها: «إنى لمن تجاوز هذا المكان بالمرصاد».

وقيل أنه بلغ الموصل، وضرب على أهل الشام خراجاً، وبنى عند العريش مدينة لطيفة وشحنها بالرجال.

ورجع إلى مصر، فحشد من جميع الأعمال جنوداً، واستعد لغزو ملك الغرب، وخرج فى سبعمائة ألف، فمر بأرض البربر، وأجلى كثيراً منهم، وجهز قائداً فى السفن من ناحية رقودة إلى جزائر بنى يافث، فعاث فيها، وخرج من ناحية أرض البربر، فقتل وصالح بعضهم على مال حملوه إليه.

ومضى إلى أفريقية وقرطاجنة، فصالحوه على مال، ومر حتى بلغ مصب البحر الأخضر إلى بحر الروم -وهو موضع أصنام النحاس- فأقام هناك صنماً زبر عليه اسمه وتاريخ خروجه، وضرب على أهل تلك النواحى الخراج.

وعدى إلى الأرض الكبيرة، وسار إلى الأندلس، فحاربه ملكها أياماً، ثم صالحه على مال، وأن يمنع من يغزو مصر من ناحيته.

وانصرف على غير البحر مشرقاً فى بلاد البربر، فلم يمر بأمة إلا ودخلت فى طاعته.

ومر فى الجنوب فقتل خلقاً، وبعث قائداً إلى مدينة على البحر الأسود، فخرج اليه ملكها، وذكر له حال الريان ومصالحة الملوك له، فقال: ما بلغنا أحد قط.

وسأله القائد عن البحر: هل ركبه أحد قط؟

فقال: ما يقدر أحد على ركوبه، وربما أظله غمام فلا يرى أياماً.

وقدم الريان، فحملوا الهدايا إليه، وفاكهة أكثرها الموز، وحجارة سوداء إذا جعلت فى الماء صارت بيضاء.

ثم سار الملك على أم السودان إلى مملكة الدمدم الذين يأكلون الناس، فخرجوا إليه عراة، فهزمهم وظفر بهم.

ومر على البحر المظلم، فغشيهم منه غمام، فترجَّع شمالاً حتى انتهى إلى تمثال من حجر أحمر يومئ بيده: ارجعوا، وعلى صدره مزبور «ما ورائى أحد».

فسار إلى مدينة النحاس فلم يصل إليها ومضى إلى الوادى المظلم، فكانوا يسمعون منه جلبة عظيمة، ولا يرون أحداً لشدة ظلمته.

وسار إلى وادى الرمل، فرأى على معبره أصناماً عليها أسماء الملوك، فأقام عليه صنماً زبر عليه اسمه، فلما أثبت الرمل جاز عليه إلى الخراب المتصل بالبحر الأسود، فرأى سباعاً يزأر بعضها على بعض، فحكم أنه لا مذهب له من ورائها.

فرجع وعدى وادى الرمل، ومر بأرض العقارب، فهلك بعض أصحابه، ودفعوا عن أنفسهم أذاها بالرقي، وجازها إلى مدينة الحكماء - وتعرف بمدينة الكند - ففروا منه إلى جبل، فأقام عليه أياماً حتى كاد يهلك جيشه عطشا.

فنزل إليه من الجبل رجل من أفاضل الحكماء، وقد لبس شعره جسده، فقال للملك: أين تريد أيها المغرور، الممدود له فى الأجل، المرزوق فوق الكفاية؟ أتعبت نفسك وجيشك، ألا اجتزأت بما تملكه، واتكلت على خالقك، وربحت الراحة، وتركت العناء والغرر بهذا الخلق؟

فعجب من قوله، وسأله عن الماء فدله عليه.

وسأله عن موضعهم، فقال: موضع لا يصل إليه أحد، ولا بلغه قبلك أحد.

فقال : ما عيشك ؟

قال : من أصول النبات نقنع به ، ويكفينا اليسير.

قال : فمن أين تشربون؟

قال : من الأمطار والثلوج.

قال : فلم هربتم منا ؟

قال : زهادة فى مخالطتكم ، وإلا فليس لنا ما نخافكم عليه.

قال : فكيف بكم إذا حميت الشمس ؟

قال : نأوى إلى غيران تحت هذا الجبل.

قال : فهل لكم فى مال أخلفه لكم ؟

قال : إنما يريد المال أهل الترف ، ونحن لا نستعمل منه شيئاً، استغنيا عنه بما قد اكتفينا به ، وعندنا منه ما لو رأيته لاحتقرت ما عندك.

قال : فأرنيه.

فانطلق بنفر من أصحابه إلى أرض فى سفح جبلهم فيها قضبان ذهب نابتة ، وأراهم وادياً لهم فى حافتيه حجارة زبرجد وفيروز.

فأمر نهراوش أصحابه أن يحملوا من كبار تلك الحجارة ، ففعلوا.

ورأى الحكيم جماعة الملك يصلون إلى صنم يحملونه معهم ، فسأل الملك ألا يقيم بأرضهم ، وخوفه من عبادة الأصنام.

فودعه وسار ، فلم يمر بأمة إلا أثر فيها ، حتى بلغ النوبة فصالحهم على مال ، وأقام على دنقلة صنماً وزبر عليه اسمه ومسيره.

وسار يريد مدينة منف ، فكان أهل كل مدينة من مدائن مصر يتلقونه بالفرج والسرور والرياحين والطيب إلى أن بلغ منف ، فخرج أهلها اليه مع العزيز بأصناف الرياحين والطيب.

وكان العزيز قد بنى له مجلساً من زجاج ملون، وفرشه بأحسن فرش، وغرس حوله الأشجار والرياحين، وجعل فيه بحيرة من زجاج سماوي، وفى أرضه شبه السمك من زجاج أبيض، فنزل الملك فيه، وأقام الناس يأكلون ويشربون أياماً كثيرة.

وتفقد جيشه، ففقد منهم سبعين ألف، ووجد فيهم ممن أسره نيفا وخمسين ألفاً.

فكانت مدة غيبته عن مصر، فى مسيره هذا، إحدى عشرة سنة.

فلما بلغ الملوك قدومه هابوه، واشتد بأسه وتجبر، وبنى فى الجانب الشرقى قصوراً من رخام، ونصب عليها أعلاماً، وأمر بالعمارة وإصلاح الجسور واستنباط الأراضي، حتى زاد الخراج على مائة ألف ألف دينار.

ودخل إلى البلد فى أيامه غلام من أهل الشام احتال عليه إخوته وباعوه - وكانت قوافل الشام تعرس بناحية الموقف اليوم - فوقف الغلام ونودى عليه، وهو يوسف الصديق ابن يعقوب بن ابراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم وسلامه، فاشتراه أطفين ليهديه إلى الملك.

فلما أتى به قصره رأته امرأته زليخا، وهى ابنه عمه، فقالت: أتركه لنا نربيه لينفعنا. وكان من أمرها ما قصة اللّه تعالى فى القرآن.

فكانت تكتم حبه حتى غلبت، فخلت به وتزينت له، وعرفته أنها تحبه، وأنه إن واتاها على ما تريده منه حبته بمال عظيم.. فامتنع من ذلك.

ورأت أن تغلبه، فما زالت تعاركه، وهو ممتنع منها، إلى أن وافى زوجها، ورآه وهو هارب منها - وكان العزيز عنينا لا يأتى النساء - فجعل يوسف يعتذر إليه، وقالت: إنى كنت نائمة، فأتانى يراودنى عن نفسي.

وتبين من شاهد أهلها أن الأمر من قبل امرأته، فقال ليوسف: أعرض عن هذا (أى عن اعتذارك)، وقال لها: استغفرى لذنبك.

وقد كان خبر أطفين والغلام بلغ الملك، وكان نهراوش عاود العكوف على اللهو والاحتجاب عن الناس.

واتصل خبر زليخا ويوسف بنساء الخاصة، فعيرنها بذلك، فدعت جماعة منهن، وصنعت لهن طعاماً وشرابا، وعملت مجلسين مذهبين، وفرشتهما بديباج أصفر مذهب، وأرخت عليهما ستور الديباج، وأمرت المواشط بتزيين يوسف وإخراجه من المجلس الذى يحاذى المجلس الذى كانت مع النسوة فيه، وكان المجلس محاذياً للشمس.

فأخذته المواشط، ونظمن شعره بأصناف الجواهر، وألبسنه ثوب ديباج أصفر، قد نسج بدارات حمر مذهبة فيها أطيار صغار خضر، مبطن ببطانة خضراء، ومن تحته غلالة حمراء، وعلى رأسه تاج قد نظم بالدر والجوهر، وأخرجن من تحت التاج أطراف شعره على جبهته، ورددن ذوائبه على صدره، وجعلن جبهته مكشوفة والتاج محيط بها، وفى أذنيه قرطى جوهر، ومن خلف طوق القباء شعر مسبل بين كتفيه، منظوم مشبك بالذهب والجوهر، وفى عنقه طوق منظوم بذهب، مشدد بجوهر أحمر ودر فاخر، وفى وسطه منطقة ذهب، فيها لوالب جوهر ملون، ولها معاليق منظومة، وألبسنه خفين أبيضين منقوشين بأخضر على نقوش ذهب، وجعلن للقباء الذى عليه وشاحين وافراوز يحيط بأسفله، وكميه من جوهر أخضر، وعقربن صدغيه على خديه، كحلن عينيه، ودفعن اليه مذبة شعرها أخضر.

فلما فرغ النساء من طعامهن، وشربن أقداحاً، قدمت إليهن سكاكين قبضهن من جوهر ليقطعن بها الفاكهة.

فيقال أنهن أخذن أترجا وهن يقطعنه، إذ قالت لهن: قد بلغنى حديثكن فى أمرى مع عبدي.

فقلن لها: الأمر كما بلغك، لأنك أعلى قدراً من هذا، ومثلك يرتفع عن أولاد الملوك لحسنك وشرفك، فكيف ترضين بغلامك؟

فقالت: لم يبغلكن الصدق، ولا هو عندى بهذا.

وأومات إلى المواشط أن يخرجن يوسف، فرفعن الستور عن المجلس الذى يحاذى مجلسها، وبرز منه يوسف محاذياً بوجهه الشمس، فأشرق المجلس وما فيه من وجه يوسف، وأقبل بالمذبة - وهن يرمقنه - فوقف على رأس زليخا يذب عنها.

فاشتغل النساء برؤيته، وجعلن يقطعن أيديهن موضع الفاكهة التى كانت معهن،

ولا يعين الكلام ذهولاً منهن بما رأين من حسن يوسف.

فقالت لهن زليخا : ما لكن قد اشتغلتن عن خطابى بالنظر إلى عبدي؟

فقلن : معاذ الله! ما هذا عبدك، إن هذا إلا ملك كريم!

ولم يبق منهن امرأة إلا حاضت، وأنزلت شهوة من محبته.

فقالت زليخا عند ذلك : فهذا الذى لمتننى فيه.

فقلن : ما ينبغى لأحد أن يلومك فى هذا، ومن لامك فقد ظلمك، فدونكه.

قالت : قد فعلت فأبى علي، فخاطبه لي.

فكانت كل واحدة منهن تخاطبه، وتدعوه سراً إلى نفسها، وتبتذل له وهو يمتنع عليها، فإذا يئست منه أن يجيبها لنفسها، خاطبته من جهة زليخا، وقالت : مولاتك وأنت تكرهها، ما ينبغى أن تخالفها.

فقال : ما لى بذلك حاجة.

فلما رأين ذلك أجمعن على أخذه غصبا.

فقالت زليخا : لا يجوز هذا، لكنه إن لم يفعل لأمنعنه اللذات، ولأسجننه، وانتزع جميع ما أعطيته.

فقال يوسف : ﴿ رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ﴾(*) .

فأقسمت بإلهها - وكان صنماً من زبرجد أخضر باسم عطارد - أنه إن لم يفعل لتعجلن له ذلك.

ثم أمرت بنزع ثيابه، وألبسته الصوف، وسألت العزيز حبسه ليزول ما قذفها به، فأمر به فحبس.

ورأى الملك فى منامه كأن آتياً أتاه فقال له أن فلاناً وفلاناً قد عزما على قتلك (يريد صاحبى طعامه وشرابه) فلما أصبح قررهما، فاعترفا له، وقيل اعترف أحدهما وأنكر

(*) ٣٣ يوسف ك ١٢ .

الآخر، فأمر بحبسهما. وكان اسم صاحب الطعام «راسان»، واسم صاحب الشراب «مرطس».

وكان يوسف عليه السلام، وهو فى السجن، رءوفاً بمن فيه ويعدهم الفرج. فأخبره صاحباً طعام الملك وشرابه برؤياهما التى قصها الله فى كتابه، فوقع كما قصه يوسف.

ورأى الملك البقرات والسنابل، فعرفه الساقى خبر يوسف، فمضى إليه وقصها عليه.

فلما عاد إلى الملك، قال : جيئونى به.

فقال يوسف : ما أخرج، أو يكشف أمر النسوة اللاتى من أجلهن حبست.

فكشف عن ذلك، فاعترفت زليخا بالقصة.

ووجه إليه فأخرج وغسل من درن السجن، وألبس ما يليق بالدخول على الملوك.

فلما رآه امتلأ قلبه من حبه وإكباره، وسأله عن الرؤيا، ففسرها كما قال الله تعالى.

فقال الملك : ومن يقوم لى بذلك؟

قال : أنا.

فخلع عليه خلع الملوك، وألبسه تاجاً، وأمر أن يطاف به، وركب الجيش معه، وتردد إلى قصر الملك، وجلس على سرير العزيز، واستخلفه الملك على ملكه مكانه.

ويقال إن العزيز أطفين كان قد مات، فزوجه امرأته.

وقال لها يوسف : هذا أصلح مما أردت.

فقالت : أعذرنى إن زوجى كان عنيناً، ولم ترك امرأة إلا صبا قلبها إليك من حسنك.

وجاءت سنو خصب فى مصر، فجمع يوسف الغلال وخزنها وأكثر منها. فلما جاءت سنو الجدب بدأ النيل فى النقصان، وكان ينقص كل سنة أكثر من التى قبلها، فقحط البلد حتى بيع القمح بالمال والجوهر والدواب والثياب والآنية والعقار، وكاد أهل مصر يرحلون عنها لولا تدبير يوسف.

وقحط الشام أيضاً، وكان من مجيء إخوة يوسف ما قصه الله تعالي، ووجه إلى أبيه فحمل إلى مصر وجميع أهله، وخرج فى وجوه أهل مصر فتلقاه وأدخله على الملك.

وكان يعقوب مهاباً، فأعظمه الملك، وسأله عن سنه وصناعته وعبادته.

فقال : سنى عشرون ومائة سنة، وأما صناعتى فلنا غنم ترعى ننتفع بها، وأعبد رب العالمين الذى خلقك وخلقني، وهو إله آبائى وإلهك وإله كل شيء.

وكان فى مجلس الملك كاهن جليل القدر، فقال للملك: إنى أخاف أن يكون خراب مصر على يد ولد هذا.

فقال له الملك : فأنى لنا خبره.

فقال الكاهن ليعقوب : أرنى إلهك أيها الشيخ.

قال : إلهى أعظم من أن يري.

قال : فإنا نرى آلهتنا.

قال : إن آلهتكم من ذهب وفضة وحجارة وجوهر ونحاس وخشب مما يعمله بنو آدم، وهم عبيد إلهي، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

قال الكاهن: إن كل شيء لا تراه العيون ليس بشيء.

فغضب يعقوب وكذبه، وقال : إن الله شيء لا كالأشياء، وهو خالق كل شيء.. لا إله إلا هو.

قال : فصفه لنا.

قال : إنما يوصف المخلوق، لكنه خالق واحد قديم مدبر أزلي، يرى ولا يري.

وقام يعقوب مغضباً، فأجلسه الملك، وأمر الكاهن فكف عنه.

فقال الكاهن: إنا نجد فى كتبنا أن خراب مصر يجرى على أيدى هؤلاء.

فقال الملك : هذا يكون فى أيامنا ؟

قال : لا ، ولا إلى مدة كثيرة ، والصواب أن يقتله الملك ولا يبقى من ذريته أحداً.

فقال الملك : إن كان الأمر كما تقول فلا يمكننا أن ندفعه ، ولا نقدر على قتل هؤلاء.

وأنزل يعقوب ومن معه بوادى السدين إلى أن مات ، فحمل إلى قرية إبراهيم عليه السلام ودفن عنده.

ويقال إن نهراوش الملك آمن ، وكتم إيمانه خوفاً من فساد أمره.

وأقام ملكاً مائة وعشرين سنة.

وفى وقته عمل يوسف الفيوم ، فإن أهل مصر كانوا وشوا به إلى الملك ، وقالوا : قد كبر ونقص نفعه ، فاختبره.

فقال له : إنى وهبت هذه الناحية لابنتى - وكانت مغايض للماء - فدبرها لها.

فعملها يوسف ، واحتال للمياه حتى أخرجها وقلع أوحالها ، وساق المنهى وبنى اللاهون ، وجعل الماء فيها مقسوماً موزوناً ، وفرغ منها فى شهور أربعة... فعجبوا من حكمته.

ويقال إنه أول من هندس بمصر.

ومات نهراوش ، فخلف ابنه ذرمجوش ، وسمته أهل الأثر دارم بن الريان ، وهو الفرعون الرابع عندهم ، فخالف سنة أبيه. وكان يوسف خليفته ، فقبل منه بعضاً ، وخالفه فى البعض.

فمات يوسف فى أيامه وله مائة وعشرون سنة ، فكفن وجعل فى تابوت من رخام ، ودفن فى الجانب الغربى فأخصب ونقص الشرقي ، فحول إليه فأخصب ونقص الغربي ، فاتفقوا على أن يجعلوه فى الشرقى عاماً وفى الغربى عاماً ، ثم حدث لهم من الرأى أن يجعلوا له حلقاً وثاقاً ويشدوا التابوت فى وسط النيل ، فأخصب الجانبان كلاهما.

وقال ابن عبدالحكم : فملكهم الريان بن الوليد بن دومع ، وهو صاحب يوسف النبى عليه السلام ، فلما رأى الملك رؤياه التى رأى وعبراه يوسف ، وأرسل إليه الملك فأخرجه من السجن.

قال ابن عباس رضى الله عنهما : فأتاه الرسول فقال : ألق عنك ثياب السجن ، والبس ثياباً جدداً ، وقم إلى الملك. فدعا له أهل السجن ، وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة.

فلما أتاه ، رأى غلاماً حدثاً فقال : أيعلم هذا رؤياى ولا تعلمها السحرة والكهنة؟

وأقعده قدامه وقال له : لا تخف.

قال : فلما استنطقه وسأله ، عظم فى عينيه ، وجعل إليه أمره ، فدفع إليه خاتمه ، وولاه ما خلف بابه ، وألبسه طوقاً من ذهب وثياب حرير ، وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك ، وضرب بالطبل بمصر أن يوسف خليفة الملك.

وعن عكرمة أن فرعون قال ليوسف : قد سلطتك على مصر ، غير أنى أريد أن أجعل كرسى أطول من كرسيك بأربع أصابع.

قال يوسف : نعم.

وأجلسه على السرير ، ودخل الملك بيته مع نسائه ، وفوض أمر مصر كلها إليه... فبسبب عبارة رؤيا الملك ، ملك يوسف مصر.

وعن الليث بن سعد قال : حدثنى مشيخة لنا ، قالوا : اشتد الجوع على أهل مصر ، فاشتروا الطعام بالذهب حتى لم يجدوا ذهباً ، فاشتروا بالفضة حتى لم يجدوا فضة ، فاشتروا بأغنامهم حتى لم يجدوا غنما. فلم يزل يبيعهم الطعام حتى لم يبق لهم فضة ولا ذهب ولا شاة ولا بقرة فى تلك السنين.

فأتوه فى الثالثة فقالوا : لم يبق لنا إلا أنفسنا وأهلونا وأرضونا. فاشترى يوسف أرضهم كلها لفرعون ، ثم أعطاهم يوسف طعاماً يزرعونه على أن لفرعون الخمس.

ويقال فى خبر بناء يوسف عليه السلام مدينة الفيوم : أنه لما وزر لفرعون ثلاثين سنة عزله ، فقال : لم عزلتني؟

قال : لم أعزلك لريبه ، ولا أنسى بركتك ، ولكن آبائى عهدوا إلى ألا يتولى لنا وزير أكثر من ثلاثين سنة ، وأنا نخشى أن يتأصل الوزير حتى يدبر على الملك.

فقال له يوسف: قد علمت نصحي لك حتى صيرت ديار مصر كلها ملكاً لك، فأقطعنى أرضاً تكون لقوتى وقوت أهلى وعشيرتي.

فقال له فرعون: أختر حيث شئت.

فمشى يوسف فى قفار الأرض، حتى رأى أرض الفيوم وفيها جبل حائل بين النيل وبينها، فوزن ماء النيل حتى رأى أن قاعها يركبه النيل، فخرق خرقاً فى ذلك الجبل، وساق الماء فيه إلى الفيوم فسقى الأرض.

وعمل فى جوانب الماء ثلاثمائة وستين قرية على عدد أيام السنة، وشحنها بالغلال والأقوات التى ازدرعها، فكان إذا نقص النيل ووقع الجوع بأرض مصر، باع كل يوم ما جمعه فى قرية من قرى الفيوم، حتى ملك مصر لنفسه كما جمها للملك.

فعظم شأن يوسف وكثر ماله، فرده الملك بعد مدة إلى وزارته. وتوفى وهو وزير، فأوصى بخروج جثته إلى الأرض المقدسة.

فخرج بها هارون بن افراييم بن يوسف فى مائة ألف من بنى إسرائيل، فهزمته الجبابرة فيما بين مصر والشام، وهلك أكثر من معه، وعاد بمن بقى معه إلى مصر، فأقاموا بها حتى بعث الله موسى بن عمران عليه السلام إلى فرعون رسولاً، فخرج ببنى إسرائيل من مصر ومعه جثة يوسف عليه السلام.

وفى ذلك الزمان استنبطت الفيوم. وقيل كان سبب ذلك أن يوسف عليه السلام لما ملك مصر، وعظمت منزلته من فرعون، وجاوز سنة مائة سنة، قال وزراء الملك له: أن يوسف قل علمه، وتغير عقله، ونفدت حكمته.

فعنفهم فرعون، ورد عليهم مقالتهم، وأساء اللفظ لهم، فكفوا.

ثم عاودوه بذلك القول بعد سنين، فقال لهم: هلموا ما شئتم، من أى شئ أختبره.

وكان بلد الفيوم يومئذ يدعى الجوبة، وإنما كانت لمصالة ماء الصعيد وفضوله، فاجتمع رأيهم على أن تكون هى المحنة التى يمتحنون بها يوسف، فقالوا لفرعون: سل يوسف أن يصرف ماء الجوبة عنها ويخرجه منها، فتزداد بلداً إلى بلدك، وخراجاً إلى خراجك.

فدعا يوسف فقال: تعلم مكان ابنتى فلانة مني، وقد رأيت إذا بلغت أن أطلب لها بلداً، وإنى لم أصب لها إلا الجوبة. وذلك أنه بلد بعيد قريب، لا يرى بوجه من الوجوه إلا من غابة أو صحراء، وكذلك ليست هى تؤتى من ناحية من النواحى من مصر إلا من مفازة وصحراء، فالفيوم وسط مصر كمثل مصر فى وسط البلاد، لأن مصر لا تؤتى من ناحية من النواحى إلا من صحراء أو مفازة. قال: وقد أقطعتها أياها، فلا تتركن وجهاً ولا نظراً إلا بلغته.

فقال يوسف: نعم أيها الملك، متى أردت ذلك فابعث إلي، فإنى إن شاء الله فاعل ذلك.

قال: إن أحبه إليّ وأرفعه أعجله.

فأوحى إلى يوسف أن تحفر ثلاثة خلج: خليجاً من أعلى الصعيد من موضع كذا إلى موضع كذا، وخليجاً شرقياً من موضع كذا إلى موضع كذا، وخليجاً غربياً من موضع كذا إلى موضع كذا.

فوضع يوسف العمال، فحفر خليج المنهى من أعلى أشمون إلى اللاهون، وأمر البنائين أن يحفروا اللاهون، وحفر خليج الفيوم وهو الخليج الشرقي، وحفر خليجاً بقرية يقال لها بنهمت من قرى الفيوم وهو الخليج الغربي.

فخرج ماؤها من الخليج الشرقى فصب فى النيل، وخرج من الخليج الغربى فصب فى صحراء بنهمت إلى الغرب، فلم يبق فى الجوبة ماء.

ثم أدخلها الفعلة، فقطع ما كان فيها من القصب والطرفاء، وأخرجه منها.

وكان ذلك ابتداء جرى النيل، وقد صارت أرض الجوبة نقية برية، وارتفع ماء النيل فدخل فى رأس المنهي، فجرى فيه حتى انتهى إلى اللاهون، فقطعه إلى الفيوم فدخل خليجها فسقاها، فصارت لجة من النيل.

وخرج إليه الملك ووزراؤه. وكان هذا كله فى سبعين يوماً. فلما نظر إليها الملك قال لوزرائه أولئك: هذا عمل ألف يوم... فسميت الفيوم، وأقاموا تزرع كما تزرع غوائط مصر.